باشراف

ريمون كيفوركيان، ليفون نورديكيان، فاهـه طاشجيان

الأرمن

١٩١٧-١٩٣٩

البحث عن ملجأ



تخص الهيئة الوطنية الأرمنية في الشرق الأوسط بالشكر
السيدين سركيس آرام جاباقجوريان
وليفون وآرتيور ناظاريان
لمساهمتهما في طبع هذا الكتاب باللغة العربية واتمام صدوره على هذه الصورة ووضعه بين يدي القارىء العربي الكريم.

الطبعة الأولى ٢٠١٠
الترقيم الدولي:٦-٣١-١٥-٠-٩٩٥٣-٩٧٨
حقوق الطبع محفوظة لمنشورات جامعة القديس يوسف، ٢٠٠٦
تصميم الخطوط : آلارم ش.م.م.
فرز الألوان: ليوغرافور ش.م.م.
الطبع: دوتس
الطبعة العربية: مطبعة هامسكايين

بإشراف
ريمون كيفوركيان، ليفون نورديكيان، فاهـه طاشجيان

الأرمن
١٩١٧- ١٩٣٩

البحث عن ملجأ



ترجمة جوزف كالوستيان

PUSJ
منشورات جامعة القديس يوسف

المحتويات

سياق تاريخي وتحركات سكانية

الخطوات الأولى في إعادة بناء العالم الأرمني

اللاجئون في حياتهم اليومية

شارك في تصميم المعرض وانتاجه جامعة القديس يوسف، قسم التاريخ والمكتبة الشرقية (بيروت)
ومكتبة نوبار التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية (باريس)

أقيم المعرض في سرداب كنيسة القديس يوسف، ببيروت ابتداء من
يوم الجمعة ٥ أيار حتى يوم السبت ١٧ أيار ٢٠٠٧
وفي « مدينة تاريخ الهجرة » ، بباريس خلال موسم ربيع – صيف ٢٠٠٧ .

منظمو المعرض

ريمون كيفوركيان (مكتبة نوبار) ، ليفون نورديكيان (جامعة
القديس يوسف) وفاهه طاشجيان (مكتبة نوبار).

ابرز المصادر الفوتوغرافية المستخدمة

المكتبة الشرقية – جامعة القديس يوسف
مكتبة نوبار – الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية
ميشال بابودجيان (باريس)
فاروجان صالاطيان (دمشق)

شكر وتقدير

لجامعة القديس يوسف: الأستاذ رينه شاموسي، رئيس الجامعة لدعمه هذا المشروع؛ الأستاذ سليم عبو، الرئيس السابق للجامعة لمباشرته بالمشروع؛ جرجوه حردان، عميد كلية الآداب والعلوم الأنسانية؛ وميشلين بيطار الأمينة العامة للكلية؛ كريستين بابيكيان عساف، رئيسة قسم التاريخ؛ مي سينيوري ، مديرة المكتبة الشرقية؛ الأب شارل ليبوا أمين محفوظات الرهبانية اليسوعية في بيروت؛ الأب لويس بواسه المنتمي الى جامعة القديس غريغوار.

للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية : برج ستراكيان، رئيس الجمعية لدعمه المستمر للمشروع؛ سركيس دميردجيان، عضو المجلس المركزي؛ واواديس دميردجيان، رئيس مجلس لبنان الأقليمي، وذلك لايلاء المشروع دعمهما المطلق؛ دوني كه تشدجيان، رئيس مجلس فرنسا الأقليمي؛ ميشال صباغ، أمين صندوق مجلس فرنسا الأقليمي .

لأريك فان لوه لتأمينه رسم خرائط المعرض والكتاب؛ الدائرة التاريخية للقوات البرية (فانسين)؛ مركز المحفوظات الدبلوماسية في نانت؛ محفوظات كاثوليكوسية كيليكيا (انطلياس)؛ حضرة الأب روبير بونفيس، القيم على محفوظات الرهبانية اليسوعية في فانف؛ مهران ميناسيان (حلب)؛ فارتكس يغيايان (لوس انجلوس)؛ فاسكين بيكره دجيان (بيروت)؛ خاجاك خيد شيان (بيروت)؛ نورا طاشجيان (بيروت)؛ آل يوتنغبريان/ ليبدجيان؛ بسام قهوجي وفريق « آلارم ديزاين» لقيامهم بالاخراج وتزيين المعرض .

أما الفيلم الذي جرى عرضه خلال المعرض فكان من اخراج مانويل طولادجيان ومؤازرة المحفوظات السينمائية التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية.

وقد أفاد المعرض من الدعم الذي وفرته مؤسسة خاتشيك بابيكيان والأخوة ترزيان .

مقدمة

خبر الأرمن، على مدى تاريخهم الطويل، الهجرة الطوعية، شأنهم في ذلك شأن شعوب أخرى انتشرت في المنطقة. ففي عام ١٩١٤، أمكن إحصاء عشرات الجاليات الأرمنية في انكلترا، وفرنسا، وروسيا، وجاوى، وبلاد فارس، ومصر وفي أماكن أخرى. وباستثناء الولايات المتحدة الاميركية التي اختارها ما يقارب الـ ١٠٠٠٠٠ أرمني مسكناً لهم، بتشجيع من المبشرين الأميركيين، تحدوهم على ذلك حوافز سياسية واقتصادية، فإن الأمر، وسط الجاليات الأخرى، كان يتصل عموماً بجماعة محدودة من الحرفيين والتجار والطلبة. صحيح أن مجازر الأرمن إبان العهد الحميدي (١٨٩٤-١٨٩٦) ومجازر أضنه (١٩٠٩) كانت قد حثت البعض على أن ييمّم شطر لبنان وبلغاريا والولايات المتحدة، غير أن تلك الهجرات، وهي إجمالاً عرضية، لا سبيل إلى مقارنتها بترحيل الأرمن الكثيف عقب الإبادة الجماعية المرتكبة عام ١٩١٥ وبتهجير الناجين القسري. قبل ١٩١٥، «ظهرت القسطنطينية أو «بوليص»، «المدينة» (٢٠٠٠٠٠ أرمني مع منطقتها؟)، وتفليس (قرابة ١٠٠٠٠٠ أرمني) وباكو (٦٧٠٠٠ أرمني) بمؤسساتها وكنائسها ومدارسها ومطابعها وصحفها وجمعياتها، ظهرت بمظهر عواصم اقتصادية، وثقافية وسياسية أرمنية[1]، أكثر بكثير من يريفان (٣٠٠٠٠ نسمة ثلثهم من التتريين) أو فان (٢٧٠٠٠ أرمني من أصل ٤١٠٠٠ نسمة)». ثم بعد ١٩١٥، أُخليت آسيا الصغرى من سكانها الأرمن.

إن عمليات التكيّف مع المجتمع المضيف والاندماج في بنيتَيه السياسية والاقتصادية، والمشاركة في ثقافته، لا تؤدي وظيفتها بالطريقة نفسها في حال كل من الهجرة الطوعية والهجرة القسرية. فما يميّز اللاجئين هو مبدئياً قابليتهم الدنيا لتمثل الحداد الذي سببه انتزاعهم من بلدهم. إن مفهوم الحداد المقتبس من التحليل النفسي يصلح خصوصاً للإشارة إلى حال البؤس التي تهيمن على المهاجر خلال السنوات الأولى لإقامته في أرض غريبة. «من المسلّم به أن الشروط التي تتحقق فيها الهجرة تحدد أنماط القلق المعبأة بشكل طاغ، كما تحدد قوة الدفاعات التي يناهض بعضها بعضاً وإمكانيات تمثلها. وثمة فارق نوعي بين الحداد الذي يجب تمثله إزاء ضياع وطن، وهو ضياع ناجم عن حالات اضطهاد يرافقها تفاقم عوارض القلق الذهاني الهذياني المتأتية عنه، وبين أنواع الحداد ذات الصلة بهجر المرء بلده بملء ارادته، حيث من الممكن أن يسود الشعور بالذنب وأحاسيس القلق الاكتئابي»[2].

ورغم تكيّف الأرمن السريع مع موطنهم الجديد، فإنهم لم يفكروا، مع ذلك، في الاندماج في المجتمع الذي استضافهم ولا في المشاركة في ثقافته. ومرد ذلك أنهم كانوا مسكونين بأمل العودة إلى وطنهم الأصلي. وبدا، في نظرهم، أن استقرارهم في

-هد ترمينسيان، «أحداث تاريخية مقطعة»، باريس، منشورات بارنتاز ١٩٩٥، ص ٢٣.

-ن وريك غرينبرك، «التحليل النفسي للمهجر والمنفى»، قامت بترجمته من الإسبانية ميراي نداي با بمعاونة ايفيت ..كوجه غران، ليون، سيزورا، طبعة ١٩٩٠، ص ٤٣.

لبنان سوريا أو في مصر ليس استقراراً لا رجوع عنه، وإنما هو مرحلة انتقالية. في بادىء الأمر، ما كانت العودة مجرّد فكرة، بل كادت تتحقق مرتين. أولاً عندما تم، بتشجيع من الفرنسيين، إعادة ١٥٠٠٠٠ لاجىء أرمني قدموا من مخيمات بيروت، وحلب وبور سعيد، إلى ديارهم في كيليكيا التي كان قد قُيّض لها مبدئياً أن تصبح مقاطعة أرمنية ذات استقلال ذاتي خاضع للانتداب الفرنسي. غير أن هذا الأمل تكشّف عن سراب، إذ تنازلت فرنسا، بموجب معاهدة لوزان (٢٤ تموز ١٩٢٣) التي ألغت معاهدة سيفر، عن كيليكيا لتركيا. وراح نصف الأرمن، منذ ١٩٢٢، يسلكون مجدداً طريق المنفى باتجاه لبنان وسوريا خشية تجدد الأعمال الانتقامية. وعجل تشتت الآخرين توقيع معاهدة لوزان. أما المحاولة الثانية فتتعلق بسنجق الاسكندرون، الذي كانت فرنسا تود ضمه إلى سوريا المستقلة؛ ولكن في أعقاب مفاوضات صعبة جرت عام ١٩٣٩، ردت السنجق إلى تركيا، وبذلك باتت فرنسا السبب في رحيل الأرمن الجماعي الأخير، فانسحبوا إلى سوريا ما عدا أرمن جبل موسى الذين أجلاهم العسكريون الفرنسيون وحطوا بهم الرحال في عنجر في لبنان.

مخافة أن يفقد الأرمن في لبنان وسوريا هويتهم الذاتية، لم يشاؤوا الذوبان في جموع السكان، حتى وإن ظنوا أن إسكانهم في أرض غريبة أمر لا رجوع عنه وحصلوا على جنسية البلد الذي استضافهم. وفي ١٩٢٦، كتب أحد مبعوثي مكتب العمل الدولي في تقرير موجّه إلى عصبة الأمم: «إن الأرمن، ما داموا لم يبلغوا درجة من الغنى، يريدون أن يتجمعوا مع أناس ينتمون إلى العرق ذاته؛ فهم يجدون في هذا التجمع نوعاً من الأمان، وهذا الشعور يمكن تفسيره لدى السكان الذين عاشوا دائماً في أوساط ناصبتهم العداء.»[٣] وفي ١٩٢٩، كتب ضابط من شعبة المخابرات: «لقد دار النقاش طويلاً بقصد معرفة ما إذا كان من الملائم تجميع الأرمن، أو من الأفضل بعثرتهم إلى أقصى حد، بحيث يتم دمجهم في صلب الجماعة اللبنانية، وقد دلت التجارب على أن الأرمن ظهروا بمظهر العصاة على كل محاولة لدمجهم، و ظلوا على العكس متمسكين بالتجمع في ما بينهم، وبالحفاظ على لغتهم وعاداتهم وطبعهم، لذا بدا من الأفضل أن يجمعوا في أحياء قائمة بمعظمها في منطقة النهر (نهر بيروت)، حيث تعتبر الأراضي زهيدة الثمن نسبياً.»[٤] وبعد الحرب العالمية الثانية، أدرك الأرمن بوضوح أن العيش في الشتات أمر محتم عليهم. واعتقدوا «متعللين بتجربة الشعب اليهودي الدهرية، أن بإمكان عالم الشتات أن يحفظ الهوية الذاتية وثقافة الأرمن الغربيين.»[٥] إن أرمينيا، السوفياتية ثم المستقلة، ستبقى على غرار دولة اسرائيل بالنسبة إلى اليهود، مرجعاً أساسياً في مخيلة

٣ تقرير أعدّه السيد كارل، مندوب «مكتب العمل الدولي» حول وضع الأرمن في سوريا، ١٩٥٢.

٤ «مذكّرة بشأن الأرمن»، من إعداد قائد الكتيبة دوماند، بيروت، تشرين الاول ١٩٢٩.

٥ ترميناسيان، «أحداث تاريخية متقاطعة»، م.س.، ص ٢٧.

اللاجئين الجماعية. فهم ما انفكوا يحرصون على بقاء اللغة والثقافة الأرمنيتين، انطلاقاً من أحزابهم السياسية وكنائسهم وجمعياتهم ومؤسساتهم المدرسية والجامعية. وبالنسبة إلى المدارس، أعلن الكاثوليكوس فاسكين الأول قائلاً: «تضطلع المؤسسات التعليمية بدور رباني في الحفاظ على «أرمنية « أولئك الذين يعيشون بعيداً عن وطنهم الأم. إنها تعرّف الأجيال الطالعة المنتشرة في عالم الشتات بثقافتنا القومية، وتحبّبها بقيّمنا السائدة ماضياً وحاضراً، وتجمعها بمحبة في جو من الورع الأرمني.»[٦] وبموازاة سعي اللاجئين الملحوظ إلى الذود عن خصوصيتهم الثقافية وهويتهم الذاتية، وإلى إعادة بناء الأمة الأرمنية وسط عالم الشتات، يندمجون عن طيب خاطر في المجتمعات التي استضافتهم ويتبنون ثقافتها. ففي لبنان، على سبيل المثال، تتمثل طائفتهم في البرلمان وفي الحكومة. وأسوة باللبنانيين الآخرين، يتبنون اللغة والثقافة العربيتين، كما الفرنسية أو الانكليزية والثقافتين المقابلتين لهما، حتى أضحى السواد الأعظم منهم على امتزاج بالسكان الأصليين في شتى أحياء بيروت، والزيجات المختلطة إلى ازدياد. وأخيراً، فإن أولادهم يرتادون مؤسسات مدرسية أو جامعية غير أرمنية في أغلب الأحيان.

وأرمن الشتات، من دون أن يفقدوا جذورهم الأصلية، يتجذرون بعمق في بلدان المنفى التي غدت أوطانهم. كما أن الأرمن في لبنان، وسوريا، ومصر، وإيران، والبلقان، وفي فرنسا، والولايات المتحدة والأرجنتين هم مواطنو تلك البلدان ويتمتعون بكامل الحقوق، ويسهمون في مختلف قطاعات الأنشطة العامة والخاصة، مع الحفاظ، بشكل غير علني لكن حازم، على خصوصية ثقافتهم الأصلية. إنهم يقدمون النموذج المثالي عن الهوية المعقدة، للهوية الواحدة في ثنائيتها.

٦ كتب للذكرى الستين لانشاء مدرسة كولابي كولينكيان-ساهاكيان، دمشق.

سليم عبو

راهب يسوعي

إن الكتاب الجميل الذي قامت مطابع جامعة القديس يوسف بنشره إن هو إلاّ مظهر من مظاهر تكريم هؤلاء اللاجئين الأرمن، وهم آباؤنا الذين قدموا إلى المشرق لقرن خلا تقريباً. وليس مما يثير دهشتي أن يأتي الكتاب ثمرة جهود مشتركة بذلتها جامعة القديس يوسف ومكتبة نوبار التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، إذا ما أخذنا في الاعتبار العمل الذي أنجزته خلال فترة ما بين الحربين، الرهبانية اليسوعية والجمعية الخيرية العمومية الأرمنية بين اللاجئين. فالكم الهائل والمتنوع من الصور الفوتوغرافية ومحفوظات الأرشيف الذي رفد هذا الكتاب، والمعرض الذي يطيل أمده، يشهدان وحدهما على العمل الذي أنجزته، في حينه، كل من جمعيتينا لمصلحة اللاجئين.

منذ ذلك الحين، أصبح اللاجئون الأرمن مواطنين في دول المشرق؛ غير أن أولادهم حطوا الرحال أحياناً في بلدان أخرى كفرنسا والولايات المتحدة بصفة خاصة. إنه عالم أرمني مختلف تمام الاختلاف، يفصح اليوم عن ذاته حاملاً معه بطبيعة الحال إرثاً عريقاً، ولكنه مع ذلك شديد التنصت لتغيرات عصرنا الراهن. فالحفاظ على هويته الذاتية، وهذا هاجس أرمني قديم وعنصر محوري أيضاً في نضج البشر، يشكل حاليا تحدياً يمتحن قدرة الجمعية التي أترأسها على التصدي له كل يوم. وجمعيتنا هذه هي، في الواقع، أحدث عهداً من الرهبانية اليسوعية إذ يكاد عمرها يناهز قرناً واحداً مع حلول هذا العام ولكن يبدو لي أنها بلغت فعلاً سن النضج. وهي بالتفاتها إلى ماضيها، تبحث عن الوحي الذي سيكون عوناً لها في بناء المستقبل. كما تسعى إلى التمتع بصحة جيدة للمحافظة على قدرتها على مجاراة الزمن الحاضر. من هذا المنظور، يعتبر تأمل التاريخ دربة لا غنى عنها للمجتمعات التي تشعر بالحاجة إلى أن تعي، عبر استعراض الماضي، في أية دوامة من دوامات التاريخ تعرضت للانجراف. أما بالنسبة إلى الأجيال الصاعدة، فإن معرفة الماضي على نحو أفضل، من شأنها أن تساعد على الانخراط في الحاضر، إذ إن ذكريات قليلة، حتى وإن بدت أحياناً أليمة، لا يسعها إلاّ أن تردها إلى القيم الاساسية وتدربها على مذهب النسبية.

ولا يساورني الشك في أن هذا الكتاب والمعرض الذي يواكبه سوف يسهمان في هذا الاتجاه.

وأود أن أختم كلمتي بلمسة تنطوي على مزيد من الطابع الشخصي. فالتعاون القائم بين جامعة القديس يوسف والجمعية الخيرية العمومية الأرمنية يملأني غبطة وحبوراً، ولا سيما أني سعدت في شبابي، بأن أتم قسماً كبيراً من تحصيلي الجامعي في جامعة القديس يوسف. وبتعبير آخر، استفدت من حنكة الرهبانية اليسوعية وحسن تصرفها في المجال التربوي، كما استفدت من اللغة الفرنسية، وهي بمثابة دعامة لتفكيرها.

لهذه الأسباب جميعها، أعرب عن عميق اعترافي بالجميل للآباء اليسوعيين. وختاماً، أتوجه بالشكر إلى رواد هذه الأبحاث التاريخية التي تتيح لنا، في نهاية المطاف، أن نرى ماضينا القريب باعتماد المسافة الضرورية.

بيرج ستراكيان

رئيس الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية

إن مادة هذا الكتاب ومعرض الصور الفوتوغرافية المواكب لها تشكل موضوعاً يمتاز بأصالته وجدّته. فهو يعالج مسألة اللاجئين الأرمن في الشرق الأدنى، ما بين عامي ١٩١٧ و١٩٣٩. ولئن خُصّص، حتى يومنا هذا، العديد من الدراسات للإبادة الجماعية الأرمنية، فنادرة هي الدراسات التي حاولت أن تتبّع مسيرة الناجين واستقرارهم في البلدان المضيفة، وبخاصة في الشرق الاوسط.

كيف تحقّق هذا الاستقرار وأين؟ وكيف تكيّف الناجون، وهم بمعظمهم جُرّدوا من جميع ممتلكاتهم، مع بيئتهم الجديدة، وسعوا إلى إعادة بناء أنفسهم ضمن سياق المأزق الناشىء عن الحرب العالميـــة الأولى؟ وكيف استقبلت هذه الدول الحديثـــة الولادة، ذات التوازن الديمغرافي والسياسي والاقتصادي الهش، الأرمن؟ وكيف أصبحت إحداها، وهي لبنان، خلال عقود قليلـــة، أحد المراكز الفكريـــة والفنيـــة الأكثر تألقاً في عالم الشتات الأرمني؟

أسئلة كثيرة حاول الباحثون، الذين ساهموا في تحقيق هذا العمل، الإجابة عنها. فاعتمدوا، للقيام بذلك، على مصادر أرشيفية متنوعـــة: منها أرشيفات نانت، وأرشيفات مكتبـــة نوبار في باريس والرهبانية اليسوعية في فانف وبيروت. إن غنى هذه المصادر ووفرتها، في وسعهما أن يفسحا المجال أمام إنجاز أعمال لاحقة من شأنها أن تستكمل القضايا المعالَجـــة في هذا الكتاب. كما من الممكن بذل جهود من أجل جمع هذه الأرشيفات والمحافظة عليها.

أما في ما يخص معرض الصور الفوتوغرافية، فقد أمكنت تهيئته بفضل وفرة الأرشيفات الفوتوغرافية العائدة لمكتبة نوبار التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، والمكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف، وهما مؤسستان معنيتان ملياً بالعمل مع الأرمن على الصعيد الخيري والتربوي. والجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، التي نحتفل هذا العام بالذكرى المئوية الأولى لتأسيسها، كانت إحدى أوائل الجمعيات الأرمنية العاملة على تقديم العون للناجين من الإبادة الجماعية. كما أن جامعة القديس يوسف والرهبانية اليسوعية أعربتا، عبر إرسالية أرمينيا، عن إخلاصهما وتفانيهما على مدى أكثر من قرن في خدمة تربية الشبيبة الأرمنية، بداية في آسيا الصغرى، ثم في سوريا ولبنان. وكانت المكتبة الشرقية، وريثة هذا التقليد المأثور، قد هيأت مصدراً هاماً للدراسات الأرمنية، وجمعت مجموعة من الصور الفوتوغرافية القديمة. كذلك تجدر الإشارة إلى المساهمة القيّمة التي قدمتها مجموعة ميشال بابودجيان.

لذا جاء هذا المشروع ثمرة تعاون بين هاتين المؤسستين، ومع دائرة التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة القديس يوسف.

إن معرض الصور الفوتوغرافية، الذي سيتم افتتاحه في سرداب كنيسة القديس يوسف في بيروت، سوف يقام لاحقاً في باريس، لمناسبة سنة أرمينيا التي سيُحتفى بها في فرنسا.

كريستين بابكيان عساف

رئيسة دائرة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ جامعة القديس يوسف

مي سمعان سنيوري

رئيسة دائرة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ جامعة القديس يوسف

شكلت التجربة الارمنية في دول الشتات، نموذجا لشعب أدرك مكوناته وخصائصه، وتمكن من الحفاظ عليها، دون المساس بتناغمه وانسجامه مع محيطه الجديد.

فرغم المآسي الكبيرة التي تعرض لها الأرمن في بداية القرن الماضي، من قتل وتهجير جماعي ، إلا أنهم ظلوا شعبا طليعيا له حضوره في الدول التي عاشوا فيها.

منذ هجراتهم المتلاحقة إلى هذه المنطقة، تخلى الأرمن عن أحلامهم الكبيرة، وسعوا وراء لقمة العيش في حياة واقعية فرضت عليهم، في بيئة غريبة عنهم، لكنهم كدّوا واجتهدوا ، واستخدموا مهاراتهم في الاعمال الحرفية والصناعات الصغيرة، وبلغوا أعلى المراتب في عالم الصناعة والتجارة ، تاركين وراءهم بصمات مميزة تعرف عنهم في كل بقعة حلوا فيها .

هذا الكتاب ، يسلط الضوء على حقبة تاريخية تعتبر الأهم في مسيرة الأرمن ، منذ اقتلاعهم من جذورهم في الوطن الأم، إلى أن حطوا الرحال في بلدان ، عرفوا كيف يندمجون في نسيجها الاجتماعي والسياسي بعد أن فقدوا كل أمل لهم بالعودة إلى ديارهم.

لذا سعت الهيئة الوطنية الأرمنية – الشرق الاوسط، من خلال ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، تقديمه إلى القارىء والباحث العربي . فمن حق المواطن العربي الذي استقبل الجموع اللاجئة إلى دياره ، وأحاطها بالحماية والعناية ، وقدم لها الملجأ والقوت ، أن يطلع على حقيقة المأساة ومراحل التهجير التي رافقت عملية الابادة الجماعية التي تعرض لها الأرمن عام ١٩١٥ على أيدي العثمانيين الأتراك.

إن الهيئة الوطنية الأرمنية – الشرق الاوسط ، اذ تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة القديس يوسف والجمعية الخيرية العمومية الارمينة لانجاز هذه الوثيقة التاريخية لما تتضمنه من أبحاث وصور فريدة، هي في الحقيقة ليست الا جزءا من آلاف الصور والوثائق الموجودة بحوزة الجمعيات والمؤسسات الأرمنية، والتي تروي حكاية شعب قام من بين الأنقاض ، وانتفض على واقعه المرير، ليواكب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في البلدان التي احتضنته ووفرت له سبل العيش الكريم والازدهار.

الهيئة الوطنية الأرمنية – الشرق الاوسط

توطئـة

إن مجرد ذكر كلمة لاجىء يحيل بصورة قاسية إلى مأس إنسانية، وعمليات تهجير شعوب، و سوء معاملة جماهير، وارتكاب إبادات جماعية. ففي الشرق الأدنى كما في أوروبا، كانت الحرب العالمية الأولى السبب في إعادة تركيب جغرافي للمنطقة، أدت، ليس فقط إلى نشوء دول عربية أو الجمهورية التركية، وإنما إلى مجانسة إثنية أيضاً استبعدت من بعض المساحات الجغرافية جماعات تاريخية كالأرمن. هكذا وجد الناجون من الإبادة الجماعية التي اقترفها نظام الشبان الأتراك، أنفسهم غداة خروجهم من الحرب وقد اقتُلعوا من وطنهم التاريخي وطردوا منه وشُتتوا في أرجاء الشرق الأدنى الأربعة. وتم، في بادىء الأمر، تجميع هؤلاء الناجين في الحواضر الكبرى مثل حلب ودمشق أو بيروت، إلاّ أنهم حاولوا بالطبع العودة إلى ديارهم، وبخاصة إلى كيليكيا. ثم أخلوا سوريا ولبنان على عجل، وبتشجيع من الدول الكبرى المنتصرة، ليعودوا إليهما مرة جديدة، عندما تبيّن لهم بوضوح أنه لم يعد لهم مكان في تركيا الجديدة التي باتت على وشك الولادة. وإذا كان الأرمن يشاطرون العرب ماضياً مشتركاً داخل الإمبراطورية العثمانية، فإنهم لم يكونوا مهيأين سلفاً للتعايش في الدول العربية المزمع إنشاؤها. فإيواء عشرات الآلاف من اللاجئين الأرمن في لبنان أو في سوريا، وهما بلدان خرجا من الحرب منهوكي القوى، لم يكن بالأمر الطبيعي. لذلك فإن وصول هؤلاء المقتلعين من جذورهم على نطاق جماعي حاشد كان من شأنه أن يعرض التوازن الاجتماعي الاقتصادي الواهي لمزيد من الخلل في هذه المناطق، وقد اعتبرت في البداية موضعاً لإبعاد المرحلين، ثم أرضاً لاستقبال الناجين. على أن اللاجئين الأرمن، الذين طردوا من إمبراطورية أخلت مكانها لقيام دولة أمة، وجدوا مع ذلك في لبنان وعلى نطاق أضيق في سوريا، النموذج المتعدد الثقافات الذي عرفوه من قبل. ويشرح هذا العامل من دون شك أنهم، بالرغم من بعض الصعوبات الملازمة لهذا النوع من الأوضاع، جرى دمجهم بما يكفي من السرعة في تلك المجتمعات.

هذا، ومثلت تجربة الأرمن عموماً المشكلات التي يثيرها اللاجئون، حين يطردون من وطنهم القومي، ويحرمون من الجنسية، و يصبحون في وضع من لا وطن لهم، هؤلاء الذين واجههم المجتمع الدولي غداة الحرب العالمية الأولى، قبل أن تستوطن هذه المشكلة. والإجابات التي قدمتها عن المشكلات عصبة الأمم المنشأة حديثاً والمفوضية العليا للاجئين التابعة لها، بيّنت كم كان العالم قليل الاستعداد لتذليل الأزمات الناجمة عن سوء معاملة الجماعات وحداثة الدولة الأمة. إن حالة اللاجئين الأرمن صورت مسبقاً المآسي الإنسانية المتكررة التي وصمت تاريخ القرن العشرين، تلك المآسي التي قام المجتمع الدولي بالقليل القليل للتخفيف من وقعها عبر مبادرات ضرورية عاجلة، إنما غالباً متأخرة. وهكذا بقيت المشكلة، حتى يومنا هذا، على ما كانت عليه، إذ لم توضع بعد أية آلية لمنع دولة من مهاجمة شريحة من سكانها باسم نظرية إيديولوجية داروينية أو غيرها.

إن التجربة التي عاشتها الفئات الأكثر ضعفاً بين الضحايا، كالنساء والأطفال المخطوفين والمحتجزين عنوة، لعبت دوراً حاسماً في تكوين الذاكرة الجماعية للأحداث. والآلام الجسدية والنفسية التي تكبدتها إبان سنوات الحرب، و كذلك انتقالها الطويل نوعاً ما إلى المأوى أو المياتم المنشأة لها، شكّل عنصري تجربتها غير القابلتين للفسخ. فالحياة الجماعية في هذه المؤسسات نمّت هوية خاصة بالملقّنين وحدهم، هوية قوامها ردود فعل تتصل بالتشبث بالحياة، وحاجة عميقة إلى الالتصاق بمجتمع أليف. فهي وحدها قادرة على توفير البيئة الاجتماعية التي يحتاج إليها الضحايا لإعادة بناء ذواتهم.
وكما هي الحال غالباً بين الجماعات المصابة بصدمة نفسية نتيجة تعرضها لإبادة جماعية، حاول اللاجئون الأرمن بصورة منتظمة أن يتجمعوا ضمن مجموعات مؤلفة من أفراد متحدرين من بلدة واحدة، والأفضل في بيئة حضرية. وأسهمت هذه الظاهرة كثيراً في تكوين المخيمات الكبرى في كل من بيروت والاسكندرون ودمشق أو حلب، وغدت، إلى حد ما، القوالب التي انصهر في داخلها اللاجئون أثناء مرحلة تأسيس الطوائف الأرمنية في لبنان وسوريا. هذه المرحلة التأسيسية أو هذه التجربة الجماعية لانعدام الاستقرار وللاقتلاع، ولكن الغنية بمشاعر الضيافة طواها النسيان اليوم، كي لا نقول تجاهلها الأرمن، إذ إنها تحيلهم إلى صور الشقاء، إلى الأيام المظلمة، إلى الصدمات النفسية الدفينة. ومع ذلك، تظل إرثاً مشتركاً أعطى المجتمع الأرمني المعاصر ملامحه النفسية الرئيسية. فالناجون، أياً كانت الفئة الاجتماعية التي انتموا إليها، تبنوا تصرفات مشابهة أورثوها ذريتهم على نحو واع إلى حد ما.
من هنا يهدف هذا الكتاب والمعرض الذي يطيل أمده إلى إحياء ذكرى تلك التجارب المؤسسة، وعرض المشكلات التي واجهت اللاجئين ميدانياً، وإعادة حياتهم المعيشة إلى أذهانهم. رُتِّب الكتاب في ثلاثة أقسام، وهو يفرط في الاستعانة بالصور الفوتوغرافية التي تشكل هنا عنصراً وثائقياً محورياً. وهذه الصور، إذا كانت تساعد على تصوّر أوضاع تتصف بعدم الاستقرار ولعلها بلغت أقصى درجات عدم الاستقرار —، فليست مع ذلك إلاّ شهادة موضوعية على واقع مضى لا يمكن بأي شكل تجاهله. وأكثر من ذلك، إنها نوع من تكريم للقدامى يبرز أهمية المسيرة التي سلكتها الجماعة الأرمنية في البلدان المضيفة.
ولما كانت بيروت هي، بلا منازع، المدينة التي تجسد بصورة أفضل اندماج الأرمن في العالم العربي، تتركز فيها كل مراحل إدماجهم في العالم العربي، ولهذا السبب تم اختيار العاصمة اللبنانية لتستضيف أولاً المعرض المخصص للاجئين الأرمن في الشرق الادنى (١٩١٧-١٩٣٩).

ريمون كيفوركيان، ليفون نورديكيان، فاهه طاشجيان



في مخيم حلب
تصوير فارطان ديروניان ـــ مجموعة مكتبة
نوبار التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية



مدينة اوت دوراً للأيتام أرمنية ما بين ١٩١٨ و١٩٢١.
ملاحظة : الحدود المبينة أعلاه هي حدود الدول الحالية.


ANKARA
TURQUIE
Sivas
Kayseri
Gürün
Malatia
Lac Salé
Konya
Hadjin
Zeïtoun
Sis (Kozan)
Marache
Cilicie
Adana
Tarse
Mersin
Antalya
Aïntab
Deurtyol
Killis
Alexandrette
Moussa Dagh
Antioche
Alep
Kessab
Lattaquié
Oronte (El Assi)
SYRI
Hama
NICOSIE
CHYPRE
Larnaca
Dhekelia (R.-U.)
Akrotiri (R.-U.)
Tartous
Homs
Tripoli
LIBAN
Aïntoura
Békaa
BEYROUTH
Mer Méditerranée
Saïda (Sidon)
DAMAS
Soûr (Tyr)
Nazareth
Haïfa
Dera
Hauran
Djebel Druze
ISRAËL
Irbid
Salt
Territoires palestiniens
Tel Aviv-Jaffa
Cisjordanie
AMMAN
Jérusalem
Bethléem
JORDANIE
Mer Morte
Port-Saïd
Gaza
Alexandrie
Kerak
Aïmé
Tafila
ÉGYPTE
Bousseïr
Ach Chaoubak
Jourdain
Petra/Ouadi Moussa
Maan
LE CAIRE
Suez
Sinaï
Nil
Golfe de Suez
Aqaba
0
100
200 m



مصير الأطفال المفقودين

منذ نهاية الحرب، باشرت عصبة الأمم وبعض المؤسسات الخيرية البحث عن النساء والأطفال الذين فقدوا إبان عمليات الترحيل عامي ١٩١٥-١٩١٦، وذلك بغية إعادتهم، عند الاقتضاء، إلى عائلاتهم. وتطالعنا، في ميدان هذا العمل الإنساني الجبار، شخصية كارن جب، وهي مبشرة دانمركية كرست ذاتها بحزم وفعالية كبرى منذ عام ١٩٢٢ لهذه الغاية النبيلة . وكان بعض العملاء المتعاملين في نواح مختلفة من « الجزيرة » كالحسكة والقامشلي، قد رحلوا الناجين من المحارز الى حلب. ثم نظم لكل منهم، في الملجأ الذي آواهم، بطاقة فردية- مرفقة بصورة فوتوغرافية- يتم عليها تدوين خبرات الناجي من الموت.
أرشيف المفوضية العليا للاجئي عصبة الأمم (جنيف).



سياق تاريخي وتحركات سكانية



مرحلون أرمن تم تجميعهم في ثكنة حلب
عقب رحيل الجنود الأتراك، في ١٩١٨
مجموعة م ن ا

في أصول الجماعات الأرمنية في الشرق الأوسط

الناجون من المرحلة الثانية من الإبادة الجماعية

بقلم ريمون هـ. كيفوركيان

إن تدمير مجموعات بشرية تاريخية على يد دولة من الدول يعد تتويجاً لعملية معقدة لا يمكنها أن تتطور إلاّ في بيئة سياسية واجتماعية خاصة، ولا سيما في سياق متعدد الإتنيات. أما التصفية الجسدية التي تعرض لها السكان الأرمن داخل الإمبراطورية العثمانية فتم تصورها كشرط ضروري لبناء الدولة الأمة التركية، ضمن إطار مشروع يرمي إلى جعل التركيبة الإتنية متجانسة في آسيا الصغرى. وعليه قامت لجنة الاتحاد والترقي، خلال عامَي ١٩١٥ ١٩١٦، بتطبيق برنامج واسع لعمليات ترحيل شعوب غير تركية، إسلامية ومسيحية، وقد خصت كل مجموعة من المجموعات المستهدفة بمعاملة خاصة تبعاً لقدراتها الجماعية المفترضة على الاندماج في برنامجها الرامي إلى تتريك آسيا الصغرى.

وتظهر أعمال ت. اكتشام الحديثة[1]، التي تعتمد خصوصاً على مذكرات كوشتشوباشي زاده أشرف [سندجر][2]، أن «مخطط مجانسة» الأناضول، و تنظيفه من «الأورام» اللاإسلامية، وتصفية «التجمعات غير التركية» قد جرت مناقشتها أثناء اجتماعات عدة سرية عقدتها لجنة الاتحاد المركزية من شباط إلى آب ١٩١٤. وكان يونانيو شاطىء بحر إيجه، وهم المستهدفون الأوائل، قد جردوا من ممتلكاتهم وأبعدوا إلى الاناضول الوسطى أو طردوا باتجاه اليونان منذ ربيع ١٩١٤.

ولكن يبدو أن الأتراك قدّروا مصيراً خاصاً للأرمن العثمانيين الذين تقرر إخضاعهم للترحيل العام بشكل رسمي للغاية.

وعلى امتداد العملية التي أدت إلى إبادة الأرمن العثمانيين، كان من نصيب مئات الآلاف من المرحلين الذين وصلوا صدفة إلى سوريا أو بلاد ما بين النهرين، أن يزدحموا في عشرات معسكرات الاعتقال الخاضعة لإشراف الإدارة الفرعية الخاصة بالمرحلين والمنشأة في حلب خلال خريف ١٩١٥. هذا الجهاز، ذو النهج الرسمي، كان تابعاً لإدارة إسكان العشائر والمهجرين، وخاضعاً لوزارة الداخلية ومكلفاً تنظيم عمليات الترحيل ووضع ممتلكات الأرمن تحت تصرف المهجرين، أي، بكلام آخر، إسكانهم في أماكنهم. فهو الذي نسق، على سبيل المثال، ترحيل المهجرين المسلمين الروملليين وشراكسة فلسطين إلى آسيا الصغرى في المناطق التي أخليت من سكانها اليونان أو الأرمن[3]. وبعبارة أخرى، أنيط بإدارة إسكان العشائر والمهجرين تطبيق سياسة «المجانسة الديمغرافية» التي حددتها لجنة الاتحاد المركزية. وكان لديها، تحت سمتها الرسمية، استعداد لإسكان نازحين مسلمين مقتلعين، كما كُلفت أيضاً، ومن باب أولى، استئصال السكان الأرمن وتنسيق ترحيلهم، وهذه عبارة ندرك اليوم معناها بحسب تعيين موضع الأشخاص المستهدفين. وعندما نلاحظ التسلسل الزمني لتحركات السكان المسلمين التي نظمتها بطريقة تسلطية، نلاحظ عملية شبه متوازية ومتزامنة مع تنظيف الأرمن من مناطق وصول المهجرين الذين رحّلتهم إدارة إسكان العشائر والمهجرين[4]. إن علاقتها بلجنة الاتحاد والترقي نمت عنها طبيعة مهمتها بالذات القائمة على تتريك المكان، وعلى اختيار مديرها، مفتي زاده شكرو [كايا] بك، وهو أحد كوادر الشبان الأتراك المقربين من محمد طلعت[5]، وقد أوفدته جمعية الاتحاد والترقي إلى ولايتَي أضنه وحلب خلال صيف ١٩١٥[6]، أسوة بالعديد من زملائه الاسطنبوليين، حين اقتضى الوضع تدخلاً عاجلاً وتطبيق السياسة التي حددها المركز الاتحادي.

١ تانير اكتشام، «من الإمبراطورية إلى الجمهورية، القومية التركية والإبادة الجماعية الأرمنية»، لندن ونيويورك ٢٠٠٤، ص. ١٤٤-١٤٩.

٢ جمال كوتاي، «التشكيلات المخصوصة في الحرب العالمية الأولى والشبان الأتراك»، اسطنبول ١٩٦٢، ص. ٦٠-٦٣.

٣ فواد دوندار، «سياسة الاتحاد والترقي لإسكان المسلمين (١٩١٣-١٩١٨)» اسطنبول ٢٠٠١، ص. ٩٢-١٧٤ خصوصاً وخريطة ص. ٩٣.

٤ م.ن.ص. ٢٠١-٢٢٥؛ أرشيف بطريركية القسطنطينية / البطريركية الأرمنية في القدس، مكتب استعلامات البطريركية ٣٠ ز. «مسلمون هاجروا إبان الحرب البلقانية والحرب الشاملة»، يقدم الكشف التالي: ولاية ادرنه ١٣٢٥٠٠ شخص، ولاية اضنه ٩٠٥٩، ولاية انقرة ١٠٠٠٠؛ ولاية أيدن ١٤٥٨٦٨؛ ولاية حلب ١٠٥٠٤؛ ولاية بروصا ٢٠٨٥٣؛ ولاية سيواس ١٠٨٠٦؛ ولاية قونية ٨٥١٢؛ الخ، من مجموع عام هو ١٣٩٢٢؛ شخصاً.

٥ الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٦٥٠٠، الملفات الشخصية العائدة لمجرمي الحرب الأتراك الرئيسيين، وخاصة ملف شكرو بك الذي نشره فارتكس يغيايان، «ملفات الخارجية البريطانية العائدة لمجرمي الحرب الأتراك»، باسادينا ١٩٩١، ص ١٤٣-١٤٦. وأصبح هذا الأخير، خلال العهد الكمالي، وزيراً للداخلية.

٦ ابق ب ا ق، ج ١٢٥-١٢٨-١٢٩-١٣٠.



باحة ثكنة حلب العثمانية، وقد تحولت مركزاً لاستقبال الناجين الذين أعيد إسكانهم من أماكن ترحيلهم، نهاية ١٩١٨
مجموعة م ن ا

إن البرقيات العديدة المرسلة من وزير الداخلية شخصياً، والمتعلقة بالأصول الواجب اتباعها بالنسبة إلى إدارة المرحلين الأرمن، قد أعدّها بكل تأكيد مصلحة إدارة إسكان العشائر والمهجرين. ويلاحظ مثلاً في أمر صدر منذ ٢٣ أيار ١٩١٥، أن المرحلين يمكن إسكانهم في ولاية الموصل، باستثناء جزئها الشمالي المحاذي لمقاطعة فان، أو أيضاً أن المواضع التي «سيجري إسكان الأرمن فيها» ينبغي أن تقوم على «مسافة ٢٥ كلم على الأقل من خط سكة حديد بغداد أو متفرعاته»[٧]. ويوسّع توجيه يحمل تاريخ ٧ تموز المناطق المخصصة لــ«استقبال المرحلين إلى الأجزاء الجنوبية لولاية الموصل، وإلى أماكن سنجق كركوك» على بعد ٨٠ كلم على الأقل من الحدود الإيرانية، علماً أن الأجزاء الجنوبية والغربية من سنجق الزور تقع على مسافة ٢٥ كلم على الأقل من حدود ولايــة ديار بكر، بما فيها قرى حوضَي الفرات والخابور، وكل قرى ومدن القسم الغربي من ولاية حلب. وكذلك المناطق لجهة الجنوب والشرق، باستثناء منطقتها الشماليــة والأرض السورية، وسنجقي حوران والكرك ما عدا المناطق الواقعة على بعد ٢٥ كلم على الأقل من خط سكة الحديد. هذه هي إذاً المناطق حيث يتعين توزيع الأرمن وإسكانهم بنسبة ١٠ ٪ من مجموع السكان المسلمين»[٨].

وتوضح الشهادة التي أدلى بها يوهان هــ. موردمان، وهو دبلوماسي السفارة الالمانية في القسطنطينية المكلف ملاحقة القضايا الأرمنيــة، بالنسبة إلى اللقاء الذي أجراه بتاريخ ٣٠ أيار ١٩١٥ مع اسماعيل جانبولاد، مدير الأمن العام في وزارة الداخليــة، مقاربــة الاتحاديين في شأن جعل المنطقة متجانسة. ففي الواقع، لاحظ موردمان أن جانبولاد بك كان لديــه خريطــة على مكتبــه يظهر عليها تدرج عمليات الترحيل التي تم تنفيذها. وهذا يؤكد تنسيق البرنامج على أعلى مستويات الدولــة كما يؤكد جانبه النظامي الذي «لا تبرره اعتبارات عسكريــة على الإطلاق»[٩].

٧ اب ق / ب ا ق. ب ٤٥٦ رقم ٢٤١، برقية مرمزة لوزير الداخلية إلى ولاية أرضروم، تاريخ ١٠/ ٢٣ أيار ١٩١٥.

٨ أرشيف رئاسة الجمهورية التركية، ٢٢ شعبان ١٣٣٣، إدارة إسكان العشائر والمهجرين، تعميم علي منيف، إدارة المرحلين ٥٤ / ٣١٥، مستند رقم ٦٣، اب ق / ب ا ق، ب ٥٥؛ رقم ٥١، توجيه مرفق ببرقية مرمزة صادرة عن القائد بالوكالة لفرقة قيصريه ١٥، الكولونيل شهاب الدين، وموجهة إلى قائد الجيش الثالث، ٢٤ حزيران / ٧ تموز ١٩١٥] ٢٤ حزيران ١٣٣١[.

٩ تقرير ج. موردمان، مؤرخ من بيرا ٣٠ حزيران ١٩١٥، رقم ٤١٨، القسطنطينية ١٦٩، ذكره هلمار كايزر، «سكة حديد بغداد، السياسة وتطور تشوكور اوفا الاجتماعي الاقتصادي»، أطروحة دكتوراه، جامعة فلورنسا الأوروبية ٢٠٠١، ص. ٣٢١-٣٢٢، ورقم ٧٩٠. وقد أخرج فواد دوندار من طي النسيان خرائط متعلقة بالأعراق البشرية وإحصاءات للسكان أعدت عشية الحرب العالمية الأولى أو أثناءها، كنا على علم بها عبر أقوال الشهود أمثال موردمان ؛ فواد دوندار، «البعد الخاص بدراسة المشاريع الآيلة إلى تتريك الاناضول: الخرائط المتعلقة بالأعراق البشرية والإحصاءات». مداخلة خلال مؤتمر نظم في سالزبورغ، ١٤-١٧ نيسان ٢٠٠٥.



منظر لمخيم لاجئين في بعقوبة، قرب بغداد، عام ١٩١٩
مجموعة م ن ا

إلى ذلك، يبيّن التسلسل الزمني لعمليات الترحيل تبايناً واضحاً في الزمان بين العمليات المنفذة في أيار وحزيران داخل المقاطعات الشرقية وتلك التي استهدفت سكان الأناضول الغربية وكيليكيا المبعدين في آب وأيلول ١٩١٥. ومن جهة أخرى، تشرح الأساليب المستخدمة في كل من هذه المناطق أن نسبة المرحلين المنتمين إلى المقاطعات الشرقيـــة الذين بلغوا مشارف سوريا هي أدنى بشكل واضح تماماً بحدود ١٠ إلى ٢٠ ٪ من نسبة الأرمن القادمين من الغرب الأناضولي، حوالى ٨٠ إلى ٩٠ ٪. وبالتالي من الجلي أن السلطات المركزية اضطرت بين مطلع حزيران، أي عند وصول أوائل مرحلي الشرق إلى سوريا، وشهر أيلول، إلى وضع بنية إدارية تعنى بسيل المرحلين، لم تكن هذه السلطات بالضرورة قد فكرت فيها بادىء ذي بدء. إن المهمة الموكلـــة إلى مفتي زاده شكرو بك ليس لها على الأرجح هدف آخر، وكذلك قدوم بهاء الدين شاكر، عضو لجنـــة الشبان الأتراك المركزيـــة، المكلف تنفيذ مخطط الإبـــادة في ولايتي أضنه وحلب خلال صيف ١٩١٥[10].

إنهم قرابة ثمانيمئة وثمانين ألف أرمني تمت «إعادة إسكانهم» على هذا النحو، بعضهم منذ بداية الصيف والبعض الآخر أثناء خريف ١٩١٥، في كل من سوريا وبلاد ما بين النهرين، وذلك في مناطق رئيسية ثلاث: الأولى على محور رأس العين الموصل؛ والثانية على «خط الفرات» من مسكنه حتى دير الزور؛ والثالثة تمتد من حلب إلى البحر الأحمر مروراً بحماه، وحمص، ودمشق، والقدس وعمان، وبشكل متفرع من ناحية أخرى إلى جبل الدروز وحوران الغربية وشمال شرق سيناء. في أوائل ربيع ١٩١٦، كان خمسمئة ألف مرحل تقريباً لا يزالون على قيد الحياة موزعين بين حلب، ودمشق، والفرات والزور: أكثر من مئة ألف من دمشق إلى معان، واثنا عشر ألفاً في حماه ومنطقتها، وعشرون ألفاً في حمص والقرى المحيطة بها، وسبعة آلاف في حلب؛ وخمسة آلاف في بصرى، وثمانية آلاف في باب، وخمسة آلاف في ممبج، وعشرون ألفاً في رأس العين، وعشرة آلاف في الرقة وثلاثمئة ألف في دير الزور وضواحيها[11]. وبكلام آخر، لقد لقي أكثر من ثلاثمئة ألف مرحل حتفهم في غضون خريف ١٩١٥ وشتاء ١٩١٥-١٩١٦، على طرقات

١٠ فليح رفقي اتاي، «جبل الزيتون»، اسطنبول ١٩٨١، ص. ٦٤. المؤلف، وهو ضابط في الجيش الرابع، سافر مع الناشطة في الحركة النسائية والمنتمية إلى جماعة الشبان الأتراك، خالده اديب، في قطار متوجه إلى حلب، رآه يصعد في محطة اضنه، وسمعت حكاية «مآثره»، في الولايات الشرقية.

١١ الأرشيف الوطني، وزارة للدولة ٨٦٧٤٨ / ٢٧١، تقرير جاكسن وهـ. مورغنتاو، ٨ شباط ١٩١٦، رقم ٥٣٤.



ناجون أرمن عثر عليهم في السلط وأعيد إيواؤهم في القدس، في نيسان ١٩١٨
مجموعة م ن ا

سوريا وبلاد ما بين النهرين وفي معسكرات الاعتقال[١٢]. هذا، ولعل بقاء الكثير من الأرمن أحياء لم يكن متوقعاً بحسب مخطط جمعية الاتحاد والترقي الأصلي، وقد أثار ذلك بوضوح نقاشاً داخل إدارة الشبان الأتراك. وثمة ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن قراراً بتصفية مرحلي المرحلة الأولى من الإبادة الجماعية قد اتخذ في مطلع آذار ١٩١٦، ويقدم تعيين جودت بك، والي فان الأسبق ونسيب وزير الحرب، على رأس ولاية أضنة في ١٩ آذار ١٩١٦ دليلاً على الإجراءات الأولية التي اتخذها زعماء الشبان الأتراك من أجل إبادة مرحلي الجنوب.

إن التعليمات اللاحقة الموجهة من طلعت إلى سلطات هذه المناطق المحلية والهادفة إلى تصفية معسكرات الاعتقال القائمة شمال حلب في آذار ١٩١٦، ثم تنظيف معسكر رأس العين اعتباراً من نهاية الشهر ذاته، قبل الانتقال إلى تصفية المرحلين الموجودين على خط ألفرات حول دير الزور، من حزيران إلى كانون الأول ١٩١٦، يشكل كل ذلك العديد من المحطات الزمنية التي تشي بالتطبيق المنهجي لمخطط مدبر. كما أن قرار البنك الإمبراطوري العثماني، الصادر في شباط ١٩١٦، والقاضي بتجميد حسابات هؤلاء «الزبائن المسافرين» الذين استطاع بعضهم حتى ذلك الحين الاستفادة من تسليفات لدى

١٢ معسكر اعتقال بوزنتي (صيف-خريف ١٩١٥): ضم ١٠٠٠٠ قتيل؛ معمورة (صيف-خريف ١٩١٥): ٤٠٠٠٠ قتيل؛ اصلاحيه (آب ١٩١٥ - مطلع ١٩١٦): ٦٠٠٠٠ قتيل؛ معسكرات العمل في أنفاق امانوس (أيار-حزيران ١٩١٦): ٢٠٠٠٠ شخص قتلوا في قوافل مختلفة؛ راجو، قطما وعزاز (خريف ١٩١٥ - شباط ١٩١٦): ٥٠٠٠ قتيل؛ منبج (خريف ١٩١٥- شباط ١٩١٦): حلب والمعسكرات الموزعة في ضاحيتها (صيف ١٩١٥ - نيسان ١٩١٦) ١٣٠٠٠ قتيل سقطوا فريسة الجوع والأوبئة و٤٠٠٠ قتيل في ضواحيها؛

فروعه في سوريا وفي بلاد ما بين النهرين[13]، هذا القرار أيضاً أثاره على الأرجح وزير الاقتصاد بالوكالة، محمد طلعت، ضمن نطاق سياسته الرامية إلى تصفية المرحلين الأرمن. إن إيفاد «مفتش عام» من السفكيات (إدارة المرحلين)، هو حقي بك، على خط الفرات في آب ١٩١٦ هو مؤشر آخر على القرارات التي اتخذها مركز الشبان الأتراك[14]. وكان لدى هذا الأخير أوامر صادرة من أعلى مستويات الدولة الحزب، إذ إنه تمكن من فرض إرادته على العسكريين ونسق شخصيا التنظيف المنهجي لمعسكرات الاعتقال كافة، من مسكنه إلى الزور، حيث اغتيل مئة وخمسة وتسعون ألف شخص خلال خريف ١٩١٥[15].

و ظل نحو مائتين وخمسين ألف شخص على قيد الحياة في أعقاب هذه المرحلة الثانية من مراحل الإبادة الجماعية: عشرون إلى ثلاثين ألف امرأة شابة وطفل جرى بيعهم إلى قرويين محليين أو اختطفتهم العشائر؛ أربعون ألف اختبأوا في قرى شمال ولاية حلب وفي هذه المدينة الأخيرة؛ قرابة خمسة آلاف في منطقة بصرى، ولا سيما غالبية « أرمن جمال باشا»، وقد اعتنقوا الإسلام رسمياً وهم موزعون على محور حماه، حمص، دمشق، بيروت، حيفا، يافا، القدس، طرابلس، درعا، عمان، السلط، الكرك ومعان. و« وفقا لأوثق المصادر»، ثمة مئة واثنان وثلاثون ألف مرحل في شباط ١٩١٦، وما يزيد على المئة ألف منهم في المناطق الممتدة من دمشق إلى معان ومن بين هؤلاء، على الأرجح، مرحلو معسكرات جبل الدروز وحوران الغربية والقدس والكرك وعمان ؛ اثنا عشر ألفاً في حماه ومنطقتها وعشرون ألفاً في حمص وضواحيها[16]. هؤلاء المرحلون، خلافاً لمواطنيهم على خطي ألفرات ورأس العين الموصل نجوا من إبادة منظمة. ويبدو أن احتياجات الجيش الرابع إلى أفراد متخصصين أتاحت لعدة آلاف من المرحلين النزول باتجاه الجنوب، رغم الحظر المفروض في تشرين الثاني ١٩١٥. وقد تمكن يرفانت أوديان، الذي كان يقيم في معسكر السبيل بجوار حلب في أواخر تشرين الثاني ١٩١٥، من أن يندس في قافلة تضم ألفا ومئة حرفي، إضافة إلى نساء وأطفال، بعدما جندهم الجيش وأرسلهم إلى الجنوب[17] إنهم من مواليد أدرنه، وبرديزاك، وأضنه، وعنتاب وقيصرية [18]. هؤلاء المرحلون المقيمون في المنطقة الثالثة يؤلفون السواد الأعظم من الناجين الأرمن، و هم الذين اكتشفتهم القوات البريطانية إبان زحفها الظافر صوب دمشق وحلب.

حلب مفترق طرق في عمليات الترحيل

الوصول إلى حلب والاحتماء فيها يمثلان هدفاً حيوياً بالنسبة إلى العديـــد من المرحلين. فهم، على هذا النحو، يأملون في الانصهار في النسيج الحضري لهذه المدينة الكبيرة، والاستفادة من المساعدات التي يمكن أن توفرها لهم الجالية الأرمنية والدبلوماســيون أو المرسلون الأجانب العاملون فيها. أما في ما يختص بالســلطات، بعد الإجراءات الارتجالية المتخذة في غضون الأسابيع الأولى التي تقاطر أثناءها إلى المدينة بضعة آلاف من المرحليـــن فقد تبيّن بســرعة أنه لا بد من العمل بكل الوسائل المتاحة للحيلولة دون دخول المرحلين إلى حلب، وذلك لكي ينجح مخطط الإبادة المقترح.

و حظرت السلطات على المرحلين دخـــول المدينة، مطلع تشرين الثاني ١٩١٥ وكذلك حظرت التنــقل بالقطار صوب الجنوب باتجاه دمشق وحوران. وبعد ذلك التاريخ، صار هؤلاء يُرسلون، بصورة منتظمة وســيراً على الأقدام

مسكنه (تشرين الثاني ١٩١٥ - نيسان ١٩١٦): ٦٠٠٠٠ قتيل؛ دبسي (تشرين الثاني ١٩١٥ - نيسان ١٩١٦): ٣٠٠٠٠ قتيل؛ ابو هرار (تشرين الثاني ١٩١٥ - نيسان ١٩١٦): ؟؛ حمام (تشرين الثاني ١٩١٥ - نيسان ١٩١٦): ؟؛ سبقا (قبالة الرقة) (تشرين الثاني ١٩١٥ - حزيران ١٩١٦): ٥٠٠٠ قتيل؛ زور مراد (تشرين الثاني ١٩١٥ - كانون الأول ١٩١٦): ١٩٥٧٥٠ قتيلاً بين سوفار والشدادية؛ منطقة الموصل (خريف ١٩١٥- ١٩١٧): ١٥٠٠٠ شخص قتلهم الجنرال خليل؛ مناطق حماه / حمص / دمشق / عمان / حوران / معان (خريف ١٩١٥- صيف ١٩١٦): ٢٠٠٠٠ قتيل وخصوصاً في حوران؛ ريمون هـ. كيفوركيان، «إبادة المرحلين الأرمن العثمانيين في معسكرات اعتقال سوريا - بلاد ما بين النهرين (١٩١٥ ـ ١٩١٦)، المرحلة الثانية من الإبادة الجماعية « (١٩٩٨).

١٣ اندره ارتمان، «البنك الإمبراطوري العثماني»، باريس ١٩٩٦، ص ٢٤٠.

١٤ قره بت كابيكيان، «تاريخ محرقة أرمينيا الصغرى وعاصمتها الكبرى، سيواس»، بوسطن ١٩٢٤، ص ٤٦٨- ٤٦٩؛ ب ا ق، ١٦١١، «اتهامات في حق اسماعيل حقي بك، طاغية دير الزور».

١٥ رقم ذكر في قرار اتهام قادة الشبان الأتراك، وتلي أثناء الجلسة الأولى لمحاكمتهم، في ٢٧ نيسان ١٩١٩: الجريدة الرسمية رقم ٣٥٤، ٥ ايار ١٩١٩.

١٦ أرشيف الولايات المتحدة الوطنية، قسم الدولة سجل ٥٩، ٨٦٧٠٤٠١٦ /٢١٩، برقية موجهة إلى ه. مورغنتاو: صرافيان (دار نشر)، «وثائق الولايات المتحدة الرسمية بشأن الإبادة الجماعية الأرمنية»، م. س...ص. ١١٢- ١١٣.

١٧ يرفانت اوديان، «السنوات الملعونة، ١٩١٤- ١٩١٩، ذكريات شخصية»، صدر في مقالات مسلسلة في «الزمان» بدءاً من ٦ شباط ١٩١٩، رقم ٣٤٤٠، رقم ٥١.

١٨ م.ن. رقم ٥٢.



منظر جوي لمدينة حمص، ١٩٢٦.
طيران المشرق الفرنسي
مجموعة المكتبة الشرقية ــ جامعة القديس يوسف

. بواسطة القطار، إلى «خط بغداد» باتجاه رأس العين، أو إلى «خط الفرات» باتجاه دير الزور[١٩]. وعمى الأرجح أن هذه الإجراءات الحاسمة ترتبط بالوصول المتزامن، قبل أسبوعين، لكل من الوالي الجديد مصطفى عبد الخالق، وعبد الأحد نوري الذي عُيِّن على رأس الإدارة الفرعية المدعمة للمرحلين. فمنذ ذلك التاريخ، لم يعد الأمر يتعلق، كما كانت الحال في المقاطعات الداخلية، بممثل عادي تابع لـ«إدارة إسكان العشائر والمهجرين» الاسطنبولية، حتى لو كان هذا الممثل يحمل لقب «مدير السفكيات»، بل صار يرتبط بإدارة حقيقيــة أنشأت شبكة معسكرات الاعتقال في منطقــة الفرات.

هذا، ويمكن للمرحل دوماً أن يعمد إلى التخفي عند وصوله إلى المدينة... والواقع أن وجود آلاف الأرمن المتخفين أمر تم الترحيب به، إذ إنه يتيح فرصة لتحقيق مكاسب غير متوقعة لجمع غفير من موظفي إدارة البلدية والشرطة وحتى الجيش. وهكذا أنشئت بالتدريج أصول اللعبة، ومن النادر جداً ألاّ يعثر شخص استطاع أن يحتفظ ببعض المال على وسيلة للتفاهم مع الموظفين المحليين. هذا الوضع القائم كان سائداً أقله حتى تعيين عبد الخالق ونوري في تشرين الأول ١٩١٥. ومع ذلك، فإن وصولهما لم يكن كافياً لوقف العطف المغرض الذي أعربت عنه الإدارة المحلية. لقد توجب عليهما أن يناضلا مدة لا تقل عن عشرة أشهر ليتوصلا إلى وقف سيل المرحلين الذين يسعهم التخفي في حلب.

وبفضل أعضاء الجالية المحلية، وخصوصاً الأخوين أونيك وأرميناك مظلوميان، صاحبَي فندق «بــارون الشهير، وبعض المرحلين الأرمــن الاسطنبوليين أمثال

١٩ هلمار كايزر، «على مفترق طرق دير الزور»: موت، بقاء ومقاومة إنسانية في حلب، ١٩١٥ - ١٩١٧. برنستون ٢٠٠١، ص. ٢٨.



منظر جوي لمدينة حماه،١٩٢٦
. طيران المشرق الفرنسي
مجموعة م‌ش – ج‌ق‌ي

الدكتور بوغوصيان والموظفين الأرمن العاملين في سكة الحديد، والذين لا تستطيع السلطات الاستغناء عنهم، أنشئت شبكة سرية للمساعدة الإنسانية وتوزيع الإعانات المباشرة على المرحلين، واتسعت فروعها حتى دير الزور. وسهّل عطف القنصلَين الأميركي والألماني، جسي جاكسون ووالتر روسلر، نقل مبالغ ضخمة كانت الشبكة بحاجة إليها لمساعدة المرحلين. وقد أدت المرسلة السويسرية بياتريس روهنر مع زميلتها باولا شافر دوراً بالغ الأهمية في تنظيم الإعانات والحصول على مساعدات مالية طائلة. وإذا كانت كلتاهما تنتميان إلى الإرسالية الألمانية «الجمعية الألمانية لأعمال البر المسيحية»، استطاعتا، بدعم من الدكتور فرد شيبرد من مستشفى عنتاب الاميركي، أن تتلقيا الأموال التي جمعها في الولايات المتحدة «مجلس ادارة المندوبين الأميركي للإرساليات الخارجية»[٢٠]، وتقوم مهمته الأبرز على إخفاء آلاف الأرامل والأطفال اللاجئين في المدينة. وقد جرى إيواء عدد كبير منهم لدى عائلات مسيحية عموماً وأرمنية على وجه الخصوص، كما قامت الشبكة بعمليات لإنقاذ المثقفين الشباب. وكان البعض يفكر آنذاك، على ما يظهر، في إعادة بناء الأمة الأرمنية وتوظيف الأموال المتاحة في تهيئة رجال بإمكانهم أن يضطلعوا بهذه المهمة. في نهاية ١٩١٥، كانت حلب متخمة بنحو أربعين ألف مرحل غير شرعي[٢١]، وقع قسم كبير منهم ضحية المداهمات التي نفذتها السلطات اعتباراً من آذار ١٩١٦.

٢٠ كايزر، على مفترق.... م.س. ص. ٣١-٥٧، يقدم ملخصاً جيداً عن عملهم في حلب وضواحيها، ويشير إلى أن عملية توزيع المساعدات كانت تعتمد على شبكة أرمنية وحسب.

٢١ المطران يغيشه تشلنكريان، المقيم في حلب من تشرين الثاني ١٩١٦ ولغاية شباط ١٩١٧، يقدر عدد المرحلين الأرمن في المدينة بين ٢٥٠٠٠ و٣٠٠٠٠ شخص: وصف مختلف الأحداث والوقائع المتعلقة باللاجئين والرهبان في كل من القدس وحلب ودمشق: ١٩١٥ - ١٩١٨، الاسكندرية ١٩٢٢، ص. ٣١.

إن رحيل الوالي مصطفى عبد الخالق، في ٢٦ ايلول ١٩١٧، جعل حضور المرحلين أسلم عاقبة. فقد عاد تدريجاً عدد من الأرمن الناجين من مجازر الزور أو من المتخفين في المناطق الريفية يبحثون عن عون لهم وملاذ في العاصمة الإقليمية. إن إقفال الميتم الألماني التابع لبياتريس روهنر، ونفي الأخوين مظلوميان إلى زحلة، وتوقيف محرك العمل الانساني، مطران حلب المساعد هاروتيون يسايان في شباط ١٩١٧، كل ذلك أدى إلى وضع حد شبه نهائي لبرنامج إغاثة المرحلين وحل اللجنــة المكلفــة تنظيم المساعدات[٢٢]. كانت حلب المحررة أخيراً مع منطقتها تضم حينذاك، في ٢٦ تشرين الأول ١٩١٨، أربعين ألف ناج أرمني.

مرحلو دمشق، وحماه وحمص الأرمن

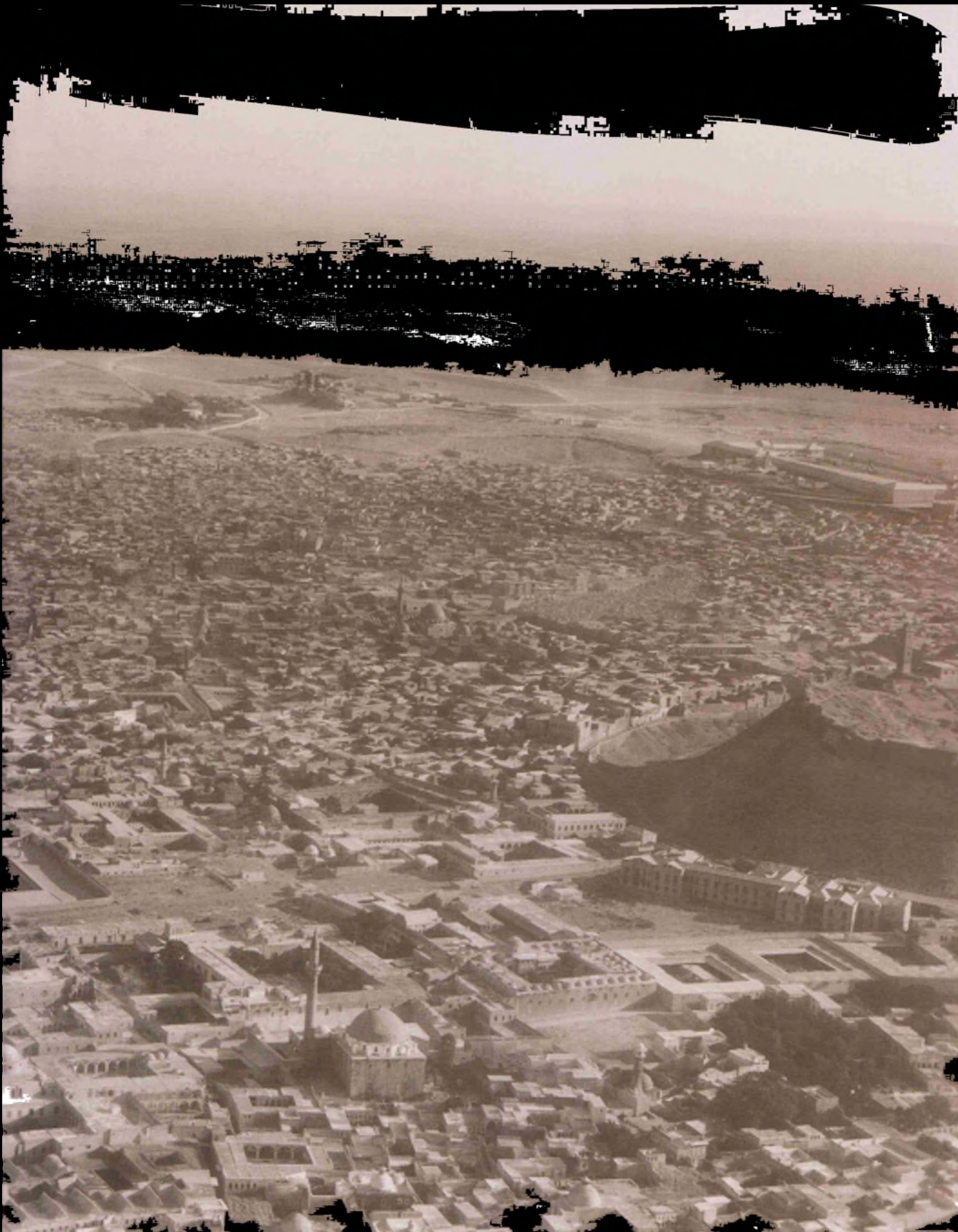
دمشق هي أيضاً، ولو بنسـب أقل من حلب، كانت مكاناً لتجميع المرحلين الذين تمكنوا من الإفلات من مسلحي دير الزور ورأس العين. وهم تألفوا أساساً من حرفيين يعملون لسد احتياجات الجيش الرابع العثماني بقيادة أحمد جمال[٢٣]. فقد أفادوا من وجود جالية أرمنيــة قديمــة، قوامها حوإلى أربع مئــة عضو، وبلغ عددهم، في تشرين الثاني ١٩١٧، ثلاثين ألف منفي أرمني[٢٤]، تكيّفوا تمام التكيّف مع متطلبــات الحياة المحليــة[٢٥]. ومع ذلك، بدا أن البقاء في دمشق كان رهناً بشرط الارتداد إلى الإسلام المفروض على المرحلين[٢٦]. وحين سقطت المدينــة في أيــدي القوات العربية والبريطانيــة، في ١ تشرين الأول ١٩١٨، كان لا يزال هناك نحو ثلاثين ألف نسمة يشكون من وضع غير مستقر بوجــه خاص، إذ كانوا محرومــين من العائدات التي يؤمنها لهم عملهم لصالح الجيش العثماني[٢٧].

أما الوضع في حماه فكان مختلفاً بشكل ملحوظ، إذ تم، منذ كانون الأول ١٩١٥[٢٨]، إسكان قرابة خمسة آلاف أرمني متحدر من أضنــه، وقيصرية، وعنتاب وانطاكيه. وفي أمد قصير، تحوّل نصف حوانيت السوق إلى أيــدي أرمن أضــنه وعنتاب، الذين لم يتكبدوا ما تكبده الآخرون من آلام،

٢٢ زافين دير يغيايان، "منكراتي كبطريرك"، القاهرة ١٩٤٧، ص. ١٧٩.
٢٣ أرشيف مكتبة نوبار، ا. كنترجيان، "الأرمن في دمشق قبل التحرير وبعده" ص. ١.
٢٤ ملاكيا اورمانيان، "تأملات وأقوال"، القدس ١٩٢٩، ص. ٣٥٢.
٢٥ تشيليكريان، م.س.، ص. ٢٩ و٤٢.
٢٦ غنجيان، وثيقة سابقة [رقم ١٩]، ص. ٢.
٢٧ "النهضة"، رقم ٤٦، السبت ٢٥ كانون الثاني ١٩١٩، بفضل مساهمة قدرها ٥٠٠٠٠٠ ليرة تركية قدمتها الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، أمكنت مساعدة هؤلاء المرحلين على جناح السرعة.
٢٨ اوديان، "السنوات الملعونة"، ١٩١٤-١٩١٩، م.



لاجئون أرمن في دمشق، الباب الشرقي
مجموعة م ش ـ ج ق ي





منظر جوي لمدينة حلب، ١٩٢٦.
طيران المشرق الفرنسي
مجموعة م ش ـ ح ق ت



مرحلون أرمن من الموصل باتجاه بغداد، عام ١٩١٩
مجموعة م ن ا

وإنما استطاعوا حتى بيع قسم من ممتلكاتهم قبل الإقدام على الرحيل. ولأنهم صيادلة، وأطباء أسنان، وسمكريون الخ... أدوا خدمات للمدينة التي كان يعوزها أشخاص متخصصون. فأول محترف التصوير والمطاعم الأولى في المدينة افتتحها مرحلون في الفترة نفسها. ويلاحظ اوديان أن السلطات المحلية كانت تستدعي الأرمن، عند مرور أنور وجمال بحماه، لإعداد استقبال لهما. ولكن إلى جانب هؤلاء المرحلين المهرة في تدبير الأمور، كم من مرحلين عانوا من أوضاع قاسية، شأن أولئك النسوة الشابات المنتميات إلى مدينة صامسون، وقد وصلن إلى حماه بعدما عانين آلاماً ومحناً دامت أشهراً عدة[29].

ويلاحظ شاهدُنا أيضاً حالات استثنائية حقاً شبيهة بحال موكب مؤلف من ثلاثين رجلاً قدموا من قيصرية، وكانوا أطباء أسنان وحرفيين، مكثت نساؤهم في بيوتهن، وقد ارتددن أو نُقلن إلى الرقة. وبما أن على المرء أن يبقى على قيد الحياة، وأن اختصاصاً كالطب هو في أغلب الأحيان بمنزلة جواز سفر إلى الحياة، فإن واحداً منهم، بحسب ما كتب اوديان، ادّعى أنه طبيب ممارس وقدّم وصفات لا أساس لها من الصحة لمرضى معجبين به. وصادف في المكان نفسه عائلات من أزميت ووجهاء من أضنه[30].

ولم يحظَ بضع مئات الأشخاص الموجودين في حماه سوى بأشهر قليلة من الراحة. فقد نظم الحاكم العسكري المدينة، عثمان بك[31] مداهمات استهدفت الأرمن في مطالع شهر نيسان ١٩١٦. وفي تموز ١٩١٦، تعرض كل المرحلين إلى تهديد آخر. لقد عرضوا عليهم أن يعتنقوا الاسلام ديناً تحت طائلة ترحيلهم مرة جديدة. وعلم مرحلو حماه أن الارتدادات الجماعية بدأت في حمص[32]، وأن البطريرك الأرمني زافين اقترح على المرحلين الذين تعرضوا التهديد بالقبول، في انتظار هدوء العاصفة[33]. من بين خمسة آلاف مرحل في المدينة، فقط ثلاثون امرأة صامسونية رفضن رفضاً قاطعاً الرضوخ وصرخن قائلات: « لقد قتلوا أزواجنا وأولادنا، وخطفوا بناتنا، فاقتلونا الآن». إن السكان العرب صدموا، على ما يظهر، من هذه الأساليب وأبوا دخول هؤلاء المرتدين إلى مساجدهم[34].

س.، رقم ٥٤-٥٥.

٢٩ اوديان، م. س. رقم ٥٥.
٣٠ م. ن.، رقم ٥٦.
٣١ م. ن.، رقم ٥٨.
٣٢ م. ن.، رقم ٥٩.
٣٣ دير يغيايان، مذكراتي، م. س.، ص ١٧٧.
٣٤ م. ن. رقم ٦٠ ــ ١.



باحة داخلية لميتم حلب، وبدت نورا
الطونيان جالسة على كيس حبوب،
وإلى يمينها القس اهارون شيرادجيان،
من المرجح عام ١٩١٩.
جموعة م ن ا



ناجون أرمن تم تجميعهم في درعا لتلقّي
إعانة غذائية، ٢٥ تشرين الثاني ١٩١٨.
مجموعة م ن ا





أيتام أرمن تم تجميعهم في السلط وأحضروا إلى القدس، مطلع عام ١٩١٨.
مجموعة م ن ا

وثمة مجموعة أخرى من الناجين كانت تتألف من ألفين إلى ثلاثة آلاف طفل، وبخاصة فتيات تتراوح أعمارهن بين أربع وثماني سنوات ألقت القبض عليهن عائلات عربية من حماه، وفتيان راحوا يتسكعون في الشوارع ويحاولون الاستمرار في العيش بكل الوسائل المتاحة؛ بينهم ولد في الحادية عشرة أو الثانية عشرة استرعى انتباه اوديان: فلكي يكسب لقمة العيش، كان يبيع أخته التي تصغره سناً إلى أزواج محرومين من أولاد، ثم يستعيدها ويعاود بيعها مجدداً[٣٥]. وكان عدد من النساء المتوحدات يعتشن باشتغالهن خادمات في البيوت اليونانية الملكية والسريانية في المدينة. فعمد المتصرف الجديد، مطلع ١٩١٧، إلى مداهمتهن جميعاً بحجة ارتدادهن إلى الاسلام، وبالتالي لم يعد بوسعهن أن يخدمن العائلات المسيحية[٣٦]. ووصلت مجموعة أخيرة إلى حماه، في ترتيب مشتت، نهاية عام ١٩١٦، وكانت تضم بعض الناجين بأعجوبة من دير الزور[٣٧].

لدى وصول القوات البريطانية إلى المنطقة، خريف ١٩١٨، قدّر عدد المرحلين الأرمن المستقرين في المدينة وضواحيها بعشرة آلاف[٣٨]. أما حمص فأوت، من ناحيتها، ما بين ألفين وثلاثة آلاف مرحل أرمني. لقد نجا القسم الأكبر من هؤلاء أيضاً بعدما أكرهوا على الارتداد، وانصرفوا إلى العمل في المؤسسات العسكرية حتى وصول الفرق البريطانية والقوات العربية[٣٩].

٣٥ اوديان، "السنوات الملعونة"، ١٩١٤-١٩١٩" رقم ٦١ و]٦٢[(أشير إليه ب٦١).
٣٦ م. ن. رقم] ٦٢[(أشير إليه ب٦١).
٣٧ م.ن. رقم ٦٣.
٣٨ ا. م. ن.، المصدر الوفد الأرمني الوطني ١-١٥، مراسلات شباط-آذار ١٩١٩. رسالة رقم ٣٢ مرسلة من الاتحاد الوطني الأرمني في بيروت إلى بوغوص نوبار، ٢ كانون الأول ١٩١٨.



منظر جوي لمدينة دير الزور.
طيران المشرق الفرنسي
مجموعة م ش — ج ق ي

ـمرحلون المبعدون إلى الأردن وحوران

ـ عن مناطق الإبعاد السورية، استقبلت مناطق عدة واقعة إلى الجنوب مرحّلين. ويروي البطريرك ـرعن أن ثمة ألف عائلة موزعة في ضواحي السلط، والكرك، وعمان وفي سنجق سراي[40].

وبحسب ضابط شركسي في خدمة جمال باشا هو حسن امجا، كان هناك، في أيار ١٩١٦، ما بين عشرين وثلاثين ألف عائلة في مناطق مختلفة من حوران وجبل الدروز. وكان هذا الرجل مطّلعاً جداً على مصير هؤلاء المرحلين، ذلك أن جمال باشا كلفه تنظيم نقلهم إلى بيروت ويافا خلال صيف ١٩١٦ [41]. ولوضع هذه التوجيهات حيّز التنفيذ، قصد حسن امجا درعا، مركز محافظة حوران، في أواخر شهر آب، بصفته موفد اللجنة الخاصة المعنية بمرحلي حوران. واصطدم، على الأرض، بعداء مدير فرع «السفكيات» الدمشقي نجاد بك، موفد «الاتحاد» الإقليمي أيضاً. كما كان قد

٣٩ م. ن.

٤٠ دير يغيايان، مذكراتي، م. س، ص. ١٧٧.

٤١ عقب إعلان الهدنة في حزيران ١٩١٩، نشر حسن امجا مجموعة من أربع مقالات تروي مصير هؤلاء المرحلين في جريدة "الصدار" الاسطنبولية، قبل أن تجبر ردود فعل "الرأي العام" الجريدة على وقف النشر. غير أن جريدة "النهضة" الفرانكوفونية نشرت ترجمة كاملة لهذه المقالات تحت عنوان "أحداث ووثائق" في أعدادها رقم ١٨٦ ص. ٣ تاريخ ٨ تموز ١٩١٩؛ ورقم ١٨٩ ص. ٢، ١١ تموز ١٩١٩؛ ورقم ١٩٢ ص. ٢، ١٥ تموز ١٩١٩؛ ورقم ١٩٨ ص. ٢-٣، ٢٢ تموز ١٩١٩.



اللاجئون الأرمن في بعقوبة، وقد نقلوا خريف ١٩٢٠ إلى نهر العمر، قرب البصرة، على الضفة اليمنى لشط العرب. مجموعة م ن ا

فرغ لتوه من إنجاز عمليــات ارتداد المرحلين. ويذكر أنه «حُكم على كاهن أرمني بالموت بحرمانه من الطعام لرفضــه رفضاً قاطعاً اعتناق الدين الإسلامي»[٤٢]. وفي الأماكن الأولى التي زارها، اكتشف آلاف الأشخاص الذين كانوا في حالة هزال شديد، «وجناهم مجوفــة، سواعدهم وسيقاهم كأنها قضبان، كانوا أشبه بمومياءات وهم يعانون سكرات الموت»[٤٣]. وبعد ذلك، صادف في «الجبل» المطل على صحراء حوران مجموعــة من القرى، حيث كان «٣٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ مرحل قد قضوا من التيفوس والحمى الراجعــة والملاريا التي كانت تجتاح المنطقــة بعنف». وفي حزراكوي، على بعد ساعة من كفرندجه، علم أن أربعمئة وسبعة عشر شخصاً من المبعدين إلى تلك القرية لقوا حتفهم: «في أزقة القرية الضيقة، كان أشخاص أموات أحياء يتقدمون بمشقــة متكئين على عكازات»[٤٤]. ورغم ذلك، تمكّن من استعادة أربعمئة أرملــة ويتيم في هذه المناطق الجبلية من جبل الدروز وإعادتهم إلى درعا، ومنها توجهوا في ثلاثة مواكب إلى دمشق وطرابلس الشام وحيفا ويافا وعكا. هذه العمليــة المتواضعة التي قرّرها جمال باشا، بينما كانت اسطنبول تقدم على إبادة المرحلين في معتقلات خط الفرات، أثارت نزاعاً حاداً بين حسن امجا وموفد الاتحــاد في دمشق نجاد بك. فقد كان هذا الأخير أمره خطيــاً بوقف أعمال الترحيل هذه، ولكن نظراً إلى عناد الضابط، توجه كلاهما إلى دمشق لعل جمال بــاشا يحسم خلافهما. ويبدو أن التقرير عن اللقاء، الذي كتبــه حسن امجا، أثبت أن قائد الجيش الرابع كان مصمماً بحزم على إنجاح مشروعه القاضي بإعادة إسكان مرحلي حوران الأرمن في لبنان وفلسطين. والواقع أن جمال بــاشا استطاع أن يعزل موفد الاتحاد من مهامــه، وأن يعيّن والي دمشق، تحسين بك، مديراً للمرحلين. ووفقاً لحسن امجا، فإنه قصد درعا بصحبــة تحسين بك في ٢٥ أيلول ١٩١٦. وهكذا استؤنفت بصورة مؤقتــة عمليــة إرسال مواكب المرحلين[٤٥].

ولئن لم يحقق هذا المشروع الهدف المنشود إذ كان كثيرون من المرحلين قد غيبهم الموت ولم يبقَ في حوران سوى ثلاثة إلى أربعة آلاف أرمني، فإنه مع ذلك نم عن تباين حاد بين جمال وإدارة الاتحاد.

٤٢ م. ن. رقم ١٨٦، ٨ تموز ١٩١٩، ص. ٣.
٤٣ م. ن. رقم ١٨٩، ١١ تموز ١٩١٩، ص. ٢.
٤٤ م. ن. رقم ١٩٢، ١٥ تموز ١٩١٩، ص. ٢.
٤٥ م. ن.



بعقوبة، ١٩١٩. سوق مخيم اللاجئين السريان والأرمن.
مجموعة م ن ا

... في الحسبان الممارسات القمعية التي تبناها جمال حيال نخب سوريا ولبنان العربيـــة، يمكننا أن ... ما هي الحوافز التي دفعتـــه إلى تهيئة حملة مناوئـــة لسياسة حزبـــه. ويكتفي هذا الأخير بكتابـــة ... في «مذكراتـــه»: «كنت أعتقد من الأفضل أن آتي بقسم كبير منهم إلى ولايتَي بيروت وحلب ... سوريتين»[46]، من دون أن يميط لنا اللثـــام عن الأهداف التي كان يسعى هكذا إلى تحقيقها.

لقد حررت القوات البريطانيـــة المجموعة الأولى المؤلفة من أربعين ناجياً في تشرين الثاني ١٩١٧ في منطقـــة وادي موسى (في الأردن) التي تشكل الحدود ... لمناطق الإبعاد. وكانوا قد أقاموا في مساكن صخريـــة أو في خرائب ... البتراء[47]. كما أتاح لهم الاستيلاء على القدس، في ٩ كانون الأول، أن يكتشفوا حوالى خمسمئة مرحل لجأوا إلى توابع دير القديس يعقوب الأرمني[48]. وبعيد ذلك، تم إيواء نحو مئة يتيم استُردوا من منطقـــة السلط الواقعـــة غرب عمان في دير القديس يعقوب أيضاً. وكذلك عثر في الطفيلة، في الطرف الجنوبي من البحر الميت، أثناء العمليات العسكريـــة في شباط ١٩١٨، على تسعمئة مرحل في حالة صحيـــة رهيبـــة. لقد شكلوا بقايا موكب من عشرة آلاف شخص تقريباً يتحدرون من غورون، ومرعش، وهادجين، ودورتيول، وقيصريه وماردين، وصلوا إلى الطفيلة[49]. وفي نيسان ١٩١٨، أغاث البريطانيون ألفاً وخمسمئة مرحل كيبكي يعيشون في السلط بالقرب من عمان، وآخرين في الكرك لجهة الجنوب، وهم يتحدرون من أضنه، ومرعش، وعنتاب، وكسب وقارص بازار[50].

وأخيرا اكتشفت القوات الفرنسية، في خريف ١٩١٨، أربعة آلاف أرمني في بيروت، إبان دخولهم المدينـــة في ٨ تشرين الأول، وألفاً في بعلبك وزحلـــة[51]؛ وبكلام آخر، كان ثمة مئـــة ألف مرحل على محور حلب دمشق سيناء عشيـــة إعلان الهدنة.

٤٦ جمال باشا، "مذكرات رجل دولة، ١٩١٣-١٩١٨"، لندن ١٩٢٢، ص. ٢٧٩.
٤٧ ا. م. ن.، أرشيف الجمعية، مراسلات المركز، الجزء ٢٣، رسالة المجلس المركزي إلى الكولونيل ديدس، مدير شعبة المخابرات، المكتب الحربي، ٥ تشرين الثاني ١٩١٧، الورقة ٢٢٥.
٤٨ م. ن.، الجزء ٢٤، رسالة المجلس المركزي إلى مدير شعبة المخابرات في القاهرة، ٣١ كانون الأول، الورقة ١٣٩.
٤٩ "٩٠٠ مرحل حرروا بدورهم في الطفيلة (سيناء)"، الاتحاد كانون الثاني-شباط ١٩١٨، رقم ٦١، ص. ٥.
٥٠ ا. م. ن.، أرشيف الجمعية، مراسلات المركز، المجلد ٢٦ الورقة ٩١: الدائرة التاريخية للبحرية، دائرة استعلامات البحرية، المجموعة الفرعية ك. ٨٧، تقرير عمّن، القدس ٢٩ كانون الثاني ١٩١٩، يؤكد وفقاً للمعلومات المرسلة من أ. منديكيان، التوترات التي سادت المنطقة، ووجود شابات كثيرات ونساء في الحريم، لم يتمكن الموفدون من استردادهن.
٥١ م. ن.



أرمنيان عثر عليهما بين أفراد قبيلة عربية في الموصل عام ١٩٢٥. انه هاكوب كادرجيان (إلى اليسار) من مواليد عنتاب، وملكون، لا يتذكر مسقط رأسه.
مجموعة م ن ا

مرحلو منطقتي الموصل وبغداد

أما المجموعة الثانية البارزة من المرحلين فكانت مقيمة في بلاد ما بين النهرين. ويشير البطريرك السابق زافين، المبعد إلى الموصل، إلى أن القوات التركيـــة غادرت المدينة في ٢١ تشرين الأول ١٩١٨[٥٢]. عندها عمد زافين يغيايان، بمؤازرة الفرق البريطانية، إلى تجميع النساء والأطفال المشتتين في المنطقـــة. فاستأجر خمسة منازل آوى فيها الناجين القادمين من الصحراء[٥٣]. فارتفع عدد المرحلين المجمعين، حتى نهايـــة كانون الأول، إلى ألف وسبعمئة مرحل، ليصبح في كانون الأول ١٩١٩ أربعـــة آلاف بينهم ألف يتيم[٥٤].

غير أن المشكلة الأساسية تمثلت في خمسة وسبعين ألف أرمني وسرياني كلداني ينتمون إلى سهلَي اورميا وسلمست، سلكوا دروب المنفى باتجاه همذان وبعقوبة في ١٨ تموز ١٩١٨، هرباً من تهديد جنود علي إحسان باشا العثمانيين بارتكاب مجازر بحقهم. فبعد الجلاء عن أذربيجان الإيرانيـــة، قام هؤلاء المسيحيون بمسيرة طويلـــة بحثاً عن حماية بريطانية، غير أن القوات التركية طاردتهم وقتلت العديد منهم في ضواحي حيدراباد، كما لقي آخرون حتفهم أثناء الهجمات التي قامت بها العشائر الكرديـــة في الطريق، فيما قضى آخرون نتيجة الإرهاق والجوع والمكايد، شأن أولئك الخيالة الأربعمئة المرتدين بزات بريطانية، الذين اغتالوا حاكم فان السابق كوستي همبارتسوميان، على مشارف ممر قلعة ساهين الجبلي، حيث نُصب كمين حقيقي. خلال هذه العملية التي نفذها في آن واحد قوات تركية وعناصر كردية غير نظامية، أزهقت أرواح خمسة آلاف شخص تقريباً[٥٥].

وقدر عدد المسيحيين اللاجئين إلى همذان[٥٦]، أواخر أيلول ١٩١٨، بخمسين ألف مسيحي، خمسة عشر ألفاً منهم أرمن، ومعظمهم من منطقـــة فان تمكنوا من بلوغ بعقوبة الواقعـــة شمال شرق بغداد[٥٧]. وتوزع الأرمن الذين استقروا خلال خريف في معسكر الخيم هذا في كانون الأول ١٩١٩ على النحو الآتي: عشرة آلاف ومئتان وسبعة وأربعون شخصاً من منطقـــة فان؛ وألفان وخمسمئة وأربعون شخصاً من أذربيجان الإيرانيـــة؛ وخمسمئة وسبعة وأربعون شخصاً من بتليس؛ وثلاثمئـــة وخمسة وثلاثون شخصاً من حلب؛ ومئتان وتسعون شخصاً من كيليكيا؛ فيما الباقون كانوا من مواليد القوقاز، وأرضروم، وسيواس، وخاربرت، وبورصا، وأنقره والعاصمة[٥٨]. هذا وكان للمعسكر ميتم تأسس في تشرين الأول ١٩١٨، وتديره الجمعيـــة الراعيـــة للأيتام الأرمن، ومقرها في مصر. ألف ومئتـــا طفل، غالبيتهم من منطقـــة فان وأذربيجان تم إيواؤهم تحت الخيام.

إن رقم المئة وخمسة عشر ألف مرحل أرمني موزعين في المثلث المحصور بين سوريـــا والطرف الشمالي الغربي من الخليج الفارسي وشبه جزيرة سينـــاء عند توقيع الهدنـــة، هو، من دون ريب، قريب من الواقع. غير أنه لا يأخذ في الحسبان فئـــة أخرى من الناجين، وهم النساء والأطفال المعتقلون في تلك المناطق نفسها، وسط القبائل البدويـــة، الذين أتى فاهـــه طاشجيان على ذكر مصيرهم المأساوي.

٥٢ دير يغيايان، "مذكراتي" ص. ٢٤٢-٢٤٣.
٥٣ م. ن.، ص. ٢٤٧ ؛ ا. م. ن.، وثائق الوفد الوطني الأرمني، ١-١٥، رسالة المطران م. سيروبيان إلى بوغوص نوبار، الموصل ٦ كانون الثاني ١٩١٩. تشير إلى مئة مومس.
٥٤ دير يغيايان، "مذكراتي"، م. س. ص. ٢٤٩-٢٥٠، ٢٦٩ و٢٧٣. إن تجميع هؤلاء المرحلين تيسر بفعل الأبوين برسيخ طوروسيان من ارسلان بك وغيفونت من جيفه.
٥٥ مكداليذ كولنظاريان-تشانيان، أرمن اذربيجان: "تاريخ محلي ورهانات إقليمية، ١٨٢٨-١٩١٨"، أطروحة دكتوراه، جامعة باريس ٣، ٢٠٠٢، ص. ١٩٨-١٩٩.
٥٦ AMG، ١٦ ن. ٣١٨٦: ارتور بيريان، "الدول الكبرى، الإمبراطورية العثمانية والأرمن في الأرشيفات الفرنسية (١٩١٤-١٩١٨)، باريس ١٩٨٣ ص ٦٧٠.
٥٧ تقرير أرسل إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٦ كانون الأول ١٩١٨: أرشيف الدولة المركزي لتاريخ أرمينيا، المصدر ٢٧٦، الجزء ١، الرزمة ٧٩، رقم ١-٧: كولنظاريان-تشانيان، "أرمن اذربيجان"، أطروحة ذكرت سابقا، ص. ٢٠٠؛ أرشيف الدولة المركزي لتاريخ أرمينيا، المصدر ٥٧، الجزء ٥، الرزمة ١٩٨، الورقتان ١-٢: م. ن. ص. ٢٠٢-٢٠٣.
٥٨ أرشيف الجمعية المركزي، القاهرة، بغداد، ١٩١٠-١٩٣٧، رسالة من لجنة بغداد إلى مقر القاهرة المركزي، تاريخ ١٨ حزيران ١٩٢٠.





حلب، عام ١٩١٩، بداية إعادة توطين
المرحلين الأرمن باتجاه كيليكيا.
مكتب التوطين أمن لهم سندات انتقال مجانية
ومنح كل عائلة ١٠ قروش
اعتبرت كافية لنفقات السفر المختلفة.
تصوير نجاريان، مجموعة م ن ا

من إعادة المرحلين إلى ديارهم في كيليكيا إلى الهجرة الجماعية باتجاه سوريّا ولبنان

بقلم فاهه طاشجيان

إعادة المرحلين إلى ديارهم في كيليكيا

احتلت فرنسا، غداة الحرب العالمية الأولى، جزءاً من المنطقة العثمانية وبخاصة كيليكيا، تحدوها رغبة أكيدة في البقاء فيها بصورة دائمة. غير أن الجنود والإدارة الفرنسية اصطدموا، منذ وصولهم إلى كيليكيا، بمقاومة الوطنيين الأتراك المصممين على محاربة جيوش الاحتلال وحلفائها المحليين. إذ إن فكرة تركيا جديدة، تضم كل آسيا الصغرى، كانت بدأت تشق طريقها متجسدة في مصطفى كمال. إزاء هذا التهديد، ارتكزت استراتيجية ضبط المنطقة التي أعدها المسؤولون الفرنسيون في المشرق على الاعتماد على القوى المحلية المكونة من جماعات كيليكيا الإتنية والدينية الرئيسية غير التركية، من أرمن وعرب علويين وأكراد وشراكسة. وتمثل أحد مظاهر مخطط هذا العمل الأكثر إثارة للدهشة في نقل عشرات الآلاف من الأرمن إلى كيليكيا — موطن إقامتهم الأصلي — وكانوا في غالبيتهم ينتمون إلى تلك المنطقة، وقد كتبت لهم النجاة من صحراءي سوريا وبلاد ما بين النهرين، حيث تم ترحيلهم عام ١٩١٥.

إن قرار تنظيم عملية إعادة المرحلين الواسعة اتخذته قيادة الحلفاء في كانون الثاني ١٩١٩، بينما أخذت فرنسا على عاتقها مصاريف النقل. وأنشىء في حلب مكتب يُعنى خصوصاً بهذه المسألة، هو الدائرة المركزية لإعادة إيواء الأرمن، وكانت مهمتها الرئيسية إعادة تعيين أماكن لعشرات آلاف الأرمن المتحدرين من كيليكيا، الذين كانوا آنذاك متجمعين في مخيمات حلب أو بيروت أو دمشق.

وكانت القيادة البريطانية في ذلك الحين أشد تصميماً على تسريع وتيرة إعادة الإيواء هذه، بحيث كان ينبغي استباق الأحداث المحتملة التي يمكن أن يسببها حضور اللاجئين الأرمن الطويل الأمد في سوريا، ومداراة نظام الأمير فيصل العربي، وقد بات سيد المناطق المحصورة بين حلب ودمشق. وكشفت حادثة مأساوية وقعت في حلب، في شباط ١٩١٩، مدى هشاشة الأوضاع التي يعيش فيها المرحلون في المدن السورية الكبرى، وضرورة استعجال إجلائهم. فقد حدث توتر شديد غذته بعض الأوساط الإسلامية المتعصبة في حلب

مرسين (كيليكيا) بمجموعة ميشال بابودجيان. — عمال ينقلون مركباً كبيراً — منزل الحاكم المكتبة الفرنسية — الناشر س. دوبا





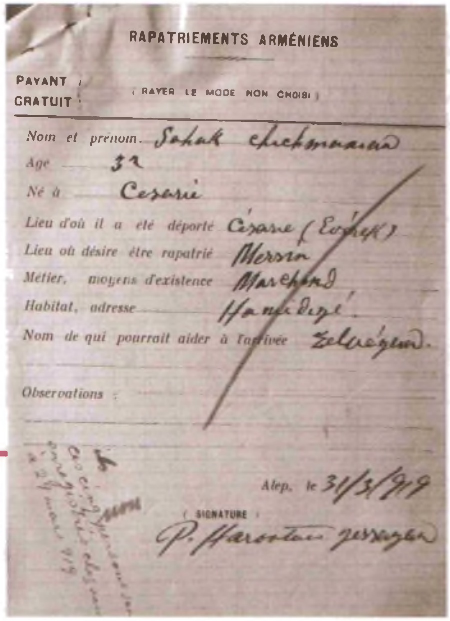
وصول أطفال بور سعيد إلى ميتم الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، نهاية تشرين الثاني ١٩١٩
مجموعة م ن ا

عبر صحفها التي أقدمت على نشر مقالات نارية تهدف إلى إثارة الجماهير الشعبية ضد اللاجئين الأرمن. ووقعت، في الوقت عينه، أحداث خطيرة في مدينة الاسكندرون القريبة بين جنود من الفرقة الأرمنية والسكان المسلمين المحليين. ولما بلغ نبأ هذه الصدامات حلب، أسهم في تأجيج الوضع في المدينة. وأخيراً أسفرت هذه الحملة، في ٢٨ شباط ١٩١٩، عن حركة شعبية معادية للأرمن في حلب. فاندفعت عامة الناس في المدينة، يصحبها دركيون وجنود عرب، بحثاً عن لاجئين أرمن. واستمرت المجازر ساعات عدة ولم تتوقف إلاّ بعد تدخل الجيش البريطاني. وكانت الحصيلة مقتل خمسين أرمنياً وجرح مئة وخمسين، فيما اعتبر عديدون في عداد المفقودين.

من هذه الأحداث استخلص البريطانيون العبرة، فقرروا تسريع وتيرة عمليات إعادة ايواء الأرمن، تداركاً لحصول مثل هذه الأعمال العنفية في أماكن أخرى. فأخليت حلب من لاجئيها الأرمن من دون الأخذ في الاعتبار ظروف الحياة التعسة التي سببها وصولهم بشكل حاشد إلى كيليكيا.

كان المرحلون أنفسهم مقتنعين أن إعادتهم إلى ديارهم هي الحل الأمثل، ويتبنون عن طيبة خاطر سياسة الحلفاء. فقد رغب المرحلون الأرمن في العودة إلى وطنهم، مهما كلف الثمن، علماً أن البريطانيين والفرنسيين لم يسعهم أن يضمنوا أمنهم بالكامل في مناطقهم الأصلية. وحقيقة الأمر أن عشرات الآلاف من اللاجئين فضلوا، إثر هزيمة العثمانيين، أن يُعادوا ويعيشوا في منازلهم المدمرة والمسلوبة، على أن يقضوا شتاء آخر في أماكن ترحيلهم، وبكلام آخر البقاء في وضع غير مستقر. ومنذ كانون الثاني ١٩١٩، اتجه عدد من المرحلين المقيمين في منطقتَي دمشق وحلب إلى بلادهم، مع العلم أن السواد الأعظم منهم انتمى إلى كيليكيا، أو إلى مناطق واقعة أكثر إلى جهة الشرق، مثل مرعش، واورفا، وعنتاب وماردين، أي إلى مناطق قريبة نسبياً. غير أن آخرين كانوا من مواليد القسطنطينية، وادرنه، ورودوستو، وازميت ـــ بروصا، واسكي شهر، وبندرما، وازمير وقونيه، وكلها تقع على مسافة تبعد نحو ٢٠٠٠ كلم من المدن السورية[١]. ومع ذلك، كانت تغادر دمشق كل يوم قوافل مكونة

١ مكتبة نوبار، أرشيف الوفد الوطني الأرمني، ١-١٥، مراسلات شباط آذار ١٩١٩، رسالة من الاتحاد الوطني الأرمني في دمشق إلى بوغوص نوبار، ١٠ كانون الأول ١٩١٨.



RAPATRIEMENTS ARMÉNIENS

PAYANT / GRATUIT (RAYER LE MODE NON CHOISI)

Nom et prénom Sahak Chichmanian

Age 32

Né à Cesarie

Lieu d'où il a été déporté Césarie (Eohek)

Lieu où désire être rapatrié Mersin

Métier, moyens d'existence Marchand

Habitat, adresse Hamidiyé

Nom de qui pourrait aider à l'arrivée Zelveyan

Observations

Alep, le 31/3/919

SIGNATURE

P. Haroutian Yessayan

وثيقة إعادة توطين، آذار ١٩١٩.
م ا د ن، الانتداب على سوريا ــ لبنان، الدفعة الأولى، كيليكيا ــ اضنه، ٣١٩.



تذكرة قطار حلب ــ اضنه أعطتها إلى اللاجئين الأرمن دائرة إعادة التوطين التي كان يديرها الجنود الفرنسيون.
م ا د ن، الانتداب على سوريا ــ لبنان، الدفعة الأولى، كيليكيا ــ اضنه، ٣٢٠.

من مئة وخمسين شخصاً بمعدل وسطي متجهة إلى آسيا الصغرى، بحيث لم يبقَ في المدينـــة، في أيـــار ١٩١٩، سوى عشرة إلى اثني عشر ألف لاجيء أرمني[٢]. بيد أن الأرمن الذين تم إجلاؤهم، سرعان ما حل محلهم لاجئون آخرون قدموا أفواجاً من المناطق الجنوبيـــة في حوران ودرعا. وقد نظمت القوات الحليفـــة البريطانيـــة والفرنسية، بالتعاون مع الاتحاد الوطني الأرمني[٣]، عمليات الإعادة هذه. ومنذ مطلع ١٩١٩، مثلت بيروت دور مركز عبور لآلاف الأرمن الوافدين من دمشق، والقدس، وحوران، وطرابلس، وحمص وحماه. وقد نصبت فيها القوات الحليفـــة خيماً كبيرة بمساهمة الاتحـــاد الوطني الأرمني في بيروت، لإيواء المرحلين خلال بضعـــة أيام، قبل أن يتم توجيههم إلى ديارهم الأصليـــة[٤]. وفي تموز ١٩١٩، لم يبقَ في دمشق[٥] إلاّ ألف وخمسمئة لاجيء.

كما بدأ ازدحام مدينـــة حلب يخف من عشرات الآلاف من مرحليـــها. ففي شباط ١٩١٩، أجلي من المدينـــة وضواحيها أكثر من نصف مرحليـــها، إلى حد لم يعد يوجد فيها غير خمسة عشر ألف ناج في المنطقـــة، ألفان منهم مجمعون في الثكنـــة التركيـــة التي حُولت مخيماً للاجئين. فأمن لهم مكتب إعادة المرحلين سندات نقل مجانية ومُنحت كل عائلـــة ١٠ قروش من شأنها أن تغطي نفقات السفر الأخرى. وفي نيسان، تدنى عدد اللاجئين المتوقفين في حلب إلى أحد عشر ألف شخص، معظمهم أيتام ونساء مهجورات، أو عائلات بقيت مواطنها الأصليـــة خارج المناطق التي احتلتها الفرق الحليفة[٦].

على هذا المنوال، جرت إعادة إسكان مدن كيليكيا وبلداتها وقراها بسكانها الأرمن العائدين اليها. وشُيّدت مخيمات استقبـــال ومياتم في شتى المدن الكيليكية. وإذا

٢ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، دمشق، رقم ١٢، ٢١ تموز ١٩١٠ ــ ٢٦ آذار ١٩٣١، رسالة من لجنة اتحاد دمشق إلى المقر المركزي في القاهرة، ١٥ ايار ١٩١٩.

٣ هذا التنظيم الذي أنشيء مطلع ١٩١٧ في القاهرة، كان يضم مختلف الأحزاب السياسية والمؤسسات الأرمنية العاملة في الأراضي المصرية. بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، دعت القوات الحليفة ــ الفرنسية في كيليكيا والبريطانية في سوريا على إنشاء فروع للاتحاد الوطني الأرمني، لأنها كانت آنذاك تحتاج الى محاورين يمثلون شتى مكونات المجتمع الأرمني. وغداة الهدنة، شجع الجنرال اللنبي، قائد الجيوش الحليفة في الشرق الأوسط، وجورج بيكو، ممثل فرنسا في المنطقة، على تشكيل فروع للاتحاد الوطني الأرمني في كل المناطق التي احتلها الحلفاء وتواجد فيها أرمن.

٤ مكتبة نوبار، أرشيف الوفد الوطني الأرمني ١ ــ ١٨، مراسلات آب ــ تشرين الثاني ١٩١٩، رسالة من الاتحاد الوطني الأرمني في بيروت إلى بوغوص نوبار، ٢٠ آب ١٩١٩.

٥ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، دمشق، رقم ١٢، ٢١ تموز ١٩١٠ ــ ٢٦ آذار ١٩٣١، رسالة من لجنة اتحاد دمشق إلى مقر القاهرة المركزي، ٥ تموز ١٩١٩.

٦ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، حلب، رقم ٢٣، نيسان ١٩١٠ ــ كانون الأول ١٩١٩، رسالة من لجنة اتحاد حلب إلى مقر القاهرة المركزي، ٩ نيسان ١٩١٩.



اضنه، وصول الجنود السنغاليين التابعين لجيش المشرق الفرنسي، ١٩١٩.
مجموعة ميشال بابودجيان.

كانت غالبية الأرمن المعاد إيواؤهم إذ ذاك من المتحدرين من كيليكيا، فإن عدداً لا يستهان به من الناجين جرى إسكانهم فيها على السواء، رغم كونهم من مواليد مناطق أخرى في آسيا الصغرى، وذلك بانتظار تحسن محتمل قد يطرأ على الأوضاع الأمنية في المناطق التي يتحدر منها هؤلاء الناجون. إذ كان المهم، بالنسبة إلى القيادة البريطانية، هو إخلاء سوريا وفلسطين من لاجئيهما، وفي الوقت نفسه، التخفيف من عبء مالي لا يمكن التهاون به.

آمال بناء موطن جديد في كيليكيا

إذ كان الحلفاء يتخلصون من مشكلات ناجمة عن وجود الأرمن في المدن العربية الكبرى، تسببوا في خلق مشكلات أخرى: فالإدارة الفرنسية في كيليكيا أدركت من فورها أن الوصول المتسرع لمثل هذا العدد الهائل من اللاجئين إلى منطقة كانت التوترات الطائفية فيها يومذاك على أشدها، سوف يعرقل مهامها، وخصوصاً أن عديد الفرنسيين في المنطقة الكيليكية غير كاف بتاتاً لتأمين سلامة جميع هؤلاء الذين أُعيد إيواؤهم، ولا سيما وسط التجمعات الكبرى مثل مرعش، أو عنتاب أو اورفا، حيث عدد السكان الأتراك والأكراد كبير ومعارض لوجود الفرق الحليفة. لهذا السبب، التمس المدير العام لمنطقة كيليكيا، الكولونيل بريمون، القريب من مسرح العمليات والواعي للخطر المتأتي عن بادرة في مثل هذا الاتساع، التمس من رؤسائه مراراً أن يحدوا من وتيرة عمليات إعادة الإيواء ما لم يستتب شيء من الاستقرار السياسي في المنطقة. مع ذلك، لم تأخذ القيادة البريطانية اعتراضاته في الاعتبار، وإنما استمرت في إعطاء الأولوية لإجلاء الناجين عن سوريا، أياً كان الثمن.

وفي أواخر ١٩١٩، كان عدة آلاف من اللاجئين الأرمن ما زال ينبغي توجيههم إلى كيليكيا، غير أن ظروفاً سياسية جديدة وتغيّر السياسة الفرنسية تجاه الحركة الكمالية، الذي أمكنت ملاحظته منذ نهاية ١٩١٩،



جولة الكولونيل بريمون، مدير عام كيليكيا، في عثمانيه.
مجموعة ميشال بابودجيان.

حالا دون إعادة إيواء القسم الأكبر منهم. وكان بين هؤلاء الناجين اثنا عشر ألفاً في بغداد، في مخيم بعقوبة[7]، وخمسة عشر ألفاً في دير الزور، وثمانية آلاف في حلب وثمانية آلاف في بور سعيد[8]، ولكن وحدهم لاجئي بور سعيد جرت إعادتهم إلى ديارهم حوالى نهاية ١٩١٩ ومطلع ١٩٢٠.

إذ قام الحلفاء بعملية إعادة الإيواء هذه، أعادوا تكوين كيليكيا بحيث يؤلف السكان الأرمن فيها أكثرية نسبية، وذلك تبعاً لاستراتيجية إعادة التوازن الديمغرافي في المنطقة التي أرادتها فرنسا. وبكلام آخر، فإن إعادة المرحلين كانت تتناسب مع استراتيجية إعمار أرض لفرنسا فيها أطماع سياسية واقتصادية.

واهتمت الإدارة الفرنسية، بقيادة الكولونيل بريمون، منذ استقرارها في كيليكيا في ١ شباط ١٩١٩، باحتياجات اللاجئين الأرمن الاجتماعية ونسقت نشاطها مع المؤسسات الإنسانية الأرمنية. وبينما لم تكن أي اتفاقية دولية قد حددت بعد وضع كيليكيا، فإن الإدارة الفرنسية تدخلت في الشؤون المحلية رغبة منها في فرض سلطانها. ولكن، لبلوغ هذه الغاية، كان عليها أولاً ان تؤدي دور القاضي الشغوف بالعدل، حتى لو كان ينبغي أن تتخلى هكذا عن شرائح كبيرة من السكان المسلمين. فأصدر الكولونيل بريمون، وهو الحريص على الاعتماد على الأرمن، مراسيم عدة تنم عن رغبة الإدارة الفرنسية في تشجيع إعادة إسكان الأرمن في كيليكيا: «القرار رقم ٣٢ أعلن بأن مبيعات المباني التي أجراها المصرف الزراعي على حساب الأرمن المرحلين هي باطلة ولا مفعول لها» (٣ نيسان ١٩١٩)؛ «والقرار رقم ٥٤ أفاد بأن مبيعات الممتلكات التي أجرتها الإدارة التركية لدفع ضريبة العشر أو ضرائب أخرى متوجبة على مرحلين هي باطلة ولا مفعول لها» (٢٥ نيسان ١٩١٩)؛ «والقرار رقم ٨٨ قضى، في بعض الحالات المحددة، بحجز الأموال المنقولة وغير المنقولة المتنازع عليها أمام لجان التحكيم» (٢٩ حزيران ١٩١٩)؛ «القرار رقم ١٠٧ تعلق بإعادة النساء والأطفال المسيحيين الذين هم في حوزة المسلمين» (٩ آب ١٩١٩).

٧ الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٤١٨٤، بول. تركيا ١٩١٩ «إعادة توطين لاجئي أرمن كيليكيا»، من الخارجية البريطانية إلى اللورد دربي، باريس ١٨ تشرين الثاني ١٩١٩، لندن الأوراق ٤٨٧-٤٩٠.

٨ الأرشيف الوطني، الملف: بريمون، الصندوق: كيليكيا، رسالة شخصية من الكولونيل بريمون إلى الأميرال دوبون، القائد العام لأسطول المشرق البحري، نهاية ١٩١٩.

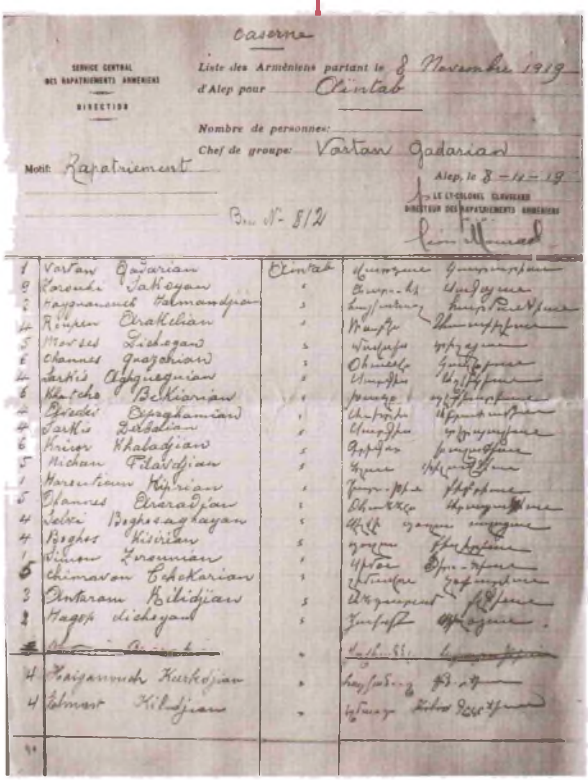
هذه الإجراءات التي اتخذتها الإدارة الجديدة أشّرت إلى نزعـــة واضحة إلى ترسيخ الوجود الفرنسي في المنطقـــة على مدى الزمن، وتعزيز مواقعه فيها أكثر فأكثر. وحاولت فرنسا، عبر نظام «المراقبـــة الإداريـــة الخاص بها»، أن يكون لها، على امتداد عام ١٩١٩، اليد الطولى في شؤون كيليكيا وأن تفصل المنطقـــة تدريجاً عن سائر الإمبراطوريـــة العثمانيـــة. في الحقيقة، إن الإجراءات التي اعتمدها الكولونيل بريمون وفريق عمله رمت إلى رد الاعتبار إلى وضع المسيحيين، وبنوع أخص إلى وضع الأرمن الذين كان يجب أن يشكلوا الركن الأساسي الذي ينبغي أن ترتكز عليه السلطـــة الفرنسية في كيليكيا. وبسبب العطف تجاه الأرمن، كان القادة الأرمن المهتمون بكيليكيا مقتنعين بأن فرنسا تنوي إنشاء حكم ذاتي أرمني تحت الحمايـــة الفرنسيـــة.

غير أن المشروع الامبريالي الفرنسي في كيليكيا ما كان ليلبي طموحات المسؤولين الأرمن. في الواقع أن السياسة الفرنسية في المنطقة لم تكن تقوم على تفضيل جماعة محلية على حساب أخرى، إذ إن هدفها الرئيسي كان إنشاء دولة كيليكية ذات حكم ذاتي مستقل، تحت الحماية الفرنسية. وكان عليها، من هذا المنظور، أن تفوز بمساهمة كل الجماعات، وفي هذه الحالة الجماعات غير التركية، وذلك بتقديم امتيازات مختلفة لكل منها، لكي تبعدها بشكل أفضل عن تأثير الوطنيين الأتراك الذين كانوا يناضلون ضد الاحتلال الفرنسي للمنطقة.

في كل حال، لقد دشنت العودة إلى الديار عهداً جديداً بالنسبة إلى أرمن كيليكيا. ففكرة العيش تحت حماية فرنسا حملتهم على التطلع إلى مستقبل أقل ظلاماً، هم الذين أعياهم التشرد طوال أربعة أعوام في صحراءي سوريا وبلاد ما بين النهرين، وأضناهم الحرمان وشظف العيش. بالنسبة إلى هؤلاء العائدين إلى ديارهم، كان ينبغي، مذذاك، أن يعاد بناء حياة مشتركة ديناميكيـــة. فالجماعة الأرمنية الميسورة، النشطة، الكبيرة

قائمة بأسماء أشخاص من دمشق لإعادة توطينهم، أيار ١٩١٩.
م ا د ن، الانتداب على سوريا ــ لبنان، الدفعة الأولى، كيليكيا ــ اضنه، ٣٢٠.

قائمة بأشخاص من حلب، لإعادة توطينهم في عنتاب، تشرين الثاني ١٩١٩.
م.ا.د.ن، الانتداب على سوريا ــ لبنان، الدفعة الأولى، كيليكيا ــ اضنه، ٣٢٠.


Caserne

SERVICE CENTRAL DES RAPATRIEMENTS ARMÉNIENS

DIRECTION

Liste des Arméniens partant le 8 Novembre 1919 d'Alep pour Aintab

Nombre de personnes:

Chef de groupe: Vartan Gadarian

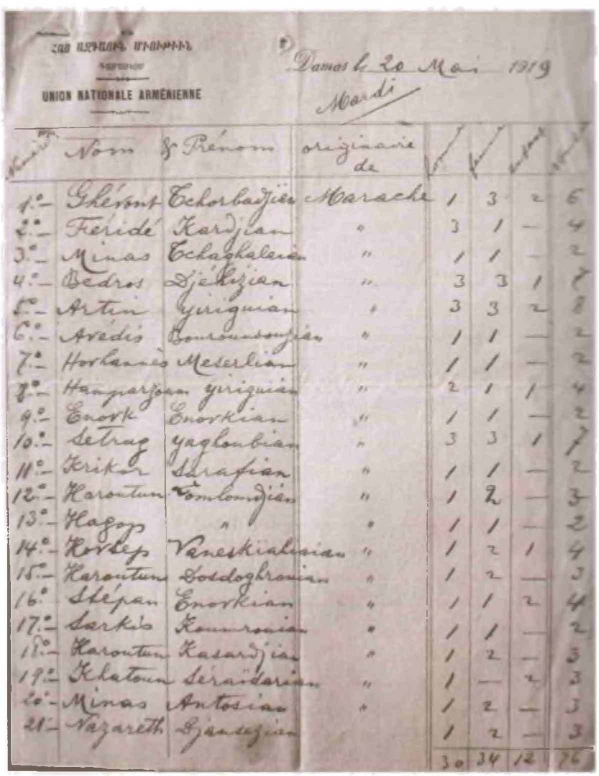
Motif: Rapatriement

Alep, le 8-11-19

LE LT-COLONEL CLAVIÉRAS DIRECTEUR DES RAPATRIEMENTS ARMÉNIENS

Bu. N- 812

1	Vartan Gadarian	Aintab	[illegible]
9	Koronki Takeyan	"	[illegible]
2	Hayganouch Halmandjian	"	[illegible]
4	Roupen Arakelian	"	[illegible]
5	Movses Dichegan	"	[illegible]
6	Ohannes Ghazarian	"	[illegible]
4	Sarkis Aghguegnian	"	[illegible]
6	Khatcho Bekiarian	"	[illegible]
4	Avedis Ouzgharnian	"	[illegible]
4	Sarkis Derbalian	"	[illegible]
6	Krikor Khabadjian	"	[illegible]
5	Michan Filavdjian	"	[illegible]
1	Harentiun Kiprian	"	[illegible]
5	Ohannes Araradjian	"	[illegible]
4	Selvi Boghosaghayan	"	[illegible]
4	Boghos Kisirian	"	[illegible]
1	Simon Zorounian	"	[illegible]
5	Chimavon Tchakarian	"	[illegible]
3	Antaram Kilidjian	"	[illegible]
2	Hagop Licheyan	"	[illegible]
4	[illegible]	"	[illegible]
4	Haiganouch Kurkdjian	"	[illegible]
4	Elmast Kilidjian	"	[illegible]
[illegible]			


UNION NATIONALE ARMÉNIENNE

Damas le 20 Mai 1919
Mardi

N°	Nom & Prénom	originaire de				
1°-	Ghéront Tchorbadjian	Marache	1	3	2	6
2°-	Feridé Kardjian	"	3	1	—	4
3°-	Minas Tchaghalian	"	1	1	—	2
4°-	Bedros Djehizian	"	3	3	1	7
5°-	Artin Yiriguian	"	3	3	2	8
6°-	Avédis Bouroundoudjian	"	1	1	—	2
7°-	Hovhannès Meserlian	"	1	1	—	2
8°-	Hampartzoum Yiriguian	"	2	1	1	4
9°-	Enovk Enovkian	"	1	1	—	2
10°-	Setrag Yaghoubian	"	3	3	1	7
11°-	Krikor Sarafian	"	1	1	—	2
12°-	Haroutun Tomlomdjian	"	1	2	—	3
13°-	Hagop "	"	1	1	—	2
14°-	Hovsep Vaneskialisian	"	1	2	1	4
15°-	Haroutun Dosdoghrouian	"	1	2	—	3
16°	Stépan Enovkian	"	1	1	2	4
17°-	Sarkis Kounrouian	"	1	1	—	2
18°-	Haroutun Kasardjian	"	1	2	—	3
19°-	Khatoun Séraïdarian	"	1	—	2	3
20°-	Minas Antosian	"	1	2	—	3
21°-	Nazareth Djansezian	"	1	2	—	3
			30	34	12	76

والمتعلمة نسبياً قبل الحرب، كانت قد فقدت كل شيء وتهدمت بناها الداخليـــة. وفي أي حال، كانت المنطقة الكيليكية على وشك أن تصبح مكاناً آمناً، حيث تجمع عشرات الآلاف من الناجين من الإبادة الجماعية، وصار في مقدورهم أن يطوروا حياة مشتركة بمنأى عن بشاعات الماضي، وتحت حماية فرنسا. وعلاوة على ذلك، لم تلبث كيليكيا أن تراءت لأعين الأرمن المتحدرين من مناطق أخرى في الإمبراطورية العثمانية وكأنها موضع تجمع لهم. فبادر كثيرون إلى المجيء إليها والمشاركة في بناء الاستقلال الذاتي الكيليكي الجديد، حيث أنيط الدور الرئيسي بالجماعة الأرمنية.

ولكن حماس الأرمن كان قصير الأمد.

تبدل السياسة الفرنسية: التخلي عن كيليكيا

تمكنت فرنسا، في نهاية ١٩١٩، من فرض سيطرتها على مجمل أراضي كيليكيا. ولم تكن هجمات القوات الوطنية التركية تشكل آنذاك تهديداً حقيقياً لسلامة كيليكيا. ومن ناحيــة أخرى، لم يتوصل الكماليون إلى الاستقرار بصورة مستمرة في المناطق الكيليكية وتنظيم كفاح داخلي ضد الاحتلال الفرنسي. فالموقف الذي تبنته الجماعات العربية العلوية والكردية والشركسية في كيليكيا أكد رغبتها الأصلية في تقديم مساعدتها لفرنسا، ما دامت هذه القوة سيدة كيليكيا، ولم تظهر عليها بوادر ضعف في نضالها ضد الأتراك. أما الجماعات المسيحيـــة الكيليكية، فكان حلفها مع فرنسا في هذه الآونـــة أمراً مقرراً.

غير أن الحرب التي شنها الوطنيون الأتراك على الوجود الفرنسي اتخذت منحى جديداً، عندما حل الجنود الفرنسيون محل البريطانيين في تشرين الثاني ١٩١٩، في «أراضي الشرق» التي تضم مناطق مرعش، واورفا وعنتاب. في هذا الوقت، تولى فريق جديد برئاسة الجنرال غورو، الذي عين مفوضاً سامياً على سوريا ـــ لبـــنان ـــ كيليكيا، قيـــادة الفرق والإدارة الفرنسية في المشرق. وليس في نيتنا أن نشرح هنا بالتفصيل تطور العلاقات الفرنسية ـــ التركية في ما يتعلق بمسألة كيليكيا. لذا سنكتفي بأن ننوّه بأن وصول غورو آذن بتحول كبير في السياسة الفرنسية حيال تركيا والحركة الوطنيـــة التركية. فأول إجراءات الدبلوماسية الفرنسية التي بوشر تنفيذها نهاية ١٩١٩ تجاه الكماليين، سعت إلى هدف استراتيجي يقوم على إخلاء الجبهة الشماليـــة المواجهـــة للأتراك، وذلك بغية تركيز الجهد العسكري الفرنسي على سوريا ولبنان. فقد شكل هذان البلدان على الدوام الفسحة الملائمـــة للتغلغل الثقافي والاقتصادي والسياسي الفرنسي. ويبدو أن فرنسا كانت، في السياق السياسي ـــ الاستراتيجي نهاية عام ١٩١٩، مستعدة للتضحيـــة بكيليكيا لتأمين سيطرتها على سوريا ولبنان[٩].

في هذه الظروف، حل الجنود الفرنسيون محل البريطانيين في «أراضي الشرق». استقبل الأرمن بارتياح نقل السلطات هذا، إذ إنهم كانوا على يقين أن الإدارة الفرنسية الجديدة ستتبنى إجراءات مماثلة لتلك التي اتخذها الكولونيل بريمون في كيليكيا، وكانت مؤيدة لقضية الأرمن. لذلك قاموا مجدداً بتقديم شكاوى من أجل استعادة ممتلكاتهم المسلوبة إبان الحرب. وبكلام آخر، فإن المسلمين، بعدما أملوا في الحفاظ على الثروات المغتصبة من الأرمن أثناء الإبادة الجماعية، انتابهم القلق من الوضع الجديد المستحدث جراء وصول الفرنسيين. واحتمال إعادة الممتلكات الأرمنية وإدانة الوجهاء

٩ أنظر في هذا الخصوص فاهه طاشجيان «فرنسا في كيليكيا وفي بلاد ما بين النهرين العليا: على تخوم تركيا، وسوريا والعراق»، باريس ٢٠٠٤، ص. ١٠٧-١١٣.

تحصين المتورطين بوحشية في جرائم الحرب المرتكبة بحق المدنيين دفع عدداً كبيراً من سكان تلك المدن إلى الالتحاق بالحركة الوطنية التركية التي تزعمها مصطفى كمال.

عندئذ تفجرت، في ٢١ كانون الثاني ١٩٢٠، الانتفاضة التركية داخل مدينة مرعش، تدعمها في الخارج القوات الوطنية المرابطة في القرى المحيطة بها. وفي ١١ شباط، وفيما كان ميزان القوى على الأرض يبدو أنه لمصلحة الفرنسيين، غادرت الحامية الفرنسية المدينة على نحو مخلية الجو للوطنيين الأتراك. في الحقيقة، إن إخلاء مرعش قلب الوضع المحلي رأساً على عقب. فكل البنيان الذي شيده حكام كيليكيا الفرنسيون انهار مع انتصار الوطنيين الأتراك في مرعش، وبخاصة أن هذه الهزيمة تلتها سريعاً انسحابات أخرى من «أراضي الشرق». ففي ٢٠ نيسان ١٩٢٠، أخلت حامية اورفا الفرنسية المدينة بدورها، بعدما عانت حصاراً استمر واحداً وستين يوماً. وفي أيار، حاصرت القوات التركية مدن بوزنتي، وهادجين، وسيس، واكباز وعنتاب. وفي شهر آب، نظم الجيش الفرنسي عملية إخلاء مواقعه وإجلاء جميع السكان الأرمن من سيس. لم يفكر هؤلاء، وقد روعتهم أنباء مجازر مرعش، في البقاء لحظة واحدة في سيس بعد رحيل الجنود الفرنسيين.

لهذا السبب، غادر حوالى سبعة آلاف وخمسمئة أرمني المدينة واستقروا في أضنه. وكان السواد الأعظم من هؤلاء اللاجئين ينتمي إلى سيس، بالإضافة أيضاً إلى جماعات من البلدات والقرى المحيطة مثل قارس بازار وفكه.

وفي هذه الأثناء، استمر حصار هادجين. وفي نيسان ١٩٢٠، باتت المدينة بأسرها مطوقة بالأتراك: لقد تحصن فيها ٧٠٠٠ أرمني وقاوموا بمفردهم، في غياب الجنود الفرنسيين، مقاومة يائسة خلال عدة أشهر. إلاّ أن السلطات التركية استولت، في منتصف تشرين الأول ١٩٢٠، على المدينة المحاصرة، وقتلت آلاف الأرمن. فقط أربعمئة شخص تقريباً تمكنوا من الفرار من المجازر واللجوء إلى المنطقة الفرنسية. معقل أرمني آخر، هو مدينة زيتون الواقعة شمال مرعش والممعنة في عزلتها منذ الاستيلاء على مرعش، سقط هو الآخر في تموز ١٩٢١.

كل الأمور كانت توحي بأن فرنسا سائرة نحو التنازل عن كيليكيا للأتراك.

هجرة الأرمن الجماعية من كيليكيا باتجاه سوريا ولبنان خصوصاً

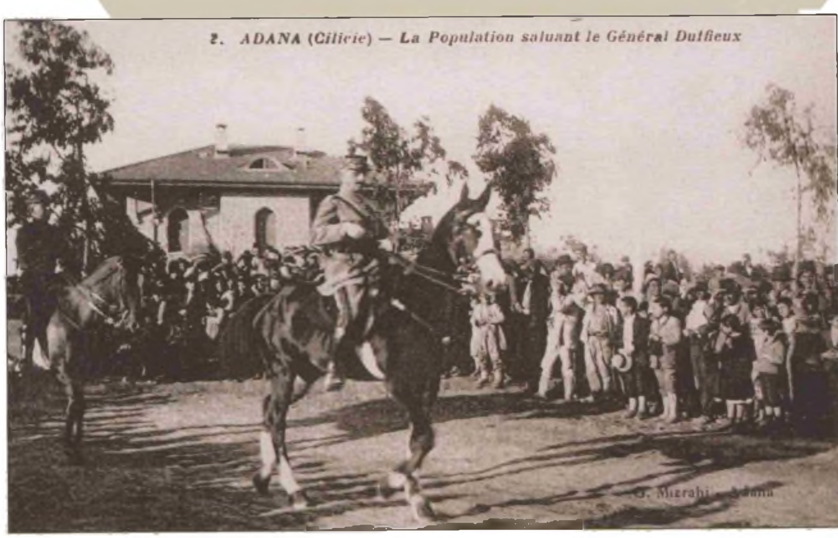
في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١، أعلن التنازل الكامل والرسمي عن كيليكيا وعن «أراضي الشرق» لتركيا في أنقره حيث أبرمت اتفاقية بين هنري فرنكلين-بويون، ممثل فرنسا، ويوسف كمال وزير الخارجية في الحكومة الكمالية. وفي الحال سرت حركة رعب في صفوف سكان كيليكيا، ولا سيما بين الأرمن. فقد كانوا جميعاً عازمين على مغادرة المنطقة الكيليكية قبل جلاء الجنود الفرنسيين الكامل وإقامة إدارة تركية حُدد تاريخها في ٤ كانون الثاني ١٩٢٢. وحث الجنرال غورو السكان بحرارة على البقاء في أماكنهم وعدم مبارحة البلاد مؤكداً لهم أن «الحكومة الفرنسية قامت بما يلزم لصون حقوق الأقليات»[10]. وقدم فرنكلين ــ بويون شخصياً إلى كيليكيا ليثني السكان عن ترك البلاد. وتجدر الإشارة إلى أن الأولوية بالنسبة إلى المفوضية العليا في هذه الفترة كانت الحفاظ على الأمن في سوريا ولبنان. فينبغي تجنيبهما تدفق موجات اللاجئين الوافدين من كيليكيا، أياً يكن الثمن. ولكن سرعان ما تبيّن أن المناطق السورية واللبنانية هي من بين الأماكن النادرة التي يستطيع أن يقصدها اللاجئون الكيليكيون.

١٠ الدائرة التاريخية للقوات البرية، ٤ د ١٧٥/د: ٩، جيش المشرق، المكتب الرابع، «نداء من الجنرال غورو إلى سكان كيليكيا، عنتاب وكيلس»، بيروت ٩ تشرين الثاني ١٩٢١.



MERSINE. — Grande Route du Chemin de Fer et le Passage de l'Amiral Francais.

دخول الاميرال الفرنسي إلى مرسين.
مجموعة ميشال بابودجيان.



وصول الجنرال دوفيو إلى اضنه في كانون الأول ١٩١٩، على رأس الفرقة ١٦٥. وقد شغل منصب القائد العسكري والإداري في كيليكيا وأراضي الشرق.
مجموعة ميشال بابودجيان

أما المسؤولون الفرنسيون الذين يتمتعون ببعض الخبرة، فكانت أسباب كثيرة تثير فيهم الخوف من أن يتحول إسكان اللاجئين كتلة واحدة، وهم في غالبيتهم الكبرى مسيحيون، مصدر اضطرابات طائفيـــة في سوريا ولبنان، ويعرض بالتالي السلطـــة الفرنسية الجديدة للخطر.

على الأرض، كان الجنرال دوفيو، الحاكم العسكري والإداري في كيليكيا وفي «أراضي الشرق»[11]، يعي أن الاتفاقيـــة المعقودة في أنقره لا تنص على أي بند يضمن بصورة محسوسة حقوق الأقليات غير التركيـــة في كيليكيا. وكان يسعى إلى أن يشرح لرؤسائــه في بيروت أن حالة الذعر الناشئة وسط سكان كيليكيا المسيحيين سببها ثغرات في اتفاقيـــة أنقره. غير أن المفوضية العليـــا أمرته بمنع هذه الهجرة الجماعيـــة واضعة تحت تصرفه كل الوسائل الممكنـــة.

لكن جميع المساعي الهادفة إلى ثني السكان الأرمن عن مغادرة البلاد لم تجد نفعاً. فقرار الرحيل قبل وصول الأتراك كان حازماً جداً، لدرجة أن مختلف التدابير الرادعة التي اتخذتها السلطات الفرنسية، بناء على طلب المفوضية العليا الصريح في بيروت، كانت عديمة التأثير في الجماهير الأرمنية. وأخذ الجنرال دوفيو نفسه يعطي إجازات خروج لكل الطالبين. زاد هذا العمل من سخط المفوض السامي الذي كان يأمل وقف حركة الهجرة الجماعية عبر رفض منح إجازات المرور. ولم ينسَ فرانكلين ـــ بويون، الذي وصل إلى مرسين في ٢٣ تشرين الثاني، أن يلوم هو أيضاً الجنرال الفرنسي على قلـــة حزمـــه حيال حركة الهجرة الجماعيـــة[12] التي باتت، في رأيه، أمراً محتماً[13].

بعدما أذعن المسؤولون الفرنسيون للأمر، قرروا أن ينظموا بأنفسهم الهجرة الجماعية. وفي ١٥ كانون الأول، تألفت، بمبادرة من السلطات الفرنسية، لجنة مكلفة إحصاء المهاجرين ونقلهم بحراً. وعليه أخليت كيليكيا، بين تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٢١، من جزء كبير من سكانها. وهكذا رجع عشرات الآلاف من الأرمن الذين أعيد إيواؤهم قبل ثلاث سنوات، رجعوا بغالبيتهم إلى المنفى في سوريا ولبنان.

إن رحيل الأرمن، أواخر عام ١٩٢١، تم في أغلب الأحيـــان بسفن منطلقـــة من مرسين إلى جهات قريبـــة، وفق معيار وحيد هو أن تكون تلك الجهات خارج المراقبة التركية. ففي نهاية كانون الأول، أنزل ألف وخمسمئة لاجىء كيليكي في بيروت[14]. وفي الوقت نفسه تقريباً، غادر حوالي أربعة عشر ألف أرمني متجمعين في درتيول المنطقـــة متوجهين إلى الاسكندرون. بينما استقر آخرون في الضواحي، في حلبا، وزغرتا، وشكا وأنفه[15]. وأقام عدد من اللاجئين في صور وصيدا[16]. وأخيراً نزل نحو ألف شخص في اللاذقية.

غير أن سوريا ولبـــنان لم يكونا الوجهتَين الوحيدتين اللتين سلكهما أرمن كيليكيا. فثمانيـــة آلاف منهم قصدوا قبرص: ولكنهم كانوا ينتمون إلى عائلات ميسورة، إذاً مستقلـــة، ولم تكن السلطات البريطانيـــة مجبرة على أخذهم على عاتقها. وكانت هذه السلطات، في الواقع، قد أغلقت الموانىء القبرصية في وجـــه السفن التي تنقل اللاجئين الكيليكيين، ومنعت عمـــوماً، منذ تشرين الثاني ١٩٢١، دخـــول هذه الـــسفن

١١ بناء على أمر المفوض السامي غورو، غادر الكولونيل بريمون كيليكيا بصورة نهائية في أيلول ١٩٢٠. وكان المدير العام للمنطقة الكيليكية والصانع الرئيسي للسياسة الاستعمارية المتبعة في تلك المنطقة، وسرعان ما تحول خصماً لدوداً للسياسة الفرنسية الجديدة، وبتعبير آخر لسياسة التقارب مع الكماليين. وأصبحت مقاومته الاستراتيجية الفرنسية الجديدة مصدر إزعاج حقيقي للجنرال غورو. ذلك أن المدير العام لكيليكيا كان يتمتع ببعض النفوذ في النوادي السياسية والعسكرية الفرنسية، ولا سيما لدى الضباط العاملين في قصر الرباط. والحال أنه سعى، طوال فترة تمرده على غورو، أن يفوز بتقدير تلك الأوساط ويحول دون جلاء الفرنسيين عن كيليكيا. أخيراً استدعي في أيلول ١٩٢٠. وبعد رحيل بريمون، تولى الجنرال دوفيو إدارة الشؤون السياسية في المنطقة.

١٢ مكتبة نوبار (مصدر لم يتم جردها)، رسالة رقم ١٠ من الدكتور ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد الوطني الأرمني، بيروت ٢٥ كانون الأول ١٩٢١، ص. ٥.

١٣ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا-لبنان، الدفعة الأولى، كيليكيا-اضنه، رقم ٢٣٤، برقية من دوفيو إلى غورو، ١٠ تشرين الثاني ١٩٢١.

١٤ مكتبة نوبار، أرشيف الوفد الوطني الأرمني، ميكرو فيلم ٢، تقرير من ١١ صفحة بالأرمنية، تاريخ ١١ آذار ١٩٢٢، قدم إلى الوفد الوطني الأرمني.

١٥ م. ن.، أرشيف الجمعية، مراسلات الدكتور ب. ملكونيان، رسالة رقم ٣٨٩ /٢٧٨ من ساهاك الثاني إلى كبرئيل نورادونغيان، رئيس الوفد الوطني الأرمني، بيروت ٥ أيار ١٩٢٢.

١٦ م. ن.، رسالة رقم ١٩ من د. ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد الوطني الأرمني، بيروت ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٢، ص. ١٦.



الكاثوليكوس ساهاك الثاني أثناء زيارة لميتم دورتيول الأرمني في ١٩٢٠-١٩٢١. مجموعة م. ش. — ج.ق.ي.

جميع موانىء المتوسط الشرقي الخاضعة لرقابتها، مثل الاسكندرية، وبور سعيد، وحيفا، ويافا ولارنكا. وهذا ما يفسر وصول السفن على نطاق واسع إلى بيروت حيث المرفأ الوحيد المهم في المنطقة الذي ظل مفتوحاً من دون شروط أمام اللاجئين. كما أبحر بضعة آلاف من اللاجئين صوب وجهات أشد بعداً كإزمير، وتراقيا والقسطنطينية التي لم تكن سقطت في أيدي الكماليين بعد[17].

ووصلت، خلال صيف ١٩٢٢، موجة ثانية ضخمة من اللاجئين إلى شمال سوريا باتجاه منطقة حلب، قادمة من عنتاب، وكيلس ومرعش. وفيما كانت كيليكيا قد أخليت من سكانها الأرمن عقب الانسحاب الفرنسي النهائي من المنطقة، قرر بضعة آلاف من الأرمن البقاء في تلك المدن الثلاث. وفي مطلع كانون الثاني ١٩٢٢، كانوا لا يزالون خمسة آلاف في مرعش، وخمسة آلاف في عنتاب وألفين في كيلس[18]. وكان الأمر أساساً يتعلق بأشخاص عجزوا عن الفرار لدى قيام النظام التركي الجديد. والواقع أن كيلس وعنتاب كانتا، خلافاً لدرتيول ومرسين، محرومتين من وسائل نقل سريعة (قطار، سفينة) مع سوريا ولبنان كانت تسمح بإجلاء عشرات الآلاف من الأشخاص في أسابيع قليلة. وفي مرعش، التي سقطت منذ شباط ١٩٢٠ في أيدي الكماليين، كان آلاف عدة من الأرمن يواصلون العيش عندما دعوهم إلى الرحيل منها في صيف ١٩٢٢.

وطوال العشرينـــات من القرن المنصرم، تقاطر الأرمن الخاضعون لإجراءات إرهابيـــة اتخذها النظام الكمالي الجديد إلى الأراضي السوريـــة قادمين من مناطق حدوديـــة واقعة في تركيـــا.

١٧ م. ن. رسالة من الدكتور ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد الوطني الأرمني، بيروت ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢١، ص. ٣-٤.

١٨ الدائرة التاريخية للقوات البرية، ٤ هـ-١٧٥-ن: ٩، «تقرير حول نهاية مهمة، اللجنة الفرعية للجلاء عن عنتاب / ١ المسألة الأرمنية في كيلس وعنتاب»، بيروت ١٨ كانون الثاني ١٩٢٢، ص. د.



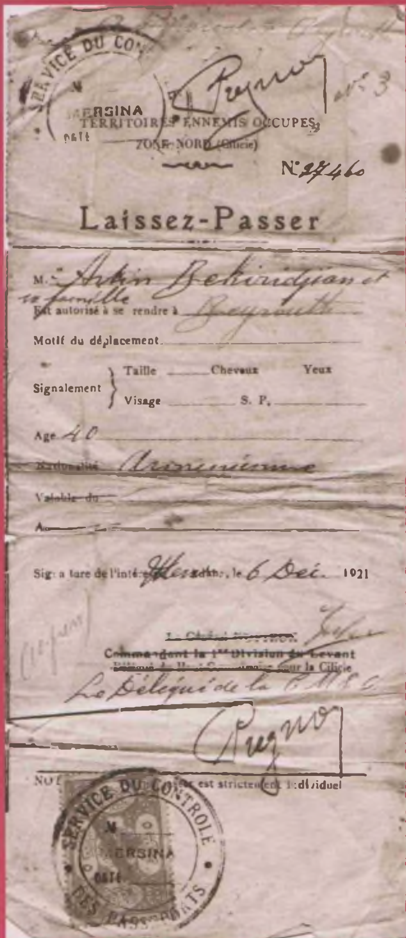
مرسين، ٢٦ حزيران ١٩٢١. توزيع شهادات نهاية العام الدراسي في المدرسة – الميتم التابع الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية. في مقدمة الصورة، النقيب ج.م.كوله، حاكم مرسين العسكري. أما الشخص الأخير الجالس إلى يمين مقعد اليسار فهو الأب مامبره سيرونيان الجالس على مقعد اليمين.
مجموعة م.ن.ا.

الإيديولوجية الكمالية واستمرار هجرة أرمن تركيا باتجاه سوريا في العشرينات من القرن المنصرم

بعدما أمست الكمالية إيديولوجية السلطة وألهمتها عقائد قومية، هدفت إلى بناء دولة وطنية تركية تقوم على الهوية التركية وتستبعد كل هوية قومية مغايرة. وكان النظام الكمالي قد تبنى، على امتداد العشرينات وتبعاً لإيديولوجيته، إجراءات رادعة في حق الأقليات التي ما انفكت تعيش في تركيا، وذلك كي يدفع هؤلاء السكان إلى الهجرة الجماعية باتجاه سوريا. وأرمن مرعش، وعنتاب وكيلس كانوا من بين الأهداف الأولى لسياسة مجانسة الفضاء التركي هذه. فقد قاطع السكان المحليون تجارتهم بأمر من السلطات المحلية، ولم يعد في وسع الأرمن زرع حقولهم، وسجلت عدة حالات رجم بالحجارة تستهدف أرمناً خطر ببالهم خطأً عبور حي مسلم. إن مجمل الإجراءات التنكيدية، التي تبنتها السلطات التركية، لم تكن ترمي إلا إلى جعل شروط معيشة الأرمن لا تطاق.

وبلغ أول مواكب اللاجئين الوافدين من عنتاب وكيلس حدود سوريا الشمالية اعتباراً من صيف ١٩٢٢. وفي كانون الثاني ١٩٢٣، قُدِّر أن الأرمن القاطنين في هاتين المدينتين قد وصلوا كلهم تقريباً إلى حلب[١٩]. أما في ما يتصل بمرعش، فإن موجة اللاجئين بدأت في الحقيقة في تشرين الثاني ١٩٢٢ واستمرت من دون انقطاع حتى آذار ١٩٢٣، وباتجاه حلب أيضا[٢٠]. وفي أواخر ١٩٢٢، وصلت موجة من اللاجئين من ديار بكر، وخاربرت وملاطية، وتلاحقت طوال

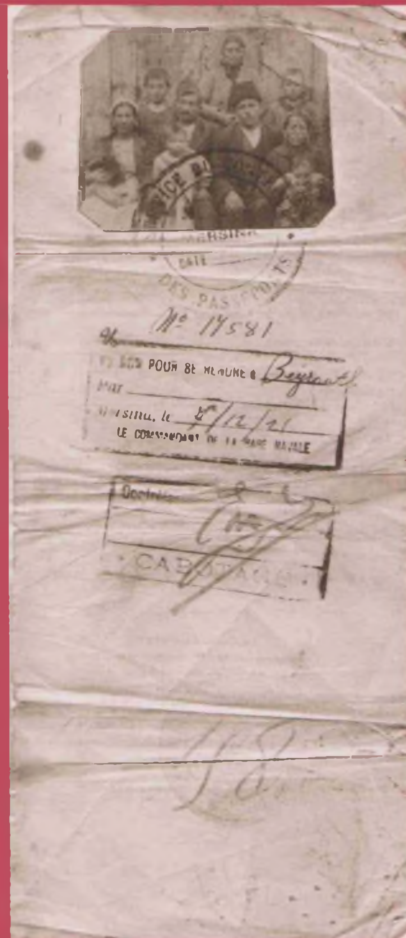
١٩ الدائرة التاريخية للقوات البرية، ٤هـ ٦٣/ ٢، ١، جيش المشرق، المكتب الثاني س، نشرة إعلامية رقم ٤١٠، من ٣٠ كانون الأول ١٩٢٢ إلى ٣ كانون الثاني ١٩٢٣، بيروت ٤ كانون الثاني ١٩٢٣، ص. ٤.
٢٠ مركز الأرشيف الديبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا–لبنان، الدفعة الأولى، المكتب السياسي، رقم ٩٩٦، جيش المشرق، الفرقة الثانية، س. ر. تحركات المهجرين في سوريا، الفترة الممتدة من ١ إلى ١٥ آذار ١٩٢٣. ٢٦ آذار ١٩٢٣، حلب.



SERVICE DU CONTRÔLE
MERSINA
TERRITOIRES ENNEMIS OCCUPÉS
ZONE NORD (Cilicie)
N° 27460

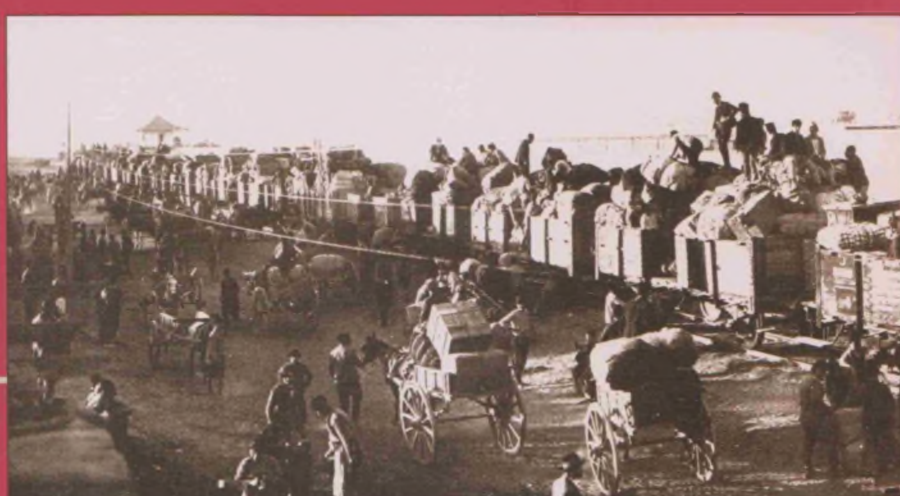
Laissez-Passer

M. Artin Bekiridjian et sa famille
Est autorisé à se rendre à Beyrouth
Motif du déplacement
Signalement: Taille, Cheveux, Yeux, Visage, S. P.
Age 40
Nationalité Arménienne
Valable du
Signature de l'intéressé: Mersina, le 6 Déc. 1921
Commandant la 1re Division du Levant
Le Délégué de la C. M. E. C.
Ce laissez-passer est strictement individuel



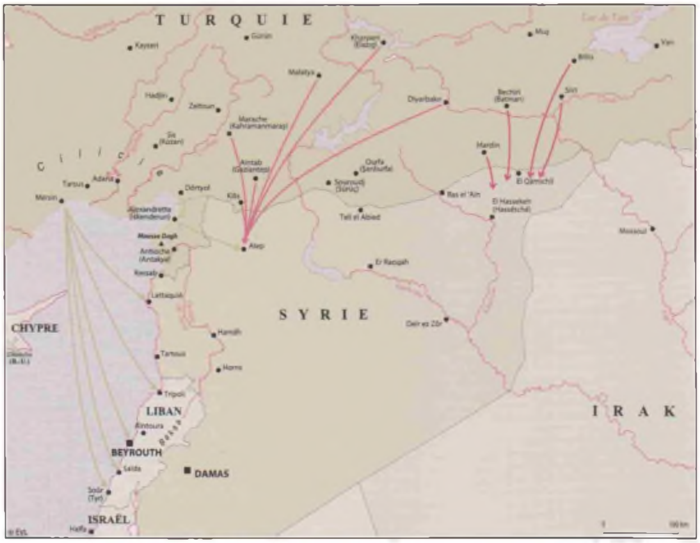
SERVICE DU CONTRÔLE
MERSINA
DES PASSEPORTS
N° 17581
Vu bon pour se rendre à Beyrouth
Mersina, le 6/12/21
LE COMMANDANT DE LA PLACE MARITIME
CAPITAINE

إجازة مرور منحتها السلطات الفرنسية في مرسين لعائلة ارتين بيكرادجيان في كانون الأول ١٩٢١. وكانت جميع الجهود التي بذلها المسؤولون الفرنسيون والرامية إلى إقناع الأرمن في كيليكيا بالعدول عن ترك البلاد قد باءت بالفشل. إن التصميم على الرحيل قبل وصول الأتراك كان قوياً جداً، بحيث أن مختلف التدابير الرادعة التي اتخذتها السلطات الفرنسية، بناء على طلب صريح من المفوضية العليا في بيروت، لم يكن لها أي تأثير في الجماعات الأرمنية. وفي هذه الفترة بالضبط، بدأ الجنرال دوفيو، حاكم كيليكيا العسكري والإداري، يعطي جميع الطالبين أذونات بالخروج، من دون نيل موافقة المفوضية العليا. إنها بداية الهجرة الجماعية للأرمن من كيليكيا.
مجموعة خاصة



هجرة الأرمن الجماعية، في تشرين الأول ١٩٢١، من محطة أضنة.
(بول دوفيو، «آلام كيليكيا، ١٩١٩-١٩٢٢»، باريس، ١٩٥٤).

هجرة الأرمن الجماعية باتجاه سوريا و لبنان (١٩٢١-١٩٣٠)



لجلاء أرمن كيليكيا الى سوريا ولبنان (عام ١٩٢١).
لجلاء الأرمن الى سوريا بأمر من النظام الكمالي (١٩٢٢-١٩٢٤).
لجلاء الأرمن الى سوريا بأمر من النظام الكمالي (١٩٢٩-١٩٣٠).

١٩٢٤. وقد ضمت كذلك الأرمن الأخيرين الباقين في اورفا، وكاموردج وماردين. موجة التهجير هذه جرّت معها حوالي ستة آلاف وخمسمئة لاجىء إضافي إلى حلب التي تحولت مجدداً، ومنذ مطلع ١٩٢٣، مركز عبور للاجئين الأرمن المطرودين من تركيا الكمالية. وكان نحو أربعين ألف لاجىء تم إسكانهم في مجمع سكني يضم خمسة عشر ألفاً من السكان الأرمن الأصليين[٢١].

وفي أواخر العشرينات، لما كانت مخيمات لاجئي حلب، تخلو تدريجاً من سكانها، كانت موجة جديدة من مرحلي أرمن تركيا تصل إلى الأراضي السورية. وهكذا، طوال ١٩٢٩ وفي مطلع ١٩٣٠، رحلت السلطات الكمالية بضعة آلاف من القرويين الأرمن من مناطق ديار بكر، وماردين، وبتنيس، وملاطيه وخاربرت الريفية وأكرهتهم، بطريقة ما، على الخروج باتجاه سوريا. لقد سلك المرحلون الأرمن محورين رئيسيين: سيراً على الأقدام، ثم بواسطة سكة الحديد المودية إلى حلب بالنسبة إلى اللاجئين القاطنين في المناطق الواقعة إلى شرق المنطقة الحدودية المتاخمة لسوريا مثل خاربرت اوبالو؛ ومسيرة قسرية باتجاه الجزيرة العليا السورية للأشخاص المتحدرين من قرى منطقة ديار بكر والمناطق الواقعة أكثر إلى الشرق. وهكذا انضم بضعة آلاف من اللاجئين إلى المقيمين الذين مكثوا في مخيمات حلب، والذين كان مشروع إعادة ايوائهم قيد البحث. واستقر اللاجئون الجدد بخاصة في نوركيوغ (الميدان)، وخان الزيتون وقسطل حرام[٢٢]. أما اللاجئون الذين سلكوا طريق الترحيل المؤدي إلى شمال شرق سوريا، فحطوا الرحال في مراكز الجزيرة العليا الحضرية الجديدة: القامشلي، والحسكة، وعامودا، والكرمانية، وديريك، والدرباسية وفي القرى المحيطة بها، حيث تساكنوا وفئات أخرى من السكان كالسريان، والكلدان، والأكراد واليهود، المطرودين بدورهم من تركيا، وقد حثتهم سلطات الانتداب الفرنسية مراراً على السكن في هذه المنطقة.

شكل طرد هؤلاء القرويين من المنطقة الحدودية التركية في أواخر العشرينات الموجة الأخيرة الكبرى من موجات ترحيل أرمن تركيا نحو سوريا. وفي ١٩٣٩، واجه أرمن سوريا ولبنان، هذه المرة، الهجرة الجماعية لآلاف من مواطنيهم المقيمين في سنجق الاسكندرون، تلك المنطقة السورية التي تخلت عنها فرنسا لتركيا ـــ هذا الموضوع سيبحثه لاحقاً ميشال بابودجيان.

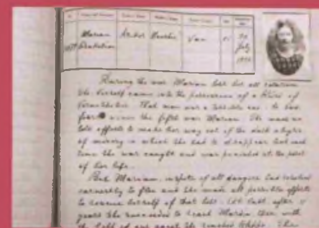
٢١ مكتبة نوبار، أرشيف الجمعية، مراسلات الدكتور ب. ملكونيان، رسالة رقم ١١٥ من الدكتور ملكونيان إلى رئيس الوفد الوطني الأرمني، بيروت ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٢. ص. ٤-٥.

٢٢ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، حلب، أيلول ١٩٢٩- تشرين الثاني ١٩٣١، رسالة من لجنة حلب إلى لجنة مصر التنفيذية، ٢٢ كانون الأول ١٩٢٩، حلب؛ أرشيف الاتحاد المركزي / القاهرة، حلب، أيلول ١٩٢٩- تشرين الثاني ١٩٣١، رسالة من لجنة حلب إلى لجنة مصر الإقليمية، ١٧ كانون الثاني ١٩٣١

















الخطوات الأولى
لإعادة بناء العالم الأرمني





أطفال مدرسة «سيـوان» في بور سعيد، عام ١٩١٩ أو ١٩٢٠، متجمعون في مخيم اللاجئين. مجموعة م.ن.ا.

نساء وأيتام في صلب إعادة بناء أمة

العمل ومفارقاته

بقلم فاهه طاشجيان

مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، كانت أمبراطورية قد انقرضت لتوها محطمة معها أحلام بناء مجتمع تعددي قائم على تعدد الأديان والإتنيات. فمنذ إرساء ديكتاتورية الشبان الأتراك في كانون الثاني ١٩١٣ برعاية جمعية الاتحاد والترقي، والعلاقات التي أنشأتها أجيال من المفكرين المثاليين المنتمين إلى شتى الجماعات التي تكونت منها الأمبراطورية العثمانية آخذة في التلاشي. عندها تبنت الطبقة الحاكمة التركية سياسة قومية، هي مزيج من كره للأجانب ومن عنف عنصري، بلغ ذروته إبان الصراع العالمي، مع اقتراف الإبادة الجماعية بحق الأرمن. في الحقيقة، كان هدف القوميين الأتراك النهائي يقوم على مجانسة المجال العثماني، وتتريك اقتصاد الأمبراطورية، وإنشاء دولة مركزية تركية، وهذه كلها معايير تتعارض بشكل أكثر عنفاً مع أساليب الإدارة السائدة منذ قرون في الأمبراطورية، ومع مبدأ التعايش المتآلف بين مختلف مكوناتها الجماعية. والحال أن دوامة العنف هذه التي أثارتها جمعية الاتحاد والترقي، وأصابت خصوصاً الأرمن، إضافة إلى جماعات أخرى في الإمبراطورية، كاليونان والعرب والسريان والكلدان، جعلت من غير المعقول، أقله في مستقبل قريب، تعايش هذه الشعوب على نحو سلمي جديد مع الغالبية التركية التي استخدمها التيار القومي كأداة لفرض سيطرته.

إن هزيمة الأتراك التي تلت الحرب العالمية الأولى أشارت إلى زوال النظام السياسي القديم، نظام الأمبراطورية العثمانية. فراح العديد من شعوب الأمبراطورية يطمح، منذ ذلك الحين، إلى الاستقلال وإقامة دولته الخاصة على أنقاض النظام الأمبراطوري، وقد حضه على ذلك وجود دولتين عالميتين عظميين فوق أراضيه، هما بريطانيا وفرنسا. صحيح أن هاتين الدولتين التوسعيتين كانتا، خلال مرحلة الحكم العثماني، متأصلتين بقوة في الإمبراطورية، ولا سيما على الصعيدَين الاقتصادي والثقافي، غير أن انهيار الإمبراطورية كان ينبئ باحتلال القوات المنتصرة لبعض المناطق مباشرة. وطبقاً لمخطط أولي يهدف إلى تقاسم إقليمي أعدته باريس ولندن، قُسمت الولايات العربية التابعة للأمبراطورية، فضلاً عن كيليكيا، إلى مناطق مختلفة خاضعة للنفوذ الفرنسي والبريطاني.

ومذ ذاك نلاحظ أن عامل الأقليات بات عنصراً أساسياً في استراتيجيات الاستيلاء على الأراضي التي طبقها المسؤولون البريطانيون والفرنسيون، وبخاصة في المرحلة القصيرة التي تلت الحرب. لقد سعت كل من فرنسا وبريطانيا، باستمالتها الأقليات الإتنية والدينية المتأتية عن الأمبراطورية القديمة، إلى تحويلها إلى نقاط ارتكاز محلية لها. ومن البديهي أن استراتيجية التسامح والنهوض بالأقليات وتشجيع مطالبها الداعمة لهويتها الذاتية كانت تهدف بخاصة إلى التصدي لعنصرين محليين مهمين انبثقا وتعززا في أعقاب انهيار النظام السياسي القديم، أعني بهما القوميتَين العربية والتركية. ويبدو، في لعبة التحالفات والتحالفات المضادة، أن شعوب الأمبراطورية القديمة أصبحت على انقطاع تام مع النظام الأمبراطوري. فاليونان والأتراك والأرمن واللبنانيون المسيحيون والسريان — الكلدان والعرب والأكراد واليهود وغيرهم، جميع هؤلاء سعوا جاهدين إلى تحديد رقعة وطنهم الخاصة وبناء دولة جديدة فوق ترابها.

ذلك هو السياق السياسي والإيديولوجي الذي تندرج فيه هذه الدراسة، وموضوعها الرئيسي هو إعادة بناء الأمة الأرمنية إثر النكبة التي حلت بها خلال الحرب العالمية الأولى وأبادت السواد الأعظم من الشعب الأرمني. والموضوع واسع بطبيعة الحال، إلاّ أننا سنقتصر هنا على دراسة خط اتجاه أساسي من خطوط هذه المسألة، أي جمع الفتيات الشابات والنساء والأطفال الناجين ودمجهم في الجماعة الوطنية. وعلى العموم، اخترنا، كمجال جغرافي، الولايات العربية التابعة للأمبراطورية القديمة، ولا سيما سوريا التي تشكل منطقة شاسعة تمت فيها عمليات تجميع الشابات والأطفال على نطاق واسع. كما ينبغي التوضيح بأننا لم نتطرق هنا إلاّ إلى مرحلة زمنية محدودة نسبياً، تغطي خصوصاً

لعامين ١٩١٨ و١٩١٩، وبعبارة أخرى الفترة التي تلت مباشرة نهاية الحرب العالمية الأولى، وفيها نلاحظ تطور فكرة إعادة بناء الأمة وترسخها وسط المجتمع الأرمني المتكون بعد الإبادة الجماعية بالنسبةإلى الأرمن. إن اثبات عامل الهوية وإرادة التجمع ثانية فوق أرض مشتركة وفي دولة قومية، لا مجال لشرحهما بالاستناد فقط إلى السياق التاريخي لما بعد الحرب، أي من خلال تقسيم الأمبراطورية وسقوط ديكتاتورية جمعية الاتحاد والترقي ولعبة التحالفات التي مارسها المحتلون الجدد البريطانيون والفرنسيون. وحقيقة الأمر أن هذه الرغبة الحازمة في إعادة بناء ميزة وطنية قوية وتكوينها هي بمثابة ردة فعل على آلية المحق التي كان الأرمن ضحاياها إبان الحرب العالمية الأولى.

إثبات حالة الكارثة والتعبئة بشأنها

منذ أواخر ١٩١٧، أقدمت الجيوش البريطانية على الاستيلاء على سيناء، ثم على فلسطين وسوريا. واكتشف جنود القوات الحليفة أثناء توغلهم باتجاه الشمال واجتياحهم الأراضي العثمانية، جسامة فظاعات عمليات إبادة الأرمن الجماعية. فعلى محور سيناء — معان — الكرك — السلط — حوران — دمشق — حمص — حماه، كان الناجون الأرمن مشتتين في البلدان العربية ومتروكين لمصيرهم الكئيب، وقد منيت كل عائلة بفقدان أكثر من نصف أفرادها. وما لبثت هذه المشاهد المفعمة بالأسى والذهول أن أبلغت إلى الأرمن في مصر، فكانوا بين أوائل من أدركوا وتصوروا هول الكارثة التي ألمت بمواطنيهم في الأمبراطورية العثمانية[1]. عندها باشرت الجماعة الأرمنية بإعداد عملية إنسانية واسعة النطاق، وراحت تقتفي أثر تقدم الجيش البريطاني باتجاه الشمال خطوة خطوة، وتتهيأ لتأخذ على عاتقها المرحلين الذين تم العثور عليهم على امتداد الطريق، وتوفر لهم الغذاء والكساء.

منذ مطلع ١٩١٨، بدأت مسألة تُطرح بجدية على المسؤولين الأرمن في مصر: وضع النساء والأطفال المتروكين لمصيرهم أو المختطفين أثناء الحرب على أيدي العائلات الإسلامية. وتوصل الأرمن آنذاك إلى إعداد قائمة بالنساء والأطفال الذين تحتجزهم القبائل البدوية في مناطق احتلها البريطانيون في الأردن: في وادي موسى أو في معان. ولكن عندما استولى الجنود البريطانيون، عام ١٩١٧، على بغداد (في آذار) وعلى القدس (في كانون الأول)، لاح شاغل أكبر للأرمن في مصر، إذ عثر جنود الحلفاء في شوارع تينك المدينتين العثمانيتين على عدد كبير من الأطفال الأرمن متروكين لمصيرهم. هنا أيضاً قدمت الجماعات الأرمنية في كل من القاهرة والاسكندرية يد العون وبذلت، بالتعاون مع القيادة العامة البريطانية، ما في وسعها لتجميع هؤلاء الأطفال وإيوائهم في مراكز استقبال. إنها المبادرات الأولى المهمة التي اتخذت في الولايات العربية التابعة للأمبراطورية في شأن تجميع الأطفال المنكوبين جراء الإبادة الجماعية وإيوائهم في المياتم[2]. منذ ذلك الحين، أدرجت هذه الأعمال الإنسانية الرامية إلى تحمل مسؤولية الأيتام والنساء والأطفال المخطوفين على قائمة الأعمال التي لها حق الأولوية بالنسبة إلى أنشطة المنظمات والمؤسسات الأرمنية والغربية الملتزمة إغاثة الناجين من الإبادة الجماعية ومساعدتهم.

إن هدنة مودروس، التي وقعت في ٣١ تشرين الأول ١٩١٨، وعقبها احتلال سوريا بأكملها وكيليكيا على أيدي القوات الحليفة، سمحت لنا بالكشف عما حدث

[1] في أيلول ١٩١٥، أجلي نحو ٥٠٠٠ لاجيء ينحدرون من قرى جبل موسى على متن سفن حربية فرنسية، وأنزلوا في بور سعيد في مصر، حيث نصب مخيم فسيح لإيوائهم. في الحقيقة يشكل هذا الحدث أول اتصال لأرمن مصر بالناجين من الإبادة الجماعية.

[2] أسفرت هذه الجهود عن إنشاء ميتمين، واحد في بعقوبة (إلى شمال شرق بغداد) وآخر في القدس. الأول قام بتأسيسه البريطانيون في تشرين الأول ١٩١٨، في مخيم — معسكر يؤوي عشرات الآلاف من اللاجئين المسيحيين، وبينهم ١٥٠٠٠ أرمني. أما المؤسسة الثانية فأنشئت بداية في القدس، داخل حرم الدير الأرمني في المدينة ونقلت في أيلول ١٩١٨ إلى بور سعيد. وقد تم في ما بعد نقل مئات الأيتام المجمعين في بغداد إلى ميتم بور سعيد.



فتاتان أرمينيان تغزلان الصوف وسط قبيلة ميران الكردية، قرب تل الأرمن في الجزيرة السورية العليا. الفتاة الكبرى متحدرة من إحدى قرى بورصة، وقد التحقت بالمدرسة الأميركية وتتقن الإنكليزية بطلاقة تامة فيما الصغرى مولودة في اضابازار. وقد رفضت كلتاهما ترك هذه العشيرة ومرافقة المبعوث الذي جاء يستعيدهما. مجموعة م.ن.ا.



نساء وأطفال جمعتهم في حوران وديرعا فرق التفتيش التابعة لليفون يوتغوريان، في دمشق عام ١٩١٩ . مجموعة م.ن.ا.

المرحلين الذين وجهوا إلى هذه المناطق: مئات الآلاف من الموتى؛ مرحلون في ضيق وعذاب جمعوا في المدن والبلدات السورية؛ نساء وفتيات مخطوفات، أطفال متروكون لمصيرهم. وبعبارة أخرى، كان من الملحّ إطلاق برنامج واسع للمساعدة الإنسانية. وقد التزم العملَ ميدانياً العديدُ من المنظمات الإنسانية على امتداد الأشهر التالية. وبالطبع، فإن الجيش البريطاني هو الذي قدّم، بواسطة الخدمات الصحية المتوفرة لديه، المساعدات الأولية للمرحلين، من دون أن ننسى تقديمات الوحدات العسكرية الفرنسية التي كان عديدها خلال الأشهر التالية للهدنة محدوداً، فكانت معونتهم بالتالي أكثر هامشية. في البداية، جمع العسكريون المرحلين في «خانات» أو في ثكنات، ووزعوا عليهم الطعام وقدموا الإسعافات الطبية. ونظراً للأعداد الكبيرة نسبياً من المرحلين، اتضح بسرعة أن عمل العسكريين غير كاف، إذ كان مرتبطاً بالحالات الطارئة، ولكن لم يكن بوسعهم، في أي حال، أن يأخذوا على عاتقهم القيام بعمليات أشد دقة على المدى الطويل، حينئذ حلت منظمات إنسانية مكان القوات الحليفة.

أما في ما يتعلق بالأرمن، فقد أدت منظمتان دوراً أساسياً في البرنامج الإنساني الواسع الذي تمت تنميته بعد توقف الأعمال الحربية، وشمل مدناً مختلفة ومناطق في سوريا، وفلسطين، والأردن، ولبنان، والعراق وكيليكيا؛ والمنظمتان هما: الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية (*UGAB*) وجمعية حماية الأيتام الأرمن[3]. إن نشاط هاتين المنظمتين، اللتين أسستا حينذاك واستقرتا في مصر، كان يهدف خصوصاً، خلال عامي ١٩١٨ — ١٩١٩، إلى إيواء الأيتام وتجميعهم، وكذلك إلى مساعدة الفتيات الشابات والنساء المهجورات. هكذا كانت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية تدير، عدا ميتمها الكائن في بور سعيد، ملجأين في حلب ودمشق، حيث تم إيواء مئات النساء والفتيات. أما جمعية حماية الأيتام الأرمن فكانت تدير مؤسستين، في بعقوبة (شمال شرق بغداد) وفي عينطوره[4] (شمال بيروت)، تؤويان أكثر من ألف يتيم[5]. إلى ذلك، لوحظ في هذه المرحلة التالية للإبادة الجماعية بروز حالة من التعاون والتضامن الوطنيين وسط جماعات المرحلين المتواجدين في سوريا أو في الولايات العربية الأخرى. على هذا النحو، عهد العديد من الأيتام والفتيات الشابات والنساء المهجورات مباشرة إلى عناية مواطنين ينتمون إلى القرية نفسها أو المدينة ذاتها، مما ساهم عموماً في دمج أعداد كبيرة من البنات والأطفال المتروكين لأقدارهم في بيئتهم الاجتماعية الأصلية، أو على الأقل في ما كان بقي من تلك البيئة. هؤلاء الأشخاص، الذين جرى تبنيهم، رافقوا مواطنيهم حين نظمت القوات الحليفة في ١٩١٩ عمليات إعادة إيواء المرحلين، ولا سيما إلى كيليكيا، حتى أن كل جماعة حضرية أو ريفية كانت تسهر على الأيتام والأرامل الخاصة بها.

من بين المنظمات الغربية العاملة في الشرق الأدنى، ينبغي التنويه خصوصاً بدور منظمة «إغاثة الشرق الأدنى» (*Near East Relief*)، التي أصبحت أكبر منظمة إنسانية تعمل في الميدان العثماني القديم اعتباراً من ١٩١٩. لقد تأسست في أيلول ١٩١٥ بفعل اندماج الجمعيات التربوية والدينية والإنسانية الأميركية العاملة في إيران والأمبراطورية العثمانية[6]، وبدءاً من ١ نيسان ١٩١٩، حلت محل الصليب الأحمر الأميركي الذي ذاع صيته بعد إعلان الهدنة جراء التزامه العمل الإنساني إلى جانب شعوب الإمبراطورية العثمانية القديمة[7]. والحقيقة أن هذه المرحلة التي تلت الحرب تميزت بظهور حركة تضامن واسعة في الولايات المتحدة مع الشعوب المسيحية المنكوبة في الإمبراطورية العثمانية القديمة. فقد جُمعت مبالغ طائلة من الأموال عبر البلاد

٣ كان لـ«جمعية العناية باليتيم»، التي تأسست عام ١٩٠٥ في مصر، فرعان: واحد في القاهرة وآخر في الاسكندرية.
٤ إن ميتم عينطوره التركي، الذي أسسته السلطات العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، أقيم داخل مدرسة الآباء اللعازريين وكان يؤوي أكثر من ألف ولد يخضعون لتربية قاسية، الغاية منها تتريك الأولاد.
٥ مؤسسة أخرى، ولكن قائمة هذه المرة في القسطنطينية. اضطلعت بدور بارز بعد توقيع الهدنة في أخذ الأيتام على عاتقها: إنها جمعية الحماية الوطنية التابعة لبطريركية القسطنطينية الأرمنية التي اعتنت بيضع عشرات الآلاف من الأيتام المجمعين في آسيا الصغرى بأجمعها.
٦ جيمس ل. بارتون، «تاريخ جمعية الشرق الأدنى للإغاثة (١٩١٥-١٩٣٠)»، نيويورك ١٩٣٠، ص. ٧-٨.
٧ م. ن.، ص. ٧٧-٧٨.



ستراك صفدجيان، من مواليد هادجين، ١٥ سنة. التقطت له هذه الصورة في أيلول ١٩١٩. رحل من مسقط رأسه بعدما كان الناجي الوحيد بين أفراد عائلته. تعاطى رعاية الماشية حين تخلى عنه الجميع، وعاش في قريتي حلب وحمص حتى ١٩١٩. إذذاك قرر ستراك الرجوع وحيداً إلى هادجين، ولكنه، في طريق عودته، التقى بعضاً من مواطنيه في اضنه فأحاطوه بالرعاية اللازمة.
مجموعة م.ن. ا.



كارن جب (١٨٧٦-١٩٣٥) والفتاة التي فازت بحمايتها، وهي واحدة من الفتيات الأرمنيات اللواتي تم تجميعهن بفضل بعثتها العاملة بين قبائل الجزيرة.
مجموعة م.ش.-ج.ق.ي

سمحت بتمويل أنشطة «إغاثة الشرق الأدنى» المتنوعة في الشرق الأدنى واليونان. ومن ناحية أخرى، قامت هذه المنظمة الأميركية بأعمال الإرساليات البروتستانتية الألمانية في الميدان العثماني القديم، نظراً إلى أن جميع الإرساليات التي يديرها رعايا تابعون للقوات المغلوبة كانت محظورة على الأراضي العثمانية بعد إعلان الهدنة. والحال أن «إغاثة الشرق الأدنى» ورثت، بحلولها محل الإرساليات الألمانية، بنية تحتية هائلة لمياتم أنشأها الألمان منذ عقود في الأراضي العثمانية كافة. ولما كان الأميركيون يملكون إمكانات مالية وتحفزهم حيوية تتخطى كل الصعاب، آووا آلاف الأيتام المسيحيين — وغالبيتهم من الأرمن — واعتنوا بهم، ما بين ١٩١٩ و١٩٢١، في مؤسساتهم القائمة في فلسطين، ولبنان وكيليكيا[8].

٨ نشير إلى أن عمل جمعية الشرق الأدنى للإغاثة من اجل مصلحة الأيتام شمل، عدا الولايات العربية في الإمبراطورية وكيليكيا، اليونان وبلاد ما وراء القوقاز وايران.



محترف مأوى دمشق، عام ١٩١٩.
مجموعة م.ن.ا

كما أن استنفار الجمعيات الإنسانية البريطانية لم يكن كذلك غير ذي بال. فكانت «مؤسسة لورد مايور» واحدة من المنظمات الرئيسية التي تطوعت، بما تملك من طاقات، لأخذ أيتام الأرمن في العراق وسوريا على عاتقها. أما فرنسا، التي استنزف النزاع العالمي قواها، فأجهدت نفسها لتحدث تعبئة إنسانية ما وراء حدودها. مع ذلك، فإن الجيش الفرنسي هو الذي تعهد، مطلع عام ١٩١٩، تنظيم عملية كبرى لإعادة المهجرين المتواجدين في سوريا وبلاد ما بين النهرين إلى أماكن سكنهم، وبخاصة في كيليكيا. كما أدى هذا البرنامج الضخم إلى نقل معظم الأيتام وملاجيء النساء التي يديرها الأرمن والغربيون وجعلها في كيليكيا، وكذلك في المناطق الواقعة أكثر إلى الشرق كمرعش وعنتاب واورفا.

ولوحظ أيضاً أن الأرمن والإرساليات الغربية في كل أنحاء سوريا وفي كيليكيا استخدموا وسائل مختلفة لاسترجاع الأطفال والشابات والنساء المحتجزات لدى البدو أو لدى عائلات إسلامية في المدينة أو في القرى. والواقع أن هذه المسألة كانت في منتهى الحساسية، إذ إن أي عمل يرمي إلى «تحرير» امرأة أو طفل أرمني يمكن أن يؤجج على الفور الأهواء والعصبيات، ويفسح المجال أمام صدامات قد تتخذ دلالات إتنية ودينيـــة. مثلما كان ينبغي أن يؤخذ في الحسبان أن انتهاء النزاع العالمي، وهزيمة الإمبراطوريـــة العثمانيـــة ونشوة الخلاص قد بدلت الذهنيـــة السائدة حتى حينه عند الأرمن، فبدوا أكثر جرأة ولم يترددوا في التشبث بحقوقهم داخل مجتمعات إسلاميـــة بغالبيتها.

والأمثلة على هذه التصرفات الجديدة متنوعة ومتعددة. وهكذا فإن أفراداً من الفرقة الأرمنية، وهي وحدة عسكرية تابعة لجيش المشرق الفرنسي، لعبوا دور منفذي العدالة عندما دخلوا، أواخر ١٩١٨، المدن مثل الإسكندرون، وبيلان، ودورتيول، حيث احتُجز العديد من النساء والشابات ضمن عائلات إسلامية[٩]. ومن جهة أخرى، موّل أرمن مصر أنشطة جماعة مسلحة، يقودها ليفون يوتنغبريان، وتتكون من بعض الفارين القدامى من الجيش العثماني،

٩ كيفورك كوتيكيان، «فرقة المشرق والانتداب الفرنسي في كيليكيا (١٩١٦-١٩٢١)»، في مجلة التاريخ الأرمني المعاصر، الجزء الثالث (عدد خاص)، ١٩٩٩، ص. ٢٧٨-٢٧٩.



تلميذات داخليات في مأوى حلب، عام ١٩١٩، مع أعضاء اللجنة المكلفة بتجميع النساءوالأطفال. في الصف الأمامي، جلوساً من اليسار إلى اليمين: ديكران دجيكردجيان، كبريال خانجيان، الأب هاروتيون يسايان محاطاً بضابطين فرنسيين، رجل دين، أرمناك مظلوميان، مانوك ساهاكيان والدكتور خانشادوريان.
مجموعة م.ن.أ

وكانت مكلفة استرداد نساء وأطفال ما زالوا محتجزين لدى القبائل البدوية في سيناء وفلسطين ومنطقة دمشق. وبناء على أمر يحمل تاريخ ٢٥ حزيران ١٩١٩ وتوقيع الأمير فيصل، فإن جماعة يوتنغبريان المدعومة والممولة من الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، انتدبتها رسمياً السلطات السورية لجمع أرمن حوران ونقلهم مجاناً بواسطة سكة الحديد إلى دمشق ودرعا[١٠]. إن الإدارة العربية التي ترأسها فيصل سهلت إذاً عملية البحث عن النساء والأطفال الأرمن المحتجزين، وبالمقابل أبدت تحفظاتها لما أعربت النساء الأرمنيات المحررات عن أمنيتهن في اصطحاب أولادهن معهن، وقد ولدوا نتيجة عقد قرانهن مع مسلمين. وتجدر الإشارة إلى أن عدد النساء والأطفال الذين جمعتهم المنظمات الإنسانية من بين العائلات الإسلامية في منطقة دمشق قُدِّر بـ ١٠٪ فقط في أيلول ١٩١٩[١١].

وأبدى الأرمن، في منطقة حلب وبلاد ما بين النهرين العليا — الجانب السوري، الحماس نفسه لتحرير مواطناتهم المحتجزات خصوصاً لدى قبائل البدو. وجيش المشرق الفرنسي، المكلف تنظيم إعادة إيواء المرحلين الأرمن ونقلهم من سوريا إلى كيليكيا في نيسان ١٩١٩، عهد إلى روبين هريان بمهمة البحث عن النساء والأطفال المخطوفين في مناطق حلب، ودير الزور والموصل. كان عمله دقيقاً وحرجاً، إذ غالباً ما اصطدم بمقاومة البدو الذين ما تخلوا بسهولة عن النساء والأطفال الأرمن المحتجزين لديهم. وقد استخدم ر. هريان، المعروف في الصحراء باسم «مفتش الأرمن»، جميع الوسائل لبلوغ مآربه، من إقناع ومال وتهديد في بعض الأحوال[١٢]. وخلال عام ١٩١٩، انتدب الجيش الفرنسي «كوادر» أخرى من الأرمن إلى بلاد ما بين النهرين — الجانب السوري لاستئناف عملية جمع المرحلين المحتجزين في المنطقة.

وفي كيليكيا، الخاضعة منذ شباط ١٩١٩ لإدارة فرنسية برئاسة الكولونيل بريمون، اتخذت المسألة الشائكة المتعلقة بتجميع الشابات والأطفال الأرمن المحتجزين لدى العائلات الإسلامية طابعاً مؤسساتياً، إذ أصدر الكولونيل بريمون، في ٩ آب ١٩١٩، القرار رقم ١٠٧ «*المتصل بإعادة النساء والأطفال المسيحيين الذين هم في حوزة المسلمين*». وبموجبه تعيَّن على المسلمين،

١٠ انظر، بخصوص هذا الموضوع، ليفون يوتنغبريان، يوميات شخصية (غير منشور).
١١ أرشيف مكتبة نوبار، مصدر الوفد الوطني الأرمني، ١-١٨، مراسلات آب-تشرين الثاني ١٩١٩، رسالة انترانيك كوندجيان، مدير الاتحاد الوطني الأرمني في دمشق، إلى بوغوص نوبار، ١٧ أيلول ١٩١٩.
١٢ أرشيف مكتبة نوبار، أيتام أرمن، «ملف هريان: مقتطفات من صحف».

الذين في حوزتهم نساء أو أطفال مسيحيون، أن يصرحوا عن وجودهم للحاكم العسكري التابعين له في مهلة أقصاها ٣٠ يوماً، وذلك اعتباراً من تاريخ نشر القرار المذكور. ثم تعيّن أيضاً تسليم الأطفال والنساء إلى الحكام العسكريين الفرنسيين في المنطقة[13]. وإذا انتفى كل شك حول هوية الطفل المسيحية تم إيواؤه فوراً في ميتم، أما في حال العكس، فيسكن في «بيت محايد» حيث يمكث أسبوعاً على الأكثر، وتدير البيت «امرأة محايدة» يعاونها أرمني وتركي. وفي نهاية الفترة المحددة، إن لم تثبت هوية الطفل المسيحية يُعاد إلى عائلته المسلمة[14]. ونجد مثالاً على هذه «البيوت المحايدة» في القسطنطينية، حيث أخذ مبادرة هذه المرة المندوب السامي البريطاني بالتنسيق مع البطريركية الأرمنية. فحال كل طفل أو فتاة شابة كان يخضع إذ ذاك لقرار لجنة مؤلفة من أرمني وتركي وأميركي[15].

كذلك انطلق وكلاء جمعية «إغاثة الشرق الأدنى»، بدعم من المقر الإقليمي للجمعية الكائن في حلب، في مهمة البحث عن الفتيات والأطفال الأرمن في ضواحي المدينة السورية. وفي أواخر أيلول ١٩١٩، جمع الأميركيون حوالي ٤٥٠ طفلاً أرمنياً في جوار حلب، أعيد إيواؤهم في أماكن سكنهم الأصلي. ولكن وفقاً لتقديرات الأرمن، لا يشكل هذا العدد سوى ربع الأطفال الأرمن الذين كانوا متواجدين لدى العائلات العربية المقيمة في ضواحي حلب[16].

غير أن قيادة الأركان البريطانية، التي تولت في ١٩١٨ ــ ١٩١٩ سلطة القرار الفعلية في هذه المناطق العثمانية سابقاً، لم تدعم بشكل منتظم جهود الأرمن والمنظمات الغربية الرامية إلى استعادة النساء والأطفال الأرمن. في الحقيقة اتبع البريطانيون استراتيجية احتلال، الغاية منها إيجاد تقارب وتفاهم مع الأكثرية العربية المسلمة في سوريا والعراق. وكانت عمليات تجميع النساء والأطفال الأرمن قابلة لإثارة المسلمين المحليين والإساءة إلى سلامة المنطقة، وبعبارة أخرى إلى المصالح البريطانية. لهذا السبب تحاشى الضباط البريطانيون متعمدون تبني الإجراءات التي قد تظهر لأعين العرب والأكراد المحليين كما في مصلحة الأرمن. هذه الاستراتيجية البريطانية لاحظها جيداً المطران موشيغ سيروبيان عندما عين رئيساً دينياً لبغداد. فقال إن قائد القوات البريطانية في الموصل، الكولونيل ليتشمن، سعى بنوع خاص إلى استمالة العشائر إلى التاج البريطاني، وتجنب بالتالي الصدام معها عبر تنظيم عمليات تهدف إلى استعادة نساء وأطفال أرمن في حوزتها[17]. هذا الموقف الذي اتخذته السلطات البريطانية كشف عنه أيضاً ميكايل ناتانيان، موفد الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية إلى سوريا وكيليكيا. فقد لاحظ أن الضباط البريطانيين المعتمدين في حمص عام ١٩١٩ أظهروا قلة حزم في العمليات التي أقدموا عليها بقصد تجميع الأطفال في حوزة عائلات مسلمة محلية[18].

في هذا السياق، نشأت لدى الأرمن فكرة إعادة بناء الأمة. فبعد الإجراءات النظامية التي اتخذت بهدف إبادتهم وزوالهم، قاموا بعملية معاكسة تحت شعار استعادة الوطن. حينها كانوا مشتتين وفي تناقص شديد، كما لاحظ، في ذهول، الأرمن المقيمون خارج الأمبراطورية العثمانية، إذ اكتشفوا في أواخر أيام النزاع العالمي، فداحة الكارثة. وفي هذا الصدد، ثمة برقية موجهة من مركز الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في القاهرة إلى بوغوص

١٣ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا-لبنان، كيليكيا-اضنه رقم ١٦٨، إدارة أراضي العدو المحتلة، المنطقة الشمالية (كيليكيا)، «قرار رقم ١٠٧» بتوقيع بريمون، ٩ آب ١٩١٩، اضنه.

١٤ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا-لبنان، كيليكيا-اضنه رقم ١٢٨، رسالة (رقم ٥٠٣٣ /د/١) من ريتشارد رب، المندوب السامي البريطاني بالوكالة إلى مدير عمليات مساعدة وإعادة توطين اللاجئين، ١٦ أيار ١٩١٩، القسطنطينية.

١٥ زاروهي هـ. بحري [«مذكرات، ما كان «البيت الحيادي»]، في اليوم-المستقبل، السنة الثالثة، رقم ٧٠٥، ٣-٤ أيار ١٩٥٣، باريس.

١٦ ستانلي ا. كر، «أسود مرعش: تجارب شخصية مع الجمعية الأميركية للإغاثة في الشرق الأدنى، ١٩١٩-١٩٢٢»، نيويورك ١٩٧٣، ص. ٤٣-٤٨.

١٧ أرشيف مكتبة نوبار، الوفد الوطني الأرمني، ١-١٥، رسالة من المطران سيروبيان إلى بوغوص نوبار، مؤرخة في بغداد، ٢٥ أيلول ١٩١٨.

١٨ أرشيف نوبار، «مراسلات ميكايل ناتانيان»: كانون الأول ١٩١٤-تشرين الأول ١٩١٩، رسالة رقم ١٧ من ناتانيان إلى هاكوب هوسكان، نائب مدير لجنة الاتحاد في حلب، ٢١ حزيران ١٩١٩.



الفتيات الداخليات في مأوى النساء التابع
للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في حلب،
خلال عامي ١٩١٩-١٩٢٠.
مجموعة م.ن.ا



الفتيات الداخليات في مأوى النساء
التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية
والمسؤولون عنهن في دمشق، عام ١٩١٩.
مجموعة م.ن.ا

نوبار[19]، بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٩١٨، وهي ذات دلالة: «*عدد المرحلين المحررين أقل من المتوقعات. بين بيروت وحلب فقط أربعون ألفاً*»[20]. حتى لو ارتفعت هذه الأرقام عندما أعيد النظر فيها، ينبغي التسليم تماماً بأن معظم المرحلين من تلك المناطق قد قتلوا أو لاقوا حتفهم جراء الأوبئة أو بسبب نقص الطعام. ومن جانب آخر، تبين في الأشهر التالية أن غالبية الناجين كانوا أطفالاً وفتيات ونساء ما انفك عدد كبير منهم في حوزة المسلمين.

وكانت كل الجهود ترمي إلى البحث عن بقايا الشعب الأرمني وتجميعه على أمل التوصل إلى إعادة بناء الوطن. خلال هذه التعبئة الوطنية العامة بعد الحرب، صار عنصر اليتيم رمز القيامة الأرمنية، حتى باتت حمايته وتربيته ضمن بيئة وطنية من الأولويات المطلقة. أما الموقف الذي تبناه المجتمع الأرمني ما بعد الحرب تجاه النساء والشابات المتروكات لمصيرهن فهو أقل نبلاً وسخاء. إنه يوحي أحياناً، كما سنرى لاحقاً، بشيء من التململ بل من عدم التفهم حيال الوضع الاجتماعي لهذه المخلوقات.

[19] كان بوغوص نوبار، المقيم في باريس منذ بداية الحرب العالمية الأولى، مدير الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، ومدير الوفد الوطني الأرمني أيضاً.

[20] أرشيف مكتبة نوبار، أرشيف الجمعية. مراسلات المركز، الجزء ٢٨، برقية ف. ماليزيان إلى بوغوص نوبار، ١ تشرين الثاني ١٩١٨، الورقة ٤٥٥.

العودة إلى المجتمع الأصلي: التجمع والتطهّر والاندماج

كيف يُمكن شرح هذا الانحياز في التعامل مع مكوِّنين من مكونات الشعب ذاته، وهما في هذه الحالة الأيتام من جهة، والشابات والنساء المهجورات من جهة ثانية، في حين كانت الهيئات الوطنية بأسرها مستنفرة من أجل تجميع الأمة الأرمنية وإعادة بنائها؟

هنا نلج عالماً نستطيع أن نلاحظ فيه الآلام المضنية التي تكبدتها فئة معينة من الناجين، ونلاحظ كذلك النتائج المباشرة لكارثة حلت بالمجتمع الأرمني عقب الحرب. ونشير بداية إلى أن إيديولوجية جمعية الاتحاد والترقي لم تُبدِ، تجاه الشابات والنساء والأطفال الأرمن، الضراوة نفسها والتعصب ذاته اللذين أبدتهما حيال الذكور على اختلاف أعمارهم. فقد تساهلت في موضوع دمج النساء والأطفال الأرمن في المجتمع الإسلامي شرط ألاّ يعيش هؤلاء ضمن جماعات، وأن يظلوا منقطعين عن الناس داخل بيئتهم الإسلامية الجديدة ويفقدوا هويتهم القومية. واقع الأمر أن هؤلاء النساء والأطفال طالما اعتُبروا مغانم حربية وأدوات استعباد، لا بل استعباد جنسي. ومع ذلك، فإن موقف لجنة الاتحاد والترقي إزاء هذه الفئة المعينة من المجتمع الأرمني كان يرمي دائماً إلى الحؤول دون استمرار الجماعة القومية. وهكذا، بدل تصفية الأطفال والنساء جسدياً، نُقلوا من جماعة إلى أخرى بقصد تغيير هويتهم القومية.

على هذا النحو، جمعت السلطات التركية، على مدى سنوات الحرب، آلاف الأطفال المشتتين على دروب الترحيل، وأرسلتهم إلى مؤسسات تركية أنشئت حديثاً، حيث كان الأطفال والفتيات يخضعون لنظام وتربية قاسيين، الغرض منهما تتريكهم. وكنا نجد هذا الصنف من المؤسسات على امتداد رقعة الإمبراطورية في حلب، وماردين، واورفا، وقيصريه، والقسطنطينية، وأضنه، ودمشق، وعينطوره الخ... واحتُجز آلاف الأطفال الآخرين المهجورين ضمن عائلات كردية وعربية وتركية. وتبعاً لشهادات الناجين، لدى إسكان جماعات المرحلين في مخيمات مؤقتة انتقالية، تجمعت أعداد كبيرة من سكان المدن أو القرى المجاورة حول المنكوبين وأقامت معهم علاقات متعددة الوجوه، واتفق عندئذ أن تخلّى بعض الأهلين المنهوكين عن أولادهم طوعاً، وقد تمثلوا مصيرهم النهائي. ولوحظت حتى حالات تم خلالها تبادل الأطفال والشابات كسلع

بهدف تأمين بقاء أفراد العائلة الآخرين. وباختصار، أتاح احتضار المرحلين ويأسهم أن يستعيد السكان المحليون العديد من الأطفال والشابات. ومن ناحية أخرى، فقدت غالبية النساء، أثناء عمليات الترحيل، أزواجهن أو أهلهن، فتعرضن للاغتصاب وجُرِّدن من ممتلكاتهن، مثلما عرفن الجوع وأنجبن أطفالاً غير شرعيين. وفي أغلب الأحيان، نبذ سائر المرحلين هذه الفئة من النساء، ولم يتركوا لها خياراً آخر سوى تعاطي البغاء في مدن كبرى مثل حلب، ودمشق وبغداد أو الموصل، في حين أن أخريات اختطفهن مسلمون وأكرهن على الزواج، رزقن أولاداً من أزواجهن المسلمين وواصلن عيشهن في منازلهن الجديدة بعد إعلان الهدنة.

هذا هو النمط من الحالات، التي تعتبر كلاسيكية إجمالاً، الذي وجد المسؤولون الأرمن أنفسهم في مواجهته بعد انتهاء الحرب. فمنذ أواخر ١٩١٧، انعكست آلية العمل، وشرع الأرمن يبحثون، بين القبائل العربية ووسط العائلات الحضرية الإسلامية أو داخل المياتم التركية القديمة، عن النساء والشابات والأطفال، ويسعون جهدهم لتجميعهم وإعادة دمجهم في المجتمع الأرمني. في الحقيقة، لقد كشفت هذه الأعمال في الوقت عينه عن التباسات مثل هذا المسعى وصعوباته، فغالباً ما كان مسيَّراً بأيديولوجية إعادة بناء الأمة. وبتعبير آخر، إن المفاهيم الرامية إلى «بعث السلالة»، و«تعافيها»، أو إلى «قيامتها»، وهي مصطلحات شاع استعمالها في مرحلة ما بعد الإبادة الجماعية، كانت لها تأثيرات مباشرة على عملية إعادة دمج الأطفال الأيتام أو الشابات أو النساء المهجورات.

وتبيّن أن عودة آلاف الكائنات البشرية إلى جماعتهم الأصلية هي عملية معقدة، إذ تتطلب منهم إعادة بناء القومية أن «يتنظفوا» من آثار التتريك التي تعرضوا لها إبان الحرب. وبعبارة أخرى، كان لا بدّ لهم من أن يعبروا مرحلة أساسية لا غنى عنها شبيهة جداً بطقس من طقوس التطهير الدينية حتى ليصعب التمييز بينهما، ويتحول أثناءها هؤلاء الأطفال والشابات إلى صانعي نهضة هذه الأمة. شاع هذا الضرب من الخطابات في الصحافة الأرمنية والمنشورات والمراسلات الرسمية في تلك الأثناء. إنه يدل على إرادة حقيقية لإعادة البناء ويكشف عن ردة فعل طبيعية تنم عن التشبث بالحياة عقب الرعب المعيش. وقد استعمل «يتوتيك»، وهو شاهد حي على الكارثة، هذا التعبير البلاغي نفسه عندما ذكر بوضع الشابات والأطفال الأرمن الذين التقاهم على دروب الترحيل: «*أيتامنا، الأيتام الأرمن كانت أسماؤهم باركيف فتغيرت إلى بيرتيف؛ كن يدعون لوسيا فأصبحن فاطمة، كانوا هايك فصاروا فايق؛ كانوا ارداش فأمسوا رشاد؛ وبكلام آخر، كانوا جواهر «ماس»*[٢١] *داخل بيوتهم الأرمنية، فانقلبوا قطع «زجاج»*[٢٢] *في أيدي الأتراك. لقد أرسلوا أفواجاً ليملؤوا «الميتم»*[٢٣]*، حيث تعلموا، إلى جانب «الألف باء»*، [٢٤] *«البسملة»*[٢٥]. وبعد صفحات، كتب تيوتيك: «*[...] إلى جوار أطفال مطهرين أسماؤهم عبد الله، فتيات يدعون اروسياك، وعلى وجناتهن وشم كوشم «الحجاج»*[٢٦]. *وكانوا في غالبيتهم قد نسوا لغتهم الأم، وبات يشار إليهم بـــ «يا ولد أحمد» أو «يا بنت عديلة». وبينهم فتيات ناهزن سن الزواج وأضحت أثداؤهن تتدلى كأنها أكياس. كان يقال رسمياً إنهن عذارى، ولكن سرعان ما تتم التضحية بهن تأميناً لاستمتاع الأتراك*»[٢٧]. وبعد هذا الوصف المريع، يضيف الكاتب قائلاً: «*إنهم (الأيتام) يحتاجون، بموازاة العناية الجسدية، إلى عملية إعادة تربية لتنظيف أرواحهم من الظلمات التي تراكمت عليها بفعل تأثير الأتراك*» [٢٨].

كذلك تناول سورين برتفيان مفهوم التطهير في مجلة « فوربوني» [عش اليتيم]، لسان حال جمعية «حماية الأيتام الأرمن في مصر»: «*[...] من فلسطين حتى بلاد ما بين النهرين،*

٢١ الماس بالتركية.
٢٢ زجاج بالتركية.
٢٣ ميتم بالتركية.
٢٤ الأبجدية التركية.
٢٥ الصلاة الإسلامية. «الكارثة وأيتامنا». خطبة تيوتيك، في كنالي، ٣٠ كانون الأول ١٩٢٠، القسطنطينية، ص. ١٦-١٧.
٢٦ حاج بالتركية.
٢٧ م. ن.، ص. ٢٠-٢١.
٢٨ م. ن.، ص. ٢٥.



تربية شبه عسكرية في مخيم للاجئين الأرمن في مخيم بور سعيد. مجموعة م.ن.ا

بت الآن الأرمن الذين أنقذوا من أهوال الصحراء في حالة خلقية نحزن لمعرفتها، ولكننا نتجنب حديث عنها.

ما من نفس شفوقة قد تجرؤ على توجيه تهمة إلى هذه الجماعات التي فقدت كل حس خلقي لدى تعرضها لذعر طويل الأمد جراء هذا الكابوس الرهيب الذي أدى إلى تراجعها.

وغني عن البيان أنه على المرء أن ينتظر مرور جيل كامل على الأقل تتمكن من تطهير الأمة من الوصمات وانتهاكات الحرمات غير المحدودة الناتجة عن دورة العنف التي سببها الأتراك»[29].

استنفر الأرمن إذاً لاستقبال هؤلاء الأطفال والشابات والنساء ضمن صفوفهم ورد هويتهم القومية إليهم. وعلى غرار «الابن الشاطر» العائد إلى بيته، كان ينبغي على هؤلاء المنكوبين أن يتجردوا من ملابسهم القديمة المتسخة على دروب الرعب، خلال عملية التتريك التي استهدفتهم، وأن يحملوا مجدداً هويتهم الأصلية التي سوف تجعلهم عناصر فاعلة وأساسية في مشروع إعادة بناء الوطن. لذا نرى أن المبدأ الأساسي لهذه العودة إلى كنف الأمة قد تم ترسيخه سريعاً، وبقيت مسألة إيجاد الوسائل المادية لمباشرة عملية «التطهير».

٢٩ سورين بارتقيان، «اليتيم الأرمني»، نشرة رعاية اليتيم، السنة الأولى، رقم ٢، ١٩١٩ (على الأرجح آذار أو نيسان)، ص. ١٩.



أيتام بور سعيد.
مجموعة م.ن.ا

المياتم: معابد في خدمة إعادة بناء الامـــــة

بالنسبة إلى المسؤولين الأرمن، كان عشرات آلاف الأيتام الذين جرى إيواؤهم، منذ ١٩١٧، في المؤسسات الأرمنية والأميركية والفرنسية وغيرها، يمثلون مستقبل الأمة. وتعتبر هذه الحقبة تاريخية، ليس لأنهم أنقذوا من أهوال المجازر فحسب، بل لأنه من المحتمل تأسيس دولة قومية على أرض الإمبراطورية المنهارة، في حين أن دولة أرمنية أنشئت فعلاً في القوقاز. لذا كانت الأولوية لتهيئة الأيتام لفكرة هذا المستقبل المشرق عبر تزويدهم بتربية قومية وتوفير بيئة ملائمة لهم، حيث يسعهم أن يتطوروا في هذه الروح القومية نفسها، ويستخدموا اللغة الأرمنية، ويتزوجوا من مواطنات ليؤسسوا عائلات أرمنية. علاوة على ذلك، يجسد آلاف الأطفال هؤلاء، في مخيلة الأرمن الجماعية، جنود الأمة في المستقبل، أولئك الذين سوف يبنون الدولة المقبلة ويذودون عنها. والمثال الأول على هذه الحالة الروحية يتمظهر في الحركة الكشفية التي تطورت سريعاً في حرم المياتم. والكشفية التي أخذت بداية عن البريطانيين، أصبحت، بالنسبة إلى الأرمن في مصر، وسيلة لغرس النظام والتربية شبه العسكرية في أذهان الشبان الأيتام والأحداث. وكانت استعراضات الأيتام في لباسهم الكشفي الموحد، ما بين عامي ١٩١٨ — ١٩١٩، من المظاهر الشعبية الشائعة جداً في بور سعيد، وحلب، ودمشق، وفي مدن كيليكيا أو في القسطنطينية، حيث كان هؤلاء الأطفال يُشاهَدون وهم يقومون بالاستعراض كأنهم جنود المستقبل، على وقع أناشيد وطنية تعزفها الجوقة الموسيقية، وكان أعضاؤها كذلك ايتاماً في أغلب الأحيان.

في الحقيقة، كانت حماية الأيتام والمحافظة عليهم وسط محيط قومي ضرورتَين راسختَين رسوخاً قوياً في روح العصر، وتجتمع حولهما كلمة الناس في كل طبقات المجتمع الأرمني ما بعد الحرب، وذلك باعتبارهما تشكلان الطريق الوحيد الذي يفضي إلى نهضة الأمة. وبتعبير آخر، ينبغي أن يكون الميتم ذلك المعبد الذي يتعين عليه، إضافة إلى مهمته ذات الطابع الإنساني، أن يصوغ الإنسان الأرمني الجديد،

الآخر والمتشبث بهويته وبصون هذه الهوية. ونحن نعثر على هذه الحالة النفسية في مذكرات فيكتوريا ارشروني التي أوفدها، في نيسان ١٩١٨، الأرمن في مصر في مهمة إلى القدس من أجل جمع الأيتام وإنشاء مؤسسة لهم. فذات يوم، قبلت فتاة صغيرة، كانت أمها قضت قتلاً، والتحق والدها بالفرقة الأرمنية لمحاربة العدو. كان اسم الفتاة يغيسابت [أليصابات]، ولكن أعيد تعميدها يوم قبولها في الميتم، ودعيت ازادوهي (متحررة)[٣٠]. إنه رمز عميق المغزى!

ونشير هنا إلى أن المنظمات الأرمنية كانت ترغب في الاهتمام وحدها بتربية الأيتام، غير أنها لم تكن قادرة على الاضطلاع بهذا العبء الثقيل نظراً إلى أعدادهم الغفيرة، لذلك عمدت القوات الحليفة، البريطانية منها والفرنسية، إلى مؤازرتها، أو ساهمت منظمات إنسانية غربية في تقديم معونة لها في هذا المجال. فأنقذت بذلك آلاف الأطفال من البؤس، ووفرت لهؤلاء المنكوبين مساعدة غذائية وعناية طبية، وتحملت مسؤولية تعليمهم. ولكن الأرمن رأوا الوجه الآخر للصورة. وهكذا، رغم أن تعليم اللغة القومية في المياتم غير الأرمنية كان يحتل مكانة بارزة، فإن القادة القوميين ظلوا يرتابون في عزم المسؤولين عن تلك المنظمات وفي قدرتهم على العمل بروح إعادة البناء القومي، بخاصة أن جمعية «إغاثة الشرق الأدنى»، وهي أهم منظمة تعنى بالأيتام، كانت تتسم بطابعها البروتستانتي القوي ونظامها التربوي المتأثر بثقافتها الدينية. وهذا بالضبط ما دفع الأرمن إلى الاحتراس دوماً والحد من تأثير الغربيين في تربية الأيتام. لذلك وضعوا ميثاق حسن سلوك، وانتقدوا صراحة كل ما من شأنه أن يخرقه. وتزخر الصحافة الأرمنية ومراسلات المسؤولين في تلك الفترة بمثل هذا النوع من الأخبار.

يلاحظ مثلاً أن ذعراً حقيقياً دب في صفوف جماعة مصر الأرمنية، عندما قررت السلطات البريطانية، صيف ١٩١٨، أن تعهد إلى منظمة أميركية، هي «مؤسسة إغاثة سوريا وفلسطين»[٣١]، إدارة ميتم بور سعيد، خصوصاً أن هذا القرار صدر في وقت نُقل فيه أطفال متروكون، كان تم إيواؤهم في فلسطين، إلى المخيم الكبير للاجئين الأرمن في بور سعيد. فما لبثت الجماعة الأرمنية أن استنفرت قواها، وقدم ممثلوها اقتراحاً إلى السلطات البريطانية يدافعون فيه عن فكرة إناطة إدارة المؤسسة بالأرمن.

«إن وجهة النظر القومية ترتكز على رؤية جميع اللاجئين الأرمن مجمعين في مخيمات خاضعة لـ «إدارة اللاجئين»، ولا سيما رؤية الأيتام وقد تم إيواؤهم وإعالتهم لدى مواطنيهم الذين يرتبط قسم كبير منهم بأواصر القربى إلى حد ما.

ويشكل هؤلاء الأيتام وديعة قومية مقدسة، وقد تقرر بالإجماع تربيتهم كأرمن في مؤسسات قومية دون سواها. [...] لهذا لا يمكن توكيلهم إلى مؤسسات مختلطة ما دامت المؤسسات الخيرية الأجنبية المختلفة لا توافق على إنشاء مياتم أرمنية فحسب، وذلك بالاتفاق مع سلطات البلاد والبطريركية الأرمنية»[٣٢].

مثال آخر يعود تاريخه إلى ١٩٢٠، إلى المرحلة التي احتل الجنود الفرنسيون خلالها كيليكيا، وهو يتعلق بالأكثرية الساحقة من أيتام الأرمن في سوريا وبلاد ما بين النهرين الذين كانوا حينذاك أسكنوا في المدن الكيليكية. فقد نشب جدال، لما غيّر ميتم أضنه إتجاهه وخضع لمراقبة الإدارة الفرنسية في كيليكيا. والواقع أن هذه المؤسسة الكبيرة[٣٣] كانت

٣٠ فيكتوريا ارشاروني، «خمسة أشهر في القدس أثناء الحرب»، مقال رقم ٣٠، في «الشمس» (جريدة)، رقم ٦٢ (٦٧٧)، ١ تشرين الأول ١٩١٩، القاهرة.

٣١ اندمجت هذه المؤسسة في ما بعد في جمعية الشرق الأدنى للإغاثة.

٣٢ أرشيف مكتبة نوبار، أرشيفات الجمعية، مراسلات المركز، الجزء ٢٦، «اقتراح» يحمل توقيع المجلس البطريركي، والاتحاد الوطني الأرمني، ولجنة النجدة الوطنية، والجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، ٨ حزيران ١٩١٨، القاهرة، الورقتان ٣٨٧-٣٨٨.

٣٣ كانت هذه المؤسسة، التي أنشأها أحمد جمال غداة مجازر اضنه في ١٩٠٩، عندما كان والياً عليها، تقوم شمال المدينة، على ضفاف جيحان. إبان الحرب العالمية الأولى، أعيدت تسميتها «دار أيتام أنور باشا» واستمرت في قبول الأيتام الأرمن، وتهيئتهم لأن يصبحوا «أتراكاً».

«جمعيــة حمايــة الأيتام الأرمــن» قد أخذها على عاتقها في بداية ١٩١٩، برغم أنها كانت تفتقر إلى الخبرة الضرورية لإدارتها بطريقة ملائمة. ثم تفاقم الوضع في كانون الثاني ١٩٢٠، حين تدفق مئات الأيتام من سيواس وقيصرية باتجاه أضنه، ورفعوا عدد الداخليــن إلى ألف ومائتي طفل[٣٤]. عندها اقترحت الجمعية الخيرية العموميــة الأرمنيــة أن تنوب مناب «جمعيــة حمايــة الأيتام الأرمــن»، وباشرت، منذ مطلع ١٩٢٠، التفاوض مع الإدارة الفرنسية في كيليكيا لنــيل موافقتها.

ليس من داع هنا للنظر في هذا الحدث بالتفصيل. على أنه ينبغي، مع ذلك، الإشارة إلى أن الإدارة الفرنسية كانت تسعى حينئذ إلى أن تعزز دور مؤسساتها التربوية في كيليكيا، على أساس أنه سيتم إخلاء المنطقة قريباً فتنتقل الإدارة المحلية إلى أيدي الكماليين. واضح إذاً أن الفرنسيين لم يكونوا يرغبون في أن تسد الإرساليات الأميركية المزدهرة في المنطقة[٣٥] الفراغ الناتج عن انسحابهم المحتمل من كيليكيا. وكانت المياتم الأرمنية في قلب الصراعات الدائرة على النفوذ بين الدول الكبرى[٣٦]. فقد أمل الفرنسيون، برفضهم التنازل عن هذه المؤسسة للجمعية الخيرية العمومية الارمنية، في الاحتفاظ بأداة تأثير في كيليكيا عند انتقالها إلى الحكم التركي. وبالتالي فإن كل محاولات الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية لإقناع الفرنسيين باءت بالفشل، مما أثار غضب المنظمات الأرمنية وخيبة أملها حيال فرنسا. هذه الاستراتيجية الفرنسية ورد ذكرها بوضوح في رسالة موجهة من المقر المركزي للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية إلى بوغوص نوبار: «*[...] تلقينا من كل الجهات شكاوى تتعلق بنيات السلطات الفرنسية إدارة المياتم الأرمنية بنفسها، وذلك عبر الاستعانة بموظفين هم على الأرجح أجانب، سوف يربون الأيتام تربية خالــية من أي طابع قومي*»[٣٧]. ولا توفر الانتقادات الأرمنية زابيل يسايان، التي عينها الوفد القومي الأرمنــي في باريس مفتشة لمياتم كيليكيا، وعلى هذا الأساس أجرت مفاوضات مع الإدارة الفرنسيـــة لتقرير مصير لمياتم الأرمني في اضنه. وقد اتُهمت الأديبـــة، لدى وصولها إلى كيليكيا في آذار ١٩٢٠، بأنها واحدة من بين المسؤولين الرئيسيين عن «ضيـــاع» ميتم اضنه، وبعبارة أخرى عن «فرنسته». لقد تعرضت للوم خصوصاً لتصرفها الأخرق ولإتاحتها فرصة التدخل للفرنســـين كما يحلو لهم في قضية ميتم اضنه وفرض وجهـــة نظرهم فيها[٣٨].

٣٤ عش اليتيم، نشرة رعاية اليتيم، السنة الأولى، رقم ٤، ١٩١٩، ص ٦٠.

٣٥ الأرشيف الوطني، ملف بريمون، صندوق كيليكيا، «تقرير بشأن تنظيم خدمة الرعاية الفرنسية في كيليكيا»، تنفيذ أمر مهمة بتاريخ ١٩ تموز ١٩٢١، مساعد المستشار للشؤون العقارية المكلف بمهمة خاصة لدراسة مسائل مساعدة الأرمن آب ١٩٢١. اضنه.

٣٦ أنظر في هذا الصدد ف. طاشجيان، «عودة الجمعية إلى كيليكيا: أمل وخيبة أمل»، في «قرن من تاريخ الجمعية الخيرية العمومية الارمنية»، الجزء ١، ١٩٠٦–١٩٤١، تحت إشراف ريمون هـ. كيفوركيان وفاهه طاشجيان، القاهرة–باريس–نيويورك، ٢٠٠٦.

٣٧ أرشيف مكتبة نوبار، أرشيف الجمعية، مراسلات المقر، الجزء ٤٢، رسالة من المقر المركزي في القاهرة إلى بوغوص نوبار في باريس، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٠، القاهرة، الورقة ١٦٦.

٣٨ أرشيف مكتبة نوبار، أرشيف الجمعية، مراسلات المقر، الجزء ٤٢، رسالة من المقر المركزي للجمعية إلى لجنة رعاية اليتيم في الاسكندرية، ١١ كانون الأول ١٩٢٠، الورقة ٣٤٩.

نساء وشابات مهجورات: إعادة دمج وعقبات اجتماعية

لقد برهن الأرمن، في مرحلة ما بعد الإبادة الجماعيـــة، وعبر توقهم إلى إعلان تعبئـــة قومية عامة غير مسبوقة، على شجاعة مثالية وتفان عظيم في لملمة بقايا شعبهم وإعادة بناء أمتهم، فأثبتوا للعالم أجمع فشل عملية المحق التي تعرضوا لها. بعد هذه التجربة، حلت القطيعة النهائيـــة بينهم وبين العالم العثـــماني. وتجلى بوضوح نبذهم أولئك الذين صمموا مخطط الإبادة ونفذوه. وسعى المسؤولون الأرمن جهدهم لإزالة كل مظاهر الحياة اليومية التي ما انفكت تربطهم بالأتراك وبالمجال العثماني ــ التركـــي. وتشكل اللغـــة مثالاً ناطقاً على ذلك، فهي ناقلة أساسية للهوية القومية. فقد كان عشرات آلاف المرحلين المجمعين في حلب أو في المدن العربية الكبرى ــ وبخاصة المرحليـــن الكيليكيين ــ لا يزالون في غالبيتهم ناطقين بالتركيـــة حينذاك، الأمر الذي أثار حـــتماً

ـــكثر بعض الدوائر الأرمنية. لذلك تطورت حركة مناهضة لاستعمال اللغة التركية وازدادت تـــــحدّ في غضون السنوات اللاحقة. وصحيفة «داراكير» (المرحـــل) الصادرة في حلب أعطت ـــشـ في افتتاحيتها إذ إنها أنبّت، منذ ١٩١٩، أولئك الذين يواصلون التكلم بالتركية:

«حتى اليوم، ما زالت الأغاني والمراثي التركية تؤدّى، ويا للأسف، في المنتديات والجمعيات الأرمنية؛ ولا ينفك الناس في كل مكان يتحدثون بالتركية.

[...] ويشكل ذلك كله، بعد أن عاش شعبنا في سجن سياسي، عبودية ثانية خطيرة ـــشـ هي مذلة. لهذا السبب لا بد من تنقية مجتمعنا وبيوتنا من هذه الظاهرة، على أمل ـوصول إلى تحرر قومي مطلق.

[...] إلى اليوم، يتكلم العديد من الأرامل والأيتام لغة الأمة التي احتجزتهم وجعلتهم ـيتماً؛ وهم مجبرون على التكلم بها، بينما كان المأمول أن يتجاهلوها بشدة وبوعي كامل.

[...] فلنطهر نفوسنا من هذه الأرجاس التركية ولنتوقف عن تدنيس أفكارنا وتعابيرنا ـجـ، ولنترع منها اللهجات الغريبة ولنكن متأهبين لدخول أرمينيا الغد، وقد تطهرنا وتزودنا ـصحة أرمنية لا تشوبها شائبة»[39].

غير أن آلية «التطهير» هذه كانت ترتدي طابعاً مختلفاً تماماً عندما يتصل الأمر بإعادة دمج لـــــاء والشابات الأرمنيات المجمعات داخل العائلات المسلمة، وقد أرغمن، خلال سنوات حرب، على تعاطي البغاء من أجل ضمان بقائهن أو أنجبن أطفالاً ولدوا من زيجات قسرية أو من حالات اغتصاب. فهنا نلج عالماً تتعلق فيه التصرفات بالصدمات النفسية الجماعية الناجمة عن الكارثة. وغني عن البيان أن المجتمع الأرمني عهدئذ تجاهل أحياناً المظهر النفسي — لاجتماعي بامتياز للمســـألة، وظل رهينة تطلعاته القومية وكراهيته تجاه جلاد. هذا الموقف، الذي سوف نلاحظ نتائجه من خلال أمثلة فردية، حتى في حالات كثيرة، إلى إقصاء ذاتي أو إلى ابتعاد النساء والشابات لأرمنيات عن جماعتهن الأصلية.

نادرون هم الأشخاص الذين أدركوا فداحة الوضع الذي عاناه هؤلاء لضحايا وخطورته. ويبدو أن زابيل يسايان أدركت بنفسها جميع الرهانات لاجتماعية المتعلقة بهذه المسألة. ففي مذكرة أحالتها إلى بوغوص نوبار، قمت بتحليل الوضع بعقلانية من مختلف وجوهه. ولاحظت أن بعض لنساء لا يرغبن في الانفصال عن أزواجهن المسلمين لأسباب شتى:

«لقد اشتراهم مسلمون ودعاء أو أنقذوهم من العسكر، ووفروا لهن حياة محتملة نسبياً؛ فهؤلاء النساء يكنن بالتالي مشاعر عرفان الجميل للذين أنقذوهن من وضع رهيب؛ لقد فقدن كل أفراد عائلتهن وألفين أنفسهن إزاء مستقبل غامض؛ ورزقن أولاداً من أزواجهن مسلمين، لذا لا يرغبن في أن يتركنهم؛ كما يخجلن من العودة مجدداً بين مواطنيهن بعدما تعرضن لمثل هذا العار؛ وعلى العكس فقدت بعضهن كل شعور بالكرامة وكل حس أخلاقي، وهن لسن متيقنات من سلامة البلاد. لتشجيع هذه الفئة من النساء ودعم معنوياتهن وحل لقضايا البالغة التعقيد بإنصاف وإنسانية وهدوء، إنه لمن الضروري تشكيل لجان نسائية تُعنى بهن على وجه الخصوص»[40].

مراقب آخر للمأساة التي عاشتها هؤلاء النسوة هو الكاتب يرفانت اوديان، الذي اختبر كل أهوال لترحيل. فقد وصف في مذكراته «السنوات الملعونة»[41] مشهداً حصل إثر إعلان الهدنة مباشرة، وفي اللحظة التي استقل فيها القطار في قونيه للعودة إلى القسطنطينية. تجمع في مقصورة كثيرون، منهم جنود يشربون دونما توقف، يغنون ويعزفون الموسيقى داعين، من حين لآخر، عشيقاتهم الأرمنيات

٣٩ «اللغة التركية في أفواه الأرمن» في «داراكير»، السنة ١، رقم ٣٠، ٢٩ كانون الثاني ١٩١٩، حلب.

٤٠ أرشيف مكتبة نوبار، مصدر الوفد الوطني الأرمني، ١-١٥، مراسلات شباط-آذار ١٩١٩، «تحرير النساء والأطفال غير المسلمين في تركيا»، مذكرة أعدتها زابيل يسايان، ١٩١٩، ص ٩.

٤١ اوديان، «السنوات الملعونة، ١٩١٤-١٩١٩»، م. س.

المحتجزات في مقاصير قريبة. بين هؤلاء النسوة امرأة جميلة من بلدة بندرما، متعلمة تعرف آثار اوديان الكتابية وتود التعرف إليه. فحاول الكاتب أن يلقنها أمثولة أخلاقية. فردت عليه في الحال أن معظم النساء الأرمنيات المقيمات في قونيه، واللواتي فقدن أزواجهن أصبحن مومسات أو اتخذن لهن عشاقاً أتراكاً، على أمل ألاّ يُرحّلن باتجاه دير الزور. وفيما كانت الحرب تشارف على نهايتها وشعر الناجون أنهم تحرروا أخيراً من طغاتهم، كانت هذه المرأة على يقين من أن مصيرها قد ختم نهائياً، وأنه لا يسعها الالتحاق مجدداً بمجتمعها الأرمني:

«*[...] بعدما عشت طوال ثلاث سنوات على هذا المنوال، سيلفظني جميع الناس. أنا فتاة أنتمي إلى عائلة محترمة من عائلات بندرما، ولكني لا أملك الشجاعة للعودة إلى بيتي، إذ إنني سأشعر بالخجل وأنا أنظر في أعين أقربائي وأفراد عائلتي، خصوصاً أن كثيرين من بينهم على علم بنمط الحياة الذي عشته في قونيه*»[٤٢].

طبعاً، لا تشكل هذه المرأة المولودة في بندرما حالة فريدة. وقد تأثر اوديان لدى سماع حكايتها، وروى أن نساء كثيرات في دور البغاء في حلب ودمشق أو قونيه، لا يفكرن في الاستفادة من رياح الحرية التي أخذت تهب في أعقاب هزيمة العثمانين وفي العودة إلى بيوتهن، إذ إن حياتهن، يضيف الكاتب، استترفتها «الدعارة».[٤٣].

وعليه، كانت الهيئات الأرمنية عازمة بقوة على مداواة الجراح العميقة التي خلفتها الكارثة البليغة وإعادة إلحاق هذه الفئة من النساء بالمجتمع، بعدما أصبحن مومسات أو تزوجن من مسلمين، وفُصلن تالياً عن جماعتهن. كانت أعداد المومسات الأرمنيات كبيرة. في الموصل وحدها، وهي مدينة صغيرة نسبياً، أحصى طبيب البلدية، مطلع ١٩١٩، مئة مومس تقريباً من أصل مئة وأربعين يتقاضين أجراً لقاء عرض مفاتنهن[٤٤]. وكان عددهن أكبر بكثير في بغداد، ودمشق وحلب بوجه خاص. ففي هذه المدينة الأخيرة بالتحديد، بادرت نساء أرمنيات ينتمين إلى الجماعة المحلية أو إلى جماعات المرحلين إلى إنشاء مأوى، في شباط ١٩١٩، لهؤلاء النساء الشابات اللواتي يعانين الضيق والشقاء. وكانت الغاية من ذلك استقبال المومسات في هذه المؤسسة، وكذلك استقبال نساء حُرِّرن من عملية احتجازهن داخل العائلات الإسلامية. وكن في المأوى يتعلمن مهنة، ويتلقين إسعافات طبية، ويتم التفتيش لهن عن زوج أو عن أفراد عائلاتهن. وبعبارة أخرى، شكلت هذه المآوي بالنسبة إليهن مرحلة حاسمة في عبورهن إلى حياة جديدة وإعادة دمجهن في المجتمع الأرمني. كما يمكن الظن بأن وجود عدد هائل من المومسات الأرمنيات في حلب أثار نوعاً من الارتباك وسط الجماعة، مما حملها على الكفاح من أجل استئصال هذه الظاهرة الاجتماعية المزعجة. في كل حال، كانت البادرة شجاعة، وقد حظيت على الفور بتأييد مطرانية حلب الأرمنية. وابتداء من ١ شباط ١٩٢٠، أخذتها الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية على عاتقها. وأنشئت، في كانون الثاني ١٩١٩، مؤسسة مماثلة في دمشق، عرفت بـ «مأوى الأرمنيات»، مولتها وأدارتها أيضاً الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، اعتباراً من آذار العام ذاته.

٤٢ اوديان م. س.، رقم ١٧٧ ــ ١٧٨.
٤٣ م. ن.
٤٤ أرشيف مكتبة نوبار، الوفد الوطني الأرمني، ١-١٥، رسالة المطران م. سيرونيان إلى ب. نوبار، مؤرخة في الموصل في ٦ كانون الثاني ١٩١٩.

وسوف نسهب هنا في الكلام على نشاط مأوى حلب، إذ إن مراسلاته تزودنا بمعلومات مستقاة من مصادرها عن الوضع الاجتماعي لهؤلاء النسوة، وطريقة عيشهن وماضيهن. وخلاصة القول، نحن هنا أمام ذخيرة نادرة من المحفوظات تسمح لنا، ولو بطريقة إجمالية، بتتبع أثر مسارات فردية، وجعل خط سير هؤلاء النسوة المأسوي أكثر حيوية. ونجد في الرسائل المتبادلة بين إدارة هذا المأوى ومقر الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية المركزي في القاهرة تقارير شهرية يرسم فيها المسؤولون عن المؤسسة صورة مفصلة عن وضع مرضاهم. واستناداً إلى هذه العناصر، يمكن وضع لوائح بأسماء



أيتام جرى تجميعهم من مدينة القدس وضواحيها، ثم إيواؤهم في دير القديس يعقوب الأرمني عام ١٩١٨. في وسط الصف الأمامي، فيكتوريا ارشاروني، مديرة الميتم. وقد نقل الأيتام، في أيلول من العام نفسه، إلى مخيم اللاجئين في بور سعيد. *مجموعة م.ن.ا*

النسوة اللواتي تم ايواؤهن، ومعرفة مكان ولادة كل منهن، وأعمارهن ومكان العثور عليهن، وتاريخ دخولهن المأوى أو خروجهن منه، وأسماء آبائهن وكذلك الاسم الإسلامي الذي أطلق عليهن حتى لحظة وصولهن إلى المأوى. غير أن الجزء الأهم من هذه اللوائح هو بلا ريب ما أشير إليه تحت ركن «نبذة شخصية»، فهو يطلعنا على المشكلات الحقيقية التي واجهنها. وسنقتصر هنا على تقديم بعض الحالات المعبرة انطلاقاً من تقارير تغطي الأعوام ١٩١٩-١٩٢١، أي المرحلة التي جرى فيها قبول النسوة جميعهن في المؤسسة أو خروجهن منها[٤٥].

ضمن هذه المجموعة من النساء الملتحقات بالمأوى، هناك اللواتي أرسلتهن مطرانية حلب الأرمنية. إنها حال صوفيا نالبنديان، ١٤ عاماً، مولودة في باليكسير. فقد أرسلها مسؤولو المطرانية إلى المأوى لإنقاذها من حياة البغاء. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ديكرانوهي (المسماة مريم[٤٦]) توتنجيان، ٤٠ عاماً، التي ولدت في اماسيا واصبحت مومساً. أما زاروهي (المسماة خديجة) هاتيان، فكانت في العشرين من عمرها، وقد أبصرت النور في برديزاك، وعثرت عليها المطرانية الأرمنية وسط عائلة مسلمة، فنقلت إلى المأوى لإرسالها لاحقاً إلى عمها في القسطنطينية.

كذلك كثيرات هن النساء اللواتي هربن من الرجال المسلمين، الذين أصبحوا، تحت وطأة الرحيل، أزواجهن أو حُماتهن، ليلجأن إلى مؤسسة حلب. ذاك هو وضع دودو(المسماة جميلة) بردكجيان، المولودة في عنتاب، فكانت تبلغ من العمر ٢٥ سنة، وقد هربت من زوجها التركي ووصلت إلى الملجأ مع طفلها الرضيع. وبعدما

٤٥ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، حلب، مراسلات كانون الثاني ١٩٢٠ -آذار ١٩٢٢، رسائل من لجنة حلب إلى مقر القاهرة المركزي: ١٧ آذار ١٩٢٠؛ ٤ أيار ١٩٢٠؛ ١ نيسان ١٩٢٠؛ ٤ حزيران ١٩٢٠؛ ١٤ تموز ١٩٢٠؛ ١٠ تشرين الأول ١٩٢٠؛ ٤ تشرين الثاني ١٩٢٠؛ ٧ كانون الأول ١٩٢٠؛ ١٥ آذار ١٩٢١؛ ١١ ايار ١٩٢١.

٤٦ ذكرنا بين قوسين الأسماء الإسلامية المعطاة لهؤلاء النسوة أثناء الترحيل.

مكثت فيه بضعة أسابيع، سلمت إلى رعاية اتحاد عنتاب. وثمة مريم (المسماة زينب) دجلريان وفارتوهي دير غازاريان (المسماة فاطمة)، أو سربوهي مارديروسيان (المسماة مريم)، وهن مولودات على التوالي في تشيماش غدزاك، واورفا واكن، وأوضاعهن متشابهة. وقد تمكنت ثلاثتهن من الفرار من المنازل الإسلامية حيث كن محتجزات. وبعد إقامة قصيرة في مؤسسة حلب، تم تشغيلهن بصفة خادمات لدى عائلات أرمنية. وكانت أوّلهن مريم، ١٨ سنة، وقد استُعيدت في اورفا وأرسلت إلى المأوى عقب تخليها عن ولدها لمجيد، زوجها التركي المقيم في أرضروم. وتُعلمنا إدارة المأوى أن زوجها الأول الأرمني كان لا يزال على قيد الحياة، ولكن جميع الأولاد الذين أنجبتهم منه لاقوا حتفهم. في بادىء الأمر، جرى قبولها في المأوى، ثم سلمت إلى أختها التي تزاول التعليم في ميتم حلب العربي. أما فارتوهي، فكانت في العشرين من العمر، مولودة في اورفا ومتزوجة من حبش، مسلم مقيم في الرقة، وقد فقدت الطفل الذي ولد ثمرة هذا الزواج. وأخيراً سربوهي، ٣٣ سنة، وقد التحقت بالمأوى وهي حامل من زوجها الكردي، إلاّ أن طفلها توفي بعد أربعة أيام من ولادته.

هذا، ويجهل المرء كيف بلغت كثيرات أخريات منهن المأوى. وأغلب الظن أن بعضاً منهن عثرت عليهن فرق التفتيش التي أرسلت إلى صحراء بلاد ما بين النهرين من أجل جمع النساء والأطفال. لائحة أسمائهن طويلة ولكننا نكتفي هنا بإيراد بعض الأمثلة. آغفني بالدوداكيان من بورصا، ٢٥ سنة، وجدت في دير الزور حيث تزوجت من رجل تركي، وكانت أماً لفتاة عمرها سنتان، تعلمت مهنة الخياطة عندما التحقت بالمأوى. مريم توتْليان، متحدرة من بهسني، ٢٥ سنة، عثر عليها باضنه، وكانت متزوجة من الشيخ أحمد، وهو تركي من بلدة ممبج؛ وصلت إلى المأوى وهي حامل، فأنجبت طفلة أسمتها هايكوهي ماتت بعد ستة عشر يوماً. أما أولادها من زواج سابق بأرمني فقد ماتوا جميعهم. لاحقاً، تم تشغيلها خادمة لدى عائلة أرمنية. ديروهي، من مواليد بورصا، ٢٥ سنة، عثر عليها في قبه خانه. فقدت ولدها بعد مدة قصيرة من بلوغها المأوى حيث تعلمت الخياطة، ولكن صحتها بقيت واهنة جداً. ازنيف كوزيان، ٢٦ سنة، مولودة في سيواس، عثر عليها في بيرادجيك، متزوجة من تركي، وأم لطفل توفي قبل ولادته. كانت هذه المرأة تنتظر انتظام أوراقها لتتوجه إلى القسطنطينية حيث يعيش أقرباؤها. آغفني (المسماة فاطمة) ٢١ سنة، متحدرة من بورصا، عثر عليها في دير الزور حيث تزوجت من عربي ولها طفلة تدعى لطافه كانت تبلغ الثالثة من عمرها عندما التحقت بالمأوى مع أمها. يستير (المسماة زكية) بيفازوريان ـــ كازنجيان، مولودة في سيفراك، ٣٥ سنة، تزوجت، أثناء فترة الترحيل، من سعيد أحمد وهو من مواليد سيفراك، كان لها ثلاثة أولاد من زواجها السابق بأرمني، توفي أحدهم وبقي الاثنان الآخران برفقة والدتهما على الدوام. بايلادزو (المسماة ماري) غفريان، متحدرة من يوزغاط، ٣٢ سنة، وجدت في دير الزور، وتمكنت من استعادة ولد واحد فقط من أولادها الأربعة الذين أنجبتهم من زواجها بأرمناك غفريان قبل اندلاع الحرب. عملت في ما بعد خادمة في ميتم حلب الأرمني.

ان المسوولين عن مأوى حلب، كما يتبين من الأمثلة السابقة، قد أعدوا لهؤلاء النسوة سياسة مواكبة كيما يجعلوا اندماجهن في المجتمع أقل إيلاماً. لذا كانوا يحاولون خصوصاً أن يدمجوهن في المجتمع المحلي بتأمين عمل لهن أو بتزويجهن من مواطنين لهن، أو بالعثور على أفراد من عائلاتهن على استعداد لرعايتهن. هكذا تزوجت سيرانوش (المسماة عيوش) دميرجيان، المولودة في غيفه، ١٥ سنة، من أرمني من مواليد صاصون وغادرت المأوى. وبنتشان خضرلريان، ٢٥ سنة، مولودة في برادجيك، تركت دار بغاء حلب واستقرت في المأوى بصحبة ولدها انترانيك الذي كان يبلغ من العمر سنة واحدة. عندها سارع أفراد عائلتها إلى نجدتها، وبعد إقامة في المأوى دامت أسبوعاً، استطاعت أن تسكن في بيت لها. أما ازادوهي (نعيمة) كادريان، ٢١ سنة، مولودة في اورفا، فقد تزوجت أثناء فترة

لرحيل بخليل، وهو نقيب في الجيش من مواليد ادرنه. عملت في نهاية الحرب خادمة في منزل خقوض صبحي حيث غالباً ما تعرضت للضرب. تمكنت من الهرب واللجوء إلى مؤسسة حلب، كما تم العثور على أثر لخالتها المقيمة في القسطنطينية، فلحقت بها.

غير أن نساء أخريات ما احتملن البيئة الجديدة فقررن مغادرة المأوى للعثور ثانية على عائلتهن الإسلامية. وهذا ما حدث مع مريم (المسماة زهيده) اكاردشيان، مولودة في خربوت، ٢٢ سنة؛ هربت بداية من بيت زوجها التركي لتلتحق بالمأوى. غير أنها لم تبق، وهي المصابة بأمراض زهرية، سوى أسابيع قليلة في المؤسسة، لتعاود الهرب وهي تصبح في الطريق بأنها امرأة مسلمة. مثال آخر هو الماس نظاميان، ٢٧ سنة، مولودة في سيواس، ومتزوجة من بهاء الدين وهو أحد أتراك حلب، وأم لفتاة في الثانية من عمرها ولدت ثمرة هذا الزواج. فبعد إقامة قصيرة في المأوى، فرت مع ابنتها أثناء زيارة لكنيسة حلب. أخيراً سيرانوش ترزيان (المسماة نديمة)، ١٠ سنوات، اقتادها رجال الشرطة، الذين وجدوها في دار للبغاء في حلب، إلى المأوى، فلاذت بالفرار من المؤسسة من دون أن تترك أثراً.

ويُستخدم المأوى كمكان آمن لمنع العائلات المسلمة من استعادة النساء والشابات الأرمنيات اللواتي عشن في منازلها حتى لحظة تحريرهن. هذا ما جرى مع زابيل، ١٤ سنة، اذ اختطفها في سن مبكرة جداً ترك حلب؛ فنسيت اسمَي والديها ومسقط رأسها. عملت في بادىء الأمر خادمة لدى أرمن حلب، ولكن العائلة التركية أُعلمت بعنوانها وحاولت أن تستردها. لهذا السبب نُقلت زابيل إلى المأوى. كما تم في هذه المؤسسة، إيواء نساء مستوحدات جئن إلى سوريا للبحث عن أفراد عائلتهن المرحلين إلى صحراء بلاد ما بين النهرين. هذه حال نازيك، وهي أم في الثلاثين من العمر وزوجة كالوست زاديكيان؛

نساء أرمنيات في مخيم حلب، عام ١٩٢٤.
مجموعة م. جاكوبسن



أبصرت النور في بورصا، وقدمت في نهاية الحرب إلى حلب التي شكلت نقطة عبور رحلتـــها باتجاه الشدادية، حيث أملت العثور على أولادها. وهذه أيضاً حال زاروهي باهاريان، ٤٥ سنة، من سكان عنتاب؛ فقد أتت بيروت للتفتيش عن حفيدها، ولكن لما باءت مساعيها بالفشل، التحقت بالمأوى في انتظار فتح الطرق البريـــة لتعود أدراجها إلى عنتاب.

ليس من شك في أن المصير المأساوي للعديد من هؤلاء النساء جسّده على نحو أفضل وضع اربوني، المولودة في ازمير والمقيمة في مأوى دمشق. فقد اصطحبت معها طفلها الصغير المولود نتيجة زواجها من مسلم. وفي ١٩١٩، فرضت الحكومة العربية السورية بقاء الأطفال لدى عائلاتهم الإسلامية إذا رغبت امرأة أرمنية في ترك زوجها المسلم. بالنسبة إلى اربوني، كون الطفل ما زال رضيعاً جاء لمصلحتها: فقد قررت السلطات العربية إبقاء الولد في رعاية أمه حتى يكبر. أما زوج اربوني الأرمني فكان حياً يرزق في ازمير. لذلك لم يدخر شقيق اربوني وأقرباؤها جهداً لإعادتها إلى زوجها الشرعي، ولكن شرط أن تتخلى عن ولدها. رفضت اربوني العرض ولزمت مكانها[٤٧].

تذكرنا قصتها بمشاعر القلق التي أعربت عنها امرأة بندرما الشابة: فخوف هؤلاء النسوة من أن يجدن أنفسهن منعزلات أو منبوذات من جماعتهن بالذات انتاب كل واحدة منهن. هؤلاء الضحايا تعرضن للاغتصاب، وأكرهن على الزواج من مسلم، وأصبحن مومسات لتأمين أسباب بقائهن، وطالما قسا عليهن مجتمعهن، وأحسسن بشعور قوي بالذنب. إن ظروف بقائهن على قيد الحياة أثناء عمليات الترحيل تعتبر، في نظر العديد من مواطنيهن، بمثابة مذلة وعار جماعيين، لذا انقسمت الآراء حول وضع هؤلاء النساء والمكان الذي سيُفرد لهن في عملية إعادة البناء الوطنية. وعلى نقيض ز. يسايان، أو ي. اوديان، أو المسؤولين أيضا عن مؤسسات كمأويي حلب ودمشق، ثمة من اعتقد أن من غير المجدي العناية بهؤلاء النساء. ويمكن الافتراض بأن بعض الأرمن كانوا على يقين من أن الزيجات القسرية أو البغاء قد جرّدا هؤلاء النساء من هويتهن القومية. لهذا السبب، عندما تعلق الأمر بانتشال النساء الأرمنيات من بيئتهن الاجتماعية المتأثرة بمرحلة الحرب، أو بإقناعهن بترك أزواجهن المسلمين للاختلاط مجدداً بالمجتمع القومي، لم يُبدِ مسؤولون عدة من التفاني ما أبدوه تجاه الأيتام. وفي سياق هذا المنطق، وخلافاً لنظرتهم إلى الأيتام، يبدون مقتنعين بأن هؤلاء النساء لن يتمكنّ أبداً من تخطي مرحلة «التطهير» وبأن هويتهن ضاعت إلى الأبد.

نجد هذه الحالة الفكرية لدى ميكايل نتانيان، الذي أتى على ذكر تجميع النساء الأرمنيات من بين العائلات الإسلامية في سوريا في إحدى رسائله المؤرخة في حزيران ١٩١٩، فكتب بهذا الصدد الآتي: «*إن كانت الفتيات البالغات والنساء يرغبن في العودة، فلا بأس. أما إذا كن يرغبن عن العودة فذاك أولى: إذ من الأفضل أن يمكثن مكانهن. إنهن لا يجدين نفعاً، بل على العكس قد يعدن بالضرر على غيرهن. وقد رأيت العديد منهن، وكن بالغات، ولكنهن رفضن العودة بكل وعي [...] أما أكثر المعذبين والأشد فائدة لقضيتنا فهم الأطفال: الصبيان، ومن بين البنات، أولئك اللواتي لم يتعرضن للانحطاط الخلقي. وللأسف، يُعتبر القسم الأكبر منهن في حكم الميؤوس منهن بالنسبة إلينا. إنهن يجهلن مفهومَي العائلة والأمة. وقد شاهدت كثيرات منهن لا يتكلمن الأرمنية؛ ليس هذا وحسب بل نسين أيضاً آباءهن وأمهاتهن أو مكان ولادتهن*»[٤٨].

وسط هذه الفئات المختلفـــة من النساء اللواتي وقعن ضحايا الإبادة الجماعيـــة، إن الحالات الأصعب على المعالجة تتصل بأولئك اللواتي أنجبن، أثنـــاء فترة الترحيـــل،

٤٧ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، دمشق، رقم ١٢، ٢١ تموز ١٩١٠ -٢٦ آذار ١٩٣١، رسالة من لجنة دمشق إلى مقر القاهرة المركزي، ٢٠ حزيران ١٩١٩.

٤٨ أرشيف مكتبة نوبار، «مراسلات ميكايل نتانيان»، كانون الأول ١٩١٤ ــ تشرين الأول ١٩١٩، رسالة رقم ١٤ من نتانيان إلى فاهان ماليزيان، مدير مقر الجمعية في القاهرة، ١٢ حزيران ١٩١٩، دمشق، الورقة ١٩٨.

أولاد هم ثمرة اغتصاب أو زواج قسري. فعموماً كان المجتمع ينظر إلى هؤلاء الأطفال وأمهاتهم نظرة أشد قسوة أيضاً. وكما هي حال اربوني، يكون الطفل في أغلب الأحيان موضع رفض من عائلة أمه الأرمنية التي تترك الأم أمام خيار مأساوي: العودة بمفردها إلى حضن عائلتها، أو البقاء مستبعدة مع ولدها المنكرة بنوته. فقد كانوا، في رأي كثيرين، أولاداً حملت بهم أمهاتهم من الجلاد، وهم، بهذه الصفة، يرمزون إلى أهوال الترحيل جمعاء، وإلى الحقد غير الممكن إخماده الذي تحركه الإبادة الجماعية. ونلاحظ خاصة عقوبة الطرد التي تُنزل بهذه الفئة من النساء، في نشاط مبشرة دانمركية تدعى كارن جب. فبعد أن مكثت طويلاً في مركزها في اورفا، قررت الاستقرار خريف ١٩٢٠ في حلب، لتُعنى بالشابات والأطفال الأرمن المخطوفين إبان الحرب. ويتضح موقف المبشرة الدانمركية هذا في رسالة موجهة إلى المطران اردافست سورميان، وهو أحد كبار رجال الدين في حلب. تقول المبشرة:

«تسلمت رسالتكم في شأن المرأة المدعوة يرانيك. ويؤسفني أن أعلن لكم أنني لا أستطيع قبول وضعها، إذ إنني أرفض رفضاً قاطعاً أن أقبل أطفالاً مسلمين، إلاّ إذا تخلى عنهم الأب بملء إرادته.*

[...] على أنه لا يعني، من وجهة نظر أرمنية محضة، قبول هؤلاء الدخلاء، فهم لا يصلحون لشيء. وأنا أنصح بصرفها. إذ لماذا ينبغي ألاّ نألو جهداً لتربية هؤلاء الأطفال الغرباء، في حين هناك العديد من الأطفال الأرمن يعانون النكبات؟»[٤٩]

طبعاً تخشى كارن جب وكثيرون سواها أن يأتي الأب ليستعيد ابنه في أي لحظة. ولكن في أي حال من الأحوال، كان إقصاء هؤلاء الأطفال يتم بشكل حازم لأنه يقوم على مفهوم عرقي لا يسمح بدمج كائن والده مسلم، بتعبير آخر، شخص يجسّد الجلاد التركي، في المخيلة الجماعية الأرمنية.

إن إعادة بناء الوطن التي باشرها الأرمن إثر ارتكاب الإبادة الجماعية، ومختلف المظاهر الاجتماعية والثقافية والسياسية المرتبطة بهذه العملية تظل موضوعات شبه بكر قابلة للبحث، مع أن تناول مسألة النساء والشابات والأيتام المتروكين لأقدارهم يمكن أن يلقي أضواء كاشفة على المناخ العام السائد عصرئذ، وعلى تطلعات الأرمن والخطاب الذي اعتمدته، في حينه، المؤسسات والمسؤولون القوميون الخ...

ومن المهم أن نشير إلى أن آمال الأرمن في إنشاء وطن قومي لهم وتجمعهم فوق هذه الأرض قد تلاشت نهائياً بعد بضع سنوات من نهاية الحرب العالمية الأولى. ورغم المساعي الهادفة إلى نقل الرعايا الأرمن القدامى التابعين للإمبراطورية العثمانية وأحفادهم باتجاه أرمينيا السوفياتية، بقي السواد الأعظم منهم مشتتاً خصوصاً في بلدان الشرق الأوسط وفي اليونان. إلى ذلك، عملية إعادة البناء الوطني في ظروف خاصة بعالم الشتات، أي، بكلام آخر، وسط شعب حُرم من دولة قومية ومن رقعة جغرافية. وعليه، يمكن التساؤل حول قدرات شعب عاش عملية محق مدمر على إعادة بناء نفسه في بيئة خارج أرضه وخالية من مؤسسات حقيقية خاصة بالدولة. إنها حال الناجين الأرمن من الإبادة الجماعية وحال أحفادهم الذين اعتمدوا بخاصة على المؤسسات الجماعية كيما تصنع لهم هوية قومية في سورية أو في لبنان.

ولما كنا عاجزين عن تفصيل هذه المساعي، سنكتفي بإبداء بعض الملاحظات العامة حول مسألتَي الأيتام من جهة والنساء والفتيات المهجورات من جهة ثانية، وهما عاملان موجهان أساسيان في عملية إعادة بناء الوطن. بالطبع، وخلافاً للأيتام، جرى التطرق إلى مسألة إعادة دمج الفتيات والنساء، أو وصف وضعهن بكل بساطة، بدرجة أقل نسبياً من الأيتام في الصحافة أو في المؤلفات الأرمنية. لذلك ثمة ما يدعو

٤٩ هاكوب تشولكيان، «كارن جب» في المحنة ونهضة الأرمن، حلب ٢٠٠١، ص ٨٠.



أولاد ميتم الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في هادجين، مع المدير القس هاروتيون خانشادوريان ومساعدته الآنسة كولد (في الوسط)، بمناسبة زيارة السيد اوغورليان (إلى يمين الآنسة كولد)، الموفد التربوي، عام ١٩١٩. استولت القوات التركية على المدينة في منتصف تشرين الأول ١٩٢٠ وقتلت فيها آلاف الأرمن بمن فيهم أيتام الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية.
مجموعة م.ن.ا

إلى الاعتقاد أن معظم العائلات التي ذاقت أهوال الإبادة الجماعية تضمنت، بين أفرادها، على الأقل امرأة ذات نسب قريب أو بعيد، خُطفت واغتُصبت وزُوّجت بالقوة أثناء فترة الترحيل. ورغم ذلك، ظل الموضوع محرماً. دُمج بعض النسوة في عائلاتهن من دون التطرق، مع ذلك، إلى ماضيهن أمام الجيل الجديد، فيما أبعد غيرهن، على غرار اربوني أو امرأة بندرما، عن مجتمعهن الأصلي. أما أولئك اللواتي تعرضن للخطف أثناء فترة الترحيل ولم يتم العثور على أثر لهن إطلاقاً، فقد تكتم أقرباؤهن عن وجودهن أمام الأجيال الجديدة بداعي الحياء. فقط في هذه الأعوام الأخيرة، بدأ التحريم يتلاشى جراء مقالات أو أعمال صادرة في تركيا. ولعل أكثرها إيحاء كتاب «جدتي»، وفيه تجعلنا المؤلفة نكتشف هوية جدتها الحقيقية، وهي أرمنية من «بالو»، اسمها المسيحي هيرانوش، خُطفت على دروب الترحيل، ثم تغير اسمها إلى سحر، وزوجت من رجل تركي.

ما بالنسبة إلى الأطفال، فيبدو لنا أن الدور الذي لعبته المياتم الأرمنية كان رائعاً بالنسبة إلى نقل التربية والهوية القومية، فقد تخرج من هذه المؤسسات آلاف الأطفال، الذين خضعوا في أغلب الأحيان لنظام صارم، ليصبحوا في ما بعد عناصر فاعلة ومهمة في حياة الجماعة الأرمنية المستقرة في كل من سوريا ولبنان أو في أي مكان آخر. وينطبق هذا الكلام على وضع انترانيك دزاروكيان: لقد تخرج من الميتم الأرمني في حلب، وأمسى مناضلاً سياسياً وصحافياً، وذكر لاحقاً في مذكراته دوره الشخصي في الكفاح الذي قاده ضد استعمال اللغة التركية وسط الجماعة الأرمنية المحلية. كان دزاروكيان نفسه يتقن اللغة التركية تمام الاتقان، وهو القائل:

«إذا كان اكتشاف أميركا يعود إلى كريستوف كولمبوس، فأنا مبتكر العبارة الآتية التي نشرت على بطاقات ووزعت في ما بعد:

- «لا تتكلم التركية.
- لماذا؟
- تذكّر المليون».[٥١]

هكذا، في وسعنا أن نستخلص أن دزاروكيان وكثيرين آخرين ممن تخرجوا من هذه المياتم ظلوا أوفياء لإيديولوجية إعادة بناء الوطن، التي تصورها المسؤولون الأرمن غداة ارتكاب الإبادة الجماعية، واعتبروا المتعلم والواعي هويته خير ضمانة لدوام الأمة.

٥٠ فتحية تشتين، «جدتي»، اسطنبول ٢٠٠٤.
٥١ انترانيك دزاروكيان، «حلب أحلامنا»، بريفان ١٩٨٥، ص ٢٠٧.



الأولاد الـ ٨٥٠ في ميتم بعقوبة في العراق، التابع لإدارة جمعية حماية الأيتام الأرمن، عام ١٩١٩.
مجموعة م.ن.ا



أيتام في مأوى خاربرت التابع لجمعية إغاثة الشرق الأدنى في طريقهم إلى سوريا. لقد أجلى المسوولون الأميركيون، من آذار إلى أيلول ١٩٢٢، عشرة آلاف وسبعة عشر يتيماً كانوا ينعمون بحمايتهم في مرعش، وماردين، واورفا، وديار بكر، وسيواس وخاربرت، إلى سوريا ثم إلى لبنان. واضطر الـ ٥٣١٢ يتيماً في منطقتي خاربرت ومالاطيه أن يسيروا ١٠٠٠ كلم تقريباً قبل بلوغ الحدود السورية — أما الأيتام الأحدث سناً فكانوا يسافرون ممتطين ظهور الحمير، فيما كان زملاؤهم الكبار يسيرون مشياً على الاقدام.
مجموعة م.ن.ا

مياتم أرمنية في لبنان وسوريا وفلسطين

بقلم فاهه طاشجيان

كيف يمكن إدارة وجود عشرات الآلاف من الأيتام الأرمن الذين حشدوا من الولايات العربية القديمة التابعة للأمبراطورية العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى؟ أقلقت المسألة مختلف المنظمات الأرمنية والمؤسسات الغربية التي تعهدت بتجميع هؤلاء الأطفال المتروكين لمصيرهم.

لقد فتحت إعادة توطين الأرمن باتجاه كيليكيا واحتمال إنشاء وطن قومي في تلك المناطق آفاقاً جديدة أمام مسألة الأيتام. يومها ساد الاعتقاد بأن كيليكيا، بتشجيع من سلطات الاحتلال الفرنسية، ستوفر البيئة المثالية، حيث يستطيع العيش آلاف الأيتام. لهذا السبب، عندما بدأت عمليات إعادة الإسكان، نُقل معظم المياتم القائمة في المدن العربية (حلب، وبيروت، وحمص، وحماه) إلى كيليكيا وإلى المناطق الواقعة أكثر شرقاً، وهي مرعش وعنتاب واورفا.

غير أن الوجود الفرنسي في كيليكيا لم يعمّر طويلا. ففي خلال عام ١٩٢٠، برزت بوادر أكيدة تنبئ بتبدل السياسة الفرنسية في المنطقة وباحتمال التنازل عن المنطقة الكيليكية لتركيا. ومنذ ذلك الحين، فكرت الهيئات الأرمنية والدولية في نقل أيتام كيليكيا إلى أماكن أكثر أماناً. واستشعرت أن بلدين يصلحان كمكانين يُحتمل الاستقرار فيهما، وهما: لبنان وقبرص. أما المسؤولون الأرمن فاعتبروا آنذاك أن سوريا ولبنان ليسا موقعَين آمنين وأن استقرارهم في هذين البلدين قد يجر عليهم

حيث أمل جديدة[1]. وبدا أن الأطراف المعنية مقتنعة بفكرة إجلاء الأيتام عن كيليكيا، في حين نقلت جمعية إغاثة اللورد ماير البريطانية، في شهر حزيران، كل أيتامها من اضنه إلى لارنكا في جزيرة قبرص، بعدما جمعوا في مرسين[2]. وبسبب القلق من الظروف الأمنية السائدة في المنطقة، أجلت جمعية حماية الأيتام الأرمن في عنتاب، في نهاية أيار، جميع أيتامها باتجاه بيروت، حيث جرى أخيراً إيواؤهم ضمن أملاك دير بزمار للأرمن الكاثوليك، قرب مرفأ جونيه[3].

غير أن النقل الكثيف للأيتام الأرمن من كيليكيا إلى سوريا ولبنان لم يتم إلاّ بعد توقيع اتفاقية أنقرة في تشرين الأول ١٩٢١ بين فرنسا وتركيا. عندها صمم الأرمن على مغادرة الأراضي الكيليكية قبل استقرار الإدارة والجنود الأتراك فيها. ورغبوا بالطبع في أن يجرّوا معهم أيتامهم بعضاً في حركة التروح هذه. هكذا نزل في مرفأ جونيه في لبنان، في ٣٠ كانون الأول ١٩٢١، الثلاثمئة والأربعة عشر يتيماً التابعون لميتم الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، وأرسلوا على الفور باتجاه مأويهم الجديدين في بزمار في مقر الأرمن الكاثوليك، وفي عشقوت داخل دير ماروني كبير استؤجر لهذه الغاية[4]. أما في ما يتعلق بالثلاثمئة والأربعة والسبعين يتيماً المتواجدين في مؤسسة « كيلكيان — سيسوان» التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في درتيول، فإنهم وصلوا بالقطار من الاسكندرون في ٣٠ كانون الأول. وبعد إقامة قصيرة في هذه المدينة أبحروا إلى بيروت في ١٠ كانون الثاني. وتم إيواء جميع الصبيان في دير بزمار، والفتيات كما الأيتام الأصغر سناً في عشقوت. وقررت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في ربيع ١٩٢٢، دمج مؤسستي بزمار وعشقوت في حي الأشرفية في بيروت، قرب حوض الماء، ضمن مبنى كبير كان من قبل مدرسة يهودية. وصار مبنى «كيلكيان — سيسوان» الجديد يضم مدرستين ابتدائيتين، واحدة للبنات وثانية للبنين، باعتبار أن المدرسة الأساسية مختلطة.

وخلافاً للمؤسسات الأرمنية، قررت الإدارة الفرنسية وجمعية إغاثة الشرق الأدنى الاحتفاظ بمياتمهما الأرمنية في تركيا. ولكن منذ أوائل ١٩٢٢، ظهر جلياً أن الإبقاء على هذه المؤسسات الخيرية الأميركية والفرنسية في كيليكيا بات محفوفاً بالمخاطر، وذلك نتيجة تصميم السلطات التركية المعلن على مجانسة بلادها ومشاهدة المسيحيين يُطردون من المنطقة. وإذ كان المسؤولون عن تلك المؤسسات قد تعرضوا لضغوط قوية وأخضعوا للترهيب من خلال تدابير تركية كيدية، لم يبقَ أمامهم خيار آخر سوى الرحيل ونقل أيتامهم، وهم في غالبيتهم الساحقة أرمن، إلى سوريا ولبنان ابتداء من عام ١٩٢٢. وهكذا نظمت جمعية إغاثة الشرق الأدنى، من آذار إلى أيلول ١٩٢٢، عملية إجلاء ١٠٠١٧ يتيماً خاضعين لحمايتهم في ولايات تركيا الشرقية إلى سوريا. وأخيراً، نقل القسم الأكبر من هؤلاء الأطفال إلى لبنان [5]. أما الداخليون في مؤسسة اضنه الفرنسية، والبالغ عددهم ٥٠٥ أيتام، منهم ٤١٣ أرمنياً و٦٠ سريانياً و٣٢ كلدانياً، فأجلوا اعتباراً من ١٩ تشرين الأول ١٩٢٢ باتجاه بيروت، ثم توجهت الفتيات إلى بعبدا، حيث تم إيواؤهن في دير قديم تشرف عليه الراهبات الفرنسيسكانيات. أما الصبيان فأرسلوا إلى بكفيا، حيث تولى مسؤوليتهم الآباء الكبوشيون الفرنسيون الذين كانوا يعنون حينذاك بحوالي ألفي يتيم لبناني[6].

لكل واحدة من هذه المؤسسات تاريخها الخاص، غير أننا سنكتفي هنا بإلقاء نظرة خاطفة على تلك التي بقيت في الوجود بعد ١٩٢١[7].

١ أرشيف مكتبة نوبار، الوفد الوطني الأرمني، ميكروفيلم ١٣، رسالة من فاهان ماليزيان إلى زابيل يسايان، القاهرة ١ أيار ١٩٢٠.

٢ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا–لبنان، كيليكيا–اضنه، رقم ١٤٤، «تقرير السيدة بورتقاليان حول المياتم الأرمنية في كيليكيا (ايلول ١٩٢٠)».

٣ عش اليتيم، السنة ٢، رقم ١١، ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٠، ص. ٢٢٤–٢٢٥.

٤ أرشيف مكتبة نوبار، محضر المجلس المركزي للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، ٢١ شباط ١٩٢٢، الجلسة ١٤، الورقتان ٦٥–٦٦.

٥ ت.هـ. غرينشيلدز، «توطين اللاجئين الأرمن في سوريا ولبنان، ١٩١٥–١٩٣٩»، أطروحة دكتوراه، بريطانيا ١٩٧٨، ص ٩٥.

٦ أرشيف مكتبة نوبار، أرشيف الجمعية، مراسلات الدكتور ملكونيان، رسالة رقم ١١٥ من الدكتور ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد الوطني الأرمني؛ بيروت ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٢، ص. ١–٢.

٧ لإعداد هذا الملخص، جرت الاستعانة بالمؤلفات ووثائق الأرشيفات التالية: أرشيف مكتبة نوبار، الوفد الوطني الأرمني، ميكروفيلم ١، «تقرير عن لاجئي سوريا وفلسطين الأرمن»، إعداد المطران بابكين كولسريان، القدس ١٩٢٣؛ «مذكرات ميتم جبيل الأميركي، ١٩٢٠–١٩٢٥»، إصدار قدامى الأيتام، بيروت ١٩٦٩؛ غ. دير بدروسيان، «كتاب اليتيم، سوريا، لبنان وفلسطين (١٩١٥–١٩٣٠)، بيروت ١٩٣٢؛ «الشرق الأدنى الجديد»، شهرية، نيويورك، السنوات ١٩٢٠–١٩٢٧؛ ارام اندونيان، «إحصاء الأيتام الأرمن المشتتين في جمهورية يريفان الأرمنية، وفي تركيا، وسوريا، وفلسطين، واليونان، وبلغاريا، ورومانيا، وإيطاليا، وسويسرا، وفرنسا، وانكلترا وكندا»، باريس ١٩٢٣؛ ادور ليفونيان بصفته مدير للميتم»، نص غير منشور.



انطلياس، ميتم جمعية إغاثة الشرق الأدنى.
مجموعة ميشال بابودجيان

لبنـــان

- **جبيل (بيبلوس) (جمعية إغاثة الشرق الأدنى).** هذا الميتم الأميركي، الذي تأسس في تشرين الثاني ١٩٢٠، كان يؤوي مئة طفل تقريباً، هم في غالبيتهم الكبرى داخليون قدامى تابعون لمدرسة عنتاب. وكانت إدارته مناطة بالأب ترافس، وقد استُبدل لاحقاً بمساعدته الآنسة بيترسن الدانمركية. أقفل هذا المأوى في ١٩٢٥، وتم إيواء الأطفال الأصغر سناً في ميتم صيدا.
- **نهر إبراهيم (ج. ا. ش. ا.).** هذا الميتم، الذي أنشيء ربيع ١٩٢٣ عقب إجلاء أيتام مبنيي المنظمة الأميركية الكائنَين في كل من قيصريه وقونيه إلى لبنان، آوى ما يناهز ألف طفل، جرى إسكانهم في بيوت قائمة على ضفاف النهر، تحت إدارة الأميركي ستانلي كر. إلاّ أن الملاريا فتكت بهم فتكاً ذريعاً، ونقل الناجون الأربعمئة إلى ميتم جبيل في ١٩٢٤.
- **غزير (ج.ا.ش.ا).** في عام ١٩١٩، أقام الأميركيون هنا ميتماً خُصِّص للأطفال اللبنانيين الذين أجلوا في ١٩٢٢ إلى صيدا. عندئذ أصبح المبنى في عهدة جاكوب كونزلر. فآوى هذا الأخير حوالي ألف وخمسمئة يتيمة أرمنية، أغلبهن أجلين عن اورفا. وأنشيء هنا محترف مهم لصناعة السجاد اشتغل فيه عدد من الشابات. وابتداء من ١٩٢٥، افتتحت فيه أيضاً مدرسة للمكفوفين.
- **المعاملتين (ج.ا.ش.ا).** أسست هنا جمعية إغاثة الشرق الأدنى ميتماً للصبيان بإدارة ت.ه. غنناواي، تعلم فيه أربعمئة وخمسة وعشرون طفلاً مهنة. ولكن هذه المؤسسة لم تعمل إلاّ سنة واحدة. أما ميتم المعاملتين الأميركي الآخر المخصص لصغار الأطفال، فقد أغلق أبوابه في ١٩٢٤ وتحول المبـــنى إلى مصح.



ميتم جمعية إغاثة الشرق الأدنى
في بيبلوس / جبيل.
مجموعة م.ن.ا

- **جونيه** (ج.ا.ش.ا). أسس الأميركيون في هذه المدينة المرفئية ميتماً للبنات ضم نحو أربعمئة وسبعين يتيمة، وكان بإدارة الأميركية كاترين فلتشر. وتم فيه إيواء الفتيات اللواتي أجلين عن قيصريه وقونيه. أقفلت المؤسسة أبوابها في ١٩٢٥، وأجلي قسم من الفتيات إلى غزير وصيدا.
- **زوق مكايل** (ج.ا.ش.ا). أسست فيها جمعية إغاثة الشرق الأدنى ميتماً للبنات حوى ثلاثمئة وخمسين طفلة تقريباً، وكان بإدارة ماريا جاكوبسن، وهي مبشرة دانمركية تولت في ما بعد إدارة ميتم جبيل. وقد دفعت قلة المياه المسؤولين إلى إغلاقه في نيسان ١٩٢٣ ونقل الفتيات إلى صيدا.
- **انطلياس** (ج.ا.ش.ا). أسس الفرع الأسترالي لهذه المنظمة الإنسانية هذا الميتم المختلط التابع لجمعية إغاثة الشرق الأدنى في ١٩٢٢ وتولى إدارته. وقد ضم قرابة ألف ومائتين وخمسين طفلاً. وكان أول مدير له الكولونيل ج.ه. كنودس . ثم جُهِّزت المؤسسة بمدرسة لتعليم صنعة. وفي أواخر العشرينات منح هذا العقار التابع لجمعية إغاثة الشرق الأدنى إلى كاثوليكوسية كيليكيا الأرمنية التي أقامت عليه مقرها الدائم.
- **بيروت** (ج.ا.ش.ا). كان للمنظمة الأميركية فيها، منذ ١٩٢٢، مدرسة خاصة بالشابات اليتيمات لتعليم التطريز بُنيت على شاطىء البحر. وبسبب ضخامة عدد التلميذات أنشئت مؤسسة ثانية مشابهة لها عام ١٩٢٣ في مار يعقوب (مستوصف جمعية إغاثة الشرق الأدنى الرئيسي)، وتولى إدارتها س.كر. أقفلت هاتان المؤسستان أبوابهما حوالي ١٩٢٥.
- **صيدا** (ج.ا.ش.ا) أدار الأميركيون هنا ميتماً تأسس في ١٩١٨ وخُصِّص للأطفال اللبنانيين. وفي وقت لاحق، جرى استقبال مئات الأطفال الأرمن فيه. وتولت إدارة المؤسسة الأميركية فلورا ستانستن كالك ثم ستيوارت جسسوب. وقد تجاوز عدد الأطفال المئة حين أغلقت ميانم أرمنية أخرى تابعة لجمعية إغاثة الشرق الأدنى في لبنان، ونقل الأطفال إلى صيدا. وقد أدارت ماريا جاكبسن، المبشرة الدانمركية ومديرة ميتم زوق مكايل السابقة، في صيدا ثم في جبيل، مؤسسة أخرى اهتمت بنحو أربعمئة طفل صغير، وسميت عش العصافير Birds' Nest، وهي قائمة على تلة مواجهـــة للبحر.



ماريا جاكوبسن، المبشرة النروجية
وأولاد ميتمها في صيدا، عام ١٩٢٥.
مجموعة م. جاكوبسن



جوقة ميتم كلكيان ــ سيسوان الموسيقية، التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، في بيروت عام ١٩٣١. في الوسط، مدير الجوقة ك. هاكوبيان.
مجموعة م.ن.ا

- **صيدا (راهبات القديس يوسف)**. اهتمت هذه الأرسالية الفرنسية هنا بأربعين فتاة صغيرة أرمنية.
- **حمانا (ا.ش.ا.)**. تم فيها إيواء مئة وثمانين يتيمة أرمنية أجلين في ما بعد إلى مياتم لبنانية أخرى. وقد استخدمت مؤسسة حمانا أيضاً مصحاً للأيتام المصابين بالسل. وأخيراً قامت جمعية إغاثة الشرق الأدنى برعاية مياتم صغيرة في صور والدامور.
- **بزمار (ميتم بإدارة الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية في لبنان)**. أقيمت هذه المؤسسة بداية في دير بزمار، وكانت تؤوي قرابة مائتي صبي. نُقل الأطفال لاحقاً إلى بيروت، حيث أسس الأب يول (بوغوص) عريس في ١٩٢٣ الميتم-المحترف «سان غريغوار»، ثم أنشأ، في ١٩٢٩، مزرعة في برج حمود نُقل إليها جميع الأطفال.
- **جونيه (ميتم جمعية حماية الأيتام الأرمن)**. تأسس عام ١٩٢٠، على أثر إجلاء أيتام مؤسسة عنتاب، وتولى إدارته غازروس غبليكيان. غير أنه، في ١٩٢٨، وجد نفسه من غير موارد مالية، لذا تم نقل اليتيمات الخمس والسبعين فيه إلى ميتم «كلكيان ــ سيسوان» التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية.



انطلياس، شمال بيروت: ميتم جمعية إغاثة الشرق الأدنى الذي سيتحول لاحقاً إلى كاثوليكوسية بيت كيليكيا الأكبر.
مجموعة ميشال بابودجيان



ليفون اسادور (إلى اليسار) والدكتور بغداسار ملكونيان (إلى اليمين) مع أولاد مخيم بيروت الكبير، في كانون الأول ١٩٢١.
مجموعة الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، القاهرة

- **بيروت («كلكيان ــ سيسوان»)**. هذه المؤسسة، التي شُيِّدت في حي الأشرفية اعتباراً من ١٩٢٢، تولى إدارتها بادىء الأمر الأب مامبره سيرونيان، ثم حل مكانه، في نهاية ١٩٢٢، الدكتور كاريكين امادیان. أغلقت أبوابها في مطلع الثلاثينات.
- **شملان**. كانت هذه المؤسسة بإدارة المبشرة البريطانية فريرسن. آوت ما بين مئة ومئة وخمسين يتيمة تم اجلاؤهن عن عنتاب.
- **عاريا**. جرى فيها إيواء ثلاثمئة داخلي.
- **عاليه (راهبات البوزانسون)**. كان هذا الميتم الخاضع لإدارة البعثة الفرنسية يضم حوالي ٣٠٠ صبي أرمني.
- **بعبدا**. أنشىء فيها ميتمان: واحد بإدارة الراهبات الفرنسيسكانيات ضم ١٠٠ فتاة أرمنية، وآخر برعاية راهبات البوزانسون حوى ١٠٠ فتاة أرمنية أيضاً.
- **بسكنتا (راهبات القديس يوسف)**. كانت عشرون فتاة أرمنية يقمن في هذه المدرسة.



بيروت، أعراس أيتام قدامى. كان المسؤولون عن المياتم يعتبرون أنهم يتحملون مسؤولية خلقية تجاه كل واحد من الأيتام البالغين. لذا قرروا انتهاج سياسة مصاحبة حيال أيتامهم القاصرين كي يجعلوا اندماجهم في المجتمع أقل إيلاماً. فغالباً ما كانوا يؤدون دور والدين حقيقيين، وذلك عبر تشجيعهم بقوة على الزواج من مواطنات لهم. وهكذا كان كل فرد منهم يخامره شعور بأنه يسهم في بقاء الأمة من خلال تأمين دمج اليتيمات في المجتمع.
مجموعة م.ن.ا



أيتام في بيروت، مطلع ١٩٢٩، قدموا من قيصريه، تركيا. قررت السلطات التركية، في ١٩٢٨، مصادرة كنيسة قيصريه الأرمنية التي كانت لا تزال تضم نحو مئة يتيم أرمني متحدرين من مختلف مناطق آسيا الصغرى. وقد أُجلي حوالي الخمسين منهم، في كانون الأول ١٩٢٨ باتجاه لبنان، حيث تم إيواؤهم في ميتم كلكيان ـــ سيسوان التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في بيروت.
مجموعة م.ن.ا

سوريـــا

- **حلب (ميتم القس شيرادجيان).** قام البريطانيون بداية بتمويل هذه المؤسسة التي أُنشئت إبان الحرب العالمية الأولى، ثم استفادت من تقديمات جمعية إغاثة الشرق الأدنى والمفوض السامي الفرنسي. وفي آب ١٩٢٢، استعيض عن القس شيرادجيان بأدور ليفونيان. إذ ذاك فكرت جمعية إغاثة الشرق الأدنى في الانسحاب تدريجاً من الشرق الأدنى. لهذا السبب قررت إجلاء قسم من أيتام حلب إلى مراكز المنظمة القائمة في لبنان، ولا سيما في جبيل (بيبلوس)، وأغلقت أبواب المؤسسة نهائياً في ١٩٢٤.
- **حلب (ميتم ـــ مدرسة «كيلكيان» التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية لتعليم المهن).** هذه المؤسسة، التي أنشئت في ١٩٢١، كانت تضم في البداية تسعة وثلاثين صبياً قدموا من ميتم مرسين، وأربعة وثلاثين من ميتم كيلكيان وستة وعشرين من ميتم سيسوان. وبتعبير آخر، كانت غاية كيلكيان مساعدة الأيتام القاصرين التابعين للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية على الانتقال من الميتم إلى الحياة العملية. وتم فيها تعليم العديد من المهن. استبدل أول مدير لها، ويدعى هاكوب فوسكان، بتراريت فسدكجيان في ١٩٢٢، وخلفه همبارتسوم بربريان في ١٩٢٣. أغلقت هذه المؤسسة عام ١٩٢٥.



حوقة وأوركسترا ميتم دورتيول التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في تموز ١٩٢٠.
مجموعة م.ن.ا



فريق «ماميس» لكرة القدم في الميتم التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في مرسين عام ١٩٢٠ او١٩٢١.
مجموعة م.ن.ا

- **حلب (ميتم ـــ ملجأ كارن جب)**. هي مبشرة دانمركية عملت على مدى سنوات في اورفا ثم استقرت بداية في حلب لتعنى بالبحث عن الشابات والأطفال الأرمن المخطوفين إبان الحرب. وكانت ممثلة لجنة حماية النساء والأطفال في الشرق الأدنى الملحقة بعصبة الأمم. اعتمد عملها خصوصاً على تجميع النساء والشابات والأطفال الأرمن المحتجزين لدى القبائل العربية والكردية المستقرة في بلاد ما بين النهرين السورية (الجزيرة)، وكانت يومئذ تحت الانتداب الفرنسي. أسست كارن جب ملجأ في شمال المدينة، في شيخ طه وسط كرم واسع. ولما أصبح المكان صغيراً جداً نُقل في ١٩٢٤ إلى الميدان الذي كان آنذاك خارج مدينة حلب.



القدس، أولاد ميتم اراردیان التابع
للجمعية الخيرية العمومية الارمنية
مجموعة م.ن.ا



ՈՐԲԱՆՈՑ
ՀԱՅԿ. ԲԱՐԵԳ. ԸՆԴՀ. ՄԻՈՒԹԵԱՆ

ՈՐԲԻՆ ԱՆՈՒՆԸ ... ԹԻՒԸ 531
ՊԱՇՏՊԱՆԻՆ ԱՆՈՒՆԸ ...

✻ ՈՐԲԻՆ ՎԻՃԱԿԱՑՈՅՑԸ ✻

ՀԱՅՐԸ ...
ՄԱՅՐԸ ...
ԲՆԱԿԱՎԱՅՐԸ ...
ԱՔՍՈՐԱՎԱՅՐԸ ...
ՏԱՐԻՔԸ 10
ԾԱՆ. — ...

ԿՐԹԱԿԱՆ ԵՒ ՈՐԲԱԽՆԱՄ ԿԵԴՐ. ՅԱՆՁՆԱԽՈՒՄԲ
ԱՏԵՆԱԴՊԻՐ ԱՏԵՆԱՊԵՏ

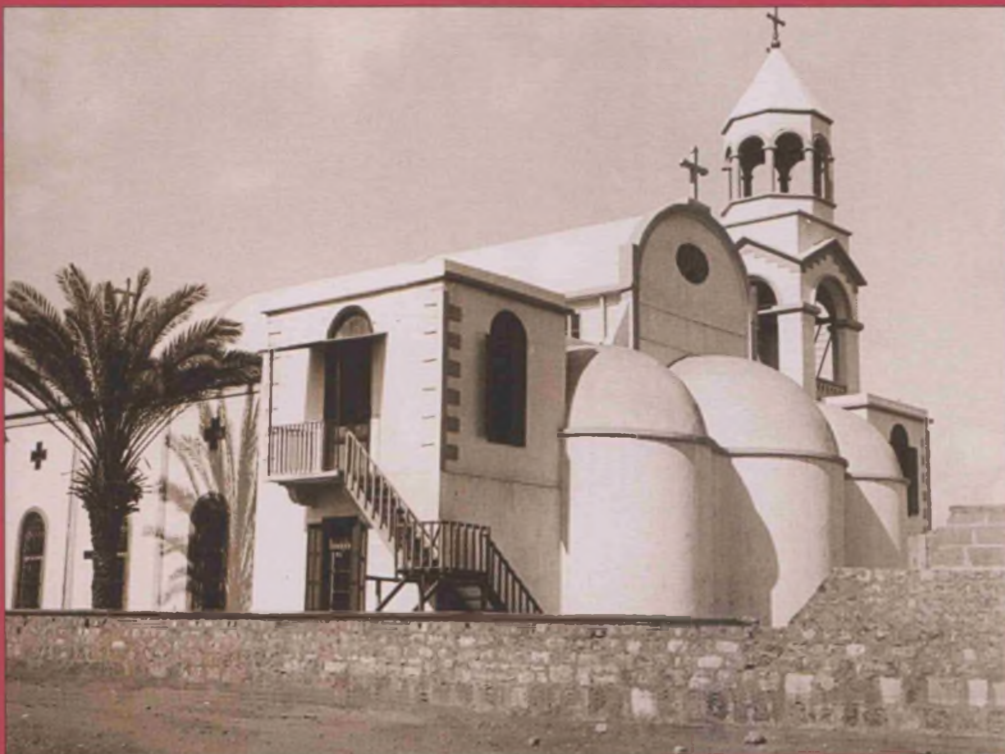
بطاقة شخصية لأحد أيتام
«اراردیان» في القدس.
مجموعة م.ن.ا



ميتم «فاسبوراغان» الذي تأسس في تموز ١٩٢٢، داخل دير الصليب المقدس الارثوذكسي في القدس، وكان يضم ٢٧١ فتاة، معظمهن متحدرات من فان واذربيجان الإيرانية، وهن في عهدة الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية وجمعية إغاثة الشرق الأدنى على السواء.
مجموعة م.ن.ا

فلسطين

- **القدس (ميتما «فاسبوراكان» و«اراردیان» التابعان للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية).** كان في نهر عمر في العراق، عام ١٩٢١، قرابة ثمانمئة يتيم أرمني تخلت عنهم السلطات البريطانية وتركتهم لمصيرهم. وكانت غالبيتهم، وهم من مواليد فان واذربيجان الإيرانية، من قدامى داخلي ميتم بعقوبة، والآخرون من ميتم الموصل. فاتفقت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية وجمعية إغاثة الشرق الأدنى على أن تأخذا هؤلاء الأيتام على عاتقهما المشترك، بينما وافق البريطانيون على إسكانهم في فلسطين التي كانت خاضعة لانتدابهم. أنزل الأيتام، في ١٠ شباط ١٩٢٢، في مرفأ قنطرة، وفي اليوم نفسه، نُقلوا بالقطار إلى القدس، حيث تم إيواؤهم في حرم دير مار يعقوب الأرمني، وبالتحديد في حي بغتشه وتشام. ضم هذا الميتم المدعو«اراردیان» ثمانمئة وستة عشر يتيماً (خمسمئة وخمسة وأربعين صبياً ومائتي وإحدى وسبعين فتاة). في ما بعد، أي في تموز ١٩٢٢، وُضعت الفتيات والصبيان الصغار في دير الصليب المقدس الأرمني، الكائن في القدس أيضاً، وكانت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية قد تمكنت من استئجاره. أما المؤسسة العائدة للفتيات فدُعيت «فاسبوراكان». وفي ١٩٢٦، نقل الثلاثمئة والاثنان والعشرون داخلياً من كلا الميتمين إلى ميتم «كلكيان — سيسوان» في بيروت.
- **الناصرة** (ميتم جمعية إغاثة الشرق الأدنى). أنشئت هذه المؤسسة في ١٩٢٣، واستأنفت نشاطها حتى عام ١٩٢٧.



كنيسة «الأربعين شهيداً» في نور مرعش، في برج حمود، في الثلاثينات.
مجموعة م.ن.ا



نادي جمعية إغاثة الشرق الأدنى في بيروت.
مجموعة ميشال بابودجيان

(إعادة) إقامة المؤسسات الأرمنية في لبنان وسوريا

اللاجئون والدولة[1]

بقلم نيكولا ميليورينو

[1] شرة موسعة من هذا المقال سوف تصدر في كتاب مؤلف فرد، حول تجربة الجماعات الأرمنية في لبنان وسوريا (برغهن بوكس، ٢٠٠٧).



لبنان

مدن وقرى شملتها عملية اسكان الأرمن في لبنان.
ميا تم أرمنية عاملة في لبنان خلال ١٩٢٢ والثلاثينات.

إن دمج الأرمن بشكل كثيف في لبنـــان وسوريـــا خلال العقود الأولى من القرن العشرين يطرح العديد من المسائل الفكرية على الباحثين المتخصصيـــن في دراسة موضوع اللاجئيـــن وفق المنهج المقارن. وتتعلق إحدى هذه المسائل بطريقة ووتيرة إقامـــة – أو إعادة إقامة – المؤسسات الطائفية الأرمنيـــة في البلدان التي أعيد إسكانهم فيها.

في مطلع العشرينات من القرن المنصرم، كانت الحرب والإبادة الجماعيـــة قد دمرتا عملياً كل مظاهر حياة الناجين الأرمن على نحو ما كانت عليه قبل عام ١٩١٤. فعدا الخسائر الشخصيـــة والصدمات التي تكبدها الأفراد والعائلات، كان البعد الاجتماعـــي للحياة الأرمنيـــة قد خضع بدوره للفناء، إذ دُمر معظم شبكات العلاقات التقليديـــة: فُقدت مجالات التفاعل والتماثل المحليـــة والإقليمية – مكان العمل، أو الجوار، أو القرية أو المدينـــة – وتعرضت المؤسسات الطائفيـــة الشكلية لضربة قاسيـــة: كنائس، وجمعيات خيريـــة، ونواد ثقافية وسياسيـــة جرفتها عمليات الترحيل، مثلما جرفت معها ثروة طائلـــة من الذاكرة الجماعيـــة الثقافيـــة: مستندات، وفنون، وتقاليـــد ومهارات[٢].

ورغم جسامة الخسائر والظروف المادية القاسية التي وجد اللاجئون أنفسهم فيها، سرعان ما برز عالم جديد من المؤسسات الأرمنيـــة داخل مخيمات اللاجئيـــن في لبنان وسوريـــا وفي أماكن أخرى من المنطقة. وفي أواسط الثلاثينـــات، عندما كانت تجربة مخيمات اللاجئيـــن تشارف نهايتـــها، كان الأرمن قد أنشأوا شبكة واسعة ومدهشة من المؤسسات. بعضها، بما فيـــه الكنائس، وكان بمثابـــة نقاط مرجعية بالنسبة إلى المجتمع الأرمنـــي قبل ١٩١٤ بزمن طويل، أقيم من جديـــد بين اللاجئيـــن؛ وبعضه الآخر جديد شهد تطوراً وفق الظروف الجديدة التي كان لا بد من أن يخضع لها الأرمن.

إن السرعة والفعاليـــة اللتين ميزتا إعادة إقامـــة المؤسسات الطائفيـــة الأرمنيـــة وسط بيئـــة تضم لاجئين تثيران أسئلـــة حول الظروف التي جعلت ذلك أمراً ممكنـــاً. وتبيّن المستندات المتصلـــة بالتهجير القسري من الكثير من التجارب الأخرى التي مر بها لاجئون – ومن ضمنها تجربـــة الفلسطينيـــين في نهايـــة الأربعينات – أسفرت عن نتائج مختلفـــة اختلافاً جذريـــاً[٣]. فلماذا بلغ الأرمن هذا الحد من السرعة والفعاليـــة في التزامهم بإعادة بنـــاء عالم أرمني في لبـــنان وسوريا؟

قد تكون الأجوبـــة عن السؤال متعددة. بعضها متوافر بداهـــة في سياق الحالة الإنسانيـــة الملحة التي أطلقتها مأساة اللاجئيـــن الأرمن منذ ١٩١٥: فإنشاء منظمات قادرة على توفير مساعدة إنسانيـــة وتلبية الحاجات الأولية لشعب يعاني الفاقة – في مجالات السكن والصحة وتأمين التعليم – كان ضرورة كبرى. ومع أن اللاجئيـــن تلقوا دعماً كبيراً من مصادر عدة، ومنها حكومـــة الانتداب، إلاّ أن ذلك لم يكن ليكفي على الإطلاق، لو لم تتوافر مساهمة من بنى التعاون الأرمنيـــة المتبادلة. وتاليـــاً يظهر هذا النوع من الشرح أن بروز المؤسسات الأرمنيـــة السريع مرده طلب سكان المخيـــمات الملحاح لخدمات منظمة. غير أن الحالة الإنسانيـــة العاجلة لا تفسر سوى بروز جزء من العالم المؤسساتي الأرمنـــي في لبنان وسوريـــا: ذلك الجزء المتعلق مباشرة ببقاء اللاجئيـــن الفوري على قيد الحيـــاة وبالإسعافات الواجب تقديمها لهم.

أجوبة أخرى تتمحور حول مسائل ثقافية وتتصل بنوع خاص بالأرمن وهويتهم قبل الإبادة الجماعية وبعدها. وهي تمت بصلة إلى حقيقة مفادها أن معنى مغايراً للهوية

٢ حول تفكك البنى الجماعية المشتركة والشبكات الاجتماعية بين الجماعات التي أعيد دمجها بالقوة، أنظر ا. اوليفر-سميث، «إعادة التوطين الاضطرارية: مقاومة وتفويض سياسي»، في «صحيفة دراسات اللاجىء»، الجزء الرابع، رقم ٣ (١٩٩١)، ص. ١٣٢-١٤٩.

٣ انظر ج.-م بتيت، «تحويل الثقة: نزع الملكية والتفويض السياسي بين اللاجئين الفلسطينيين». وفي ا.ف. دانيال و ج. كنودسن. «تكوين اللاجئين». إن دراسة مقارنة تركز على مختلف الجماعات الإثنية الثقافية التي تعرضت لهجرة قسرية لدى أفول الإمبراطورية العثمانية تساعد حتماً على توضيح المسألة التي تشكل لب هذا المقال، ولكنها تتجاوز مداه وإمكاناته. ويبدو من المفيد خصوصاً، لتأمين وجهة نظر مقارنة، دراسة الجماعات الناطقة بالسريانية التي استقرت (مجدداً) في الجزيرة السورية وفي شمال العراق، إذ إن هذه الجماعات واجهت مأزق ضياع ثقافي شبيهة بتلك التي عانى منها الأرمن.

القوميـــة الأرمنية أخذ يتكون ويترسخ مع انفجار الأزمة الأرمنيـــة. في هذا السياق، جاءت المؤسسات الطائفيـــة لتجسد الوسائل الأساسية الكفيلـــة بصون الهويات الأرمنيـــة المختلفة أو بتحديدها كأدوات قادرة على إثارة ردود فعل إزاء الأحداث الجاريـــة، كما أن إقامة المؤسسات الأرمنية ودفعها إلى العمل ما لبثا أن تحولا إلى ميدان منافسة بين وجهات نظر تتزاحم حول ما ينبغي أن تتضمنه الهويات الأرمنية، وكيف يجب أن يرتبط بعضه بالبعض الآخر. وأكثر من ممثل فاعل استهواه الاشتراك في «السباق» على المؤسسات، وذلك لأن هذه الأخيرة قادرة على التحول إلى وسائل لنشر قيم وإيديولوجيات، وأدوات لاستخدام رموز أرمنية وجيهة سياسياً أو- كما هي حال الكنائس – تمثل هي بالذات رموزاً مهمة.

تأكيداً، ينبغي البحث عن عناصر أخرى للإجابة عن السؤال في السياق الاجتماعي والسياسي الذي برزت فيه أزمة اللاجئين. فإقامة المؤسسات الأرمنيـــة لم تتم في الفراغ، وإنما في بيئة قادرة إماعلى تقديم دعم مباشرلإعادة الإنشاء المؤسساتي الأرمني، أو على توفير مناخ ملائم له. ومن بين هذه الظروف، لا بد من أن نتذكر أن الطوائف الأرمنيـــة كانت مستقرة بثبات في عدد كبير من مراكز المشرق قبل ١٩١٥. وهذا ما شكل عاملاً ساهم في إرساء أسس من أجل دمج اللاجئيـــن الاقتصادي والاجتماعي[٤]. فالمؤسسات الأرمنيـــة التي كانت قائمة في لبنان وسوريـــا عند ارتكاب الإبادة ووصول اللاجئيـــن على نطاق جماعي واسع، لعبت، من دون ريب، دوراً هاماً في إعادة بناء الطائفة من الناحية التنظيميـــة. كما يمكننا أن نلاحظ، في حال تبني وجهة نظر أوسع تتخطى وضع الأرمن، أنه لدى إنجاز إعادة الإسكان، كانت بيئة المشرق الاجتماعية تتسم باندفاع متجدد للتعبئة الاجتماعيـــة العامة: فقد أصبحت الجمعيـــات، خلال العشرينات والثلاثينات - سواء كانت مذهبية أم لا – أكثر عدداً وتنوعاً أيضاً[٥]. وهكذا شكل انطلاق مؤسسات اجتماعيـــة شكلية وانتشارها ظاهرة لم تكن قط غريبة على الشرق العربي. بل على العكس، ميزت معظم المجتمعات القائمة في فترة نهايـــة الإمبراطورية العثمانية أو في المرحلة التالية للعهد العثماني. وأخيراً، إن السياق السياسي نفسه الذي كان فيه الأرمن يستعدون لبذل جهودهم من أجل إعادة البناء زوّد الطائـــفة بإمكانات باهرة. وأنشأت إدارة الانتـــداب الفرنسية، التي تأثرت بما توافر لديها من تجربة استعمارية (وبخاصة في المغرب)[٦] وإرث عثـــماني، مساحات اجتماعيـــة وسياسية لاستعمال الطائفة، وشجعت إعادة إقامة العالم المؤسساتي الأرمنـــي ودعمته من نواح عدة.

على وجهة النظر الأخيـــرة هذه – التي تعنى بتحليل العلاقـــة القائمة بين السياق السياسي و(إعادة) إقامة المؤسسات الأرمنيـــة – يود هذا المقال أن يركز. مثلما يحاول ببساطـــة وبعيداً عن كل ادعاء بالشموليـــة، أن يستنفد مسألة انبعاث المؤسسات الأرمنيـــة المتجددة الذي أعقب الإبادة الجماعيـــة، وأن يشير إلى مجموعة من الروابط بين البنية وسياسات الدولة في لبنان وسوريا من ناحية، وبعض النتائج المتعلقة بالحضور المؤسساتي للطائفة الأرمنيـــة في هذين البلدين الخاضعين للانتداب من ناحية أخرى. ولتحقيق هذا الغرض، سوف تحلل الفقرة التالية ثلاثة أبعاد تتعلق بإعادة تكوين المؤسسات الأرمنية في لبنان وسوريا، لا سيما إعادة إقامة المؤسسات الدينيـــة وتنظيمها؛ وإعادة تشكيل المؤسسات السياســـية وبدايات المشاركة الأرمنيـــة في الحياة السياسية؛ وتأسيس شبكات جمعيات ونواد ومؤسسات خيرية للطائفة الأرمنيـــة. وتلخص الخاتمة الأفكار الرئيسية الواردة في هذه الدراسة المقتضبة.

٤ الحالة الأشد ارتباطاً بالموضوع، في هذا الصدد، هي بكل تأكيد وضع الجماعة الأرمنية في حلب. انظر ا. ك. صانجيان، «الجماعات الأرمنية في سوريا تحت الحكم العثماني». كامبردج، دار نشر جامعة هارفرد، ١٩٦٥.

٥ انظر س. بوخيمة، «حركة الجمعيات في سوريا»، في س. بن نفيسة، «السلطات والجمعيات في العالم العربي»، باريس ٢٠٠٢، ص. ٧٧-٩٤ ؛ ك. كرم «الجمعيات في لبنان: بين العمل الخيري والسياسي»، م. ن. ص. ٥٧-٧٥.

٦ انظر س. خوري، «سوريا والانتداب الفرنسي. سياسة القومية العربية ١٩٢٠-١٩٤٥»، لندن ١٩٨٧، ص. ٥٥-٥٧.

السياسة الدينية في ظلّ الانتداب وإعادة إقامة الكنائس الأرمنيــة

بالنسبة إلى شعبَي لبنان وسوريــا، كان سقوط الإمبراطوريــة العثمانيــة يعني - مما يعنيــه - ابتعاد النظام القضائي العثـماني. وكان قدر هام من هذا التغيير البارز يتعلق بنطاق حياة المواطنيـــن الدينيـــة: فبموجب السياسة الدينيـــة الجديدة التي تبنتها السلطة الانتدابية، لم يعد الإسلام «دين الدولـــة»[7]. ولم يجعل الدستور اللبناني لعام ١٩٢٦ من أي دين مذهب الدولة الرسمي. فالمادة ٩ تنص على الآتي:

«حريـــة الاعتقاد مطلقة، والدولـــة، بتأديتها فروض الإجلال لله تعالى، تحترم جميع الأديان والمذاهب وتكفل حريـــة إقامة الشعائر الدينيـــة تحت حمايتـــها على ألاّ يكون في ذلك إخلال في النظام العام [...]»[8].

ثم إن المادة ٩ تبسط حماية الدولة لتشمل جميع المعتقدات بشرط وحيد وهو ألاّ تلحق ضرراً بالنـــظام العام. وكان لهذا النص أثر أبعد مما كان للنص الذي تضمنـــه دستور ١٨٧٦ العثـماني، حيث كانت الحماية مقصورة على المعتقدات «المعترف بها في الإمبراطوريـــة»[9]، ضمن إطار الصيغة الإسلاميـــة المتعلقة بأهل الذمة ونظام الملة. والتغييرات التـــي أدخلها الدستور اللبناني، وفي وقت لاحق الدستور السوري عام ١٩٣٠، تبعت حدثاً آخر بارزاً وبعيد الأثر: وهو أن الحكومة التركيـــة الجديدة ألغت الخلافة رسمياً في ١٩٢٤، قاطعة بذلك، وبعد قرون من الزمن، الرباط الديني بين المؤمنين المسلميـــن واسطنبول.

إلاّ أن الأهميـــة الواضحة لهذه التغييرات ينبغي ألاّ تحجب الواقع القائل إن نظام العلاقات الجديد بين الدولة والدين في لبنان وسوريـــا كان يتميز بعناصر مهمة تعتبر استمراريـــة للماضي. وتبرز الاستمراريـــة خصوصاً عندما يتم تحليل التغييرات من وجهتي نظر مختلفتين، تتعلق إحداهما بوضع الدين العام في الأنظمة السياسيـــة الجديدة التي نظمتها سلطة الانتداب. فمن جهة، صحيح أن عدم اختيار أي دين كمذهب رسمي «حرّر» الدولـــة من كل تأثر مرتبط بمجموعة معينة من القيم الدينيـــة، ومن أساليب تنظيم الحياة العامة والخاصـــة، وهلم جرى؛ وبتعبير آخر، صحيح أن الدولـــة كانت معلمنة بالإجمال[10]. لكن، من جهة أخرى، لم تقدم التغييـــرات، في أي حال من الأحوال، نموذجاً عن الفصل بين الإثنين على الطريقة الفرنسيـــة، حيث تتحول الانتماءات الدينيـــة إلى مجرد شؤون خاصـــة، وحيث يتم التمييز بوضوح بين مفهومي المواطن والمؤمن. ومع ذلك، فالانتماء الديني، كما هو محدد عنـــد الولادة أو مكتسب لدى اعتناق الدين، ومن دون أن يعتبر عدم الارتباط بالوضع، بقي عاملاً أساسيـــاً من عوامل تحديد مجالات مشاركة الأفراد في الحياة العامة وإمكانياتها. ففي سوريا، مثلاً، خص دستور ١٩٣٠ منصب رئيس الجمهوريـــة بالمسلمين، أما في لبنان فاعترف دستـــور ١٩٢٦ بدور الطوائف الدينيـــة في الحياة العامـــة. وتنص المادة ٩٥ على ما يلي:

«بصورة مؤقتـــة[...] والتماساً للعدل والوفاق، تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامـــة وتشكيل الوزارة من دون أن يؤول ذلك إلى الإضرار بمصلحة الدولـــة»[11].

أصبحت الانتماءات الديـــنيـــة، خلال سنوات الانتـــداب، إحدى ركائز بنـــاء النـــظام الدستـــوري اللبنـــاني انطلاقاً من التصورات المبنيـــة

٧ الدستور العثماني لعام ١٨٧٦، المادة ٤، انظر ا. رباط، «التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري»، بيروت: بيروت، الجامعة اللبنانية، ١٩٨٦، ص ٩٧.

٨ بخصوص الترجمة الانكليزية للدستور اللبناني لعام ١٩-٢٦، أتبع هنا وفي أماكن أخرى من النص، الطبعة التي أعدها القانون الدستوري الدولي، ما لم يرد بيان مخالف لذلك.

٩ الدستور العثماني لعام ١٨٧٦، مادة ١١: «[...] تحمي الدولة الممارسة الحرة لكل الشعائر الدينية المعترف بها في الإمبراطورية»؛ انظر ا. رباط، «التكوين التاريخي»، ص. ٩٧.

١٠ يمكننا مع ذلك أن نلاحظ أن المادة ٩ من الدستور اللبناني لعام ١٩٢٦ تشير إلى أن الدولة تسلم بوجود إله واحد (« بتأديتها فروض الإجلال لله تعالى»)، الأمر الذي يطرح تساؤلات حول وضع الملحدين (أو غير المؤمنين بإله واحد). وكمقدمة نظرية لموضوع العلاقات بين الدولة والدين، انظر س. كارديا، «الدولة والمذاهب الدينية»، بولونيا: إل مولينو، ١٩٨٨، ص. ١٥-١٠٩؛ ا. طورطارولو، «العلمانية». روما وباري: لاترزا، ١٩٩٨.

١١ الدستور اللبناني لعام ١٩٢٦، المادة ٩٥، ترجمة المؤلف.



لجنة الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في بيروت، ١٩٣١.
جلوساً من اليسار إلى اليمين: د. هاكوب طوبجيان، مهران داماديان، القسيس يانوفك كوككوزيان، د. بغداسار ملكونيان؛ وقوفاً من اليسار إلى اليمين: قرهبت كارتسحيان، هامایاك كرانيان، بوغوص طورسركيسيان.
مجموعة م.ن.ا

على الطائفة تقاسم السلطات. فتم الإبقاء إذاً على الانتماءات الدينية باعتبار أنها «أبواب ولوج» الميادين العامة، وهي أبواب ضرورية ولا يمكن إنكارهاعملياً[١٢].

أما وجهة النظر الثانية التي تنم عن روابط مستمرة ومهمة بين القديم والحديث فارتكزت على الحريات والاستقلالية الدينية التي كانت الطوائف غير الاسلامية تنعم بها. ولم تغير سلطة الانتداب بشكل ملحوظ، في ما يتصل بهذه الطوائف (بما فيها اللاجئون الأرمن)، نظام الحريات الكبيرة إلى حد ما، الذي أقيم عبر قرون من تجربة الملة، وبخاصة في نطاق الشؤون الدينية وقانون الأحوال الشخصية. وهكذا فالمؤسسات الدينية والطائفية الأرمنية - كما مثيلاتها لدى الطوائف الأخرى - استمرت تحسم، بمنتهى الاستقلالية، جميع المسائل المتعلقة بالعقيدة والطقوس، والتنظيم الداخلي، وكذلك بقضايا الأحوال الشخصية كافة، ومن ضمنها مسائل التركة. وإن المحطات الهامة في حياة الأرمن، كالزواج والطلاق وتسجيل الولادات، كانت السلطات الدينية الأرمنية تواصل الإشراف عليها بشكل شبه حصري، وذلك لعدم صدور أي قانون علماني. وإذا كان نظام سلطة الانتداب القضائي قد أحدث تغييراً في الممارسات الدينية اليومية في المشرق، فلعل ذلك خصّ الأقليات المذهبية الاسلامية (الشيعة، والدروز، والاسماعيلية والعلويين) التي لم يشملها اعتراف أو حماية إبان حكم الأمبراطورية العثمانية؛ فقد منح النظام الجديد هذه المذاهب حريات واستقلالية مشابهة لتلك التي كانت ممنوحة لغير المسلمين.

١٢ انظر ا. نصري مسره، «النظرية العامة للنظام السياسي اللبناني»، باريس، ١٩٩٤، ص. ٢١٠-٢١٩. نصري مسره على حق عندما يشير إلى أن معنى «البنوة الدينية» في هذا السياق ينبغي أن يقتصر على «مجرد الانتماء إلى جماعة ثقافية»، لا أن يقوم على المشاركة الفعلية في الحياة الدينية لجماعة ما، أو على صدق العقيدة الدينية، ولكن يكاد يستحيل إنكار أن الانتماء إلى جماعة ثقافية ينطوي، أقله من الناحية العملية، على احترام الإجراءات التي تقوم سلطة دينية معينة بتحديدها ومراقبتها، وبالتالي ارتباط الدين والزعامة الدينية بالحياة العامة. ومثال على كل ما سبق هو سجلات الأحوال الشخصية التي بقيت تحت سلطة المذاهب الدينية الحصرية.

سؤال آخر على جانب من الأهمية هو الآتي: إلى أي حد كانت سلطة الانتداب تنوي حقاً تغيير نظام الحريات المشار إليه؟ فقد كان يتعين على حكام المشرق الفرنسيين بكل تأكيد أن يهتموا بإقامة توازن بين تعزيز الإدارة المركزية وضرورة تدارك الإجراءات التي من شأنها أن تخل بالعلاقات المضطربة بين الطوائف المختلفة أو تنفر الطوائف المختلفة بعضها من بعض[١٣]. والواقع أن الفرنسيين كانوا، على الصعيد السياسي، يدركون أن الزعامة الدينية لدى مختلف الطوائف قد تغدو أداة سيطرة اجتماعية وسياسية قوية. لذا رغبوا في تمييز «أتباع لهم من بطاركة دينيين»[١٤]. فالتشريع في هذه المنطقة الخاضعة للإدارة الانتدابية كان يعتمد على القرار الذي قضى بفرض الانتداب عام ١٩٢٢ كمصدر قانوني. وتنص المادة ٦ من هذه الوثيقة على أن «[...] احترام الأحوال الشخصية لمختلف السكان والمصالح الدينية سيكون مكفولاً تماماً [...]»[١٥]. وكذلك عززت المادة ٩ من الوثيقة نفسها الإجراء الذي يحظر «[...] كل تدخل [...] في شأن إدارة الطوائف الدينية ومعابد الديانات المختلفة التي تنعم بحصانة مكفولة صراحة ».[١٦]

إن التشريع المعمول به إبان عهد الانتداب نفسه عكس على العموم هذه المبادىء. وفي لبنان، نص دستور ١٩٢٦، المادة ٩، الفقرة ٢ على أن تسهر [الدولة] أيضاً على احترام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية المعتمدة للسكان أيا تكن... فالجهد القانوني الرئيسي الذي قامت به سلطة الانتداب من أجل تنظيم العلاقات بين الدولة والمذاهب الدينية في لبنان وسوريا تم إنجازه خلال الثلاثينات من القرن المنصرم. والقرار رقم ٦٠ تاريخ ١٣ آذار ١٩٣٦، والقرار رقم ١٤٦ تاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٨ (الذي عدل الأول) كانت له غاية مزدوجة. تهدف الأولى إلى تثبيت وتحديد مجالات الحرية المعطاة للطوائف الدينية القائمة في البلاد، وترسخ الثانية المبدأ الذي يخوّل الدولة حق وواجب التأكد من أن الحياة الطائفية لا تخرق تشريع الدولة[١٧]. وحددت وثيقة عام ١٩٣٦ (المادة ٤) الإجراءات التي بموجبها تمنح الطوائف شخصية قانونية، بشرط أن تودع الحكومة «نظاماً مستمداً من النصوص التي تحكمها»[١٨].

يجب أن يحدد النظام الذي يطالب به القانون للطوائف، من بين أمور أخرى، بنية الحياة الطائفية الدينية، وهي تشمل المراتب، والمحاكم وآليات تكوين الأجهزة الدينية وعملها. إن إدخال مبدأ حق الحكومة في مراقبة مطابقة الأنظمة الطائفية للتشريع الوطني ربما شكل النقطة الأكثر تقدماً التي قررت السلطات الفرنسية بلوغها في موضوع مراقبة الدولة لمجالات استقلال الطوائف الدينية؛ أي أنها لم تذهب بعيداً. ويمثل التشريع الخاص بالزواج حالة نموذجية: إذ لا يمكن أن تأخذ سلطة الانتداب بتشريع غير ديني يسمح بإجراء الزواج المدني، نظراً إلى أنها قد تعرّض نفسها لمواجهة مقاومة ضارية من قبل سلطات البلد الدينية. وقد تم تحاشي ذلك من خلال الاعتراف بالزيجات المعقودة في الخارج[١٩].

علاوة على ذلك، بقيت نصوص ١٩٣٦ و ١٩٣٨ من دون تنفيذ إطلاقاً بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية خصوصاً.

١٣ انظر ب. غناجه «التعددية في قوانين الأحوال الشخصية في الدول المتعددة الطوائف»، بيروت، جامعة القديس يوسف، ٢٠٠١، ص. ٢٩. يذكر غناجه المفوض السامي ويغاز في ما يتعلق بـ«أن المرء لا يتناول هذه الأمور إلاّ بكثير من اللباقة والحذر»، رداً على مشروع تعديل قوانين الأحوال الشخصية.

١٤ وردت العبارة عند ا. طومسن، «المواطنون الاستعماريون: حقوق جمهورية، امتياز أبوي وجنس في سوريا ولبنان الفرنسيين»، نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، ٢٠٠٠، ص. ٤٥.

١٥ نص وارد عند رباط، «التكوين التاريخي»، م. س.، ص ٩٩.

١٦ م. ن. هذه الالتزامات التي فرضتها الأسرة الدولية على السلطة الانتدابية لم تكن إلاّ مجرد تكرار لتقليد قديم من الضمانات الشبيهة بتلك التي منحتها الإمبراطورية العثمانية، وكانت الجماعات غير الإسلامية المعترف بها تتمتع بموجبها بإدارة ذاتية مستقلة في العديد من المجالات. في القرن الـ١٩، وبنوع أخص «خط شريف كولخانه» لعام ١٨٣٩ و«خط همايون» لعام ١٨٧٦ كانا يحويان ضمانات مشابهة فيما نص الدستور العثماني، في المادة ١١، على أن «[...] الدولة [...] تبقي على الامتيازات الممنوحة لمختلف الطوائف، بشرط ألاّ يلحق ذلك الضرر بالنظام العام أو بالآداب العامة»، م. ن.، ص. ٩٧.

١٧ رباط، «التكوين التاريخي»، م. س.، ص. ١٠٢-١٠٦. كان «القرار» الأداة القانونية الرئيسية لإدارة الانتداب؛ فالمفوض السامي كان يصدر «قرارات من دون مراجعة الممثلين اللبنانيين أو السوريين المنتخبين» و«نادراً ما كان يخضع لتوجهات باريس». انظر خوري، «سوريا والانتداب الفرنسي»، م. س.، ص. ٧٧.

١٨ م. ن.، ص. ١٠٣.

١٩ انظر غناجه، «التعددية في قوانين الأحوال الشخصية»، م. س.، ص. ٥٣-٥٤، حول القرار رقم ١٤٦ ل. ر.، ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٨، المادة ٢٥.

والواقع أن الطوائف لم تقدم أي نظام للدولة ولم يعط الاعتراف الشرعي بالسلطات الدينية صفة رسمية وفقاً للإجراءات المحددة بالقانون[٢٠]. مع ذلك، اكتسب القانون أهمية خاصة لأنه أسس نموذجاً لعلاقات تقوم بين الدولة والطوائف لم يتوقف قط، حتى بعد استقلال لبنان وسوريا. كما كان قانون ١٩٣٦ ذا مغزى عميق بالنسبة إلى الطوائف الأرمنية، لأنه كان يعتبر الكنيسة الأرمنية الرسولية والكنيسة الأرمنية الكاثوليكية في عداد «طوائف تاريخية» داخل البلد. وهذا اعتراف مهم سياسياً لطائفة قدمت، بقسمها الأكبر، إلى المنطقة حديثاً[٢١].

خلاصة القول، إن الجمع بين الجديد والقديم في سياسة الانتداب الدينية أشاع جواً موائماً للمحافظة على الحياة الدينية الأرمنية والتعبير عنها. فمن ناحية، أكملت علمنة الدولة المهمة آلية إلغاء المعاملات التمييزية في حق غير المسلمين، الأمر الذي طمأن كثيراً جماعة من الناجين من الإبادة الجماعية. ومن ناحية ثانية، لم يؤد بعض علمنة الدولة إلى أي خسارة تُذكر من الاستقلالية التي تتمتع بها السلطات الدينية الأرمنية، وهذا ما صان بشكل شبه كامل وضعها كمؤسسات طائفية رئيسية.

أما على الصعيد العملي، فقد توجب على الكنائس الأرمنية، أثناء فترة الانتداب، أن تتصدى لتداعيات الإبادة المأساوية وأن تعاود توطيد حضورها وتنظيمه وسط شعبها بالذات. وفي ذكريات الذين عاشوا شخصياً تجربة مخيمات اللاجئين، تبدو الكنائس غالباً وكأنها الأبنية العامة الأولى التي شُيدت في المخيمات مع المدارس، والحجارة الأولى المستخدمة في بناء عالم أرمني جديد للاجئين. وكانت الكنائس، في بادىء الأمر، مجرد أكواخ خشبية لا تختلف عن الأبنية الأخرى المرتجلة في المخيمات. فقط خلال الثلاثينات، عندما أعيد إسكان غالبية اللاجئين في أحياء أرمنية جديدة، بدأت إعادة بناء الكنائس بحسب طراز مستوحى من الأشكال السائدة في العمارة الأرمنية التقليدية، رغم أنها أنجزت بمواد بناء زهيدة الثمن استطاعت الطائفة أن تتحمل أعباءها[٢٢].

وبموازاة بناء أماكن العبادة المادي، جرت إعادة تثبيت المؤسسات الدينية. وكانت الكنيسة الكاثوليكية، من بين الكنائس الأرمنية الثلاث، هي التي تتمتع بوضع أفضل نسبياً. يقيناً، إن الحرب والإبادة الجماعية كانتا قد فعلتا فعلهما في الأرمن بصرف النظر عن انتمائهم الديني. على أن الكنيسة الكاثوليكية كانت لها جذور راسخة في جبل لبنان وسوريا. وتمكنت، عند وصول اللاجئين إلى المشرق، من الإسهام بقوة في محاولة مباشرة لتأمين الإغاثة. فاستطاع رجال الدين الأرمن الكاثوليك في دير بزمار مثلاً أن يؤدوا دور الوسيط مع السلطات المحلية وملاكي الأراضي الضرورية لإنشاء مخيمات للاجئين. وقد اتخذ الإجراء الرئيسي لإعادة بناء المؤسسات الكنسية في ١٩٢٨، عندما قر الرأي على نقل المقر الرسمي للبطريرك الأرمني الكاثوليكي من اسطنبول وإعادة إحياء دور بزمار القديم كمركز للكثلكة الأرمنية. وتمكن الأرمن الكاثوليك، عدا حضورهم التقليدي في لبنان وسوريا، أن يعتمدوا على الدعم الذي وفره لهم الكرسي الرسولي، إذ موّل البابا بيوس الحادي عشر في ١٩٢٨،

٢٠ رباط، «التكوين التاريخي»، م. س.، ص. ١٠٢-١٠٦. أسباب أخرى أسهمت في عدم نجاح هذا التنظيم، منها شعور ملحوظ بتدخل الدولة والصعوبة الموضوعية في وضع «أنظمة» انطلاقاً من قوانين وممارسات ذات أصول راسخة في مجموعة تقاليد عتيقة وغير منظمة.

٢١ لم تكن الطائفة الإنجيلية واردة في القائمة الأصلية. «القرار» ١٤٦ تاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٨ أضاف إليها الطائفة البروتستانتية (بما فيها المكونات الأرمنية المتعددة).

٢٢ لعب المهندس المعماري مارديروس ألطونيان (١٨٨٩-١٩٥٨) دوراً مهماً في تطور فن العمارة الدينية الأرمنية. ولد ألطونيان في بورصا وتلقى علومه في بلغاريا وباريس، ثم انتقل في ١٩٢٠ إلى بيروت. عين مهندساً معمارياً في وزارة الأشغال العامة ضمن الإدارة الفرنسية، وما لبث أن أصبح أحد أبرز المهندسين المعماريين، وأحرز نجاحاً على الساحة اللبنانية. صمم في بيروت مبنيين هامين وسط المدينة: البرلمان اللبناني والبرج في ساحة البرلمان. أما عمله في خدمة الجماعة الأرمنية فيشمل بناء كاتدرائية القديس غريغوريوس المنور في انطلياس (١٩٣٩-١٩٤٠) ومصح العزونية (١٩٣٧). انظر ا. م. ألطونيان، «بحثاً عن الزمن المستعاد مع والدي، المهندس المعماري مارديروس ألطونيان»، بيروت: حيبان، ١٩٩٧؛ ا. منكاسريان، ج. مخلوف وس. سعادة، «كنائس أرمنية في لبنان: كشوف معمارية»، في مجلة هايكازيان الخاصة بالأرمنيات، الجزء ١١ (١٩٩١)، ص. ٨٥-١٢٤.



الكاثوليكوسان بابكين الأول وساهاك الثاني في حمص، وهما في طريقهما إلى حلب في ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٣. جلوساً من اليسار إلى اليمين: المطران اردافست سورمايان (مطران حلب)؛ الكاثوليكوس ساهاك الثاني؛ الكاثوليكوس بابكين الأول؛ المطران يريم دوهموني (مطران دمشق ومطران مخيم لاجئي بيروت السابق). وقوفاً، الأب ماشدوتس فوسكريتشيان من حمص (بين بابكين الأول والمطران دوهموني)؛ ميكايل ناتانيان (خلف بابكين الأول)؛ الأب نرسيس طافوكدجيان (بين المطران سورمايان وساهاك الثاني)
مجموعة م.ن.ا

عملية بناء المقر المدني للبطريركية الأرمنية الكاثوليكية في بيروت - حي الجعيتاوي وكاتدرائية القديس غريغوريوس والقديس إيليا في بيروت - وسط المدينة[٢٣]. كما تمثل دعم الفاتيكان في إقامة فروع لرهبانيتين أرمنيتين في المشرق، وهما راهبات الحبل بلا دنس (في ١٩٢٧)، والآباء المخيتاريين (في ١٩٣٧) [٢٤].

أما واقع الكنيسة الأرمنية الرسولية فكان أشد تعقيداً بكثير. فحضور الأرمن الرسوليين في سوريا ولبنان قبل الإبادة الجماعية كان محدوداً للغاية، باستثناء مدينة حلب. وكان حجم الجماعات الأرمنية الرسولية في مراكز كدمشق أو بيروت ضئيلاً جداً، ولم تكن كنائسهم تلعب، في غالبيتها، سوى دور محطة مرحلية للحجاج في طريقهم إلى القدس.

وإحدى المشكلات التي كان على الكنيسة أن تجد حلاً لها هي إعادة تنظيم السلطات الكنسية الإقليمية و- بخاصة - مشكلة مصير كاثوليكوسية بيت كيليكيا الأكبر. إذ كان كاثوليكوس كيليكيا يقيم في مدينة سيس (كيليكيا) منذ أواخر القرن الثالث عشر [٢٥]. وفي ١٩١٥، نقل المقر على عجل إلى حلب، ثم إلى القدس، بناء على أمر من السلطات التركية. وبعد هدنة ١٩١٨، أعيدت إقامة الكاثوليكوسية في اضنه لأمد قصير، ليتم نقلها مجدداً في أعقاب الاتفاقية الفرنسية التركية لعام ١٩٢١، التي أدت إلى جلاء الأرمن الجديد عن كيليكيا. وعلى مدى سنوات، صمدت الكاثوليكوسية كمؤسسة للاجئين غير ثابتة، في حين أن اللاجئين الكثر المتواجدين في لبنان وسوريا كانوا خاضعين لسلطة بطريرك القدس الأرمني وفق التقليد المتبع قبل الإبادة الجماعية. ومع أن سلطة الانتداب الفرنسية كانت تدعم سياسياً الكاثوليكوس[٢٦]، فقد واجه صعوبة في استعادة مهامه، ولم تجد المشكلة حلاً لها إلا في ١٩٢٨، بعدما قام بتحرير وصية مؤثرة[٢٧]. ففي ١٩٢٩، تخلى بطريرك القدس رسمياً عن سلطته على الأبرشية وتنازل عن ممتلكاته في بيروت، ودمشق واللاذقية لمصلحة الكاثوليكوس؛ وفي السنة التالية، جهزت كاثوليكوسية بيت كيليكيا الأكبر بمقر دائم لها في انطلياس[٢٨].

٢٣ ا. ج. اسكندر، «كيليكيا الجديدة: أرمن لبنان»، انطلياس ١٩٩٩، ص ٧٦.

٢٤ كانت المؤسستان مستقلتين عن الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية ومنوطتين بمجمع نشر الإيمان المقدس.

٢٥ اسكندر، «كيليكيا الجديدة»، ٩٣.

٢٦ منذ عام ١٩٢٤ أعادت السلطات الفرنسية تنظيم سلطة كاثوليكوس كيليكيا في الأراضي الخاضعة للانتداب. انظر قدس الأب ج. سيسيريان، راهب يسوعي، لوحة عن عالم الشتات الأرمني، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦١، ص. ١٦١.

٢٧ في الوصية (كتاك) المؤرخة في ٢٩ شباط ١٩٢٨، أقدم الكاثوليكوس ساهاك، «المحطم القلب»، على طرح المسألة على الأمة حول وجوب استمرار الكاثوليكوسية. انظر س. داوريان، «الكاثوليكوسية الأرمنية من كيليكيا إلى انطلياس»، انطلياس ٢٠٠٣، ص. ٨٨-٨٩.

٢٨ م. ن.، ص. ٨٩-٩٠؛ اسكندر، «كيليكيا الجديدة»، م. س.، ص. ٩٨.



فريق الهومنتمن لكرة القدم لعام ١٩٢٤. جلوساً، من اليسار إلى اليمين: جيرار دجردجيان، يزنيك كشيشيان، كولبنك كولبنكيان، اونيك بيليكيان، بوغوص شاهينيان. في الوسط، من اليسار إلى اليمين: ارسين كريكوريان، هوفهانس شاهينيان، هاكوب آدجميان. وقوفاً من اليسار إلى اليمين: فهرام تشوكريان، افاديس، هايك بوداكيان.
مجموعة فارتيفار اوهانيسيان

وترامن حل مسألة كاثوليكوسية كيليكيا مع إقامة المؤسسات التي تنظم الحياة الداخلية للطائفة الرسولية. وقد تمت قولبة هذه المؤسسات بما يتلاءم وإرث التجربة الأرمنية لـ «الملة»، ووفق «الدستور الوطني» الأرمني لعام ١٨٦٣. وكُيِّفت الأبرشيات والسلطات تبعاً للسياق الجديد للانتداب، بحيث تنتخب الطائفة الأرمنية الرسولية في لبنان (رجال دين وعلمانيين) جمعية وطنية أرمنية عامة؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى الطائفة في سوريا. وتشكل كل جمعية وطنية مجلساً مركزياً دينياً ومجلساً مركزياً مدنياً، وهما «جهازان تنفيذيان» ديني وعلماني للطائفة، يضطلعان بمسؤوليات تشمل تنظيم الحياة الدينية، وإدارة المؤسسات التربوية والاجتماعية التابعة للكنيسة وضبط مالية الكنيسة العامة.

أما الطائفة الإنجيلية الأرمنية فقد أصيبت إصابات خطرة جراء الإبادة الجماعية، ونتيجة حجم جماعاتها الصغير جزئياً. ففي بعض المناطق أبيدت الجماعات الإنجيلية عن بكرة أبيها بفعل المجازر. وعدا ذلك، أدت عمليات الترحيل إلى ضياع معظم ممتلكاتها التي كانت تشكل أساس الحركة البروتستانتية الأرمنية: وهي المؤسسات التربوية والاجتماعية. غير أن إعادة تأسيس الكنيسة وفق السياق الجديد للاجئين تيسرت بفضل الطبيعة المرنة والاجتماعية التي تتسم بها الطائفة البروتستانتية[٢٩]. ونظمت الكنائس الإنجيلية الأرمنية التي أعيد تأسيسها أمورها بتشكيل اتحاد لم يكن يضم، في البداية، إلاّ لبنان وسوريا، وذلك قبل أن يتسع ليغطي بلداناً أخرى في الشرق الأدنى[٣٠].

٢٩ مقابلة مع المحترم بول هايدوستيان، رئيس اللجنة المركزية لاتحاد الكنائس الإنجيلية الأرمنية في الشرق الأدنى، بيروت، ٨ تشرين ٢٠٠٢ «إن النموذج الإنجيلي الأرمني كان عاصمة [الكنيسة]. [...] إنه مجمعي لا يتبع لا التقليد ولا سواه، بل يتبع بالأحرى جسد المؤمنين. [...] فحيث تجد مؤمنين، تقوم الكنيسة».
٣٠ م. ن.

من غرباء إلى مواطنين: إعادة إنشاء المؤسسات السياسية الأرمنية ومشاركة عامة خلال العقد الأول من عهد الانتداب[31]

لم يكن للاجئين المرحلين إلى لبنان وسوريا أثناء سنوات العقد الأول من القرن ومطلع العشرينات أي سند إقامة، ولم يكونوا معنيين بالمشاركة في شؤون بلدان المشرق العامة عقب سقوط الإمبراطورية العثمانية. وفي خلال حكم البريطانيين والفرنسيين العسكري للمنطقة وفي بداية عهد الانتداب الفرنسي، ظلوا جماعة غريبة تم إيواؤها مؤقتاً على هامش المجتمع. غير أن صعود وسقوط مملكة فيصل السريعة الزوال عام ١٩٢٠، وإنشاء لبنان الكبير، والتقسيمات الإدارية في سوريا[32]، والانتخابات الأولى التي جرت خلال عامي ١٩٢٢ – ١٩٢٣ لتعين المجالس التمثيلية، بقيت كلها أحداثاً غريبة عن الأرمن الذين كانت عملية ترحيلهم مستمرة وكانوا كل يوم يكافحون شظف العيش في مخيمات اللاجئين.

على أن هذا لا يعني أن الأرمن كانوا يفتقرون إلى أشكال من التنظيم السياسي، إذ تمت، في وقت مبكر وسريع، إعادة تأمين حضور سياسي أرمني للمؤسسات وسط جماعات اللاجئين المكونة حديثاً. كما لا يمكن الجزم بأن الأرمن تصرفوا دوماً بطريقة حيادية حيال الشؤون السياسية المتعلقة بالنظام الجديد القائم عقب المرحلة العثمانية، أو أنهم كانوا يُحسَبون ممثلين حياديين في نظر سائر سكان المشرق. لقد كانت مشاعر الجماهير العربية تجاه الأرمن يشوبها التعاطف على الأرجح. وينبغي أن نعيد إلى الذاكرة أن الشريف حسين بن علي، شريف مكة، شجب علناً مجازر الأرمن التي تمت على أيدي الأتراك، و«طلب، في ١٩١٧، من نجله فيصل ومن بعض شركائه أن يحموا هؤلاء الأرمن الذين اقتيدوا إلى أقاصي الصحراء ويدعموهم»،[33]. كما تم الإثبات أن كثيرين من اللاجئين الأرمن تلقوا من العرب مساعدات أنقذت حياتهم في ظروف الإبادة المأساوية وما بعدها أيضاً[34]. لكن عندما بدأ الأرمن يملأون مخيمات اللاجئين في ضواحي المدن الكبرى اللبنانية والسورية، راح البعض ينظر اليهم نظرة سلبية[35].

كان ذلك، في جزء منه، مرتبطاً بوضعهم كغرباء ولاجئين، وبالضائقة الاقتصادية والإنسانية التي كانت تضرب المنطقة منذ الحرب. وكان للكوارث الطبيعية والحصار المفروض على الساحل اللبناني ابتداء من ١٩١٥ نتائج وخيمة على سكان سوريا الكبرى جميعهم: فالمجاعة والمرض فتكا بما بين ١٥٠٠٠٠ و٥٠٠٠٠٠ شخص خلال الفترة الممتدة من ١٩١٥ إلى ١٩١٨[36]. وقضى في مدينة حلب وحدها ٣٥٠٠٠ شخص نتيجة إصابتهم بالتيفوس ما بين آب ١٩١٦ وآب ١٩١٧ [37]. أما اللاجئون الأرمن الذين كانوا يشكون من فقر مدقع ويتعرضون خاصة للأمراض الفتاكة، فكانوا بمثابة كبش المحرقة في ما يتعلق بويلات العصر كافة: انتشار الأمراض، والبطالة المتنامية أو تفاقم أعمال قطع الطرق.

٣١ إن مفهوم المشاركة ليس بسيطاً ولا مباشراً في علم السياسة. في المقال الحالي، استعملت لفظة «مشاركة» بمعناها الواسع، وتعني مشاركة في «إدارة الشؤون العامة»، وهذا هو المعنى الذي حددته لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان «[...]، مفهوم واسع يتصل بممارسة السلطة السياسية، ولا سيما ممارسة السلطات التشريعية والتنفيذية والإدارية. وهو يغطي كل جوانب الإدارة العامة وصياغة السياسة وتنفيذها على المستويات الدولي، والوطني، والإقليمي والمحلي، [...]». انظر لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، تعليق عام ٢٥ [٥٧]. تعليقات عامة وفقاً للمادة ٤٠، الفقرة ٤ للميثاق الدولي بشأن الحقوق المدنية والسياسية تبنتها اللجنة في اجتماعها الـ ١٥١٠، الأمم المتحدة (١٩٩٦).

٣٢ بداية في شكل دول منفصلة عن دمشق وحلب عام ١٩٢٠. انظر خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، م. س.، ص. ٥٧–٦٠.

٣٣ ا. صناجيان، «تجربة الأقلية الأرمنية في العالم العربي الحديث»، في نشرة المعهد الملكي للدراسات حول المعتقدات، الجزء ٣، رقم ١ (ربيع / صيف ٢٠٠١)، ص. ١٥٢.

٣٤ م. ن.

٣٥ في الذاكرة الجماعية الأرمنية المعاصرة في لبنان وسوريا، غالباً ما وصفت مقاربة العرب الأصلية إزاء الناجين من الإبادة الجماعية الأرمنية واللاجئين الأرمن بأنها «إنقاذية» أو «أخوية»، ومالت إلى إنكار حدوث توترات في يوم ما. من الصعب القول إلى أي حد يعتمد هذا التصور الواسع الانتشار على الحكايات الفردية المتداولة داخل العائلات بدل أن يرتكز على تفسير رسمي للأحداث مقبول بوجه عام.

٣٦ ل. شارتكوفسكي شيلشر، «مجاعة ١٩١٥–١٩١٨ في سوريا الكبرى»، في ج. ب. اسبانيولو، «مشكلات الشرق الأوسط الحديث من منظور تاريخي: أبحاث تكريماً لألبرت حوراني»، منشورات ايثاكا، ١٩٢٢، ص. ٢٢٩–٢٥٨، بدعم الأرقام الضخمة. انظر كذلك، بين مؤلفات أخرى، ج.-ل. كلفن، «ولاءات مقسومة: القومية والسياسة الشعبية في سوريا عند نهاية الإمبراطورية»، بركلي، لوس انجلوس ولندن: منشورات جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٨، ص. ٢٢–٢٤؛ ج. شامي، «كتاب مذكرات لبنان، الجزء ١، « ١٨٦١–١٩٤٣ / من جبل لبنان إلى الاستقلال» بيروت،

إلى ذلك، كان الوطنيون العرب والمناوئون الآخرون للحكم الأجنبي يعتبرون الارمن غالباً — وبحق جزئياً — محاسيب الفرنسيين والمتعاونين معهم. وكانت العلاقة بين الأرمن والسلطة الفرنسية تقوم على تضافر المصالح في ما بينهم. فمنذ إنشاء لبنان الكبير عام ١٩٢٠، كان الفرنسيون يعملون جاهدين على تعزيز الدعم المحلي للانفصال عن سوريا، وهو عمل نال تأييد الموارنة، كما سعوا إلى بناء أنظمة تمثيلية طائفية ضمن تلك التي كانوا على وشك إقامتها. والأحداث التي كانت قد أشركت الأرمن فيها، أتاحت للفرنسيين الفرصة لتعبئتهم ليكونوا من بين أولئك الذين قد يتمكنون من مساعدتهم في ضبط المنطقة. وقد اعتبر بعض الأرمن أن الفرنسيين «أنقذوهم» من أيدي الأتراك، ووفروا لهم الحماية والمساعدة الإنسانية والوظائف، ولذلك كانوا متأهبين للتعاون معهم. ولكن في الحقيقة، لا يمكن القول إن التعاون كان يلزم الجماعة بأكملها، ولا إن الأرمن كانوا موحدين تحت زعامة قوية واضحة المعالم تمثلهم جميعاً. مع ذلك، ورغم هذه الاعتبارات، كان التعاون بادياً، أقله على صعيدين. بداية أسهمت السلطات الفرنسية بشكل ملحوظ في تأمين أول مساعدة للاجئين الأرمن، موفرة لهم موارد ثابتة لأعمال الإغاثة في المخيمات، وواضعة برامج غذائية وخططاً لإعادة الإسكان. ومن ناحية ثانية، كانت الإدارة الفرنسية عقب الحرب، تحرص على استخدام الأرمن وأفراد أقليات أخرى في المرافق العامة، وفي الجيش وأجهزة الأمن بقصد التفريق بين هذه الهيئات والسياسات الوطنية العربية[٣٩]. وكان الأرمن، بصفة جنود، هم المفضلين لدى بعض الضباط الفرنسيين الذين لم يثقوا بالمسلمين[٤٠]، حتى ولو عُرف عنهم عدم انضباطهم وفظاظة طباعهم، مما سبب متاعب للقيادة الفرنسية[٤١].

وتعززت الاستراتيجية الفرنسية الرامية إلى كسب الدعم الأرمني لمخططاتهم في لبنان وسوريا، خلال ١٩٢٤ — ١٩٢٥، عندما اتضح للأرمن أنهم منحوا الجنسية، وبذلك توافرت شروط اندماجهم في كنف العائلات الطائفية التي يتكون منها النظامان السياسيان الجديدان اللبناني والسوري. أما الحدث الذي فتح الباب أمام الأرمن كي يصبحوا مكوّناً دائماً من مكونات المجتمعات القائمة في المشرق، ويتمكنوا تالياً من لعب دور في الحياة العامة، فهو توقيع معاهدة لوزان في تموز ١٩٢٣. هذه المعاهدة عبارة عن وثيقة طويلة مؤلفة من ١٤٣ مادة تمثل اتفاق السلام النهائي المعقود بين تركيا والدول التي خرجت ظافرة من الحرب الكبرى، وتعالج، من بين مشكلات كثيرة أخرى، مشكلة جنسية الأشخاص الذين كانوا رعايا عثمانيين[٤٢].

وتنص المادة ٣٠ من المعاهدة على: «*أن الرعايا الأتراك المقيمين عادة في منطقة سُلخت عن تركيا، وفقاً لأحكام المعاهدة الحالية، يصبحون تلقائياً، وبالشروط المقررة في القانون المحلي، مواطني الدولة التي انتقلت إليها هذه المنطقة*» [٤٣].

وتضيف المادة ٣٢: «*إن الأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن ثمانية عشر عاماً، ويقيمون عادة في منطقة سُلخت عن تركيا وفقاً للمعاهدة الحالية، وينتمون إلى عرق مختلف عن عرق غالبية سكان المنطقة، يسعهم، ضمن مهلة سنتين على سريان المعاهدة الحالية، أن يختاروا جنسية إحدى هذه الدول التي تنتمي فيها أكثرية السكان إلى العرق ذاته الذي ينتمي إليه الشخص الذي يمارس حقه في الاختيار، بشرط موافقة الدول المعنية على ذلك*»[٤٤].

جورف ج. شامي، ٢٠٠٢، ص. ٤٤-٤٥. للمجاعة مصدر تشترك فيه مجموعة من العوامل، منها الجفاف، وآفة الجراد والحصار البحري للساحل اللبناني الذي فرضته دول الوفاق.

٣٧ ا. م. لاست-اوكر، «فشل التعاون: اللاجئون الأرمن في سوريا»، دراسات شرق أوسطية، الجزء ٣٢، رقم ١، كانون الثاني ١٩٩٦، ص. ٥٧.

٣٨ م. ن.، ص. ٥٧-٥٨. يروي لاست-اوكر أن «فرايا ستارك، وهو دبلوماسي بريطاني، لاحظ أن معظم الجرائم-سرقة ديوك حبش، وسواد حياكة أو بضاعة في مصنع- كان الأرمن يتهمون بالضلوع فيها».

٣٩ انظر خوري، «سوريا والانتداب الفرنسي»، م. س.، ص. ٨٢.

٤٠ م. ن.، ص. ٧١.

٤١ س. هـ. لونغ كريك، «سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي»، لندن، نيويورك وتورنتو، ١٩٥٨، ص. ١٧٨. إن شراسة الجنود الأرمن كانت، كما يبدو سبب حادثة سابقة لانتفاضة معادية للأرمن في حلب عام ١٩١٩؛ زعموا أن أرمناً أساؤوا معاملة جنود عثمانيين عرب في كيليكيا. انظر ا. م. لاست-اوكر «فشل التعاون»، ص. ٦٢.

٤٢ حتى توقيع معاهدة لوزان؛ كانت الشعوب المقيمة في الأراضي الخاضعة لرقابة الفرنسيين، ومن ضمنها الأرمن، لا تزال تعتبر قانوناً مواطنين عثمانيين. انظر رباط، «التكوين التاريخي»، م. س.، ص. ٣٧٧.

٤٣ معاهدة السلام المعقودة في لوزان، تموز ١٩٢٣، القسم ١، المقطع ٢، المادة ٣٠. كما نشرت في «معاهدات السلام ١٩١٩-١٩٢٣»، الجزء ٢، نيويورك، مؤسسة كارنجي من أجل السلام العالمي، ١٩٢٤.

٤٤ م. ن.، المادة ٣٢.

بقي وضع الأرمن، وفقاً لأحكام المادتين ٣٠ و٣٢، أقرب إلى الغموض. والأهم من ذلك أن معاهدة لوزان أشارت إلى وأد الدول الكبرى لكل مخطط يتعلق بإمكانية إنشاء دولة أرمنية في أرمينيا التاريخية. وبدا أن المعاهدة، في غياب دولة أخرى يستطيع الأرمن فيها أن يجدوا أشخاصا ينتمون مثلهم إلى «العرق ذاته»، كانت تدعو إلى إعادة إسكان اللاجئين في جمهورية أرمينيا السوفياتية، وهي إمكانية معقدة من الناحية التقنية[٤٥]. في هذا السياق، أصدرت حكومة الانتداب في لبنان، في أيلول ١٩٢٤، قراراً يمنح خيار المواطنية «لكل الأرمن الراغبين في قبولها»[٤٦]. ومنحت رسمياً المواطنية اللبنانية لجميع اللبنانيين – بمن فيهم الأرمن – بموجب قرار صادر في كانون الثاني ١٩٢٥[٤٧].

ولقي منح المواطنية للأرمن استحساناً لدى المسيحيين، غير أنه اصطدم – من دون أن يبدو ذلك أمراً عجباً – بمعارضة بعض الزعماء المسلمين، واعتُبر مثالاً مثيراً آخر على الحماية التي يوفرها الفرنسيون للأرمن. في لبنان اتهم المسلمون «الحكومة بتعمد زيادة السكان المسيحيين في البلاد».[٤٨]

وكانت إحدى النتائج السياسية المترتبة على منح المواطنية أن أصبح للأرمن الحق في الاشتراك في الانتخابات. وهذا يعني، من وجهة نظر الفرنسيين وحلفائهم، أن التعاون مع الأرمن في وسعه أن يتسع منذ ذلك التاريخ ليشمل رسمياً الميدان السياسي؛ وهكذا سيغدو الأرمن قادرين، بأصواتهم، على تأييد القوى الموالية للفرنسيين، و– في وقت لاحق – بأصوات ممثليهم المنتخبين. ما إن مُنحت المواطنية حتى سارعت السلطات الفرنسية وحلفاؤها إلى تعزيز وتوسيع المجالات السياسية المخصصة للأرمن في الأنظمة الطائفية الجديدة النافذة في لبنان وسوريا.

أما الأرمن فإن موقفهم المتعلق بالدور الذي قد تمثله الطائفة في الأنظمة السياسية القائمة في كلا البلدين لم يكن قد حُدد بوضوح. وفي محاولة لتبسيط الأمور، من الجائز القول إنه يمكن تعيين خمسة مواقف داخل الطائفة. إن التعاون الأرمني مع الفرنسيين كان مدعوماً على العموم من الزعامة الدينية ومن طبقة محافظة تتألف من أشخاص ميسورين نسبياً يشاركون، تقليدياً، بالجهاز الإداري الفرنسي و/ أو يرتبطون به. وكانت لهذه القوى أسباب تدفعها إلى اعتبار الفرنسيين منقذيها من أيدي الأتراك، وكانت ترى في مشاركة الحكام الجدد في المشرق إمكانية لإعادة إقامة المؤسسات الأرمنية وتعزيزها، وذلك بزعامتهم.

كذلك كان أعضاء حزب الطاشناق منحازين إلى الفرنسيين، ولكن لأسباب مختلفة. فالمحازبون الطاشناق الناشطون في لبنان منذ ١٩٠١[٤٩]، سارعوا، عقب الحرب، إلى تنشيط بناهم في المشرق، وطفقوا ينتقدون بقسوة الزعامة الدينية خلال العشرينات، ويجدونها غير ملائمة لإدارة شؤون الطائفة الأرمنية، ومعنية بتوطيد سيطرتها أكثر من عنايتها بإعداد استراتيجية «وطنية» وانتهاجها. ففي اعتقاد لجنة الطاشناق المركزية في لبنان وسوريا، إن «الزعماء الدينيين» كانوا لا يكفون عن السعي، من خلال استغلال ذهنية اللاجئين، إلى شل قدرة الهيئات العلمانية

٤٥ أرسلت لجنة تقنية عينتها عصبة الأمم إلى أرمينيا السوفياتية لدراسة إعادة التوطين، غير أن جهودها منيت بالفشل بسبب نقص الدعم المالي والسياسي من الأسرة الدولية. انظر ف. نانسن، أرمينيا والشرق الأدنى، لندن: الن أند انوين، ١٩٢٨.

٤٦ م. و. سليمان، «الأحزاب السياسية في لبنان : تحدي ثقافة سياسية مجزأة»، نيويورك، مطبعة جامعة كورنل، ١٩٦٧، ص. ١٨٥. إن المرسوم موضوع البحث كان «القرار» رقم ١٨٠٥ (١٩ أيلول ١٩٢٤)، جريدة لبنان الكبير الرسمية، بيروت: ٣ تشرين الأول ١٩٢٤، ص. ٢.

٤٧ قرار رقم ١٥/ ٥ تاريخ ١٩ كانون الثاني ١٩٢٥. انظر رباط، «التكوين التاريخي»، م. س، ص. ٣٧٧.

٤٨ انظر م. و. سليمان، «الأحزاب السياسية في لبنان»، ص. ١٨٥. وانظر أيضاً ب. روندو، «مؤسسات لبنان السياسية »، باريس: معهد دراسات الشرق المعاصر، ١٩٤٧، ص.٥٥.

٤٩ انظر د. بدريان، «الأحزاب الأرمنية السياسية في لبنان»، بحث ماجستير، غير منشور، بيروت، ١٩٧٣، ص. ٧٤-٧٥؛ انظر أيضاً ن. ب. شاهكالديان، «الدمج السياسي لجماعة مهاجرة في مجتمع مختلط: الأرمن في لبنان، ١٩٢٠-١٩٧٤»، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، نيويورك، ١٩٦٩، ص. ٥٤.

٥٠ الأرشيف المركزي للاتحاد الثوري



كنيسة القديس نيشان في بيروت، قرب السراي.
مجموعة م.ن.ا



بابكين كوليسريان، كاثوليكوس بيت كيليكيا الاكبر.
مجموعة م.ن.ا

وبسط نفوذهم عليها»[50]. وكان كاثوليكوس كيليكيا نفسه وُصف وصفاً سلبياً على أنه «ليس راضياً عن أهميته الدينية فحسب، بل هو راغب أيضاً في التدخل في السياسة بمعاونة عناصر محلية وخارجية»[51]. في الحقيقة، لقد كان تأييد الطاشناق للفرنسيين مهماً ونابعاً من أجندتهم الوطنية الأرمنية – وعلى الأخص – من مسألة جمهورية أرمينيا التي خسروها في مواجهتهم للبلاشفة عام ١٩٢١[52]. وكان الطاشناق معادياً للحزبين الأرمنيين الوطنيين الآخرين، حزب الهنتشاك الاشتراكي – الديمقراطي وحزب الرامغفار الليبرالي[53]، وذلك للدعم الذي يقدمانه لأرمينيا السوفياتية. ووجد حزب الطاشناق مجالاً للتفاهم مع السلطات الفرنسية المتحفظة حيال الأحزاب الشيوعية أو تلك المؤيدة لها والعاملة في لبنان وسوريا، وحاول أن يستغل مفهوم سلطات الانتداب التبسيطي للعالم السياسي الأرمني.

أما محازبو الهنتشاك والرامغفار فكانوا مستعدين، بدرجات متفاوتة، أن يعملوا بالتعاون مع الزعامة التقليدية الأرمنية، وكذلك مع الحركات الوطنية المحلية اللبنانية والسورية. والأهم من ذلك أن الهنتشاك والرامغفار كانوا يعارضون بضراوة المحازبين الطاشناق، وكانت وجهات نظر إيديولوجية وتكتيكية متباينة تفصلهم عنهم أكثر فأكثر، ولا سيما في ما يتعلق بأرمينيا السوفياتية.

موقف رابع كان ذلك العائد إلى الشيوعيين الأرمن. فالجماعة الشيوعية الأرمنية «سبارتك»، التي أبصرت النور في ١٩٢٣ جراء انفصال جماعة طلابية عن الهنتشاك، انضمت

الأرمني، لجنة سوريا ولبنان المركزية. الملف ١٥٤٨/ ٢٩، تقرير حول نشاطات ١٩٢٠-١٩٢٤، ص. ١٢-١٣، جاء ذكره عند شاهكلديان، «الدمج السياسي»، م. س.، ص. ١٥٥.

٥١ م. ن.، ص. ١٤-١٦.

٥٢ م. ن.، ص. ١٦٢.

٥٣ تأسس الرامغفار في ١٩٢١ جراء دمج ثلاثي للأرمناكان وشريحة من الهنتشاك وحزب ساهمنادير رامغفار الذي أنشئ في القاهرة عام ١٩٠٨. انظر س. ج. ووكر، «أرمينيا أو بقاء أمة»، طبعة منقحة، لندن، ١٩٩٠، ص. ٣٥٤.

بين الشيوعيين اللبنانيين والسوريين وأسهمت، عام ١٩٢٥، إسهاماً كبيراً في إقامة حزب شيوعي في سوريا ولبنان[54]. فالشيوعيون الأرمن كانوا يؤلفون الجماعة السياسية الأرمنية الوحيدة التي سعت، منذ البداية، إلى الاندماج الكامل في سياسات المشرق غير الأرمنية. كانوا يعتقدون أن المسألة الأرمنية الوطنية ومصالح اللاجئين سوف تسدى إليها خدمات جلى عبر دعم الكفاح العربي المناهض للاستعمار والساعي إلى تحقيق الاستقلال. وقد أقام زعيمهم أرتين مادويان، أثناء ثورة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ الكبرى، علاقات مع موفدي سلطان الأطرش، وكان بالفعل متورطاً في عملية تهريب الأسلحة من بيروت إلى جبل الدروز[55].

وأخيراً، كان موقف الجماعات الأرمنية المتواجدة في مخيمات اللاجئين يسودها ظاهرياً جمود تام واللامبالاة وغلبة المصالح المحلية. وكان اللاجئون في المخيمات يمكن تمييزهم إلى حد ما من خلال فوارقهم الثقافية وأصولهم المناطقية والاجتماعية واللغوية؛ فعدد كبير من لاجئي كيليكيا لم يكونوا أصلاً ناطقين باللغة الأرمنية (كانوا يتكلمون التركية دون سواها). وهكذا كان الفقر واللغة يشكلان عائقين مهمين يحولان دون مشاركتهم في القضايا التي تتخطى الحياة داخل المخيمات أو داخل دائرة العمل. وغالباً ما انضم اللاجئون بانتظام إلى اتحادات المواطنين، وهذه الاتحادات كانت عبارة عن جمعيات أنشأتها تلقائياً مجموعات أرمنية تملك معتقدات سياسية متباينة وتتحدر من المنطقة الجغرافية نفسها. وقد لعبت اتحادات المواطنين التي تحمل أسماء المدن أو المناطق الأصلية (مثل مرعش، سيس، اضنه) دوراً بارزاً في تنظيم وإدارة أنشطة التعاون المتبادل وسط مخيمات اللاجئين، بما فيها بناء ملاجىء ومدارس وكنائس[56].

أثناء الطور الأول من أطوار الاندماج في لبنان وسوريا وحتى نهاية العشرينات، أمنت الزعامة الدينية التقليدية في الطائفة وحزب الطاشناق فعلاً الدعم الأرمني للفرنسيين. وفي لبنان، باشر الأرمن نشاطهم للمرة الأولى في ميدان السياسة في تموز ١٩٢٥، عندما اقترعوا من أجل تجديد المجلس التمثيلي، وسط شكاوى أطلقها بعض الزعماء المحليين الذين اعتبروا أن الجماعة غريبة عن البلاد، وأنها تسعى «إلى إقامة وطن قومي لها في لبنان» [57]. اتخذ التعاون الأرمني مع الفرنسيين، خلال انتخابات ١٩٢٥، شكل دعم انتخابي للمسيحيين الموارنة، وخصوصاً لحليف السلطة الانتدابية الأشد حماساً، وهو إميل اده. وفي ١٩٢٩، أدى التعاون الماروني — الأرمني، بدعم لبناني مسيحي، إلى انتخاب أول برلماني أرمني يدعى عبد الله اسحق، وهو أرمني كاثوليكي فاز بالمقعد المخصص لممثل «الأقليات»[58].

أما في سوريا، فقد بدأت مشاركة الأرمن في الانتخابات عام ١٩٢٦، بعدما أمر المفوض السامي الفرنسي بتجديد بعض أعضاء المجالس التمثيلية القائمة[59]. ففي نمط شبيه بالنمط المعمول به في لبنان عام ١٩٢٥، انتظم الأرمن في صفوف السلطة الانتدابية وحلفائها، وفي حلب، وهي المركز الرئيسي حيث كان للصوت الأرمني وزنه، قاطع الزعماء الوطنيون المناهضون لفرنسا الانتخابات؛ «فقط ٢٣ ٪ [...] من الناخبين المسجلين في حلب شاركوا في انتخابات الدرجة الأولى، وكان هؤلاء ينتمون خصوصاً إلى الطائفتين الأرمنية والسريانية الكاثوليكية»[60]. إن مشاركة الأرمن في الحياة العامة في سوريا طبعت فترة مهمة

٥٤ ت. تير ميناسيان، «مروجو الكومنترن: الاتحاد السوفياتي والأقليات في الشرق الأوسط»، باريس، ١٩٩٧، ص. ١٥٤-١٦٢؛ سليمان، «الأحزاب السياسية في لبنان»، م. س، ص. ٦٢-٦٣؛ مقابلة مع السيد رافي مادويان، بيروت، ١٣ كانون الأول ٢٠٠٣.

٥٥ تير ميناسيان، «مروجو الكومنترن»، م. س.، ص. ١٥٨-١٥٩؛ مقابلة مع السيد رافي مادويان، بيروت، ١٣ كانون الأول ٢٠٠٣.

٥٦ لبيان مقتضب عن نشوء الاتحادات المواطنية ونشاطاتها، انظر لجنة العمل الاجتماعي في الاتحاد الأرمني الإنجيلي، «دراسة استطلاعية لمشكلات اجتماعية وحاجات وسط الجالية الأرمنية في لبنان»، بيروت ١٩٧٠، ص. ٩١-٩٢؛ انظر أيضاً سانجيان، «تجربة الأقلية الأرمنية في العالم العربي الحديث»، مقال سابق، ص. ١٥٦-١٦٠؛ غرينشيلدز، «توطين اللاجئين الأرمن»، ص. ٢٣٣-٢٤١. لقد تأسس اتحاد الجمعيات المواطنية في حلب إلى حد ما؛ مقابلة مع السيد سركيس نجاريان، بيروت، ١٥ كانون الأول ٢٠٠٣.

٥٧ ز. م. مسرليان، «التمثيل الأرمني في البرلمان اللبناني»، أطروحة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٣، ص. ٦١.

٥٨ كان اسحق ينتمي إلى عائلة الشتات الأرمني في لبنان قبل عام ١٩١٥، وكان «متعرباً لغوياً»؛ انظر شاهكالديان، «الاندماج السياسي»، م. س.، ص. ٦٠.

٥٩ لم تجر الانتخابات في المناطق التي طبق فيها القانون العرفي-أي في دمشق، وحوران وجبل الدروز؛ انظر س.هـ. لونغريغ، «سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي»، م. س.، ص. ١٧١-١٧٢.

٦٠ خوري، «سوريا والانتداب الفرنسي»، م. س.، ص. ١٨٦.

عام ١٩٢٨، حين دفعت الظروف السياسية سلطة الانتداب إلى السماح بتشكيل مجلس دستوري. في هذه المناسبة، أصبح أرمني كاثوليكي، هو فتح الله اسيون، أول أرمني عضو في مجلس برلماني منتخب في المشرق عقب زوال العهد العثماني[٦١]. وبعد عامين، ازداد وضع الأرمن السياسي رسوخاً بصدور الدستور السوري. فدستور ١٩٣٠ أعطى النظام الطائفي صفة رسمية وقضى بأن يضمن القانون الانتخابي تمثيل «الأقليـــات الدينيـــة»[٦٢].

الجمعيات الأرمنية إبان عهد الانتداب

إن بروز أحزاب سياسية واتحادات مناطقية لمواطنين، إضافة إلى الكنائس، وكذلك بروز عدد من الجمعيات الأرمنية الأخرى، شكّل مكوناً مهماً في عملية إعادة بناء العالم الأرمني في لبنان وسوريا. بداية، أسهمت الجمعيات الأرمنية إسهاماً كبيراً في دعم اللاجئين المادي عبر توفير الطعام واللباس والإسعافات الطبية وغيرها من المساعدات داخل المخيمات[٦٣]. إلى ذلك، أصبحت هذه الجمعيات معالم جديدة للمشاركة الأرمنية، وهكذا ساعدت في صون هوية الطائفة الثقافية وتنميتها.

وكان العديد من الجمعيات الأرمنية القائمة في لبنان وسوريا منظمات خيرية أُنشئت استجابة لحاجات اللاجئين. وقد أدت الكنائس الأرمنية دوراً أساسياً في إقامة هذه الجمعيات وعملها، مجددة بذلك تقليداً من التعاون المتبادل المنسق عادة على مستوى المجامع الدينية. وبالنسبة إلى الكنيسة الرسولية، أجريت مأسستها على شاكلة جمعيات «تعنى بالفقراء»: وكانت إحداها تمارس نشاطها داخل كنيسة القديس نيشان في بيروت، منذ أواخر القرن ١٩[٦٤]. كما كانت الجمعيات الخيرية تعبيراً عن النخب العلمانية الأرمنية على صعيد عالم الشتات المحلي والدولي على السواء[٦٥]. وشكلت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية (*UGAB*) نموذجاً مهماً من ذلك. فقد تأسست في القاهرة عام ١٩٠٦ على أيدي عدد من الأعيان الأرمن. ثم أنشأت لجنة بيروت في ١٩١٠. وشاركت المنظمة، على أثر وصول اللاجئين، في أعمال الإغاثة، وتطورت أنشطتها سريعاً مشكلة العديد من اللجان الأخرى في المدن الرئيسية اللبنانية والسورية[٦٦].

كذلك كان للأحزاب السياسية الأرمنية دور في إنشاء جمعيات تهدف إلى تأمين الخدمات الاجتماعية والمساعدات المختلفة، وبخاصة جمعية صليب إعانة الأرمن. إنها جمعية تأسست في بوسطن عام ١٩١٠ وكرست نفسها للمساعدة الاجتماعية وللصحة والتربية، وغدت – ولو بطريقة غير رسمية– «الساعد الاجتماعي» لحزب الطاشناق، وأنشأت فرعاً لها في لبنان عام ١٩٢٩[٦٧]. والخلاصة التالية، برغم كونها مقتصرة على لبنان وغير وافية، إلاّ أنها تعطي لمحة وجيزة ومفيدة عن تنوع الأعمال الخيرية الأرمنية العامة إبان عهد الانتداب، وتبيّن خصوصاً قيام مؤسسات دينية وعلمانية، وتنظيمات في عالم الشتات المحلي وعبر الدول.

٦١ م. س. الأسعد، «البرلمان السوري في تطوره التاريخي ١٩١٩–٢٠٠١» دمشق، ٢٠٠٢، ص. ٢٣٧، كان فتح الله أسيون محامياً أرمنياً كاثوليكياً، ترجع أصوله إلى طبقة التجار فوق الوسطى في حلب. انظر خوري. «سوريا والانتداب الفرنسي»، اللوحة ١٥–٣، ص. ٤٢١. انظر أيضاً مكتب الدراسات السورية والعربية، «من هو»، دمشق ١٩٥١، ص. ٤٢–٤٣.

٦٢ الدستور السوري عام ١٩٣٠، المادة ٣٧. ذكر في ج. ه. تورّاي، «السياسة السورية والعسكر، ١٩٤٥–١٩٥٨»، كولومبس، ١٩٦٤، ص. ٨٩.

٦٣ مع ذلك، كانت جهود الإغاثة مدعومة من المؤسسات غير الأرمنية. وكانت هذه الأخيرة تشمل السلطة الانتدابية الفرنسية، وعدداً من الجمعيات الخيرية الأجنبية ذات المنحى المسيحي؛ وقد أنشئ بعضها خصيصاً لمساعدة الأرمن. من بينها، أتى بخاصة ذكر «رسالة أرمينيا» وهي فرنسية، وجمعية إغاثة الشرق الأدنى، والصليب الاحمر الأميركي، وعش العصافير الدانمركي، وأصدقاء الأرمن السويسريون.

٦٤ لجنة العمل الاجتماعي للاتحاد الأرمني الإنجيلي، «دراسة استطلاعية لمشكلات اجتماعية»، ص. ٤٢.

٦٥ انظر، في شأن الأصول والتقاليد الأولية للجمعيات الخيرية التابعة للطبقات الأرمنية العليا في الإمبراطورية العثمانية (ولا سيما في مجال التربية). ف. ارتينيان، «النظام الدستوري الأرمني في الإمبراطورية العثمانية ١٨٣٩–١٨٦٣»، اسطنبول ١٩٨٨.

٦٦ كانت فروع الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في لبنان قائمة في زحلة (١٩٢٧)، وطرابلس، وجونيه، وصيدا، وصور، وسن الفيل (١٩٢٨)، وغزير (١٩٣٠)، وبرج حمود، ونور هادجين، الأشرفية (١٩٣٨) وعاليه، وجبيل، وبكفيا، ومرجعيون ورياق (١٩٣٩)؛ انظر الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، «لمحة موجزة عن الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في لبنان»، كراسة نشرت في ٢٠٠١، ص. ٣–٧.

٦٧ حديث أجري مع هاكوب باقرادوني، مسؤول حزب الطاشناق، برج حمود، ٢٦ تشرين الثاني ٢٠٠٢؛ حديث أجري مع السيدة سيتا خادشيان، برج حمود، ١٥ أيار ٢٠٠٢؛ صليب إعانة الأرمن في لبنان: «معاً من أجل مستقبل أكثر عافية». كراس، ١٩٩٨.



مصح العزونية في لبنان.

جمعيات خيرية أرمنية عاملة في لبنان إبان عهد الانتداب [١٨]:

الجمعية	بداية نشاطها	ملاحظات
احكاداخنام «العناية بالفقراء»	نهاية القرن ١٩	جمعية خيرية تابعة للكنيسة الرسولية ومرتكزة على مجامع علمانية فرديه، وخاضعة للسلطات الكنسية.
الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية	١٩٠٦	مؤسسة علمانية أسسها في القاهرة بوغوص نوبار باشا، ثم تطورت كمؤسسة لها وجود عبر الدول. مارست مهامها في معظم الدول التي ينتشر فيها الشتات الأرمني. أنشأت مياتم واضطلعت بدعم الثقافة والتربية والرياضة.
الجمعية التبشيرية الأرمنية	١٩١٨	مؤسسة إنجيلية أرمنية. عملت مع اللاجئين في المخيمات وقدمت الدعم لقضايا التعليم.
اتحادات المواطنين المناطقية	في العشرينات	جمعيات طوعية وثقافية خاصة (قونيه، عنتاب، زيتون، اضنه، بتليس، هادجين، كارين، قيصريه الخ.).
مأوى العجزة	مطلع العشرينات	أدار أولاً ميتماً في تركيا أسسه أصدقاء الأرمن السويسريون ثم انتقل إلى غزير وتحول إلى ملجأ للأرامل وأطفالهن، ثم تدريجاً إلى ملجأ للعجزة. وهو قائم منذ ١٩٣٢ في برج حمود.
المصح القومي الأرمني	١٩٢٣	متخصص أصلاً في معالجة داء السل. أنشىء بتعاون الكنائس الثلاث في المعاملتين بتمويل من «إغاثة الشرق الأدنى». نقل إلى موقعه الحالي في العزونية عام ١٩٣٨.
جمعية مار الياس الطوعية	١٩٢٩	منظمة كاثوليكية أسسها رئيس الأساقفة نازليان ولفيف من الوجهاء الكاثوليك. تقدم الدعم للعائلات الأرمنية الكاثوليكية التي تعاني مشكلات مالية.
صليب إعانة الأرمن	١٩٢٩	منظمة نسائية طوعية خاصة لا تتوخى الربح. تقدم خدمات اجتماعية وطنية مرتبطة بصفة غير رسمية بحزب الطاشناق.
جمعية المخلص الأقدس	١٩٣١	منظمة كاثوليكية (سميت بداية أخوية المخلص الأقدس). أسسها رئيس الأساقفة نازليان في برج حمود.
جمعية البشارة	١٩٣١	جمعية خيرية كاثوليكية أسسها رئيس الأساقفة نازليان. مارست نشاطها في الأشرفية.
محبو الفقراء	١٩٣٧	أسستها نساء أرمنيات لتأمين العون للاجئين (ألبسة، مسكن، طعام، تربية الخ.).
مؤسسة هوارد كره كوزيان	١٩٤١	جمعية خيرية خاصة أسسها في ١٩٢١ محسنون أميركيون- أرمن. وهي منظمة قامت في عالم الشتات وانتشرت عبر الدول. أطلقت أنشطتها في عنجر وبيروت عقب أزمة الاسكندرون.

أنشئت الجمعيات الأرمنية لتلبية حاجات الطائفة الثقافية وملء أوقات الفراغ، هذا عدا عن مساعدتها المادية للسكان. والتزمت الكنائس والأحزاب السياسية واتحادات المواطنين المناطقية والمنظمات عبر الدول تغطية ميادين النشاط الاجتماعي. وكانت جمعيات الشباب الأرمنية الرياضية متعددة وفاعلة بشكل خاص، ومن بينها: الهومنتمن، والنادي الرياضي التابع لحزب الطاشناق (تأسس عام ١٩١٨)، والهومنمن، وهو مرادف للهنتشاك (تأسس عام ١٩٢١)[٦٩]، وجمعية شبيبة الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، وجمعية شباب الانترانيك (تأسست عام ١٩٣١). وفي أمد قصير، لمعت النوادي الرياضية الأرمنية على الساحة المحلية، حتى أمست، في الأربعينات، تسيطر على مسرح كرة القدم اللبنانية والسورية، وكذلك سباق الدراجات وألعاب القوى[٧٠].

سرعان ما أدركت الأحزاب السياسية الأرمنية أهمية أن تصبح عناصر فاعلة في عملية الإبداع الثقافي، فأنشأت جمعياتها الخاصة. وأسست جماعة من المفكرين المثقفين الطاشناق، في القاهرة عام ١٩٢٨، ومن بينهم المسرحي ليفون شانت والمؤلف المسرحي كسبار ايكيان، جمعية هاماسكايين الثقافية[٧١]، «الساعد الثقافي» للحزب. كما أنشأ الهنتشاك والرامغفار جمعياتهما الثقافية الخاصة. وتم تنظيم هذه الجمعيات وفقاً لبنية الحزب، على أساس يتخطى الدول، وبشكل يربط فروع كل بلدان الشتات التي لها حضور فيها.

أما في ما يمت بصلة إلى العلاقات الرسمية بالدولة، فإن الجمعيات الأرمنية كانت خاضعة شرعاً للقوانين نفسها التي تخضع لها كل جمعية أخرى في لبنان وسوريا. وبهذا الخصوص، يعترف نص الدستور اللبناني الصادر عام ١٩٢٦، المادة ١٣، ببساطة بحق تأسيس الجمعيات، ويحيل إلى التشريع العادي:

«حرية إبداء الرأي قولاً وكتابة، وحرية الطباعة، والاجتماع، وحرية تأليف الجمعيات كلها مكفولة ضمن دائرة القانون».

إن سلطات الانتداب لم تطور قط تشريعاً خاصاً بالجمعيات. وفي غياب مثل هذا التشريع، استمرت الجمعيات في لبنان وسوريا تخضع لقانون الجمعيات العثماني الصادر في ٣ آب ١٩٠٩. ويحدد القانون الجمعيات على أنها:

«مجموعة مؤلفة من عدة أشخاص بهدف توحيد معرفتهم وجهودهم بصورة دائمة ولغرض لا يتوخى الربح. وتؤسَّس الجمعية بناء على إرادة مؤسسيها: فحين يجتمع شخصان أو أكثر يؤلفون مجموعة ويبلغون السلطة العامة بواسطة مستند بعنوان المجموعة المؤلفة على هذا النحو، وهدفها ومقرها المركزي وبأسماء الأعضاء الذين يتولونها أو المكلفين إدارة شؤونها. وينبغي أن تكون السلطة على علم بأوضاع هؤلاء الأعضاء وبأمكنة إقامتهم، كما يجب تزويدها بنسختين عن قوانين الجماعة المؤلفة. ويجب أيضاً أن يكون أحد الأعضاء القادة مسؤولاً لدى السلطة العامة (وزارة الداخلية أو ممثلوها في المناطق)»[٧٢].

والواقع أن القانون سمح بتأويلات مختلفة — حرة أو مقيدة — ومنح الحكومة حرية التدخل ومراقبة أنشطة الجمعيات فعلياً، كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وعلى العموم، كان تدخل الدولة محدوداً إلى حده الأدنى في معظم المجالات التي كانت الجمعيات الأرمنية تعمل فيها. إن إنشاء الجمعيات ودفعها إلى العمل، واستعادة العالم الاجتماعي والثقافي الأرمني، كل ذلك تم بمعزل تقريباً عن الطوائف غير الأرمنية والسلطات الانتدابية. فالخدمات الاجتماعية الجديدة والإنتاج الثقافي، اللذين أوجدهما الأرمن ووزعوهما على المناطق السكنية الأرمنية، لم يستهدفا إلاّ الطائفة.

٦٩ تأسس الهومنمن في سوريا بفضل الجهود المشتركة التي بذلتها شبيبة الهنتشاك الفكرية وفريق كرة قدم عنتاب «ارارات». «كان شباب الهنتشاك حريصين على إنشاء تنظيم خاص بألعاب القوى بهدف الحفاظ على سلامة الشباب الأرمني وطنياً جسداً وروحاً». شبكة الإنترنت الرسمية للهومنمن، ١٣ نيسان ٢٠٠٤.

٧٠ في موضوع النوادي الرياضية الأرمنية في لبنان وسوريا، انظر ر. جابجيان، «ملامح من تاريخ الحركة الرياضية في سوريا ــ مساهمات الرياضيين الأرمن في الرياضة السورية»، حلب ٢٠٠٠؛ «الهومنمن»، كراسة نشرت بمناسبة الذكرى الخامسة والسبعين للنادي (بيروت ١٩٩٣)؛ مقابلة مع السيد كربيس طوماسيان، حلب، ١٤ تشرين الثاني ٢٠٠٣؛ مقابلة مع السيد سركيس نجاريان، رئيس الهومنتمن السابق (لبنان)، بيروت ١٥ كانون الأول ٢٠٠٣.

٧١ شبكة إنترنت هاماسكيين الرسمية www.hamazkayin.com، ١١ شباط ٢٠٠٤.

٧٢ النص كما ورد في ك. كرم، «الجمعيات في لبنان: بين الخيرية والسياسية»، في سلطات وجمعيات في العالم العربي، باريس، ٢٠٠٢، ص. ٥٨.



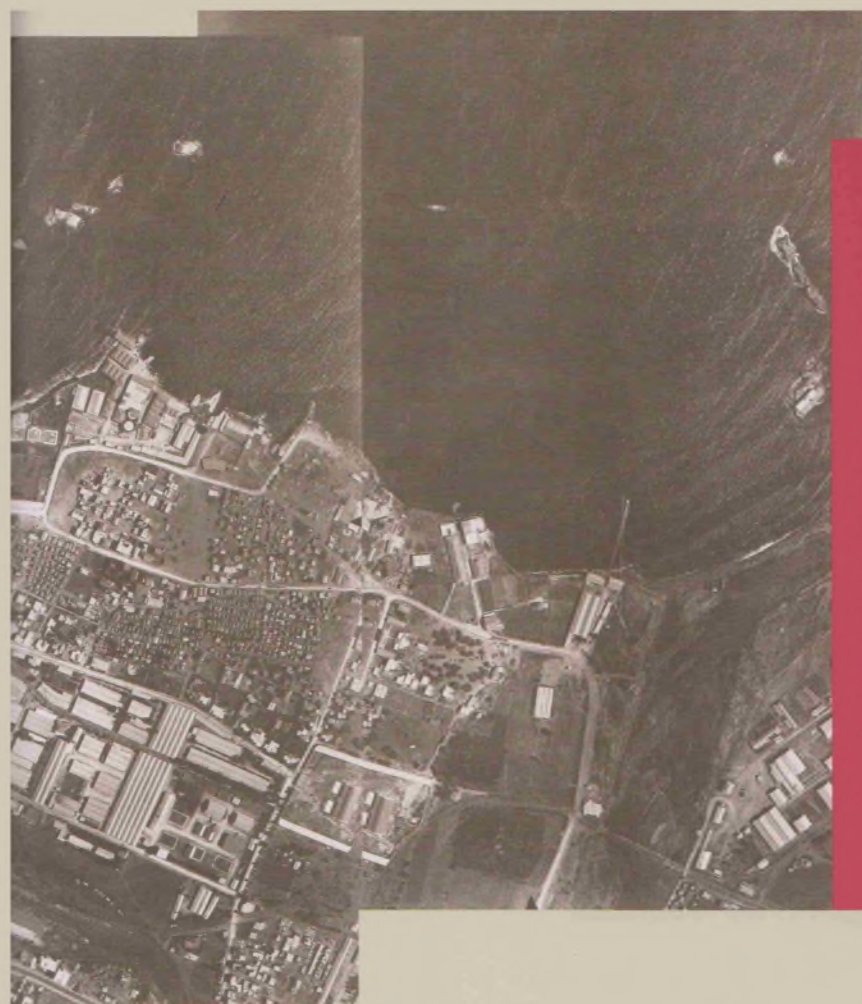
مصح العاملتين في لبنان. مجموعة م.ن.ا

خاتمة

عالج هذا المقال بعضاً من جوانب عملية إعادة إقامة المؤسسات الاجتماعية الرسمية الأرمنية (أو تأسيسها من جديد) ضمن سياق اللاجئين في لبنان وسوريا. وأظهر على الأخص أن بنية دولة الانتداب وعملها المرتكز على دور العرق كأداة لممارسة الرقابة السياسية، أديا دوراً مهماً وإيجابياً في عملية إعادة بناء العالم الأرمني في المشرق.

إن سياسة السلطات الفرنسية الدينية، التي مزجت عناصر من التقليد العثماني بمبدأ حياد الدولة الديني، أتاحت للأرمن، وبمنتهى الاستقلالية، فرصة إعادة بناء بعد مهم من أبعاد تمايزهم الثقافي. فما لبثت الكنائس الأرمنية الرسولية والكاثوليكية والبروتستانتية أن استقرت في مخيمات اللاجئين وفي المدن والمراكز، حيث عاود السكان الأرمن إقامتهم. إن اعتراف المفوضية العليا بالسلطات الدينية الأرمنية وموافقتها على دور الكنائس الأرمنية وسط الطائفة شكلا جزءاً من سياسة أوسع ترمي إلى بناء نظام سياسي ذي بينة مذهبية في كل من لبنان وسوريا. ومشاركة الأرمن في الشأن العام اللبناني والسوري فرضتها، إلى حد ما، السلطات الفرنسية وحلفاؤها المحليون على طوائف المشرق الأخرى. فقد منحت سلطة الانتداب الجنسية اللبنانية والسورية للاجئين وأفسحت لهم مجالات المشاركة السياسية. وسرعان ما أصبحت هذه المجالات موضع تنافس بين خطابات سياسية أرمنية مختلفة، وسارعت الأحزاب الوطنية الأرمنية، التي أعيد تشكيلها، إلى احتلالها. كما يبين المقال أن الانتداب الفرنسي أتاح إمكانيات تطور رائعة لشبكات الجمعيات الطائفية الأرمنية المنضمة في الغالب إلى الكنائس أو الأحزاب السياسية.

وختاماً، إن كل محاولة لشرح إقامة المؤسسات الاجتماعية الرسمية بطريقة سريعة وناجحة في لبنان وسوريا عقب الحرب العالمية الأولى، لا بد من أن تأخذ في الاعتبار أن الإطار الذي تمت فيه إعادة إسكان الأرمن كان ملائماً لاعتبارات شتى. فالهوية الإثنية – الثقافية الأرمنية التي حملها اللاجئون معهم، وكانت غريبة إلى حد كبير، تمكنت من أن تأخذ لها مكاناً في نظام المشرق الفرنسي السائد في مرحلة ما بعد العهد العثماني بدلاً من أن تواجه عداوة الدولة.



«هذه هي إذاً الأمة! تجمّع أنقاض، كثرة لا يحصرها عد من الأكواخ المتناثرة، بدءاً من المرتفعات حتى الشاطىء، ومن المرفأ إلى «النهر» وما وراءه، وقد سمي بعبارة أخرى «مدينة أكواخ»، تعبير يتمتع في نظري بميزة أكيدة وله رنين مستحب في أذني، إذ إنه يزين هذا العدم المفتوحة دائماً أبوابه، والمحدث الطباع ركام من الصفائح المعدنية وخليط من الألواح المكونة على عجل إثر انفجار، كان رجال أشبه بالنمل يخرجون من ثناياه ويمشون، وقد تصاعدت منهم روائح كريهة، على حوافي برك ماء يحوم حولها البرغش عائثاً الفساد. وبعد «مدينة الخيم»، كانت «مدينة الأكواخ» تبدو وكأنها استعارة لغوية مجردة من كل قدرة على تصوير هذه الحياة الحقيقية القاسية. هيا، اعرفوا أي صحفي أو خطيب صاغ هذه اللفظة، وألبسها على هذا العدم المرقش بالحياة، الموشك على فقد صوته، من دون أن تطأه قدماه أبداً».

كريكور بلتيان، «صورة »، لوس انجلس، نيسان ٢٠٠٢، ص ١٩-٢٠.

المخيم الكبير أو مخيم مار مخايل قبل اندلاع الحريق فيه عام ١٩٣٣.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



من مخيمات اللاجئين إلى أحياء المدن

آليات ورهانات

بقلم فاهه طاشجيان

مسألة اللاجئين الأرمن والرهانات الإقليمية

دشن التنازل عن كيليكيا وهجرة عشرات الآلاف من الأرمن مرحلة جديدة من الريبة والحيرة في العالم الأرمني. فتنازل فرنسا عن كيليكيا لتركيا حرمهم من وطن قومي كانوا يأملون الاستقرار فيه جماعات لإعادة بناء حياتهم في أعقاب أهوال الإبادة الجماعية. فتحتم على الأكثرية الساحقة من هؤلاء المنفيين، بعد الجلاء عن كيليكيا، وحتى قبل وصول الجنود الأتراك وفرض الإدارة التركية، أن تعود مجدداً إلى مخيمات اللاجئين الكئيبة والشاقة في سوريا ولبنان، فكأن الأمر امتداد لأعمال العنف والآلام التي كابدوها منذ ١٩١٥.

غير أن المسألة، في بداية العشرينات هذه، هي معرفة ما سوف يستطيع هؤلاء المنفيون المطرودون من وطنهم أن يفعلوه حقاً. ولم تُكتشف الإجابة عن هذا التساؤل سريعاً؛ وإنما اقتضى الأمر سنوات لبناء مستقبل لجميع هؤلاء الأرمن المرحلين والمتروكين وشأنهم. الحقيقة أن قلائل هم الذين كانوا يظنون، عند وصول آلاف اللاجئين إلى الأراضي السورية واللبنانية، أنه من الممكن إسكان هؤلاء بصورة نهائية في كلا البلدين. وفي الشرق الأدنى الخاضع لتحول جيوبوليتيكي شامل، وجد الأرمن أنفسهم في مواجهة أوضاع معقدة وخيارات صعبة.

يلاحَظ أولاً أن وجود حوالي ٢٠٠٠٠٠ لاجىء أرمني في بلدان الشرق الأدنى كان يعتبر، في ذلك العصر، رهاناً سياسياً لم يكن بالإمكان

لاجئون أرمن جدد قدموا من دمشق واستقروا في بيروت عام ١٩٢٥. إن ثورة ١٩٢٥ الدرزية وتداعياتها في دمشق أدت إلى هرب اللاجئين الأرمن إلى بيروت خصوصاً. وهكذا وصلها، خلال ١٩٢٥، ١٢٢٨ أرمنياً تم إيواء ٩٠٠ منهم في المحجر الصحي في بيروت، فيما أووي الآخرون تحت الخيم.
تصوير انطوان بوادوبار —
مجموعة م. ش. — ج.ق. ي





أحد البيوت في مخيم مار مخايل.
مجموعة م.ش. ـــ ج.ق.ي

ن يترك الدول الإقليمية والأجنبية في حالة من اللامبالاة. وهذا موقف فرنسا بشكل خاص، وهي السلطة المنتدبة على سوريا ولبنان. فبعد التوقيع على اتفاقية التنازل عن كيليكيا لتركيا، نظرت نظرة استهجان إلى رغبة الأرمن في مغادرة هذه المنطقة واللجوء إلى الأراضي السورية واللبنانية. وإذ تقرر وصول هؤلاء اللاجئين إلى سوريا ولبنان، فكرت المفوضية العليا في بيروت في أن تفيد من ذلك موزعة هذه الجماعات تبعاً لاحتياجات سياستها الإسكانية الهادفة إلى تعزيز حضورها في هذين البلدين. عندها باتت تبعية الأرمن للسلطة الانتدابية الفرنسية كاملة، حيث أمكنها أن تستخدمهم على هواها ضمن إطار استراتيجيتها الرامية إلى السيطرة على سوريا ولبنان.

في المقابل، لم يكن مبدأ إسكان اللاجئين في هذين البلدين الواقعين تحت الانتداب الفرنسي يروق للقادة الأرمن بصفة عامة. فنحن ما زلنا في زمن يدور فيه الكلام، في المجامع الدولية، على إنشاء وطن قومي محتمل للأرمن. وحتى لو لم يتم تحديد المنطقة الجغرافية حيث يمكن أن يقام، لم يمنع ذلك القادة الأرمن، مطلع العشرينات، من أن يأملوا في إمكان تجميع اللاجئين في منطقة خاصة من تركيا، حيث يسعهم العيش في حماية الدول الغربية. ولكن آمال الأرمن سرعان ما أخذت تتلاشى جراء تطور الأحداث في تركيا. فقد غدا مصطفى كمال، قائد الوطنيين الأتراك، سيد الأناضول عام ١٩٢٣، بعد انتصاره على الجيوش اليونانية في جبهة الأناضول الغربية. ومهدت أيضاً الانتصارات العسكرية التركية الطريق لمؤتمر لوزان لمولي، الذي صدق على الاعتراف بالجمهورية التركية في الحدود التي رسمها كمال ووأد الآمال الأخيرة في إنشاء وطن قومي للأرمن.

أي مستقبل كان ممكناً إذاً التطلع إليه بالنسبة إلى آلاف اللاجئين الأرمن المشتتين في بلدان الشرق الأدنى واليونان؟ يلاحَظ، بعد خيبة الأمل التي سببتها معاهدة لوزان، أن فكرة حشد اللاجئين في أرمينيا السوفياتية

كانت موضع إجماع المسؤولين الأرمن في المنفى. وقد تم القيام بالخطوة الأولى في هذا الاتجاه مع لاجئي مخيم بعقوبة العراقي. فقد قررت السلطات البريطانية في العراق، عام ١٩١٩، نقلهم إلى جمهورية أرمينيا، ولكن المشروع اصطدم بمشكلة عدم الاستقرار السياسي الذي كان يميز حينئذ بلدان ما وراء القوقاز. وأخيراً اتفقت سلطة الانتداب البريطانية، تصميماً منها على التخلص من هؤلاء اللاجئين، مع النظام السوفياتي الجديد الذي أقيم في أرمينيا، وتمكنت من ترحيل آلاف اللاجئين إلى الأراضي الأرمنية. وقد شجعت هذه السابقة بوضوح المسؤولين الأرمن على التفكير في عمليات مماثلة بشأن لاجئي سوريا ولبنان واليونان. ولتحقيق ذلك، أرسل الوفد الوطني الأرمني والجمعية الخيرية العمومية الأرمنية موفدين إلى يريفان للنظر مع السلطات المحلية في إمكانية ترحيل مجموعة كثيفة من السكان، يؤيدهما في ذلك فريدجوف نانسن، المندوب السامي لعصبة الأمم من أجل اللاجئين.

لا يتسع المجال هنا للنظر بالتفصيل في حادثة ترحيل اللاجئين إلى أرمينيا السوفياتية. ولكن تنبغي الإشارة، مع ذلك، إلى أن هذا المشروع فشل لأسباب شتى. فمن ناحية، بدا أن الدول الغربية ليست مستعدة بشكل عام لتمويل مشروع واسع ترعاه عصبة الأمم ويهدف إلى إعادة بناء جزء من الاتحاد السوفياتي، وهو العدو الإيديولوجي للقوى الرأسمالية في ذلك الحين. ومن ناحية ثانية، فإن كل تعاون إنساني مع النظام الشيوعي تدعو إليه منظمات ومؤسسات دولية تتخذ قاعدة لها خارج المجال السوفياتي، كان يصطدم بحواجز إيديولوجية تحول دون إتمام ترحيل اللاجئين إلى الأراضي الأرمنية. لهذا السبب، لم يكن العدد الإجمالي للاجئين إلى أرمينيا السوفياتية في العشرينات والثلاثينات ليتجاوز الـ ١٠٠٠٠ شخص.

على أية حال، يبين كل ذلك أن حضور اللاجئين الأرمن في سوريا ولبنان، خلال النصف الأول من العشرينات، كان يرتدي طابعاً هشاً غير مضمون، ولم يكن مقرراً على الإطلاق أن بوسعهم أن يستقروا فيهما نهائياً. إلى ذلك، كان ثمة حاجة ملحة ميدانياً للشروع في برنامج واسع من العمل الإنساني بهدف تحسين ظروف حياة عشرات آلاف اللاجئين الذين جرى إيواؤهم في المخيمات. ومن جهة أخرى، كانت المعاهدة المبرمة في لوزان تتيح خياراً جديداً لآلاف اللاجئين الأرمن المجمعين في سوريا ولبنان، وهم بأكثريتهم الساحقة ينتمون إلى كيليكيا، وهو الحصول على جنسية البلاد الخاضعة للانتداب الفرنسي[1]. وقد تم تنفيذ هذا البند من المعاهدة بموجب القرار رقم ٢٨٢٥ الذي وقعه الجنرال غورو، المفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان، بتاريخ ٣٠ آب ١٩٢٤ [2].

١ المادة ٣٠ (الجزء ١، بنود سياسية، المقطع ٢، جنسية): "إن الرعايا الأتراك المقيمين في الأراضي التي فصلت عن تركيا، بموجب أحكام المعاهدة الحالية، يصيرون حتماً، وبحسب شروط التشريع المحلي، رعايا الدولة التي انتقلت إليها هذه الأراضي": مؤتمر لوزان حول قضايا الشرق الأوسط (١٩٢٢-١٩٢٣)، قرارات موقعة في لوزان في ٣٠ كانون الثاني و ٢٤ تموز ١٩٢٣، باريس، ١٩٢٣، ص. ١٢.

٢ اريف (جريدة أرمنية)، السنة ١٠، رقم ١٧٠١، القاهرة، ٣٠ أيلول ١٩٢٤، ص. ٢.

المرحلة الأولى من مراحل إسكان اللاجئين في سوريا ولبنان : بؤس وعدم استقرار في المخيمات

خلال الأشهر الأولى من إسكان اللاجئين في سوريا ولبنان، لوحظت حركة دائمة لعناصر سكانية داخل حدود هذين البلدين. فقد بذل كل منهم جهده للعثور على مكان حيث يمكنه العيش بصورة لائقة. بيروت غدت متخمة بالمهجرين، لدرجة أنه أصبح شبه مستحيل العثور فيها على مسكن. لهذا السبب، كان العديد من اللاجئين يواصلون طريقهم باتجاه الداخل، صوب دمشق، حيث قُدِّر عددهم، في نهاية كانون الثاني ١٩٢٢، بنحو ستة آلاف أرمني. مدن سورية أخرى في الداخل، مثل حلب، وحمص وحماه، أصبحت هي الأخرى أمكنة يقصدها خصوصاً أولئك الذين يملكون الإمكانيات للتخلص من شظف العيش



الخروج من القداس في كنيسة الآباء اليسوعيين داخل مخيم مار مخايل الأرمني بصحبة المطران افاديس ارپياريان، مطران مرعش السابق، وقد انتخب بطريركاً لكنيسة كيليكيا الأرمنية الكاثوليكية عام ١٩٣١.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

في الاسكندرون التي أضحت نقطة تجمع لآلاف اللاجئين الوافدين من منطقة دورتيول. كما غدت زحلة أيضاً، الواقعة في سهل البقاع، موضعاً مقصوداً ومغرياً، بحيث كانت المدينة تضم، في ١٩٢٧، قرابة ألفي أرمني[3]. مناطق لبنانية أخرى، كجبيل (بيبلوس) وجونيه، حيث تم ايواء أعداد كبيرة من الأيتام، اجتذبت إليها الناجين الذين غالباً ما وجدوا عملاً لهم في المؤسسات التي كانت تعنى بهؤلاء الأطفال.

عهدت المفوضية العليا الفرنسية بمهمة استقبال اللاجئين وتوزيعهم إلى دائرة الصحة والإسعاف العام التابعة لها، وكان الطبيب الرئيسي فيها الجنرال اميني، وحل محله لاحقاً الطبيب دلماس. حينها أقامت هذه الدائرة مخيمات كبرى في بيروت والاسكندرون والبلدات التي لا تملك إمكانيات تأمين مسكن لها، فتم بداية إيواء اللاجئين تحت خيم وزعها الجيش الفرنسي أو جمعية إغاثة الشرق الأدنى. وكان كل مخيم للاجئين بإدارة ضابط فرنسي ملحق بدائرة الصحة، ومكلف الحفاظ على النظام وتوزيع المساعدات.

٣ سيتك-هاكوب فرجابديان، "الأرمن في لبنان"، ٣، بيروت ١٩٨١، بيروت ٤٣٦-٤٣٩.

٤ أرشيف مكتبة نوبار، مراسلات الدكتور ملكونيان، رسالة رقم ١٩ من الدكتور ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد الأرمني، بيروت، ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٢، ص. ٣.

مخيمات بيروت

غير أن وجهة اللاجئين المفضلة كانت بيروت ومنطقتها اللتين تعرضتا لخسائر جسيمة إبان الحرب العالمية الأولى: فالمجاعة فتكت بثلث السكان وأخليت قرى بكاملها من قاطنيها، وكانت المراكز الحضرية تشكو من نقص في اليد العاملة. عندما وصل اللاجئون الأرمن الأوائل، لم يجدوا صعوبة كبيرة في العثور على عمل. وقد بدا أن القادة المسيحيين اللبنانيين راضون عن توطين الآلاف من أبناء دينهم في البلاد، إذ يضخم ذلك عدد المسيحيين في منطقة كانت فيها الصراعات بين جماعات دينية آخذة في التكاثر منذ القرن الـ١٩. هذا الترحيب من جانب المسيحيين اللبنانيين تجلى بوضوح لدى البطريرك الماروني الحويك، المؤيد لإسكان الأرمن في لبنان. فقد استقبل، في مقر إقامته في بكركي في كانون الثاني ١٩٢٢، وبكل مراسم التكريم، كاثوليكوس كيليكيا ساهاك الثاني يرافقه وفد أرمني[4].



موقع الخعبناوي، في ضاحية بيروت،
مخيم لاجئين عام ١٩٢٢.
مجموعة ميشال بابودجيان

إن المركز الرئيسي لتجمعات [اللاجئين] هذه قائم في بيروت، في مخيم لا يتم فيه تصريف المياه بشكل جيد، مخيم شديد الرطوبة شتاء، حار وكثير الغبار صيفاً، وجميع اللاجىء فيه قذرة؛ إنها أكواخ خشبية صغيرة مبنية ببقايا صناديق للتعبئة ومغطاة بصفيح مقتطع من صفائح البنزين. وشبكة الطرق سيئة للغاية وغير قابلة لأي تحسن بسبب تكدس اللاجىء. ويتصف المخيم، بمجمله، ببؤس لا حدود له. ولست في حاجة إلى أن ألفت انتباه معاليكم إلى المخاطر الدائمة التي من شأن وضع مماثل أن يعرض مدينة بيروت إليها.

رسالة بول فرسيار، المفوض السامي بالوكالة في سوريا ولبنان، إلى وزير الخارجية في باريس، بيروت ١٢ تشرين الأول ١٩٢٦. (وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨، المشرق ١٩١٨-١٩٤٠، أرمينيا، المجلد ١٩، الورقتان ٨٢-٨٣).



منظر جوي لمخيمات بيروت في الثلاثينات. إلى اليسار، في الطرف الأسفل، نلاحظ مساحة فارغة تشير إلى موضع المخيم القديم الذي دمره الحريق عام ١٩٣٣. إلى الأعلى، الرأس الأول المطل على شاطىء البحر هو موقع الكارنتينا. إلى اليمين، المنشآت الكبيرة ذات الشكل المستطيل هي ثكنات الجيش الفرنسي. إلى الأعلى أيضاً، بموازاة الثكنات، تبدو تخشيبات مخيمات يوزغاط، الكارنتيا ــ امانوس والمسلخ. مجموعة م.ن.ا

تحكم دوائر سياسية مسيحية بالغة التأثير في البلاد، شأن أعضاء اللجنة الإدارية اللبنانية، حماسها وصول الأرمن جماعات كثيفة إلى بلدها أمام محدثيها. وكان أعضاؤها يتمنون أن يروهم يتوزعون على المناطق الداخلية ليعوضوا بالتالي عن الخسائر البشرية التي تكبدوها أثناء الحرب[٥]. غير أن الهجمة على بيروت ما لبثت أن سببت مشكلات متعددة اجتماعية وصحية. إذ إن غلاء المعيشة والنقص في المساكن حالا دون أن يجد جميع اللاجئين إمكانية للسكن في المدينة، فاضطر معظمهم أن يستقر في المخيمات المحيطة بالمدينة، حيث كان عدد المقيمين يرتفع يوماً بعد يوم.

في تموز ١٩٢٢، بلغ عدد اللاجئين ٨٠٠٠ شخص مجمعين في أربعة مخيمات ملاصقة لبيروت يعيشون تحت الخيم أو في أكواخ[٦]. إلاّ أن عددهم كان في ازدياد مطرد. وفي تشرين الثاني ١٩٢٢، كتب الدكتور ملكونيان في صددهم:

«لاجئو بيروت الأرمن مجمعون بشكل رئيسي في أربعة مخيمات: ١) مخيم الكارنتينا، وهو الأهم، يضم ما بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ أرمني. هنا يتواجد لاجئونا المعوزون، وحولهم تشكل هذا التجمع وتضخم؛ ٢) المخيم المدعو «كوندرارالي»، لا يفصله عن الآخر إلاّ خط سكة الحديد، وهو يؤوي أكثر من ٤٠٠٠ لاجىء؛ ٣) مخيم مار متر، وهو جد بعيد عن المخيمات الأخرى ويحوي ٥٠٠ لاجىء؛ ٤) مخيم المعرض، ويكاد يقوم في قلب المدينة، وفيه يعيش ١٠٠٠ لاجىء تقريبا»[٧].

والواقع أن مخيم اللاجئين الحقيقي كان يتألف من الموقعين الأولين اللذين ذكرهما الدكتور ملكونيان، وبكلام آخر كل المنطقة الممتدة بين مستودع الترامواي وكنيسة مار مخايل المارونية، أي بين شارع غورو والبحر. يقوم هذا الموقع في الضاحية الشمالية الشرقية من العاصمة اللبنانية، في محلة المدور. ولما أصبحت بيروت مقر المفوضية العليا

٥ أرشيف مكتبة نوبار، مراسلات الدكتور ملكونيان رقم ١١٥ من الدكتور ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد الوطني الأرمني، بيروت ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٢، ص. ٦-٧؛ رسالة رقم ٨ من الدكتور ب. ملكونيان إلى الوفد القومي الأرمني، بيروت ١١ كانون الأول ١٩٢١، ص. ٣.

٦ أرشيف مكتبة نوبار، مراسلات الدكتور ملكونيان، رسالة رقم ٨٤ من الدكتور ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد القومي الأرمني، بيروت، ١٥ تموز ١٩٢٢، ص. ٣.

٧ رسالة رقم ١١٥ من الدكتور ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد الوطني الأرمني، بيروت، ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٢، وثيقة سابقة، ص. ٤.

مخطط لمخيمات بيروت وأحيائها الأرمنية



مخيمات للاجئين أرمن أنشئت ابتداء من ١٩٢١
أحياء حضرية أرمنية شيدت ابتداء من ١٩٢٧
خط سكة الحديد والترامواي
طريق برية

تعاظم شأنها بالنسبة إلى المدن السورية، حتى أن الزوار الأجانب صاروا أكثر عدداً من أولئك الذين يزورون حلب أو دمشق. وهذا يفسر بلا ريب أن شهادات العصر حول مخيمات بيروت تفوق الحصر، فيما تلك المتعلقة بحلب أو دمشق أكثر ندرة. بين هؤلاء الزوار الأجانب نجد فيكتوريا ارشاروني التي كتبت بعد زيارتها هذا الموقع عام ١٩٢٢ تقول:

«كم هي مثيرة للشفقة رؤية هذا المخيم! إنه يتكون، ما خلا بعض الاستثناءات النادرة، من خيم مرقعة ترقيعاً، هي مزيج رث من أقمشة وحصر وشراشف. [...] والذين يملكون منهم شيئاً قليلاً من المال يتعاطون البيع بالمفرق في الهواء الطلق داخل المخيم أو في المدينة. وآخرون يعملون في المدينة نهاراً، وكلهم يوفقون، شاؤوا أم أبوا، في إعالة اسرهم. غير أنهم لا يكسبون من المال ما يكفي للاستقرار في المدينة»[٨].

و لم يكن وضع الموقع قد تحسن كثيراً عام ١٩٢٤. فالأب ميسيريان كتب يقول:

«الخيم تختفي أكثر فأكثر، وتنتصب مكانها أكواخ خشبية، ولكن يا لها من أكواخ! قسم كبير منها مصنوع من بعض القطع الخشبية العتيقة المضموم بعضها إلى بعض، والمغطاة بقماش نصفه متعفن، وصفائح بترول صدئة تحمي جوانبها. يتسرب المطر من جميع الجهات، ورطوبة الأرض، التي يحيط بها وحل مقزز، تجعل الإقامة فيها شاقة جداً»[٩].

عندها شرع جيش المشرق الفرنسي يوزع أكواخ «ادريان» خشبية قديمة كانت في معسكراته، الأمر الذي ساعد نسبياً على تحسين ظروف اللاجئين السكنية في المخيمات[١٠]. وروى أحد زوار هذا المخيم في ١٩٢٥:

«[...] اليوم، وبفضل عقلية السكان الحاذقة، ترتفع من الجانبين أبنية من لبن وطوب مسقوفة. إنها مدن حقيقية تنتظم أمورها، طرق تُشق وسبل ماء ومجارير تُهيّأ»[١١].

غير أن هذه التحسينات لم تكن كافية إطلاقاً، ذلك لأن فسحة السكن كانت ضيقة بالنسبة إلى آلاف اللاجئين هؤلاء، ولا سيما أن الظروف الصحية، خلال السنوات الأولى بالأخص، كان يرثى لها، حتى أن إصابة بالطاعون اكتُشفت في تشرين الأول ١٩٢٦،

٨ فيكتوريا ارشاروني، "مخيم اللاجئين في بيروت"، اريف السنة ٨، رقم ٥٠ (١١١٣)، ٢٣ آب ١٩٢٢.

٩ هوفهانس ميسيريان، راهب يسوعي، "مجموعة أخبار، اللاجئون الأرمن في سوريا"، مجلة الدراسات الأرمنية، الجزء ٤، الملزمة ١، السنة ٥، باريس ١٩٢٤، ص. ٢٢٢.

١٠ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨-١٩٤٠، أرمينيا، ملحق ١ لتقرير الدكتور ف. نانسن، عصبة الأمم، تموز ١٩٢٥، "تقرير السيد كارل حول وضع الأرمن في سوريا"، الورقة ٢٢٤.

١١ م. ن.



منظر جوي مائل لبيروت التقط من الشمال باتجاه مصب نهر بيروت. يمكننا أن نشاهد تقريباً كل المخيمات والأحياء الأرمنية الجديدة القائمة في الضاحية الشرقية من المدينة.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

أرغم سلطات الانتداب على إخلاء المنطقة المنكوبة من مئات عدة من الأشخاص.

ودعي هذا المخيم على العموم «المخيم الكبير» أو «المخيم المركزي» أو «مخيم كنيسة الصليب المقدس» أو «كمب اضنه». وقد آوى موجات اللاجئين الأولى الذين وصلوا إلى لبنان ما بين نهاية ١٩٢١ و١٩٢٤. وكانوا عموماً يتحدرون من سهل كيليكيا، أي من اضنه ومرسين والبلدات المحيطة بهما. كذلك نجد بينهم ناجين من مرعش، وهادجين، وسيس وزيتون. وعدد كبير منهم كانوا في السهل الكيليكي عند إجلاء الأرمن عن كيليكيا على متن السفن، وجاؤوا في أواخر ١٩٢١؛ ولكن آخرين أتوا من مناطق أبعد، مثل خاربرت، وقيصريه وسيواس. ويبيّن لنا تقرير مؤرخ في ١٩٢٥ بدقة أكبر أصل جماعات اللاجئين القاطنين في هذه التخشيبات، إذ نعلم منه أن في المخيم ست مجموعات تعود الرئيسية منها إلى مدن كيليكيا وقراها، وهي: اضنه (التي تضم أرمن اضنه، مرسين، وطرسوس، ودجيهان، وعثمانيه وسلفكه)؛ وسيس (وتشمل سيس، وقارص بازار، وفكه، وطابان، وتشوقاق)؛ وهادجين (وتحوي هادجين، ودورتيول، وقرى امانوس، وقراكوي)؛ ومرعش (وتستوعب مرعش، وعنتاب، وفرتوز، وزيتون مندجال). أما المجموعات الأخرى فكانت أقل تجانساً، لأنها تضم في ثناياها جماعات من اللاجئين المتحدرين من مدن ومناطق تغطي مساحات جغرافية أوسع بكثير، وهي: قيصريه (وتشمل قيصريه، واتيراك، وتشومكلو، وطومرزا، ويوزغاط)؛

وسيواس (وتحوي سيواس، وشبين، ومورهان، وقرهكول، وظارا، وسيفراك، وطوقاط، واماسيا، وغورون، وجيمراك، وشابين — قرهيصار)؛ وخاربرت (وتضم خاربرت، ومالاطيه، وبهسني، وادييامان، وارابكير، وبالو، وأرضروم، ويرزنغا، وكاغي، ودارون، وديار بكر، وارزني، واورفا)[١٢].

هذا المخيم الكبير مقسم أيضاً إلى قسمين كبيرين: «المخيم أ» و«المخيم ب»، ولكل منهما مديره الخاص المكلف أعمال الإدارة[١٣]. هؤلاء الأشخاص الذين كان الأرمن يعينونهم يقومون بمهمة مختار الحي، برغم أن وظيفتهم لا تحظى باعتراف رسمي من جانب الدولة اللبنانية[١٤]. كانوا تابعين للاتحاد الوطني الأرمني، وهو هيئة شرعت تعمل في النصف الأول من العشرينات، وتتألف من أعيان المدينة الأرمن على اختلاف مذاهبهم. وكان سكان المخيم مهمين لدرجة أن الكنيسة الأرمنية جعلته مطرانية مستقلة، على رأسها المطران يريم دوهموني، وقد اختير لهذه المهمة في تشرين الأول ١٩٢٣[١٥]. وفي نهاية العشرينات تولت لجنة مركزية، ملحقة بالمطرانية الأرمنية ومكونة من ممثلي مختلف المجموعات، على عاتقها تسيير أمور المخيم بالتعاون مع المطران دوهموني[١٦]. والحقيقة أن بلدية بيروت نادراً ما كانت تتدخل في إدارة المخيم، نظراً إلى أنه ينعم بالاستقلالية، ومجهز ببنية تحتية إدارية خاصة به. أضف إلى ذلك أن المخيم لم يكن يُعتبر مكاناً هادئاً: فالفوضى والاضطرابات والجرائم كانت كلها أموراً مألوفة تضطر الشرطة المحلية إلى التدخل واستخدام القوة. والمطران دوهموني بارع في وصف الأوضاع السائدة داخل المخيمات خلال العشرينات من القرن المنصرم:

«*كل عمل تقدم عليه أية لجنة وطنية وسط اللاجئين يبوء بالفشل إن لم تدعمه الدولة بحزم. ولا يغبن عن البال أن هذه الجماعة البشرية اختبرت العبودية تحت النظام التركي، ثم دمرت معنوياً على دروب الترحيل. في الحقيقة، طالما أحسست هنا، أثناء ممارسة مهامي، بغياب سلطة الدولة، في حين أن مواطنينا ألفوا العيش تحت نير سلطة غريبة. والواضح أن غياب مثل هذه السلطة أوهن عزيمتنا كثيراً، إذ شجع على ظهور قادة صغار من الإقطاعيين داخل المخيمات يستغلون مواطنيهم دونما وازع أو رادع. وبالطبع نحن بحاجة إلى قوة رجال الشرطة ودعمهم لنكافح هؤلاء الأفراد. والحال أن غياب عمل حازم حيالهم يفضي إلى مزيد من العزلة والانهيار الخلقي*»[١٧].

يبدو أننا هنا إزاء وضع خاص بمخيمات اللاجئين المسيّرة تسييراً ذاتياً والمحرومة من مراقبة مؤسسات الدولة، وبالتالي كان يخضع لنظام أشبه بنظام الغيتو، ويعمل طبقاً لقوانين ومعايير مختلفة. لذا لم يكن لمخيم بيروت أن يستثنى من هذه القاعدة. وكثيرة هي الشهادات على الاشتباكات المسلحة والجرائم الطارئة فجأة داخل المخيم، والمسلك المافيوي لبعض المقيمين. والدكتور ملكونيان وصف واحدة منها وقعت عام ١٩٢٣. ففي كانون الثاني من تلك السنة، أرسلت الشرطة اللبنانية إلى المخيم شرطيين في ثياب مدنية لإلقاء القبض على شخص يدعى زهراب، وهو مجرم فرّ من وجه العدالة في الاسكندرون ولجأ إلى داخل المخيم. غير أن هذا التدخل أدى إلى اشتباك مسلح جرح خلاله سبعة أو ثمانية لاجئين، وأسر سكان المخيم الشرطيين كرهينتين[١٨].

وبعد ١٩٢٣ — ١٩٢٤، قدمت جماعات أخرى من اللاجئين إلى بيروت، وبخاصة من المدن السورية المحتلة (حماه، وحمص، وحلب، ودمشق الخ)، وآوتهم السلطات الانتدابية في موضع يقع إلى شرق المخيم الكبير قليلاً، ويفصله عنه معمل الغاز وبعض البيوت السكنية. أما من جهة الجنوب، فكانت هذه المخيمات الجديدة تحاذي الثكنات والمعسكرات الفرنسية؛ ومن جهة الشمال، كان يفصلها عن البحر الكارنتينا والمسلخ، وكلاهما يقوم على شاطىء البحر. وعلى كل حال، فإن أسماء هذه المخيمات الجديدة ارتبطت في الغالب بهذين الموقعين، إذ إنها كانت تدعى «الكارنتينا» و«كمب المسلخ»،

١٢ أرشيف كاثوليكوسية كيليكيا. المجموعة ٥/١. بيروت/برج حمود (١٩١٨–١٩٤٠)؛ رسالة من المطران دوهموني إلى ساهاك الثاني. بيروت، ١٨ كانون الأول ١٩٢٥.

١٣ أرشيف كاثوليكوسية كيليكيا. المجموعة ٥/١، بيروت/برج حمود (١٩١٨–١٩٤٠)، رسالة رقم ٥٩/ ٦٦ من المطران دوهموني إلى الاتحاد الوطني الأرمني. بيروت، ٧ آذار ١٩٢٤. وظل المطران دوهموني يشغل هذا المركز حتى ١٩٢٨.

١٤ أرشيف مكتبة نوبار، مراسلات د. ملكونيان. رسالة رقم ١٣٨ من د.ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد القومي الأرمني. بيروت ١١ آذار ١٩٢٣، ص. ٤.

١٥ أرشيف كاثوليكوسية كيليكيا، المجموعة ٥/١، بيروت برج حمود (١٩١٨–١٩٤٠) الرسالة رقم ٦١٥ المتعلقة باستقالة المطران دوهموني مقدمة إلى المجلس السياسي الأرمني في لبنان، ١٥ تشرين الأول ١٩٢٨، بيروت.

١٦ أرشيف كاثوليكوسية كيليكيا، المجموعة ٥/١. بيروت / برج حمود (١٩١٨–١٩٤٠) رسالة رقم ٤٩٤ من المطران دوهموني إلى الكاثوليكوس ساهاك الثاني. ٢٦ شباط ١٩٢٤، بيروت.

١٧ أرشيف كاثوليكوسية كيليكيا، المجموعة ٥/١، بيروت / برج حمود (١٩١٨–١٩٤٠)؛ رسالة رقم ٥٩/ ٥٢ من المطران دوهموني إلى ساهاك الثاني، ٢٦ شباط ١٩٢٤، بيروت.

١٨ رسالة رقم ١٣٨ من د. ب. ملكونيان إلى رئيس الوفد القومي الأرمني، بيروت، ١١ آذار ١٩٢٣، وثيقة سابقة.

وكذلك «كمب امانوس» و«كمب يوزغاط». وكانت تلك المنشآت تبدوللوهلة الأولى وكأنها وحدة منسجمة الأجزاء، بينما كان هناك في الواقع عدة أقسام فرعية اجتماعية، مؤلفة خصوصاً تبعاً لأماكن منشأ هذه الجماعات. وهكذا، فالمخيم الأول لجهة الغرب كان يسمى «كمب يوزغاط»، إذ سكنه أرمن من مواليد يوزغاط وطومرزا. وكان « كمب امانوس»، في امتداده تجاه الشرق، يسكنه قرويون أرمن يتحدرون من مناطق مرعش الريفية، مثل لابدج، وخارنه، وبغتشه، وحسن بايلي. وإلى جنوب هذا الأخير، قام تجمع لاجئي مالاطيه الصغير، وإلى الشرق منه كنت تشاهد تخشيبات لاجئي اكباز[19]. وفي ما بعد، أنشئت، شرق كمب اكباز، أكواخ خشبية جديدة وأطلق على المكان اسم «تشار- تشابوخ». وأخيراً، كان الزائر يرى تجمعاً للاجئين أرمن في مخيم «مداني» يمتد امتداداً واسعاً إلى جنوب المواقع السابقة، في أسفل تلة الأشرفية.





حلب: مخيم اللاجئين الأرمن.
مجموعة ميشال بابودجيان

تخشيبات مخيم اللاجئين في حلب، عام ١٩٢٤.
مجموعة م. جاكوبسن

مخيمات حلب

خلافاً لمخيم بيروت الكبير، كانت مخيمات حلب أكثر اندماجاً في نسيج المدينة، أي أنها كانت بكلام آخر، مخفية أكثر، وفي الظاهر أقل شبهاً بالغيتو. فأغلب اللاجئين تم ايواؤهم في مؤسسات أرمنية أو في خانات عند وصولهم. وإذا كان القسم الأكبر من الوافدين من السهل الكيليكي (اضنه، ومرسين، وطرسوس)، قد توجهوا للاستقرار في بيروت، فإن مدينة حلب استقبلت خصوصاً القادمين من المناطق الواقعة شرق كيليكيا، وهي: مرعش، وعنتاب، وكيلس، واورفا، الخ. والاتحاد الوطني الأرمني، الذي كان لا يزال يعمل في أوائل العشرينات، استأجر أحد عشر خاناً سكن فيه، عام ١٩٢٣، عدة آلاف من الأرمن[20].

ولما كانت المنظمات الأرمنية عاجزة عن تغطية نفقات هذه المأجورات على المدى الطويل، اضطر اللاجئون إلى الانتقال، في غضون الأشهر التالية، إلى شمال المدينة، وخاصة إلى السليمانية والحميدية والرام. وفي ١٩٢٥، وصف القسيس اهارون شيرادجيان توزع الوافدين الجدد الجغرافي على النحو التالي:

«حوالي نصف اللاجئين يعيشون في المدينة [...] والنصف الآخر، وهم أشد فقراً، يعيشون داخل مخيمات في ضاحيتها. وتقوم المخيمات الكبرى لجهة الشمال في السليمانية والحميدية والرام. ويؤوي هذا الموقع مجموعة من السكان تفوق الـ ١٣٠٠٠ شخص. وهومقسم إلى ستة فروع: الأرقام ١ و٢ و٤ تتألف من ١٩٠٠ كوخ، ويسكنها لاجئون قدموا من مرعش، وكيلس، وغيبين، الخ؛ والرقمان ٣ و٥

١٩ ت. هـ. غرينشيلدز، "توطين اللاجئين الأرمن في سوريا ولبنان، ١٩١٥-١٩٣٥". أطروحة دكتوراه، جامعة درهام (بريطانيا)، ١٩٧٨، ص. ٤٤١-٤٥٠؛ ج. ميسيريان، "كارثة في مخيم بيروت الأرمني"، في "علاقات من الشرق"، السنة ٦٥، كانون الثاني-آذار ١٩٣٣، ص. ٥٧-٦٥؛ فارجبديان، م. س.، ص. ٤٩١-٥٣٨؛ تقرير سنوي مصور لمكتب نانسن الدولي من أجل اللاجئين. التمثيل في سوريا ولبنان، ١٩٣٤، بقلم جورج بورنيه، ص.١٠؛ أرشيف كاثوليكوسية كيليكيا، المجموعة ٥/١، بيروت / برج حمود (١٩١٨-١٩٤٠)، رسالة رقم ٤٩٦ من المطران دوهموني إلى ساهاك الثاني، بيروت، ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٦.

٢٠ أرشيف مكتبة نوبار، مراسلات د. ملكونيان، رسالة رقم ١٨٧٤ من الاتحاد الوطني الأرمني في حلب إلى رئيس الاتحاد الوطني الأرمني، حلب، ٦ آذار ١٩٢٣.





أكواخ في مخيم للاجئين أرمن في حلب، عام ١٩٢٤.
مجموعة م. جاكوبسن

أكواخ في مخيم للاجئي حلب، عام ١٩٢٥.
مجموعة م. جاكوبسن

يتألفان من ١٣٤٨ كوخاً ويسكنهما لاجئون وفدوا من اورفا. وفي موضع يقع على بعد ميل إلى شمال هذا الموقع الكبير يقوم مخيم كول – ميدان، ويقطنه ٩٠٠ شخص هم من مواليد خاربرت، وأرضروم، الخ؛ ويعيشون بين أنقاض ثكنة عسكرية قديمة. أما بقايا سكان «زيتون» الشجعان والذائعي الصيت، وقوامهم ٥٠٠ شخص تقريباً، فيعيشون في أبنية متداعية مهجورة تعرف باسم مخيم أسعد باشا. أما مخيم محطة بغداد فيسكنه سريان ينتمون إلى اورفا. واضافة إلى ذلك، ثمة مخيمات صغيرة أربعة يقطنها ١٧٠٠ شخص يتحدرون من عنتاب، وخاربرت وغورون، كما هناك أحد عشر خاناً يؤوي كل منها ما بين ٢٢ إلى ٥٠٠ شخص، أي ما مجموعه ١٦٠٠ نسمة»[٢١].

لم تكن ظروف العيش في هذه المخيمات تحتمل. فاللاجئون الـ ١٣٥٠٠ المستقرون في الموقع الذي يضم مخيمات السليمانية والحميدية والرام تعين عليهم أن يتقاسموا مساحة ضيقة شكلت رقعة يبلغ متوسطها ٣,٥ م^{2} للشخص الواحد. وفي ١٩٢٧، كان عدد الغرف ٣٢٩١ غرفة سكنية، أي بمعدل غرفة واحدة لكل أربعة أشخاص[٢٢]. وكان للتجمع على أساس مكان المنشأ الغلبة أيضاً. وخلال ١٩٢٥ و١٩٣٠، واستناداً إلى قرار السلطات الانتدابية، تم هدمها أخيراً. و لم يعد اللاجئون مجمعين إلاّ في المخيمات الواقعة شمال المدينة، في السليمانية والحميدية والرام. أما المهجرون المتحدرون من غورون فاستطاعوا أن يستقروا في أرض مستأجرة تقع في حي قسطل حرامي شمال المدينة، في أسفل شارع الحميدية[٢٣].

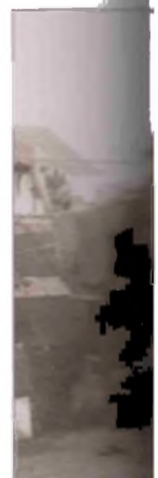
٢١ تقرير شيرادجيان (بالانكليزية)، في ١٠ نيسان ١٩٢٥ (FA، ٩٧، ١٩٢٥.٤٠، ص. ١٥)، غرينشيلدز، م.س.، ص. ٤٠١.
٢٢ أرشيف مكتبة نوبار، "مقتطفات من تقرير الدكتور ه. ا. كنيدي حول توطين اللاجئين في سوريا"، كانون الأول ١٩٢٧، ص. ٦.
٢٣ غرينشيلدز، م. س.، ص. ٣٩٨.



حلب: مخيم للاجئين أرمن.
مجموعة ميشال بابوجيان



حلب: مخيم للاجئين أرمن.
مجموعة م.ن.ا



مخيمات دمشق

تعرض السكان الأرمن في المدينة السورية الكبرى الأخرى، بدءاً من أواسط العشرينات، إلى تقلبات ديمغرافية أدت إلى تناقص كبير في الوجود الأرمني. فثورة ١٩٢٥ الدرزية وتداعياتها في العاصمة السورية خفضت عدد جالية دمشق الأرمنية من ثمانية عشر ألف نسمة إلى ستة آلاف في غضون إثني عشر شهراً. لقد أفضى انعدام الأمان إلى فرار اللاجئين خصوصاً إلى بيروت. وإذا كان البعض منهم قد عاد إلى دمشق أواخر ١٩٢٩، فإن عددهم فيها لم يكن يتجاوز الثلاثة عشر ألف نسمة. وكانت الأكثرية الساحقة من الأرمن تقيم في حي باب توما السكني، بينما كان آخرون، ويقدرون بنحو ألفين ومائتي شخص، لا يزالون يعيشون في تخشيبات داخل المخيمات القائمة في بستان الصليب (القصاع)، وعبرا وباب شرقي والمرجة[٢٤].

٢٤ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا – لبنان، الدفعة الأولى، المكتب السياسي، رقم ٥٧٣، "تقرير حول مستوطنات الأرمن المهاجرين في سنجق دمشق"، أيلول ١٩٢٩، ص. ١.



دمشق: بناء الحي الأرمني.
م.ا.د.ن

مشروع بناء أحياء حضرية في سوريا ولبنان: الرهانات المختلفة

ما العمل لإدارة عشرات الآلاف من اللاجئين المقيمين في سوريا ولبنان، وهم في غالبيتهم يعيشون دائماً في ظروف غير مستقرة وسط المخيمات وفي ضواحي المدن الكبرى، بعد مضي أعوام على وصولهم إلى هذين البلدين؟

تلك هي المسألة التي لم تكن تشغل بال المسؤولين الأرمن وعصبة الأمم وحسب، بل كانت أيضاً على جدول أعمال المفوضية العليا الفرنسية في بيروت. وكانت استراتيجية سلطات الانتداب الأولية تقوم على توزيع هؤلاء اللاجئين على الأراضي السورية واللبنانية بمجملها. فالأرمن كانوا، في نظر الفرنسيين، يؤلفون جماعة مخلصة لهم سياسياً يمكن الاستفادة منها في المناطق الاستراتيجية حيث يحتاج النفوذ الفرنسي إلى تدعيم. لهذا السبب تم إسكان جماعات من اللاجئين، خلال السنوات الأولى، في قرى مناطق حمص، وحماه واللاذقية، وبخاصة في شمال سوريا الذي تتهدده مصالح تركيا الكمالية الإقليمية [25].

غير أن كل مساعي السلطات الانتدابية الرامية إلى بعثرة الوافدين الجدد لم تجد نفعاً، إذ كان لاجئو سوريا ولبنان يحاولون أولاً أن يتجمعوا ويحيوا حياة جماعية. والواقع أن المدن الكبرى، رغم انعدام مجالات العمل فيها ونقص المساكن المتأتي عن تدفق اللاجئين، استمالت بشدة الأرمن وذلك على حساب المناطق الحدودية والريفية. هكذا كنا نشاهد، طوال العشرينات، احتشاداً للاجئين ملحوظاً بشكل متزايد في مدن حلب، ودمشق، وبيروت والاسكندرون. فما إن استقروا في تلك المراكز الحضرية حتى عكفوا على إقامة حواجز اجتماعية وثقافية، هي بمثابة خط فاصل بين الأرمن والسكان المحليين اللبنانيين والسوريين. وكانت مخيمات اللاجئين تؤمن المجال المثالي لبناء هذه المساحات المغلقة، حيث ينطوي اللاجئون على أنفسهم. وقد تشكلت حتى خطوط فاصلة داخلية في المخيمات، فاحتشد اللاجئون وراءها بحسب مدينة أو قرية المنشأ، بحيث حد ذلك من الاختلاط الاجتماعي بين شتى فئات اللاجئين أنفسهم. وينطبق هذا بصفة خاصة على مخيمات اللاجئين القائمة في حلب أو في بيروت. وهكذا كان للجماعات الريفية المتحدرة من امانوس منطقتها السكنية الخاصة، على غرار ما كان للأرمن المنتمين إلى اضنه، واورفا، وغورون، وطومرزا، الخ. وإذا كانت هذه التصرفات تشكل عائقاً اجتماعياً من نواح كثيرة، فلا بد من الاشارة إلى أن إعادة تشكيل المساحة الجغرافية العثمانية داخل المخيمات نفسها كانت، في أغلب الظن، مستوحاة من هذا النوع من غريزة البقاء، وقد زادتها تجربة الإبادة الجماعية حدة وعنفاً. في هذا الخصوص، لاحظ الفرنسي ج. كارل، موفد مكتب العمل الدولي، في تقرير موجه إلى عصبة الأمم عام ١٩٢٥، بعد زيارة قام بها إلى مخيم بيروت:

«إن الأرمن، ما داموا لم يبلغوا درجة معينة من الغنى، يريدون أن يحتشدوا مع أناس ينتمون إلى العرق ذاته؛ فهم يجدون في هذا التجمع نوعاً من الأمان. ويمكن تفسير هذا الشعور لدى السكان الذين يعيشون دائماً في أوساط ناصبتهم العداء» [26].

في الواقع، الصدمات النفسية التي ولدتها «الكارثة»، وحياتهم الجديدة في بيئة غريبة وأحياناً معادية، دفعتا الأرمن إلى الاحتشاد والعيش بصورة جماعية. إضافة إلى ذلك، من الواضح أنه كان يمكن للاجئين، بتجمعهم على هذا النحو، وفقاً لأصولهم الجغرافية وبحسب صلات القربى، أن يعتمدوا أكثر على التعاون المتبادل والتضامن مع مواطنيهم، وهما أساس تقليد حسن العشرة الأرمني.

٢٥ القيادة العامة للجيش، ٧٢٠ ١١/٩ "مذكرة في شأن المقالات المتعلقة بسوريا والصادرة في ٤ و٦ آذار ١٩٢٤، في جريدة "لومانيته"، بقلم ويغان، ٦ آذار ١٩٢٤: الخارجية البريطانية ٣٧١ /٩٠٥٦، شرق سوريا، ١٩٢٣، رسالة (رقم ٥٦) من ساتون القنصل العام في بيروت إلى الخارجية البريطانية، ٢٤ نيسان ١٩٢٣، الورقتان ٥٠-٥١.

٢٦ "تقرير السيد كارل حول وضع الأرمن في سوريا"، وثيقة سابقة، ص٦.

ويبدو أن المفوضية العليا الفرنسية سارعت إلى تقدير أسباب هذا المسلك الاجتماعي المميز للاجئين الأرمن في سوريا ولبنان. فعوض أن يحاربها المسؤولون الفرنسيون ويفرضوا على هذه الجماعات سياستها الإسكانية الخاصة، قرروا، في نهاية المطاف، مواكبة هذه الحركة. وفي هذا الصدد، أدلى أحد ضباط شعبة المخابرات الفرنسية، عام ١٩٢٩، بالشهادة التالية:

«لقد دار النقاش طويلاً بقصد معرفة ما إذا كان من الملائم تجميع الأرمن، أو من الأفضل بعثرتهم إلى أقصى حد، بحيث يتم دمجهم في صلب الجماعة اللبنانية. وقد دلت التجارب على أن الأرمن ظهروا بمظهر العصاة على كل محاولة لدمجهم، وظلوا، على العكس، متمسكين بالتجمع في ما بينهم، وبالحفاظ على لغتهم وعاداتهم وطباعهم، لذا بدا من الأفضل أن يجمعوا في أحياء قائمة بمعظمها في منطقة النهر (نهر بيروت)، حيث تعتبر الأراضي زهيدة الثمن نسبيا»[٢٧].

الواقع أن المسؤولين الفرنسيين أظهروا، خلال النصف الثاني من العشرينات، رغبة حقيقية في إسكان الأرمن نهائياً في المناطق الخاضعة للانتداب. وكان العنصر الأرمني قد أصبح عندئذ أداة ضرورية لتعزيز السلطة الانتدابية الفرنسية في سوريا ولبنان. وقد تحقق ذلك خصوصاً أثناء الانتخابات التي أجريت في غضون العشرينات، والتي شهدت الطائفة الأرمنية تقترع بكثافة لمصلحة المرشحين المؤيدين للنظام الانتدابي. لهذا السبب، في نظر دولة الانتداب، كان لتصفية مخيمات اللاجيئين وتثبيت الأرمن النهائي في أحياء جديدة أو في قرى، أبعد من الجانب الإنساني، أولوية سياسية.

وثمة حادثة تدل على الأهمية التي كانت المفوضية العليا في بيروت تعلقها على تثبيت اللاجئين الأرمن النهائي في سوريا ولبنان. ففي مطلع ١٩٢٦، بينما كان مشروع إسكان الأرمن في طور التكوين، والمفوضية العليا الفرنسية أعطت موافقتها إلى عصبة الأمم على بناء مساكن حجرية للاجئين الأرمن، أبدى الأمين العام لوزارة الخارجية الفرنسية، فيليب برتولو، تحفظاته ولم يتردد في مقارنة هذا المشروع بالبرنامج الصهيوني الذي بوشر تنفيذه في فلسطين. ففي رسالته الموجهة إلى المفوضية العليا في بيروت، أكد بشيء من القلق، أن هذا المشروع سيفضي حتى إلى إنشاء أرمينيا صغرى، ويمكنه بالتالي أن يثير مقاومة عنيفة في البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي[٢٨]. وتستحق إجابة الإدارة البيروتية أن نتوقف عندها. فأمام هذه المخاوف غير المبررة، وجدت المفوضية العليا نفسها مرغمة على أن تكشف النقاب أمام رؤسائها المباشرين عن الفوائد السياسية التي من شأن مخطط التثبيت أن يوفرها للسلطة الانتدابية. وتشكل رسالة رفّي، وهو المفوض السامي بالوكالة، المؤرخة في ١٢ تشرين الأول ١٩٢٦، ملخصاً رسمياً عن الإيديولوجية الاستعمارية الفرنسية التي استخدمت اللاجئين الأرمن منذ نهاية الحرب العالمية الأولى لتحقيق غايات استراتيجية:

«[...] لا يخفى عليّ أن بعض العناصر الحكومية اللبنانية — السورية تعارض بصورة منتظمة كل عمل إغاثة يكون لمصلحة اللاجئين، وبخاصة اللاجئين الأرمن، الذين أصبحوا مع ذلك، وبحكم معاهدة لوزان، مواطنين لها. إلاّ أن ما لا ريب فيه، رغم اللغط الذي تثيره تلك العناصر، أن جماهير الشعب، وحتى المسلمة منها، لا تشاطرها عداوتها.

«إن التخلي عن كيليكيا، في أواخر ١٩٢١، كان السبب الرئيسي لهجرتهم إلى الأراضي السورية. وقد تم منذئذ تقديم مساعدة فعالة للغاية إليهم، ولكنها لم تكن بالقدر الكافي [...].

«وعدا هذه الأسباب ذات الطابع الأخلاقي، يهمنا جداً، من الناحية السياسية كما من الناحية العسكرية [...] أن نسعى إلى أن نحافظ في لبنان على الأرمن الذين لجأوا اليه، والذين سيعززون العنصر المسيحي بشكل مجد»[٢٩].

٢٧ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، "الانتداب على سوريا–لبنان"، الدفعة الأولى، المكتب السياسي، رقم ٥٧٣. "مذكرة بخصوص الأرمن". بقلم قائد كتيبة "تومانج"، بيروت، تشرين الأول ١٩٢٩، ص. ٢.

٢٨ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨–١٩٤٠، أرمينيا، الجزء ١٩. رسالة من برتولو إلى المفوض السامي في بيروت، ٢٠ أيار ١٩٢٦، باريس، الورقة ٢٦.

٢٩ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨–١٩٤٠، أرمينيا، الجزء ١٩، رسالة رقم ٦٢٩ من رفّي، المفوض السامي بالوكالة إلى وزير الخارجية، ١٢ تشرين الأول ١٩٢٦، بيروت، الورقتان ٨٢–٨٣.



نور مرعش، برج حمود في الثلاثينات. إنه أول حي أرمني يشيد في برج حمود. تم شراء الأرض في ١٩٢٩ وبدأت أعمال البناء الأولى منذ ١٩٣٠. وخلال الأعوام التالية، استقر، في هذا الحي الجديد، بضعة آلاف من الأرمن كانوا يسكنون بداية في مخيم بيروت الكبير، وهم خصوصاً من مواليد مرعش وزيتون وفندجاك.
مجموعة م.ن.أ

وواضح أن المسؤولين الفرنسيين كانوا يتمنون، لهذا السبب، تسريع عمليات إسكان الأرمن النهائي، خصوصاً أن حركة الهجرة الكثيفة باتجاه فرنسا والأرجنتين والبرازيل قد قلصت كثيراً عدد اللاجئين إلى سوريا ولبنان خلال العشرينات. ومن جهة أخرى، أعلنت فرنسا، بصورة غير رسمية، أنها تعارض نقل اللاجئين الأرمن من الأراضي السورية واللبنانية إلى أرمينيا السوفياتية. وفي سياق التفكير نفسه، منعت المفوضية العليا الفرنسية في بيروت نشاط لجنة الإغاثة الأرمنية في سوريا ولبنان. هذه المؤسسة، التي أنشئت في يريفان في أيلول ١٩٢١، كانت مهمتها، بعدما أمست عاملاً فعالاً من عوامل التأثير السوفياتي، أن تؤسس لها فروعاً في عالم الشتات الأرمني وتطلق حملة اكتتاب لإعادة بناء أرمينيا السوفياتية. وينم منع نشاطات لجنة الإغاثة الأرمنية في الأراضي السورية واللبنانية، من بين أمور أخرى، عن رغبة فرنسا في الاحتفاظ بالجماعة الأرمنية محلياً واستخدامها لمصلحة استراتيجيتها الخاصة، استراتيجية الاحتلال.

إلى ذلك، تجدر الإشارة إلى أن مشروع إسكان الأرمن النهائي كان يلبي أولويات أخرى. إذ يبدو أن قادة الشتات الأرمن كانوا أخيراً مقتنعين بفوائد إسكان الأرمن النهائي في سوريا ولبنان. وإذا كانت بعض المنظمات والجمعيات الأرمنية قد استنفرت قواها في العشرينات، بالتعاون مع المفوضية العليا للاجئين في عصبة الأمم، بغية إعادة بناء أرمينيا السوفياتية، وأطلقت حملات اكتتاب في العديد من الدول لتمويل إنشاء قرى جديدة، وخصوصاً بلدات، قادرة على استيعاب لاجئي عالم الشتات الأرمني، فإن تعاونها مع أرمينيا السوفياتية لم يحقق النتائج المرجوة، وتراءى للكثير من المنظمات أن التجربة كانت حتى مؤلمة. فغالباً ما اصطدمت مؤسسات الشتات، التي كانت تعتبر إعادة بناء أرمينيا أولوية، بتشدد النظام السوفياتي الإيديولوجي، وبالفساد المستشري والبيروقراطية المدققة والدائمة الحضور في كل مكان وعلى مستويات المؤسسات السوفياتية جميعها[٣٠]. لذلك حاولت هذه المنظمات، بمواصلة تعاونها مع يريفان مطلع الثلاثينات، العثور على حلول أخرى لتسوية مسألة اللاجئين. في هذه الظروف، وجدت سياسة إسكان الأرمن، التي يتبعها المفوض السامي الفرنسي، دعماً مباشراً لها لدى مجالس الأرمنية؛ وفتحت، حينذاك، ورشاً كبيرة لبناء أحياء في المدن، ولا سيما في بيروت وحلب، مستنفرة بذلك جميع طبقات الشعب الأرمني.

٣٠ انظر بخصوص هذا الموضوع ف. طاشجيان، "الجمعية وأرمينيا السوفياتية": التعاون مع النظام السوفياتي من أجل إعادة بناء أرمينيا، مهمة صعبة"، في "قرن من تاريخ الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية"، الجزء ١، ١٩٠٦-١٩٤١، تحت إشراف ريمون ه. كيفوركيان وفاهه طاشجيان، القاهرة – باريس – نيويورك، ٢٠٠٦.

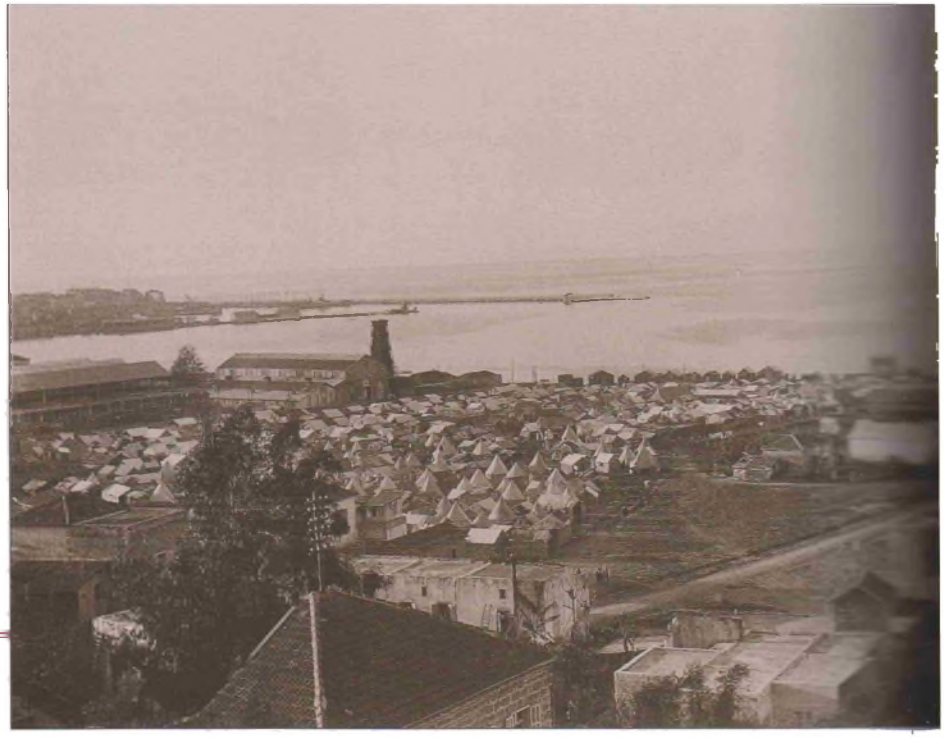


المرحلة الأولى
من مشروع إسكان الأرمن النهائي في سوريا ولبنان

في رسالة مؤرخة في حزيران ١٩٢٦، دعا هنري دوجوفنيل، المعين مفوضاً سامياً في سوريا و لبنان، مكتب العمل الدولي كما المفوضية العليا للاجئين، وهما مؤسستان ملحقتان بعصبة الأمم، إلى أن يعملا بالتعاون مع سلطات الانتداب على الإسكان النهائي للاجئين الأرمن المتواجدين آنذاك في سوريا ولبنان [٣١]. وتجدر الإشارة إلى أن عصبة الأمم كانت، في الوقت عينه، تواصل تحقيق مشروع ضخم بعث الروح فيه ف. نانسن، هو مشروع إعادة إسكان أرمن الشتات في أرمينيا السوفياتية. غير أن مسؤولي عصبة الأمم لم يتمكنوا من رفض الاقتراح الذي تقدمت به المفوضية العليا الفرنسية نظراً إلى قيام وضع ملح يقضي بوضع حد لحالة عدم الاستقرار في المخيمات، وإلى اصطدام مشروع الإعمار في أرمينيا السوفياتية وتعثره بعقبات شتى. قبلت عصبة الأمم التعاون مع سلطات الانتداب وأوفدت، في السنة ذاتها، جورج بورنيه، ممثل اللجنة الدولية للصليب الأحمر حتى تاريخه في سوريا ولبنان، إلى المفوضية العليا الفرنسية لإدارة العمليات [٣٢]. كما تعهدت مؤسسات أرمنية بالمساهمة في المشروع. وقد شارك آنذاك ليفون باشاليان، ممثل اللجنة المركزية للاجئين الأرمن، وهي هيئة مرتبطة بالجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، في اجتماعات عصبة الأمم المخصصة لمسألة إسكان اللاجئين الأرمن في سوريا ولبنان. ونقرأ في تقرير مكتب العمل الدولي في تشرين الثاني ١٩٢٦:

«لقد أشار باشاليان إلى أن منظمته كانت تعطي الأولوية لتحقيق المشروع الرامي إلى تثبيت اللاجئين الأرمن في أرمينيا السوفياتية. ويُعتبر هذا المخطط الوحيد

٣١ أرشيف مكتبة نوبار، عصبة الأمم، ١٩٢٦، "اللجنة الفرعية الأرمنية للجنة الاستشارية من أجل اللاجئين". محضر الاجتماع الأول المنعقد في باريس، ٦ تشرين الثاني ١٩٢٦، باريس، ص. ١.
٣٢ م. ن.، ص. ٢.



جمع مشهدين بانوراميين لمخيم مار مخيم، وقد التقطت الصورة انطلاقاً من تلة الأشرفية، عام ١٩٢٣. مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

القادر على تقديم حل نهائي للمسألة الأرمنية. ومع ذلك، [فإن منظمته] على اقتناع بأن مشروع بريفان، الذي قد يمتد لفترة طويلة، لا يسعه أن يؤدي إلى نتائج ملموسة، وفي أحسن الأحوال، فقط جزء من اللاجئين المتواجدين في اليونان يمكن أن يكون معنياً بالأمر. لهذا السبب، تتلقى منظمته بإيجابية خبر تشكيل اللجنة الجديدة وتعلن أنها مستعدة لدعمها»[٣٣].

من الواضح أنه، على غرار عصبة الأمم، لم يكن تعهد المنظمات المشاركة في هذه العمليات الأولية الهادفة إلى تثبيت الأرمن في سوريا ولبنان كاملاً. فالجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، وهي أهم منظمة إنسانية أرمنية في ذلك الحين، ومع أنها قررت المساهمة في المشروع اللبناني — السوري، استمرت في استنفار شبكتها العالمية من أجل تمويل عمليات البناء في أرمينيا السوفياتية، وذلك بغية استيعاب لاجئي عالم الشتات. تفصيل آخر له دلالته هو أن مسألة تثبيت اللاجئين في الأراضي السورية واللبنانية، نادراً ما أدرج، حتى الثلاثينات، على جدول أعمال اجتماعات المجلس المركزي الباريسي للمنظمة. وبتعبير آخر، كانت الأولوية بالنسبة إلى الجمعية، التي لم تتحفظ على المشروع السوري — اللبناني، تقوم على استخدام القسم المهم من طاقاتها البشرية والمالية في أرمينيا السوفياتية.

إن الاتفاقية الموقعة بين مختلف المعنيين وسلطات الانتداب لم تبد مع ذلك أقل صلابة، وسمحت باتخاذ الإجراءات الأولى العملية. وهكذا أفرجت الحكومة اللبنانية، تلبية لطلب المفوضية العليا الفرنسية عام ١٩٢٦، عن مبلغ ثلاثة ملايين فرنك (حوالي ٢٤٠٠٠ استرليني) كمال متداول، مقتطع من أموال الدين العثماني المجمدة من أجل بناء أحياء سكنية في بيروت تُخصص للاجئين الأرمن المقيمين في مخيمات هذه المدينة[٣٤].

٣٣ م. ن.، ص ١٠.

٣٤ أرشيف مكتبة نوبار، تقرير ت. ف. جونسن، المفوض السامي المساعد لشؤون اللاجئين ورئيس شعبة اللاجئين في المكتب الوطني للعمل، ٣١ كانون الأول ١٩٢٦، جنيف، ص. ٢٤؛ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا — لبنان، الدفعة الأولى، المكتب السياسي، رقم ٥٧٣. "مذكرة في شأن الأرمن". صادرة عن قائد كتيبة درمانج. بيروت، تشرين الأول ١٩٢٩، ص. ٣.

وسرعان ما اتُخذت إجراءات عمليــة أخرى، إذ شكلت المفوضية العليـــا، بموجب القرار رقم ٦٩٤ تاريخ ٣١ كانون الأول ١٩٢٦، لجنة مركزيـــة لإغاثة اللاجئين الأرمن مؤلفـــة من ممثلين عن مختلف المنظمات والمؤسسات المشاركـــة في هذه العملية، وقد أُلحقت بها ثلاث لجان فرعيـــة محلية، هي لجان بيروت، وحلب والاسكندرون[٣٥]: في بيروت بريفا — ابو عرض (رئيس ومفتش عام للخدمات الإداريـــة)، وكوسريه (طبيب رئيسي ومستشار تقني للخدمات الصحيـــة والأمانة العامة)، وأحدب بك (مدير مدينـــة بيروت)، وجورج بورنيه، والأب أنطوان بوادوبار (مرسل يسوعي)، وشارل و. فوهل (مندوب جمعيـــة إغاثة الشرق الأدنى)، والدكتور بغداسار ملكونيان (مندوب الجمعيـــة الخيرية العمومية الأرمنيـــة)، ورافال (مساعد المفتش العام للخدمات الصحية والإعانة العامـــة)، واودينو (مستشار الأشغال العامـــة في بيروت)؛ وفي حلب، ل. روكلو (رئيس ومندوب المفوض السامي)، وسليم جمبارد (نائب)، وداغورن (مستشار للصحة والإعانة العامـــة)، وأرمناك مظلوميان (رئيس لجنـــة حلب في الجمعيـــة الخيرية العمومية الأرمنيـــة)؛ وبرونو (أمين عام وفد حلب)[٣٦] — أما نشاط اللحنة الفرعيـــة في الاسكندرون فسيُعالج لاحقاً في مقال لميشال بابودجيان.

كانت اللجنة المركزيـــة تخضع لرقابة السلطات الانتدابية برئاسة بول فرشيار دورفي، أمين عام المفوضية العليا، ونيابـــة الرئيس الطبيب ف. دوغيه. وأوكل تنفيذ البرنامج إلى ج. بورنيه، وقد عُيِّن أيضاً مندوباً عن مكتب العمل الدولي في سوريا ولبنان. وسرعان ما تبين أن هذه الشخصيـــة جديرة بالقيام بالمهمة. وقد تميزت بنشاطها الدؤوب ميدانياً، واتضح كذلك أنها ذات خبرة باستراتيجيـــة المفوضية العليا في بيروت في ما يتصل بإحلال الأرمن في سوريا ولبنان. وفي كانون الأول ١٩٢٧، أبلغ المفوض السامي هنري بونسو الخارجيـــة الفرنسية ببالغ السرور عن الولاء الذي عبر عنه مندوب عصبـــة الأمم، قائلاً:

«إن مندوب مكتب العمل الدولي الحالي، السيد بورنيه، وهو سويسري الأصل، وفّر كل الظروف التي تكفل وجهـــة النظر هذه»[٣٧].

كما ساهمت «اللجنة المتحدة البريطانيـــة الأرمنية»، التي تضم منظمات بريطانيـــة مثل مؤسسة اللورد مايور، ومؤسسة «أنقذوا الأطفال»، وأصدقاء أرمينيا وجمعيـــة الأصدقاء، في منح برنامج دمج اللاجئين الأرمن هبة أولية بقيمـــة ٥٠٠٠ استرليني، وأفرجت المفوضية العليا للاجئين التابعة لعصبـــة الأمم عن ٣٠٠٠ استرليني[٣٨]. وتطوعت أيضاً في هذا المشروع منظمات إنسانية دانمركيـــة، وبلجيكية، وألمانيـــة، ونروجية، وفرنسية وأميركية، وكذلك لجنة الصليب الأحمر الدوليـــة. أما من الجانب الأرمني، فقد قرر المجلس المركزي للجمعيـــة الخيرية العمومية الأرمنيـــة، في آذار ١٩٢٧، أن يساهم بنسبة ١٠٪ من مجموع المبالغ التي جمعتها «اللجنـــة المتحدة البريطانيـــة الأرمنية» لإنجاح هذا العمل[٣٩]. وهكذا، في أيلول ١٩٢٩، منحت الجمعيـــة الخيرية العمومية الأرمنيـــة هذا المشروع مبلغ ١٧٥٠ استرليني، أي ما نسبته عشرة بالمئـــة من الـــ ١٧٥٥٠ استرليني التي جمعتها المنظمات الإنسانيـــة البريطانية[٤٠].

وكان لمشروع الإسكان وجهان مختلفان: بناء أحياء حضرية في مدن كبيروت، وحلب ودمشق ؛ وبناء مستعمرات زراعيـــة في سنجق الاسكندرون وفي المناطق الساحليـــة من جنوب لبنان. وارتأى المشرفون على المشروع على الفور، مستفيدين من تجربة الأعوام السابقـــة، بناء قرى وأحياء حضرية يقطنها أرمن بأكملها. في البدايـــة، كان متوقعاً نقل قرابة ٢٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ لاجىء أرمني كانوا لا يزالون، حتى حينه، يعيشون داخل المخيمات المؤقتـــة في بيروت والاسكندرون وحلب، إلى المراكز السكنيـــة الجديدة[٤١] — على أن العدد

٣٥ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨-١٩٤٠، أرمينيا، المجلد ٢١، المفوضية الفرنسية العليا، قرار رقم ٦٩٤ يحمل توقيع بونسو، ٣١ كانون الأول ١٩٢٦، بيروت، الورقتان ٥٩، ٦٣.

٣٦ م. ن.؛ دزوفينار كيفونيان، اللاجئون والسياسة الإنسانية: "الممثلون الأوروبيون والمسرح الشرق أوسطي في فترة ما بين الحربين"، باريس ٢٠٠٤، ص. ٤٧١؛ "إسكان اللاجئين الأرمن في سوريا"، اريف رقم ٢٤٦٣، ٢٣ آذار ١٩٢٧.

٣٧ مركز الأرشيف الاقتصادي والمالي، رسالة المفوض السامي في سوريا ولبنان إلى وزير الخارجية، بيروت، ٢٨ كانون الأول ١٩٢٧.

٣٨ تقرير جونسن، ٣١ كانون الأول ١٩٢٦، وثيقة سابقة، ص. ٨.

٣٩ أرشيف مكتبة نوبار، محضر المجلس المركزي، الجلسة ٩٠، ٥ آذار ١٩٢٧، باريس، الورقة ٤٢٦.

٤٠ أرشيف مكتبة نوبار، رسالة رقم ١٠٠٦٠ من ج. سينابيان، المدير المفوض لمجلس الجمعية المركزي إلى الميجور ت. ف. جونسن، باريس، ٤ أيلول ١٩٢٩.

٤١ م. ن.، ص. ٦-٧.

لإجمالي للأرمن في سوريا ولبنان عام ١٩٢٧، كان يُقدّر بـــ ٩٠٠٠٠ شخص[42]. توضيح آخر مهم: قررت اللجنة المركزية أن المبالغ المجموعة من أجل تنفيذ البرنامج لن تستعمل عموماً من دون أمل الوفاء بها. وبتعبير آخر: «[...] كل سلفة مالية، أو أماكن سكنية أو مواد بناء يتم إقراضها للاجئين يسدّدها المنتفعون بأقساط سنوية أو شهرية. وينبغي إعادة استعمال الأموال المستوفاة على هذا النحو وفقاً للشروط ذاتها»[43].

من دون أدنى ريب، تمثّل أول نجاح حققته اللجنة المركزية في الإقدام، مطلع ١٩٢٧، على شراء قطعتي أرض مساحتهما ١٤٥٠٠ و٩٠٠٠ م٢، قائمتين على تلة الأشرفية في بيروت. وقد جرى شراؤهما بسعر ٩,٥ قروش للذراع (أي ما يعادل ٠,٦٦ م٢). وكانت هاتان المساحتان مخصصتين لإسكان بضعة آلاف من الأرمن، وفُضّل أن يكونوا حرفيين عاشوا، حتى ذلك الحين، في مخيم بيروت[44]. وبحسب فارجابديان، كانت عشرات من العائلات الأرمنية المصابة بالملاريا قد اضطرت إلى مغادرة مخيم «الكبير»، أوائل ١٩٢٧، واستقرت في «كرم الزيتون»، وهو موضع غير مأهول يقع على منحدر الأشرفية الشمالي[45]. وفي كانون الأول ١٩٢٩، تم تجهيز أكثر من خمسة وعشرين سرادقاً تؤوي حوالي مائتي عائلة. كل سرادق منها كان مقسماً إلى ثماني شقق، تضم كل واحدة غرفتين ومطبخاً صغيراً ودورة مياه ومدخلاً[46]. واستمر بناء هذه المراكز الحضرية خلال الأعوام ١٩٢٧ – ١٩٣٠، مما سمح للاجئين الأرمن بالاستقرار في الأحياء السكنية الجديدة التالية: «السرادقات البيض»؛ و«القطعة رقم ٦٠٣»؛ و«منحدرات قرمز كازرك» أو هايكاشين التي دعيت لاحقاً هيشين؛ وغبيلي (المدعوة أيضاً «كرم الزيتون» أو «سابت دورماز». وأفرجت الحكومة اللبنانية عن مبلغ ٢٥٠٠٠ استرليني خصص لإنجاز هذا المشروع[47]. كذلك امتد مخطط إسكان المرحلين إلى حلب، حيث تم، عام ١٩٢٨، شراء قطعتي أرض، الأولى مساحتها ٥١٣٠٠ م٢ والثانية ٦٠٠٠٠ م٢، تقعان شمال المدينة في الميدان الكبير (الذي أطلق عليه الأرمن اسم «نور كيوغ»)، وذلك بفضل سلفة قدرها ٢٠٠٠ استرليني اقتطعت من مال اللجنـــة المركزية المتداول[48]. وكانت هاتان المساحتان تقومان في الضواحي المباشرة لمخيم السليمانية الأرمني. وفي خريف ١٩٢٩، جرى إسكان ألفين وخمسمئة شخص في البيوت الجديدة[49]. أما في دمشق، ففي عام ١٩٢٩، قدمت الدولة السورية إلى اللجنـــة المركزية قرضاً بقيـــمة ٢١٠٠ استرليني، استُعمل فوراً لشراء قطعة أرض مساحتها ١٥٠٠٠ م٢ تقريباً تقع خارج أسوار باب شرقي، وسدد المقيمون الجدد المبلغ خلال الأعوام اللاحقـــة. عندها نقلت إليها مئة عائلة من مخيم الصوفانية[50].

على هذا المنوال، من ١٩٢٧ إلى نهاية ١٩٢٩ أعيد إسكان ثمانيـــة آلاف لاجىء تقريباً في المستوطنات الزراعية أو في الأحياء الجديدة القائمة في مجمعات بيروت، وحلب، والاسكندرون ودمشق. ويبدو أن النجاح النسبي لهذه المرحلـــة الأولى مدين بصورة كبيرة لقدرة اللاجئين على تسديد السلفات التي قدمتها اللجنة المركزية، رغم أن الأموال المجموعـــة لم تشكل مبالغ طائلة. وتقرير جورج بورنيه في هذا الشأن واضح كل الوضوح:

«من ١٩٢٧ إلى ١٩٣٠، لم يكن وضع اللاجئين المادي سيئاً. فالعمل كان وفيراً ومدراً لربح وفير. والأرمن، المعروفون بنشاطهم واقتصادهم، كانوا يعيشون في أكواخ من دون أن يدفعوا إيجاراً ولا ضرائب، وقد كانت الحيـــاة هناك أقل كلفة منها في المدينـــة؛ وهكذا تمكن الأرمن من أن يدخروا بعض المـــال [...] واللاجئون، الذين اشتروا قطع الأراضي الأولى، استطاعوا أن يبنوا بيوتهم بمالهم الخاص تقريبـــاً؛ أما الآخرون فقد ابتاعوا قطع أرض وتسلموا مواد بناء يمكن تسديد قيمتها بأقساط سنوية على مدى ٤ أو ٥ أعوام»[51].

٤٢ أرشيف مكتبة نوبار. عصبة الأمم. [illegible]، ١٩٢٧، ٤٨، ٢٨. "لاجئون روس وأرمن: تقرير في الجلسة العادية الثامنة للمجلس"، ٥ أيلول ١٩٢٧، جنيف ص. ٥.

٤٣ أرشيف مكتبة نوبار. "تقرير سنوي مصور لمكتب نانسن الدولي من أجل اللاجئين. التشغيل في سوريا ولبنان. ١٩٣٤"، من إعداد ج. بورنيه، ص. ١.

٤٤ أرشيف مكتبة نوبار. مقتطفات من تقرير لجورج بورنيه، ١٢ شباط ١٩٢٧، ص. ٦؛ أرشيفات بوغوص نوبار. رسالة من لجنة مصر إلى لجنة حلب، ٧ تموز ١٩٢٧.

٤٥ فارجابديان، م. س.، ص. ٥١٢–٥١٣.

٤٦ أرشيف مكتبة نوبار. المندوبية العليا للاجئين. اللجنة المركزية الأرمنية، جلسة ٢ كانون الأول ١٩٢٩، جنيف؛ أرشيفات بوغوص نوبار. تقرير ليون باشاليان، ١٣ آذار ١٩٢٨، باريس، ص. ٢.

٤٧ تقرير سنوي مصور لمكتب نانسن الدولي. وثيقة سابقة.

٤٨ تقرير باشاليان، ١٣ آذار ١٩٢٨، وثيقة سابقة، ص. ٢.

٤٩ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت. الانتداب على سوريا – لبنان. الدفعة الأولى. المكتب السياسي. تقرير يتعلق بأرمن ولاية حلب أرسله قائد كتيبة كوفير، رئيس شعبة مخابرات ولاية حلب إلى رئيس شعبة مخابرات دولة سوريا، حلب ٢٨ أيلول ١٩٢٩، ص ٢.

٥٠ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت. الانتداب على سوريا – لبنان. الدفعة الأولى. المكتب السياسي، رقم ٥٧٣. "تقرير حول وضع مستوطنات الأرمن المهاجرين في سنجق دمشق". أيلول ١٩٢٩، ص. ٢؛ أرشيفات بوغوص نوبار. رسالة من باشاليان إلى جونسن، ١٥ آذار ١٩٢٩. باريس.

٥١ التقرير السنوي المصور لمكتب جونسن الدولي. وثيقة سابقة. ص. ٢.

غير أن الازمة الاقتصاديـــة العالميـــة أصابت، ابتداء من ١٩٣٠، سوريا ولبنان. فكتب بورنيه في هذا الصدد:

«[...] بدأت الأعمال تتقلص والرواتب تتراجع بقوة؛ وعمال البناء، والبناؤون، والنجارون لم يجدوا من يستخدمهم [...]. فكان لهذا الوضع ارتدادات أليمة على عملية إسكان اللاجئين. فمن ناحية، كلفتنا الأبنية مبالغ أكبر لأنه توجب علينا أن تقدم سلفات أهم لمواد البناء، ومن ناحية ثانية قل تسديد القروض كثيراً؛ واللاجئون، الذين تضاءلت أرباحهم، لم يكن بإمكانهم أن يدفعوا الأقساط الشهرية المحددة على أساس أرباحهم قبل ١٩٣١»[٥٢].

وعليه، في خضم الأزمة الاقتصادية العالمية، كان برنامج إسكان الأرمن في سوريا ولبنان عام ١٩٣٠ يحتاج إلى نسمة جديدة لكي ينتعش ويتطور.

المرحلة الأخيرة من مشروع إسكان الأرمن: الإنتهاء من بناء الأحياء الحضرية في بيروت وحلب ودمشق

تميزت المرحلة الثانية من هذا المشروع بتعهد جد قوي التزمت به المنظمات الأرمنية نفسها. فاللاجئون المتنظمون في جمعيات مناطقية أقاموا شبكات محلية وإقليميـــة وحتى دولية للتعاون المشترك. وأطلقت كل منظمة حملـــة خاصة بها للاكتتاب، ودفعت المبالغ المجموعة مباشرة لمشاريع تهدف إلى شراء الأراضي، كما إلى تشييد المدارس أو الكنائس وسط أحياء حلب أو بيروت الجديدة. عندها برهن الأرمن عن دينامية معينة بدت العامل الرئيسي الذي أدى إلى نجاح المرحلـــة الأخيرة من المشروع.

في أوائل ١٩٣٠، ربط أرمني ذائع الصيت اسمه بنجاح مشروع إسكان اللاجئين الأرمن في سوريا ولبنان. إنه كالوست كولبنكيان الذي تولى، منذ تشرين الأول ١٩٣٠، رئاسة الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، وسرعان ما أعطى انطلاقة جديدة للعمل الإنساني المنجز في الأراضي السورية واللبنانية. ودعا قطب البترول هذا إلى مقر إقامته في باريس هنري بونسو، المفوض السامي في سوريا ولبنان، كما دعا مسؤولي وزارة الخارجية، وتواصلت الاجتماعات الرسمية خلال الأسابيع التالية. كذلك اجتمع كولبنكيان بماكس هوبر، رئيس مكتب نانسن التابع لعصبة الأمم، يرافقه الميحور ت.ف. جونسن وجورج بورنيه، وهما على التوالي أمين عام مكتب نانسن ومندوب عام عصبة الأمم المكلف إسكان الأرمن في سوريا ولبنان، وحدد كولبنكيان، أثناء هذه المفاوضات التي جرت في صيف ١٩٣١، وباسم الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، الخطوط العريضة لمشاركة منظمته في برنامج إسكان الأرمن النهائي في الأراضي السورية واللبنانية.

كان تعهد كولبنكيان والجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، بالنسبة إلى مكتب نانسن وإلى المفوض السامي الفرنسي، بمثابة طوق نجاة في خضم الأزمة الاقتصادية وتقلص الميزانية اللذين يهددان استئناف برنامج البناء في سوريا ولبنان. فالمنظمة الأرمنية، التي كانت تركز حتى ذلك التاريخ على إعادة بناء أرمينيا السوفياتية، قررت آنذاك أن تعاود توجيه استراتيجيتها الإنسانية. وجاء تقرير اجتماع المجلس المركزي للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في ١ تموز ١٩٣١ صريحاً في هذا الخصوص:

«[...] [الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية] سوف تشارك بنشاط أكبر في عملية إسكان لاجئي سوريا، التي بوشر العمل بها في رعاية عصبة الأمم [...]»[٥٣]. وبكلام آخر، تعهدت هذه الأخيرة، مذذاك، بأن توظف إمكاناتها المالية والإنسانية على نطاق أوسع في العمليات الرامية إلى إلغاء مخيمات اللاجئين المؤقتة وإسكان هذه الجماعات في أحياء جديدة مشيدة بالحجر.

٥٢ التقرير السنوي المصور لمكتب جونسن الدولي، وثيقة سابقة.

٥٣ أرشيف مكتبة نوبار، محضر اجتماع مجلس الجمعية المركزي، الجلسة ٢١١، ١ تموز ١٩٣١، باريس، الورقة ١١٨٩.

كنا من مكان آخر: ما الفارق بين المدينة وهذا الحي؟ وكيف يمكن أن يكون حينا في هذه الفترة من الزمن؟ شارعان أو ثلاثة متوازية تنكشف عليها شوارع أخرى تمتد من واد إلى واد، وكنيسة بمدرستها الملاصقة، وأشجار مغبرة في الشوارع، ونساء جالسات تحت أشجارها وعجائز طاعنون في السن، أفواههم مليئة بالدخان ومثقلة بزحمة كلمات وتمائم وروماتزم وأفكار بالية. وأغلب الظن أن مناخ المحيط قد انتقل إلى هذه التلال كي نتمكن من العيش معاً: جميع القرى، جميع المدن كانت مركزة، بصورة مصغرة، في هذه المساحة الصخرية، في ربيع السنونوات، تحت لهيب الصيف، أثناء أمطار الشتاء التي تتخذ شكل خريف دائم. وكانت الضاحية نوعاً من أرض بائرة ومتوحشة بقيت بعيدة عن المكان الأساسي، على غرار ريف داخل المقاطعة، بينما كانت المدينة، وراء الطرقات، تسمح من بعيد برؤية بيوتها ومبانيها وأسواقها وملامح الجمال فيها.

كريكور بلاديان، «حصاد»، حلب ٢٠٠٢، ص



قطعة الأرض رقم ٦٠٣: حي أرمني على تلة الأشرفية في الثلاثينات. وقد بدأ تشييد هذا الحي المديني في ١٩٢٧.
مجموعة م.ن.ا

عندها أفاد التعاون بين مختلف المؤسسات المشاركة في مشروع إسكان الأرمن من هيئة إدارية جديدة. وبالواقع أن عصبة الأمم قررت، في أيلول ١٩٣٠، وإثر وفاة ف. نانسن، إنشاء مكتب دولي للاجئين عيدت تسميته بعد شهرين «مكتب نانسن»، كان عليه أن يتولى بالتحديد إسكان اللاجئين الأرمن[٥٤]. ويلاحظ أيضاً أن مراقبة المفوضية العليا الفرنسية لعمليــة إسكان الأرمن أصبحت، ابتداءً من الثلاثينات، أكثر مباشرة، وبخاصة أن الدولة الفرنسية صارت المساهمة الأهم فيها: إذ وافق البرلمان الفرنسي عام ١٩٣٠، وبعد مماطلات طويلة، على منح عصبــة الأمم ٣ ملايين فرنك (٢٤١٥٤ استرليني) تُخصص لعملها من أجل اللاجئين في سوريــا ولبــنان[٥٥].

غير أن هذه المساهمة الفرنسية المهمة لم تكن كافية لإنجاز مشروع إسكان اللاجئين الأرمن الضخم. ففي ١٩٣١، اعتُبر من الضروري أيضاً توظيف ستة ملايين فرنك للتمكن من نقل حوالي ثلاثة آلاف لاجيء، خلال السنتين التاليتين، إلى أحياء مشيدة بالحجر في سوريا ولبنان. والحال أن مكتب نانسن لم يكن يملك سوى نصف هذا المبلغ الذي جادت به الحكومة الفرنسية. وكانت عصبة الأمم تأمل في قرض من الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية بقيمة ١٠٠٠٠ استرليني، قرض مكفول ويمكن تسديده في غضون ستة أعوام، وذلك بغية إتمام جمع الأموال. ولما كان كولبنكيان متحمساً للمشروع، ساهم فيه شخصياً بمبلغ ٣٢٥٠ استرلينياً متمنياً أن يعطي زملاؤه وأصدقاؤه المبلغ المتبقي، وقدره ٦٧٥٠ استرلينياً[٥٦]. غير أن الأزمة العالمية التي أصابت خصوصاً الولايات المتحدة، حيث كان معظم المتبرعين الأرمن الكبار يقيمون حينذاك، جعلت مهمة المجلس المركزي عسيرة، وحالت دون الوفاء بالتزاماته تجاه ممثلي عصبة الأمم[٥٧]. واكتفى المجلس المركزي للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية بدفع نصف المبلغ الموعود به، أي ٥٠٠٠ استرليني، إلى مكتب نانسن، قاطعاً مع ذلك على نفسه عهداً أخلاقياً بتأمين الباقي، ولكن من دون أن يعتبر ذلك واجباً ملزماً[٥٨]. وعلاوة على هذه المساهمة،

٥٤ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨-١٩٤٠، أرمينيا، المجلد ٢٤، "مذكرة من أجل إقامة المكتب الوطني للاجئين في سوريا ولبنان" بيار لوناي، ١ تشرين الثاني ١٩٣٠، باريس، الورقة ١٠٢.

٥٥ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨-١٩٤٠، أرمينيا، المجلد ٢٤، برقية رقم ١٤٧ من بونسو إلى وزارة الخارجية، ٦ آذار ١٩٣٠، بيروت، الورقة ٤٠.

٥٦ محضر اجتماع المجلس المركزي، ١ تموز ١٩٣١، وثيقة سابقة، الورقتان ١١٨٩-١١٩٣.

٥٧ أرشيف مكتبة نوبار، محضر مجلس الجمعية المركزي ٢٢ تموز ١٩٣١، الجلسة ٢١٣، الورقة ١١٩٩.

٥٨ أرشيف مكتبة نوبار، مكتب نانسن. م.س. ١٤-١٩٣١، اللجنة الادارية، دورة استثنائية منعقدة بجنيف ٢٤ ايلول ١٩٣١، "مفاوضات مع الجمعية الخيرية العمومية الارمنية بصدد اشتراكه المالي في توطين اللاجئين الأرمن في سوريا"، ص. ٣-٤؛ أرشيفات مكتبة نوبار، محضر مجلس الجمعية المركزي في ١٧ ايلول ١٩٣١، الورقة ١٢١١.

تعهدت الجمعيـــة الخيرية العموميـــة الأرمنيـــة بتمويل بناء حيين من أحيـــاء برج حمود، وهما: باراشين وكوللاباشين. وقد خصص مقر المنظمـــة الباريسي، في كانون الأول ١٩٣١، ١٥٠٠ استرليني لمكتب نانسن[٥٩]، لإنفاقـــه على المشروع الأول. وكان متوقعـــاً أن تُسدد السلفات المقدمـــة إلى المقيمين في هذا الحي الجديد ويتم توظيف المبـــالغ المسددة مجدداً في توسيع المساكن[٦٠]. أما مشروع كوللاباشين، فقد استطاعت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية تمويله بفضل مساهمة مؤسسة كوللابي كولبنكيان القائمـــة في نيويورك منذ عام ١٩٢٠. هذه المؤسسة التي أنشئت إحياء لذكرى المرحوم كوللابي، ابن عم كالوست كولبنكيان، كان يديرها أفراد آخرون من العائلـــة، منهم هاروتيون ونرسيس كولبنكيان. وقد دفعت للجمعيـــة الخيرية العموميـــة الأرمنيـــة، عام ١٩٣٢، ١٥٠٠٠ دولار (٤١٠٩ استرليني) من أجل بناء حي في لبـــنان يحمل اسم كوللاباشين[٦١].

٥٩ محضر اجتماع المجلس المركزي، ٧ حزيران ١٩٣١، وثيقة سابقة، الورقتان ٤٠٩-٤١٠.

٦٠ معلومات عن الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية بصدد الشركة...» وثيقة سابقة، ص ٣.

٦١ أرشيف مكتبة نوبار، محضر المجلس المركزي في ١٦ أيار ١٩٣٢: الجلسة ١٣٠، الورقة ١٢٧٥.

الأحياء الأرمنية الجديدة في بيروت: برج حمود والضفة الغربية من نهر بيروت

في أواخر ١٩٢٩، كان نحو أربعين ألف أرمني مستقرين في لبـــان، وكان أكبر تجمع للسكان في بيروت، حيث يقيم ثلاثون ألف مواطن، نصفهم ما زال في المخيـــمات[٦٢]. ومنذ ١٩٣٠، شوهد انطلاق حركـــة انتقال سريعة للاجئي المخيمات باتجاه الأحياء الجديدة القائمـــة على تلة الأشرفية، وكذلك باتجاه ضفتي نهر بيروت، حيث بدأ تشييد بعض الأبنيـــة. وكانت سلطات الانتداب قد دمرت، في حزيران ١٩٣٠، ألف كوخ داخل المخيم الكبير، كما في مخيم الكارنتينا، ولكن بقي أكثر من ألف كوخ، يؤوي كل منها من أربعـــة إلى خمسة أشخاص، مثلما هناك ألف وخمسمئة كوخ في مخيم المسلخ[٦٣]. وعدا عن سكان بيروت، كان ثمة ألف وثلاثمئـــة أرمني يقيمون في زحلـــة، وألف وخمسمئة في طرابلس، والباقون موزعون على مراكز حضرية أخرى مثل صور وصيدا أو على القرى[٦٤].

في ١٩٣٠، تركزت جهود مكتب نانسن خصوصاً على الأراضي الواقعـــة على ضفـــة نهر بيروت الشرقيـــة، في موقع يُقال له برج حمود، وهو يكاد يكون غير مأهول ومغطى بأشجار مثمرة وشجيرات أخرى ومستنقعات. ولا يكتم بورنيه إطلاقاً، أثناء لقاءاتـــه بالمسؤولين الأرمن، الأهداف السياسيـــة التي يسعى إليها عبر هذا المخطط. فقد خطّط مندوب عصبـــة الأمم أن يشيد في المكان مدينة أرمنية تستوعب من ثمانيـــة عشر ألف إلى عشرين ألف نسمـــة، بينهم ثلاثة آلاف من غير الأرمن، لها بلديتها الخاصة المؤلفـــة بالضرورة من عناصر أرمنية[٦٥]. ولمشروع برج حمود فائدة مزدوجـــة بالنسبة إلى المفوضية العلـــيا: إنه يسمح لها بالتخلص نهائياً من مخيمات اللاجئين في بيروت، وبإنشاء دائرة انتخابيـــة جديدة في جوار العاصمة اللبنانيـــة تكون مخلصـــة لقضيتها. على هذه القاعدة، بدأ بنـــاء برج حمود بمباركة القادة الأرمن الراضين عن فكرة تجميع الآلاف من هؤلاء المواطنين داخل بيئـــة حضرية جديدة، حيث يشكلون أكثريـــة. وهذا يفسر بلا شك لماذا كانت اتحادات المواطنين الأرمن، وبخاصـــة تلك القائمـــة في الولايات المتحدة، السباقـــة في الاندفاع إلى شراء أراض واقعـــة على الضفـــة اليمنى لنهر بيروت، وبناء أحياء سكنيـــة بالتعاون الوثيق مع بورنيه.

٦٢ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا-لبنان، الدفعة الأولى، المكتب السياسي، رقم ٣٧٢، مذكرة بشأن الأرمن، صادرة عن [illegible]، بيروت، تشرين الأول ١٩٢٩، ص ١٧.

٦٣ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨-١٩٤٠، المجلد ٣٢، تقرير الطبيب [illegible]، مفتش عام الخدمات الصحية [illegible] الصحة العامة، إلى المفوض السامي بونسو، ٢٥ حزيران ١٩٣٠، بيروت، الورقة ٤٠.

٦٤ مذكرة في شأن الأرمن، صادرة عن [illegible]، وثيقة سابقة، ص ١٧.

٦٥ أرشيف مكتبة نوبار، رسالة من [illegible] إلى [illegible]، بيروت، ١٠ حزيران ١٩٣٢؛ ورسالة من [illegible] إلى [illegible]، بيروت، ٢٨ تموز ١٩٣٢.





«الأجنحة البيضاء»: حي أرمني على تلة الأشرفية في الثلاثينات. بوشر ببناء هذا الحي المديني في ١٩٢٧.
مجموعة م.ن.ا

حي جديد قيد البناء في بيروت، كرم الزيتون.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

والمبادرة الأولى في هذا المضمار تُعزى إلى اتحاد مرعش المناطقي، الذي ابتاع، عام ١٩٢٩، قطعة أرض تناهز مساحتها ١٠٠٠٠٠ م٢، وانطلق، منذ ١٩٣٠، في بناء حي أطلق عليه اسم «نور مراش» (مرعش الجديدة) في برج حمود[٦٦]. وفي أثناء الأعوام التالية، استقر بضعة آلاف من الأرمن، القاطنين بداية في مخيم بيروت الكبير والمتحدرين خصوصاً من مرعش وزيتون وفندقجاك، في هذا الحي الجديد [٦٧].

وغني عن البيان أن الروح البناءة لدى هذه المجموعات من اللاجئين ورغبتهم في مغادرة المخيمات شكلا عاملين حاسمين في تحقيق هذا المشروع. وتوصل هؤلاء اللاجئون، يحدوهم زخم التضامن والتعاون، إلى جمع مبلغ ٨٠٠٠٠٠ فرنك لشراء أرض نور مرعش. وسرعان ما نالت هذه المبادرة دعم مكتب نانسن، الذي قدم سلفة بقيمة ٤٠٠٠٠٠ فرنك، أضيفت إلى الأموال المخصصة لعمليات شراء الأرض وبناء المنازل، على أن يسدد هذا المبلغ المقيمون في الحي الجديد في غضون الأعوام الثلاثة اللاحقة[٦٨]. وفي ١٩٣٥، تم بناء ما يقارب الثمانمائة منزل في نور مرعش، حيث بلغ عدد السكان وقتئذ أربعة آلاف نسمة، يملك ثلثهم منازل[٦٩]. وفي وقت لاحق، اشترى الآباء الكبوشيون بدورهم قطعة أرض محاذية لنور مرعش ونور سيس، أسكنوا فيها عائلات أرمنية كاثوليكية[٧٠].

ودائماً في ١٩٣٠، بوشر ببناء ثلاثة مراكز حضرية أخرى على الضفة اليسرى لنهر بيروت: نور هادجين، وخليل بدوي (الرميل) والمنحدرات (على تلة الأشرفية).

وارتـــأى الفرع اللبناني لاتحاد هادجين المناطقي، منذ مطلع العشرينات، بناء حي خاص بمواطنيه. غير أن المشروع لم يتحقق لأن مواطني هادجين في الولايات المتحدة، وهم الممولون الرئيسيون لمخطط البناء هذا، كانوا مستنفرين من أجل إقامة حي يدعى «نور هادجين» في نوباراشين داخل أرمينيا السوفياتية. مع ذلك، لم يتم التخلي عن المشروع اللبناني، وابتداء من ١٩٣٠، ساهم بعض الأرمن الأغنياء المتحدرين من هذه المدينة بتبرعاتهم المهمة في بناء هذا الحي، خصوصاً أن اللاجئين أنفسهم،

٦٦ فارجبديان، م. ن.، ص. ٤٩١-٥١١.

٦٧ كريكور ه. كالوستيان، «مرعش اوكرمانيك»، نيويورك ١٩٣٤، ص. ٨٣٦-٨٤٠.

٦٨ أرشيف مكتبة نوبار، رسالة المصدر SAC. ١، ١٩٣١، «تقرير مندوب المفوضية العليا للاجئين في سوريا حول تطور توطين اللاجئين الأرمن في سوريا»، عام ١٩٣٠، تاريخ ١٩٣٠، ص. ٣.

٦٩ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، تفتيش مدرسي في سوريا ولبنان، ١ أيلول ١٩٣٤- ٢٠ آب ١٩٣٥، تقرير مكايل ناتانيان إلى لجنة اتحاد حلب، (أعد التقرير بناء على طلب مؤسسة اللورد مايور)، ٢٥ نيسان ١٩٣٥، بيروت؛ التقرير السنوي المصور لمكتب نانسن الدولي...، م. س.

٧٠ أرشيف مكتبة نوبار، رسالة من ه. طوبجيان إلى مجلس الجمعية الخيرية العمومية الارمنية، بيروت، ٦ أيلول ١٩٣٢.



حي أرمني جديد في الجبيلي، على
تلة الأشرفية في الثلاثينات.
مجموعة م.ن.ا



طراد، حي أرمني في برج حمود في الثلاثينات.
مجموعة م.ن.ا

وكما في نور مرعش، تمكنوا من جمع ألف ليرة ذهبيـــة تركيـــة. من بين المتبرعين، ينبغي أن نذكر بنوع خاص قسطنطين كرتمنيان الذي تبرع بـــ ١٥٠٠٠ دولار (٣٠٠٠ استرليني)، وكذلك هاروتيون استيبان فيليبوسيان المقيمين في الولايـــات المتحدة. إلى ذلك، دفع مكتب نانسن مبلغ ٣٥٠٠ استرليني، على أن يسدده القاطنون في نور هادجين خلال السنوات القادمـــة. إذ ذاك لم يعد هناك أي عائق يحول دون شراء قطعـــة أرض مساحتها ٢٥٠٠٠ م². وبدأت أعمال البـــناء الأولى في غضون عام ١٩٣٠ [٧١]. وفي ١٩٣٥، أنجز بناء ثلاثمئـــة منزل في نور هادجين وقُدّر إجمالي عدد السكان فيـــه بألف وخمسمئة شخص. من هذه المنـــازل، شُيّد مئـــة وخمسون منزلاً بفضل مساهمـــة مكتب نانسن، الذي قدم الإسمنت والحديد[٧٢].

وتواصـــل، في بيروت، إجلاء اللاجئين إلى مساكن حضرية على مدى الثلاثينيـــات. عندها تركزت أعمال بنـــاء معظم الأحيـــاء الجديدة في القسم الشرقي من نهر بيروت، فوق الأراضي الواقعـــة بين بـــرج حمود والدورة. والأراضي الجديدة المفرزة دعيت طراد، ونور اضنه، ونور سيس، وكوللاباشين وباراشين. ويلاحظ أن نور اضنه كانت تغطي رقعـــة واسعـــة من الأرض، استقر فيها الأرمن المنتمون إلى اضنه وإلى مناطق أخرى من كيليكيا. وفي الثلاثينيـــات، شيد أرمن ينتمون إلى طومرزا ويوزغاط حيّين لهم في موقع يقوم في جوار نور اضنه. وفي ١٩٣٥، قُدّر عدد المنازل المبنيـــة في نور اضنه، بفضل مساعدة مكتب نانسن، بمائتي منزل. كما أن إسهام هذه المؤسسة كان أساسياً في بناء ثلاثمئـــة وخمسين منزلاً في حي طراد. هذا وتوصل اتحاد سيس المناطقي، في ١٩٣١، إلى جمع ١٥٠٠ ليرة ذهبيـــة تركيـــة من أجل شراء قطعة أرض مساحتها ٥٠٠٠٠ م² تعود ملكيتها إلى عائلـــة سمان[٧٣]. وأسهم بورنيه وفريقـــه في بنـــاء نصف ثلاثمئـــة منزل، التي انتهى العمل منها عام ١٩٣٥ في حي نور سيس[٧٤].

على الرغم من ذلك، لوحظ أن بعض اللاجئين، ولا سيما الفقراء منهم، اكتفوا ببناء أكواخ لهم في أحيـــاء برج حمود الجديدة عندما اضطروا إلى مغادرة المخيمات، حتى أنه أُحصي وجود نحو أربعمئة كوخ عام ١٩٣٥ في طراد[٧٥]. استرعت هذه الظاهرة انتباه ت.ف. جونسن، أمين عام مكتب نانسن، فكتب يقول:

«عند تهيئة هذه الأحياء، أجيزت للاجئين إقامة مساكن مؤقتـــة ريثما يتم بناء منازلهم الجديدة، بشرط أن تُهدم الأكواخ في غضون الأشهر الإثني عشر التي تلي عمليـــة بنائها. والحال أن المؤقت استمر، بدلاً من اثني عشر شهراً، ثلاثة أو أربعة أعوام»[٧٦].

ودائماً في برج حمود، وافق ج. بورنيه، بالاتفاق مع ممثلي الجمعيـــة الخيريـــة العموميـــة الأرمنـــية في بيروت، وبفضل أموال عصبـــة الأمم، على شراء قطعـــة الأرض التي ستقوم عليها منطقـــة باراشين، بينما تعهدت المنظمـــة الأرمنـــية بمنح قروض للعائلات من أجل بنـــاء منازلها. وقد وصف هـــ. طوبجيان، أمين عام الجمعيـــة الخيريـــة العموميـــة الأرمنيـــة في بيروت، الإجراءات الأوليـــة التي أدت إلى تأسيس باراشين. فزار، في ٢٨ آذار ١٩٣٢، بصحبـــة بورنيه، قطعتي أرض تملكهما عائلتـــا طراد وخوري، ملاصقتين لنور مرعش، وتقعان شرق طريق بيروت – طرابلس، ولاحظ قائلا:

«لهذا المكان فوائد متنوعة: ١) تبلغ مساحة أرض طراد وخوري ٣٠٠٠٠٠ م²؛ ٢) المنطقة صحية ويكاد ينتفي منها وجود البعوض التي تحمل الملاريا؛ ٣) سعر الأرض ليس مرتفعاً نسبياً، بل يتراوح ما بين ٧ و١٢ قرشاً عثمانياً؛ ٤) بما أن كنيسة نور مرعش ومدرستها تقومان في جوارها، لذا لا يحتاج سكان باراشين إلى بناء مدارسهم وكنائسهم الخاصة؛ ٥) سوف يسمح الاستمرار في بناء الأحيـــاء الأرمنيـــة على هذه الأراضي بإنشاء مدينـــة أرمنيـــة ذات يوم على هذا

٧١ هـ. ب. بوغوصيان، «تاريخ هاجين العام»، لوس انجلس ١٩٤٢، ص. ٧٥٨-.

٧٢ تقرير دنتاليان إلى لجنة حلب، ٢٥ نيسان ١٩٣٥، م. س.؛ «التقرير السنوي المصور لمكتب نانسن الدولي»، م. س.

٧٣ سيسك كيليكيان «كتاب سيس»، بيروت ١٩٤٩، ص. ٦٩٨.

٧٤ م. ن.

٧٥ تقرير دنتاليان إلى لجنة حلب، ٢٥ نيسان ١٩٣٥، م. س.

٧٦ أرشيف مكتبة نوبار، رسالة ت. ف. نانسن إلى ف. ماليريان، جنيف ١٣ تشرين الثاني ١٩٣٤.

الجزء من الضفـــة اليمنى من نهر بيروت»[٧٧]. وبعد وقت قصير، تم بالفعل شراء أرض يملكها أسعد خوري، وبوشر بأعمال بنـــاء باراشين في غضون الأشهر التاليـــة. وفي ١٩٣٥، استقر حوالي سبعمئة وخمسين أرمنيـــاً في هذا الحي الجديد الذي ضم قرابـــة مئـــة بيت، شُيِّد نصفها بتمويل من الجمعيـــة الخيرية العمومـــية الأرمنيـــة[٧٨]. كما خصصت هذه الأخيرة ٣٠ استرلينياً لإقامـــة سبيل ماء تذكاري، وفقاً للخطة التي أعدها المهندس المعماري مارديروس الطونيان[٧٩].

ووحدت الجمعيـــة الخيرية العموميـــة الأرمنيـــة ومكتب نانسن جهودهما أيضاً لتحقيق بناء كوللاباشين. إذ نجح بورنيه، خلال صيف ١٩٣٢، في شراء أرض مساحتـــها ٢٠٠٠ م٢ تقع بين حيي نور سيس ونور اضنه لقاء مبلغ ١٦٠٠ استرليني، وبمعدل ٤ قروش للذراع الواحد. كانت عمليـــة الشراء ملائمـــة جداً في حينـــه، وتولت أمرها كلها الجمعية الخيرية العموميـــة الأرمنيـــة التي اقتطعت المبلغ من أموال كوللابي كولبنكيان[٨٠]. وفي المقابل، أخذ مكتب نانسن على عاتقـــه بناء البنيـــة التحتيـــة للحي كاملـــة؛ ورسم م. الطونيان مخططات الفرز والمنـــازل، وفي وقت قصير استقر أوائـــل السكان في كوللاباشين. وكان يتعين على العائلات أن تدفع ٧,٥ قروش للذراع كيما يتملكوا الحصص التي تمت مساعدتهم من أجل بنـــاء منازلهم عليها. وبالفعل قدمت الجمعية الخيرية العموميـــة الأرمنيـــة، بواسطة بورنيه، الإسمنت والحديد للسكان، شرط التزامهم بتسديد القيمـــة في غضون الأعوام القادمـــة. كان هذا الإجراء يهدف إلى إشراك اللاجئين في الجهود المبذولـــة في مجال البناء ويتيح توسيع الأحياء لمصلحـــة اللاجئين الآخرين[٨١]. وفي ١٩٣٥، كان حي كوللاباشين يستوعب فعلاً سبعمئة وخمسين شخصـــاً (١٥٠ عائلة) يقطنون في تسعين منزلاً[٨٢]. وأخيراً، عام ١٩٣٢، نُقلت ١٥٠ عائلـــة من مخيم بيروت وأسكنت في حي سن الفيـــل جنوب برج حمود[٨٣].

على أن حدثاً مأساوياً عمل على تسريع عمليـــات إجلاء اللاجئين عن مخيمات بيروت باتجاه الأحيـــاء الحضرية الجديدة. فقد شب حريـــق، في كانون الثاني ١٩٣٣، داخل المخيم الكبير وأتى على ستمئة كوخ – مثلما أتى على كنيسة الصليب المقدس ومدرســـة ساهاكيان مرغماً ثلاثـــة آلاف شخص على مغادرة الموقع بشكل نهائي[٨٤]. وتم إيواء قرابة ألف وسبعمئة منكوب في الكارنتينا على نفقـــة سلطات الانتداب. غير أن هؤلاء اللاجئين اضطروا، عند وصول الحجاج، إلى إخلاء الأماكن، وراحت لجنـــة إغاثة مؤلفـــة من ممثلي الطوائـــف الأرمنيـــة الثلاث تعنى بإعادة إسكانهم في أحيـــاء بيروت المختلفـــة. وهكذا أسكن المرسل السويسري كترلر ألف شخص في منازل خاصـــة، وجرى إحلال سبعمئة آخرين في منازل استأجرتها لجنـــة هادجين المناطقية، وأووي الأشخاص الأشد عوزاً في مبنى ميتم كلكيان – سيسوان في الأشرفية. علاوة على ذلك، نظمت مطاعم شعبيـــة في مختلف الأحياء الأرمنية[٨٥].

وفي شباط ١٩٣٥، لم يبق إلاّ ألف عائلـــة من عائلات اللاجئين يعيشون في أكواخ داخل المخيمـــات الثلاثـــة المتجاورة: يوزغاط، والكرنتينا – امانوس والمسلخ. وكانت ثلاثمئـــة عائلـــة أخرى قد استأجرت بيوتـــاً حجرية تقع على مقربـــة من هذه المخيمات، وشيدت مائتـــا عائلـــة بيوتاً حجرية في هذه المواقع نفسها[٨٦].

وفي غضون النصف الثاني من الثلاثينات، تواصلت حركـــة إعادة الإيواء بوتيرة طبيعيـــة، بحيث ارتأت الحكومة اللبنانيـــة، عام ١٩٣٥، هدم تخشيبات أخرى في أيلول من السنة ذاتها، تخشيبات قائمـــة في مخيمي امانوس ويوزغاط. والتزاماً بهذه التعليمات، هدم أصحاب الأكواخ الثلاثمئة

٧٧ أرشيف مكتبة نوبار، رسالة من هـــ. طوبجيان إلى مجلس الجمعية الخيرية العمومية الارمنية، بيروت، ٣٠ آذار ١٩٣٢.

٧٨ تقرير ناتانيان إلى لجنة اتحاد حلب، ٢٥ نيسان ١٩٣٥، م. س.

٧٩ أرشيفات مكتبة نوبار، رسالة رقم ٢١٠٤٩ من ماليزيان إلى داماديان وطوبجيان، باريس ٢٧ أيلول ١٩٢٧؛ م. ن.، رسالة رقم ٢١٥٢٤ من ماليزيان إلى داماديان وطوبجيان، باريس، ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٢.

٨٠ أرشيف مكتبة نوبار، رسالة من لجنة اتحاد بيروت إلى المجلس المركزي في باريس، ١٥ أيلول ١٩٣٢.

٨١ م. ن.

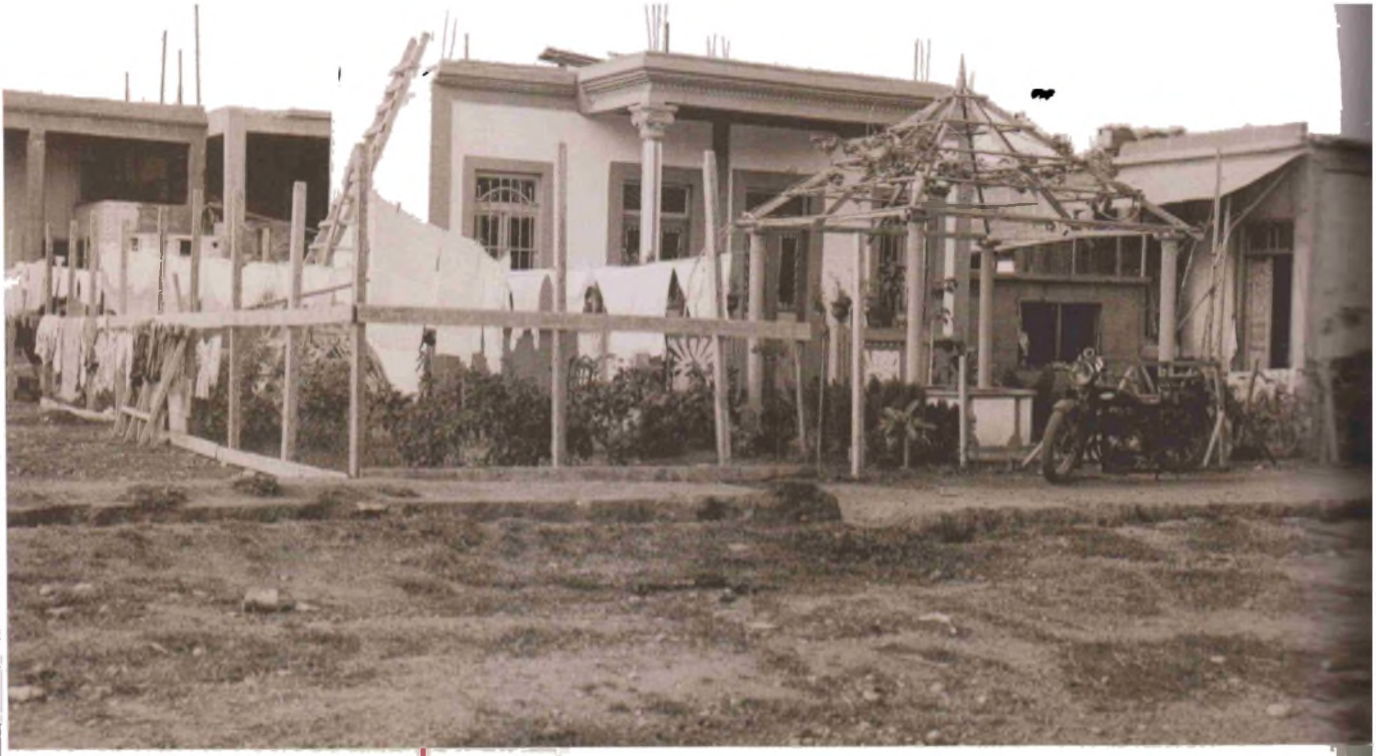
٨٢ تقرير من ناتانيان إلى لجنة الجمعية في حلب، ٢٥ نيسان ١٩٣٥، م. س.

٨٣ م. ن.

٨٤ ميسيريان م. س.، ص. ٥٧–٦٥؛ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨–١٩٤٠، أرمينيا، المجلد ٢٤، برقية من المفوض السامي بونسو إلى وزارة الخارجية، بيروت، ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣؛ الورقة ٢٨٧.

٨٥ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، بيروت، ١٩٣٣–١٩٣٥، رسالة رقم ٢٣٩ من لجنة الجمعية في بيروت إلى اللجنة الإقليمية في مصر، ٢٣ أيار ١٩٣٣.

٨٦ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، تفتيش مدرسي في سوريا ولبنان، ١ أيلول ١٩٣٤–٢٠ آب ١٩٣٥، رسالة من السيد ناتانيان إلى اللجنة الإقليمية في مصر، بيروت ١٨ شباط ١٩٣٥.



نور اضنه، برج حمود في الثلاثينات. كان هذا الموقع يغطي قطعة أرض استقر فيها، فضلاً عن الأرمن المتحدرين من اضنه ومناطق أخرى من كيليكيا، أفراد ينتمون إلى طومرزا ويوزغاط.
مجموعة م.ن.ا



حي كوللاباشين في برج حمود في الثلاثينات. شيد هذا الحي بفضل هبات قدمتها مؤسسة كوللابي كولبنكيان، الكائنة في نيويورك.
مجموعة م.ن.ا



نور هادجين، على الضفة اليسرى من نهر بيروت في الثلاثينات.
مجموعة م.ن.ا



حلب، بناء الحي الأرمني «الميدان الكبير»، والمسمى نور كيوغ في الثلاثينات. مجموعة م.ن.ا

بأنفسهم مساكنهم، وغادروا المكان بدعم من مكتب نانسن والمنظمات الأرمنية، متجهين صوب الأحياء الحجرية المشيدة لهم. وكانت هذه الإخلاءات الأخيرة تتعلق خصوصاً بالأرمن المتحدرين من يوزغاط وطومرزا وقرى امانوس، تمثلهم ثلاث لجان تضم مندوبي هذه المناطق، وهم مكلفون بمراقبة أعمال بناء الأحياء الجديدة المرتقبة في برج حمود وضواحيها. وقد ابتاع قرويو امانوس قطعة أرض قرب الدورة مساحتها ٢٥٠٠٠ م٢ بألف ومئة ليرة عثمانية[٨٧]. وعلى أثر ذلك، رصدت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية مبلغ ٢٥٠ استرلينياً لبناء هذا الحي الجديد.

الأحياء الأرمنية الجديدة في حلب

كان عدد الأرمن في سوريا، أواخر ١٩٢٩، يُقدَّر بنحو سبعين ألف نسمة. وكان أكبر تجمع للأرمن يقوم في حلب، حيث استقر حوالي أربعين ألف شخص، وفي بلدات وقرى ضاحيتها حيث كان يعيش خمسة آلاف وخمسمئة أرمني[٨٩].

وأخذت مخيمات اللاجئين تخلو تدريجاً من ساكنيها الذين استقروا في الأحياء الجديدة قيد البناء. وفي نهاية ١٩٢٩، كان لا يزال هناك في المخيمات عشرة آلاف لاجىء تقريباً يقطنون في ألفي كوخ، وتم نقل ما يقارب الخمسمئة عائلة، بمساعدة مكتب نانسن، إلى أحياء مبنية بالحجر، وبخاصة على قطع الأرض المشتراة قبل عام في الميدان الكبير (نور كيوغ)[٩٠]. وكما في لبنان، أمنت الاتحادات المناطقية القسم الأكبر من عملية نقل العديد من العائلات إلى المساكن الحضرية الجديدة.

٨٧ أرشيف الجمعية المركزي / القاهرة، بيروت ١٩٣١-١٩٣٣، رسالة رقم ٩٦٤ من لجنة الجمعية في بيروت إلى اللجنة الإقليمية في مصر، ١٦ أيلول ١٩٣٥.

٨٨ أرشيف كاثوليكوسية كيليكيا، المجموعة ٣٤-١، الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، ١٩١٨-١٩٤٠، رسالة رقم ١٠٣٩٢-٤٢١ من اللجنة الإقليمية في مصر إلى المطران بدروس سارادجيان، قائمقام كاثوليكوسية كيليكيا، ٢٣ أيلول ١٩٣٨.

٨٩ «تقرير متعلق بالأرمن في ولاية حلب»، وثيقة سابقة، ص. ١.

٩٠ تقرير جود، ٢٦ حزيران ١٩٣٠، بيروت، وثيقة سابقة، الورقتان ٧٤-٧٦.



بناء مساكن جديدة في حلب.
فوتو ديرونيان
مجموعة م.ن.ا

وهكذا استنفرت فروع جمعية أرمن عنتاب المختلفة المنتشرين في العالم لدعم الجهود الرامية إلى نقل هؤلاء اللاجئين إلى الأحياء الحضرية الجديدة. ونشير هنا إلى أن ١٠٠٠٠ أرمني من عنتاب كانوا يقيمون في حلب أواخر العشرينات[٩١].

وجاءت النتائج على مستوى الجهود المبذولة. ففي أواخر ١٩٢٩، تم إيواء ثلاثين ألف أرمني تقريباً، وهم من قدامى اللاجئين، في منازل حجرية داخل الأحياء الواقعة شمال حلب بصورة خاصة. وبتعبير آخر، فإن أعمال بناء مساكن حضرية في حلب تطورت بسرعة أكبر مما حدث في بيروت. فعام ١٩٣٠ في نور كيوغ، اشترى مكتب نانسن ثلاث قطع أخرى على مقربة مباشرة من القطع الأولى، وخصص ٨٠٠٠ استرليني لهذه المرحلة الثانية من عمليات البناء[٩٢]. وقسمت نور كيوغ إلى ثلاثة قطاعات تغطي مساحة ١٠٥٠٠ م^2 (في ١٩٣٢)، وتؤوي أساساً سكاناً يتحدرون من اورفا ومرعش وعنتاب. إن الاتحادات المناطقية الممثلة لهذه المدن الثلاث ساهمت مساهمة وثيقة مع مكتب نانسن في ابتياع قطع الأرض. وشاركت كل واحدة من هذه المنظمات في بناء هذه الأحياء المتلاصقة داخل نور كيوغ. وأعلن، مطلع ١٩٣٢، أن عدداً كبيراً من الأكواخ في المخيمات القديمة قد أزيل، وأن أكثر من أربعة آلاف لاجىء استقروا في منازل جديدة داخل نور كيوغ[٩٣]. وفي ١٩٣٥، أحصي فيها ١٠٨٦٠ قاطناً أرمنياً يقيمون في ١٣٩٠ منزلاً جديداً، منها ١١٥٠ منزلاً من صنع مكتب نانسن[٩٤]. ولكن بقي

٩١ كيفورك. صرافيان، «تاريخ أرمن عنتاب»، ٢. لوس أنجلس ١٩٥٣، ص. ٥٢١-٥٣١.

٩٢ أرشيف الجمعية المركزي/ القاهرة، المجلس الإداري المركزي، باريس، ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٩-٢٨ أيلول ١٩٣١. «مهمة في جنيف من ١٤ إلى ١٧ آذار ١٩٣٠، اللجنة المالية»، تقرير أعده ليفون باشاليان إلى فاهان ماليزيان، ٢٥ آذار ١٩٣٠، ص. ٣.

٩٣ أرشيف وزارة الخارجية، المشرق ١٩١٨-١٩٤٠، أرمينيا، المجلد ٢٤، رسالة رقم ٦٢ من المفوض السامي في سوريا ولبنان إلى وزارة الخارجية، بيروت، ١٩ كانون الثاني ١٩٣٢، الورقة ٢٧٢؛ م. ن.، أرمينيا، المجلد ٢٤، «توطينات اللاجئين الأرمن في سوريا ولبنان. تقرير عن عام ١٩٣١»، وثيقة سابقة، الورقتان ٢٧٨-٢٧٩؛ «تقرير متعلق بالأرمن في ولاية حلب»، ٢٨ أيلول ١٩٣٠»، وثيقة سابقة، ص. ٧.

٩٤ تقرير ناتانيان إلى لجنة حلب، ٢٥ نيسان ١٩٣٥، وثيقة سابقة. مصدر آخر يحمل تاريخ عام ١٩٣٤، يعلن أن نور كيوغ تضم في حينه ١٤٢٠٠ نسمة، في حين أن عدد البيوت المشيدة يقدر بـ ١٤١٦ بيتاً («التقرير السنوي المصور لمكتب نانسن الدولي...»، وثيقة سابقة).



حلب، منظر حي الميدان الكبير، المدعو نور كيوغ، وكنيسة القديس كريكور الجديدة، ومدرسة ساهاكيان، في الثلاثينات.
مجموعة م.ن.ا

هناك عمل ضخم كان لا بد من إتمامه وهو هدم الأكواخ الأخيرة وتشييد مساكن ضرورية؛ إذ كانت حلب لا تزال تضم ألفين وأربعمئة تخشيبة تؤوي نحو عشرة آلاف لاجىء موزعين في المخيمات الواقعة دائماً شمال المدينة في السليمانية، والرام، والحميدية والجابرية، كما في المخيمات التي يقطنها أشخاص متحدرون من يوزغاط، وغورون واورفا (٩٥). وابتداء من ١٩٣٥، جرى شراء قطعة أرض أخرى في أحياء الشيخ مقصود، والداوودية (الأشرفية)، والجابرية والسبيل، وتواصلت عمية نقل السكان إلى المساكن الحضرية الجديدة: كان الشارون هذه المرة أعياناً من الارمن حلوا محل مكتب نانسن وراحوا يبيعون الأراضي إلى لاجئين أرمن آخرين[٩٦].

٩٥ م. ن.
٩٦ غرينشيلدز، م. س.، ص. ٤١٨.

الأحياء الأرمنية الجديدة في دمشق

شمل مخطط إقامة مساكن حضرية جديدة مدينة دمشق أيضاً. فعلى أثر بناء ما يزيد على مئة منزل جديد على قطعة أرض اشتراها مكتب نانسن في باب شرقي عام ١٩٢٩، ترك سبعمئة وسبعة وثلاثون شخصاً أكواخهم، أواخر عام ١٩٣٢، ليستقروا في هذا الحي الجديد[٩٧]. ولكن كان لا يزال في المدينة، في ١٩٣٥، أربعمئة وخمسون كوخاً حيث يعيش ألفان ومائتا لاجئ[٩٨].

٩٧ أرشيف مكتبة نوبار، مكتب نانسن الدولي للاجئين، إسكان اللاجئين الأرمن في سوريا ولبنان، تقرير ممثل المكتب عن عام ١٩٣٢. الأرشيف المركزي ٣٤؛ ١٩٣٣، ص. ٧: «عمليات إسكان اللاجئين الأرمن في سوريا ولبنان، تقرير عن عام ١٩٣١»، وثيقة سابقة، الورقتان ٢٧٧-٢٧٨.

٩٨ تقرير تناتيان إلى لجنة حلب، ٢٥ نيسان ١٩٣٥، وثيقة سابقة.

خاتمة

كان بوسع عصبة الأمم، في أواخر الثلاثينات، أن ترضى عن العمل الذي أنجزته، إذ استطاعت الأكثرية الساحقة من اللاجئين الأرمن أن تغادر المخيمات تدريجاً رغم صعوبات جمة، وتستقر في مساكن حضرية في بيروت وحلب، واضعة بذلك حداً نهائياً لملحمة المخيمات والأكواخ المرتجلة. على أن عائلات أخرى استمرت تسكن داخل هذه المخيمات القائمة على شاطىء البحر حتى الخمسينات. وكان يُتوقع أن ينتهي عمل عصبة الأمم في سوريا ولبنان في أول كانون الثاني ١٩٣٩؛ ولكن التأخير المتكرر في تنفيذ البرنامج، ثم اندلاع الحرب العالمية الثانية، أديا فجأة إلى وقف كل اتصال بين جنيف وبيروت، وحالا دون قيام بورنيه بتصفية مكتب نانسن في سوريا ولبنان، فاستمر عمل مكتب نانسن حتى مطلع ١٩٤٧، موعد حله بصورة نهائية.

وبعد وقت طويل، تدفق إلى بيروت في السبعينات، جراء الصراع الإسرائيلي — الفلسطيني واندلاع الحرب الأهلية في لبنان، آلاف من اللاجئين الآخرين كانوا على الأخص فلسطينيين، وكذلك شيعة جنوبيين فروا من الجنوب، أو أكراداً اضطروا إلى مغادرة مناطق الصراع في شمال شرق سوريا أو شرق تركيا. ولمصادفة غريبة من مصادفات التاريخ، تم إسكان هؤلاء اللاجئين في المواقع التي كان الأرمن، عقود خلت، يشغلونها. مأساة انسانية جديدة مثلت فيها، شبيهة من نواح مختلفة بتلك التي عاشها اللاجئون الأرمن: بناء تخشيبات جديدة في مخيمي الكرنتينا والمسلخ؛ واستنفار المنظمات الإنسانية الدولية؛ وتعاون وتضامن في صفوف اللاجئين.

هل كان ممكنا حينذاك أن نتوقع تطوراً يدفع بهؤلاء اللاجئين إلى استقرار نهائي؟ وبكلام آخر، تدمير هذه المخيمات بالتدريج ودمج تلك الجماعات المنكوبة في النسيج الحضري؟ لم يكن هذا واقع الحال. وهذا ما زال يثير تساؤلات حول الإشكالات الناجمة عن الوضع المميز لكل جماعة ولعلاقتها الجيوسياسية الإقليمية. والواقع أن إسكان الأرمن في سوريا ولبنان يعتبر حالة فريدة. فقد كان عهدئذ يلبي رغبة المفوضية العليا الفرنسية السياسية، وكذلك رغبة بعض الدوائر السياسية الفاعلة في سوريا، وبالأخص في لبنان. لهذا السبب، تمت العملية عموماً في هدوء ومن دون أن تثير ثائرة الطوائف الأخرى. وهنا يكمن الفرق بينهم وبين لاجئي بيروت الجدد، وهم في غالبيتهم فلسطينيون. فالظروف الجيوسياسية الجديدة ووصول اللاجئين جماعات كثيفة غذيا الصراعات القائمة على المسرح السياسي الداخلي في لبنان. وعوض أن يشكل وجود لاجئي السبعينات عملية اندماج سلمي، ما لبث أن أصبح مصدر صراعات، لا بل حافزاً على اندلاع الحرب الداخلية اللبنانية.



صووك صو، تعيد العائلات الأرمنية
تكوينها، ولكن في بيئة غير مؤاتية.
مجموعة م.ن.أ



الاسكندرون عام ١٩٣٩، إخلاء السكان الأرمن
وانتظار وصول السفن على أرصفة الميناء.
مجموعة م.ن.ا

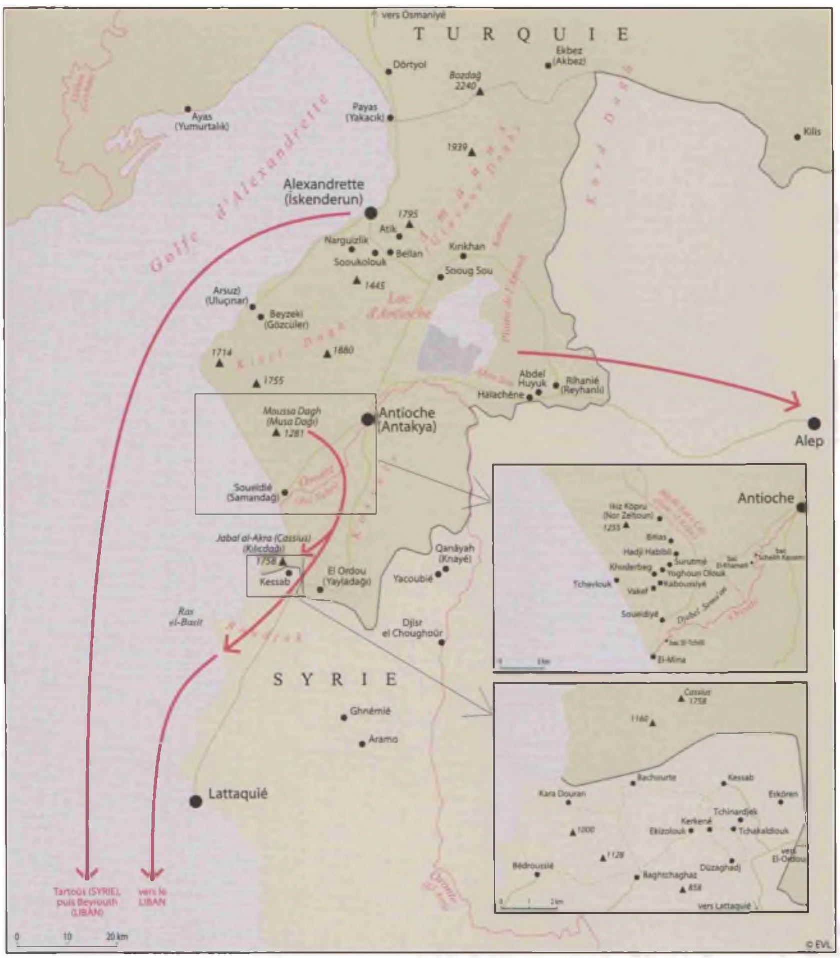
الأرمن في سنجق الاسكندرون

من الإبادة الجماعية إلى الهجرة الجماعية

بقلم ميشال بابودجيان

كان سنجق الاسكندرون يضم تقسيمات فرعية إدارية قديمة داخل الأمبراطورية العثمانية، وهي: نواحي الاسكندرون، وانطاكية، وحارم وبيلان. وكان في البداية يتبع ولاية حلب، ويشكل المنفذ البحري المباشر لها على المتوسط الشرقي. كما كان، بفضل موقعه شمال جبال العلويين وجنوب كيليكيا، يتيح مجال التطور المرفئي للاسكندرون، التي كانت تعتبر آنذاك، مع بيروت، أحد منافذ الطرق التجارية القليلة القادمة من داخل سوريا وبلاد ما بين النهرين ومنطقة طوروس الأرمنية. وكان نشاطه الرئيسي يتصل بالحركة التي يوفرها مرور البضائع، كما كان يتمتع بميزة شبيهة جداً بميزة لبنان القائمة على تنوع تركيبته الإتنية والدينية.

سنجق الاسكندرون (١٩١٨-١٩٣٩)



→ وجهات عملية لجلاء الأرمن عام ١٩٣٩

الأرمن في السنجق
قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها

يرقى الحضور الأرمني في هذه المنطقة إلى العهد الروماني، غير أنه لم يحتل مكانة فريدة في التاريخ الأرمني والعام على السواء إلاّ بصفته إمارة تابعة لدويلات المشرق الصليبية. وقد كان قسم من السكّان وبعض الملوك من الأرمن.

تميز هذا الحضور، مطلع القرن العشرين، باستمرار بقايا السكان الأرمن. ويزودنا توزع الأرمن في انطاكية ومنطقتها قبل وقوع مجازر ١٩٠٩، كما نشر في بوزنيتون / بريزول عام ١٩١١، بأرقام أكثر دلالة في ما يمت بصلة إلى العائلات:

انطاكية	١١٠	فاكف	٣٠	قرهدوران	١٨٠
بيتياس	١١٠	يعقوبيه	١٣٥	الاسكندرون	١٥٠
هادجي هابيلي	٢٨٨	عرامو	٧٨	بيلان	٤٥٥
يوغون اولوك	٢١٤	غابيديه	٥٥	كيريك خان	٥٠
خضر بك	٣١٠	ارفليه	٤٥	قنيه	١٣٠
كابوسيه	١٥٠	كسب وضواحيها	١١٣٠		

أي ما مجموعه ٣٦٢٠ عائلة.

تعرض الأرمن في تلك المنطقة لأول نزف دموي عام ١٩٠٩، إبان المجازر المعروفة بـــ «مجازر اضنه»، وقد تهجّر أثناءها القسم الأكبر من سكّان الحي الأرمني في انطاكية، وسط تفجر ثورة العنف. يومها أزيل عن الخريطة العديد من القرى الصغيرة والدساكر الأرمنية المتناثرة في المنطقة، ومنها: عتيق، وكانلي داره، وساري تشنار، وصوغنلي، ومزكيت اونو، وهادجي موصللي[1].

وفي ١٩١٤ و١٩١٥، حل الخراب في البلاد شيئاً فشيئاً جراء تجنيد العسكر، وابتزاز الضرائب غير المعلنة، ومصادرة القطعان وحيوانات النقل من دون التعويض على أصحابها. وكذلك عندما بدأت أعمال الترحيل في ١٩١٥، ناقش سكان جبل موسى وكسب أيضاً وجماعة الناجين الصغيرة في انطاكية[2]، على ما يظهر، إمكانية تنظيم مقاومة، حين ترامت إليهم حقيقة ارتكاب المجازر. كانوا يعتمدون على تدخل البحرية الفرنسية، التي كانت سفنها تجوب بانتظام سواحل المشرق وتقوم بمهمات استطلاعية. إن دفاع شريحة صغيرة من أرمن جبل موسى مكن السفن الفرنسية من التقاطهم ثم نقلهم إلى بور سعيد: ٣٤٤٢ شخصاً أبحروا صباح ١٢ و١٣ أيلول، و٦٨٠ مقاتلاً في ١٣[3] منه؛ غير أن الـــ ٣٣٢ عائلة التي قررت البقاء في أماكنها تم ترحيلها لاحقاً. وفي المقابل، برزت خلافات في كسب، وحالت بعض «الخيانات» دون تنظيم دفاع ذاتي مشترك. وجرت عمليات الترحيل التي تعرضت لها كسب بدءاً من ٢٦ تموز ١٩١٥ على دفعتين: الأرمن الرسوليون والكاثوليك رحلوا أساساً باتجاه محور جنوبي، على امتداد وادي العاصي نحو حماه وشرق الأردن؛ أما البروتستانت فهجروا في ما بعد، في أيلول، ولكن باتجاه الصحراء السورية ودير الزور، وتالياً كان مصيرهم اقسى بكثير[4]. في حين جرى ترحيل الجماعات الأرمنية الأخرى المنتشرة في المنطقة بأجمعها.

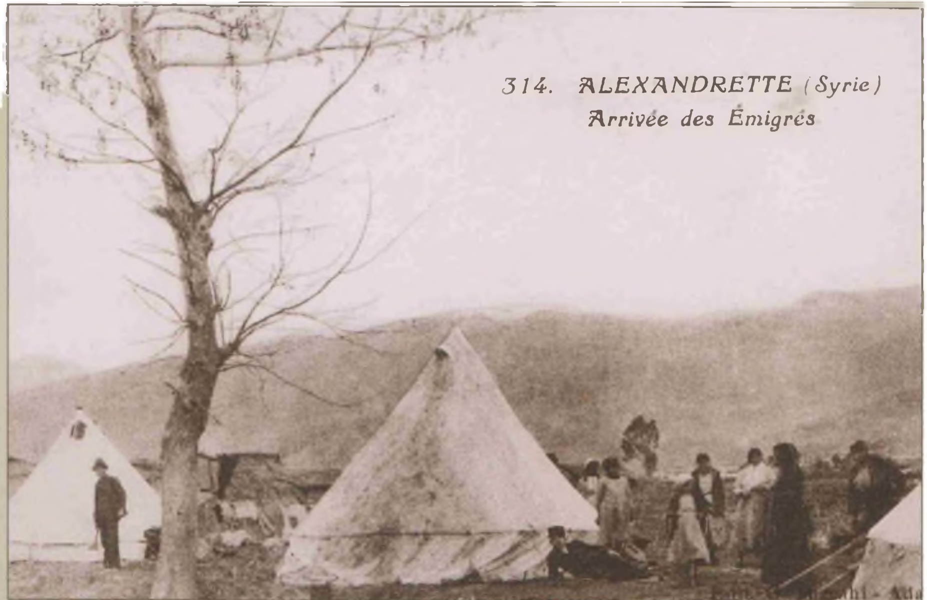
١ جورج بريزول (بدروس ازنافور)، «الأتراك مروا من هنا... مجموعة وثائق، وملفات، وتقارير، وعرائض، واعتراضات، والتماسات وتحقيقات تثبت حقيقة مجازر اضنه عام ١٩٠٩»، باريس ١٩١١، ص. ٣٥٦.

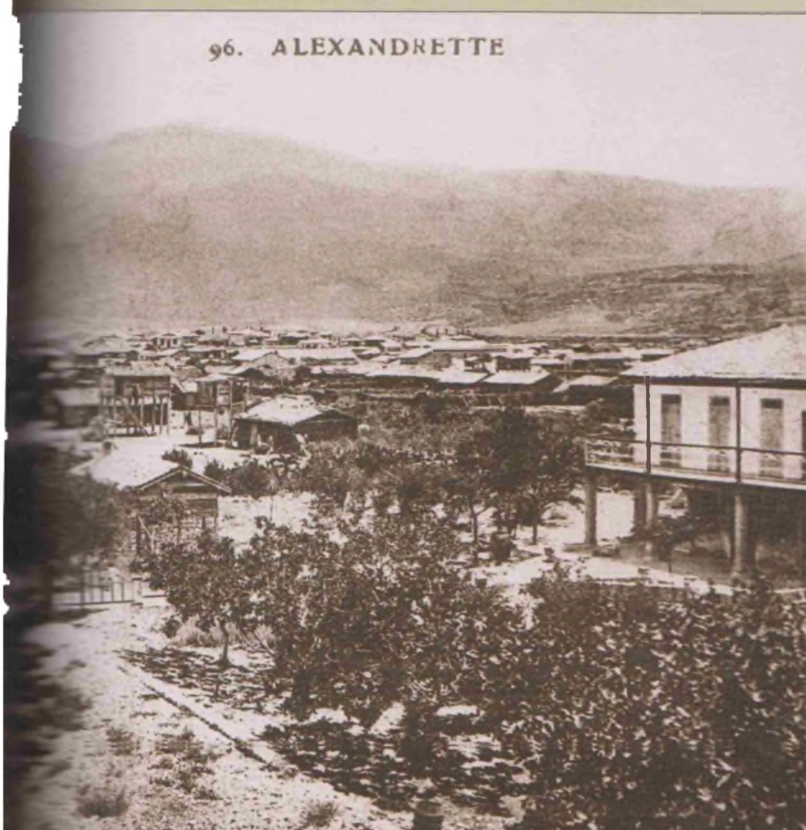
٢ المقدم بول جاكو، «انطاكية مركز للسياحة »، الجزء ٣، ص. ٣١٥.

٣ ج. أصولان، «أرمن جبل موسى»، في «المجلة البحرية»، أيار ١٩٢٤، ص. ٦٢٩ وما يليها-٤٧٦٢ شخصاً و٦٥٠ مقاتلاً وفق: أرشيف البحرية (فانسين). «سرد تاريخي موجز للأحداث المتصلة بالأرمن اللاجئين إلى بور سعيد» سري، سجّل عند الوصول في ١٧ أيلول ١٩١٦- وبحسب مصادر أخرى ٨٦٨ عائلة (٤٠٥٨ شخصاً) تم إنقاذهم بهذه الطريقة.

٤ ايزابيل ماقيان، «الجماعة الأرمنية في منطقة كسب أثناء عهد الانتداب الفرنسي على سوريا (١٩١٨-١٩٤٠)»، بحث الماجستير، باريس، السوربون، ١٩٩٣-١٩٩٤، ص. ١٧.







الاسكندرون (المدينة)، إيواء الأرمن تحت الخيم. إن معظم هؤلاء الذين أبعدوا إلى هذه المنطقة غير الصحية القائمة في ضاحية المدينة، مكثوا في هذا المخيم طوال السنوات العشرين تقريباً من عمر الانتداب.

مجموعة ميشال بابودجيان





الاسكندرون (المدينة)، تخييم الأرمن في منطقة المستنقعات. انصرف الأرمن، بعد قضاء فترة طويلة تحت الخيم، إلى بناء مساكن بدائية لهم مصنوعة بمواد مستعادة.
مجموعة ميشال بابودجيان

الاسكندرون (المدينة)، مخيم أرمني. راهب كبوشي إيطالي يقوم بجولة ويقف أمام العدسة. كانت البطالة تجتاح المنطقة بقوة، ولم تكن موارد اللاجئين الضئيلة لتسمح لهم إلاّ بإقامة مساكن بدائية. وكان لا بد من انتظار نهاية العشرينات ومطلع الثلاثينات لمشاهدة تحسن نسبي في ظروف المعيشة.
مجموعة ميشال بابودجيان



مخيم أرمني في ضاحية المدينة. كانت جبال امانوس تسد الأفق جنوب المدينة وشرقها، مبقية على «طاقية» من غيوم منخفضة مشبعة بمناخ حار ورطب خلال مواسم القيظ. وكان سكان المدينة في أكثريتهم الساحقة من الأرمن، على ما تذكر المصادر المختلفة وحاكو: «١٣٠٠٠ نسمة، منهم ٥٨٧٥ أرمنياً رسولياً (بينهم ٤٧١٠ مهاجرين)، و٢٤٨٣ من الروم الأرثوذكس، و١٧٣ لاتينياً، و١٦٩ مارونياً، و١٦٧ من الروم الكاثوليك، و٤٠٠ أرمني كاثوليكي، و١٧٠ كلدانياً، و١١٣ سريانياً، و١٠٨ بروتستانتي، و١٩٦ إسرائيلياً، و٢٢٧٦ علوياً، و٩٦٦ تركياً، و٣٠٣ من العرب».
مجموعة ميشال بابودجيان

الأيام الأخيرة للحرب العالمية وإقرار الانتداب الفرنسي على سوريا وسنجق الاسكندرون

في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥، أوضح المندوب السامي البريطاني في مصر، السير هنري ماكماهون، في رسالة جوابية إلى شريف مكة، أن سنجق الاسكندرون مدرج طبعاً ضمن حدود الدولة العربية المزمع إنشاؤها[٥]. ثم أضاف، في كانون الأول ١٩١٥، أنه لا بد من أخذ مصالح فرنسا في الاعتبار في ما يتعلق بولايتي حلب وبيروت[٦].

وكانت اتفاقية سايكس ــ بيكو، التي وُقعت في ١٦ أيار ١٩١٦ إثر مفاوضات طويلة بين فرنسا وبريطانيا، قد دمجت بصورة لا لبس فيها منطقة سوريا الداخلية، ومن ضمنها سنجق الاسكندرون، في المنطقة الفرنسية.

غير أن فيصل لم يستولِ على العاصمة الأموية دمشق إلاّ في ١٣ تشرين الأول ١٩١٨، عقب الانسحاب الذي قرره مصطفى كمال إلى خط الدفاع القائم عند سفح جبل طوروس. وقد وصلت القوات البريطانية بمحاذاة هذه الجبهة الجديدة في اللحظة نفسها التي وقّعت فيها حكومة السلطان الهدنة يوم ٣١ تشرين الأول ١٩١٨ في مودروس. وفي ١١ تشرين الثاني ١٩١٨، ألقى الأمير فيصل، ابن الحسين شريف مكة، خطبة في حلب اعتبر فيها أن حلب وشريطها الساحلي يشكلان جزءاً من «بلاد الشام».

وعلى الفور، نظم الجنرال اللنبي، القائد العام للقوات الحليفة في فلسطين ــ سوريا، أراضي العدو المحتلة. وعُدِّت المنطقة الشمالية مجدداً من أراضي العدو المحتلة ــ الغربية، عندما تم احتلال كيليكيا في كانون الثاني ١٩١٩.

وعليه، أنزل الجيش الفرنسي وحداته الأولى في الاسكندرون في ٢٤ تشرين الثاني. بيد أن الفرق الفرنسية حوت قوة عددية ضئيلة (١٥٠٠٠ رجل في أيلول ١٩١٩، في وقت كان عديد البريطانيين يتألف من ١٠٠٠٠٠ رجل تقريباً).

وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٩، ضمت فرنسا أقضية الاسكندرون، وإنطاكية، وحارم وبيلان القديمة في كيان موحد هو سنجق الاسكندرون. أما البريطانيون، الذين سعوا بكل الوسائل إلى الحد من تأثير الفرنسيين ومن منطقة احتلالهم، فأثاروا مصاعب جمة في وجه الفرق الفرنسية لكي لا تستقر، وذلك عبر دفع فيصل قدماً.

إن الاتفاقية السرية التي أبرمت بين فيصل وكليمنصو في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠، وتنازلت للعرب عن سوريا الداخلية، ولفرنسا عن الشريط الساحلي، سرعان ما رفض الإقرار بها أعضاء مؤتمر دمشق السوري. وبعد أيام قليلة، تلى هذا الفشل سقوط كليمنصو، مناوىء الكولونيالية القديم، وانتخاب بول دوشانيل لمنصب رئيس الجمهورية الفرنسية، والكساندر ميلران رئيساً للحكومة. عندها عدلت السياسة الفرنسية خيارها في شأن سوريا، وأصبحت بالتالي أشد تدخلاً في شؤونها. وبعد أقل من ستة أشهر، انتقلت فرنسا إلى الهجوم وتسببت في سقوط نظام الشريف حسين، الذي أسيء إلى سمعته نتيجة تراجعه المستمر عن الاستجابة للمطالب الفرنسية لدى دخوله إلى دمشق.

وفي ٢٥ نيسان ١٩٢٠، ضمنت عصبة الأمم في سان ريمو الوجود الفرنسي في سوريا ولبنان. ووضع كل منهما تحت الوصاية، تحت الانتداب. ثم وُقعت معاهدة أنقرة، التي رسمت «قانونياً» الحدود التركية ــ السورية وشهدت التنازل عن كيليكيا ذات الأغلبية غير التركية للوطنيين الأتراك، وبتوقيعها انتهت حرب كيليكيا وحالة حرب العصابات المقنّعة في الشمال السوري. وقبل فرنكلين ــ بويون، بمزيد من السهولة، المطالب التركية بالسنجق، بعدما أغراه الأتراك بوعود سخية تعود على فرنسا بفوائد اقتصادية. وسعت المؤسسات الفرنسية بوجه خاص إلى أن تضمن لنفسها فوائد اقتصادية طفيفة معتمدة على عقود ممكنة وتنازلات. «فإعطاء حقوق خاصة داخل مرفأ الاسكندرون إن هو، في نظر الفرنسيين، إلاّ وسيلة لشحن مواد أولية تركية عن طريقه»[٧]. وكذلك فإن هذه المعاهدة التي أبرمت أملاً في كسب ود الأتراك، أجازت تعليم التركية

٥ لوسيان بترلان، «الاسكندرون، ميونخ الشرق، أو عندما كانت فرنسا تستلم». باريس، ١٩٩٦، ص. ٦٩.

٦ م. ن.، ص. ٧٠.

٧ ميشال جيلكان، «من انطاكية إلى هاتاي، تاريخ سنجق الاسكندرون المنسي». باريس ٢٠٠٠، ص. ٥٨.

واعتبارها لغة رسمية في السنجق، أسوة باللغة العربية. وهذا يعني منح تركيا نوعاً من حق الرقابة والتمهيد لإمكانية تدخلها مستقبلاً. وفي ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١، أصبحت معاهدة السلام المبرمة مع تركيا سارية المفعول.



انطاكية، الغافية عند قدمي جبل سليبوس الذي توالت عليه أسوار المدينة الرومانية ثم الصليبية. لم تتطور هذه المدينة إلاّ على إحدى ضفتي العاصي، وهي مدينة تركية في السنجق، ومناوئة للاسكندرون المدينة المسيحية، الأرمنية بمعظمها. وقد شهدت القسم الأكبر من سكانها الأرمن القليلي العدد، وحيهم المحصور داخل الحي التركي، يضمحلون عملياً إبان مجازر ١٩٠٩، ثم يتعرضون للترحيل عام ١٩١٥.
مجموعة ميشال بابوجيان

تطور الوضع المحلي: تمركز فرنسي فوضوي

شهدت هذه المنطقة بأسرها انهيار السلطة العثمانية، فسعت قوى متعددة إلى اغتنام هذه الفرصة غير المتوقعة وحاولت جاهدة الوصول إلى السلطة المحلية والاستيلاء عليها. وكانت القوات العثمانية قد خلفت وراءها وحدات مشتتة أثناء تراجعها، كما قامت، في الوقت عينه، بتوزيع السلاح على سكان المنطقة الشمالية من سوريا، هؤلاء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب هوية إسلامية. هذه السياسة، سواء كانت متعمدة أم لا، عجلت في اهتراء الوضع، ووجهت الظروف الاقتصادية السائدة في المنطقة الشمالية، التي كان نشاطها متوقفاً بشكل أساسي على المناطق المتبقية فعلاً تحت حكم السلطات التركية، والتي كانت تستقطب مواردها أو موادها الأولية من جبل طوروس والأناضول والأجزاء العليا من بلاد ما بين النهرين، وجهت هذه القوى التقليدية أو الصاعدة (وجهاء قدامى مندمجون ووجهاء محدثون منبثقون من أوساط موظفين، مثقفون جدد وطبقة كادحين)، وقد عززتها عودة ريفيين معوزين وباطلين عن العمل إلى المدن الكبرى، باتجاه القوى الوطنية الكبرى. كانت هذه القوى تمسك بزمام النفقات وتعمل بما أوتيت من حماس على تمويل تلك القوى، بحيث تغيّر مجرى الطاقة العسكرية الفرنسية وتضعفها. أما رجال الشريف حسين، الذين نزلوا في حلب مع كوادرهم الدمشقيين والعراقيين خصوصاً، فقد صدموا مشاعر ومصالح وجهاء هذه المناطق وهؤلاء السكان ذوي الأجناس المتداخلة، والذين غالباً ما كانت أصولهم تركية حتى ولو كانوا عرباً. وهكذا لم تبرز الخيارات الوطنية إلاّ في مرحلة لاحقة.

وأقامت سلطات الانتداب، رغبة منها في ضمان سيطرتها على السنجق، وكانت لا تملك إلاّ القليل من القوة العددية، حاميات لها في المدينتين الكبيرتين انطاكية والاسكندرون، وسلسلة مراكز للمراقبة خصوصاً على امتداد محور المواصلات العسكرية والتجارية المؤدية إلى حلب، وبشكل أقل في بعض نقاط الارتكاز المتناثرة، حيث توزعت جماعات تتضور جوعاً؛ في حين تركت مناطق واسعة مثل امانوس والقصير وجبل الأكراد التي ما زالت بكاملها في أيدي العصابات. وبغية



تقع بيلان، المدينة التي رحّل الأرمن منها عام ١٩١٥، على الطريق الذي يسمح بربط الاسكندرون بانطاكية، ومنها يتجه صوب حلب وبلاد ما بين النهرين. وكانت الأسواق تنتشر على امتداد هذا الطريق الذي يشطر المدينة شطرين.
مجموعة ميشال بابودجيان

التوصل إلى مراقبة تلك المناطق، أنشأت في الغالب «فرقاً متنقلة « أو «أرتالاً متنقلة» خفيفة للرد على الغارات التي تشنها العصابات. وتم تنظيم هذه الأرتال انطلاقاً من ربيع ١٩١٩. فباشرت العمل وراحت تجوب الكتل الجبلية حتى وادي العاصي، وتنسق نشاطاتها مع نشاطات فرق أخرى تعمل في جبل الزاوية، غرب العاصي، وفي منطقة حلب.

ومع قدوم حقي بك إلى اوزرلي، قرر بعض وجهاء السنجق، الذين استفادوا أحياناً كثيرة من نهب الأرمن عندما لم يتمكنوا من المشاركة بفعالية في الإبادة الجماعية، مهاجمة الأرمن في البداية لمنعهم من العودة، مهما كلف الأمر[8]. وكان الفرنسيون، ترافقهم وحدات أرمنية، قد اضطروا إلى إقالة الموظفين المتهمين بمساندة رجال العصابات. واتُهمت بلدتا دورتيول واكباز الحدوديتان، اللتان تؤويان شرائح كبيرة من الأرمن، بفرض «طغيان أرمني»، فاستهدفتهما بالدرجة الأولى العصابات التي كانت تسلك دروب امانوس.

٨ سادا التوك، «بين الحكمين الاستعماري والوطني: انطاكية تحت الانتداب الفرنسي (١٩٢٠-١٩٣٩)»، بحث للماجستير، جامعة بوكازيتشي، ٢٠٠٢، ص. ٤٦.

إلى ذلك، فإن الخبرة التي اكتسبتها هذه الفرق الكولونيالية ضاعفت من فعالية النظام الذي فرضته السلطة الانتدابية، والذي نسق عمل فرقها وأرتالها المتنقلة، وكان نظاماً قائماً على كواهل مناصرين وحراس ريفيين، اختيروا من أماكن ريفية أفقرتها أعمال العصابات، وقد تصدوا لغاراتها بشكل فعال أكثر فأكثر. إن التجاوزات التي ارتكبتها هذه العصابات زادت من تشويه صورتها. كما أن اعتداءاتها المتكررة في بادىء الأمر على المسيحيين، وفي أغلب الأحيان على أولئك الذين لم يكونوا يشاطرونها الرأي، ثم بشكل منتظم ومتزايد على العلويين، كما هي الحال في منطقة السويدية، كل ذلك دفع هؤلاء السكان إلى طلب التحالف مع فرنسا. وانتهى الأمر بالوجهاء الأتراك أنفسهم إلى التصدي لانعدام الأمن هذا، الذي كان يشل الحياة الاقتصادية ويحول دون استثمارهم خيرات الأرض التي ما زالوا يملكونها في سوريا. علاوة على ذلك، كان مصطفى كمال يهم بتحديد بنية دولته ويسبغ عليها مسحة جمهورية. والحال أن العصابات في تلك المناطق الحدودية أفادت من تساهل الحكام والموظفين وقدامى الضباط أو الوجهاء، الذين حافظوا على طابع اتحادي بارز، وتقاسموا معهم المنافع غالباً. واستمرت أعمال قطع الطرق ووسعت المناطق الخارجة على القانون، ودخلت تالياً في صراع مع المصالح الجامعة للكماليين المتحمسين للديمقراطية. عندها تبدل الوضع،



كسب، وهي تقبع على الجهة الجنوبية من جبل كسيوس [الأقرع] وعند قدميه. كانت أماكن العبادة الثلاثة فيها تعبّر عن حيوية المنافسة والصراعات على النفوذ التي كان البروتستانت (إلى اليسار)،والرسوليون (في الوسط) حيث تشاهد قبة الكنيسة، والكاثوليك (وبالأحرى هنا اللاتين، إلى اليمين) يجرونها في ما بينهم. وتبقى كسب، بقراها التابعة لها وبقرى القنية، واليعقوبية، وغنيمة وعرامو، كل ما بقي من ذلك الحضور جنوب انطاكية. وقد عرفت مرحلة قصيرة من الاحتلال التركي المشترك. هذه المدينة، التي ضمت إلى سنجق الاسكندرون خلال عهد الانتداب بغية زيادة عدد الأرمن فيه، شكّلت التنازل الوحيد والتافه الذي حصل عليه الفرنسيون بعد جهد جهيد، وفي اللحظة الأخيرة، أثناء المفاوضات الفرنسية ــ التركية، وهكذا عادت مجدداً إلى أحضان سوريا عام ١٩٣٩.
مجموعة ميشال بابودجيان

ـ نتقلت حالة انعدام الأمن، في ١٩٢٣، إلى الشمال ــ الشرقي من المنطقة. وفي ١٩٢٤، تمكنت سلطة لانتداب، أقله في هذه المنطقة من السنجق، من فرض نفسها في الصراع الدائر على النفوذ.

الأرمن يعودون إلى ديارهم

ـ يعد أرمن السنجق إلى أراضي أسلافهم على نسق واحد وبوتيرة مكثفة، بل تحققت عودتهم من خلال جماعات صغيرة وعلى مراحل مختلفة، عبر مناطق كانت في جزء منها تحت حكم فرق مسيحية، حيث كانت الفوضى سائدة تماماً. وقد تعرضوا، بحسب معلومات وردت إلى الجنرال هاملان، لاعتداءات فتاكة أحياناً، «يرتكبها الأكراد يومياً ضد المسافرين، وبخاصة ضد مواكب اللاجئين الأرمن على الطريق مؤدية من قطما إلى الاسكندرون»[٩].

وأصبحت الاسكندرون، بصفتها مرفأ، بمثابة مفترق طرق للعائدين إلى كيليكيا، وفي ما بعد لتجمع مهاجرين.

أما مدينة انطاكية، فقد أقدمت على احتلالها، في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨، فرقة المشرق وفصيلة من حاملي الرشاشات التابعة للكتيبة التاسعة من الرماة، وذلك من دون أن تنتظر الانسحاب الكامل لفرق لشريف حسين التي كانت قد سارعت إلى تحرير المدينة. «واستولت الدهشة على الوجهاء العرب مناصرين للقوات العربية نتيجة الاحتلال الفرنسي، أو بالأحرى الاحتلال الأرمني». ولما كان القائد بريطاني قد أعرب عن خشيته من أن تؤدي البغضاء بين مسلمي انطاكية والأرمن إلى وقوع اضطرابات، فإنه وُفّق، في ١٠ تشرين الثاني، في استبدال جنود الفرقة الأجنبية بفصيلة من الرماة. وأمرت القيادة العامة الحليفة جنود الشريف حسين المرابطين في انطاكية بالجلاء عن المدينة قبل حلول ليل ١٠ كانون الثاني.

٩ الدائرة التاريخية للقوات البرية، ٢٩ كانون الأول ١٩١٨، بريد الجنرال هاملان.



الاسكندرون، أحد شوارع الأحياء الميسورة في المدينة. كان السواد الأعظم من اللاجئين الأرمن يتكاسلون في المستنقعات القديمة المنتشرة في ضاحية المدينة. وقد توجب استخدامهم لردم تلك المستنقعات من أجل تنقية المدينة.
مجموعة ميشال بابوجيان



مكان سابق للخدمة العسكرية، وصول البريد. يقع المكان قرب الريحانية، بلدة إلى شرق السنجق. في العهد العثماني، قامت في هذه المنطقة الواسعة والقاحلة من المراعي مرابض لتربية خيول الجيش الإمبراطوري وتجويد نسلها. وفي عام ١٩٢٧، أنشئت في هذا الموقع قريتان، وهما: ابدال هويوك وهاياشين.
مجموعة م.ن.ا

وفي بيلان، وجد الأرمن حيهم مدمراً تدميراً كاملاً. وفي ١٢ كانون الأول ١٩١٨، عندما تهيأ جنديان من الفرقة الأجنبية، تابعان للحامية، لتحرير شابة أرمنية، جرى سجنهما، الأمر الذي أثار اعتراضات رفاقهما. لذلك تم استبدالهما بفصيلة من الرماة في ١٣ كانون الأول.

واستمرت حملات الأخبار الكاذبة والافتراءات على قدم وساق يغذيها «الحاكم العثماني في جنوب طوروس»، وهو، بلا ريب، نهاد باشا، وكذلك الجمعيات السرية الباقية في الميدان. وطلب الجنرال هاملان، في ٢٦ كانون الأول، الاستعاضة عن الفرق الأرمنية بوحدات أخرى ليبرهن على عدم انحيازه. وهكذا لبى مطالب موظفي المدينة ووجهائها المسلمين الذين كانوا قد استأثروا بممتلكات الأرمن.

أما عودة سكان منطقة كسب الذين تُركوا لأقدارهم، فلم تتحق إلاّ مع تقدم الفرق البريطانية باتجاه الشمال السوري، نهاية تشرين الأول ١٩١٨، فور بلوغ هذه الفرق طرابلس وحماه. فقد سلكوا طريق العودة ضمن فرق صغيرة في أغلب الأحيان انطلقت من حوران. ونزلت المجموعة الصغيرة، التي كان البريطانيون قد عثروا عليها في شرق الأردن ونقلوها إلى بور سعيد، مباشرة على شاطىء قره دوران. ولكن القسم الأهم من سكان كسب عاد سيراً على الأقدام سالكاً شتى دروب العودة، سواء بالسير نحو وادي العاصي قبل الانعطاف عبر الكتلة الجبلية ابتداء من جسر الشغور وعن طريق الاوردو واسكوران، ثم بالصعود عبر اللاذقية[10]. غير أن بعض الناجين توفوا أثناء المسيرة متأثرين بالزحار الذي استنزف قواهم.

وجدوا القرى في حالة يرثى لها، وكأن محتليها المسلمين المجهولي الهويـــة قد محوها منذ وقت قريب، فقد نُهبت المنـــازل ودُمرت. إذ ذاك تجمع الناجون الذين تدفقوا تدريجاً مع عائلاتهم أو ربما مع أصدقائهم، وحلوا في المنـــازل الأقل تعرضاً للأضرار: وأتاح التضامن العثور على ملجأ. بعض الضيع الصغيرة، مثل باشورت وقره دوران، تم التخلي عنها مؤقتاً لأنها أصيبت بدمار هائل أو تعرضت كثيراً لاحتكاك التركمان[11]. وجرت العودة في جزئها الأكبر خلال الخريف ومطلع الشتاء، ولم يكن السكان الذين وجدوا الحقول مهملـــة يملكون أي احتياطي من المواد الغذائيـــة. إن الإشارات النادرة المتصلة بكسب في المراجع العسكريـــة تصف، مطلع كانون الأول ١٩١٨، بـــ«أرمن كسب المتضورين جوعا»، الذين ذكر تقلهم باتجاه حلب. ويوضح كاهن رعيتهم أن «ألفي أرمني يعانون من المجاعة في ضواحي كسب»[12]. ويبدو أن الإعانـــات كانت ترد فقط من المساعدات التي أرسلها ٢٠٠ ـــ ٣٠٠ مهاجر من البلدة يقيمون في أميركا[13]. كانت الغلبـــة لغريزة البقاء التي رفعت معنويات هذه الجماعة المصدومة، هذه الجماعة التي شعرت بتحررها وسعت إلى تأسيس عائلات جديدة: فقد تكاثرت الزيجات وارتفعت فجأة نسبة الولادات. كما أنشىء تنظيم عسكري لتأمين الدفاع عن الجماعـــة.

هنا، وغادر سكان جبل موسى الأوائل بور سعيد في نهاية تموز ١٩١٩، وقد دفع كل منهم أجرة الانتقال. ونزلت أول المجموعتين عند مصب العاصي. أما المجموعات الأخرى، التي موّل الحلفاء سفرها، فتبعتهما. هبط بعض المسافرين في بيروت أو الاسكندرون، ومن هناك توجهوا إلى جبل موسى. وهكذا لم يبق، في أواخر تشرين الثاني ١٩١٩، أي مجموعة في بور سعيد[14].

عند وصولهم، وجدوا القرى يكتنفها الدمار، فما استطاعوا العيش فيها إلاّ بشق النفس، إذ كانوا محرومين من الحبوب والماشية ومصادر الدخل. في هذه الظروف الصعبة من التغذية والعناية الصحية، ما لبثت الأمراض المعدية أن تفشت. وكذلك كان عام ١٩١٩ بالنسبة إليهم عام قحط ومجاعة وموت. وكان انعدام الأمان يخيم على المنطقة كلها التي تجوبها عصابات تركية، وتركمانية وعلوية انقطعت إلى أعمال السرقة والقتل[15]. حينها نظم الأرمن صفوفهم:

١٠ سافيان، م. س.، ص. ٣٠.
١١ م. ن.، ص. ٤٠.
١٢ الدائرة التاريخية للقوات البرية، ٤ س١ و ٨، نسخة من برقية بتاريخ ١٣ كانون الأول ١٩١٨، أراضي العدو المحتلة، المنطقة الشمالية رقم ٢٩٢٣، من نورث إلى عتيد الاسكندرون، ١٦ كانون الأول ١٩١٨.
١٣ سافيان، م. س.، ص. ٤١.
١٤ كتاب مذكرات جبل موسى، بإشراف ماردیروس كوشكجيان وبوغوص مادوريان، بيروت ١٩٧٠، ص. ٤٥٤.
١٥ م. ن.، ص. ٤٥٦-٤٥٧.



كسب، ١٩ آب ١٩٣٩. داخل المدينة.
فوتو داقيد ــ مجموعة ميشال بابودجيان

فاختارت كل قرية لجنة من خمسة أشخاص دعيت لجنة «الاتحاد الوطني». واستمرت هذه اللجان في الوجود حتى نهاية ١٩٢٢. وحتى قبل عودة الأرمن الكثيفة من بور سعيد، تم تأسيس لجنة من «الاتحاد الوطني الأرمني» في انطاكية بمشاركة ستراك اسكندريان رئيساً وموفسيس تشاباريان أميناً عاماً. وبسرعة أوفدت كل قرية ممثلها الخاص. في ما بعد، انتقل مقر هذه اللجنة الإقليمية إلى يوغون اولوك، وتولى رئاستها ديكران اندرياسيان.

لقد حاول هؤلاء الأرمن الحصول على السلاح، فبادروا إلى إرسال ستة أشخاص إلى كيليكيا لطلب المساعدة. وأفلحوا، خلال صيف ١٩٢٠، في التزود به، وهكذا تسلمت كل عائلة بندقية واحدة وخمسين طلقة رصاص تحت مراقبة الاتحاد الوطني الأرمني الذي امتلك أيضاً بعض القنابل اليدوية.

وانحاز الأرمن من فورهم إلى العلويين وساعدوهم على تخليص المنطقة من العصابات التركية. وفي أثناء ربيع ١٩٢٠، رأى أتراك قرى الحريرية، قرب فاكف وكابكلو، أن وضعهم لم يعد يُحتمل فالتجأوا إلى انطاكية والقرى المجاورة لها. لكنهم عادوا إلى قريتهم لاحقاً، عند تمركز السلطة الفرنسية، بينما باع قرويو كابكلو ممتلكاتهم إلى الأرمن ورحلوا عنها. وفي ١٩٣٩، رجع هؤلاء القرويون أنفسهم للإقامة مجدداً في قريتهم القديمة ونهبوا كابوسيه بأجمعها[١٦].

١٦ كتاب مذكرات جبل موسى، م. س.، ص. ٤٥٨-٤٦١.



صووك صو، مستوطنة أنشئت عام ١٩٢٧ في سهل عموق على ضفاف المستنقعات التي كانت تغذي بحيرة انطاكية باتجاه الشمال. أدرج انشاؤها في الإطار الشامل الهادف إلى تقويم هذه المنطقة التي تعتبر خصبة بالرغم من كونها غير صحية. بداية، عارض المسؤولون الأرمن إقامة هذه المستوطنات في هذه المنطقة من سهل عموق، إذ كان أكثر السكان من الأتراك، وقربها من الحدود يتيح للعصابات عبورها بصورة منتظمة في مطلع العشرينات، ما كان يجعلها بالتالي غير آمنة. أما سلطات الانتداب، من ناحيتها، فكانت تحاول بعثرة قسم من اللاجئين الذين يتجمعون بشكل عفوي حول حلب والاسكندرون وبيروت داخل مخيمات كانت البطالة فيها ونقص موارد العيش يرغمانهم على الكسل والخمول. أضف إلى ذلك أن أغلب اللاجئين كانوا مزارعين، فكانت هذه المستوطنات، بشكل غير معلن، تؤمن سلامة محور طريق الاسكندرون — حلب.
مجموعة م.ن.ا

الأرمن في مرحلة ما بين الحربين

عرف الأرمن، خلال ما يناهز العشرين عاماً التي تلت عودتهم من المنفى، أوضاعاً مريحة إلى حد ما أو غير مستقرة بحسب ما إذا كانوا من قدامى السكان الأصليين الذين استعادوا أراضيهم (جبل موسى، وكسب، والاسكندرون وضواحيها، وانطاكية) أو من سكان المخيمات والمستوطنات التي أنشأتها سلطات الانتداب (الاسكندرون، وكيريك خان، وايكيز كوبرو، وصووك صو، والريحانية).

المستوطنات القديمة

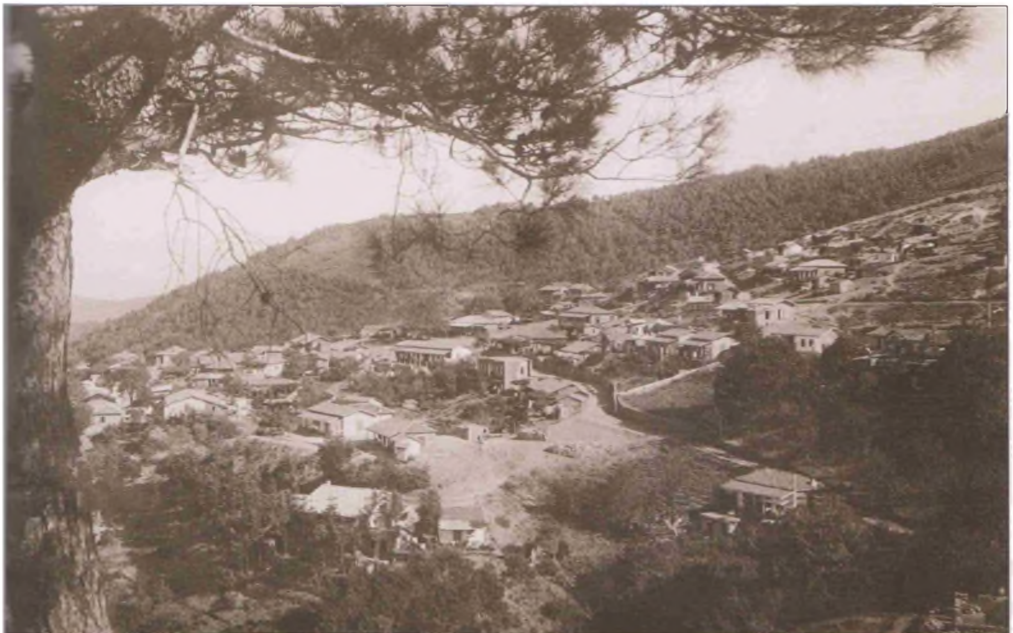
موسى ضاغ، موسى لير اوجبل موسى

بعد حل الاتحاد الوطني الأرمني، عادت الأحزاب السياسية القديمة (الطاشناق، والهنتشاك والرامغفار) ذات التاريخ الطويل في هذه المنطقة لتحتل واجهة الأحداث[17].

وكانت قرى جبل موسى (بتياس، وهادجي هابيلي، وقره تشاي، وترجينيك، وسوروتما، ويوغون يوك، وخضر بك، وفاكف، وفاري — ازور وفيري — ازور، وكابوسيه وتشفليك) تؤلف، حتى الحرب العالمية الأولى، عالماً منغلقاً ومنعزلاً.

وقد تسلل الفكر السياسي إلى هذا العالم الأبوي العشائري مع قدوم «البارون» اغاسي، الذي وصل عام ١٨٩٢، محازبو الهنتشاك[18]. وبسرعة أجريت اتصالات وتم تأسيس فرع في انطاكية بمشاركة بوغوص افندي سفريان[19]، وعائلة ماردير آغا مارديريان، ويلمجيان الذي عُيّن مسؤولاً محلياً. أما آغاسي، المقيم في خضر بك، فقد جذب جبل موسى ووطّد سلطته فيه[20] بصحبة العديد من «الوجوه الثورية». وحفظ «الطات» (وهي تسمية أطلقها الأرمن على العلويين) على علاقات طيبة

١٧ كتاب مذكرات جبل موسى، م. س.، ص. ٤٦٦.
١٨ م. ن.، ص. ٢٦١.
١٩ م. ن.، ص. ٢٦٣.
٢٠ م. ن.، ص. ٢٦٤.



تقع صووك اولوك على المرتفعات المطلة على الاسكندرون، وقد جعل منها ارتفاعها ومحيطها الغني بالأشجار مكان «اصطياف» مرغوباً فيه، حيث كان بعض الفنادق الصغيرة يقوم فيه.
مجموعة ميشال بابوجيان

معهم وأتاحوا تموين الأرمن أثناء المعارك الضارية التي خاضوها في غضون صيف ١٨٩٥. واستمر هذا التفاهم بينهم خلال أحداث ١٩٠٩ و١٩١٥، ولدى عودتهم من بور سعيد في ١٩١٩: فقد زودهم العلويون بالطعام والماء والسلاح، ونقلوا إليهم معلومات وتغاضوا عن تسلل المناصرين[٢١].

أما محازبو الطاشناق (أعضاء الاتحاد الثوري الأرمني) فلم يكن لهم وجود في المنطقة إلاّ بعد إعادة الدستور عام ١٩٠٨، وكان المسؤول المحلي عن الحزب انانيا باراليان (فيرافوريان). ثم عزز الحزب تمركزه في مخيمات بور سعيد، التي كان ناشطو الطاشناق يزورونها[٢٢].

الإصلاحيون، من جهتهم، لم يكن لهم من تأثير إلاّ أثناء رئاسة زورا (ميساك اسكندريان في ١٩١١[٢٣]. وبدأ الشيوعيون، اعتباراً من ١٩٢٤، ينظمون صفوفهم وينشطون مع هاكوب دير بدروسيان، وستراك هيكازيان، واندرياس جوهوريان، وبدروس عنتبليان، وهاكوب تشمانيان، الخ. ثم تأسست بعد ١٩٣٣، خلايا شيوعية في يوغون اولوك، وفاكف وهادجي هابيلي[٢٤].

وخلال عهد الانتداب، اعتبر جبل موسى مديرية منفصلة، قاعدتها خضر بك وكان أول مدير لها، من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٧، موفسيس دير كالوستيان، ثم خلفه سيروب تشربتشيان من ١٩٢٧ إلى ١٩٣٩. أما أرمن انطاكية فكان يمثلهم في البرلمان السوري نائب، كان في البداية ناريك ابراهميان (١٩٢٤-١٩٢٧)، ثم خلفه، بعد موته الباكر، موفسيس دير كالوستيان (خلال ولايتين من ١٩٢٧ إلى ١٩٣٧)[٢٥]. وكان من حق الأرمن أن ينالوا في مجلس العموم مقعدين نيابيين، شغلهما هاكوب طافيتيان من جبل موسى ويساي كازنجيان من انطاكية.

ومن بين الـ ٦٢٨٣ شخصاً الذين جرى إحصاؤهم في ١٩١١، وحدهم لاجئو بور سعيد عادوا إلى ديارهم. وقد قدّر عددهم إحصاء أجري في ١٩٢٢ بـ ٤٥٩٨ مقيماً[٢٦].

وسرعان ما عادوا إلى مزاولة نشاطاتهم القديمة[٢٧]. وتم، في ١٩٢٤ — ١٩٢٥، إيواء بضع عشرات من الأيتام لدى عائلات ميسورة. وشهد عام ١٩٢٥ بدء شق

٢١ كتاب مذكرات جبل موسى، م. س.، ص. ٢٧٣.
٢٢ م. ن.، ص. ٤٧٠ — ٤٧٢.
٢٣ م. ن.، ص. ٤٧٣.
٢٤ م. ن.، ص. ص٤٧٥.
٢٥ م. ن.، ص. ٤٦٥.
٢٦ — م. ن.، ص. ٤٩٧

طريق يربط انطاكية بالسويدية، وفك العزلة عن قرى جبل موسى في ١٩٢٦. وسرعان ما استقطبت شهرة المنطقة كموقع مثالي للاصطياف أرمن انطاكية، والاسكندرون، وحلب وحتى الاسكندرية. كما كانت الحركة تدب، في كل فصل صيف، في عدد متنام من المطاعم والمقاهي، وأشهرها مطعم ميغوم فيليان في بتياس، والمطاعم التي تحيط بها أشجار الدلب في خضر بك، حيث يحتشد قرويو الضيع المختلفة، فيتسامرون ويلهون.

وكانت تربية دود القز، قبل الحرب العالمية الأولى، تحتل مكانة بارزة في النشاط الاقتصادي لهذه القرى، وملأت أشجار التوت الضرورية لهذه التربية معظم البساتين. لكن ظهور الحرير الاصطناعي أدى إلى تدهور هذه التربيـــة وتراجع العناية بأشجار التوت. عندها كان كل منزل في الربيع يُعد القسم الأكبر من غرفه لتربية دود القز، فإما يبيع الشرانق إلى التجار، أو يحولها المنتجون أنفسهم إلى خيوط حرير[٢٨]. وكانت هادجي هابيلي تنفرد منذ عقود بحصر ٥٠٪ من هذا النشاط الرائج في جبل موسى، في يومها، وقد راج هذا النشاط أيضاً في القرى التركية والعلوية المنتشرة في الضواحي. وكان أسياد هذه التربية من الأرمن الذين حافظوا على احتكارهم إعداد الحرير حتى ١٩٣٩، فصنعوا منه ملابس وطرحات، وأغطية للطاولات أو مناديل معدة للتصدير[٢٩].

إلى جانب هذا النشاط، شكلت شجرة الزيتون مصدراً هاماً من حيث الدخل والغذاء، ولا سيما أن استهلاك اللحم كان محدوداً. وظلت الزراعـــة النشاط الأساسي للقرويين يدعمها مورد رئيسي هو الحبوب (القمح، والشعير، والذرة، والشوفان) وزراعة البقول التي تتكيف مع الإمكانات الخاصـــة بالقرى وتنوع تربتها. إذ ذاك سمح استخدام الشاحنات بتصدير هذه المنتوجات باتجاه انطاكية، وحلب وبيروت[٣٠]. واستخرج القرويون من الغار الذي كانوا ينثرون أوراقـــه في أسرّة الأطفال، زيتاً يستعملونـــه كعلاج في البيطرة، كما يستفاد منه في تنظيف الغسيل.

وغنت القرى، عدا منتوجات الزراعة والحياكة، نشاطين حرفيين أكسباها شهرة واسعة وأمّنا لها موارد إضافيـــة. النشاط الحرفي الأول كان صناعـــة الأمشاط في يوغون اولوك وخضر بك، انطلاقاً من خشب الشمشاد أو الأكيدنيا، ومن العظام وقرون الحيوانات، وحتى من العاج والمواد الاصطناعية.ويبع الإنتاج في حلب، ودمشق ومصر. والنشاط الثاني كان البناء، مهنـــة شائعة جداً في هادجي هابيلي، ولهذا السبب كان سكانها سريعي الاستجابة للهجرة[٣١].

٢٧ـــ م. ن.، ص. ٤٦٢.

٢٨ كتاب مذكرات جبل موسى م. س.، ص. ١١٩.

٢٩ م. ن.، ص. ١٢٠.

٣٠ م. ن.، ص. ١١٧.

٣١ م. ن.، ص. ١٢٢.

٣٢ افاديس ك. صانجيان، «الجماعات الأرمنية في سوريا تحت الحكم العثماني»، كامبردج، ١٩٦٥، ص. ٥٣.

٣٣ مافيان، م. س.، ص. ٧.

كسب ومحيطها

تقوم كسب على سفح جبل الأقرع الجنوبي، الذي يبلغ ارتفاع قمته ١٧٦٠ متراً، وهي تقع شمال اللاذقيـــة وجنوب شرق انطاكية، وتشكل الحد الأقصى الجنوبي لامتداد سكان كيليكيا الأرمن. هذا التجمع الأرمني القديم، الذي يرجع تاريخه إلى العصر الوسيط على الأقل، ازداد قوة ومنعة بفضل خصوصيـــة موقعه كجبل ملجأ، قدمت إليه جماعات هجرت كيليكيا إبان أعمال العنف التركمانية خلال القرنين ١٧ و١٨[٣٢]. وإذا صدقنا الروايات المأثورة، فإن التمركز الأصلي تم في اسكوران قبل أن تنشأ حولها دساكر وضيّع صغيرة. من هنا برز الشعور الغامر الذي ساور «السكان الأصليين» بأنهم يؤلفون «مركزاً أرمنياً أصيلاً»[٣٣].

وكان هذا التجمع القائم حول كسب يضم، عشية الحرب العالميـــة الأولى، عشر قرى، وهي: باشورت، وباغ تشغاس (العليا والسفلى)، ودوز اغادج، واكيز اولوك، واسكوران (ونركين كيوغ)، وقره دوران، وكركنه، وسيف اغبيور، وتشاكل ديوك وتشناردجك.

وقد وجد الأرمن أنفسهم، منذ عودتهم عام ١٩١٨، متروكين لشأنهم في موقع معرض للخطر الداهم، وإزاء شغور السلطـــة، أسسوا «اتحاداً وطنيـــاً أرمنيـــاً» يضطلع بدور سياسي وعسكري ومدني تحت سلطة «لجنـــة» ديمقراطيـــة اصطبغت بصبغة قويـــة على أنها مواليـــة للطاشناق[٣٤]. قررت الغالبيـــة الساحقة من السكان منع تمركز سلطة الأغوات مجدداً، وفي الطليعـــة سلطـــة الآغا ساكو مهدسيان، الذي اعتبر مخبراً شرساً وجشعاً. حينها عاد إلى الظهور بعض وجوه الطاشناق الرئيسية المعروفة قبل الحرب، أمثال الدكتور افاديس انجيجكيان. وتألف الجناح العسكري لهذه اللجنـــة المكلفـــة تأمين الدفاع عن المنطقة من فرقة متطوعين عُيِّنوا في وحدة عسكريـــة، وعززوا بجنود أرمن فروا من الجيش الفرنسي إبان الانسحاب التركي. وانتهى بهم الأمر إلى إثباط عزيمـــة العصابات بإحباطهم هجوماً واسعاً لها على بغ تشغاس[٣٥] عام ١٩٢٠.

واستطاع أهالي كسب، في وقت قصير ورغم الشدائد، أن يتغلبوا على تدهور أحوالهم. وهكذا قدم لنا كليمان ــ غران كور وصفاً طريفاً لـ«جمهورية جبل الأقرع»[٣٦]، التي اكتشفها في ٢ أيار ١٩٢١ أثناء توليـــه قيادة كتيبتين من الرماة الجزائريين وسريـــة جبليـــة، عندما قادته العمليات العسكريـــة إلى الاوردو بعدما هجرها نصف سكانها التركمان. وعلم هناك أن الأرمن الذين أسسوا ما يشبه «جمهورية ذات حكم ذاتي، خاضعة لسلطة حكومة مديرين»، تواجدوا في كسب تحت حماية ميليشيا مسلحة. غير أن ذلك لم يكن كافياً لتأمين الحماية لهم، إذ أوضح قائلاً: «قبل مروري بالمنطقة، كانت [عصابات قطاع الطرق المسلمين] قد توغلت حتى كسب، فأحرقت العديد من المنازل، ودمرت بيت القس البروتستانتي ثم قتلتـــه». ولما أعلن عن قدومه و لم يتلقَ أي جواب، هدد بقصف البلدة، عندئذ رأى «حكومة المديرين» تهرع إليه ليلاً. وفي اليوم التالي، توجه إلى كسب نفسها، حيث استقبله السكان وهم يتزاحمون أثناء مروره. ولاحظ فيها أن الأرمن «منقسمون على أنفسهم» في السياسة أولاً، وفي الخلافات المذهبية ثانيـــاً. ولكن ما إن فارقهم حتى علم بمداهمة أهل كسب الاوردو وإحراقهم الحي التركماني.

وباتت كسب، إبان هذه الأحداث، ورغم دهشة العسكريين الفرنسيين وذهولهم، ملجأ آمنـــاً شرّعت أبوابها أيضاً للأقليات العلويـــة والروم الأرثوذكسية القاطنة في باير وقصير، اللتين تعرضتا للاعتداءات وخضعتا لنير التركمان والعصابـــات والآغوات، وفضلت أن تعتصم فيها مشاركة في عمليـــات الدفاع بإمرة قدامى فرقة المشرق، يتزعمهم اوفسيا صاغدجيان وميساك غيراغوسيان.

وإذا كان الدفاع قد وحّد أهل كسب في هذا المحيـــط المغلق الذي ساد فيـــه الزواج اللحمي، فإن النزاعات القديمة أخذت في الاشتعال واستمرت، وسرعان ما كتبت لها الغلبـــة مجدداً، تذكيها الشكوك حول مسؤوليات ساركوآغا أو الدكتور انجيجكيان عن فشل محاولة الصمود عام ١٩١٥. وانفجر الوضع مرة جديدة حين تسببت قضيـــة حب بين ابنة ساركو آغا وأحد سكان كسب في مقتل عم الشاب، مما أدى إلى الأخذ بالثأر. عندها تشابكت الانقسامات الطائفية مع الانقسامات السياسية في عقدة غدا من الصعب حلها. ونتيجة لذلك، قام رتل بانالبو، عام ١٩٢٢، بإبعاد ساكو آغا وأزلامه، وأغلبهم من الهنتشاك الرسوليين والكاثوليـــك أو اللاتين، إلى المنفى باتجاه الاسكندرون. ووقفت في المواجهة اللجنـــة التي كان القسم الأكبر من أعضائها الطاشناق بروتستانتياً.

إذذاك أسفرت تصفيـــة الحسابات هذه عن سقوط نحوعشرين ضحيـــة في كل من المعسكرين، و لم يحل اغتيـــال ساركو آغا مهدسيان عام ١٩٢٣ في انطاكية دون وقف دورة العنف. وبدا أن دسائس الأب ساباتينو صبّت الزيت على النار. كان هذا الراهب الفرنسيسكاني الإيطالي وجهاً محليـــاً طريفاً بعث الروح في الدفاع الذاتي عام ١٩٠٩. حثّـه حماسه الرسولي على تأمين انضمام أكبر عدد ممكن من الأشخاص

٣٤ مافيان، م. س.، ص. ٤٢.
٣٥ البير س. تاميريان، «كسب ١٩٠٩-١٩٤٦»، بيروت ١٩٥٦ ص. ٩٠.
٣٦ الجنرال كليمان-غرانكور، «في المشرق. قصص قطاع طرق. قصص حقيقية»، باريس، ١٩٣٦، ص. ٧١-٧٧.



صووك اولوك جاثمة فوق الاسكندرون تشاهد من عن يمين الشرفة كتلتها الممتدة على طول شاطىء البحر. كانت مقاهيها المتعددة تقدم للزائر مكاناً للترويح عن النفس، على بعد مسافة قليلة من الاسكندرون، وتتيح له التخلص من رطوبة الساحل القائظة.
فوتو ديرونيان ـــ مجموعة ميشال بابوشجيان

حـ الطقس اللاتيني، وذلك بواسطة تحريض الأرمن الكاثوليك عمداً على ترك طقسهم، وكان أسلوباً من بين أساليب أخرى استخدمها. أما في الأوساط البروتستانتية، فما لبثت الانقسامات أن برزت بين التابعين للجان الأميركية وأولئك المقربين من الطاشناق الذين رغبوا في أن ينعموا بالاستقلالية.

وفي ١٩٢٢، نال أهل كسب الإذن بإنشاء ناحية خاصة بهم تضم مديراً ومخاتير ومركزاً للدرك. وجرت انتخابات بالاقتراع العام في ١٩٢٣، فخصصت المقعد النيابي الوحيد في البرلمان السوري (وهو واحد من المقاعد الستة العائدة لسنجق الاسكندرون) للدكتور الجيجكيان من كسب[٣٧].

وابتداء من ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٧، امتدت شبكة الطرق تدريجياً نحو القرى المختلفة[٣٨]. وأسهم شق الطريق الجديد في فك العزلة عن المنطقة والحد تدريجاً من الصراع الخفي الذي انهمكت به الأحزاب في كسب.

هنا أيضاً استعادت تربية دود القز، وكانت النشاط الرئيسي للسكان في مرحلة ما قبل الحرب، أهميتها السابقة منذ عودة المرحلين إلى ديارهم. غير أن الصعوبات المتأتية عن تدني أسعار السلع العالمية اقتضت دعم السلطات التي حثت إدارة حصر التبغ على زراعة الدخان انطلاقاً من ١٩٢٧[٣٩].

وبلغ عدد السكان، الذي تناقص بشدة جراء الإبادة الجماعية، ٢٦٢٧ أرمنياً في ١٨ كانون الأول ١٩٢٦، على ما بيّنه «تقرير جونسن».

أما في مجال التربية، فأعطيت الأولوية، بعد العودة، إلى تنظيم مدرسة وحيدة مختلطة وميتم واحد[٤٠]. وفي وقت قصير، حفزت المنافسة القائمة بين مختلف الطوائف كلاً منها على افتتاح مدارس جديدة، إضافة إلى مدرسة الفرنسيسكان (في كسب وباغ تشاغاس) وإلى مدرسة الرامغافار عام ١٩٣٥ (في دوز اغاج).

٣٧ النقيب لوهياك، مخابرات المشرق، مركز كسب، ١٦ أيار ١٩٤٠، ذكره تاميريان، ص. ٢٢٤ وما يليها.
٣٨ مافيان، م. س.، ص. ٧٥.
٣٩ م. ن.، ص. ٤٠
٤٠ م. ن.، ص. ٤٤.

وفي تشرين الثاني ١٩٣٢، وقّع رجال الدين ووجهاء ناحيـــة كسب عريضة رفعوها إلى مقام المفوض السامي باسم «أربعة آلاف ساكن في عشر قرى صغيرة»، طالبوا فيها بإلحاقهم بالدولـــة العلوية، التي يربطهم بها الجزء الأكبر من نشاطاتهم الزراعيـــة وتربيـــة الماشية وتموضع أراضيـــهم ومراعيهم. لقد أرادوا أن يأخذوا احتياطاتهم من خطر التنـــازل عن السنجق لتركيـــا، على ما بدأت تلمح إليـــه الإشاعات المنتشرة بين الناس. والتمس المستشار المساعد رأي موفسيس ديـــر كالوستيان، فأبدى عدم موافقتـــه على ذلك، ونعت «بالخيانـــة تجاه الأرمن» هذا الطلب الذي يُحتمل أن يضعف من شأن الأرمن في السنجق، من دون أن يرفع قدرهم داخل دولة العلويين[٤١].

الاسكندرون

اتّخذت المدينـــة مقراً لإقامة المندوب المساعد للمفوض السامي، ما عدا خلال الصيـــف إذ كان يمضيـــه في انطاكية. وقد بلغ عدد السكان حوالي عام ١٩٣٣ ما يناهز ١٣٠٠٠ نسمة، منهم ٥٨٧٥ أرمنيـــاً رسولياً (من بين هؤلاء ٤٧١٠ مهاجرين)، و٤٠٠ أرمني كاثوليكي، كما هناك ٢٤٨٣ من الروم الأرثوذكس، وجماعات صغيرة من اللاتين، والموارنة، والروم الكاثوليـــك، والكلدان، والسريـــان و١٠٨ بروتستانتيين. أما العلويون الذين يتواجدون بأعداد كبيرة في جنوب القضاء، لجهة ارسوز، فبلغ مجموعهم ٢٢٧٦ نسمة، والعرب الآخرون ٣٠٣ والأتراك ٩٦٦ نسمة[٤٢]. هذا، ولا تمدنا المصادر المعتمدة بمعلومات عن وضع قدامى أهل المدينـــة الأرمن، بينما تكثر الكلام على مخيمات اللاجئين المنتشرة في الضواحي.

بيلان

كانت قاعدة المديريـــة، يجتازها الطريق الوحيد الذي يربط الاسكندرون بإنطاكية وحلب عبر جبال امانوس، وهي تشرف، بارتفاعها البالغ ٥٠٠ م.، على الاسكندرون. تقوم البلدة عند مدخل الممر الجبلي الذي يحمل اسمها، وتقسمها وهدة عميقـــة، يجتازها الطريق، إلى قسمين: من ناحيـــة، بيوت الأتراك ذات الطبقات المتعددة، ومن الناحيـــة الأخرى بيوت الأرمن. ولمعظم العائـــلات الميسورة في الاسكندرون موطىء قدم هنـــاك. وبيلان، على غرار قرى المنطقـــة الأخرى صووق اولوك، أو عتيق أو نركيزليك المشهورة بمياهها الصحيـــة الغزيرة، تعتبر أحد أماكن الاصطياف الرئيسية في السنجق، حيث يمكن استئجار غرف أثناء فصل الصيف. وبلغ عدد سكانها حوالي عام ١٩٣٣ ٣١٢٧ نسمة موزعين بين ٢١٣٠ تركيـــاً و٩٩٧ أرمنيـــاً[٤٣].

انطاكية

في هذه المدينـــة الكبيرة التابعة للسنجق، وموطن الحركة التحريريـــة الوحدوية التركيـــة، عاش عدد ضئيل من الناجين الأرمن الذين عادوا من عملـــية الترحيل.

عتيق

تقع هذه القرية الأرمنيـــة، التي بلغ عدد سكانها ٣٥٠ نسمة سنة ١٩٣٣، في بقعة جميـــلة تمتد على سفح جبل امانوس وتشرف على الاسكندرون، وهي غير بعيدة عن بيلان. يتراوح ارتفاعها بين ٩٠٠ و١٠٠٠ م.، وتطل على البحر إطلالـــة واسعة. كذلك تتمتع بمناخ لطيف وبينابيع غزيرة تساعد على نمو نباتـــات وفيرة وعلى العنايـــة ببساتين الفاكهة، كما أن فنادقها الصغيرة وإمكانيـــة استئجار بيوت متواضعة فيها جعلت منها مكاناً ملائماً للاصطياف. وعلى مقربة منها، تقوم « قرية فقيرة يقطنها لاجئون أرمن»[٤٤].

٤١ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا ـــ لبنان، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ١٠٦٥، التماس أصدره المستشار المعاون في المفوضية العليا في سنجق الاسكندرون إلى المندوب العام للمفوضية العليا. ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٢، وأرفق ببريد ٤ كانون الأول ١٩٣٢؛ المستشار المعاون في المفوضية العليا لسنجق الاسكندرون إلى المندوب العام للمفوضية العليا، ٣ كانون الأول ١٩٣٢، تقرير الملازم الأول غاندولي، ١٧ كانون الأول ١٩٣٢، وجواب دير كالوستيان الملحق بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٢.

٤٢ جاكو. م. س.، ص. ٥٩-٦٠.

٤٣ م. ن.، ص. ١١٠-١١١.

٤٤ م. ن.، ص. ١٠٦.

صووك أولوك

تقع هذه القرية الأرمنية من علو ٩٠٠ ــ ١٠٠٠ م. على مدينة الاسكندرون وخليجها. وتتدرج بيوتها على منحدرات جبل امانوس، على مسافة قصيرة من بيلان. وبما أن الطبيعة حبتها بالوفير من الينابيع والأحواض وسط بيئة غنية بالنبات، فإنها تُعتبر مكاناً مثالياً للنزهات والرحلات، كما أن فنادقها المتعددة وبيوت الاصطياف فيها وغرفها المعدة للإيجار جعلت منها موئلاً للاصطياف يرتاده سكان الاسكندرون وبيروت وسكان حلب[٤٥] أيضاً.

نركيزليك

تبعد عن الاسكندرون ١٢ كلم. تقع على علو ٤٠٠ م.، ويبلغ عدد سكانها ٢٠٠ نسمة ما بين أتراك وأرمن. تشغل موقعاً ممتازاً وسط منطقة مشجرة، وهي غنية بالينابيع الغزيرة ومغمورة بالاخضرار. وتُعتبر بدورها مكاناً أنيقاً للاصطياف يقصده سكان الاسكندرون[٤٦].

٤٥ جاكو، م.س.، ص. ١٠٤.
٤٦ م.ن.، ص. ١٣٤.

المستوطنات الجديدة

قصة تولي مسؤولية تنظيم المخيمات والمستوطنات الأرمنية

عرفت الاسكندرون، إثر التنازل عن كيليكيا عام ١٩٢٢، تدفقاً كثيفاً ومفاجئاً للاجئين. ويبدو أن سلطات الانتداب ظلت مكتوفة الأيدي حيال هذا المد البشري العارم، فصدمت لامبالاتها «أصدقاء أرمينيا» العاملين على الأرض. والواقع أن هؤلاء أبلغوا وزارة الخارجية البريطانية، في آذار ١٩٢٢، بالوضع الكارثي السائد داخل هذا التجمع الذي ضم ٢٠٠٠٠ لاجىء أرمني. ورفع اللورد كورزن، المشارك في مؤتمر السلام، القضية إلى ريمون بوانكاريه، رئيس الحكومة الفرنسية، وإلى الجنرال غورو. وعندما شعر هذان الأخيران أنهما لدغا في الصميم، طلبا مزيداً من المعلومات من «دوكيكس»، الذي كان يقوم يومئذ بجولة



عائلة أرمنية في نور زيتون (أكيز كوبرو).
مجموعة م.ش. ــ ج.ق.ي



الاسكندرون، أيار ١٩٣٧، استعراض
تلاميذ مدرسة لوبازيان.
مجموعة م.ن.ا



نور زيتون، إقامة مستوطنة للاجئين أرمن.
مجموعة م.ن.ا



الاسكندرون، ١٩٣٩، إجلاء السكان الأرمن،
وصورة أخيرة للعائلة على رصيف الرحيل.
مجموعة م.ن.ا.



الاسكندرون، الهيئة التعليمية في مدرسة نوباريان التابعة للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية. مجموعة م.ن.ا

تفقدية في الاسكندرون برفقة الدكتور ملكونيان، ممثل المصالح الأرمنية في سوريا[٤٧]. ويرجّح أن الضغوط التي مارسها ماك افي، مدير «إغاثة الشرق الأدنى»، لم تذهب سدى بالنسبة إلى إثارة الاهتمام المباغت باللاجئين الأرمن. ففي تقرير مؤرخ في ١ نيسان، قدّر، من جهته، عدد اللاجئين المقيمين في الاسكندرون عشرة آلاف لاجىء. واقترح، لحل المشكلة، إجلاء أربعة إلى خمسة آلاف باتجاه الجنوب، وذلك بإسكان ألفين منهم في أراض زراعية لم يسبق استغلالها، وألف وخمسمئة في المنطقة العلوية، وألف خمسمئة غيرهم في منطقة حماه ــ طرابلس[٤٨]. ومنذ أيار ١٩٢٢، أمر بنقل الأرمن المتحدرين من اكباز صوب اللاذقية من دون إبطاء. ولما كانت مسألة تجميع الأرمن لا تزال قائمة، تفقد جوزف بورت المنطقة في ١٩٢٥، وخلص إلى القول بأن منطقة انطاكية ملائمة لاقامة المستوطنات[٤٩].

وفي ١٩٢٦، أشار بول برون، مدير «العمل المسيحي في الشرق» إلى ضرورة إنشاء مستوطنات زراعية على وجه السرعة. وحدد ثلاث مناطق للاستيطان: السويدية وكسب، وكان السيد و. اوسكان، وهو خبير زراعي معترف به، قد اقترحهما بعد القيام بتحقيقه، وأضاف إليهما منطقة اللاذقية ــ طرابلس[٥٠]. وقام بورنيه، الذي أوفدته المندوبية العليا للاجئين، في نيسان ١٩٢٦، بجولة ميدانية تفقدية

٤٧ ت. ه. غرينشيلدز، «توطين الأرمن اللاجئين في سوريا ولبنان، ١٩١٥-١٩٣٩»، أطروحة دكتوراه، جامعة درهام، ١٩٧٨، ص. ٢٨٨.

٤٨ م. ن.، ص. ٢٨٩.

٤٩ م. ن.، ص. ٢٩٤.

٥٠ م. ن.، ص. ٢٩٥.



صووك صو في الثلاثينات من القرن المنصرم. هذه المستوطنة الزراعية القائمة جنوب كيريك حان، كانت في البداية تضم عائلات متحدرة من دورتيول. مجموعة م.ن. ا

بصحبة الدكتور دوغه، مدير دائرة الصحة في جيش المشرق. وخلص الرجلان إلى ضرورة التدخل بأسرع ما يمكن حرصاً على مصلحة اللاجئين الأرمن. ورسم بورنيه، بعدما حث الصليب الأحمر والدكتور نانسن على المساهمة في تولي مسؤولية إسكان القسم الأكبر من عائلات المزارعين (من ستة إلى سبعة آلاف)، رسم الخطوط العريضة لمشروع إنشاء مستوطنات زراعية وافق عليه المفوض السامي السيد دوجوفينال. وفي أعقاب ذلك، عيّن بورنيه أخيراً ممثلاً لمكتب العمل الدولي وللجنة الصليب الأحمر الدولية على السواء[٥١].

ولمباشرة هذا المشروع، حجزت الجهات المذكورة منطقة انطاكية — السويدية الساحلية، التي كانت تضم من قبل العديد من القرى الأرمنية، والتي كانت «جمعية الإغاثة» الأرمنية في حلب قد أجرت دراسة أولية حولها[٥٢]. عندئذ أحصى « تقرير جونسن »، الصادر في ١٨ كانون الأول ١٩٢٦، لاجئي السنجق واحتياجاتهم تحسباً للمساعدة الواجب تقديمها[٥٣]:

- مخيم الاسكندرون: ٥٣٥٠ أرمنياً (١٣٥٠ عائلة) ٤٥٠ منها في حالة بؤس و٦٥٠ عائلة أخرى وضعها غير مستقر أبداً. اقترح نقل ١٠٠٠ عائلة إلى مكان آخر، مثل جبل موسى، أو العمل على تخفيف مستنقع الاسكندرون حيث كانوا يقيمون.
- بيلان (المنطقة): ١٣٥٠ أرمنياً من السكان الأصليين، و١٥ عائلة فقط تشكو العوز.

٥١ غرينشيلدز، م. س.، ص. ٣٠٣.
٥٢ م. ن.، ص. ٣٠٤.
٥٣ م. ن.، ص. ٣٠٦.



ابدال هويوك، في الثلاثينات من القرن الماضي، كانت تؤلف إحدى المستوطنتين الزراعيتين القائمتين في مكان سابق للخدمة العسكرية. وكانت مساكنها تتزاحم حول تلتها الصغيرة.
مجموعة م.ن.ا

- كيريك خان: ١٨٠٠ أرمني (٤٤٠ عائلة)، ٦٠ عائلة منها تعاني البؤس.
- الريحانية: ٦٠ لاجئاً أرمنياً استقروا فيها بصفة مزارعين، وضمن شروط معقولة.

ووضع دوغه خطة شديدة الشبه بخطة جونسن، إذ تضمنت استيطاناً زراعياً يتلازم مع استيطان حضري، وعمل على إسكان ١٥٠ عائلة في منطقة انطاكية [٥٤]، لذا فإن اقتناء خمس مزارع كان لا بد من أن يلبي مشروع الاستيطان هذا، على نحو ما هو مقترح في خطة دوغه[٥٥]. في تلك الأثناء، تضاعفت أسعار العقارات، وأخيراً تم شراء واحدة من هذه المزارع في اكيز كوبرو، في جبل موسى في ١٠ آب ١٩٢٧. وأقدم بورنيه لاحقاً على شراء مزرعتين أخريين: واحدة في صووك صو(سهل عموق) نهاية عام ١٩٢٧، والثانية في باي ساكي عام ١٩٣٠[٥٦]، وتمت مؤازرة لاجئين آخرين أثناء إيوائهم في كيريك خان.

وفي تشرين الأول ١٩٢٧، حصل بورنيه من السلطات المحلية على عقد إيجار مدة ثلاث سنوات قابلة للتمديد، ويشمل العقد مساحة الـــ ٦٥٠ هكتاراً، وهي تابعة لــ «سابق الخدمة العسكرية» ومخصصة لإيواء مئة وخمسين عائلة.

أما بالنسبة إلى كيريك خان، فقد فاوض، في ١٩٢٧، بشأن قطعة أرض شبه مهملة مساحتها مئة هكتار تقريباً، تمتلكها إرسالية الآباء اللعازريين بهدف إعادة تأسيس إرساليتهم القائمة في اكباز، ولكن بورنيه تمكن، في نيسان ١٩٢٨، من تلافي شروط الآباء الرهبان وأسكن في المكان ستاً وثلاثين عائلة[٥٧].

٥٤ غرينشيلدز، م. س.، ص. ٣٠٩.
٥٥ أرشيف مكتبة نوبار، «إسكان الأرمن في سوريا ولبنان، ١٩٢٥-١٩٢٩»، من جونسن إلى باشاليان، تقرير حول إسكان اللاجئين الأرمن في المستوطنات الزراعية ضمن الأراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي، ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٧.
٥٦ غرينشيلدز، م. س.، ص. ٣١٤-٣١٥.
٥٧ أرشيف مكتبة نوبار، إسكان الأرمن في سوريا ولبنان، ١٩٢٥-١٩٢٩، تقرير ل. باشاليان، كانون الأول ١٩٢٧، ١٣ آذار ١٩٢٨.

وقرر أيضاً بورنيه، في ١٩٢٨، أن يعجل في بناء أحيـــاء جديدة لتدارك الصعوبات المتعددة التي واجهها عند إقامـــة المستوطنات الزراعيـــة[٥٨]. فاشترى «المكتب» في الريحانيـــة وكيريك خان قطع أرض من أجل تطوير أحياء «مدينية » جديدة عليها.

ولتجنب الفشل الذي لقيــه في رأس العين، عقد العزم على أن ينشيء مجمعات حقيقيـــة أرمنية تتمحور حول ثلاثين عائلـــة على الأقل يحشد فيها أشخاصـــاً ينتمون إلى أصل جغرافي واحد[٥٩]. غير أن المشروع المنفذ في السنجق لم يلاقِ النـــجاح المأمول، إذ إن الظروف المناخية السائدة أثنـــاء هذه الحقبـــة (تقلبـــات الجوِ والجفاف) والتقهقر الاقتصادي العام (تدني أسعار المنتوجات الزراعيـــة) لم تمكّن اللاجئين من تأمين أسباب العيش إلاّ بصعوبـــة بالغة، وعلى رقع أرض صغيرة جداً. فقد كانوا، بمداخيلهم الضئيلـــة، عاجزين عن تسديد الديـــون. لذا غادر العديد من المزارعين صووك صو، وهاياشين ونور زيتون مع نهايـــة ١٩٣٠، وقد أصيبوا بخيبـــة أمل ويأس. كما لم تساعد الشروط الصحيـــة على حمايتهم بشكل فعال من كوارث الملاريـــا (هاياشين ١٩٢٨) والحمى (نور زيتون ١٩٢٨)[٦٠]، ومن فترات مجاعة جراء البيع بخسارة ونتيجـــة الأضرار المتأتيـــة عن الحشرات.



كيريك خان.
مجموعة م. ش. ـــ ج.ق.ي

واذا تحسّن الوضع تدريجاً، تبرم القرويون من تسديد ديونهم للمكتب، ابتداء من ١٩٣٧. فقد خافوا أن يضطروا إلى تـــرك ممتلكاتهم، إذ أثرت فيهم إشاعـــات عن تخلي الفرنسيين عن السنجق. لذلك، بين حزيران وآب ١٩٣٨، غادروا الريحانيـــة وصووك صو وحتى كيريك خـــان بأعداد كبيرة. وهكذا أدت الهجرة الجماعيـــة في تموز ١٩٣٩، إثر إعلان ضم المنطقـــة إلى تركيـــا لاحقاً، إلى إخلاء السنجق من سكانـــه الأرمن إخلاء تاماً.

الاسكندرون *(المخيمات)*

استقبلت الاسكندرون، التي كانت قبلاً تؤوي جماعات من الأرمن، موجات من اللاجئين في ١٩٢٠ و١٩٢١، غير أن العديد منهم تشتتوا في ١٩٢٢، وزال قسم كبير من المخيمات. في بادىء الأمر، نُصب، عام ١٩٢٠، مخيم مؤلف من خيم عسكرية واسعة خارج المدينة، بجوار نبع ماء، وبمساعدة حاكم المدينة العسكري. على أن اسباباً صحية قضت نقله في اتجاه جديد إلى شرق محطة الخط الحديدي، حيث جرى نصب حوالي عشرة أكواخ بطول ٣٠ متراً. وفي ١٩٢١، تكاثرت أعداد اللاجئين بصورة مأساوية واستقر الوافدون الجدد جميعهم في مخيمات تحيط بالمدينة، وتقوم على أراض مستنقعية. وبالرغم من نداءات المحترم ه. لايتل من الإرسالية الإرلندية في الاسكندرون والقنصل البريطاني، الموفد من قبل آني ديفيس من «أصدقاء أرمينيا»، وبالرغم حتى من تعليمات المفوض السامي، لم يبذل أي جهد لمساعدة اللاجئين الذين تجمعوا في المكان، فأمضوا شتاء غزير الأمطار في ملاجىء مؤقتة مصنوعة من خيم مقواة بألواح خشبية زودهم بها «أصدقاء أرمينيا» بغية إبقاء ألفرش جافة[٦١].

وحين أكّد دوكه، في نيسان ١٩٢٢، أن الظروف الصحية المحلية جيدة، كان على تناقض تام مع مجمل التقارير التي وصفت مخيمات الاسكندرون بأنها الأقل صحية في سوريا. وقد أحصى فيها الدكتور ملكونيان اثني عشر إلى أربعة عشر ألف لاجىء (من دورتيول وضواحيها) مخيمين وسط المخيمات، ومحرومين من كل عون وأي وسيلة لكسب عيشهم، مكرهين على البطالة. كانوا مجمعين في مخيمين: «المخيم الغربي، ويضم ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ أرمني، ويمتد من جانبي طريق بيلان ـــ حلب ومن شريان آخر في المدينة. لقد بنى اللاجئون فيه أكواخاً مريحة

٥٨ غرينشيلدز، م. س.، ص. ٣١٧.
٥٩ أرشيف مكتبة نوبار، توطين الأرمن في سوريا ولبنان، ١٩٢٥–١٩٢٩، من جونسن إلى باشاليان، ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٧.
٦٠ م. ن.، ص. ٣٤٠.
٦١ م. ن.، ص. ٤٩٠–٤٩١.

حوّلوها شيئاً فشيئاً إلى مساكن خشبية، مما كاد يؤدي إلى تشكيل حي جديد في المدينة؛ وكان جميع اللاجئين يكسبون رزقهم، لذا اعتبر من غير المعقول بالتأكيد نقلهم. أما المخيم الشرقي فيقوم وسط أرض سبخة تحوي ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ أرمني يتكومون تقريباً في نحو عشرة أكواخ خشبية واسعة بنتها الإدارة المحلية، وفي أكواخ أخرى حقيرة تحيط بها سوق صغيرة ذات مياه آسنة. هنا أقام أبناء حسن بيلي الشجعان وأبناء دورتيول أيضاً»[٦٢]. وتم إنشاء مدرسة مجانية لـــ ٣٠٠ إلى ٣٥٠ تلميذاً من كلا الجنسين داخل كوخ خشبي.

وعادت مشكلة ملكية الأرض، المهملة إلى حد ما، إلى الظهور مع اعتراضات مالكي الأراضي، وعززت الإحساس بعدم الاستقرار الذي لاحظه دوكه في كانون الأول ١٩٢٦، فاقترح بورنيه على السلطات الفرنسية بناء حي مديني جديد في الاسكندرون، في موقع المعسكر القديم المعروف بـــ«معسكر المستنقعات» الذي كان ينبغي أن تستملكه البلدية. فأقدم على شرائه عام ١٩٢٨، من دون انتظار موافقة جنيف. عندها قررت البلدية مدّ قنوات لتجميع مياه المجاري بقصد تأمين سلامة المدينة صحياً، وهذا ما أرغم مائتي عائلة على الرحيل. وجرى استملاك مساحة من الأرض في ضاحية المدينة على امتداد طريقي حلب وارسوز. غير أن كثيرين من الفقراء ذوي الفاقة حصلوا بصعوبة على قطع أرض في الحي الذي أقدم على استملاكه مكتب نانسن[٦٣].

كيريك خان

منذ أبلغ الدكتور ملكونيان، عضو الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، في ١٩٢٢، بمشروع إسكان لاجئي حسن بايلي في كيريك خان، طلب مقابلة دوكه. وفي ختام مناقشة دارت بينهما عرض خلالها أسباب معارضة القادة الأرمن لهذا المشروع، ومنها أن المنطقة أساساً هي منطقة سكن تركية عاثت فيها العصابات التركية فساداً، وهي قريبة من الحدود وبعيدة عن الشاطىء، نال وعداً برفض سلطات الانتداب مثل هذا التدبير[٦٤].

إلاّ أن الفرنسيين كانوا، على ما يظهر، بحاجة إلى إقامـــة مركز إقليمي لهم في المكان وتطوير هذه المنطقة المحرومة ليحسنوا ضبط المناطق الحدوديـــة. وكانوا يفكرون في توطيد الأمن فيها بإسكان لاجئين أرمن فيها يعملون على توفير حمايـــة لهم.

في البداية، كانت محطة التوقف هذه تضم بعض الخانات الصغيرة، قبل أن تشهد تدفق الأرمن الذين كانوا، حتى تاريخه، يخيمون في منطقة اللاذقية. وفي ١٩٢٣، منحت المفوضية العليا الفرنسية الأب هنري همدر، الزائر الإقليمي للآباء اللعازريين، وكتعويض عن الممتلكات المفقودة في أكباز، عقاراً فسيحاً لإطلاق إرساليته مجدداً في كيريك خان، وهو عبارة عن «أرض قليلة الخصوبة، تملأها حصى مستديرة». فجمع فانسان باسكس، الذي تولى مسؤولية إدارتها، قدامى أبناء رعيته الناجين من اكباز، وانضم إليه، في ١٩٢٦، اوغست مالافل الذي أنهى بنجاح عملية تشييد الأبنية وكرّس الكنيسة في ١٩٢٩. حينذاك تم التخلي عن الإرسالية للآباء اليسوعيين الذين نهضوا بها بمساهمة راهبات يســوع المكفر عن خطايا البشر التابعات لمدينة ليون.

وسرعان ما أصبح كيريك خان بلدة كبيرة ببيوتها المنسقة على امتداد الطريق، والمرصوصة على منحدرات التلال، وقد قُدّر عدد سكانها حوالي عام ١٩٣٤ بأكثر من ٥٠٠٠ نسمة (٣٠٠٠ أرمني رسولي، و٥٠٠ أرمني كاثوليكي و١٠٠ تركي). وأخذت مشاتل الحور تنقي الأراضي الواطئة، وبُنيت بيوت صغيرة مستطيلة من الطوب والحجارة المبرومة المغطاة بالاسل والصفيح، بيوت مؤلفة من غرفتين، «الأولى الرئيسية هي بحصرها ومقاعدها مسكن العائلة، والثانية الصغرى تستخدم كمخزن للمؤونة وخم للدجاج، وحتى كاسطبل للحمار أو الماعز»[٦٥].

وأنشأ الآباء اليسوعيون والراهبات مدارس فيها، وأمنوا الخدمة في مستوصف يعالج الأمراض الشائعة: حمى المستنقعات، والزحار، والرمد الصديدي والتراخوما... وكان للأرمن الرسوليين أيضاً مدرستهم.

٦٢ أرشيف مكتبة نوبار. الدكتور ملكونيان إلى رئيس الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، ٢٥ نيسان ١٩٢٢، رقم ٤٦.

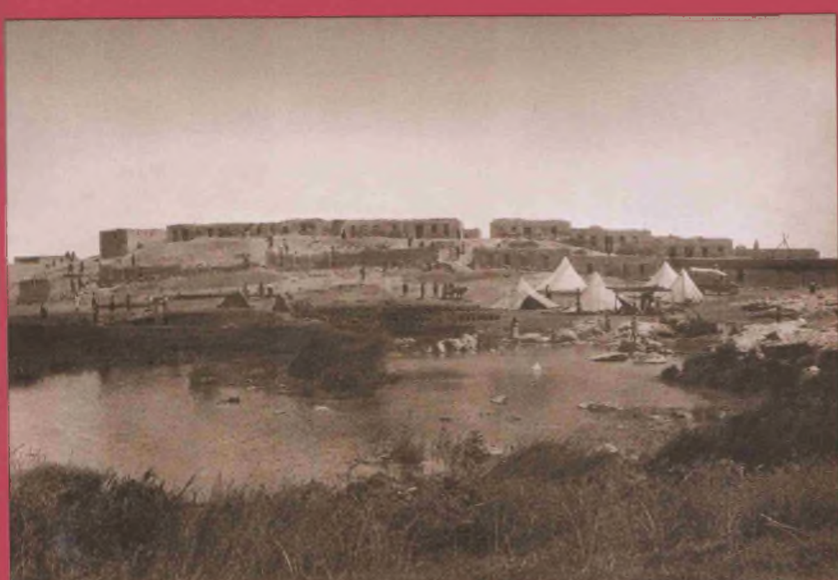
٦٣ غرينشيلدز، م. س.، ص. ٤٨٥.

٦٤ أرشيف مكتبة نوبار، الدكتور ملكونيان إلى رئيس الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، ٣٠ أيار ١٩٢٢، رقم ٥٦.

٦٥ لوي جالابير، «سوريا ولبنان، هل من نجاح فرنسي؟» باريس ١٩٣٤، ص. ١١٢-١١٩.



هاباشين في الثلاثينات من القرن الفائت. تؤلف المستوطنة الزراعية الثانية القائمة ضمن العقار المعروف بسابق الخدمة العسكرية. وكانت بيوتها المنشأة بالطوب الجاف والمقامة على مرتفع صخري، تشرف على السهل. مجموعة م.ن.ا



هاباشين، صورة التقطها ميسريان. مجموعة م.ش. — ج. ق. ي

جاكو، الذي مر بها في هذه الفترة، وجد فيها أكثرية ساحقة من الأرمن المتحدرين من مناطق توزتيول، ومرعش وعنتاب، وقد تحسنت أوضاعهم في أمد قصير. وكان، على رأس كل طائفة، رجل دين وأطباء عدة وطبيب أسنان يهتمون بحالة السكان الصحية. ثم ما لبث التجمع أن صار بسرعة مركزاً إدارياً تتم فيه المبادلات ويمر عبره العديد من قطعان الغنم التي تساق باتجاه مرفأ الاسكندرون، وينمو فيه إنتاج الخضار والفاكهة، وصناعة السروج وعدة الرواحل. وكان معمل أنشأه البلجيكيون حوالي ١٩٣٤ ينتج الحصر المنسوجة من القصب المضغوط. في هذه القرية الصغيرة، حيث بدأ الأرمن يحتشون من نشاطاتهم الزراعية والحرفية والتجارية، طفقت الأحداث، اعتباراً من ١٩٣٦ وخصوصاً من ١٩٣٨، تدفع تدريجاً عدداً متنامياً من الأرمن إلى الهجرة المتخفية، وذلك حتى قبل الهجرة الجماعية في تموز ١٩٣٩.

جول بالمستوطنات *الزراعية* [٦٦]

- **ابدال هويوك**: أنشئت عام ١٩٢٨ في قضاء كيريك خان ضمن ناحية الريحانية على أرض تابعة لـ «سابق الخدمة العسكرية »، وشغلت مساحة ٢٠٠ هكتار قرب هاياشين. أنجز تشييد ستين بيتاً مرتقباً في كانون الأول ١٩٢٩. والستون عائلة (٢٤٧ شخصاً) التي سكنت مثل هذا العدد من البيوت توجب عليها أن تسدد قرض الاستملاك في عشرة أقساط سنوية. وانطلاقاً من ١٩٣٠، غرسوا ٤٢٩٠٠ شجرة (حور، ومشمش وتوت) وقاموا بزراعة الحبوب والبقول وعنوا بتربية دواجن تألفت من ٢٥٢ رأساً وقرابة ٨٠٠ دجاجة. وفي ١٩٣٠، استقبلت مدرسة خمسين تلميذاً (٦٥ في ١٩٣١). وعنيت جمعية إغاثة الشرق الأدنى بمستوصف تؤمن فيه الخدمة الصحية.
- **باي ساكي**: أنشئت عام ١٩٣٠ بجوار ارسوز على منحدر تلة فوق رقعة صغيرة. ضمت عدداً قليلاً ممن سيصبحون حطابي المستقبل في المنطقة. انطلقت القرية بسبع عائلات كانت تواصل عملية استصلاح الأراضي، ثم أصبح العدد ٢٠ عائلة في ١٩٣٢[٦٧].
- **هاياشين**: أنشئت في تموز ١٩٢٨ في قضاء كيريك خان على عقار تابع لـ «سابق الخدمة العسكرية»، تبلغ مساحتها الإجمالية ٢٧٠ هكتاراً، وهي تقع في سهل «عموق»، بين الريحانية وحارم، في موضع قرية قديمة كانت الحكومة التركية خصصتها سابقاً لمهاجرين شراكسة فتكت بهم الملاريا. تربض القرية فوق تلة صغيرة قائمة في السهل وتتألف من بيوت مبنية بطوب من لبن مجفف. وقد غرست حول القرية أشجار كينا، وبدأت أعمال التجفيف والري بإشراف المهندس الزراعي السيد دومانيان[٦٨]. انتهى تشييد الأبنية في كانون الأول ١٩٢٩. وكانت عبارة عن ١٠١ بيت (و٢٥ اسطبلاً) تؤوي ٧٨ عائلة (٢٦٤ شخصاً)، وكان ينبغي تسديد القرض الممنوح لبنائها بعشرة أقساط سنوية[٦٩]. افتتحت مدرسة عام ١٩٣٠ (٧٣ تلميذاً). وفي السنة نفسها، تم غرس ٨٣٤٠٠ شجرة (حور، وتوت، ومشمش، ورمان وكرمة)، وتطوير زراعة الحبوب والبقول. وكانت المستوطنة تعنى آنذاك بتربية قطيع يتألف من ١٧٦ رأساً (معظمها أبقار)، و١٨٢٥ طيراً داجناً.

٦٦ وزارة الخارجية: المشرق ١٩١٨ -١٩٤٠، أرمينيا، المجلد ٢٤، تقرير بورنيه عن ١٩٣١.

٦٧ مكتبة نوبار، تقرير مكتب نانسن، إسكان الأرمن، عام ١٩٣٢، ٢٠٨٠، ٣٤-١٩٣٣.

٦٨ مكتبة نوبار، مقتطفات من تقرير الدكتور هريشداكيان، ٢ تشرين الثاني ١٩٢٨.

٦٩ أرشيف مكتبة نوبار، تقرير الدكتور هريشداكيان، ٢٧ أيلول ١٩٢٨.

- **اكيز كوبرو [نور زيتون]**: نشأ هذا العقار البالغ ٦٠٠ هكتار في آب ١٩٢٧، داخل قضاء انطاكية، بالقرب من بتياس في جبل موسى. واستقرت فيه العائلات الأولى في أيار ١٩٢٨، بعدما كانت تقيم قبلاً في بتياس. إلاّ أن دوائر الانتداب والمفوضية العليا استقبلت بصعوبة لاجئين قدموا من مخيمي الاسكندرون وبيروت، وهم في غالبيتهم من مواليد بلدة زيتون. وإذا كانت المستوطنة في البداية، أي في كانون الأول ١٩٢٧، قد تجمعت فيها ٣٢ عائلة، فإنها ما عادت تستوعب، في ١٩٣٠، سوى ١٦ عائلة (٦٣ شخصاً) قطنت في هذه القرية المؤلفة من ٣٦ بيتاً تم بناؤها عام ١٩٢٩، وفيها أيضاً مدرسة. وكما في المستوطنات الأخرى، أملت العائلات



كيريك خان في الثلاثينات من القرن الماضي. كانت على عهد العثمانيين مجرد محطة للاستراحة على طريق القوافل تضم بعض الخانات. في عام ١٩١٩، فتك الأتراك فيها بالأرمن. وابتداءً من العشرينات، أصبحت كيريك خان مدينة صغيرة يناهز عدد سكانها الخمسة آلاف نسمة، معظمهم من الأرمن، وقد قدم أتراك للإقامة فيها في جو من التعايش السلمي. مجموعة م.ن.ا

أن تسدد المبالغ المقترضة على عشرة أقساط سنوية. وكانت، في ١٩٣٠، قد غرست ٧٩٨٠ شجرة، وقامت بتربية الماشية: ٣٦٣ رأس ماعز ،واعتنت بأربع خلايا نحل، وسعت جاهدة لتعتاش من زراعة الحبوب والبقول (تبغ، وبطاطا وبصل). كما أمن فيها الصليب الأحمر الخدمة الصحية عام ١٩٣٠.

- **صووك صو**: «هذه القرية الأرمنية الجميلة المتوارية تحت ظلال أشجار الحور»[٧٠]، الواقعة في قضاء كيريك خان، سكنها الأرمن في تشرين الثاني ١٩٢٧، وأنجزت الأعمال فيها في كانون الأول ١٩٢٨. تبلغ مساحتها ١٠٠ هكتار وتقع على بعد ٤ كيلومترات جنوب كيريك خان. تبنتها المؤسسة البريطانية «أصدقاء أرمينيا» عام ١٩٢٨. ضمت، في ١٩٣٠، ٤٦ بيتاً و١٠ اسطبلات حيث جرى إيواء ٤٠ عائلة (١٦٥ شخصاً). بلغ عدد الماشية، في السنة ذاتها، ١٦٣ رأساً (معظمها من الأبقار) إضافة إلى ٣٠٠ دجاجة. قامت القرية بغرس ١١٣٠٠ شجرة (حور، وتوت، وأشجار مثمرة)، وعنيت بتنظيم زراعة الحبوب والبقول وسعت إلى تطوير تربية دود القز. عام ١٩٣٠، افتتحت فيها مدرسة بفضل هبة قدمتها الآنسة ردكريف. هنا أيضاً أمّن الصليب الأحمر الفرنسي الخدمة الصحية.
- **الريحانية**: تقع إلى شرق السنجق على الطريق الذي يربط انطاكية بحلب عبر كيريك خان. ضمت هذه القرية العديد من عائلات المزارعين (٦٠ شخصاً في ١٩٢٦)[٧١].

٧٠ جاكو، م. س.، ص. ١٦٢.

٧١ دزوفينار كيفونيان، «لاجئون وديلوماسية إنسانية، الممثلون الأوروبيون والمسرح الشرق أوسطي في فترة ما بين الحربين»، باريس ٢٠٠٤، ص. ٤٧٤.

السنجق تحت الانتداب الفرنسي

ظلت المنطقة، من ١٩٢٤ إلى ١٩٣٤، هادئة نسبياً، على الرغم من تصاعد الحركات الوطنية. عندما عاد زكي الارسوزي، ذلك الناشط الوطني العربي، نصير الوحدة العربية، إلى انطاكية عام ١٩٣٤، وجد المدينة آخذة في الغليان جراء خطأ كبير ارتكبه دوريو، ممثل المفوضية العليا

في انطاكية، إذ دعا، بكل سذاجة، حاكم مدينة عنتاب. فاغتنم الوطنيون الأتراك، الكماليون، هذه الفرصة لكي يدّعوا حقهم في السيطرة على السنجق. وكان مؤتمر مونترو، في تموز ١٩٣٦، أعاد السيطرة التركية على المضائق، ورجّع تركيا، بعد انضمامها إلى عصبة الأمم في ١٩٣٢، إلى مكانتها على المسرح الدولي. وبوصول الجبهة الشعبية إلى سدة الحكم في فرنسا عام ١٩٣٦، بذلت مساع حثيثة لاستبدال الانتداب، الذي يضمن في جملة ما يضمن، سلامة الأراضي السورية بكاملها، بنظام تحالف مستوحى من النظام القائم بين بريطانيا والعراق، وعقدت النية على منح سوريا الاستقلال في حين قريب. وبعد مفاوضات صعبة، تمت المصادقة على المعاهدة الفرنسية ــ السورية المبرمة مع ممثلي زعماء الكتلة الوطنية السورية في ٩ أيلول ١٩٣٦. وللحال أقحمت أنقرة مسألة النظام «الخاص» للسنجق، الذي لا يمكن، في نظرها، أن يُضم إلى دولة سورية مستقلة، بل ينبغي الحفاظ على نظامه الخاص السابق الذي يمكن، عند الضرورة، جعله كياناً مستقلاً من المحتمل أن يكون مرتبطاً بفرنسا. ومن جانب آخر، راحت الصحافة التركية الهائجة تنشر مقالات نارية تروي فيها سفك «الدم التركي» الذي تسببت به الرشاشات والدبابات الفرنسية في السنجق[٧٢]. كما شرعت دوائر الدعاية ولجانها «التاريخية» تلفق، في الوقت عينه، تاريخاً خرافياً مختلقاً، يعيد، خلافاً لكل افتراض، أصل الشعب التركي الذي رقي بغتة إلى مصاف أحفاد الحثيين، إلى السنجق. واخترعت هذه المختبرات حتى اسماً بديلاً للسنجق هو «هاتاي». وكان لا بد لمطالب السلطات التركية من أن توقع في الحيرة والاضطراب ليون بلوم، رئيس الوزارة يومذاك، الذي حاول التنصل من مسؤولياته طالباً رأي عصبة الأمم[٧٣]. أخيراً، قررت فرنسا، التي كانت بريطانيا إلى حد ما تدفعها من خلف، أن تباشر المفاوضات مع تركيا.

بدأ الدكتور توفيق رستو (اراس)، وزير الخارجية التركي، وصهر الدكتور ناظم والعضو السابق البارز في حزب تركيا الفتاة، معركة قانونية مباشرة أمام عصبة الأمم مستعيناً بحجج مموهة. وارتأت الاتفاقية العرجاء، التي

٧٢ بيترلان، م. س.، ص. ٢٠٩–٢١٠.
٧٣ رنيه ماسيلي، «تركيا إزاء الحرب، مهمة في الفترة ١٩٣٩–١٩٤٠»، باريس، ١٩٦٤، ص. ٤٥-٤٧.



مستوصف باتجاه الاسكندرون.
مجموعة م.ش. ــ ج.ق.ي



رحيل لاجئين.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي







وصول اللاجئين إلى حلب.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

تمت في أيار ١٩٣٧ بموافقة مجلس عصبة الأمم ومباركته ، إقامة نظام يتمتع باستقلال ذاتي داخلي تكفله كل من فرنسا وتركيا، على أن تصبح اللغة التركية لغة السنجق الرسمية. ثم سعت تركيا، مستفيدة ببراعة من الوضع الدولي المتوتر، إلى إلغاء القرارات غير الملائمة لها. وألغيت كذلك انتخابات تشرين الثاني ١٩٣٦، التي انتهت إلى غير مصلحة الوطنيين الأتراك، على الرغم من مقاطعتهم لها ومن مناخ الرعب الذي حاولوا الإيحاء به[٧٤]. وكان من شأن إجراء انتخابات جديدة أن يسمح بانتخاب المجلس النيابي الجديد في السنجق. وتركيا، التي تلاعبت بالأرقام الديمغرافية[٧٥] (حتى أن الصحافة التركية تحدثت عن نصف مليون تركي في هاتاي)، طالبت بمنح العنصر التركي الأقلوي ٢٢ من أصل ٤٠ مقعداً نيابياً، وفرضت، متباهية بمبدأ العلمانية، حرية الترشح من خارج لوائح الطائفة، على أمل أن يضاعف ذلك عدد المقترعين لها. غير أن التلاعب باللوائح الانتخابية والضغوط المختلفة لم يجديا نفعاً، إذ إن العناصر غير التركية أبت الترشح خارج طوائفها، بينما انتقل، على العكس، العديد من «قدامى الأتراك» إلى لوائح الطوائف الأخرى. عندها بدا من المحال، ورغم كل النية الطيبة التي أظهرتها فرنسا، تحقيق النتائج المرجوة. وتكاثرت الأحداث حين بدأت تركيا تروّج لإشاعات الحرب. وحاول جورج بونه، الذي خلف ايفون دلبوس في وزارة الخارجية، أن يخرج، أياً كان الثمن، من دوامة الأزمة التي انزلقت إليها فرنسا. عندئذ بدأت رحلة الهروب إلى الأمام. فأعلنت حالة الطوارىء في السنجق، وفي حزيران، استدعي رجل نشيط ومخلص، هو فيليبير كوله قائد الكتيبة، الذي رقي إلى رتبة رائد تقديراً لاندفاعه، ثم أصبح الأداة البارعة والمتفانية لتنفيذ برنامج تلاعب، كان لا بد، وفق عملية حسابية جديدة، من أن يؤمن أكثرية الأصوات للأتراك. ويذكر بول دوفيوان «أمين سر الكولونيل كوله كان قد أوصاهم (أي أهل كسب) بالامتناع عن الاقتراع أثناء الانتخابات، «وذلك لأن فرنسا وتركيا كانتا قد اتفقتا على أن الأكثرية للأتراك»؛ ومع ذلك، اقترعوا ورفضوا الانتساب إلى «بيت الشعب»[٧٦].

ضاعف الأتراك أعمال الاستفزاز والعنف، التي كانت بمثابة ذريعة لهم لمزيد من التدخل ميدانياً. حيال هذا الوضع غير السليم والمتدهور يوماً بعد يوم، فضّل مراقبو عصبة الأمم، الذين أرسلوا للسهر على سلامة الانتخابات، حزم أمتعتهم وعادوا أدراجهم بحراً. ٢٥٠٠ عسكري تركي، وثمة مصادر عدة تضيف إليهم آلاف العسكريين باللباس المدني[٧٧] تسللوا لتضخيم أرقام السكان، أذن لهم بدخول السنجق «للمساعدة» على حفظ النظام في المناطق الشمالية الشرقية من خط الاسكندرون ـــ انطاكية، حيث اعتبر الأتراك أكثرية. أما فرنسا، التي تدخلت في تطور الأحداث المتشابكة، فرأت الوضع يفلت من يدها بوتيرة متسارعة. وأدت الانتخابات الجديدة المزورة إلى حصول ملهاة انتخابية أتاحت نتيجتها المتوقعة للمرشحين الـ٢٢ الأتراك، أنصار مصطفى كمال، أن يعيّنوا في الحال نواباً. واجتمع هؤلاء في انطاكية اعتباراً من ٢ أيلول وانتخبوا طيفور سكمان (مرسال)، رئيس العصابة السابق، رئيساً لجمعيتهم. وأجريت، في موازاة هذه المفاوضات، تسوية من خلال «معاهدة صداقة » جديدة بين فرنسا وتركيا، تعهد بموجبها الطرفان بدعم الطرف الآخر في حال نشوب نزاع. وأعلنت تركيا مجدداً أن السنجق لا يمثل بالنسبة اليها مسألة أرض.

أتت ردود الفعل العربية إبان هذه المرحلة بالغة التهيب. فالأنظار كانت متجهة صوب فلسطين حيث الوضع متفجر. وكان أهل السياسة السوريون، وهم جماعة تكاد تكون من سُنّة الداخل لا غير، مقتنعين بأن توقيع المعاهدة الفرنسية ـــ السورية كفيل إلحاق السنجق بالدولة السورية بشكل من الأشكال، مع الحفاظ على خصوصيته، لذ

٧٤ ميشال جيلكان، «من انطاكية إلى هاتاي، تاريخ سنجق الاسكندرون المنسي»، باريس ٢٠٠٠، ص. ٩٩.

٧٥ الكولونيل واتن ويل، مراقب عصبة الأمم، موفد إلى المنطقة، لاحظ أن الإحصاءات التركية كانت مغلوطة وأن الجانب التركي لم يكن إلاّ بحدود ٣٠٪ (بيترلان، م.س.، ص. ٢٢٩).

٧٦ بول دوفيو، «مسيحيون في خطر على جبل موسى!» (تحقيق في سنجق الاسكندرون)، باريس ١٩٣٩، ص. ٨٣.

٧٧ جيلكان، م. س.، ص. ١٣٥.

لم يعربوا عن معارضتهم إلاّ على نحو فاتر. وكان سُنّة السنجق العرب، الذين يشكلون أقلية ويتمركزون في منطقة انطاكية، مستعدين ربما للتكيّف مع وضع لا يعيد إلى بساط البحث مسألة العلاقات مع حلب برأيهم. حاول الوطنيون العرب المؤيدون للأرسوزي الرد على الهجمات التي تعرضوا لها من قبل الناشطين الكماليين، فتوالت التظاهرات والتظاهرات المضادة، واصطبغت المصادمات والمشاجرات والمناوشات بمزيد من الدماء. ولما قررت السلطات الفرنسية المحلية إسكات المعارضة عن هذا التنازل أو إبطال تأثيرها، منعت رابطة العمل الوطني في السنجق واعتقلت زعيمها زكي الارسوزي.

عندها تسلل الأتراك إلى جهاز السنجق الإداري بأجمعه وبادروا إلى إبعاد من ليسوا بأتراك ولا يوافقونهم الرأي، متداركين ومحظرين كل اتصال بموظفي سلطات الانتداب. فاستعجلت فرنسا قطع دابر هذه الأحداث، وقد طغت عليها الأعمال العدوانية التي بلغت حد اغتيال ضباطها ببرودة دم، فعملت على خفض عناصرها العسكريين المرابطين على الأرض وحشدتهم في ثكناتها، وتحولت التجارة باتجاه اضنه على حساب حلب، وأنشئت مصلحة البريد التركية وفتحت الحدود التركية ورسمت حدود جديدة مع سوريا، فيما كانت حركة الهجرة الخفية تشتد قوة. فلم يبقَ للسنجق الخاضع للانتداب الفرنسي سوى أربعة أشهر من الحياة، بعد الطلب الذي تقدم به شكرو سراج اوغلو، وزير خارجية تركيا الجديد في ٣٠ آذار ١٩٣٩، وطالب فيه برحيل القوات الفرنسية.

أثناء هذه المرحلة، تعامل الأرمن مع التنظيمات الوطنية العربية في اتحاد وثيق، فضموا أصواتهم وأصوات ممثليهم إلى أصوات جيرانهم العرب، ونظموا تظاهرات كانت أهمها التظاهرة الكبرى التي قام بها سكان جبل موسى في انطاكية بتاريخ ٨ كانون الثاني ١٩٣٧، خلال عرض العضلات هذا الذي دعا إليه الارسوزي، زعيم الحزب الوطني العربي، واتحاد جنود الفرقة الأرمنية من الجانب الأرمني. كان الشعب يردد: «تحيا سوريا»، و«يحيا سنجق الاسكندرون حراً مستقلاً»، و«تحيا فرنسا»[٧٨].

٧٨ كتاب مذكرات جبل موسى، م. س.، ص. ٨٩؛ بيترلان، م. س.، ص. ٢٢٧.

٧٩ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، المكتب السياسي، ٣٠د، مذكرة المفوضية العليا في بيروت، المكتب السياسي، بيروت ١٢ آب ١٩٣٩.

٨٠ م. ن.

٨١ وزارة الخارجية، المجموعة E، المشرق ١٩١٨-١٩٢٩، المجموعة الفرعية سوريا-لبنان، ٤٧١، ص. ١٩٩ إلى ٢٠٣، من بيوو إلى وزارة خارجية انطاكية، ١٤ تموز ١٩٣٩.

إخلاء السنجق

ما إن تم استلام تفاصيل التسوية الفرنسية ـــ التركية المعقودة في ٢٣ حزيران ١٩٣٩، حتى قلقت المفوضية العليا من تداعياتها على الأقليات وبخاصة سكان السنجق الأرمن. ولم يسع الكولونيل كوله إلاّ أن لاحظ الرغبة الملحة لدى الأرمن في الرحيل، برغم الجهود التي بذلها من أجل إقناعهم بالبقاء مؤقتاً في السنجق كي يتمكنوا من تصفية ممتلكاتهم بحرية. وتالياً لفت انتباه المفوض السامي، منذ الرابع من تموز، إلى ضرورة مواجهة هجرة هؤلاء السكان بشكل جماعي كثيف قبل ٢٣ تموز، الموعد النهائي لتطبيق اتفاقية ٢٣ تموز. وللحال اتخذت المفوضية العليا القرار بتوجيه الأرمن مؤقتاً نحو حلب والمخيمات المقامة في ناحية البسيط وطرطوس [٧٩]. ولضمان استفادة المرشحين للهجرة من الإجراءات المتفق عليها لمصلحة الراغبين، سرّعت المفوضية العليا عملية تبادل إبرام الاتفاقية في ١٣ تموز. فأعد الكولونيل كوله، منذ ١٤ تموز، خطة إجلاء السكان الأرمن التي دخلت حيز التنفيذ اعتباراً من اليوم التالي[٨٠].

ووجه بيوو إلى وزارة الخارجية مذكرة إدارية صادرة عن انطاكية بتاريخ ١٤ تموز ١٩٣٩، تبيّن الآلية المتبعة لإجلاء الأرمن من جبل موسى، ومستوطنات عموق الزراعية، ومن منطقة الاسكندرون[٨١]. وتعيّن على كل مهاجر أن يصطحب معه بطاقة هويته، وإذناً بالمرور صادر عن سلطات السنجق الفرنسية، فضلاً عن إيصال تصريح

بحق خيار معطى من سلطات «هاتاي»، وشهادة تغيير المسكن. ولإدارة جماهير المهاجرين، حددت أربعة قطاعات، ووضع كل واحد منها بإمرة مدير مسؤول:

١- **قطاع جبل موسى:** بدأت عمليات الانطلاق تحت إشراف النقيب غاكون، مراقب المخابرات في انطاكية، في ١٥ تموز وانتهت في ٢١ منه.

٢- **قطاع عموق:** قاد العملية الملازم الأول لوهياك، رئيس مركز المخابرات في كيريك خان، وأجلى:

	العائلات	الأشخاص	الأمتعة	الحيوانات
كيريك خان	٣٣٩	١٦٣٨	٢٧٠ طناً	لا حيوانات
هاياشين	٥٥	٢١٧	٨٥ ط	٢٢٩
ابدال هويوك	١٥	٨٤	٢١ ط	٣٣
الريحانية	٧١	١٨٠	٢٨ ط	٣

جرى نقل الأشخاص ومعهم أمتعتهم في شاحنات استؤجرت في حلب بفضل مساعي مندوب المفوض السامي، فجمعوا في مواكب واقتادهم إلى أماكن النقل ضابط في المخابرات في محافظة حلب. وأشر ضابط المخابرات في كيريك خان على الأذونات المعطاة للسائقين. وحُملت العائلات مع أمتعتها ابتداء من الساعة الخامسة صباحاً بمعدل ٣ عائلات في كل شاحنة. وهذا ما حدث في ١٧، و١٨ و١٩ تموز لسكان كيريك خان (١٢٠ ــ ١٢٠ ــ ٩٩ عائلة) الذين نقلوا في حوالي أربعين شاحنة؛ وفي ٢٠ تموز حان دور سكان هاياشين (٢٧ شاحنة) وابدال هويوك (٧ شاحنات) والريحانية (١٢ شاحنة). وسددت مندوبية اللاذقية نفقات النقليات.

أما قطعان المواشي التابعة لهاياشين، وابدال هويوك والريحانية فنُقلت في ١٩ تموز الساعة الخامسة إلى باب الهوا، حيث زودت مخابرات محافظة حلب الرعاة بالتعليمات المتعلقة بالمسيرة الواجب سلوكها وبحمايتهم الشخصية.

٣- **قطاع الاسكندرون:** خضعت العمليات لمراقبة مانتك، المستشار الإداري. وتتعلق بالعائلات الأرمنية المقيمة في الاسكندرون والقرى المحيطة بها.

	العائلات	الأشخاص	الأمتعة	الحيوانات
الاسكندرون				
جماعة سيس	١٠	٣٧	٦ طن	٣٦
جماعة مرعش	٦١	٢٦٢	٣١ ط	١٠٣
جماعة فارتسلي	٦٥	٢٥٤	٤٠ ط	٢٦٦
جماعة عنتاب	١٨	٧٢	١٠ ط	٦
جماعة اضنه	١٦	٦٢	٥ ط	١
ج. حسن بايلي بغتشه	٦٥	٢٦٧	٣٤ ط	٣٥
جماعة قيصريه	٢٩	٩٠	١١ ط	
جماعة هادجين	٣١	١٤٠	٢٤ ط	٧
جماعة دورتيول	٢٥٤	١٠٢٨	١٥٦ ط	٤١
جماعة الاسكندرون	٢٠٠	٧٩٧	١٠٠ ط	٢٠
صووك اولوك	٩٥	٤٢٣	٥٧ ط	٣٤٠
بيلان	١٢٥	٥٧٥	٧٠ ط	١٤٥
عنيق	٢٩	١٣٨	١٧ ط	٤٣٦
ناركيزليك	٢٩	١٤٩	١٩ ط	٧٠
المجموع	**١٠٠٧**	**٤٢٩٤**	**٥٨٠ ط**	**١٤١٦**



سنجق الاسكندرون، ١٩٣٩. تسجيل قبل إجلاء السكان الأرمن. ومصلحة الجمارك قبل رحيل الإدارة الفرنسية، تحمل كتابة بالتركية وحدها. مجموعة م.ن.ا

أما سكان بيلان، وصووك اولوك، وعتيق وناركيزليك فقد نقلوا أمتعتهم بوسائلهم الخاصة إلى رصيف الإبحار في الاسكندرون قبل ٢٠ تموز الساعة ١٧، وتم نقل الأشخاص وأمتعتهم من الاسكندرون باتجاه طرطوس على متن سفن تابعة لـ«خط الشحن الخديوي»؛ وفي ١٧ تموز، جاء دور سكان الاسكندرون بالذات، ثم دور هادجين وقيصريه؛ وفي ١٩ منه سكان درتيول الكثر؛ وأخيراً، في ٢١ تموز، نُقل، على متن سفينة أولى سكان سيس، ومرعش، وفارتسلي، وعنتاب، واضنه، وحسن بايلي — بغتشه وناركيزليك؛ وعلى متن سفينة ثانية سكان صووك اولوك، وبيلان وعتيق. وتحملت المفوضية العليا نفقات النقل.

وصلت قطعان مواشي الاسكندرون إلى بيلان خلال يوم ١٧ تموز. وجُمعت هناك مع قطعان مواشي بيلان، وعتيق، وصووك اولوك وناركيزليك في ١٨ تموز قبل الساعة ١٧ في طوب بوغاز. ثم بلغت كسب سالكة طريقاً يمر عبر جسر ساقية الكواسية (١٩ تموز)، وعين سمك (٢٠ تموز)، وجلية (٢١ تموز)، والساقية الحدودية (٢٢ تموز).

٤- **قطاع انطاكية:** أمّن النقيب فارنيه انتقال ٨٢ عائلة (٧٩٠ شخصاً) باتجاه حلب، مع ٨١ طناً من الأمتعة يومي ٢١ و٢٢ تموز، ابتداء من الساعة الخامسة صباحاً في شاحنات (٣٠ و٢٠ شاحنة) وسددت الفاتورة مندوبية انطاكية.

انتهت العملية في ٢٢ تموز ١٩٣٩ : لقد أجلي ١٤٠٠٠ أرمني من دون أي إخلال بالنظام ووُزعوا على حلب (٤٠٠٠)، وناحيتي كسب والبسيط (٦٠٠٠)، ومنطقة طرطوس (٤٠٠٠). وتقرر أن يحصل كل فرد على تعويض مقطوع قدره ٥٠٠ فرنك للبالغ و٢٠٠ فرنك للطفل[٨٢].

٨٢ــ مذكرة من المفوضية العليا في بيروت، ١٢ آب ١٩٣٩، وثيقة سابقة.



الاسكندرون، عام ١٩٣٩، إجلاء السكان
الأرمن والتفتيش في مركز الجمارك.
مجموعة م.ن.ا

أما العائلات التي استقبلت في طرطوس، وجميعها تتحدر من منطقة الاسكندرون، فنقلت إلى بيروت، فيما وطنت تلك الوافدة من جبل موسى في سهل البقاع.

خاتمة

تؤكد التقارير الرسمية أن نصف الأرمن القاطنين في السنجق كانوا، حتى قبل بدء عمليات الترحيل، قد غادروا مساكنهم سراً، ولم يبقَ في الميدان، في كانون الثاني ١٩٤٠، إلاّ ما يناهز ألف أرمني من أصل ٢٧٥٠٠ أحصوا من قبل. لقد آثر السواد الأعظم من العرب المسيحيين، وحتى الأكراد والشراكسة ونصف العرب السُنّة، الرحيل بدورهم. وبما أنهم كانوا يملكون محطات في سوريا أو في لبنان، لم تسع سلطات الانتداب جهدها لمساعدتهم. وباستثناء أرمن جبل موسى، فإن المبعدين الآخرين عن ديارهم كانوا في الأغلب أشخاصاً غير مرغوب فيهم، تُركوا لمصيرهم مع القليل من المال المدخر على سبيل الإعانة. لقد اضطروا إلى هجر موطنهم القديم من دون أن يتمكنوا من بيع ممتلكاتهم، تاركين كل شيء في مكانه.

رغم ذلك، توصلت فرنسا، بعد مفاوضات صعبة استمرت طويلاً أثناء عامي ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠، في الاحتفاظ ببقعة بالغة الصغر في منطقة كسب، تعرضت للبتر جراء تعديات الأتراك، ولكنها ضُمت نهائياً إلى سوريا بعد زمن قصير من الاحتلال التركي.

وتركت الدبلوماسية الفرنسية سفيرها في أنقرة يتصرف بحرية تامة، وقد قزّها عجيج الجزمات الألمانية والتفشيرات الإيطالية. فتجاوز هذا الأخير، الذي كان يتبجح بأنه مفاوض بارع، حتى الأمنيات التي أفصح عنها الأتراك ــ مما أثار مراراً دهشة سلطات الانتداب ــ وأنجز اتفاقية تنازلت فرنسا بموجبها عن هذه الأراضي السورية. هذه الاتفاقية ساعدت على سلب غير الأتراك ممتلكاتهم، وقد نعتها البعض بأنها «ميونيخ الشرق».



بيروت منظر مائل التقطه طيران المشرق الفرنسي عام ١٩٢٧، من جهة الشمال.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



بيروت في مواجهة إسكان اللاجئين إبان العشرينات من القرن المنصرم

حدود الضيافة

بقلم كارلا اده

ألف أرمن بيروت، وهم بضع مئات من الأشخاص عام ١٩١٨، أقلية معترفاً بها ومشاركة في الشؤون المدينية[1]. وإثر هزيمة العثمانيين، أعرب البيروتيون لهم عن تضامنهم معهم عبر مساهماتهم في الاكتتاب الذي أطلق لمصلحة أيتام عمليات الترحيل[2]. شُبِّهت هذه العمليات بإبادة جماعية، وأجرى التشبيه بخاصة الموارنة الذين رأوا أحياناً أن «سفربرلك» والمجاعة في لبنان أثناء الحرب العالمية الأولى تشكلان استراتيجيتين متكاملتين، استخدمهما الأتراك بغية القضاء على كلتا الجماعتين، وهذا ما ينفيه المسلمون المحليون[3]. وبدا أن التوتر بين المسلمين والأرمن واقعاً مؤكداً : فالشجار الوحيد الذي وقع في المدينة بين المحتلين والرازحين تحت الاحتلال جعل المدنيين ورجال الشرطة والدرك المسلمين في مواجهة جنود أرمن تابعين لفرقة الشرق (الفرنسية). فقررت السلطات الفرنسية، التي تحكم المدينة باسم الحلفاء[4]، نقلهم فوراً، كما منعت السلطات نفسها آلاف اللاجئين الذين كان يتم إيواؤهم مجدداً في كيليكيا عن طريق بيروت، من الخروج من مخيماتهم تداركاً لوقوع أحداث أخرى[5].

غير أن التوتر لم يخف إطلاقاً مع تواصل انتصارات مصطفى كمال. ففي ١٩٢١، أطلق الأرمن المقيمون في المدينة حملة اكتتاب لمصلحة الجنود اليونانيين، الأمر الذي دفع المسلمين إلى تنظيم حملة مضادة لمصلحة الجنود الأتراك. «وقد ساهم [فيها] مسلمو بيروت بمبالغ ضخمة»، على ما أكد صحافي مسيحي. غير أن هذه المبالغ لم تشكل سدس ما تم جمعه من أجل الصليب الأحمر اليوناني، فكان مبلغاً دلّ على مشاركة واسعة من جانب المسيحيين غير الأرمن[6]. وفي بيروت المرفعة إلى مرتبة عاصمة دولة لبنان الكبير، التي أبصرت النور في ٣١ آب ١٩٢٠، بدا أن التوتر بين الأرمن والمسلمين يتطابق مع التوتر الناشىء يومئذ بين «دعاة النزعة اللبنانية»، وهم أساسا مسيحيون من أنصار إقامة كيان لبناني مستقل عن سوريا الواقعة «تحت الانتداب الفرنسي»، وبين «دعاة الوحدة »، وهم بخاصة مسلمون يطالبون بإقامة سوريا كبرى مستقلة (من ضمنها لبنان)، وهو مشروع وضع له حداً نهائياً الانتداب الذي فُرض بالقوة، ذلك الانتداب الذي اعتُبر «مهمة حضارية مقدسة » لإيصال الشعوب إلى الاستقلال أوكلتها عصبة الأمم إلى فرنسا[7].

ولأن فرنسا كانت تدرك المشاكل التي تتوقع حصولها من جانب المسلمين، قررت السماح بالهجرة الأرمنية إلى المدينة عندما بدأ انسحاب جنودها من كيليكيا، وهي مشاكل في غاية الأهمية خصوصاً أن تدفق اللاجئين كاد يتواصل باطراد حتى نهاية ١٩٢٤، لما أفرغ الجزء الأهم من الأراضي التي استولى عليها مصطفى كمال من سكانه المسيحيين. والواقع أن إسكانهم بدّل التوازنات المحلية. ففي ١٩٢٥، شكل الأرمن في المدينة الطائفة الثانية الأكثر عدداً[8]؛ ورفعوا نسبة المسيحيين «البيروتيين» واللبنانيين بمثلها تجاه الطوائف الإسلامية، وهذا يعد حدثاً ديمغرافياً شديد الدقة في النظام «الطائفي» الذي يحكم الحياة السياسية اللبنانية، أي توزيع الوظائف العامة بين الطوائف الدينية وفقاً لأهميتها العددية. فكيف عاشت إذاً بيروت «الحدث الأرمني»؟ وهل اختلفت ردود الفعل الإسلامية والمسيحية؟ سوف نحاول، في ما يلي، أن نورد بعض عناصر الإجابة عن هذين السؤالين، وذلك من خلال اعتمادنا على صحيفتين بيروتيتين، أصحابهما مسيحيون معتدلون من دعاة النزعة اللبنانية إلى حد ما[9].

١ انظر على سبيل المثال «لسان الحال»، ١٨ و٢٩ تشرين الأول ١٩١٨؛ و٨ تموز ١٩١٩؛ و١٩ نيسان ١٩٢٠. وعن الأرمن في بيروت قبل ١٩١٨: أ. كوروغليان، «أرمن تجمع بيروت، دراسة إنسانية واقتصادية»، بحث للماجستير، بيروت، مدرسة الآداب العليا، بيروت ١٩٧٠، ص. ١٠-١١.

٢ لسان الحال، ١٩ و٢١ تشرين الأول ١٩١٨.

٣ س. ارسلان، «ذكريات عن الحرب الكونية الأولى...» (تقديم ونشر ز. البعيني. بيروت، نوفل، ٢٠٠١، ص. ٤٣-٥٠ وص. ٨٢-٨٤، انظر أيضاً ك. اده، «الحرب العالمية الأولى في لبنان»، وي. معوض، «١٩١٤-١٩١٨ أو حرب المجاعة». في ل. نورديكيان «المدارس الصغيرة » في جبل لبنان، جوزف دولور راهب يسوعي (١٨٧٣-١٩٤٤)، بيروت منشورات جامعة القديس يوسف، ٢٠٠٣، ص. ٩٢-١٠٧.

٤ برقية في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٨؛ قائد الكتيبة إلى الجنرال قائد DFPS، ٢١ تشرين الثاني ١٩١٨؛ تقرير المقدم لوبون، رقم ٦٥٥٩ /٢، ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨ ؛ هاملان إلى قائد الفيلق البريطاني ٢١، ٩ شباط ١٩١٩؛ الدائرة التاريخية للقوات البرية سا ٤ و٣. مذكرة إدارية عن رئيس الأركان رسبايل، رقم ٧٠٩٠ /أ؛ وزارة الخارجية، نانت، بيروت، الدفعة الأولى، ٢٤٢٩.

٥ جورج بيكو إلى مرسيه، ١٩ تشرين الثاني و٦ كانون الأول ١٩١٨؛ وزارة الخارجية، نانت، بيروت، الدفعة الأولى، ٢٤٢٩.

٦ المعرض، ٢ حزيران و١٣ تشرين الأول ١٩٢١؛ الصليب والهلال الأحمر، ٢٢ نيسان ١٩٢١؛ وزارة الخارجية، نانت، بيروت، الدفعة الأولى ٢٣٦٩.

٧ انظر ك. اده «تقسيم المجال العام بين الطوائف في بيروت غداة إنشاء الدولة اللبنانية»، في ل. بواسه وك. عساف، «أطلس مجالات لبنان الدينية». بيروت، منشورات جامعة القديس يوسف (يصدر لاحقاً).

٨ وزارة الخارجية، «تقرير إلى عصبة الأمم حول الوضع في سوريا ولبنان عام ١٩٢٥». باريس المطبعة الوطنية، ١٩٢٦، ص. ١٥٤-١٥٥.

٩ لقد راجعنا أساساً، عدا أرشيف المفوضية العليا، السجلات البلدية، ومحاضر النقاشات البرلمانية والصحف البيروتية، ولا سيما لسان الحال والمعرض. هذا العمل يقع ضمن إطار أطروحة قيد الإعداد حول بيروت في عهد الانتداب الفرنسي.



زيارة السلطات الفرنسية للاجئين الأرمن عند شاطىء بحر بيروت.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

إسكان الأرمن: اللاحدث

ن إسكان اللاجئين الأرمن الأول في المدينة لم يثر سوى القليل جداً من التعليقات. وإذا كان الحذر سياسي في وسعه أن يفسر هذا الصمت، فقد فقدت الحجة وجاهتها خلال الأعوام التالية، عندما بدا ن السخط المحلي قد تعمّم جراء تكاثر أعداد الأرمن في المدينة.

ستقبل متحفظ

ذكرت الصحافة المحلية، ابتداء من تشرين الأول ١٩٢١، آلاف اللاجئين الذين تدفقوا إلى سوريا، ١٠٠٠٠٠ شخص، على ما أكدت (وهو تقدير مبالغ فيه[١٠])، بينهم عدة آلاف في بيروت، آوتهم السلطات الفرنسية في مراكز الكارنتينا[١١]. وبعد شهرين ذكرت أن المفوض السامي أذن لهم بالقدوم إلى مدينة، حيث وعدهم بمزاولة الأعمال وبملاجىء في أماكن معينة كانت تابعة للجيش[١٢]. وقد ألح البطريرك الماروني على اللبنانيين بـ«تيسير ظروف المعيشة لهم والترحيب بهم على حسن وجه»[١٣]، مع الإشارة إلى أنه سيخصص لهم العديد من القرى في الجبل، وتعالى بعض الأصوات بحذر داعياً إلى اعتماد حسن الضيافة والمعاملة الإنسانية لدى البيروتيين[١٤]. وأوصت أدبية مسيحية، على علاقة طيبة بالأوساط الوحدوية، بضرورة تجاوز «العداوة ذات الطابع القومي»، ولا سيما بالنسبة إلى الأطفال الذين «ينامون هذا الشتاء تحت خيم بسيطة»[١٥]. واستشهدت مثالاً على ذلك بكاتبة تركية مشهورة زارت المياتم الأرمنية المقامة في لبنان أثناء الحرب. وتذرع كاتب آخر، تحت اسم مستعار، بالأخوة الطبيعية بين رفاق البؤس والشقاء مستعيناً، في جملة ما استعان به، بحاجة لبنان إلى اليد العاملة القروية،

١٠ دزوفينار كيفونيان، «لاجئون وديبلوماسية إنسانية»، باريس، ٢٠٠٤، ص. ٤٦.
١١ لسان الحال، ٢٢ و٢٣ تشرين الأول ١٩٢١؛ المعرض ٤ كانون الأول ١٩٢١.
١٢ المعرض، ١١ كانون الأول ١٩٢١، و١ كانون الثاني ١٩٢٢.
١٣ المعرض ١٨ كانون الأول ١٩٢١.
١٤ لسان الحال، ٤ و٢٤ كانون الثاني ١٩٢٢.
١٥ المعرض، ١٢ كانون الثاني ١٩٢٢.

من دون أن يغفل تقديم الدليل على تضامنه تجاه العرب:

«أهلاً وسهلاً بالمنكوبين. نحن لم ننسَ النكبة، والمنكوبون جميعاً أخوة. ولئن اكتظت أرضنا بالسكان فما زالت أمامهم فلسطين، وسوريا تكفينا معهم إذا خفف الصهاينة من غلوائهم... والأرمن ليسوا أول ضحايا السياسة ولن يكونوا آخرها... يتوجب علينا ان نوفر الضيافة للاجئين الذين يجدون الأمان في بلدنا... [ثم يأتي على ذكر قصيدة عربية]. يا أيها الضيف نحن المدعون وأنت رب البيت»[16].

تشكل هذه الأقوال إجابات عدة على المناشير المناوئة للأرمن، والمعلقة في «بعض الأحياء»، الإسلامية طبعاً: «خذوا حذركم من الأرمن... تجنبوا الأرمن... الأرمني لا يحب أحداً... سوف ينتزع منكم وظائفكم ويطردكم من بيوتكم»[17]. فاستنتجت صحيفة تركية من هذا الكلام أنّ الأرمن غير مرحب بهم في لبنان، وهو ما نفته المجلة البيروتية التي نشرت الخبر[18]. قابل إذاً عداء المسلمين غير الرسمي ترحيب متحفظ من قبل المسيحيين، وقد تحاشى كلا الطرفين كل تلميح إلى الانتماء الديني للوافدين متجنبين ذكر أي دلالة ضمنية «دينية»، وتالياً أي إشارة «تعصب» في ردات الفعل المتصلة بهم. فعلامات الرفض أو الود ظلت ذات طابع خاص. وما من اكتتاب مفتوح، على سبيل المثال، لمد يد العون لهم — بل من أجل «الجياع الروس»، وهي حملة الاكتتاب التي أطلقها مطران بيروت للروم الارثوذكس[19]. والمجلس البلدي لم يمنحهم أي تسليف من أمواله المخصصة «لمساعدة المحتاجين»؛ وإنما طالب بنقلهم باتجاه الكارنتينا متذرعاً بمخاطر انتشار الأوبئة[20].

وهكذا فرضت قضية تحمل مسؤولية اللاجئين فوراً نفسها على أنها مسألة دقيقة ومثيرة للخلاف، ومن المستحسن ترك مسؤوليتها لممثلي الانتداب. وقد حاول هؤلاء تهدئة الخواطر. فقرروا زيادة عدد الدوريات بشكل ملحوظ ومواكبة الشرطة البلدية مؤقتاً بجنود فرنسيين[21]. ولئن ساعد هذا الإجراء على تدارك الاضطرابات، فإنه كان يهدف رسمياً إلى الاستجابة للشكاوى المتكررة من تفاقم الإجرام في المدينة. فقد أشارت الصحافة المحلية إلى جماعات من الأرمن يتسكعون بالعشرات في شوارع المدينة، ومن دون أن توجه إصبع الاتهام إلى اللاجئين أنفسهم بارتكاب السرقات التي باتت يومية، ذكرت أحياناً «اللصوص الغرباء»، أو كذّبت «بثقة... الشائعات التي يطلقها بعضهم عن استعمال الأرمن لصابون منوم بهدف السرقة»[22]. وكذلك رفض دعاة النزعة اللبنانية، بمزيد من التكذيب، الشائعات التي راجت بشأن احتساب عدد اللاجئين في عملية الإحصاء الجارية آنذاك في لبنان، تمهيداً للاعتراف بهم كناخبين ومنتخبين، علماً أن المهاجرين، «هؤلاء اللبنانيين الذين ينتظرون استقرار الأحوال السياسية للعودة إلى وطنهم»، لن يؤخذوا في الحسبان[23]. وكانت مناسبة لتوضيح رسمي حول وضع اللاجئين. فأوضح بيان حكومي أنه من المحال «اعتبارهم من سكان لبنان الكبير»، وأن صفتهم كأجانب تبعدهم عن أي مشاركة في الانتخابات[24].

[16] المعرض، ٨ كانون الثاني ١٩٢٢.
[17] المعرض، ١٢ كانون الثاني ١٩٢٢.
[18] المعرض، ٣٠ آذار ١٩٢٢.
[19] المعرض، ١٣ تشرين الأول ١٩٢١.
[20] لسان الحال، ٢٣ أيار ١٩٢٢.
[21] لسان الحال، ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٢.
[22] انظر على سبيل المثال: لسان الحال، ٣، و١٩ و٣٠ كانون الثاني؛ ٣، و٦، و١٢، و١٥، و١٩ نيسان؛ و١٠ أيار ١٩٢٢؛ المعرض، ١ كانون الثاني و٢٣ آذار ١٩٢٢.
[23] لسان الحال، ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٢؛ المعرض، ١٢ آذار ١٩٢٢.
[24] المعرض، ١٢ كانون الثاني ١٩٢٢.
[25] المعرض، ١٣ تموز ١٩٢٢.

لا مبالاة مصطبغة بعدوانية

بعد انقضاء زمن تدفق اللاجئين، لم يعد أحد يهتم بهم على العموم. ولكن هؤلاء صاروا حديث الناس لوقت قصير، عندما نظمت في المدينة مقاطعة الترامواي. فقد أقر هذا التحرك العام بناء على مبادرة اتخذتها لجنة مارونية في محلة فرن الشباك القريبة، وطالبت الشركة الفرنسية — البلجيكية التي تتولى إدارة هذه التقليات بخفض التعرفة وتوظيف اللبنانيين دون سواهم[25]. واصطدم مئات المهاجمين الذين اقتحموا مقر الشركة — الكائن على حدود المخيمات الأرمنية



بيروت. منظر مائل التقطه طيران المشرق الفرنسي، عام ١٩٢٧، من جهة الغرب. مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

بـ« المهاجرين الكيليكيين [الذين] شتموا الناس وحاولوا تنظيم تظاهرة مضادة »[٢٦]. إنها المشاجرة الوحيدة التي شهدتها العشرينات من القرن الماضي بين بيروتيين ولاجئين، مشاجرة وضع لها تدخل الجنود الفرنسيين حداً سريعاً، غير أن التبليغ عن مزاحمة اللاجئين غير المشروعة والمجحفة في حق العمال المحليين تكرر مراراً[٢٧]. وإذا كانت كتابات القادة البيروتيين السياسية الصحافية (وبخاصة عند استنفاراتهم العامة في ١٩٢٣) لم تأتِ قط على ذكر اللاجئين الأرمن، «فإن العامل الأرمني [الذي] حل محل العامل البيروتي» ورد اسمه في قائمة الشكاوى الوحدوية ضد السلطات اللبنانية والفرنسية[٢٨]. وأبدى بعض دعاة النزعة اللبنانية القليل من الرزانة في التعبير عن نقمتهم المتصاعدة تجاه اللاجئين، وقد اتّهموا، عبر مزاحمتهم هذه، بتعزيز هجرة اللبنانيين — وكان ذلك هاجس دعاة النزعة اللبنانية:

«إننا نشعر بمرارة أقوى وأشد فتكاً عندما نرى إمكانات الحياة في لبناننا الجميل تتقلص أمام أبنائه وتتسع سهلة، هادئة أمام اللاجئين... الذين بات لهم لبنان أميركا ثانية. في لبنان اليوم، نحو ٥٠٠٠٠ أرمني، ما عدا ٢٠٠٠٠ أجنبي آخر، وكلهم يعملون، وكلهم يسعون وراء الثروة... ولن يلبث، إذا استمر الوضع على هذا المنوال، أن يصير لبنان «أرمينيا جديدة» ويغدو اللبنانيون غرباء في بلادهم»[٢٩].

٢٦ اليقظة، ١٢ تموز ١٩٢٢.
٢٧ انظر مثلاً: وزارة الخارجية، تقرير الى عصبة الأمم بصدد الوضع في سوريا ولبنان، (عام ١٩٢٤)، باريس، المطبعة الوطنية، ١٩٢٥؛ ا. ر. بكداش العضو، «بيروتي خلال ثلثي قرن»، بيروت ١٩٨٩ ص. ٢٥-٢٦؛ ه. شارل، سوريا، الشرق الأدنى والمرسلون اليسوعيون، باريس، ١٩٢٩، ص. ٧٨؛ ر. اوزو، دول المشرق تحت الانتداب الفرنسي، باريس، مكتبة لازور، ١٩٣١، ص. ٢٠٦.
٢٨ ترجمة مقال «سوري من بيروت» في المقتطف، ٢٦ آب ١٩٢٣؛ وزارة الخارجية، باريس، مراسلات سياسية، المشرق سوريا-لبنان ٢٠٨؛ الأخبار المصورة، ٢٩ أيار ١٩٢٧.
٢٩ المعرض، ١٤ تشرين الأول ١٩٢٣.

لم تثر هذه العدوانية إلاّ اعتراضات متفرقة : محام مسيحي، عضو لاحق في الحزب الشيوعي المحلي مع أعضاء أرمن من حزب الهنتشاك، دافع بصورة غير مباشرة عن اللاجئين، مؤكداً أن اللبنانيين يهاجرون «لأنهم يرغبون دوماً في المزيد» — وطبعاً ليس لأن الوافدين الجدد يحرمونهم مصادر دخلهم [٣٠]. هذا الإجماع شبه المطلق بين دعاة النزعة اللبنانية والدعاة الوحدويين، وذلك التضامن بين النخب في شأن العمال، كانا لا يزالان نادرين جداً لكي تجدر الإشارة إليهما[٣١]. إنهما يبيّنان أن القوميتين اللبنانية والسورية اصطبغتا بصبغة شوفينية ظاهرة، لا سيما تجاه الامتيازات المتنامية التي منحتها السلطة المركزية الفرنسية إلى رعايا الدول الغربية، وإزاء تزايد عدد الأجانب على اختلاف جنسياتهم. هكذا تم التنديد بلا هوادة بغطرسة العديد من الأوروبيين المستقرين في المدينة، وبغزو الشحاذين الغرباء، وبـ«الأبعاد الهائلة» التي اتخذها «البغاء الغريب»، الخ...[٣٢].

مع ذلك، لا تذكر المصادر المحلية إلاّ عرضاً تكاثر أعداد اللاجئين الأرمن[٣٣] بوتيرة منتظمة منذ أواخر ١٩٢٢. فقضية مصيرهم في دول الانتداب الفرنسي لم تثر بشكل واضح، في حين بدا أن وضعهم كأفراد عديمي الجنسية معترف به وفق بنود السلام الموقع بين الحلفاء وتركيا. وركزت الصحافة المحلية على تعاسة لاجئي الأناضول الروم الأرثوذكس[٣٤]، منددة بالمصير المعد «للأقليات» التي تركت لشأنها. هؤلاء الأخيرون الذين قُدّر عددهم، عام ١٩٢٣، بعدة آلاف في المدينة، يتمتعون ظاهرياً بظروف مخففة: فبعضهم «لبناني وسوري»، وكلهم على صلة بإحدى أكبر الطوائف المحلية التي استنفرت جمعياتها الخيرية لمصلحتهم؛ واستفادوا أخيراً من دعم دولة أعادت إسكانهم فيها. وأخذ الأرمن بالتأكيد يسلكون أيضاً درب دينامية جديدة باتجاه أوروبا وأميركا[٣٥]. ولكن سرعان ما اتضح أن إشاعة تخصيص الولايات المتحدة «وطناً»[٣٦] لهم لا أساس لها من الصحة، وذلك لأن اللاجئين، إسوة بغيرهم من رعايا الإمبراطورية العثمانية السابقة، يخضعون لنظام الحصص[٣٧]. وثمة أكثر من مؤشر أظهر الفرق بينهم وبين الأقليات الأخرى من حيث إسكانهم ؛ فإذا كانت الحكومة والبلدية ملزمتين بالإسهام في تأمين الرعاية المجانية للاجئين، يونانيين وأرمناً[٣٨]، فهؤلاء اللاجئون هم وحدهم، كاللبنانيين، يتمثلون أمام السلطات بـ«مختار»، هو أشبه بقاضي صلح في حي شعبي؛ كما أن البلدية وجدت نفسها ملزمة بالمشاركة في بناء المخيمات، الخ[٣٩].

٣٠ لم يتراجع المؤلف المتهم عن مقولته، بل جزم أيضاً أن لبنان «سيكون من نصيب آخرين من غير أبنائه»، المعرض ٢١ تشرين الأول ١٩٢٣.

٣١ ك. اده، «التعبئة الشعبية في بيروت إبان الانتداب (١٩١٨-١٩٤٣)»، في ن. معوشي وب. ستاكلت، وج. خوري وج. شاد. الانتدابان الفرنسي والبريطاني من منظور مقارن، لندن-بوسطن، ٢٠٠٤، ص. ٦٢٣، ٦٤٨.

٣٢ انظر، على سبيل المثال لسان الحال، ٢٦ و٣٠ كانون الثاني؛ و١ شباط ١٩٢٢؛ المعرض ١٤ أيار ١٩٢٢، و١٥ آذار ١٩٢٣؛ و٢٠ نيسان ١٩٢٤؛ ف. عمون، سوريا المجرمة، باريس ١٩٢٩، ص. ٢٦٦-٢٦٧.

٣٣ على سبيل المثال، إن المجلس البلدي، الذي خمّن أن المخيمات البيروتية المختلفة تؤوي ٨٠٠٠ أرمني في تشرين الثاني ١٩٢٣، شكا من زيادة العمل المترتب على أطبائه جراء ازدياد عدد اللاجئين؛ قرارات بلدية ٨/٢٠ إلى ٢٣ آب، ٣/٧٧ تاريخ ١١ تشرين الأول ١٩٢٣ و٢٤٤ /٦ تاريخ ١٧ كانون الثاني ١٩٢٤.

٣٤ المعرض، ٨ كانون الثاني، و٥، و٩، و١٩ تشرين الثاني ١٩٢٢؛ ١٥ آذار و٥ آب، و٩ و٢٣ أيلول، و٤ و١٤ تشرين الأول ١٩٢٣.

٣٥ نادراً ما يتم التبليغ عن الهجرات؛ المعرض، ٢١ كانون الثاني ١٩٢٣. انظر بشأن هجرة الأرمن مثلاً التقارير المحالة إلى عصبة الأمم.

٣٦ المعرض، ٢١ كانون الثاني ١٩٢٣.

٣٧ لسان الحال، ٢٨ نيسان ١٩٢٥؛ المعرض، ١٠ كانون الثاني ١٩٢٩.

٣٨ أنفقت الحكومة اللبنانية بهذه الصفة ٨١٠٠٠٠ فرنك بين ١٩٢٠ و١٩٢٥؛ وزارة الخارجية، تقرير إلى عصبة الأمم... لعام ١٩٣٢، باريس، المطبعة الوطنية، ١٩٣٣، ص. ٥١.

٣٩ ذكر في قرارات بلدية ٣/٧٧ تاريخ ١١ تشرين الأول ١٩٢٣، و٥/٣٣٦ تاريخ ٢١ شباط ١٩٢٤.

«لبننة» اللاجئين: قضية يصعب الدفاع عنها

تغيّر إطار النقاش اعتباراً من ١٩٢٥ على نحو جذري. ففي هذه السنة، أثبتت السلطات ديمومة الوجود الأرمني بإصدارها قراراً بتجنيس اللاجئين. فقد أثار القرار، في أحسن الأحوال، ردود فعل قلقة، ولم يتقدم أحد للدفاع عنه، لا سيما أن خصوصيات الأرمن بدأت تتضح أكثر فأكثر للسكان المحليين.

في أواخر ١٩٢٤، أعلن بإيجاز أنه تقرر إحصاء اللاجئين[٤٠]. وحين صدر القرار بمثل عام ١٩٢٥، شكّل الأرمن، في اعتقاد البعض، موضوع الساعة «الذي أثار اهتمام البلد أكثر من غيره»[٤١]. وكان الإحصاء يهدف في الواقع، كما أوضح بيان الحاكم، إلى منح الأرمن المقيمين في لبنان الجنسية اللبنانية؛ فهم كانوا سيؤلفون منذ ذلك التاريخ جماعات جديدة وسيكون لهم ممثلوهم في المجالس الوطنية والمحلية[٤٢]. ولم تُدعَ المراجع اللبنانية للمصادقة على القرار، فجرى عندئذ حل المجلس التمثيلي، وهو بمثابة برلمان ذلك العصر، (جراء خلاف مع المفوض السامي الجديد)؛ وفي انتظار انتخاب المجلس التأسيسي الذي وعدت به باريس، تمثل النظام الانتدابي بإدارة مباشرة يمارس السلطة فيها «الديكتاتور الكبير»، أي الحاكم الفرنسي للبنان الكبير[٤٣]. من الصعب الاعتقاد أن الموعد المحدد لذلك جاء نتيجة المصادفة وحدها. فبما أنه أتى مطابقاً لموعد نهاية تدفق اللاجئين، أشار إلى أن سلطات الانتداب كانت تخشى ردود الفعل المحلية، وتفضّل أن تجنّب حلفاءها تحمل عبء قرار غير شعبي. كما حاولت أن تتنصل من مسؤوليتها الخاصة متحصنة وراء قرارات المجتمع الدولي[٤٤].

والواقع أن القرار الفرنسي أثار اعتراضات حادة، رافقها موكب من الإشاعات المسيئة إلى اللاجئين[٤٥]. فتجنيس الأرمن «بين ليلة وضحاها»، على ما أكّده الناس، هو التسبب بشقاء اللبنانيين ولبنان أيضاً. فهؤلاء الغرباء، الذين سيُدعون للمشاركة في مجمل الشؤون الوطنية، وفي السلطة التنفيذية من بين أمور أخرى، سوف يصبحون «أرباب البيت» الحقيقيين؛ إنهم سيقودون البلد، بالجهل واللامبالاة حيال احتياجاته، إلى «الخراب»: وكلها أسباب لن تترك للبنانيين خياراً آخر سوى «الضياع في الهجرة»[٤٦].

٤٠ المعرض، ٢ تشرين الأول ١٩٢٤.
٤١ لسان الحال، ٩ آذار ١٩٢٥. انظر كذلك البشير، ١٠ آذار ١٩٢٥؛ والمعرض، ٨ آذار ١٩٢٥.
٤٢ لسان الحال، ٧ آذار ١٩٢٥؛ البشير ٢٨ شباط؛ ٣ و٥ آذار ١٩٢٥.
٤٣ لسان الحال، ٩ نيسان ١٩٢٥.
٤٤ البشير، ٥ آذار ١٩٢٥؛ لسان الحال ٧ آذار ١٩٢٥.
٤٥ لسان الحال، ٢٨ آذار ١٩٢٥.
٤٦ لسان الحال ٢، و٧، و٩، و١٨، و ٣١

بيروت، مخيم للاجئين الأرمن، إلى يمين مستودع الحافلات الكهربائية (الترامواي).
مجموعة ميشال بابوجيان



وبطبيعة الحال، ألقوا اللائمة على الأرمن، المتهمين بنكران الجميل لا بل بالزهو والكبرياء، الأرمن الذين يحاولون الاستيلاء على بلد شعب ذنبه الوحيد أنه عاملهم بكرم و«شفقة». غير أن المسؤولين الرئيسين عن هذا الظلم هم ممثلو الانتداب الذين لم يتراجعوا أمام استخدام إجراء غير قانوني. فعصبة الأمم لم توص فقط باستشارة المسؤولين المحليين في القضايا الداخلية، بل أخضعت منح الجنسية اللبنانية لنظام أقدمية الإقامة التي يجب ألاّ تقل عن خمس سنوات؛ لذا شرع بعضهم يلوّح أنه في وسع البرلمان القادم أن يبطل هذا القرار[47].

طريقة التصرف هذه، التي لا مثيل لها في «البلدان المتمدنة كفرنسا»، تستأهل شرحاً. فمعاهدة لوزان، التي تحصنت وراءها السلطات، لم تشكّل في الحقيقة سوى ذريعة الغاية منها إخفاء «خطأ سياسي»، لا بل «خدعة سياسية» ارتكبتها فرنسا[48]. وإذا بدا صعباً تصديق ذلك، أقله على اللبنانيين، فإن هؤلاء تساءلوا كيف يمكن، بشكل آخر، شرح تشدّد الممثلين الفرنسيين الذين كان في وسعهم أن يختاروا حلاً وسطاً : هو إحصاء للاجئين يتناسب مع «لبننة» جزئية تستبعد الحقوق المدنية[49]. أما بالنسبة إلى الوحدويين، فإن الجواب لم يحتمل أدنى شك: «إن الغاية من استقدام الأرمن إلى لبنان وسوريا... [هي] مسألة سياسية لها أسرارها التي لا تخفى على الناس في هذا البلد»[50]، أي رغبة فرنسا في زيادة حجم المسيحيين الموالين لها كي تعزز تأثير الموازنة في التفوق العددي النسبي جداً ضمن نطاق لبنان الكبير. خلاصة القول، كان باستطاعة فرنسا أن تأويهم في مكان آخر، «في مستعمراتها الواسعة في أفريقيا، بدلاً من أن... تعمد إلى إيوائهم في بلد يسرقون فيه الخبز من فم شعب يحتضر»[51].

ولئن استخدم الوحدويون حجة المرجع التركي غير الصحيحة ليبيّنوا استحالة اندماج الأرمن بالعرب، فإنهم ساقوا أيضاً اعتراضات لا يمكن لدعاة النزعة اللبنانية إلاّ أن يتأثروا بها. فقد ألحّوا على حق الذين «عُجنوا بالطين اللبناني» في منح جنسيتهم لمن يشاؤون، مؤكدين أن «لبنانياً مهاجراً هو أفضل من أرمني مقيم»[52]. وحدها «لسان الحال» اغتنمت الفرصة السانحة لمساعدة المسيحيين وضاعفت المقالات المتعلقة بالمهاجرين اللبنانيين[53]؛ وإذ أكّدت رفضها التعليق على الفائدة المرجوة من تجنيس الأرمن أو عدمها، استخدمت بدورها معارضة المسلمين للتصدي للقرار الرسمي:

«*إذا كنا نشفق على الأرمن ـــ فإننا نشفق كذلك على أنفسنا، ونشك في ألاّ يزيد اندماجهم في جنسيتنا من انقساماتنا وألاّ يشكّل نكبة جديدة في جوهر طائفيتنا، وكلاهما موضوع خطير*»[54].

وتجلى بوضوح حذر وحيطة الصحف الأخرى المؤيدة للنزعة اللبنانية لدى اشتراكها في الجدال الدائر، فقد اكتفت باستعادة البيانات الرسمية متبنية المشروع الفرنسي ولكن من دون أن تدافع عنه في الحقيقة إلاّ بذرائع واهية[55]. فالمهاجرون اللبنانيون، بحسب جريدة «المعرض» مثلاً، سوف ينالون أيضاً الحقوق المدنية، ولكنها كانت إشاعة لا أساس لها البتة[56]. وكذلك أكدت «البشير»، مبدية ارتياحها لاهتمام السلطات بالسهر على احترام حقوق الأقليات كافة ويمنع تكوّن «ما يشبه وطناً أرمنياً صغيراً بيننا»، كما أكدت أن حيازة بطاقات الهوية اللبنانية ستسهل هجرة الأرمن[57]. هذه الحيرة الظاهرة ـــ التي لم يكن يمكنها إلاّ أن تشيع، في نظر المنددين بالقرار، التواطؤ بين دعاة النزعة اللبنانية والفرنسيين بخصوص إسكان الأرمن ـــ قد أشّرت إلى التطور الحاصل لدى بعض الموارنة خصوصاً؛ فهؤلاء، وإن لم يعترفوا علناً بذلك، ما عادوا يرفضون زيادة المسيحيين الإضافية في مواجهة مقاومة إسلامية ما زالت، بعد خمسة أعوام على إنشاء لبنان الكبير، تتسم بالصلابة، بينما بدا أن عودة المهاجرين اللبنانيين الكثيفة باتت مستبعدة.

٤٧ م. ن.

٤٨ لسان الحال، ١٨ آذار ١٩٢٥.

٤٩ لسان الحال، ٢ و١٨ آذار ١٩٢٥.

٥٠ لسان الحال، ٣١ آذار ١٩٢٥.

٥١ الأخبار المصورة، ٢٩ أيار ١٩٢٧.

٥٢ لسان الحال، ٣١ آذار آذار ١٩٢٥؛ الأخبار المصورة، ٢٩ أيار ١٩٢٧.

٥٣ لسان الحال، ٢٤ شباط؛ ١٢ و١٦ آذار ١٩٢٥.

٥٤ لسان الحال، ٩ و١٨ آذار ١٩٢٥.

٥٥ البشير، ٥ آذار ١٩٢٥؛ المعرض ٥ آذار ١٩٢٥.

٥٦ المعرض، ١٢ آذار ١٩٢٥.

٥٧ البشير، ١٠ و١٢ آذار ١٩٢٥.

ويظهر أن السلطة أخذت في الاعتبار تعارض المواقف القائمة، فاعتمدت لتساهل في تطبيق مبدأ لبننة الأرمن من دون أن تشكك فيه. وأسفر الإحصاء عن ٢٢٠٣٨ أرمنياً مقيماً في بيروت (من أصل ٣٢٨٥٩ متواجدين في لبنان)[٥٨]. في حين أن دائرة المخابرات الفرنسية قدرتهم بأكثر من ٢٥٠٠٠ شخص[٥٩]. ورفض الحاكم لاحقاً الموافقة على طلب قادتهم الروحيين بتمديد مهلة التسجيل[٦٠]. وظل تلبننهم خاضعا لـــ «شروط»[٦١]. وفي ١٩٢٥، تمتعوا فقط بحق الاقتراع، إذ رفضت السلطات تخصيص مقاعد إضافية لهم في الجمعية الوطنية متمسكة بصحة القوانين السارية المفعول حتى إجراء الإحصاء القادم، وهي قوانين خالفتها من أجل تلبية طلبات مجموعات دينية أخرى. وبذلك لن يحق لهم إلاّ بعدد محدود من ناخبين ثانويين[٦٢]. وإذا أعلنت «السلطة الدينية العليا لدى الأرمن» حيادها في الانتخابات، ربطت الصحف الناخبين الأرمن بعملية شراء الأصوات الجارية في بيروت[٦٣].

أثيرت مسألة تجنيس الأرمن مجدداً أمام الجمعية الوطنية الجديدة لمناسبة اقتراح الحكومة منحهم حق الاقتراع — لا التمثيل — في الانتخابات البلدية[٦٤]، وهو حق حصلت عليه رعايا عصبة الأمم والولايات المتحدة عام ١٩٢٤ لبيروت. وقد طلب نائب ماروني، عندما اعتبر أن معاهدة لوزان لا تنطبق على لبنان نظراً إلى وضع هذا البلد الخاص قبل الحرب، أن يتمكن البرلمان من «مناقشة جنسية اللاجئين أولاً»، وهذا اقتراح أيّده فيه زميل درزي رافضاً «الزخارف الكلامية» التي كانت المسألة مغلفة بها. ورفض العديد من النواب المسلمين، من دون مناقشة المبدأ، منحهم المساواة في المواطنة، لأن اللاجيء ليس ابن البلد ولا يسعه إذاً أن يتمتع بالحقوق مثلما

٥٨ وزارة الخارجية، تقرير إلى عصبة الأمم... عام ١٩٢٥، باريس ١٩٢٦، ص. ١٥٤-١٥٥. وبخصوص الإحصاء: البشير، ٣، و٥ و١٢ آذار ١٩٢٥؛ لسان الحال، ٤، و١١، و١٢ آذار ١٩٢٥.

٥٩ دائرة الاستخبارات، دول لبنان الكبير، وسوريا، وبلاد العلويين وجبل الدروز تحت الانتداب الفرنسي، ١٩٢٥؛ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، بيروت، الدفعة الأولى، ١٥٦٠.

٦٠ لسان الحال. ٤، و١١، و١٢ آذار ١٩٢٥؛ من الحاكم إلى المفوض السامي، مشروع قرار (للتصديق)... ٥ أيار ١٩٢٥، مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، بيروت، الدفعة الأولى، ٢٩١٠.

٦١ وزارة الخارجية، تقرير إلى عصبة الأمم... ١٩٢٤، باريس، ١٩٢٥، ص. ٥١.

٦٢ ١٣ ناخباً ثانوياً لـــ ٢٢٠٠٠ شخص مقابل ٣٩ ناخباً ثانوياً لـــ ٣٤١٧٤ سنياً مقيمين في المدينة ؛ لسان الحال ١٠ حزيران و١ تموز ١٩٢٥.

٦٣ لسان الحال. ١٦، و١٩، و٢٦، و٢٩ و٣٠ حزيران ١٩٢٥؛ المعرض، ٢٥ حزيران ١٩٢٥.

٦٤ مناقشات برلمانية، المجلس التمثيلي، جلسة ٦ أيار ١٩٢٦، ومجلس الشيوخ. جلسة ١٣ تشرين الأول ١٩٢٦؛ وفي الجريدة الرسمية للجمهورية اللبنانية، ملاحق العددين رقم ١٩٦٩ ورقم ٢٠٢٦، ٤ أيار و١٩ تشرين الثاني ١٩٢٦.



القسم الشرقي لمخيم مار مخايل كما يُرى من تلة الأشرفية.
مجموعة مش. — ج.ق.ي



حي لجهة شمال مخيم مار مخايل في بيروت، عام ١٩٢٤.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

يتمتع بها اللبنانيون». برلماني واحد، مسيحي، دافع عندئذ بحذر عن الموقف الرسمي مذكراً السلطة «بالقدرات على منح الجنسيات». فهنأ الحكومة خصوصاً لأنها منعت هؤلاء اللاجئين من تنحية اللبنانيين عبر إعطاء الأرمن مقاعد إضافية معينة. وبما أن تسعة من النواب الثمانية عشرة الحاضرين (٧ مسلمون ومسيحيان) اقترعوا ضد المشروع لم تتم المصادقة عليه، مع أنه قرار وافق عليه ممثل الانتداب. وبعد عامين، خضعت مسألة تمثيل الأرمن في المجالس المحلية لاختبار جديد. فقبل البرلمان هذه المرة المبدأ غير أنه صادق بالإجماع، خلال الجلسة نفسها، على التشكيل النظامي للمجلس البلدي في بيروت الذي لا يضم أي ممثل عن اللاجئين[٦٥]. واقترح العديد من أعضائه، لدى دراسة قانون الانتخاب الواجب تطبيقه عام ١٩٢٩، استبعاد الأرمن، وهو استبعاد ارتأى البعض حصره في الذين استقروا منهم في لبنان منذ أقل من ١٠ سنوات[٦٦]، بيد أن القانون الجديد أقر لاحقاً حق الأرمن الوحيد في الاقتراع[٦٧].

واذا كانت مسألة حقوق الأرمن السياسية قد أثارت مشكلات، فإن الأمر اختلف في ما يتعلق بحقوقهم في مقاسمة الدولة الأرباح المادية التي رفضت بصورة شبه اجماعية. وهكذا أيّد النواب أحد زملائهم، وهو شيعي من لبنان الجنوبي، أشار

٦٥ مناقشات برلمانية، مجلس النواب، جلسة ١٢ آذار ١٩٢٨ في الجريدة الرسمية، رقم ٢١٥٠ والملحق ٢١٥٠، ١٩ آذار ١٩٢٨.
٦٦ المعرض، ٤ نيسان ١٩٢٨ و١٨ كانون الثاني ١٩٢٩، مع ذلك توصل أرمني كاثوليكي مقيم في البلاد منذ أعوام طويلة الى أن ينتخب عام ١٩٢٩ عن المقعد المخصص للأقليات في بيروت.
٦٧ المعرض، ١٢ تموز ١٩٢٩.

في الظلم والشذوذ نتيجة تجاوز عدد الموظفين الأرمن عدد العمال الشيعة «رغم كونهم غرباء عن البلد»[٦٨]. ومنذ ١٩٢٥، اعتُبرت إدارة المخيمات شكلياً من حصاص بلدية بيروت التي نالت، بالمقابل، الحق في جباية ضريبة على إيجارات الأراضي والأكواخ التي يشغلها الأرمن لقاء حصولهم على الجنسية اللبنانية [٦٩]. وغالباً ما ندد البيروتيون، من محامين ومستشاري بلدية وصحافيين، بالوضع السائد في الحي الأرمني، حيث انتشرت الأمراض على اختلاف أنواعها وشكلت خطراً على هؤلاء اللاجئين المساكين وعلى سكان بيروت أيضاً[٧٠]. وفي أواخر ١٩٢٦، وبعد وعود عدة[٧١]، خصصت الحكومة ميزانية — قيمتها غير محددة — من دون أن تعرضها على البرلمان من أجل شراء أراض لإعادة إيواء الأرمن [٧٢]. ولما قبل البرلمان، بعد مناقشات طويلة، أن يترك للمفوض السامي تقدير مبلغ معين — تحت عنوان «إيرادات مختلفة موقوفة»[٧٣] — اقتطع هذا الأخير ٣ ملايين فرنك لبدء مشروع إعادة إيواء الأرمن[٧٤]. مع ذلك، ردت الحكومة الإجراء بعد عامه — وهو قرار لم يأخذه المفوض السامي في الاعتبار[٧٥]. وحده عضو مسيحي في مجلس الشيوخ جعل من نفسه المدافع المعتمد عن تحسين ظروف معيشة الأرمن في البرلمان[٧٦]، وثار على «الاعتبارات السياسية» التي أدت، في رأيه، إلى سحب مشروع[٧٧]، وكلما كانت المسألة تطرح على بساط البحث، كان البرلمان يرفض تقديم المساعدات المالية للمشروع؛ فأكد نائب ماروني في ١٩٢٩ «المطار أكثر نفعاً من الأرمن»[٧٨]. وبما أن الانتداب قرر أن يبقى الأرمن في لبنان، كان من واجب فرنسا أن تلتزم تحمل المسؤوليات.

العوائق الأرمنية في وجه الاندماج

منذ أن أعلن رسمياً أمر تجنيس الأرمن، بادر السكان المحليون — حتى أولئك الذين رفضوا شجب تجنيسهم — إلى الإشارة إلى خصوصياتهم غير القابلة للتغيير. وحين أشير إلى صعوبة اندماجهم وسط شعب «غريب عنهم من حيث اللغة والجنسية والتقاليد»[٧٩]، أبرزت بشكل متزايد اختلافاتهم، وهي خصائص حملت دلالات سلبية. وهكذا فإن نفاقهم دفع بعضهم إلى تسجيل أنفسهم كلبنانيين تحت أسماء مستعارة كي لا يفقدوا حظوظهم في العودة إلى بلدهم[٨٠]. واعترف بـ«ميولهم ونزعاتهم» الإجرامية حتى أولئك الذين أعطوهم ظروفاً مخففة:

«جميع هؤلاء العاطلين عن العمل، والرازحين تحت ثقل بؤسهم الحالي، الذين يجترون كل الأوجاع المفروضة عليهم، ينسون، بدافع اليأس، الواجبات التي تفرضها عليهم أصول الضيافة التي ينعمون بها. إن الجريمة تلقى في نفوسهم أرضاً خصبة تنمو فيها على غرار الحياة النباتية التي تفيض في البلدان الإستوائية. كما يتفجر عنف أهوائهم حتى عند ارتكاب جرائمهم؛ وأعمال السرقة التي يقترفونها ترافقها دائماً ظروف تزيدها خطورة»[٨١].

هذا العنف كان يمكن رؤيته أثناء المشاجرات الناشبة بين الأرمن أنفسهم[٨٢]. فقد كانت الاضطرابات داخل المخيمات، في الواقع، مزمنة منذ ١٩٢٥، وذلك بسبب التوترات الحاصلة بين محازبي كل من الطاشناق والهنتشاك، والتي أججتها المحاولات الآيلة لتأليف مجلس وطني — محاولات لم تأت الصحافة المحلية على ذكرها[٨٣]. كانت هذه الصراعات تلفت انتباه السكان المحليين أكثر وأكثر عندما تدور خارج

٦٨ مناقشات برلمانية، مجلس النواب، جلسة ١٨ كانون الثاني ١٩٢٨؛ الجريدة الرسمية، ١٩٢٨.

٦٩ قرار بلدي، ١ إلى ٦ أيار ١٩٢٥، وقرار للحكومة رقم ٣١٥٠ تاريخ ٢٧ أيار ١٩٢٥؛ لسان الحال، ١٣ تموز ١٩٢٥.

٧٠ مناقشات برلمانية، مجلس الشيوخ، جلسة ٢٧ تموز ١٩٢٦؛ الجريدة الرسمية، الملحق رقم ٢٠٠٥، ٧ أيلول ١٩٢٦، انظر أيضاً المعرض، ٤ نيسان ١٩٢٦؛ ولسان الحال، ٧ أيار و٢ تموز ١٩٢٦.

٧١ بيان وزاري ومناقشات برلمانية، مجلس الشيوخ، جلسات ٢٦ حزيران و١١ و١٩ تشرين الأول ١٩٢٦؛ الجريدة الرسمية، الملاحق ذات الأرقام ١٩٩٨، و٢٠٢٥ و٢٠٢٦؛ ١٣ آب، ١٦ و١٩ تشرين الثاني ١٩٢٦.

٧٢ قرار رقم ٩١٠ تاريخ ١٧ كانون الأول ١٩٢٦؛ الجريدة الرسمية، رقم ٢٠٣٦، ٢٤ كانون الأول ١٩٢٦.

٧٣ مناقشات برلمانية، مجلس النواب، جلسة ١٨ كانون الثاني ١٩٢٧؛ الجريدة الرسمية، ١٩٢٧.

٧٤ وزارة الخارجية، تقرير حول الوضع... لعام ١٩٢٦، باريس المطبعة الوطنية، ١٩٢٧، ص. ١٠٠؛ تقرير حول الوضع... لعام ١٩٣٢، ١٩٣٣، ص. ٥١.

٧٥ قرار رقم ٢٣٨٥ تاريخ ١٥ تشرين الأول ١٩٢٧، ذكر في مناقشات برلمانية، مجلس النواب، جلسة ٩ تشرين الثاني ١٩٢٧؛ الجريدة الرسمية، ١٩٢٧-١٩٢٨.

٧٦ يبرز الجانب الإنساني للمسألة وصورة لبنان السلبية المتأتية عنه: نقاشات برلمانية، مجلس الشيوخ، جلسة ٢٦ حزيران؛ الجريدة الرسمية، ملحق الرقم ١٩٩٨، ١٣ آب ١٩٢٦.

٧٧ مناقشات برلمانية، مجلس النواب، جلسة ٩ تشرين الثاني ١٩٢٧؛ الجريدة الرسمية، ١٩٢٧-١٩٢٨.

٧٨ بيان وزاري ونقاش برلماني، ١٢ تشرين الأول ١٩٢٩؛ ي. قزما خوري، «البيانات الوزارية اللبنانية والمناقشات ١٩٢٦-١٩٨٤»، بيروت، ١٩٨٦، المجلد ١، ص. ٥٥.

٧٩ لسان الحال، ٣١ آذار ١٩٢٥.

٨٠ م. ن.، ٢ آذار ١٩٢٥.

٨١ ف. عمون، م. س.، ص. ٢٧٠.

٨٢ لسان الحال، ١١ أيار؛ و٣٠ حزيران؛ و٢٠ تموز ١٩٢٥.

٨٣ لا تفرد له لا لسان الحال ولا المعرض سطراً واحداً. الأمن العام، تقرير بنشاطات عام ١٩٢٧، ٢٥ حزيران ١٩٢٨؛ وزارة الخارجية، نانت، بيروت، الدفعة الأولى، ٨٤٢. انظر أيضاً س. كالباكيان، «أبعاد الصراع بين الطوائف بالنسبة إلى الطائفة الأرمنية في لبنان»، بحث للماجستير، الجامعة الأميركية في بيروت، بيروت ١٩٨٣، ص. ٦-٩.

«الحي الأرمني»، كما حدث لدى اغتيال أحد مسؤولي الهنتشاك وسط المدينة في كانون الثاني ١٩٢٩، على أيدي خصومه المنتمين إلى الطاشناق. وللأسف، تمكن بعض هؤلاء من الفرار[٨٤]. هذه الجريمة، أكدت خصوصاً صحيفة «المعرض»، تميزت «بأسلوبها المروع الذي نلمسه في جرائم بعض اللاجئين»، وتالياً وجب أن تُعاقب بحزم صارم[٨٥]. وهي «لا مثيل لها عندنا» بحكم طبيعتها السياسية أيضاً. فقد حدث الاغتيال، على ما أكدوا، إثر قرار صدقت عليه اللجنة التنفيذية في حزب سياسي[٨٦]. كما أن دفن زعيم الهنتشاك شكّل حادثة لا سابقة لها، إذ إن جنازته كانت «سياسية» أفسحت المجال أمام استنفار مهم للمتحزبين. ويُقال إن ٧٠٠٠ شخص شاركوا في الجنازة — وهي بلا ريب أول تظاهرة أرمنية واسعة في المدى البيروتي العام. وقد احتشد الموكب «الهائل» في الساحة العامة الرئيسية قبل توجهه إلى المدفن[٨٧].

لقد ركزت القضية إذاً على التنظيم الاجتماعي الأرمني الذي يميزه بوضوح عن المجتمع البيروتي: فالأحزاب السياسية كانت تلعب دوراً مرجحاً بخلاف التجمعات المحلية التي تتشكل عشية الانتخابات ثم لا تدوم. كانت مناسبة للصحافة المحلية كي تصرّ على ضرورة «أن يحترم الأرمنُ... الذين استقبلناهم عندنا بصفة ضيوف وإخوة، واجبات الضيافة»[٨٨]، وإذ كان البعض يندد بجميع أولئك الذين ينادون بالانطواء على الهوية الذاتية، و«يحرّض على مقاطعة الدولة»، لا بل على اللجوء إلى الإرهاب[٨٩]، يؤكد تفضيله للهنتشاك، إذ:

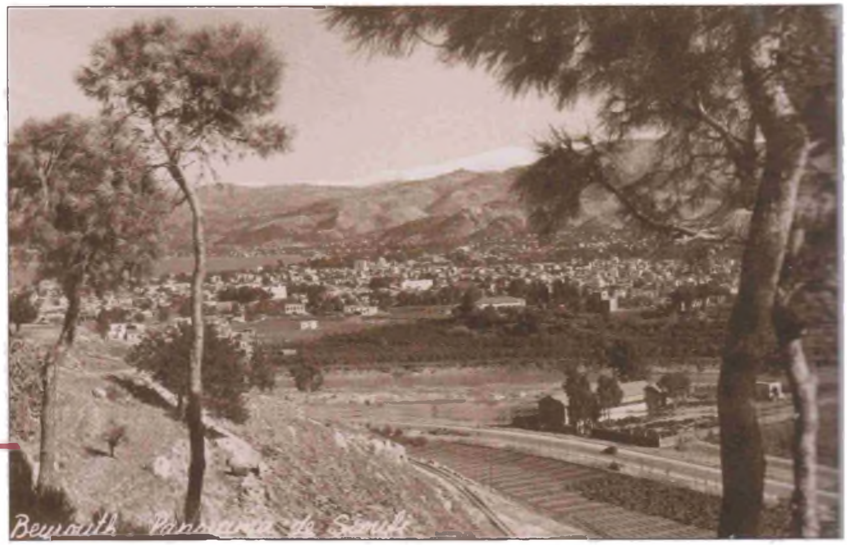
«إنه يدعو إلى احترام قوانين البلد والأخذ في الاعتبار واجبات الضيافة، ولا يطالب، مثل خصمه الطاشناق، بامتيازات تهدد الوحدة الوطنية في لبنان وسوريا، جاعلة من المهاجرين الأرمن عناصر مستقلة بسبب لغتهم وامتيازاتهم»[٩٠].

وطبعاً، يمكن تعليل هذا التفضيل للهنتشاك أيضاً بالعلاقات التي حاكها أعضاء الحزب مع اللبنانيين، وهي علاقات لم يكن لها نظير عند الطاشناق[٩١].

إن الفكرة القائلة بأن الأرمن أنفسهم لا يرغبون في الاندماج شقت إذاً طريقها مذ وجدت مسألة تجنيسهم: فهؤلاء لا يرغبون فيه بالضرورة، «إذ إنهم لم ييأسوا بعد من العودة إلى كيليكيا»، ويخشون أن يفقدوا حقوقهم في المطالبة بممتلكاتهم في مناطقهم الأصلية[٩٢]. ولكي تولي الصحافة قيمة أكبر لهذه الادعاءات، ذكرت حالات من العودات الفردية، كما ذكرت، دليلاً على ذلك، مطالب قادتهم في أن تكون لهم جمعيات خاصة بهم[٩٣]، ومستشفيات، الخ...[٩٤] بالإضافة إلى لامبالاتهم باللغة العربية. وبالطبع، أكدت الحكومة، في ١٩٢٥، أنها فرضت على قادتهم تدريس العربية في المدارس الرسمية، محددة حتى عدد الساعات القانونية[٩٥]. غير أن الإشاعات عن تبني لغة جديدة رسمية لم تتوقف[٩٦]. وأبعد من «الاستعمار الاقتصادي... والسياسي»، اعتُبرت هذه الخصوصية الثقافية الأخطر، على ما اعتقد البعض، وذلك لأنها كانت تعيد النظر في الثقافة والهوية الوطنيتين:

«العلة هي أن الأرمن يؤلفون نسيجاً قائماً بذاته، لهذا يرفضون الانصهار مع الوطنيين... إنهم لا يدرسون لغتنا ولا يكترثون لأدبنا، إنما هم بالأحرى يتصفون بتعصب أعمى للغتهم الأرمنية. وبمجرد حضورهم بيننا يؤدي إلى هيمنة اللغات الأجنبية على لغة البلد. سوف تتحول لغتنا إلى رطانة ومزيج من اللغات الأجنبية كما هي الحال في مالطا وفي بلدان المغرب وتونس والجزائر»[٩٧].

٨٤ المعرض، ٢٠، و٢٣ و٢٥ كانون الثاني ١٩٢٩؛ لسان الحال، ١٨ نيسان ١٩٣٠.
٨٥ أعرب البعض عن رضاه إزاء تقدم التحقيق برغم الصعوبات اللغوية التي واجهها المحققون اللبنانيون؛ المعرض–٣٠ كانون الثاني و٧ شباط ١٩٢٩.
٨٦ م. ن.
٨٧ المعرض، ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٩.
٨٨ المعرض، ٢٠ و٣٠ كانون الثاني ١٩٢٩.
٨٩ عمون، م. س.
٩٠ المعرض، ٢٣ و٢٥ كانون الثاني ١٩٢٩. انظر أيضاً: المقطم ٩ تشرين الأول ١٩٢٦؛ ورد ذكره في ب. روندو، المؤسسات السياسية في لبنان، باريس، ١٩٤٧، ص. ٣٧.
٩١ الأمن العام، تقرير بنشاط عام ١٩٢٧، ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٨؛ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، بيروت، الدفعة الأولى، ٨٤٢. انظر أيضاً: اده، «التعبئة الشعبية في بيروت...»، م. س.
٩٢ لسان الحال، ٢ و٣١ آذار ١٩٢٥.
٩٣ لسان الحال، ٢ نيسان ١٩٢٥.
٩٤ لسان الحال، ٧ آذار ١٩٢٥.
٩٥ لسان الحال، ٩ آذار ١٩٢٥.
٩٦ م. ن.
٩٧ الأخبار المصورة، ٢٩ أيار ١٩٢٧.



منظر عام لبرج حمود، حيث أقيمت أحياء حضرية أرمنية أواخر العشرينات.
مجموعة ميشال بابودجيان

خاتمة

شكّل اللاجئون الأرمن، منذ استقبالهم في ١٩٢٢ ــ ١٩٢٤ وحتى تجنيسهم في ١٩٢٥ وإعادة إيوائهم بدءاً بـ١٩٢٧، ملفاً كاد أن يرتبط بالسلطات الانتدابية فحسب. هذه السلطات، رغم تشددها في قراراتها، بدت متساهلة كفاية في تطبيقها، وكأنها أخذت في الاعتبار التحفظات المحلية وتركت للزمن خاصة أن يعنى بقطع دابر المقاومة. وفي ١٩٣٤ ــ وتحديداً بناء على قرار انتدابي اتخذ أثناء تعليق جديد لعمل البرلمان ــ نال اللبنانيون الأرمن، ولكن بعد اعتراضات متعددة، مقعداً في الجمعية الوطنية ومقعداً في المجلس البلدي لمدينة بيروت عام ١٩٣٦.

إن الاندماج من الأعلى هو إذاً الأحق من غيره، ويفسر، في رأيي، تفسيراً جزئياً على الأقل، العداء المحلي تجاه اللاجئين. فالأرمن، وهم عديمو النشاط في المناقشات الدائرة في المجالس التي تضمهم، كانوا يعانون لأن اندماجهم أتى نتيجة «أمر واقع» فرضه الانتداب ــ وهو سلطة مطلقة فرنسية ندد بها الوحدويون ونفر منها تدريجاً دعاة النزعة اللبنانية، ولكن وحدة الموقف حيالها بقيت عاجزة عن أن تتحقق. بل على العكس، إن إسكان اللاجئين دفع البيروتيين مرة أخرى إلى الانقسام، الحقيقي والفاضح، ضمن جماعات دينية متخاصمة. وقد تميّز العداء المبدئي، الذي دان به الوحدويون المسلمون وتحقق طوال العشرينات برمتها، تحالف تكتيكي متدرج أساء النهوض به العديد من المسيحيين دعاة النزعة اللبنانية.

حتى بالنسبة إلى أولئك الذين سلّموا بهذا الزواج العقلاني، كان لا يمكن تمثيل الأرمن باللبنانيين الحقيقيين. فتجنيسهم لا يبدل من صورتهم، بل بالعكس، إن البؤس وتنظيم اللاجئين الداخلي جعلاهم أكثر غرابة وإثارة للخوف. مع ذلك، فإن الخلاف الداخلي الذي عكر صفوهم كجماعة حجب العلاقات الفردية التي حيكت خيوطها مع الزمن قبل أن تنعكس على الصور التي تجسدها الجماعة. وتكاثرت الأمثلة على مر السنين. فلنذكر هنا مثل المهندس المعماري الطونيان، الذي كلفه أعلى مرجع ديني إسلامي في بيروت بترميم أحد المساجد القائمة وسط المدينة، وذلك قبل اختياره، عام ١٩٣٤، لبناء المقر الجديد للبرلمان.





«الصورة الأخيرة»، مدرسة اماسيا (صيف ١٩١٤) ــ عام ١٩٢٠، لم يبقَ على قيد الحياة من الــ ١٣٥ الملتقطة صورهم هنا، سوى ٢٥ شخصاً، وقد أشير إليهم بصليب (+).
فوتو ترنيك ترزيباشيان. التعليق بخط اليد هو للأب بيار، رئيس مركز اماسيا.
أرشيف، اليسوعيين في فانف

اليسوعيون شهود على المأساة الأرمنية

بقلم ليفون نورديكيان

داخل حرم مدرسة القديس غريغوار وفي جو من الألفة، احتفل الآباء اليسوعيون في لبنان، عام ١٩٨١، بالذكرى المئوية الأولى لتأسيس إرسالية أرمينيا. وكان هذا الاحتفال، في الوقت نفسه، يضع حداً نهائياً لعمل تجاوزه الزمن على نحو ما، إن بالنسبة إلى الأهداف الأولية التي حددها له البابا ليون الثالث عشر لقرن خلا، وإن من حيث الظروف العامة التي كان الأرمن يعيشونها في سوريا ولبنان. وتاريخ إرسالية أرمينيا المشبع بالقلق والعذاب على غرار تاريخ الشعب الأرمني، يشتمل على مرحلتين كبيرتين: الأولى تمتد ما بين العامين ١٨٨١ ـــ ١٩٢٢، وتتطابق مع بدايات الإرسالية وازدهارها وتجري أحداثها كلها في الاناضول، في عهد السلطان عبد الحميد بقسمها الأكبر. وإبان الحرب العالمية الأولى، تم نفي الآباء، ثم أجبروا، بعد استعادة مؤقتة لنشاطهم خلال عامي ١٩١٩ و١٩٢١، على الجلاء عن البلد بضغط من الكماليين، وراحوا، اعتباراً من ١٩٢٣، يواصلون أعمالهم بين الأرمن الذين لجأوا إلى سوريا ولبنان.

عهدت إرسالية أرمينيا، التي أنشئت بناء على مبادرة شخصية من البابا ليون الثالث عشر، إلى الآباء اليسوعيين الفرنسيين المتمركزين في مقاطعة ليون، وكانوا مستقرين بشكل ثابت في سوريا منذ ١٨٣١، فسارعوا إلى تقديم مساعدة قيمة. كما استفادت من مساهمة آباء إرسالية «قبيلي» [الجزائر]، التي ألغيت إثر صدور قوانين «فالليو»، ومن مساهمة الأب ريوندال والأخ جانان. واعتباراً من ١٨٨١، انتشرت ستة مراكز لها في آسيا الصغرى، تتبع خطاً يصل من صامسون على البحر الأسود إلى المتوسط عند اضنه، مروراً بمارسيفان، واماسيا، وطوقاط، وسيواس وقيصريه، أي بمقاطعات بنطس وكابادوكيا وكيليكيا التاريخية، مغطياً بشكل تقريبي جداً مفهوم «أرمينيا الصغرى» في عهد الرومان. وكذلك تم اختيار هذه المقاطعات بسبب وجود مرسلين غربيين آخرين كالآباء اللعازريين من جهة الغرب؛ والدومينيكيين والكبوشيين والكرمليين من جهة الشرق. وبدءاً بسنة ١٨٨٩، ساهمت جمعيتا راهبات انتقال العذراء في نيم وراهبات القديس يوسف في ليون بدورهما، إلى جانب اليسوعيين، في تربية الشابات الأرمنيات.

كي نحسن فهم البيئة التي نما فيها عمل إرسالية أرمينيا، لا بد من أن نشير حالاً إلى أنها كانت تتبع مقاطعة ليون وأن افرادها كانوا كلهم تقريباً فرنسيين، لذا نعمت، في الوقت عينه، بحماية فرنسا المطلقة وتمثيلاتها الدبلوماسية داخل الأمبراطورية العثمانية. فكان جميع قناصلة فرنسا يقومون بزيارتها باستمرار. ولكن لا يعنينا هنا أن نعيد سرد قصة تدخل الدول الكبرى في المنطقة، غير أنه لا يمكن إغفال تأثيرها في تطور إرسالية أرمينيا. فالنظام شبه الاستعماري الذي فرضته الدول الأوروبية على الإمبراطورية العثمانية مهّد الطريق، إلى حد ما، أمام إنشاء إرسالية كانت مهمتها أيضاً تعزيز الحضور الفرنسي في المشرق. إلى ذلك، اكتشف مرسلو الرهبانية اليسوعية في أماكن إرساليتهم مجتمعاً معقداً، تراتبياً، يتميز بالتعسف ويحط بجماعاته المسيحية إلى وضع شعوب محكومة ورعايا من الدرجة الثانية. وفي نهاية القرن ١٩ هذه، كان الضعف المستمر لهذا النمط من النظام يهدد السيادة العثمانية القديمة العهد. ولم تفلح محاولات تحديث الدولة، التي لجأ إليها السلطان عبد الحميد، في كبح تقويض الإمبراطورية.

من ناحية أخرى، نمت إرسالية أرمينيا، مقارنة بإرسالية سوريا التي تكبرها، في سياق يمكن القول إنه يتصف بالعدائية. فاليسوعيون اضطروا، طوال الأعوام الثلاثة والثلاثين من فترة وجودهم، إلى مواجهة عدد من المصاعب التي أشير إليها باستمرار في التقارير والمقالات التي أرسلوها إلى المنشورات الكاثوليكية[1].

واضح إذاً أن استقرار المرسلين الفرنسيين في آسيا الصغرى، حيث كانت رسالتهم تهيئهم للعمل بين السكان المسيحيين، كان لا بد من أن

[1] يتعلق الأمر أساساً بـ«شهادات من الشرق: الإرساليات الكاثوليكية». وعلى نطاق أضيق بـ«نشرة مدارس الشرق».



الأب أنطوان بوادوبار يهمّ بالتلقيح في قرية نائية من قرى آسيا الصغرى.
مجموعة م. ش. ـــ ج.ق.ي

زعج السلطات العثمانية، غير أن هذه السلطات لم يكن بوسعها أن تعارض ذلك علناً. لكن كان كل مشروع يهدف إلى شراء بيت وبناء مدرسة وكنيسة، أو إلى توسيع بناء أو ترميمه، يصطدم بعوائق إدارية. إذ بقيت الإرساليات فترة طويلة من دون وضع قانوني واضح حاذ لدى السلطات العثمانية. فالحكومة العثمانية لم تعترف للمؤسسات الفرنسية بحقها المعلن رسمياً في امتلاك مدارس أو منشآت استشفائية[٢] إلاّ عام ١٩٠١، عقب استخدام القوة في جزيرة ميتيلان والاتفاقات التي تلتها. أما من الجانب الأرمني، فلم تحبذ السلطات الدينية قدوم مرسلين على نحو مباغت، وكانوا متهمين بـــ«إفساد» مؤمنيها. ولم تكن منشورات الآباء تكتم الخصومة الخفية التي جعلتهم بمواجهة رجال الدين الأرمن. أضف إلى ذلك، أيضاً عداء لأحزاب الأرمنية السياسية ذات المنحى العلماني، التي كان اليسوعيون على حذر منها عموماً. كما توجب عليهم أن يناضلوا ضد مزاحمة المرسلين البروتستانت، الذين عُرفوا بنشاطهم البالغ وتأصلهم الراسخ في المنطقة، ولا سيما في اماسيا وقيصريه. ثم إن البابا كان قد استنجد خاصة باليسوعيين لمحاربة نفوذهم.

٢ «نبذة عن إرسالية أرمينيا الصغرى (١٨٨١-١٩٢٤)»، ليون، ١٩٢٤، ص. ١٤ــ١٥. كراسة غفل [في الحقيقة يتعلق الأمر بهنري ريوانديل] نشرت لمناسبة معرض الإرساليات في لاتران.

بكلام آخر، فإن مهمة إرسالية أرمينيا لم تكن سهلة.

هنا، وتُعتبر المدرسة رأس حربة الإرسالية، لذا كان كل مركز يضم حتماً مدرسة تقوم بجوارها طبعاً كنيسة صغيرة ومكاناً للسكن. حول هذه النواة الأساسية، تُضاف نشاطات أخرى كالمستوصفات، ونوادي الشبيبة، والجمعيات الخيرية، والجوقات الموسيقية الخ... وكانت نوعية التعليم ومستواه عند اليسوعيين يظهران بوضوح الفرق بين مدارسهم والمدارس المنافسة ـ وخصوصاً أن اللغة الفرنسية كانت، في حينه، لغة الدبلوماسية والتجارة. والتعليم الذي كان المرسلون عموماً واليسوعيون خصوصاً يوفرونه، عاد بالفائدة خاصة على أقليات الاناضول المسيحية، ولا سيما الأرمنية منها، فساهم في تكوين النخب المحلية في فترة كان التعليم فيها يشكل رهاناً مهماً.

وإذا كان العمل المدرسي، رغم الأهمية البينة التي يشكلها، يثير خلافات وعداوات، فإن الأمر يختلف بالنسبة إلى خدمات التمريض التي يقدرها السكان بالإجماع، وخصوصاً أن المعالجة كانت تقدم مجاناً: مئة ألف مريض تمت معاينتهم كل سنة بين ١٩٠٠ و١٩١٤. إن تفاني اليسوعيين أثار



مدرسة اماسيا: الفرقة الموسيقية. من اليسار إلى اليمين الأخ ماركوسيان، الأبوان اليان لافرنات، كبريال لويون، وإلى أقصى اليسار الأخ بونتو.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

صدىً واسعاً من الود في صفوف السكان، وبخاصة أثناء انتشار وباء الكوليرا الكبير عام ١٨٩٤، في كل من سيواس وقيصريه، مما أودى بحياة الأب مونان أثناء ممارسة العمل. وأشهر تلك المستوصفات مستوصف طوقاط الذي أسسه الأب سيمون جانان، أحد قدامى «القبيلي»، وقد ترك لدى السكان ذكرى أشبه بالأسطورة. وخلَفَه، بعد وفاته في ١٩٠٠، الأخ جولي فساهم في تطوير المستوصف وآزره أحياناً بعض الآباء كالأب أنطوان بوادوبار. ومن خلال المدرسة والمستوصف، أقام اليسوعيون علاقات مباشرة مع السكان المتعددي الإتنيات في آسيا الصغرى، وكانوا لهذا السبب شهوداً ممتازين على الأحداث المأساوية التي ألمت بالأرمن في غضون الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياة الأمبراطورية العثمانية. غير أن شهادتهم كان عليها ان تأخذ في الحسبان بعض الأحداث الدبلوماسية الطارئة.

هكذا، حين أمر السلطان عبد الحميد في ١٨٩٥، بقتل الأرمن رداً على مشروع الإصلاحات الذي أعدته الدول الكبرى لمصلحة الولايات الأرمنية، قام اليسوعيون برد فعل أقل ما يقال فيه إنه كان حذراً، فقد تعمدوا التزام الصمت في شأن تلك الأحداث الأليمة التي عانوا هم أنفسهم نتائجها. وندرك الآن ، بفضل أرشيفات الرهبانية، أن هذا الصمت كان مقصوداً، أملاه عليهم حرصهم على عدم إزعاج السلطات المحلية، وكذلك القوة المولجة حماية الإرسالية: «لأسباب املتها دواعي الحذر، ويسهل استيعابها بالعودة إلى ذلك العصر المشؤوم، لم تتضمن «شهادات من الشرق» أي معلومات عن مجازر أرمينيا، والتزمت «رسائل مولد» الصمت في هذا الخصوص مراعاة للقسطنطينية والاناضول (إذ كان من الواجب عدم التلفظ باسم أرمينيا)، فلم ترو إلاّ النزر اليسير، أي فقط ما يمكن قوله من دون الإساءة إلى حكومة ذلك العهد. «مع ذلك، فإن دور آبائنا اليسوعيين الذين وضعتموهم نصب أعينكم يتجلى بقدر كاف في الملحق المخصص لهذا الحدث المثير للشفقة»[٣].

[٣] رسالة من الأب جوزف بوتي اليسوعي، هاستينغ ١٢ أيلول ١٩١٩ (أرشيفات ميسريان) موجهة إلى أخ زميل له كان ينوي سرد قصة هذه الأحداث. وبما انه لم يكن يملك نسخة إضافية، اضطر المؤلف إلى تدوين الملحق المشار إليه ليرضي مراسله. ونحن استعملنا هذه النسخة المكتوبة بخط اليد، وذلك لأن النموذجين المتوافرين في بيروت من رسائل مولد لعام ١٨٩٥ لا يتضمنان هذا الملحق.



طوقاط: «المطالعة».
فوتوج. دو جرفانيون ـــ م. ش. ـــ ج.ق.ي

ـيوميات اماسيا تنقل الحدث كما جرى في هذه المدينة. وما إن تم إبلاغ رئيس إقليم ليون للرهبانية بالخبر حتى أرسل مساعدة مالية عاجلة.

ويذكر اليسوعيون في وقت لاحق الصدمة النفسية الدائمة التي خلفتها مجازر ١٨٩٥ ـــ ١٨٩٦ لدى الأرمن. فغداة إصدار الدستور الجديد في تموز ١٩٠٨، جرت واقعة عكست هذا الأمر تجلت بالرعب الذي سببه زلزال ضرب سيواس ودفع الناس إلى الظن بقرب حدوث مجازر. «ما إن حدثت الهزة الأرضية حتى اندفع جميع رواد المقاهي والملاهي إلى الخارج، بينما لم يكن المارة على علم بأن الأرض تهتز. ولدى رؤية هؤلاء الناس المذعورين يتدافعون للخروج مسرعين، قال بعضهم لبعض: « لقد بدأت المجزرة»[4]. لكن هذا الخوف لم يكن عارياً من الصحة، إذ كان اليسوعيون، بعد عام تقريباً، شهوداً على أعمال عنف جديدة في كيليكيا. غير أن الرهبانية شاركت هذه المرة، بهمة ونشاط وبصورة علنية في أعمال الإغاثة لمصلحة الناجين، وذلك بتأمين الملاجئ وتقديم العناية لهم، وأيضاً بالتنديد بهذه المجازر. لذلك أحرقت مدرسة القديس بولس، مؤسسة اليسوعيين الخاصة التي كانت تؤوي اللاجئين، وقد خصص مجلد بكامله من «شهادات من الشرق» الصادر عام ١٩٠٩ لهذا الحدث، ولا سيما التقرير الطويل الذي أعده الاب ج. ريغال[5]. فتساءل هذا الأخير بخاصة حول مصدر هذه المجازر وحوافز المحرضين عليها. وعلى الرغم من ذلك، لم يتوصل إلى كشف الدور الحاسم لبعض دوائر الشبان الأتراك في إثارة هذه الأحداث.

وعشية الحرب العالمية الأولى، أعربت مراكز الإرسالية الستة عن شيء من التفاؤل إزاء تطور نشاطات اليسوعيين: «في سيواس، ٢٧ حزيران، وصلت السنة الدراسية إلى نهايتها. ويبدو أن عام ١٩١٥ حافل بالآمال بالنسبة إلى الإرسالية الفرنسية»، على ما لاحظ الأب بوادوبار[6]. والواقع أن الملاكات المدرسية لاقت، منذ حوالي ثلاثين عاماً، نمواً مطرداً في المؤسسات اليسوعية كافة. لقد ارتفع عدد التلاميذ من ٥٥٠ في ١٨٨٦ إلى ٥٥٢١ في ١٩١٤، وهذا ما استتبع في الوقت ذاته وصول رهبان اضافيين.

٤ أ. اودون، «مخاوف ومبادرات غداة عودة الحرية»، شهادات من الشرق ١٩٠٩، ص. ٨٤.

٥ «مجازر اضنه»، شهادات من الشرق، ١٩٠٩. بعض المقتطفات من هذه التقارير أعيد نشرها: «كيليكيا ١٩٠٩-١٩٢١، من مجازر اضنه إلى الانتداب الفرنسي»، مجلة تاريخ أرمني معاصر، ١٩٩٩، ص. ١٤٣-١٦٤.

٦ أنطوان بوادوبار، «مفكرة مرشد فرقة خيالة من أرمينيا إلى الجبهة الفرنسية، من أيار ١٩١٤ إلى كانون الأول ١٩١٧»، باريس ١٩١٩.

وعلى العموم، لم تلحظ المنشورات اليسوعية الصادرة عهدئذ، على غرار معظم المراقبين الآخرين، بوادر الإبادة المبرمجة في حق السكان الأرمن. مع ذلك، عبّر بعض الآباء عن قلق ما: «أجل، مسكينة هي أرمينيا! آه، لو كنتم تعلمون كم من رؤوس هنا هي في حالة غليان بشأن إصلاحات شبه مستحيلة. وكم من أحقاد أيضاً تتراكم في قلوب المسلمين والمسيحيين! ليت الحرب لا تنفجر! وإلاّ هنا سيبدأ من جديد فوراً «قطع...». وإني على يقين من أن تركيا لا تستطيع أن تنهض من كبوتها مجدداً، وذلك بالتحديد بسبب الحقد السائد بين الأعراق التي تؤلفها، والتي لا تتفق في ما بينها أبداً »[7].

إن تحالف الأمبراطورية العثمانية مع ألمانيا، ومع أنه أبقي سراً حتى دخول تركيا الحرب، لم يترك خياراً آخر للمرسلين سوى مغادرة مراكزهم: فمدارسهم ومقرات إقامتهم احتجزتها السلطات على الفور. وبعد أن طرد مرسلو اضنه، وصلوا إلى فرنسا عن طريق بيروت، بعدما تجشموا تجارب قاسية. أما مرسلو الداخل فبلغوا القسطنطينية بصعوبة، ثم انتقلوا إلى اليونان. بينما تمت تعبئة أفراد الإرسالية الشباب: فرانك دوكونتانيه مات عام ١٩١٥ في الدردانيل؛ وبيار بيرو عام ١٩١٦ نتيجة مرض أصيب به داخل الخنادق[8]؛ وبوادوبار علم بأمر تعبئته وهو على متن سفينة آتية من انكلترا باتجاه فرنسا؛ كما استدعي بول بايل بصفة ممرض؛ أما الأبوان ج. كرانسو وج. دوجرفانيون فاستدعيا كمترجمين ومرشدين في فرقة الشرق المؤلفة من متطوعين أرمن وسوريين. وحده مركز اسطنبول احتُفظ به بناء على تدخل القاصد الرسولي، وذلك لخدمة الجماعة اللاتينية الصغيرة. والأب دوتوم، الذي تولى إدارته طوال الحرب، ظل مقطوعاً عن أخبار الداخل وأصبحت علاقاته بالغرب قليلة جداً. كذلك لوحظ أن بعض أعضاء الإرسالية الأرمن، وكانوا من الرعايا العثمانيين، لبثوا في أماكنهم، بالرغم من الظروف غير المستقرة، من تشرين الثاني ١٩١٤ إلى آذار ١٩١٥ — كانوا عاجزين عن منع مصادرة ممتلكات الرهبانية. أما اليسوعيان الأرمنيان، الأخ جان باليان والأب بيار اغادجانيان، فلقيا حتفهما أثناء عمليات الترحيل التي جرت ربيع ١٩١٥. «أرمني رسولي [ارثوذكسي] من سكان قيصريه (مطرود من المدرسة) ارتدّ عن دينه، أدلى ببعض التفاصيل عن موت الأخ باليان. ويبدو أنه كان حاضراً. لقد اقترحوا على الأخ أن يكفر بدينه فرفض بغضب واستنكار، عندها أقدموا على قتله... أما الأب اغادجانيان فقد اغتيل على يد متصرف دير الزور بالذات»[9]. وآخرون أمثال باسكال زوليكيان، وجان ميسيريان ومهران اسكندريان، الذين سافروا لإكمال تنشئتهم الدينية في أوروبا نجوا بطبيعة الحال من هذا المصير، ولكنهم علموا في ما بعد، وهم في المنفى، بإبادة عائلاتهم إبادة شبه كاملة. وحدّ القدر خصوصاً بمطاردة باسكال زوليكيان، الذي كان قد فقد والده إبان مجازر ١٨٩٥، وأخوين يكبرانه سناً، وعمه وزوجة أخيه... وخلال عامي ١٩١٥ و١٩١٦، بينما كان في انكلترا، في «اوربلياس» يكمل سنة الابتداء الثالثة، كتب يقول: « لقد فقدت أخي البكر الذي كان يزاول التعليم في مدرسة قيصريه. وكان حاكم المدينة قطع عليه عهداً بإنقاذ حياته وحياة زوجته وأولاده الستة في حال ارتداده عن دينه. أوَ يعقل توجيه مثل هذا الطلب إلى مسيحي كان يتناول القربان المقدس يومياً؟! فضّل أخي الترحيل ومات شهيداً في حماه في سوريا. وفي النكبة نفسها فقدت أختيّ وزوجيهما والأولاد الستة كما فقدت قرابة عشرين شخصاً من أقربائي»[10].



كلية اللاهوت في طوقاط. من اليسار إلى اليمين، جلوساً: إيلي شاديان، لانكلويس، كورتز وغيوم دو جرفانيون؛ في الصف الخلفي: بولنكر، انطوان بوادوبار، باسكال زوليكيان. كانت طوقاط مرحلة العبور الأولى لطلاب اللاهوت اليسوعيين الذين يتأهبون للعمل في إرسالية أرمينيا. هنا كانوا يباشرون تعلم الأرمنية والتركية.
أرشيف اليسوعيين في فانف

٧ جوزف غودار، «قيصريه وضواحيها»، شهادات مقتضبة من الشرق، ٦ كانون الثاني ١٩١٤، ص. ١٩٣-١٩٤.

٨ هنري جالابير، ١٩٨١، «أنباء من الشرق الأدنى»، ص. ٩.

٩ رسالة من الأخ تابوره يستشهد فيها بمقتطفات من رسالة الأب ايلي شاد، الأرشيف اليسوعي (بيروت)، الملف ٥/٣١، حافظة «رسائل من مرسلي أرمينيا، ١٩١٩».

١٠ «الأب باسكال زوليكيان (١٨٨١-١٩٦٥)»، نعي بقلم الأب رودولف دي ليو، في أخبار من مقاطعة الشرق الأدنى. مجموعة جديدة رقم ٢٨ شباط ١٩٦٦.

انتظر الجميع، بعدما شتتوا على هذا النحو، ملاقاة «إرسالية أرمينيا العزيزة » مرة ثانيــة. وبعثت الهدنــة والانتداب الفرنسي المفروض على كيليكيا خصوصاً آمالاً جديدة انتهزها الرهبان بحماس غامر. يمكن تفسير هذا التفاؤل طبعاً بتعلق الآباء بالإرسالية، ولكن ربما أيضاً بجهلهم ما جرى فعلاً أثناء الحرب. فعادوا جميعا إلى أرمينيا بحميــة الأشخاص الذين يحاولون التعويض عن الوقت الضائع. وتوجــه، كل على طريقتــه بنيــة إتمام العمل المتروك هملاً عشيــة الحرب أو مواصلته. الأب لوبون، الذي كان آخر من غادر اماسيا من الآباء اليسوعيين، كان من أوائل العائدين إليها عام ١٩٢٠. أبحر من مرسيليا على متن سفينــة «دوغه تروان» ليعيد إعداد الإكليريكية العزيزة جداً على قلبــه. غير أن الذين بقوا في القسطنطينية سبقوه عام ١٩١٩ وكانوا الأوائل في اكتشاف فداحة الكارثــة: « لم تعد سيواس المدينــة التي عرفتها سابقاً. وما من مدينــة أحدثت في نفسي انطباعاً أشد حزنــاً. في كل مكان أنقاض، بيوت مبتورة جاثمة على مستوى التراب... بدلاً من ٣٠٠٠٠ أرمني، لم يبقَ غير أربعة أو خمسة آلآف، وأكثر من نصفهم خليط من بؤساء أتوا إلى هنا من كل أنحاء تركيــا»[١١]. وبين هؤلاء الناجين الخمسة آلاف، ٢٠٠٠ يتيم ويتيمة[١٢].

وفي ١٦ تشرين الثاني، كتب الأب باسكال زوليكيان من سيواس، عقب رحلتــه الأولى باتجاه الداخل، إلى زميلــه الأرمني اليسوعي، الأب جان ميسيريان، الذي ظل في أوروبا لإتمام تنشئته الدينيــة، يبلغــه نبأ الإبادة شبــه الكاملة لعائلتــه، وزواج أختــه الصغرى من تركي. ولا تسمح لنا الرسالة بمعرفة الحوافز الدينيــة الدقيقــة لهذا القران، أهوَ بدافع الرضى أم الإكراه، أم بقصد تأمين بقائها على قيد الحياة؟ على أي حال، شهادات عديدة تؤكد حدوث زيجات وارتدادات قسريــة خلال هذه الفترة. والأب بيار، وهو كذلك من بين أوائل العائدين إلى مراكز الإرسالية، ذكر الواقع الأليم: «كم من فتيات مسكينات كن قبلاً ملائكة رحمة، هن الآن في منــازل أتراك بعد أن أجبرن على الزواج. وجميع المعلمين اختفوا ما عدا نيكوغوس»[١٣]. والأب بيار نفسه لم يجد، لدى عودتــه إلى اماسيا، سوى ٢٥ تلميذاً من تلاميذ المدرسة التي كانت تضم ١٣٥ عام ١٩١٤! جُسِّد هذا الواقع في صورة جماعيــة التقطت عشيــة الحرب، حيث قام الأب، في ١٩٢٠، بإجراء التأشير على الناجين[١٤].

غير أن الجلجلة، بالنسبة إلى هؤلاء الناجين من الإبادة الجماعية، لم تكن قد بلغت خواتيمها، كما يمكن التثبت من ذلك عبر مستند غفل غير منشور محفوظ في أرشيفات اليسوعيين في بيروت، وهو يحمل في أعلاه عبارة «رجاء ملح بعدم نشر أي كلمة»، إذ كان لا بد من مراعاة الحساسيات، وهذه نبرة حساسيات الكماليين: «إن عمليات الترحيل الجماعي بدأت ربيع ١٩٢١، وقد بوشر بالعمل بها على غرار ما جرى عام ١٩١٥ تقريباً. فكانت البداية بترحيل الرجال المتراوحة أعمارهم بين ١٥ و٦٠ عاماً. فإذا زالوا من الوجود، الباقون غير مهمين. أولاً، جميع الرجال اليونان والأرمن في مناطق افيون قره هيصار، وكوتاهيه، واوشاك واسكي شهير، سواء في المدن أو القرى، تم ترحيلهم جماعات تتألف كل منها من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ شخص. وغالباً ما تعرض هؤلاء المساكين، على امتداد الطريق، للسلب على أيدي قطاع الطرق وحتى الدركيين الذين كانوا يرافقونهم. هؤلاء التعساء جميعاً كانوا ينتقلون سيراً على أقدامهم باتجاه مالطيه، وخربرت وديار بكر، مروراً بقيصريه وسيواس. ولاقى كثر حتفهم جراء الإرهاق والبؤس». وكانت أساليب الترحيل والتصفية المتبعة تشبه بشكل مذهل تلك التي استخدمت إبان عامي ١٩١٥ ــ ١٩١٦، وهو أمر لم يفت صاحب التقرير الإشارة اليه. وهكذا أشرت هذه الأساليب المتبعة إلى قرابة واستمرارية إيديولوجيتين بين الشبان الأتراك

ص. ٥٤-٥٩.

[١١] زوليكيان ب.، «انطباعات أولية. سيواس ١٧ آب ١٩١٩». شهادات مقتضبة من الشرق، ١٩١٩.

[١٢] أرشيف اليسوعيين (بيروت)، الملف ١٥/ ٣١ الحافظة «الآباء اليسوعيون في إرسالية أرمينيا ١٩١٩ــ ١٩٢١» [ثلاث صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة، غفل].

[١٣] رسالة مؤرخة في ٢٠ تشرين الأول (ب. بيار)، نشرت في «وقائع من إرساليات مختلفة: اماسيا»، شهادات مقتضبة من الشرق، ١٩٢٠ ص. ٤٠.

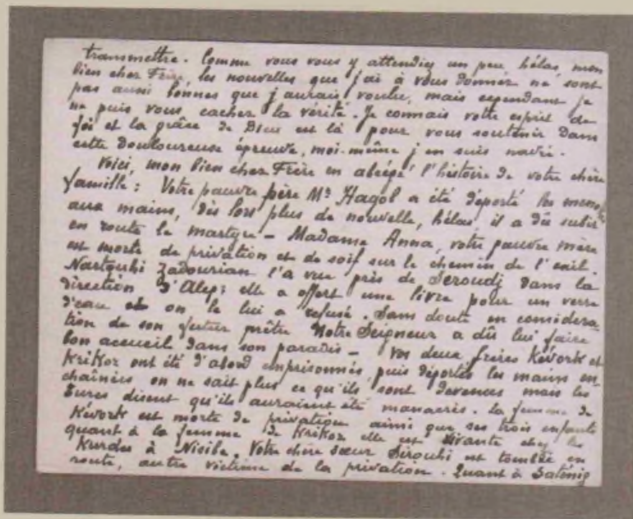
[١٤] أرشيف فانف. الملف أرمينيا ٢٥.



المدرسة الفرنسية ـــ الأرمنية في دمشق، وقد أسسها عام ١٩٢٣ الأب باسكال زوليكيان (١٨٨١ ـــ ١٩٦٥)، ويمكن رؤيته في وسط المجموعة. كان أحد الأعضاء الأكثر نشاطاً ضمن إرسالية أرمينيا، في آسيا الصغرى أولاً، ثم في سوريا ولبنان خصوصاً. بعد أن أسس مدرستي دمشق وحمص، تولى إدارة مدرستي حلب وكيريك خان.
مجموعة م.ش. ـــ ج.ق.ي

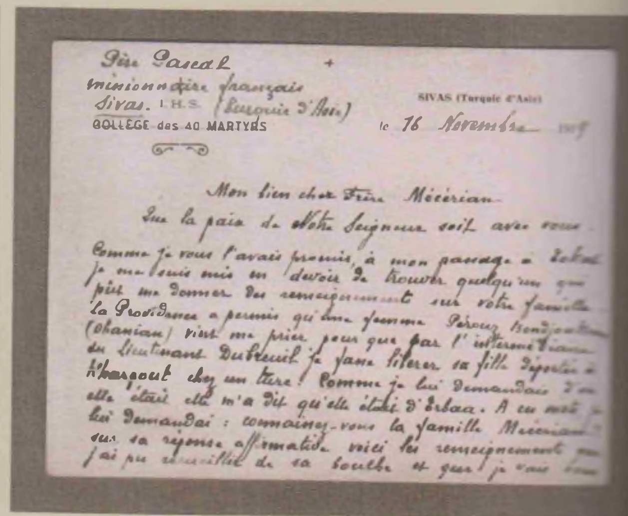
الأب جان ميسيريان (١٨٨٨ ـــ ١٩٦٥) في مهمة في إحدى قرى منطقة انطاكية. كان ميسريان أحد الوجوه البارزة داخل الجماعات الأرمنية في الشرق الأوسط. ارثاد، هو سليل أسرة ميـ..ورة في اربعا، مدرسة اليسوعيين في طوقاط قبل أن ينضم إلى الرهبانية. وبعد تأسيس مركزي بيروت وحلب، تكرس، اعتباراً من الثلاثينات، للعمل الفكري الرسولي، وهو متخصص في الدراسات البيزنطية وعالم آثار قام بحفريات في مار سمعان (في جبل مدهش)، وأحد مؤرخي الكنيسة الأرمنية. أسس في جامعة القديس يوسف قسماً للدراسات الأرمنية.
مجموعة م.ش. ـــ ج.ق.ي





transmettre. Comme vous vous y attendiez un peu hélas, mon bien cher Frère, les nouvelles que j'ai à vous donner ne sont pas aussi bonnes que j'aurais voulu, mais cependant je ne puis vous cacher la vérité. Je connais votre esprit de foi et la grâce de Dieu est là pour vous soutenir dans cette douloureuse épreuve, moi-même j'en suis navré.

Voici, mon bien cher Frère en abrégé l'histoire de votre chère famille : Votre pauvre père Mr Hagop a été déporté les menottes aux mains, dès lors plus de nouvelle, hélas il a dû subir en route le martyre – Madame Anna, votre pauvre mère est morte de privation et de soif sur le chemin de l'exil. Nartouhi Zadourian l'a vue près de Seroudj dans la direction d'Alep; elle a offert une livre pour un verre d'eau et on le lui a refusé. Sans doute en considération de son futur prêtre Notre Seigneur a dû lui faire bon accueil dans son paradis – Vos deux frères Kévork et Krikor ont été d'abord emprisonnés, puis déportés les mains enchaînées on ne sait plus ce qu'ils sont devenus mais les Turcs disent qu'ils auraient été massacrés. La femme de Kévork est morte de privation ainsi que ses trois enfants quant à la femme de Krikor elle est vivante chez les Kurdes à Nisibe. Votre chère sœur Sirouhi est tombée en route, autre victime de la privation. Quant à Satenig



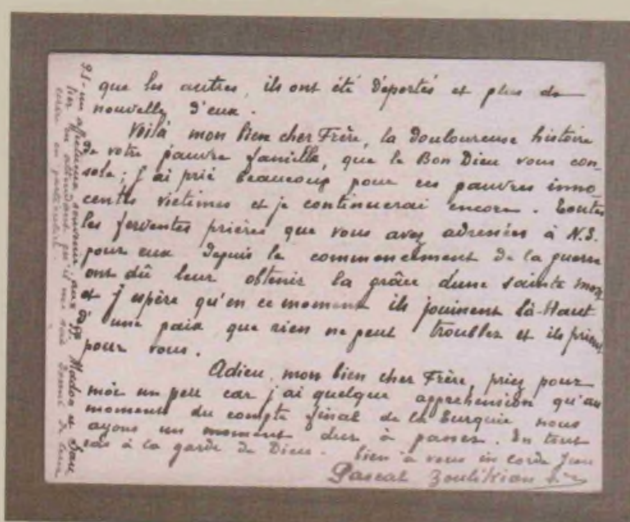
Père Pascal +
missionnaire français
Sivas. I.H.S. (Turquie d'Asie)
COLLEGE des 40 MARTYRS

SIVAS (Turquie d'Asie)
le 16 Novembre [illegible]

Mon bien cher Frère Mécérian

Que la paix de Notre Seigneur soit avec vous.

Comme je vous l'avais promis, à mon passage à Tokat je me suis mis en devoir de trouver quelqu'un qui pût me donner des renseignements sur votre famille. La Providence a permis qu'une femme Pérouz Boudjoukian (Ohanian) vint me prier pour que par l'intermédiaire du Lieutenant Dubreuil je fasse libérer sa fille déportée à Kharpout chez un Turc. Comme je lui demandais d'où elle était elle m'a dit qu'elle était d'Erbaa. A ce mot je lui demandai : connaissez-vous la famille Mécérian ? sur sa réponse affirmative voici les renseignements que j'ai pu recueillir de sa bouche et que je vous [illegible]

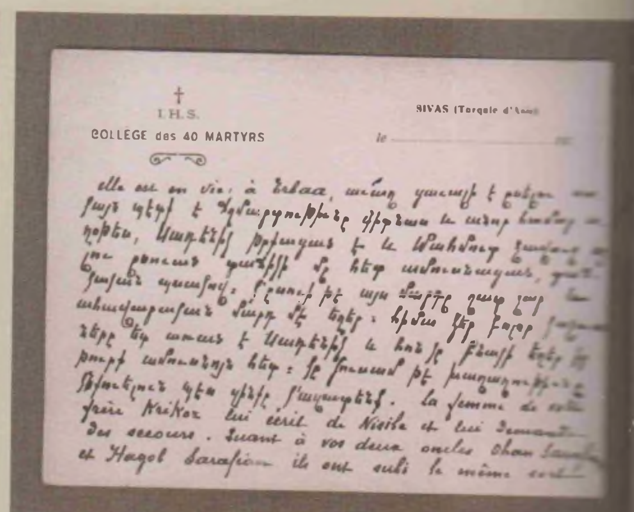


que les autres, ils ont été déportés et plus de nouvelles d'eux.

Voilà mon bien cher Frère, la douloureuse histoire de votre pauvre famille, que le Bon Dieu vous console; j'ai prié beaucoup pour ces pauvres innocentes victimes et je continuerai encore. Toutes les ferventes prières que vous avez adressées à N.S. pour eux depuis le commencement de la guerre ont dû leur obtenir la grâce d'une sainte mort et j'espère qu'en ce moment ils jouissent là-Haut d'une paix que rien ne peut troubler et ils prient pour vous.

Adieu, mon bien cher Frère, priez pour moi un peu car j'ai quelque appréhension qu'au moment du compte final de la Turquie nous ayons un moment dur à passer. Du tout cas à la garde de Dieu. Bien à vous in corde Jesu

Pascal Zoulikian S.J.



I.H.S.
COLLEGE des 40 MARTYRS

SIVAS (Turquie d'Asie)
le

elle est en vie à Erbaa, [illegible]

[illegible] La femme de votre frère Krikor lui écrit de Nisibe et lui demande des secours. Quant à vos deux oncles Ohan Sarafian et Hagop Sarafian ils ont subi le même sort.

رسالة موجهة من الأب باسكال زوليكيان
إلى زميله اليسوعي جان ميسيريان يعلمه
فيها بالمصير الذي تعرضت له أسرته
إبان عمليات الترحيل عام ١٩١٥.
مجموعة م.ش. — ح.ق.ي

والكماليين الذين أوشكوا أن ينهوا عملية الإبادة التي بوشر بها قبل بضعة أعوام. مستند آخر هو أيضاً غفل يوضح الآتي: «لي الشرف بأن أبلغكم نتيجة لقاء جرى بيني وبين شخص موثوق به، عن تصرفات السلطات القائمة في آسيا الصغرى. هذه الوقائع تبرهن مرة أخرى أن الكماليين، مهما قيل عنهم، يواصلون اضطهاد المسيحيين والتدمير المنظم الذي نادى بـه «الاتحاد والترقي»[١٥]. وفي ما يلي وصف للأساليب المستخدمة، حيث لا يتعلق الأمر بالأرمن خصوصاً بل بالمسيحيين عموماً».

إن الرعب الذي أخذ يشيعه طوبال عثمان المشؤوم وعصابته المؤلفة من ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ لازي، حتّ قسماً من الذين كانوا قد مكثوا في ديارهم إلى الهرب: «كان المسيحيون، لأربعة أشهر خلت، يُقدَّرون بـ ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ أرمني أرثوذكسي، و١٠٠٠ يوناني أرثوذكسي، و٢٥ إلى ٣٠ أرمنياً كاثوليكياً، ولكن منذ مجازر طوبال عثمان (نهاية تموز)، لم يبقَ سوى ١٥ رجلاً وحوالي ألف امرأة وطفل من مجموع السكان المسيحيين. في كل مكان مر بـه، تجددت الفظائع التي وقعت عام ١٨٩٥ و١٩١٥. غير أن ما حدث في مرسيفان خصوصاً تميز بوحشيته»[١٦].

هذا الوضع غير المحتمل الذي سببه الوطنيون الأتراك غداة الحرب، اضطر اليسوعيين إلى الانكفاء باتجاه القسطنطينية منذ صيف ١٩٢١، وبدء مفاوضات طويلة، اعتباراً من ١٩٢٦، لتصفية ممتلكاتهم في المراكز الداخلية كافة. وبالفعل أنيطت هذه المهمة الشاقة بالأب ج. دوجرفانيون الذي واجه الإجراءات الإدارية المضنية والطويلة الأمد [١٧]. وهكذا قامت مدرسة اضنه، التي عرفت انطلاقة جديدة مع فرض الانتداب الفرنسي على كيليكيا، بإقفال أبوابها في تشرين الثاني ١٩٢٢ بعد رحيل الأرمن، ولكن تم الاحتفاظ بالمركز حتى عام ١٩٥٤.

إن رئيس الرهبانية اليسوعية الإقليمي طلب، إثر زيارة قام بها في ١٩٢٢ إلى سوريا، من الأب جان ميسيريان، المقيم حينئذ في القسطنطينية، وكان قد سيم كاهناً منذ وقت قريب، أن يتوجه إلى أماكن وقوع الأحداث ودراسة إمكانية مواصلة النشاطات بين الأرمن الذين لجأوا إلى المناطق الخاضعة للانتداب الفرنسي. لذا نزل ميسيريان برفقة الأب بول بايل، وهو أحد قدامى إرسالية أرمينيا، في مرفأ بيروت في كانون الثاني ١٩٢٣، وقام بجولة في مراكز تجميع الأرمن. هذه الرحلة قادتهما أولاً إلى جونيه، حيث تم، على شاطىء البحر حشد أيتام ويتيمات، وتعليمهم المبادىء الأولية لمهنة الخياطة وصناعة الأحذية الخ... ثم انتقلا إلى غزير حيث حشد فيها ما لا يقل عن ١٤٠٠ يتيم حلّوا في خمسة عشر منزلاً على وجه التقريب، ومنها «المزار» الحالي. ثم قصدا نهر ابراهيم حيث تعيّن، منذ صيف ١٩٢٣، إخلاء الميتم الأميركي القائم فوق أرض مستنقعية على الضفة اليمنى من النهر، وذلك بسبب وباء الملاريا الذي اجتاح المكان. وأخيراً جبيل التي كانت تؤوي ما لا يقل عن ١١٢٥ يتيماً[١٨].

أما في بيروت، فكانت جماعات اللاجئين قد استقرت في حي مار مخايل. وكان هذا المخيم يمتد من شركة الحافلات الكهربائية [الترامواي] إلى مشارف كنيسة مار مخايل المارونية؛ ومن شارع النهر جنوباً حتى واجهة البحر شمالاً. وكان الأرمن الكاثوليك، قبل إنشاء مركز يسوعي في المخيمات، يستعملون كنيسة مار مخايل المارونية أيام الآحاد ابتداء من الساعة العاشرة صباحاً، إذ إن الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية الوحيدة القائمة في بيروت كانت حينها وسط المدينة[١٩]، بعيدة جداً عن المخيمات. وبفضل المساعي التي بذلها الأب ديد، رئيس إرسالية سوريا، استؤجرت قطعة أرض تابعة لشركة خط حديد دمشق — حمص ومتفرعاته، وقريبة من المخيم، ولكنها بمنأى عن الجو «الفاسد أخلاقياً داخل المخيمات»، في الموقع المطابق حالياً لمدخل الرحبة المخصصة لباصات بيروت. وأقام جنود الهندسة أكواخ «ادريان» تبرع بها

١٥ أرشيف اليسوعيين. بيروت، الملف ١٥/ ٣١، الحافظة تركيا. اضطهاد المسيحيين، ١٩٢١.

١٦ أرشيف اليسوعيين. بيروت، الملف ١٥/٣١، الحافظة تركيا. اضطهاد المسيحيين، ١٩٢١.

١٧ راجع في هذا الخصوص مقال فنشنسو بوجّي «علم وواقعية لدى غيوم جرفانيون»، في منوعات مدرسة روما الفرنسية (العصور الوسطى) ١١٠، ١٩٩٨، ص. ٧٩٥-٨٢٦.

١٨ جان ميسيريان، «اللاجئون الأرمن في سوريا»، الإرساليات الكاثوليكية ٥٧، ١٩٢٥، ص. ٤٠١-٤٠٢؛ و٤١٤-٤١٧؛ و٤٢٦-٤٢٨؛ و٤٣٨-٤٤١؛ و٤٤٩-٤٥٠. وللمؤلف نفسه: «اللاجئون الأرمن في حلب»، الإرساليات الكاثوليكية ١٩٢٦، ص. ٥٣٦-٥٣٩؛ و٥٤٥-٥٤٧.

١٩ على الأرجح في الحي الذي سيصبح لاحقاً «سوق الأرمن».



تطواف بالقربان المقدس بقيادة الأب اميل ديد، رئيس إرسالية، داخل كنيسة مخيم مار مخايل اليسوعية.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



الدكتور غرغريان في مستوصف المخيم الفرنسي.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



رقصة دائرية أثناء الاستراحة في مدرسة مخيم مار مخايل اليسوعية.
مجموعة م.ش. ـــ ج.ق.ي

الجيش الفرنسي، الذي كان يملكها منذ ١٩٢٢، نتيجة خفض عديده. استُخدمت هذه التخشيبة الأولى في الوقت نفسه كمدرسة وكنيسة صغيرة، وكانت مساحتها الداخلية مقسومة بحواجز متحركة إذا انتزعت تحوّل المكان إلى كنيسة صغيرة. دشنت الكنيسة يوم الأحد ٢٩ نيسان، والمدرسة في أول أيار ١٩٢٣.

هذا الوضع المزعج بالنسبة إلى الصفوف الدراسية وإلى الاحتفالات الدينية استوجب تشييد كنيسة جديدة من خشب أيضاً عام ١٩٢٤. وكانت الكنيسة هذه تقوم مقام مركز رعية أرمنية كاثوليكية داخل المخيمات، حيث تقام كل يوم أحد ثلاثة قداديس، يضطلع بالخدمة فيها الأبوان كوستانتينيان وكاشدجيان، وهما من قدامى إكليريكية اماسيا الشرقية. وثمة جناحان آخران ملتصقان بجانبي الكنيسة، يضمان على حدة الصفوف المخصصة للبنات وللبنين. ولكل منهما أربعة مدرّسين، هم في غالبيتهم من قدامى معلمي أضنه وقيصريه.

ولما استدعي ميسيريان إلى روما، خلفه الأب برونان الذي حثّ، بعد بضع سنوات، على شراء قطعة أرض واسعة في الأشرفية، حيث بوشر، منذ ١٩٢٧، ببناء مدرسة كبيرة سُميت مدرسة القديس غريغوار. وجرى أولاً نقل الصفوف العالية ثم الصفوف الأخرى بالتدريج. واعتُبرت هذه المدرسة لاحقاً بين كبريات المؤسسات التعليمية الفرنكوفونية وسط الجماعة الأرمنية في لبنان. وبعدما بلغ عدد تلامذتها ٥٠٠ تلميذ، عانت المدرسة من ويلات الحرب وهجرة أرمن لبنان، مما أدى إلى تناقص عديدها. فأدمجت، بعد سنوات، في مدرسة الجمهور، وهي مؤسسة يسوعية أخرى. وجراء ذلك فقدت خصوصيتها الأرمنية. وبيع جزء من قطعة الأرض المشتراة أصلا إلى المدرسة، إلى راهبات العائلة المقدسة اللواتي فتحن مدرسة للبنات، ثم انتقلت هذه الأخيرة، عام ١٩٥٩، إلى راهبات الحبل بلا دنس الأرمنيات اللواتي أقفلن بدورهن الصفوف لأسباب مماثلة.

واستكملت الرسالة المدرسية والدينية من خلال توفير العناية الصحية والاجتماعية. وهكذا دشن الأب ميسيريان، في ٨ أيلول ١٩٤٣، مستوصفاً أقيم بداية داخل الصفوف أثناء العطل المدرسية، ثم خصص له مكان على حدة في شكل كوخ «ادريان» أنشىء قرب المدرسة وزود بقاعة انتظار



مدرسة القديس غريغوار عام ١٩٣٠.
ويشاهد في الطابق الأول الأب
اليان موريس دولافرنات.
فوتو أبل، مجموعة م.ش. ـ ج.ق.ي

للمرضى، وقاعة معاينات، وقاعة أخرى لتوزيع العلاجات. واعتباراً من ١٩٢٥، تولى إدارته الأب انطوان بوادوبار الذي اكتسب خبرة كبيرة في مستوصف طوقاط برعاية الأخ جولي. وبناء على طلب المفوضية العليا ومؤازرة كلية الطب، نُظم المستوصف من أجل مراقبة الحالة الصحية لجماهير اللاجئين التي كانت تشكل خطراً مستمراً على الصحة العامة في مدينة بيروت. وكانت قد اعتمدت، منذ عام ١٩٢٩، مجموعة بطاقات تُدوّن عليها الأمراض الرئيسة الثلاثة الشائعة بين السكان، وهي: حمى المستنقعات، والتراخوما والسل. ومنذ البداية، انضم إلى المستوصف طبيب أرمني شاب، هو الدكتور غرغريان، وكان قد حاز لتوه شهادته من كلية الطب، ثم التحق الدكتور ريساشر بقسم التوليد. وارتفع عدد المرضى الذين عولجوا في ١٩٢٩ إلى ٤٣٦١ مريضاً. وفي هذه الحقبة، لوحظ تراجع حمى المستنقعات بشكل محسوس جداً، ولكن من دون التمكن من إيقاف تفشي التراخوما والسل.

كما كان الأب ا. بوادوبار، ورغبة منه في تأمين بعض الإيرادات للشابات الأرمنيات، نظّم مشغلاً للتطريز، حيث كانت أكثر من ثلاثين شابة تقريباً يصورن تطاريز موروثة، خاصة بالإنتاج المحلي العائد إلى مرعش، وعنتاب، وسيواس الخ... ومع تناقص الطلب عليها محلياً، جرى التعامل مع مصانع فرنسية. وانتشرت مشاغل أخرى للمفروشات والجلود حول هذا المركز: كان ملجأ لعائلات أرامل وأيتام، ومكتب توظيف مخصص للأرمن الراغبين في الهجرة.

وعلى الطراز نفسه الذي جُرّب سابقاً في آسيا الصغرى ثم في بيروت، أنشىء، عام ١٩٢٥، داخل مخيم السليمانية مركز للاجئي حلب الأرمن، أي كنيسة صغيرة، ومدرسة ومستوصف. مرة أخرى، كان سيبريان أيضاً المؤسس، وقد ناب عنه من ١٩٢٧ إلى ١٩٣١، باسكال زوليكيان. واعتباراً من ١٩٣٦، نقلت مدرسة القديس فارطان إلى حي الميدان، إلى مبنى رحب، ليضم العدد المتصاعد من التلاميذ: ٨٥٠ تلميذاً في ١٩٤١. وغداة الحرب العالمية الثانية، أعيق عمل المدرسة بشدة جراء القيود التي فرضتها الحكومة السورية، فلقيت حتفها تحت ضربة مرسوم التأميم.



مقر كيريك خان.
مجموعة م.ش. ــ ج.ق.ي



بيت الكهنة في المخيم الأرمني
في بيروت، عام ١٩٢٣.
مجموعة م.ش. ــ ج.ق.ي



تدشين معبد حلب، عام ١٩٢٥.
مجموعة مشن. — ج.ق.ي

وأخيراً ابتداء من ١٩٣٠، حل اليسوعيون محل الآباء اللعازريين في كيريك خان، ثالث مراكز تجميع للأرمن. وكان اللعازريون قد نقلوا إليها إرسالية اكباز التابعة لهم بعد الجلاء عن كيليكيا. وبعد أن شهد هذا العمل الرسولي تطوراً سريعا، ما لبث أن انهار مع تخلي فرنسا عن سنجق الاسكندرون لمصلحة الجمهورية التركية وإجلاء الأرمن عنه الذي أعقبه عام ١٩٣٩. كذلك نشير إلى أن المدرسة الفرنسية — الأرمنية، التي أسسها باسكال زوليكيان في دمشق، لن تتمتع أبداً بأهمية مراكز حلب، وبيروت وكيريك خان.

رغم خصوصية تاريخ كل مركز أو مدرسة، من السهل أن ندرك لماذا فقدت إرسالية أرمينيا مبرر وجودها عام ١٩٨١. ففي هذه الحقبة أو حتى قبلها بوقت طويل، صار الأرمن، على اختلاف طقوسهم، يمتلكون شبكة واسعة من المؤسسات التعليمية (راجع مقال كريكور شاهينيان في هذا المجلد). كما أن الإبقاء على مدرسة يسوعية ذات طابع طائفي فقد مبرره أيضاً ضمن الإطار اللبناني. وأخيراً لم تعد الدعوات الرهبانية الجديدة تؤمن بدلاء يقومون مقام الآباء ميسيريان، وزوليكيان، وكشيشيان اودجابوريان.

انتفت إرسالية أرمينيا تماماً من الوجود اليوم، غير أن تاريخ هذا العمل الرسولي ما زال حتى الآن ينتظر من يكتبه. وقد أردنا هنا أن نسلط نوراً خافتاً على جانب من الموضوع، مستندين في ذلك إلى بعض نبذ الأخبار الممتازة التي قام بكتابتها اليسوعيون أنفسهم، على منشورات داخلية للرهبانية، ولا سيما «شهادات من الشرق». ويؤسفنا أننا لم نتمكن من إجراء تحقيق منهجي في الأرشيفات المحفوظة في فانف أو في بيروت. فهذه الأرشيفات الغنية جداً والمنظمة، على العموم، تنظيماً حسناً تنتظر مؤرخها [٢٠].

٢٠ أشكر الأب شارل ليبوا، أمين أرشيف الرهبانية اليسوعية في بيروت على مساعدته وثقته.



شكري اراين، ابن آنّا ديكجيان، التي وصلت في سن الحادية عشرة. التقطت الصورة أثناء تصوير فيلم «لورنس العرب» الذي اشترك فيه بصفة تقني. مجموعة آنّا اوهانسيان

بقلم آنا اوهانسيان-شاربان



إلى اليسار الدكتور دير ترسيسيان جالس مع خانم ماتيوسيان، يحيط بهما آل أبو درويش معان ١٩٥٨.
مجموعة ا. اوهانسيان

أرمنيات معان

بين الذاكرة والنسيان

«تلتين الولد لخالو» [1]

(ابوغريب، وادي موسى ١٩٨٦)

إن الذاكرة الجماعيـــة مرتبطـــة بالزمن المديد، وبماض ولكن أيضاً بعمل بناء وانتقاء ونقل على مدى أجيـــال متعددة. ترتكز هذه الدراسة على ثلاثـــة أجيال كانت تقوم ببناء ذاكرة، وصياغة هويـــة جماعيـــة وتشكيل جماعـــة متميزة. فهي ترتكز إذاً على المراقبة المباشرة لعمليـــة وضع آليـــة، مثلما هي في حالة ترقّب.

الجماعـــة التي يهمنا أمرها هنا مؤلفة من خمس عشرة عائلـــة تقريباً من عائلات معان في جنوب الأردن، تؤشر إلى أصولها الأرمنيـــة. وتعود هذه الأصول إلى نساء أرمنيـــات بلغن عام ١٩١٥ صحراء الجنوب الأردني، بعدما تم ترحيلهن مع غيرهن، وتزوجن في مكان إقامتهن. واليوم يتذكر أبنـــاء ذريتهن هذه البنوة من أجل تحديد هويتهم والتدليل على غيرية مميزة. إلا أن هذا التحديد لا ينبثق من شعور بالانتماء إلى «ثقافة» أرمنيـــة، ومن استعمال شعاراتها ومراجعها، وإنما يرتكز على ثلاثـــة عناصر هي: ما نقلتـــه هؤلاء النسوة الأرمنيـــات، وما مثلنـــه للآخرين محلياً، وختاماً مكانة هذه التصورات في أشكال المجتمع المحلي وقيمه الثقافيـــة. وهذا التحديد رهن بما انتقته ذاكرة أبناء الذريـــة واحتفظت به من هذا النقل وهذه التصورات وفقاً للضرورات المحليـــة والإمكانات المرجعية للثقافة العربيـــة ـــ البدويـــة.

تعتمد هذه الدراسة إذاً بشكل أساسي على التحقيق الشفوي الذي أجري مع أبنـــاء الجيلين الثاني والثالث المتحدرين من تلك الزيجات المحلية مع امرأة أرمنيـــة [2]. والدراسة ذات مقاربـــة أنتروبولوجية، إذ يتعلق الأمر بقراءة موازيـــة تقوم على الإدراك المحلي العربي ـــ البدوي لمصير عمليـــة ترحيل والطريقة المتبعة في حفظه وسرده، بعيداً عن الأحداث وعن كل نموذج أصلي.

المسارات

من تشومكلو [3] *إلى معان*

في مدينـــة معان، وهي مدينة وواحة كانت قديماً نقطة استراحة مهمة للقوافل المتوجهة إلى الحج من دمشق إلى مكة المكرمـــة، تتذكر اليوم حوالي خمس عشرة عائـــلة معانيـــة أصول أمهاتها الأرمنيـــات. هؤلاء النسوة، وهن في غالبيتهن أبصرن النور في تشومكلو(أو تشومخلو) أو في منطقتها الواقعة شمال جبل طوروس، قدمن إلى جنوب الأردن بصحبـــة جماعات أخرى من المرحلين عام ١٩١٥.

والروايات التي استطعت أن أجمعها في معان وعمان وبيروت، بصدد الأرمن القادمين من تشومكلو تتطابق مع ما دوّنـــه الدكتور دير نرسيسيان في مذكراته عند سرد عمليـــة ترحيلـــه الشخصي [4].

فهو يروي أن انفجار قنبلة وقع صدفة في بيت أحد سكان افاريك الأرمن (وهي بلدة قريبـــة من تشومكلو)، يوم ٢٩ شباط ١٩١٥، شكّل ذريعـــة لقتل جميع البالغين الأرمن في المنطقـــة الذين تجاوزوا سن الخدمة في الجيش العثماني. وكان الذين يصغرونهم سناً قد جُنّدوا من قبل. ثم يشير قائـــلاً: «لقد عشنا خلال أربعة أشهر في حالـــة من الرعب والخوف الشديد».

أما سائر سكان المنطقـــة ـــ نساء وأطفالاً ومسنين ـــ فقد أُرغموا، في تموز ١٩١٥، على مواصلـــة طريق الترحيل. «في ساعة ونصف الساعة، أخليت قرية تشومكلو بكاملها من قاطنيها الـــ ١٦٤٦ بناء على أمر الحكومة.

[1] هكذا كان أبو غريب يشير إلى أهمية نسبه الأمومي.

[2] أجريت التحقيقات الميدانية أثناء إقامتي المتكررة في الأردن من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٤.

[3] تشومكلو (أو تشومخلو) كانت قائمة في ولاية قيصريه بالاناضول الغربية. وكانت هذه القرية الأرمنية تضم حيّين. الأعلى والأدنى. وكان في كل منهما كنيسة رسولية أرمنية، فضلاً عن كنيسة ثالثة كاثوليكية، وثلاث مدارس مختلطة (للبنين والبنات) ملحقة بهذه الكنائس الثلاث. وكان السكان يتعاطون الزراعة، وتربية الماشية والأعمال الحرفية.

[4] تم نشر قسم موجز، ومنه هذه الاستشهادات المتعلقة فعلاً بالترحيل وبالفترة المقضية في الأردن، في كتاب أ. كلفايان «تشرمكلو»، المصدر رقم ٨. الكتاب باللغة الأرمنية والترجمات قمتُ بها شخصياً.

ثم اتجهنا جنوباً وعبرنا مشياً جبل طوروس [...] وبعد أربعين يوماً من السير، وصلنا أخيراً إلى حلب [...]، هناك ملأنا عربات القطار المتوجه إلى دمشق [...]. [وبعد أيام قليلة من الانتظار في هذه المدينة] سلكنا سكة حديد مكة المكرمة، وبعد اجتياز صحراء حوران بلغنا عمان، حيث تم تقسيمنا إلى أربع مجموعات. مجموعتان نزلتا في محطة «جرف الدراويش» التالية، حيث أقبل البدو [المعانيون] لملاقاتهما وقادوهما إلى قريتين على مقربة من طفيلة، وهما ايما وبصيرى. أما المجموعتان الأخريان فتابعتا سفرهما حتى محطة معان، ومن هناك اقتيد قسم منهما إلى وادي موسى وشوبك، فيما بقي الجزء الآخر في هذه المدينة» (راجع الملحق رقم ٨، الانتباه الى هذه النقطة).

يواصل الدكتور دير نرسيسيان روايته ذاكراً الأماكن التي تفرّق فيها المرحلون المتحدرون من تشومكلو: «كان في ايما ثماني عشرة عائلة تنتمي إلى هذه البلدة، أي ما مجموعه ١٢٥ شخصاً تقريباً». ويشير إلى أن مرحلين آخرين اقتيدوا بدورهم إلى هذه القرية، معظمهم من النساء والشابات الوافدات من دورتيول وغورون. غير أن درويش أبو دريويش من معان أوضح لي أنه «لم يبقَ من جميع هؤلاء الأشخاص سوى خمسة عشر [على قيد الحياة]».

وكان في بصيرى «سبع وعشرون عائلة من تشومكلو، أي ما يعادل مئة وخمسين شخصاً، إلاّ أن نحو ثلاثين منهم فقط بقوا أحياء بعد ظروف الحياة القاسية التي كابدوها في تلك القرية. وبعد أربعة أشهر على وصولهم، بلغوا سراً طفيلة، وكانت مركزاً يضم العديد من الأرمن» (راجع الملحق رقم ٨، الانتباه الى هذه النقطة). وقد التقاهم فعلاً ت. و. لورنس أثناء تقدم الجيش العربي باتجاه دمشق. وفي كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»، وصف طفيلة بأنها «*ضاحية نضرة ونشطة تضم حوالي ألف أرمني نجوا من عملية ترحيل شنيعة دبرها لشبان الأتراك عام ١٩١٥*» (رقم ١٣ / ٤٨٢). وكان في معان خمس عشرة عائلة متحدرة من تشومكلو، كما عائلات أخرى قدمت من كيليس، وبيلان، وهرومكلا وقيصريه. أما في وادي موسى، فكانت أربع وسبعون عائلة (٤٥٠ شخصاً) من تشومكلو[٥] تقيم مع مرحلين قدموا من كيليس وبيلان. غير أن القسم الأكبر من سكان قرية تشومكلو (١٣٤ شخصاً) كان متجمعاً في شوبك.

٥ بحسب سكان قرية وادي موسى، كان هذا العدد يرتفع إلى ٤٠٠ شخص تقريباً.

٦ كان البعض، خلال هذه اللقاءات بين الحاضرين البالغين والأطفال، المتحدرين جميعاً من نساء أرمنيات ومن أقارب آخرين، يحاولون أن يترجموا لي (بالإنكليزية) أقوال الرجل العجوز. فيما كان آخرون يمنعونه غالباً من الكلام قائلين إن ما يقصه علي في غاية البشاعة وإنه لا ينبغي الكشف لي عن كل شيء.

٧ التل أو المقبرة الحمراء، نسبة إلى لون تربتها، لهذا دعيت بهذا الاسم.

٨ الوقف هو الهيئة التي تملك العقارات الدينية وتديرها.

من ١٩١٥ إلى ١٩١٨

يصادق درويش أبو دريويش، ٨٩ عاماً وشبه ضرير اليوم، على أقوال الطبيب، ويؤكد أن ظروف المعيشة في هذه القرى كانت بالغة القسوة على الأرمن. فقد كانوا يقضون من الجوع والأمراض بالعشرات، ويضيف قائلا: «ما شاهدته بأم عيني لا يسعني شرحه، اذ كان في غاية... [يصمت ويهز رأسه]»[٦].

كان الخمسمئة شخص من تشومكلو مكوّمين في بصيرى مع خمسين آخرين من أهالي غورون في ثلاثة بيوت. وكانت في هذه القرية بئر رومانية كبيرة باتت مقبرة جماعية للأرمن، ودعيت مذذاك بئر الأرمن أو بير النصارى. ودائماً بحسب درويش أبو دريويش، فتك وباءا التيفوس والكوليرا في وادي موسى بالسكان المحليين، إضافة إلى عدد كبير من الأرمن. وثمة تلة عند طرف المدينة، هي التلة الحمراء[٧]، تحوي جثث هؤلاء الأرمن (وهي حالياً في عهدة وقف القرية[٨]. ويلاحظ محدثنا أيضاً: «لم يرحب بنا العرب كثيراً في بادىء الأمر وكانوا عدوانيين [...] ولكن عندما شرحنا لهم ظروف ترحيلنا، أعربوا لنا ليس فقط عن تفهمهم، وإنما أيضاً عن حسن ضيافتهم، لا بل عن تعاطفهم» (راجع الملحق رقم ٨).



زوار قدموا من بيروت إلى معان، إلى المقبرة غير الرسمية، حيث دفن المرحلون الذين ماتوا في هذا المكان ما بين ١٩١٥ و١٩١٨.
مجموعة ا. اوهانسيان

وتقوم بجوار وادي موسى «بترا»، الموقع الأثري الشهير وعاصمة الأنباط القديمة. وقد شكلت تجاويف الموقع الصخرية، إبان الحرب العالمية الأولى، ملاجىء للمرحلين الأرمن، ولا سيما لأولئك الذين أصيبوا بأمراض. ويبدو أن خمسة وثلاثين إلى أربعين منهم وجدوا فيها ملاذاً لهم.

ويروي قائد من قادة جيش الشريف، هو محمد عجلوني الذي انكفأ مع فرقته في ١٩١٧ إلى بترا طوال ثمانية وعشرين يوماً: «إن كهوف بترا كانت تعج باللاجئين الأرمن الذين رحّلهم الأتراك جنوباً، وكانوا يختلفون عن (سكان بترا) الآخرين[٩]. كنا نشتري لهم الماء والبندورة المجففة، وكانوا يغسلون لنا ثيابنا. وأحياناً كنا نسمع موسيقى تركية. لقد نشأت بيننا علاقات ودية وإنسانية» (محمد عجلوني، ص ٥٥).

و«النشرة العربية» الصادرة عن الجيش البريطاني في ١٩١٧ قدمت عن هؤلاء المرحلين وصفاً أكثر إيلاماً: «ما زال في مقاطعة طفيلة ٩٨٦ أرمنياً على قيد الحياة، عدا الثلاثة آلاف الأصليين الذين أرسلتهم إلى هناك الحكومة التركية عام ١٩١٤. والأكثرية الساحقة منهم يعيشون في بؤس شديد، وبخاصة النساء والأطفال الذين يرتدون أسمالاً بالية لا تقيهم البرد القارس. والعديد من الأطفال هم شبه عراة يتعرضون لآلام ممضة جراء نقص أي علاج طبي [...]، أما أصحاء الأبدان فيشتغلون الآن عند العرب لكسب مبلغ ضئيل من المال، فيما دخل عدد قليل منهم في خدمة «الشريف» بصفة جنود، ولكن أعداداً كبيرة من النساء والأطفال حُرمت من رجال أحياء يُعنون بهم»[١٠].

بعد بضعة أشهر على وصول هؤلاء الأرمن، أقاموا شيئاً فشيئاً علاقات بالسكان المحليين وشرعوا يجرون بعض الأعمال اليسيرة لهم. ينقلون الحطب، والماء على ظهورهم، ويزاولون أشغال البناء. أما النساء، فكن ينهمكن بالطحن

٩ إن الأمر متعلق خصوصاً بقبيلة «بدول»، التي تشكل داخل بترا جزءاً من منطقتها. ومن خلال تعاملي مع هذه القبيلة، اضطررت بالفعل إلى أن أقيم مراراً وطوال سنوات في جنوب الأردن، وفي بترا ووادي موسى، حيث التقيت أبو غريب.

١٠ في «النشرة العربية» لعام ١٩١٧ (رقم ٢، ٧٩). لا يحمل هذا النص توقيعاً، ولكن من المحتمل جداً أن يكون لـ ت.أ. لورنس، مخبر «النشرة» الرئيسي في تلك الأعوام.

والخياطة أو بمهمات زراعية. ويذكر الدكتور دير نرسيسيان أن الأرمن في طفيلة فتحوا حتى مقلعاً للحجر الأبيض، فكانوا يصنعون الكلس ويبنون البيوت. وكذلك كانوا، بممارسة مهنهم القديمة، خبازين، وسكافين، وحلاقين، وخياطين الخ... ويروي عطية زنبع علايا من وادي موسى، وهو قاطع الطرق المشهور في الأمس البعيد: «تحلوا بالاستقامة، فربطتهم بسكان البلد علاقات طيبة [...] كانوا يبنون بطريقة غير معروفة هنا، ويصنعون طناجر نحاسية؛ كانوا يجيدون كل الأعمال.»

بالطبع لم يكن الوضع الاجتماعي ــ الاقتصادي في هذه المنطقة الجنوبية من الأردن ملائماً جداً لاستقبال مثل هذا السيل من المرحلين، فاقتصادها القائم على الزراعة ورعاية الماشية المتنقلة أصيب حينها بالجفاف والمجاعة والأوبئة. إلى ذلك، كان العثمانيون يخشون حياة الترحال البدوية في تلك البقعة البعيدة والصحراوية من الإمبراطورية ويتجاهلونها عمداً. وحده، مرور قافلة الحجاج المتوجهة إلى مكة المكرمة مرة في السنة كان يلفت الانتباه. والواقع أن قافلتي دمشق والقاهرة كانتا تجتازان الجنوب، إحداهما تسلك طريق الصحراء الحالية الممتدة من عمان ومعان لتلتقي بالقافلة الثانية في العقبة. وكانت هذه الأخيرة تعبر سيناء ووادي عربة المخيف الخاضع لمراقبة وسيطرة القبائل البدوية التي كانت تضطلع بتأمين الدواب وتوفير الأمن. لذا كان جنوب الأردن يعيش بمنأى عن الإدارة العثمانية وعلى وقع مرور القوافل السنوي.

في كانون الأول ١٨٨٢، سلّم آل المجالي، وكانوا يؤلفون قبيلة تسيطر على الكرك (المدينة الواقعة في أقصى الشمال في الجزء الجنوبي)، «مفاتيح» المدينة إلى حسين حلمي باشا، والي دمشق في حينه، وقامت بعض المحاولات الهادفة إلى فرض مراقبة غير مباشرة، عبر توطين جماعات شركسية حضرية باتجاه الكرك، وقبائل مسيحية في مادبا خلال ١٨٧٩ ــ ١٨٨٠، لكنها في الحقيقة لم تنجح في دفع قبائل البدو الرحل إلى الاستقرار وإقامة إدارة محلية.

وفي عام ١٨٩٣، ضُمّت المنطقــة الممتدة من الكرك وطفيلة إلى ولايــة دمشق تحت اسم سنجق معان أولاً، ثم سنجق الكرك لاحقاً. كما تعزز الحضور العثماني في معان مع إنشاء خط حديد الحجاز. وفي ١٩٠٥، ألحقت قرى وادي موسى، وشوبك وتبوك، البعيدة من طريق القوافل، بسنجق الكرك الذي كانت حدوده تنتهي عند وادي مجيب، وجنوبا عند مدائن صالح ــ أما العقبــة فلم تشكل جزءاً منــه إلاّ عام ١٩١٠.

ولكن سرعان ما أثارت هذه التغييرات اضطرابات: عام ١٩٠٥ في قلعة الصليبيين في شوبك؛ وعام ١٩١٠ في وسط الكرك حيث استمر العصيان عشرة أيام قبل أن يمتد إلى طفيلة ومعان. عندئذ تم، في هذا القسم، انتزاع قضبان خط الحديد وتدمير خط التلغراف الجديد. إن فرض رسوم باهظة، وخصوصاً إنشاء خط حديد الحجاز، الذي حدّ كثيراً من أهمية القبائل الاقتصادية والسياسية وأضعف سلطتها المحلية بعد شق قناة السويس، كانا السبب في إثارة ردود الفعل هذه.

الثورة العربية، وسقوط الإمبراطورية العثمانية وإجلاء اللاجئين

في ١٠ حزيران ١٩١٦، أعلن الشريف حسين بن علي، حامي مكة المكرمة، الثورة العربية. وهدف، بدعم من البريطانيين، إلى استقلال الحجاز وطلب الاعتراف بمملكة عربية مستقلة تحت حكم الأسرة الهاشمية. عندها تقدم جيش الشريف، بإمرة فيصل ولورنس، نحو الشمال باتجاه دمشق، متبعاً خط حديد الحجاز، وضاماً في طريقه قبائل البدو الكبرى، أمثال قبيلة حويطات

المنتشرة جنوب الاردن. وفي تموز ١٩١٧، سقطت العقبة للمرة الأولى وتوجهت قوات فيصل صوب شوبك، وهاجمت محطة جرف الدراويش بقصد عزل معان، وسقطت طفيلة مع حاميتها المؤلفة من مئة جندي في كانون الثاني ١٩١٨. غير أن القوات العربية أرغمت على الانسحاب من شوبك والعقبة في آذار ١٩١٨، ولم تسقط معان نهائياً إلاّ بعد غارات عدة في صيف ١٩١٨.

شارك بعض الأرمن الموجودين في المنطقة في الثورة العربية وانضموا إلى القوات الشريفية. ولم يفت ت. و. لورنس، لدى وصف تقدم جيشه نحو طفيلة، الإشارة إلى ردود فعلهم حين شاهدوا الجيش العثماني: «*إن الأرمن، الذين تجمعوا حولنا مضطربين طيلة النهار، أخرجوا الآن سكاكينهم وصاحوا ببعضهم باللغة التركية ما إن وثبوا إلى الأمام*» (رقم ١٣ / ٤٩١). غير أن معظم اللاجئين الأرمن الذين عثر عليهم أثناء تقدم القوات العربية والبريطانية، وكانوا أساساً نساء وأطفالاً، أجلوا بفضل مؤازرة الشريف حسين بن علي والجيش البريطاني.

وردت الأخبار الأولى عن حضور أرمني في تلك المناطق من دائرة استخبارات المكتب الحربي في القاهرة، اذ استلم المجلس المركزي في الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في القاهرة رسالة من المقدم ديدز، في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٧، تذكر وجود ما بين خمسة وثلاثين وأربعين أرمنياً في كهوف بترا وخمس عائلات أخرى في وادي موسى «في حالة سقام»[١١]. وللحال دبت الحركة في المجلس، فتوجه بالكلام إلى دائرة الاستخبارات، وكان مدركاً أن هؤلاء اللاجئين لا يشكلون حالة فريدة، لكي يؤكد لها التزامه التام: «نرجوكم أن تنقلوا خصوصاً إلى قيادة الحملة العليا وإلى سلطات منطقة العقبة العسكرية أن جمعيتنا مستعدة، بكل الوسائل المتاحة لها، لأن تساعد جميع الأرمن الذين سيتم العثور عليهم وهم في حال بؤس، سواء في مآويهم، أو حين يمكن نقلهم إلى مصر... وإذ يُرجّح أن تتكرر مثل هذه الأحوال بعد الآن، كلما تم تحرير المناطق المأهولة بمرحلينا من جانب الجيوش البريطانية والقوات العربية...» (رسالة في ٥ تشرين الثاني).

عندئذ تهيأ المجلس على ثلاثة أصعدة[١٢]: أولاً على صعيد الطوارئ عبر إرسال مواد غذائية وألبسة عن طريق قناة السويس إلى العقبة؛ ثم وضع تنظيم خاص للبحث عن كل أرمني، وعن كل طفل وإجلائه[١٣]؛ وأخيراً استقبال هؤلاء الأرمن داخل مخيمات بور سعيد[١٤] أو القدس. ونوى المجلس، فور وصول هذه الأخبار الأولية، بناء مخيم جديد في بور سعيد: «بنظرنا، سيكون ذلك الحل الأفضل، خصوصاً أنه سيسمح أن يُجمع فيه جميع اللاجئين الأرمن الآخرين الذين سيُقابلون في هذه المناطق ما إن يجري تحريرها من الأتراك» (رسالة في ١ آذار)[١٥].

١١ أرشيف مكتبة نوبار، مراسلات المجلس المركزي، القاهرة، رسالة مؤرخة في ٥ تشرين الثاني من الأمين العام يفيد فيها باستلام رسالة ٣٠ تشرين الأول. أرشيف ٢٠ حزيران-أيلول ١٩١٧، رقم ٨٥٤٦-٨٨٣١.

١٢ إضافة إلى البحث عن أموال وجمع هبات.

١٣ مقتطف من برقية بعث بها بوغوص نوبار «رئيس الوفد الأرمني في باريس» إلى الشريف حسين بن علي، عام ١٩١٧، تعبيراً عن امتنانه للمساعدة التي قدمها هذا الأخير للأرمن. «إلى جلالة ملك الحجاز المعظم: إنه ليملؤني عرفان الجميل... لأن جلالتكم جمعتم بين القضية الأرمنية وقضية العرب النبيلة. إن الأرمن سوف يذكرون إلى الأبد عون جلالتكم ولطفها لأنكم، بعطفكم على آلامهم، جاهدتم من أجل تحريرهم. صان الله حياة جلالتكم الغالية وتوّجها بنعمه وبركاته!». (النشرة العربية، ١٩١٧-١٩١٨، ٢٠٢).

١٤ حيث يقيم الآن لاجئو جبل موسى.

١٥ أرشيف مكتبة نوبار، ٢٢ شباط-١٨ نيسان ١٩١٨، رقم ٩٤٠٠-٩٧٥٧.

١٦ لا ذكر للاجئي جنوب الأردن قبل هذين التاريخين وبعدهما في هذه الأرشيفات.

في الواقع، إن الأخبار المتعلقة بالأرمن الذين عُثر عليهم ما بين تشرين الثاني ١٩١٧ وحزيران ١٩١٨[١٦]، في القرى والمخيمات المنتشرة من شمال الأردن إلى جنوبه، توافرت بكثرة في مكاتب المجلس. ومن خلال هذه الرسائل، علمنا أن سبعة عشر أرمنياً من وادي موسى تمكنوا من الوصول، خلال شهر آذار ١٩١٨، إلى السويس حيث تولى أمرهم على الفور أرمن مقيمون في هذه المدينة. غير أنهم تركوا وراءهم في وادي موسى ثلاثة أولاد تتراوح أعمارهم بين ستة وتسعة أعوام، وخمس فتيات بين ثلاثة عشر وواحد وعشرين عاماً، وكان لا بد من مساعدتهم (رسالتان في ٢٢ آذار و٩ نيسان ١٩١٨). وعلمنا أيضاً أن كل مرحلي السلط والقرى المجاورة لها وفحيص ووادي صير، وهم حوالي ألف وخمسمئة شخص، حررهم الجنود البريطانيون وأجلوا إلى القدس، ونُقلوا منها باتجاه بور سعيد في أواخر حزيران (رسالتان في ٢٢ آذار و٨ حزيران ١٩١٨).

ومن ناحية أخرى، عُلم أن أربعين شخصاً من بين لاجئي طفيلة الأرمن، الذين ارتفع عددهم إلى تسعمئة أو ألف شخص استطاعوا الوصول إلى الخليل. ويُروى أن «آخرين لاذوا بالفرار وتشتتوا في وادي موسى». أما الأكثرية الساحقة منهم فأقاموا في العقبة (رسالة في ١٨ نيسان ١٩١٨). وتبيّن أن تحريرهم كان صعباً، إذ اقتادهم الأتراك إلى مدينة الكرك، حيث احتجزوا في القلعة الصليبية [١٧].

ويصف تقرير موجه إلى بوغوص نوبار باشا في باريس، بتاريخ ٢٢ نيسان ١٩١٨، الوضع قائلاً:

«كان قد تم تحرير مئة وأربعين مرحلاً في وادي موسى، وفي طفيلة ارتفع عدد المرحلين إلى ٩٠٠. ونقلت السلطات من السلط إلى السويس وبور سعيد والقدس ١٥٠٧ مرحلاً. وبحسب الإشاعات الأخيرة، فإن مئات الأرمن المتواجدين بين السلط وعمان قتلهم الأتراك».

وفي ٢٥ نيسان ١٩١٨، قدّمت دائرة الاستخبارات قائمة بأسماء الأرمن الذين كانوا لا يزالون معتقلين، وهم ست نساء وفتيات تتراوح أعمارهن بين عشرة أعوام وثلاثة وعشرين عاماً متواجدات في وادي موسى، إضافة إلى ولدين. وفي شوبك ثلاث نساء بين ستة عشر وثمانية عشر عاماً، وفي معان خمس نساء وولدان.

أما في ١٩١٨، فإن مخيمات اللاجئين في بور سعيد ضمت مئة وعشرة أشخاص، من بينهم الدكتور دير نرسيسيان. وقد أوضح الدكتور أن أرمن معان، وعددهم قرابة ٥٠٠ شخص[١٨]، أجلتهم السلطات العثمانية إلى دمشق قبل وصول جيش الشريف حسين إلى هذه المنطقة. وأغلب الظن أن الهدف من هذا الإبعاد لأرمن معان كان منع الجيش العربي من استعادتهم. هذا، و لم يكن المجلس المركزي للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية على علم بوجودهم[١٩]. واعتباراً من تموز ١٩١٨، لم تعد أرشيفاته تأتي على ذكر لاجئين في جنوب الأردن[٢٠].

الأرمنيات: أولئك المجهولات
القادمات من لا مكان

عندما هجر المرحلون الأرمن، مع أفراد عائلاتهم أو بمفردهم، مسقط رأسهم في تشومكلو أو في مكان آخر، وبعدما اجتازوا جبالاً وصحارى وفقدوا كل شيء، وصلوا، شبه أشباح، إلى بلد كانوا يجهلونه، بلد هو نفسه يقاسي المجاعة والفقر والأوبئة. وقد قال لي أبو ماجد «إن رؤيتهم كانت تثير فينا الخوف».

لقد استقر هؤلاء المرحلون في القرى القديمة الخربة، متكدسين في البيوت الحجرية النادرة. والواقع أن قرويي جنوب الأردن لم يكونوا يستعملون البيوت الحجرية للسكن بل كانت هذه الأبنية القديمة تُستخدم في الحقيقة كمخازن، بينما كانت العائلات تفضّل أن تؤوي تحت الخيم، متنقلة بحسب وفرة المراعي والمحاصيل، وفق نمط الحياة الذي يمليه عليها اقتصادها المختلط القائم على الزراعة ورعاية الماشية.

وقد اتخذ العرب المحليون أرمنيــات، تتراوح أعمارهن بين عشرة وخمسة عشر عاماً، زوجات لهم، فأسسوا معاً عائــلات في إيما ووادي موسى وخصوصاً في معان.

وفي عامي ١٩١٧ ـــ ١٩١٨، لم تتبع اللواتي رزقن أولاداً مواطنيهن الأرمن إلى بور سعيد أو إلى كيليكيا، وإنما مكثن في الأردن. واستقر بعضهن لاحقاً في معان، المدينة الجنوبيـــة التي كانت لا تزال تحتفظ بدورها في استقبال حجاج مكة المكرمة.

١٧ أرشيف مكتبة نوبار، مراسلات المجلس المركزي: «لقد علمنا من رسالة كتبها أحد لاجئي طفيلة، وقد وصل إلى العقبة، أن عدداً كبيراً من هؤلاء البؤساء المنكوبين قادهم الأتراك، عند استعادة هذه المدينة، باتجاه الكرك...» (رسالة بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩١٨). وفي ٩ أيار، أفادتنا رسالة أخرى: «إنه، بسقوط طفيلة، تمكن نحو ١٥٠ شخصاً من النجاة وجرى نقلهم إلى بور سعيد، بينما نقل السواد الأعظم منهم إلى الكرك (من العقبة). وبقيت الكرك، حتى بعد تحريرها، تحت نير رفيفان المجالي على الدوام، وظل الألفا مرحل» مكدسين في القلعة الخربة. وقد منعوا من إجراء أي اتصال مع الخارج، كما منعوا من الخروج من القلعة وجمع الحشائش لتأمين غذائهم». وفوض المجلس أمره إلى إدارة المكتب العربي، مقترحاً في الوقت عينه على رفيفان المجالي بأنه مستعد لأن يدفع الثمن لقاء تحرير هؤلاء الأرمن. ويقول: «إننا على يقين من أن السلطات العسكرية، وبالاتفاق مع الأمير فيصل، ستبحث عن أفضل الوسائل الآيلة إلى تحريرهم» (رسالة مؤرخة في ٩ ايار ١٩١٨). ونجد، في ٣١ أيار، رسائل شكر موجهة إلى الأمير فيصل «لإقدامه على عمل اللازم»، وإلى السيد كيليدجيان للجهود التي بذلها.

١٨ في تلك الأثناء، كان العديد من أرمن وادي موسى قد التحقوا بأرمن معان.

١٩ لم تسقط هذه المدينة إلاّ في صيف ١٩١٨.

٢٠ من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أن الجالية الأرمنية في الأردن يقدّر عددها حالياً بنحو ٣٠٠٠ شخص، تعيش الأكثرية الساحقة منهم في عمان حول كنيستها ومدرستها وناديها «الرياضيين». وقد استقرت حوالي ثماني عائلات في اربد، وعدد مماثل في الرصيفة قرب عمان، وثلاث عائلات أخرى في العقبة، وواحدة في الكرك. وجالية عمان تضم أكثرية من الأرمن المتحدرين من دورتيول، وكانوا قد رحلوا في ١٩١٥ إلى قرى وادي صير، في جوار السلط والكرك، إلاّ أن بعضاً منهم عاد إليها بعد ١٩٢٢ للعمل في الأرض. أما جماعة الرصيفة، وهي في الأساس زراعية ومؤلفة من مزارعين، فتشمل جالية صغيرة من مواليد مرعش استقروا فيها عام ١٩٢١، في حين أن عائلات اربد تنتمي إلى أصول متنوعة: مرعش،

وكانت معان، المدينـــة الحدودية بين ولايتي دمشق والحجاز، والمدينـــة الواحـــة القائمـــة على أطراف الصحراء، مقسمـــة يومئذ إلى حيّين رئيسيين ملحقين بكيانين مختلفين: الحي الشمالي المدعو معان الشاميـــة، ويضم الجزء الرئيسي من المدينـــة، ويشكل الحد الأقصى الجنوبي من ولايـــة دمشق، بل من بلاد الشام، فيما كان الحي الجنوبي المدعو معان الحجازيـــة، وهو أقل أهميـــة بقدر كبير، يشكل جزءاً من ولايـــة الحجاز[٢١].

كانت معان الشاميـــة محطة استراحة مهمـــة على الطريق الواصل بين دمشق ومكة المكرمـــة، إذ كانت القوافل تنزل فيها ليومين عند الذهاب كما عند الإياب. فكانت هذه المدينـــة، الهادئـــة عادة والمعزولـــة عن العالم، تتحول آنئذ إلى سوق واسعة يؤمها قرويو الهضاب وبدو الصحراء لبيع منتجاتهم الزراعيـــة واللبنيـــة، فيختلطون بتجار الضفـــة الغربيـــة من الأردن الوافدين من نابلس والخليل وحتى من غزة. وكان أمن قوافل الحجاج تلك، وهي بمنأى عن الباب العالي ودمشق، رهن بحسن نيـــة القبائل البدويـــة التي كانت تراقب المناطق المجتازة. وتمكن المرحلون الأرمن، بفضل خط حديد الحجاز الذي أوصل بمعان عام ١٩٠٤، من بلوغ المدينـــة ـــ وكان لورنس وعوده ابوطايح، شيخ قبيلـــة حويطات المقتدرة، دمرا هذا الخط جزئيـــاً في ١٩١٦[٢٢]، وهكذا تم عزل حاميـــة معان التركيـــة المؤلفة من ٧٠٠٠ رجل. فنعم المرحلون هنا بهدوء نسبي طوال أعوام بعدما نسيهم الجميع، حتى اندلاع المعارك التي أدت إلى تراجع القوات العثمانيـــة في ١٩١٨. غير أن المدينـــة لم تُضَم إلى إمارة شرقي الأردن إلاّ عام ١٩٢٥، فاستعادت هدوءها من جديد، واكتنفها النسيـــان طوال عقود من الزمن.

وفي الثلاثينـــات افتُتح أول مستوصف في معان، وقد خُصِّص لاستقبال أولاد مصابين بالتفوئيد ـــ إذ كان الوبـــاء لا يزال يفتك بالناس في جنوب البـــلاد. وكان في المدينـــة والمنطقة قابلة قانونيـــة واحدة، وهي أرمنيـــة، فاتفق أن عهدوا إليها بإدارة المستوصف. ولوحظ أيضاً أن الفندق الوحيد القائم ليس فقط في معان وحدها وإنما في كل جنوب الأردن، كان فندق بترا[٢٣] الذي تأسس على يد أرمنـــي قدم من القدس. وكان الفندق يشغل البنـــاء العائد لخط حديد الحجاز، الذي قامت بتشييده، عام ١٩٠٥، شركة ألمانيـــة لاستقبال الحجاج البارزين. وهنا مكث عبد الله في ١٩٢٠ قبل أن يعلن عمان عاصمـــة له.

وبقي فندق بترا، خلال عشرين عاماً تقريباً، المكان الوحيد لاستقبال العديد من السياح الراغبين في زيارة بترا والعقبـــة، بداية عبر الخط الحديد الذي يربط العاصمـــة بالجنوب، ثم في الستينات، من خلال طريق سيارات الصحراء. غير أن هذا الفندق لعب أيضاً دوراً مميزاً بالنسبة إلى النساء الأرمنيـــات اللواتي بقين في المنطقـــة. إذ كان صاحبه، ديران تيمقسيان، يدعو نساء معان الأرمنيـــات وأولادهن إلى مؤسسته في الأعياد الدينيـــة. وهذه الاستقبالات، التي كانت تتم في عيدي الميلاد والفصح داخل حرم الفندق حيث يتلقى الأولاد الهدايـــا والبيض الملون، ظلت ذكريات لا سبيل إلى استبدالها، ذكريات طالما رووها لي.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن النساء الأرمنيـــات لم يكنّ، لدى وصولهن إلى معان، يتكلمن اللغة العربيـــة، بل الأرمنيـــة والتركيـــة. وكانت لهنّ عادات ومعارف تختلف قليلاً عما لمعانيـــات ذلك العصر. بعضهنّ ارتدين «المدرعة» (الثوب البدوي الأسود)، بينما حافظت أخريات على تقاليدهن المتصلـــة باللباس. واعتنق عدد منهن الإسلام وأدّى حتى الحج إلى مكة المكرمـــة. والواقع أنهن، عندما وجدن توافقاً بين الديانتين،

وهادجين، وعنتاب ودورتيول. بينما تؤوي العقبة العائلات الثلاث المتحدرة من «فوتو هاكوب»، المصور المشهور الذي يُعد من مؤسسي المدينة الجديدة مع بضع عائلات أخرى من مرعش، سكنتها بعد ١٩٤٨، وكانت قد قدمت من بئر السبع، غير أن القسم الأكبر من جالية عمان وفد من القدس ومن مدن فلسطينية أخرى، اضطروا أن يغادروها عقب أحداث ١٩٤٨.

٢١ كانت بلاد الشام تابعة لوالي دمشق وتشكل النواة «العربية» في الإمبراطورية؛ بينما كانت مكة المكرمة مقر والي ولاية الحجاز. ولبعدها عن مركز الإمبراطورية، استمدت أهميتها من الحج.

٢٢ ما زال الحويطات، إلى يومنا هذا، يحتلون الجنوب بأسره ويشكلون القبيلة الرئيسية.

٢٣ لم يعد اليوم من وجود لفندق بترا. فقد تم تصنيفه أثراً تاريخياً. وكان ثمة مشروع يرمي إلى تحويله إلى متحف للثورة العربية ولتأسيس إمارة شرق الأردن.

مارسنهما في آن أحياناً. وكان في حوزة البعض الآخر كتاب مقدس بالأرمنية، وبعضهن دُفن، بحسب رغبتهن، في مقبرة العقبة المسيحية.

من معان إلى الولايات المتحدة

في هذا المسار الزمني المتعاقب، التقينا مجدداً، عام ١٩٥٨، الدكتور دير نرسيسيان في معان، لمناسبة حج قام به إلى مدينة القدس. للمرة الأولى منذ ١٩١٧، استطاع أن يعود ثانية إلى أماكن ترحيله، كما كتب يقول: «ليزور [...] موتى الصحراء [...] الذين حُرموا الصلوات وشعائر الدفن منذ ثلاثة وأربعين عاماً» (رقم ٩/ ٤).

واكتشف، لدى وصوله إلى معان، هؤلاء النساء الأرمنيات اللواتي كان يجهل وجودهن[٢٤]. أما هن فكن يجدّدن، من جانبهن، الروابط مع أحد رفاق الترحيل بعد مضي سنين طويلة من العزلة. خلال ستة أيام، استقبلت العائلات الأرمنية المتشوقة لسماع الأخبار الجديدة الطبيب ورفيقيه. وبعد وقت قصير، نشر الدكتور دير نرسيسيان، في مجلة «اركيوس»[٢٥]، قصة سفره مرفقة بصور التقطت في معان، وأوضح هوية النساء الأرمنيات اللواتي التقاهن هنالك.

كان لهذا المقال صدى بعيد بالنسبة إلى الأرمن المتحدرين من تشومكلو والمشتتين في المعمورة. فقد أتاح لبعضهم أن يعثروا على قريبات لهم كانوا يعتقدون أنهن فارقن الحياة. وقدم أقرب الأقرباء إليهن من بيروت وأثينا والولايات المتحدة وحتى من الأرجنتين لزيارتهن في معان. وفي اتجاه معاكس، دُعيت أرمنيات معان لزيارة عائلاتهن المستقرة في البلدان النائية. وقد قصدت إحداهن حتى نيويورك لتلتقي إخوتها الذين لم تكن رأتهم منذ ترحيلهم من تشوكلو عام ١٩١٥. وقد أخبرتني حفيدتها: «رافقنا جدتنا إلى مطار عمان. كانت

٢٤ ليس صعباً العثور على الأرمن في معان. يكفي التلفظ بكلمة أرمن حتى يتم التوجه إلى «حي الأرمن».

٢٥ اركيوس بدأ نشرها، ابتداء من ١٩٢٧، في نيويورك حيث يوجد تجمع واسع من سكان تشومكلو. وتعقيباً على حكاية الدكتور دير نرسيسيان السردية الأولى، روى أشخاص آخرون أيضاً رحلتهم إلى الأردن، على غرار الحكاية السردية الصادرة عام ١٩٦٥، بعنوان «لمناسبة زيارتي إلى معان».



صورة لفندق بترا، القائم في المحطة ومبنى استقبال الحجاج المسافرين على خط حديد الحجاز.
مجموعة ا. اوهانسيان

ترتدي مدرعة سوداء، ويبدو عليها القلق، كانت تسافر لرؤية إخوتها في نيويورك. وبعد شهرين، رجعنا إلى المطار نبحث عنها، ولكن ماذا رأينا؟ [...] جدتنا وقد لبست ثوباً أبيض قصيراً بلا كمين، واعتمرت قبعة جميلة. تلك كانت حقاً جدتنا!».

أما حال نورا، وهي أرمنية أخرى من معان، فعميقة الدلالة على الصدمة الناجمة عن مثل حالات «لم الشمل» هذه. فقد دعتها أختها، عندما علمت بوجودها في هذه الزاوية النائية من الأردن، إلى بيروت كي تتمكن من مشاهدة أمها، وتروي أخت نورا ما حدث قائلة: «طوال شهرين، تبادلت الأم وابنتها النظرات ولم تفترقا، ولكن من دون أن تتمكنا من التحادث في ما بينهما [...] فنورا لم تعد تتكلم الأرمنية، وأمي لم تكن تعرف كلمة عربية واحدة». منذ ذلك الحين، تكاثر مثل هذا النمط من اللقاءات، حتى أن بعض أرمنيات معان استلمن جرائد أرمنية صادرة في نيويورك أو بيروت أو حلب. وإذا كانت حرب «الأيام الستة» قد عكرت صفو هذه الاتصالات، أخرج العقد ١٩٥٨ ــ ١٩٦٧ هؤلاء الأرمنيات من طي النسيان وأسهم في إعلاء شأنهن، فلم يعدن «غريبات لا اسم لهن ولا انتماء»، بل أصبحن «أرمنيات ذوات ماض وصلات قربى راسخة في كل أرجاء العالم».

إن وجود هؤلاء الأرمنيات «الدوليات»، في إطار معان، المدينة ــ الواحة القائمة داخل الصحراء الأردنية والبعيدة عن عمان وعن كل تجمع حضري آخر، أتاح لمعان فرصة للقاء مع العالم الخارجي يختلف كل الاختلاف عن اللقاءات المتصلة بالحج السنوي إلى مكة المكرمة. وقد شكل ذلك في حينه، في حياة معان اليومية، حدثاً فريداً بشكل قاطع.

الأرمن وآل أبو درويش

خمس من بين هؤلاء الأرمنيات تزوجن من أفراد قبيلة آل درويش، ومنهم أخوان هما خالا الثلاثة الآخرين. وسوف نركز انتباهنا على الأبناء المتحدرين من هذه الزيجات.

كان آل أبو درويش يتعاطون التجارة: فالإخوة الثلاثة، أولاد عوده، كانوا يشتغلون في التجارة الجوالة بين معان وايما وبوصيرى. أما الآخران، ابنا خليل، فكانا هما أيضاً تاجرين جوالين. غير أن والدهما كان يملك حانوتاً للسمانة في ايما. جرى عقد هذه الزيجات الخمس في ايما وبصيرى، حيث كان عدد الأرمنيات ضئيلاً جداً وأقل أهمية منه في شوبك. ويلاحَظ، من جهة أخرى، أن الزيجات مع السكان المحليين في هاتين القريتين كانت أندر بكثير. وقصدت هذه العائلات معان بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٣ واستقرت فيها بصورة نهائية.

بنية قبلية وتحالفات

لم يكن آل أبو درويش يشكلون، في مطلع القرن، قبيلة على قدم المساواة مع غيرها من القبائل. وعندما عقدت الزيجات بينهم وبين أرمنيات، في الجيلين الثالث والرابع من هذه الجماعة، لم يكونوا يؤلفون بعد «خمسة»، هذا الكيان القانوني والسياسي المسؤول عن أفراده (فقبل تأليف «خمسة» تظل المجموعة مرتبطة بنسبها الأصلي أو بقبيلة أخرى) [٢٦]. لذا كانت الاجيال الثلاثة من آل أبو درويش تابعة لقبيلة الكراشين المعانية، التي «يتزوج أفرادها من بعضهم البعض وليس لهم علاقات (تحالف) مع آل أبو درويش» (بحسب رسمية أبو درويش، من معان).

٢٦ الواقع أن الخمسة تشير إلى مجموعة من أربعة إلى خمسة أجيال. وما إن يتم بلوغ هذا العدد حتى تتمكن الجماعة من تشكيل كيان على حدة، وذلك جراء انشطار ناجم عن حدث ما ــ جريمة، اغتيال ــ حيث ترفض القبيلة جميعها أن تدفع دية القتيل أو أن تتورط في الأخذ بالثأر، فتقوم الخمسة وحدها بهذه المهمة. وغالباً ما تجد الظاهرة بعينها عندما يتحدر النسب من شخص غريب. الفرد وحده لا يسعه البقاء على قيد الحياة، يجب أن يلتحق بقبيلة، وبعد خمسة أجيال يستطيع أبناء ذريته أن ينفصلوا عنها.

وجدّ أبو درويش الأول، وفق عرف الجماعـــة المتناقل شفهياً، قدم من المغرب إبان القرن الـ١٩. وفي طريق الحج إلى مكة المكرمـــة، أصيب بالمرض في العقبة المصريـــة. ولما استعاد عافيتـــه، استقر في وادي موسى الذي كان يمثل تجمعاً أهم من تجمع العقبـــة في ذلك الحين. وكان العصر عصر «فوضى، إذ الحكومة غائبـــة والسرقات متكررة» على ما أخبرني درويش أبو درويش. كان هذا الجد «بطلاً» متزوجـــاً من امرأة «سولحينية»[27] من وادي ...وم أنجبت لـــه ولدين (مات الثاني مبكراً). واضطر أحد الصبيين إلى مغادرة وادي موسى ...ثر «زعل» واستقر في معان عند قبيلـــة الكراشين، حيث تعاطى تجارة المواشي. وحوالي ١٨٨٠، توجه ابنـــه خليل إلى طفيلة، وامتهن فيها التجارة قبل أن يعود نهائيـــاً إلى معان خلال عامي ١٩١٨ و١٩٢٣، مع أولاده وأولاد أخيه وزوجاتهم الأرمنيات.

إن وضع آل أبو درويش كـ«غرباء» وتجار كانوا يشكلون موقعاً هامشيـــاً بالنسبة إلى التنظيم القبلي السائد عصرئذ في جنوب الاردن سهّل الزواج من النساء الأرمنيـــات[28]. أما ...م اتخذ أفراد قبائل أخرى نساء أرمنيـــات زوجات لهم، لما عُدّ الأمر إلاّ حالة فردية داخل الجماعة.

وغالباً ما يصعب على غريب أن يندمج في جماعة ما عن طريق الزواج وحده، وذلك بسبب التنظيم القبلي المؤسس على أهمية الذريـــة والبنوة. والتحالف، الذي هو تبادل، يتم بين جماعات مكونـــة تخضع لنظام الأساسي ذاتـــه. ولكن من النادر أن يتحقق بين فرد وجماعـــة. فزواج جد آل أبو درويش لم يكن ليتم في الواقع إلاّ مع قبيلـــة وضعها ...ـبي كوضع غريب وإنما وضع أقليـــة كما كانت حال آل سولحينية. ونتيجـــة لذلك، أصبح في وسع جماعـــة قليلة العدد أن تقبل في صفوفها أشخاصاً قدموا من مكان آخر.

بالإضافـــة إلى ذلك، تمت هذه الزيجات في قريتي ايما وبصيرى، حيث كان الأرمن أقل عدداً، وكان خليل أبو درويش وأولاده غرباء أيضاً.

٢٧ يؤلف آل السولحيين قبيلة صغيرة على هامش فرع آل نجدة التابعين لقبيلة الحويطات. هذا «الوضع المهمش» يتيح إقامة تحالف مع شخص غريب عن القبيلة.

٢٨ كانت الأعمال الزراعية، وبخاصة الحراثة والبذر، يقوم بها غالباً بين القبائل البدوية جنوب الأردن، أشخاص غرباء عن القبيلة، سواء كانوا قرويين أو أفراد قبائل صغيرة ارتبطت بالقبيلة بعلاقات الحماية والخوة، أو جماعات خاضعة لنظام آخر (كالغوارنة في وادي الأردن)، فكانت تناط بهم هذه المهمات.

زواج ومنطقة وذاكرة

أدت هذه الزيجات إلى نشوء هويـــة مميزة. فالأبنـــاء المتحدرون منها يذكرون اليوم انتماء مزدوجـــاً: إلى سلالـــة أبو درويش وإلى الأم أو الجدة الأرمنيـــة للتعريف عن أنفسهم كأفراد جماعـــة كاملة الحقوق، لها نسبها الخاص. وعليـــه، تجدر الإشارة إلى أن هذه المراجع المتعلقة بالهويـــة، والتي تعبر عن غيرية، هي مخصصـــة للأفراد الآخرين من آل درويش.

لذا ينبغي التدقيق في كيفيـــة توصل أجيال أبو درويش/الأرمن الثلاثـــة إلى تأليف جماعة وصياغة هويـــة عبر تكوين ذاكرة جماعيـــة وتشكيل غيريتها، لتتميز عن غيرها ولا سيما عن سائر آل أبو درويش.

لهذا سنعتمد ثلاثـــة اتجاهات: أولاً، الزيجات على مدى الأجيال الثلاثـــة التي تؤسس لكيان خاص بسلسلة النسب؛ ثانيـــاً، تغيير موضع هذا الكيان بنقلـــه إلى بقعـــة محدودة وإنشاء حي؛ وأخيراً، التدقيق في العناصر الذكريـــات والشهادات التي تسهم في تهيئـــة ذاكرة جماعيـــة. زواج، ومنطقة وذاكرة هي المكونات الثلاثـــة لآل أبو درويش/الأرمن.

زواج وبنـــوة

إن الجيل الأول، المتحدر من هذه الزيجات المعقودة بين الأرمنيات وآل أبو دريويش، اعتمد بصورة عامة الزواج البدوي المفضل الذي يشجع على التحالف بين أبناء العمومة المتوازن من جهة الآباء وحدهم.

وحالة هايكانوش، المتزوجة من أحد أولاد عوض أبو دريويش، يمكنها أن توضح هذا الوضع: فقد تزوجت اثنتان من بناتها بابنيّ أراكسي، وهي بدورها تزوجت من صبحي بن خليل أبو دريويش. إحداهما رزقت خمسة بنين وأربع بنات، تزوج أربعة منهم بأنسبائهم من جهة الأب وحده وبأحفاد هيكانوش. وهكذا أصبحت هذه الأخيرة واراكسي الجدتين الوحيدتين لأربعة أزواج من الجيل الثاني. كما أصبح أبناء «خانم» في وضع مماثل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ابنتي آنّا دنكجيان الأرمنيتين، اللتين تزوجتا من الأخوين أبو دريويش ابنيّ عوض.

لهذا العرف المتبع نتيجة مزدوجة: الجيل الأول «المختلط» لم يحاول أن يندمج في جماعة أبو دريويش الأوسع عبر استراتيجيات تقوم على الزيجات، بل على العكس، ابتعد عنها وتجمع على أساس مرجعية الأم الأرمنية. وبتعبير آخر، فإن النساء الأرمنيات وأولادهن اجتمعن ومكثن معاً؛ وبشكل أكثر رمزية، كان للجيل الثاني، جيل أحفاد الأرمنيتين الذين أمسوا رجال اليوم البالغين، جدتان أرمنيتان في أغلب الأحيان. وسوف نحاول لاحقاً الإحاطة بالدلالة الرمزية لهذا الوضع.

وغالباً ما نجد عند الخلف اسمَي غريب وغريبة تخليداً لذكرى الأمّين الأرمنيتَين. وإذا كانت العادة، عند العرب والبدو على الأخص، أن يحمل الولد اسم جديه، فإننا نجد ذلك هنا، في شكل متّفق عليه وجماعي وحيادي خال من كل تضمين ديني، وباختصار على نحو مطبّع منظم. لم يُطلق اسم «أرمني» كاسم لشخص، بل للدلالة على انتماء مميز، استُعمل للإشارة إلى هذه الجماعة أو لتعيين فرد من أفرادها، ولكن ليس ليتحول إلى اسم شخص.

وهكذا نلاحظ أن تأسيس هذه الجماعة تم أولاً من خلال الزواج الخارجي، الزواج من الغريبة. ولاحقاً تكوّن وتشرّب بالطابع المحلي عبر التزاوج في العشيرة بين أبناء العم، وفق العرف البدوي.

قرب المكان: نشأة الحي

تتشكل الجماعـــة بالنسبة إلى فسحـــة تسمح بالعيش، وبتشاطر ذاكرة جماعيـــة ونقلها، ذاكرة تنتج، من جانبها، انتماء اجتماعيـــاً مشتركاً عبر ترسخها في هذا المكان [٢٩].

اليوم، تقيم هذه الأجيـــال الثلاثـــة إلى شمال معان في حي أبو دريويش، ويعرف الجزء الذي تسكنـــه باسم حي الأرمن. هذا الحي، البعيد عن المركز والواقع على طرف المدينـــة، قريب من أرض بور، سيّجت قسماً منها سلطات «الوقف» في المدينـــة. قديماً كان هذا المكان المقبرة غير الرسميـــة التي دُفن فيها مرحلو معان الأرمن بين عامي ١٩١٥ و١٩١٨.

ويولّد الحي، برسمه حدود فسحة الحياة اليومية، شعوراً بالانتماء يحدده القرب المكاني. إنه المكان الذي تتحقق فيه ممارسة واختبار اجتماعي يتيحان مشاطرة هذا الشعور بالانتماء ونقله.

٢٩ يصر السيد هالبوتيس على المظهر «المادي والقوي» للحيز المكاني الذي تدوّن عليه الجماعة ذاكرتها. فالجماعة كما الحيز المكاني المرجعي يشكلان بالنسبة إليه كيانين من كتلة واحدة يؤخذان بكليتيهما ويبقيان من دون تغيير. أما البعد الزماني فهو متجه دوماً نحو مراجع الماضي، إذ إن الصيرورة بحد ذاتها غائبة. وفي الحالة الراهنة، نحن أقرب إلى مواجهة مسألة صيرورة جماعة على أرض الغير، من دون الاستناد إلى منطقة المنشأ، ما عدا اسم قرية تشومكلو.

هذا المكان حقيقي في معان. وهو، إضافة إلى ذلك مرتبط بالمقبرة حيث دفن الأرمن، السلف غير الممثَل ولكن الممثِل للمجموعة؛ وهو فسحة سرية إذ لا يستطيع عابر السبيل أن يعرف ما تحدّه أسوارها. هذهِ المقبرة غير الرسمية تجسد الصلة بالماضي، وتدرج الحي في المكان وتمنحه شرعية بالنسبة إلى الماضي، لا بل إزاء التاريخ.

الذكريـــات الجماعية

يتشاطر الخلف داخل الحي «ذكريات» نسجت خيوطها حول شهادات واقعية معيشة أو أسطورية أو خيالية. هذه الذكريات يمكن تصنيفها ضمن ثلاث مجموعات: ذكريات الحياة اليومية للخلف مع الأرمنيات، والذكريات التي تناقلتها هؤلاء الأرمنيات عن قريتهن الأصلية وعن ترحيلهن، وشهادات من أشخاص آخرين عن هؤلاء الأرمنيات.

إن ذكريات الحياة اليومية التي تشاطرها الخلف مع أمهم أو جدّهم هي ذكريات عهد الطفولة، طفولة تم تمثيلها على أنها فريدة ومنقطعة النظير في معان، حيث جرى التشديد على صعيد نمط الحياة، وعادات الطبخ واللباس وغيرها. وهكذا فإن هؤلاء الأرمنيات قد أدخلن، في نظر الخلف، أموراً جديدة: استعمال بعض الخضار، وأطباق طعام، وأشغال يدوية كانت مجهولة أو غير ممارسة حتى ذلك العهد.

كما تحتل الاحتفالات بالأعياد، التي كان ينظمها ديران تيمقسيان في فندق بترا، مكانة بارزة بين تلك الذكريات، وكذلك الأسفار التي قامت بها الأرمنيات إلى الخارج، والزيارات التي استقبلن أثناءها الضيوف، هذه التجمعات والأعياد، هذه الزيارات والأسفار لم تتجدد عند وفاتهن، وتلاشت أيضاً العلاقات مع الخارج إثر رحيلهن. وإذ كانت هذه الأمور جميعها قديمة في إطار معان، فقد جرى تمثيل النساء الأرمنيات كأشخاص غير عاديين ولا مثيل من بين القوم.

أما السجل الثاني فيتصل بالذكريـــات التي تناقلتها الأرمنيـــات عن حياتهن في تشومكلو. فوصف القريـــة والحياة اليوميـــة فيها الممزوج بذكريات الطفولـــة رواها الخلف لي وكأنها جزء من نقل شفوي يرجع عن منبت الأصل، الذي بقـــي مجهولاً ومتخيَّـــلاً. ولكن الحديث لم يدر يومـــاً عن الأماكن التي قدم منها هؤلاء الأقارب في الستينـــات أو من هم أولئـــك الذين قامت بعض هؤلاء الأرمنيـــات بزيارة أفراد من عائلاتهن: فالدكتور دير نرسيسيان جاء من أثينا، ونوري (أو نورا) عثرت على والدتها في بـــيروت[30]، أما أراكسي اومرتيان فتوجهت إلى نيويورك لمشاهدة إخوتها.

منبت الأصل هذا مترسخ في الذاكرة كأنـــه «فردوس مفقود»، ونموذج شـــأني أسطوري إلى الأبد. تشومكلو، على غرار أرمينيا، ليس لها موقع جغرافي معين بالنسبة إلى الخلف، فهي غارقة ما بين القدس وديرها، ولبـــنان وجاليتـــه الأرمنيـــة الكبيرة، وتركيـــا وأخيراً روما، المرجعية العالميـــة للمسيحية. والاقتباس التالي يوضح حقيقـــة هذا الالتبـــاس: «عندما استقر فيصل في دمشق طلب منـــه بولس الرابع، بابا الأرمن، أن يسهل عودة الأرمن الموجودين في جنوب الأردن إلى دمشق، كي يذهب الذين يودون الذهاب إلى روما بلدهم، أو يتوجه إلى لبـــنان من يرغب في ذلك، وتبقى النساء اللواتي يرغبن في البقاء مع أزواجهن» (درويش أبو دريويش، معان)[31].

إن شهادات النساء الأرمنيـــات حول مسقط رأسهن أعطاها الخلف تفسيرات خيالية. مثلما يمكن، في هذا

٣٠ نوري، أم خلف (كانت أم خلف) تدعى نورا اصادوريان. وقد التقيت شقيقتها في بيروت، واستطعت تالياً أن أجمع رواية «أرمنية» عن هذه الزيارات. إن شقيقة نوري عثرت عليها بفضل حكاية الدكتور دير نرسيسيان السردية في مجلة اركيوس.

٣١ إن بابا الأرمن، بولس الرابع، هو، بكل تأكيد، بوغوص نوبار. كما أن روما تمثل مركز جميع المسيحيين، واستطراداً الأرمن. يعود تاريخ هذا الاستشهاد إلى عام ١٩٨٩.



حي الأرمن في معان، يقطنه آل أبو دربويش.
مجموعة ا. اوهانسيان

السجل، إدراج حكايا الجنيات والأساطير التي روينها ورددها الخلف؛ ولكن مع فارق مهم وهو أن الأرمنيات كن جزءاً لا يتجزأ من تلك الحكايات. فقد تماهين مع الأبطال والأشخاص الوارد ذكرهم في تلك الحكايات التي تجري أحداثها ضمن إطار تشومكلو.

ولا بد، في هذا المجال، من أن نضيف أيضاً قصة المجازر وترحيل الأرمن ووصولهم إلى جنوب الأردن، والأشهر الأولى التي تلت بقاءهم على قيد الحياة. فكل فرد من أفراد هذه الجماعة يعرفها ويرويها كذلك مع إضافات وإغفالات وتراكيب تضفي على الحكاية طابع رحلة خيالية، طابع ملحمة.

أما المجموعة التذكارية الثالثة فتتألف من شهادات أشخاص غير الأرمنيات، هذه الشهادات الخارجة عن الجماعة مرتبطة بالصورة التي تركتها الأرمنيات، وهن الناجيات الوحيدات في هذا المكان، عن هذه الجماعة الجائعة والمريضة التي رحل الناجون منها بعد عامين، فللنجاة من هذه الظروف البالغة القسوة، كان لا بد من أن يبرهن المرء عن شجاعة وصلابة لا مثيل لهما، «زي زلام» (مثل الرجال).

وروى شهود عيان في معان: «كانت آنّا هذه قوية بصورة غير معهودة، فقد أنجبت «غريبة» بينما كانت تعود إلى بيتها على متن حصان» (أبو ماجد، معان). «أرمنية واحدة تساوي عشرة رجال: فكر، وفهم، وإنسانية. كن يرشدن إلى الطريق [المستقيم] [...] وقد كن موضع احترام عظيم»، (عطية زنبع علايا، من وادي موسى).

وتم تمثلهن كأشخاص يتحلون بمعارف وقدرات مختلفة عما لدى سكان المنطقة: «إن الأطفال الثلاثة والعشرين المصابين بالتيفوس الذين عولجوا في المستوصف الجديد، نالوا جميعهم الشفاء على يد آنّا»، على ما يُذكر.

هذه الروايات الشائعة تنطوي أيضاً في ثناياها على حكايات مريعة وخيالية حيث الميت يختلف عن عامة الناس. هكذا أخبرني بعضهم: «إن أرمنياً مات من الجوع في وادي موسى دفنه صديقه العربي. وبعد أربعين سنة، دمر أحدهم القبر ليبني بيتاً، فاكتشف أن الجثة بقيت على حالها، كما لو كانت قد دفنت البارحة».

«وفي الستينات، وصلت من الولايات المتحدة إلى وادي موسى امرأتان. كانتا تعرفان الموضع الذي دفنت فيه أمهما. ففركتا التراب قليلاً وعثرتا على شعر أمهما، فأخذتاه وذهبتا به» (علي معمر، وادي موسى).

«غير أن أياً من هذه الذكريات لا يصح التسليم بها ما لم تحتل المكان المناسب في مجموعة لا تشكل كل واحدة منها إلاّ جزءاً من كل» (رقم ٣ / ٩٦)، وذلك على غرار لعبة مربكة ينبغي إعادة تجميعها على أسس أخرى وسياقات مغايرة. هكذا فإن هذه النتف والنبذ من الذكريات والتخيلات تشكل كلاً مشتركاً ومتناقلاً يؤلف ذاكرة الخلف الجماعية.

هذه المجموعات الثلاث التي أتينا على ذكرها كوّنت أساس هذه الجماعة الجديدة. وقد أمكن تكوينها بفعل تجميع أفرادها بفضل الزواج التفضيلي العربي، واستقرارها في منطقة محددة تماماً، هي الحي. كما يرتبط تكوينها خصوصاً بإمكان بناء ذاكرة جماعية غذاها تمايز ثقافي، واقعي أو خيالي، تمايز قام هنا بدور بارز في تحديد الغيرية. وكذلك غذتها كل تلك الذكريات والحكايات التي حملتها هؤلاء الأرمنيات معهن وروجّنها، ولم يشاركهن فيها سكان معان الآخرون أو سكان الأماكن الأخرى. ووجد فيها الخلف أيضاً إقراراً بـ«غيريته» التي تعززت عبر الزيارات والأسفار المتبادلة من وإلى معان [٣٢].

وهكذا تمتلك هذه الجماعة الإمكانية التاريخية والثقافية، الرمزية والفعلية، إمكانية «المادة» من أجل صياغة ذاكرة جماعية بدأت مع وصول النساء الأرمنيات إلى معان [٣٣].

[٣٢] إن زيارات الأرمن الأخيرة، التي تلقوها في معان، يعود تاريخها إلى ما قبل حرب الأيام الستة. لقد انقطعت الاتصالات نهائياً «عقب وفاة الأرمنيات»، رفاة الجيل الأول المتحدر من أقرباء أشقاء. وكانت زيارتي، عام ١٩٨٦، هي الأولى التي تلقاها أحفاد الذرية أنفسهم.

[٣٣] إن المتحدرين من أمهات أرمنيات مستثنون من جالية عمان الأرمنية المجتمعة حول كنيستها ونواديها.

الأرمنيات: من اليتيمـــة إلى السلف المؤسس

هل تكفي ثلاثة أجيال كي تتمكن جماعة من تركيز هويتها وغيريتها على ذاكرة مراجُعها مختلفة، وبالتحديد خارجة عن المجتمع المحيط بها؟ إذا كان هذا «الموقع الخارجي»، وهو كون الإنسان «غريباً»، يسمح بالتمايز وبصياغة هذه الغيرية، فإنه من الممكن رفضه عندما لا تتوافق هذه المراجع مع سلم قيم المجتمع العام. ويتعلق الأمر هنا بازدواج معنى الغريب، الذي يقع وضعه بين حدين أقصيين: حدّ لعب دور «مرجع» للمجتمع، بل للتغيير الاجتماعي على الأرجح فيذهب به الأمر إلى درجة تجسيده صورة «البطل الممدّن»، وحدّ الفرد المقصى إلى موقع هامشي في المجموعة، الفرد غير المرئي الذي ينتمي إلى الأقلية ويرى نفسه في وضع تبعية ونسيان.

لتقدير الشحنة الرمزية لهذا السلف، من الضروري إدراك المكانة التي تحتلها اليوم هؤلاء الأرمنيات في ذاكرة الخلف الجماعية من خلال مقارنة هذا الوضع بشخصية السلف في حكايات أصل القبائل البدوية.

إن السلف المؤسس غالباً ما يُظهَر، في الحكايات البدوية، على أنه طفل يتيم وغريب. ويتميز بخصائص عدة نجدها في حكاية أو في أخرى. وهكذا يظل منشأه مجهولاً في غالب الأحيان، ولكنه يقع دائماً ـــ بالنسبة إلى القبائل الأردنية ـــ إلى شرق البلاد، مما يحمل على الاعتقاد أن الحجاز

منشأ البدو الأصلي. كما يؤسس الشرق للعلاقة مع الإسلام، وغالباً ما يكون الطفل في وضع الحج أو في الطريق إليه. عدا ذلك، تستدعي هذه العلاقة أيضاً معرفته وبركته، وهما وسيلتا الدفاع الوحيدتان في مواجهة المجموع، والقوة الوحيدة التي يملكها الطفل إزاء القبيلة.

انه وضع اليتيم ـــ الغريب الذي يمثله شخص السلف المؤسس، وهو مهم لاستيعاب بعض الخصائص الثقافية البدوية.

وأول ما يفكر فيه المرء أن اليتيم لا يملك ممثلاً عنه ولا جماعة ينتمي إليها، وهو من دون بيت أو عائلة. مثلما هو بلا اسم قد يساعد على العودة أربعة أجيال إلى الوراء بغية إثبات الانتماء القبلي. إن الزواج من اليتيم لا يقوم على أساس المعاملة بالمثل. لذا فإن اليتيم، بالاعتماد على عمود نسب لا وجود له، وبانتمائه ومنشئه غير المعلوم، يسمح ببداية نسب جديد. إنه يمثل نقطة الصفر هذه التي يمكن للخلف أن يبدأ للمرة الأولى انطلاقاً منها، ويمكن لقبيلة جديدة أن تولد. وهكذا، عبر السلف المؤسس للقبائل البدوية والمتجسد في شخص اليتيم، يتم التركيز على قيمة هامة، قيمة ذات طابع مثالي، وفي أغلب الأحيان غير متوافقة مع الواقع: صورة القبيلة المكونة من أفراد متحدرين من صلب أب واحد، والمنغلقة على ذاتها.

أهميـــــة المرجعية الأمومية[٣٤]

إن أصل الأرمنيات خارج النسب، خارج القبيلة المضيفـــة، لا بل حتى خارج البلد. أتين من مكان آخر، مكان أسطوري، إذ لم يتوافر للخلف ولا لأفراد الجماعـــة أي مرجع آخر بالنسبـــة إلى هذا الموضوع، وما عرف شخص آخر هذا المنبت الأصلـــي ولا تمكن من زيارته.

هؤلاء الأرمنيات هن غريبات. لقد كن، عند وصولهن، طفلات يتيمات من دون أولياء، ومريضات لا مورد لهن على الإطلاق إلاّ معرفتهن الخاصة. غير أن هذه المعرفة لم تمر دون أن تلفت النظر، إذ إن قدراتهن استرعت الانتباه كما سبق أن رأينا.

ولئن كان قدوم السلف، على ما أشرنا اليه، مرتبط بالحجاز وبالحج، أقله في جنوب الأردن، فإن الأرمنيات استوفين «رمزياً»، في نظر الخلف، هذا الشرط رغم أنهن كن مسيحيات عند مجيئهن. لقد أتين عبر خط حديد الحجاز، الذي لم يكن، عند تشغيله عام ١٩١٠، قد نقل إلاّ حجاجاً مؤمنين من دمشق إلى مكة المكرمة. وهذه نقاط عدة تعزز التكافؤ بين الصورة التي تركتها هؤلاء النساء وخصائص السلف المؤسس، الذي ما انفك الخلـــــــف يشير إليها.

غير أن وضعهن كيتيمات وغريبات على الأخص هو الذي قرّبهن من البطل المؤسس، فوصولهن إلى جنوب الأردن، كما حكايات ترحيلهن، هيأا لحكاية المنبت الأصلي حبكتها السردية التي احتلت فيها هؤلاء الأرمنيات اللواتي يُمثلن كشخص وحيد مكان السلف المؤسس.

هكذا، فإن المرجعية الأمومية أرست أسس هذه الجماعة التي تملك اسمها العائلي. هذا الإنتماء المزدوج وهؤلاء الأمهات الأرمنيات، لم يعتبرهن الخلف ولا اعتبر العيش معهن على انه عائق أو حتى سمة حرمان، شكلت السبب الذي من أجله تجمع الخلف عندما مال إلى العزلة. مع ذلك، فإن هذه الظاهرة موجودة بين القبائل التي تعرب، على مستويات مختلفة، عن حالات نفي وإقصاء. هذه الحالات هي نتيجة إخضاع البيئة القبلية والاتحادية لنظام تسلسلي دقيق، لا يعترف ببعض الجماعات إلاّ انطلاقا من تخصيصها بوظائف أو خدمات على غرار قدامى العبيد، والحدادين والحراثين. كما يمكنه أن يرفض الاعتراف بالأصالة وبعمود النسب الخاص بها، الحقيقي أو الأسطوري، وذلك بإضفاء مظهر جغرافي لا غبر عليها

٣٤ لاحظنا أيضاً، في وادي الأردن عند اتحاد آل صقر القبلي، أهمية النسب الأمومي، وهذه المرة عبر زواج رجل واحد وانضمامه إلى قبيلة المرأة.

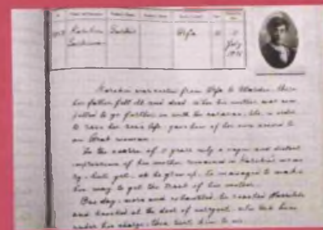
كانغورانيين في غور الأردن. ولكن من خلال الحضور القوي لنظام الزواج المتعدد يمكن أيضاً تتبع هذه التراتب، والإطلاع على ظواهر إقصاء، حيث تأخذ الجماعة نساء جماعة أخرى، ولكن من دون أن تعطي بدلاً منهن على الإطلاق، إذ إن تبادل النساء لا يتم إلاّ بين جماعات تعتبر نفسها «ندية». إضافة إلى ذلك، فإن نسيان الماضي وغياب الذاكرة الجماعية ونسيان النسب لمصلحة نسب الجماعة المسيطرة، كل ذلك رهن بحالات تبعية جماعة للجماعة الأخرى، تستتبع الإقصاء وتنم عن التبعيات.

هنا لا تتوافر لدينا هذه الظواهر، بل على العكس، يتم ذكر هذا السلف الأرمني لإبراز تمايز وإظهار فرق تشارك فيه بالأحرى سائر المعانيات[٣٥]. إننا نجد أنفسنا إزاء آلية ذات طابع أكثر عمومية تركز على أهمية المرجعية الأمومية والأنثوية إلى جانب النسب الأبوي. هذه الآلية تسهم في الحدّ من الاقتصار على خط النسب الأبوي والسلف الأحادي النسب الذي تميزت به تماماً المجتمعات العربية ــ البدوية لمصلحة وضع قريب من ناحية الأم ومزدوج. إن النسب الأبوي يقدم اسم العائلة، وهؤلاء النساء الأرمنيات يقدمن مرجعية السلف. وهكذا، وسط قبيلة أبو درويش، يصوغ الأبناء المتحدرون من أرمنيات لأنفسهم هوية بل نسباً على حدة.

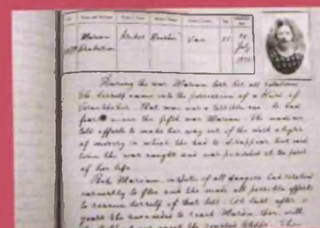
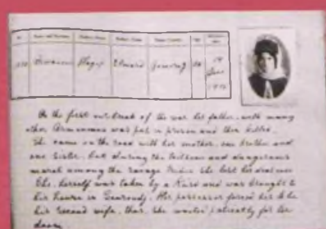
ولئن تبين أن ذلك ممكن، فمرده إلى أن هؤلاء النساء كن غريبات ويتيمات، وكانت حياتهن المعيشة تقع بين الأسطورة والواقع، بين النسيان والذاكرة.

٣٥ حدثني رئيس بلدية معان عن «أرمنيات» مدينته، عندما علم بهويتي الأرمنية. وقد تكررت الظاهرة نفسها مراراً في عمان، وكانت المرة الأولى مع مؤرخ معاني، قدمني حينها إلى ابن ديران تيمقسيان. كان هذا الأخير يعيش في عمان ويزاول مهنة التصوير. في لقائنا الأول، قدم لي لائحة بأسماء أرمنيات معان اللواتي علمهن.














اللاجئون في حياتهم اليومية



كان بالإمكان، حتى تاريخ غير بعيد، رؤية أقمشة قديمة مطرزة، في مخيمات اللاجئين الأرمن في سوريا، تزين حواجز الأكواخ الوضيعة الخشبية، أو تجفف تحت أشعة شمس يوم الغسيل الأسبوعي، وهي كل ما تبقى من أثاث بيت نجا من أخطار هجرة جماعية أو من جريمة سطو أثناء عمليات ترحيل عن الديار عنيفة.

أنطوان بوادبار، «مطرزات أرمنية قديمة»، مجلة الدراسات الأرمنية، ١٠- ١٩٢٩، ص ٢٣٩.





نماذج مطرزات استخدمت في المشغل الذي تولى ادارته الأب انطوان بوادبار داخل مخيم مار عبدالي بيروت.
مجموعة المكتبة الشرقية - ج.ق. ي.



سيما دير غازاريان إلى اليسار ويوغابير فورتوغليان فارتيان في مخيم حلب.
فوتو فارطان ديروتيان ـــ مجموعة م.ن.

بحثاً عن مكان

دمج الأرمن الاقتصادي في لبنان

بقلم تيار كوشويت



مشغل تطريز تابع لميتم كلكيان، في بيروت عام ١٩٢٩. زيارة القس السويسري انطوني كرافي — بونار. مجموعة م.ن.ا.

ما العمل ليعاود المرء بناء حياته؟ وما السبيل بالنسبة إلى إنسان نجا من الموت كي يتخطى فظاعات إبادة جماعية والاقتلاع الذي واكبها ؟ سؤالان كان لا بد للناجين من الإجابة عنهما بصورة عملية. فقد اضطروا أولاً إلى أن يجدوا الوسائل المادية لتأمين عيشهم، مهما كانت واهنة. من هذا المنظور تهدف هذه الدراسة إلى إعادة تكوين الظروف التي رافقت وصول الأرمن إلى لبنان، والطريقة التي توصلوا بها إلى الاندماج مهنياً في بلد التبني هذا. وهذه المسيرة جذبت الانتباه، خصوصاً أن مخيمات الناجين البائسة تحولت، على مر السنين، إلى مراكز للتنمية الاقتصادية. والواقع أن الأرمن في لبنان وظفوا طاقاتهم بنجاح في بعض الفنون والمهن، كصناعة الأحذية والألبسة الجاهزة والمجوهرات — حتى لا نذكر منها إلا بعض الاختصاصات التي عملوا على تطويرها في الأربعينات. مع ذلك، فإن طريقة مقاربة هذا الموضوع لن تكون تأريخية لأن المصادر المتوافرة في هذا الخصوص هي جد قليلة، وسيكون من الواجب الاعتماد على وثائق ثانوية أو على شهادات شخصية. أريد لهذه المساهمة أن تكون تحليلية. وهي ترمي إلى الكشف عن المبادىء التي تشرح لماذا استطاع الاقتصاد الأرمني أن يتطور في مثل هذه الظروف، أكثر مما تسعى إلى الإتيان بمعطيات جديدة. ونحن حاولنا، بالاستناد إلى بعض مبادىء العلوم الاقتصادية والاجتماعية الأساسية، أن نحدد القوى النوعية التي دفعت هذه المسيرة. ومع أن هذه المقترحات تظل، للوهلة الأولى، مجردة، لا بل مفرطة في التبسيط، إلاّ أنه يمكننا، بتطبيقها، أن ندرك المنطق الاجتماعي الذي ساد عملية تقسيم العمل، والذي أتاح للناجين أن يعاودوا بناء حياتهم.

من وجهة النظر هذه، نستخلص أربعة عوامل كبرى، وهي: الوسائل الموضوعة تحت تصرف الجماعة، وإرثها الحرفي وطموحاتها في المدى القريب، وبالطبع حالة اقتصاد البلد المضيف. ولا بد، كي نحسن البدء بإعادة التكوين هذه، من أن نتذكر أن اللاجئين الأرمن، ما بين سنتي ١٩١٥ ـــ ١٩١٨ وصلوا إلى لبنان، وهم أشبه بحطام بشري معدم لا يملك شيئاً. وإذا تأملنا شروط الانطلاق هذه من منظور اقتصادي، فقد شكلت معلماً حاسماً. إذ توجب عليهم، كي يستعيدوا السيطرة على حياتهم، أن ينتجوا ويقدموا فوائد وخدمات للسوق. ويميز علماء الاقتصاد، في هذه العملية الإنتاجية، ثلاثة عوامل مكونة رئيسية: الموارد، ورؤوس الأموال والعمل. إن كل نشاط إنتاجي يجمع هذه المكونات الثلاثة، غير أن الحصة النسبية لكل واحد منها يمكن أن تتغير.

غياب عوامـــل الإنتاج

يتصل عامل الإنتاج الأول بالموارد المتوافرة كالمواد الأولية والثروات الطبيعية، التي يمكن العمل عليها لتصنيع منتوجات قابلة للبيع في السوق. والنشاطات الاقتصادية التي ترتكز، بصفة رئيسية، على هذا الأساس هي الزراعة وتربية الماشيـــة. وإذا أخذنا في الاعتبار أن الأكثرية الساحقة من اللاجئين كانت ذات أصول ريفيـــة، وتالياً متمرسة بالنشاطات الزراعية[1]، فإن مثل هذا الخيار كان لا بد من أن يبرز بين إمكانات نهوض الجماعـــة الاقتصادي. وجرت، بتحفيز من سلطات الانتداب، محاولات ضمن هذا النطاق في سنجق الاسكندرون وصور وعنجر[2]. غير أن تجربة عنجر وحدها حالفها النجاح. إذ إن القطاع الأولي لم يشكل قط، بالنسبـــة لسواد الأعظم من اللاجئين، ملاذاً يمكن اللجوء إليـــه، وذلك لسبب بسيط وهو أن هؤلاء الأشخاص الذين لا وطن لهم كانوا يقيمون على أرض غريبـــة. لذا لم تتوافر لهم إمكانية الوصول إلى الأرض وثرواتها[3]. والنشاط الاقتصادي الموجـــه أساساً نحو الموارد الطبيعيـــة كالزراعة لا يسهل على جماعـــة هجرت أن تتوصل إلى مزاولتـــه.

وطبعاً، كان من الممكن أن يشكل شراء أرض زراعية حلاً، غير أن ذلك كان يستلزم رؤوس أموال لم يملكها اللاجئون ـــ وهذا ما يقودنا إلى عامل الإنتاج الثاني. ففي عمليات الترحيل، أثناء ١٩١٥، كانت قد اقتلعت القرويين الذين صودرت ممتلكاتهم، مهما كانت متواضعة[4]، وسُلب القليل من العملات النقدية التي كانت في حوزتهم وهم على دروب المنفى. لذا وصلوا إلى لبنان وجيوبهم فارغة. وبتعبير آخر، لم يكن نشاط اقتصادي يتطلب أموالاً طائلة وارداً بين إمكانيات الوافدين الجدد. لا زراعة إذاً، ولا صناعة ولا تجارة أو نشاطات مالية. ومن ناحية أخرى، تجدر الإشارة إلى أن المصرف والصيرفة ـــ وهما نشاطان أرمنيان نموذجيان إبان العهد العثماني[5] ـــ لم يستعدا، لهذا السبب، الأهمية نفسها في عالم الشتات. إذ لم يكن من مصرف في لبنان يمتلكه أرمن، ومكاتب الصيرفة الصغيرة القائمة دلت بالأحرى على تقليد كان في طور الإنقراض[6].

استناداً إلى تعريفات علماء الاقتصاد، لا يتعلق رأس المال، باعتباره عاملاً ثانياً، بالمال وحده، بل بوسائل الإنتاج أيضاً، كالأدوات والآلات والبنى التحتية والكميات المخزونـــة الخ. في هذه الحال كذلك، وجد اللاجئون أنفسهم في مواجهة عجز نتيجة فقدان وسائل إنتاجهم أو مخزونهم الاحتياطي، وعدم امتلاك رأس المال الضروري لمعاودة الإنطلاق

١ ازنيف عايده كوراوغليان، «أرمن تجمع بيروت، دراسة إنسانية واقتصادية»، بحث لنيل الماجستير في الجغرافيا، الجامعة اليسوعية، بيروت ١٩٧٠؛ ص. ١٣؛ ريمون ه. كيفوركيان، بول ب. بابودجيان، «الأرمن في الإمبراطورية العثمانية عشية الإبادة الجماعية»، باريس ١٩٩٢، ص. ٤٤-٤٥؛ و٦١-٦٤.

٢ كوراوغليان، م. س.، ص. ١٥ـــ١٦؛ الأب جان ميسيريان، «لوحة عن عالم الشتات الأرمني»، بيروت ١٩٥٦، ص. ١٣٩-١٤٠.

٣ عايده بودجيكانيان ـــ كوراوغليان، «شعب في المنفى، عالم الشتات الجديد (القرنان ١٩-٢٠)» في كتاب بإشراف جيرار داديان، «تاريخ الأرمن»، تولوز، ١٩٨٢، ص. ٦٥٨-٦٥٩.

٤ بودجيكانيان ـــ كوراوغليان، م. س.، ص. ٦٢٥-٦٢٦؛ ميسيريان، م. س. ص. ١٣٢ و١٤٢.

٥ عايده ك. بودجيكانيان، «الأدوار الاجتماعية ـــ الاقتصادية والسياسية لأرمن مصر في القرن ١٩»، ورد في جان لوي باكه ـــ غرامون وبول دومون، «اقتصاد ومجتمعات في الإمبراطورية العثمانية (نهاية القرن ١٨ ـــ بداية القرن ٢٠)»، باريس ١٩٨٣، ص. ٤٤٣-٤٤٤ ؛ كيفوركيان وبابودجيان، م. س. ص. ٦٩؛ أ. ج. سوسنتزكي، كتاب له مترجم تحت عنوان «التقسيم الإثني للعمل»، ورد عند شارل عيساوي في «تاريخ الشرق الأوسط الاقتصادي، ١٨٠٠-١٩١٤»، شيكاغو لندن ١٩١٧، ص. ١٢٤؛ ولتر زنتر، «التجار الوسطاء المنتمون إلى الأقليات في الفسيفساء السورية: تجارة ـــ نزاع وصورة عن الإدارة»، آفاق خاصة بعلم الاجتماع، ١٩٨٧، ص. ٤٢١.

٦ كوراوغليان، ١٩٧٠، م. س.، ص. ٧٩-٨٠.





القدس، مشغل أحذية في ميتم أراراديان التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية.
مجموعة م.ن.ا

ماسحو أحذية أرمن في بيروت، خلال العشرينات.
مجموعة م.ن.ا



مشغل ميتم فاسبوراكان، القدس.
مجموعة م.ن.ا

تجـــاتهم. وكانت ممارسة نشاط صناعي تحتاج إلى شيء من التقنية وإلى بنيـــة تحتية عقاريـــة هي خارج متناول معظم رجال الأعمال هؤلاء (فقط في نهاية الخمسينات نلاحظ مبادرات تصنيع في محيط الأرمـــني). كما كانت التجارة، وللأسباب عينها، تثير مشكلات: إذ إن صفقات البيع والشراء تستوجب حيازة مخازن وكميات مخزونـــة ومالاً لدفع مستحقات الممونين، لذا كانت إمكانيـــات إنشاء مشاريع أو شركات تجاريـــة محدودة جداً.

أخيراً، الأمر الوحيد الذي بقي للناجين الأرمن كان قدرتهم على العمل، وهذا من شأنـــه أن يقودنا إلى ذكر العامل الإنتاجي الثالث. ففي استطاعـــة المرء، للبقاء على قيد الحيـــاة، أن يعرض قدرته على العمل في أسواق الاستخدام، علماً أن يتوافر هنالك طلب ما. هذا كان، في الفترة ذاتها، وضع عدد لا بأس به من الناجين الذين استخدموا في فرنسا والولايات المتحدة، حيث كان النشاط الصناعي يستدعي توظيفاً كثيفاً للعمال. وهكذا كان عدد كبير من الأرمن يشتغلون في مصانع رينو وسيترويان القائمة في المنطقـــة الباريسية[7]. غير أن ما كان يشكل حلاً بالنسبة إلى اللاجئين المقيمين في الغرب لم يكن كذلك بالنسبة لمواطنيهم المستقرين في لبنان، حيث لم تقم صناعات حتى الثلاثينـــات، أو قام منها النزر اليسير، وتاليـــاً لا أرباب عمل على نطاق واسع. مع ذلك، لم تكن أسواق العمل مقفلة إقفالاً تامـــاً. فكانت ثمـــة ثغرات متصلـــة بهجرة لعديد من اللبنانيين ووفاة آخرين جراء المجاعـــة أثناء الحرب العالميـــة الأولى. ولكن الاقتصاد اللبـــناني يستعيد نشاطـــه ببطء ويتيح فرص عمل طفيفة للوافدين الجدد. وتعلقت هذه الأعمال، بالنسبـــة إلى الرجال، بهدم أحياء

٧ عايده بودجيكانيان ـــ كوراوغليان، «الأرمن في منطقة الرون ـــ الألب». بحث جغرافي حول علاقات أقلية إثنية بالبيئة التي استضافتها، ليون، ١٩٧٨، ص. ٣٣-٣٤ وص. ١١٩-١٤٣؛ بودجيكانيان، ١٩٨٢، م. س. ص. ٦٣٠-٦٣٢، مارتين هوفنسيان، «الرباط الطائفي، ثلاثة أجيال من الأرمن»، باريس ١٩٩٢، ص. ١٤١؛ مارتين هوفنسيان، «الأرمن ومناطقهم»، باريس ١٩٩٥، ص. ١٢٤-١٢٥؛ فاهه طاشجيان، «عودة الاتحاد إلى كيليكيا: امل وخيبة أمل»، و« الهجرة الجماعية الكيليكية: الاتحاد في مواجهة تحديات جديدة في سوريا ولبنان، وفلسطين وقبرص»، ورد في «قرن من تاريخ الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، ١٩٠٦-٢٠٠٦». بإشراف ريمون د. كيفوركيان وفاهه طاشجيان، ٢٠٠٦.

بيروت القديمة خصوصاً[8]. وهكذا رأت الجماعة الأرمنية في لبنان نفسها في ثلاثة مآزق: إمكانية ضئيلة أو معدومة للوصول إلى المواد الأولية أو ممارسة النشاطات الأولية، لا رؤوس أموال وبالتالي لا نشاطات صناعية أو تجارية مهمة. وفضلاً عن ذلك، كان الطلب على اليد العاملة ضعيفاً، لذلك كان السؤال يطرح نفسه لا محالة: ما العمل لمعاودة المرء صنع حياته؟

إلى العمل

بدأ الناجون يعملون. وفي غياب كبار أرباب العمل من الجانب اللبناني، ظهرت المحترفات الأرمنية الأولى، حيث كان مستوى الإنتاج ضئيلاً، ولا يتطلب إلاّ القليل من الاستثمارات، والمواد الأولية المستخدمة بسيطة. وكان المبلغ الموظف في المشروع يُجمع عبر تنفيذ أشغال طفيفة أو بقبول عمل لحساب أصحاب مشاريع. فكانَ ذلك يتيح للمرء البدء بالعمل نفسه، ولحسابه الخاص، وفي قطاعات تعتمد بشكل واسع على اليد العاملة. وهكذا «مكره أخوك لا بطل»، انطلق رجال الأعمال في صناعة الأحذية والأشغال الحديدية والألبسة الجاهزة ـــ وكانت هذه الأعمال، في الغالب، وسخة لا هيبة لها، لكن المواد المستعملة فيها غير باهظة الثمن، وأدوات العمل بدائية، وتالياً تتطلب توظيف القليل من المال[9]. وعندما لم تكن قوة عمل الحرفي الذاتية وعمل أسرته كافيين، كان في استطاعة المؤسسات الصغيرة أن تتعاقد مع مواطنين أو أن تجيّر الطلب إلى أرمن آخرين يستطيعون بدورهم الإنطلاق بنشاطهم الشخصي، بفضل ما وفروه من أموال جمعت على هذا النحو. إن مثال الواحد يلهم الآخر، وهكذا يتشكل إندماج الجماعة. ثم إن تقسيم العمل الذي ينتج عنه يعززه تكاملٌ عموديٌّ: إذ تمثل كل مرحلة عملية الإنتاج وتسويق المواد فرصة اقتصادية للوافدين الجدد. فصانع الأحذية يحتاج إلى دباغين وتجار يبيعون منتجاته في علب خاصة بالأحذية. وعدة العمل يشتريها من زميل متخصص في هذا المجال. وهكذا يلاحظ تكاثر مهن عدة في ميادين متخصصة. ووفقاً لهذا المنطق، استأثر رجال الأعمال الأرمن بمجموع بعض القطاعات.

٨ شارل عيساوي، «الخلفية التاريخية للهجرة اللبنانية ١٨٠٠-١٩١٤» في البرت حوراني ونديم شداده، «اللبناني في العالم: قرن من الهجرة»، لندن ٢٠٠٢، ص. ٢٦-٢٧ و٣١؛ كوراوغليان، ١٩٧٠، م. س. ص. ١٦؛ ميسيريان، م. س. ص. ١٣٥؛ طاشجيان، م. س..

٩ ميسيريان، م. س. ص. ١٣٦.



بيروت، لاجئون أرمن، بائعو خبز جوالون، في العشرينات.
مجموعة م.ن.ا.



سمان في مخيم بيروت.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي.

ما النشاط الوحيد الذي لا يندرج، على ما يظهر، في هذه القائمة، يتعلق بصناعة الحلي، التي يجري العمل فيها بمواد أولية باهظة الثمن، ويستلزم تصنيعها عدة خاصة، واستطراداً توظيف أموال. في غياب رأس ـ، اتسمت نشأة هذا القطاع بشيء من البطء، إذ كان لا بد من انتظار الخمسينات قبل أن ينطلق هذا النشاط الإنتاجي. وكان المشجعون عموماً من مواليد اسطنبول وحلب ومصر، وهم حرفيون لم يفتقروا إلى ... شأن اللاجئين الكيليكيين[10]. مع ذلك، فإن القسم الأكبر منهم استهل حياته المهنية في شركات إنتاج لبنانية كي يجمع الأموال الضرورية التي تسمح له بالعمل في استقلالية أو بالتعاون مع رجل أعمال أصيل. في هذه الحال الأخيرة، يقدم الممول الموصي المعدات والمادة الأولية اللازمة للإنتاج من دون أن يحتاج الحرفي إلى رؤوس أموال خاصة — وهذه عادة ما زالت متبعة إلى يومنا هذا في العديد من القطاعات. مع ذلك، لا يمكن أن نقلل من أهمية اليد العاملة المداومة في مجال صناعة الحلي. فحتى أيامنا الراهنة، لا تستطيع أية آلة أن تركب حجارة الماس كما يفعل متخصص؛ ومع أن نصيب عوامل الإنتاج الأخرى النسبي قد ازداد أهمية، فإن العملَ اليدوي لا يزال بدائياً في صناعة الحلي. ويمكن، في هذا الخصوص، اعتبارها جزءاً مكملاً من الاختصاصات الأرمنية، جزءاً يشكل معها قاسماً مشتركاً واحداً، ألا وهو العمل.

[10] كريستين بابكيان عساف: «الهوية الأرمنية: الحالة اللبنانية»، محاضرة ألقيت في اطار حلقة: حضور أرمينيا، جامعة القديس يوسف، بيروت ٢٠٠٣؛ كوراوغليان، ١٩٧٠، م. س.، ص. ٦٤؛ فاهه طاشجيان، محاضرة ألقيت في إطار حلقة: حضور أرمينيا، جامعة القديس يوسف، بيروت ٢٠٠٣.

رأس المال البشري : التقاليد كمصدر أساسي

حتى الآن، أمعنا النظر في الشروط الموضوعيـــة التي وجهت دمج الجماعة الأرمنيـــة في لبـــنان من الناحية الاقتصاديـــة. ولكن لا يمكننا أن نتجاهل أنها استفادت من مؤهِّل ذاتي، أعني به التقاليد الحرفيـــة المتعلقـــة بصناعة الحلي والأحذيـــة والأقمشة، الخ. فالأرمن، قبل الإبادة الجماعيـــة ونشوء عالم الشتات بأمد بعيد، كانوا نشيطين في هذه المهن[11]، أو كما قال لنـــا صائغ ــ جوهرجي في برج حمود: «إن الله، عندما خلق العمل، عهد إلى الأرمن بصناعة الأحذيـــة والحلي. هكذا في مقدورنا أن نستمر في الوجود ونتغلب على محن تاريخنـــا». هذا التقليد زوّد الجماعـــة ببعض المعارف النظريـــة والمهارات العمليـــة التي لم توهب لجميع الناس، وقد أحسنت الإفادة من هذا التفوق النسبي. ولم يكن تقسيم العمل الإثني نتيجة الظروف الموضوعيـــة للناجين وحدها، بل كان أيضاً نتيجة استعداداتهم الذاتيـــة، أي ثمرة مهارة يسميها علماء الاقتصاد رأس المال البشري [12]. ولا يقتصر رأس المـــال، كعامل إنتاجي، على الأموال الموظفـــة وحدها، ووسائل الإنتاج أو المخزون الاحتياطي، بل ينبغي كذلك أن يتضمن المعارف والمهارات والخبرات المنبثقـــة من تقليد حرفي انتقل في أغلب الأحيـــان من زميل إلى مواطن. وهكذا بقي راسخاً وسط الجماعـــة. فرأس المال البشري لا يعتبر ورقـــة رابحة وحسب، وإنما هو حصيلة عمليـــة استشراك، ولهذا السبب من الأصح الحديث عن «رأس مال ثقافي»[13] ــ على نحو ما فعل بورديو. ويتيح لنـــا هذا المفهوم أن نجيد تقويم العمل التربوي الذي تنظمه البيئة الاجتماعيـــة وفق نماذج جرت مأسستها إلى حد ما. فبالإضافـــة إلى النقل الوراثي من الأب إلى ابنـــه، تم إعداد الصناع المبتدئين في مكان العمل داخل المحترفات والمؤسسات التجاريـــة، أو في المدارس الأرمنيـــة الجديدة والمياتم المزودة بمحترفات للتعليم. وهكذا تدرب الشبان الأرمن المحرومون من التنشئة العائليـــة على مهن حياكة النسيج وصناعـــة السجاد، وفي بعض الحالات، على صناعة الأحذيـــة والزراعة[14]. وقد أسهم هذا الجهاز التربوي في إحيـــاء الإرث المهني للجماعة الأرمنيـــة وأتاح للشباب، الذين لم يتشربوا بعد هذا التقليد الجماعي، أن يتدربوا عليـــه.

إن الرجوع إلى الإرث الحرفي يساعدنـــا على فهم، ليس فقط آليـــة اندماج الأرمن في لبنان، بل كذلك ما أنجزه أرمن آخرون في أمكنـــة أخرى وفي بلدان المنفى الأخرى. ونجد حالات مشابهة، ولكن من دون أن تتقاطع بشكل كامل. فعلى سبيل المثال، تشكل حياكـــة النسيج الأساس المشترك، غير أنها في فرنسا تظهر على الأخص في حياكة القماش المحبوك[15]، بينما في لبـــنان يتم استيراد القماش من الخارج ليُقص ويُجمّع. وهذا يضفي على صناعة الألبسة الجاهزة طابعاً شديد التطابق مع الزي الحديث. واستعاد عالم الشتات الأرمنـــي في فرنسا تقليد معالجة الحرير[16]، لكن هذا التقليد أُهمل إهمالاً تاماً في لبـــنان، ولعل شدة اهتمام الجماعـــة المارونية به تشرح سبب التخلي عن تربيـــة دود القز[17]. وتكتسب أمثال هذه المقارنات أهميـــة لأنها تمتحن التفسير التقليدي لتقسيم العمل والطريقـــة الأساسية التي يتصورها رجال الأعمال. والمثل السابق يوضح تماماً هذه الرؤيـــة، ولكن من وجهة نظر مقارنـــة، لا يعتبر تأثير الإرث مبهماً إلى هذا الحد، وحتى أنه يفتقد إلى الاستمراريـــة إذا ما قارنا بين نشاطات الأرمن الاقتصاديـــة في الإمبراطورية العثمانيـــة وتلك التي يزاولونها في لبنان. وهكذا كثراً كان رعايا

١١ سوسنتزكي، م. س.، ص. ١١٨-١٢٠؛ كيفوركيان بابودجيان، م. س.، ص. ٦٥-٦٩؛ م. كانار، «انقسامات، إدارة، سكان. تجارة، منتوجات طبيعية وصناعة» في ه. أ. ر. جب، ج. ه. كرامرز، ليفي. بروفنسال، ج. شاخت، ب. لويس، ش. بلاً، «موسوعة الإسلام» لايدي/: باريس، باريس ١٩٦٠، ٦٦٥-٦٦٦.

١٢ غاري س. بيكر، «رأس المال البشري». تحليل نظري وتجريبي، مع إشارة خاصة إلى التربية، نيويورك ١٩٦٤.

١٣ بيار بورديو، «حالات رأس المال الثقافي الثلاث»، في أعمال البحث في العلوم الاجتماعية ٣٠: ٣-٦، ١٩٧٩.

١٤ بودجيكانيان ــ كوراوغليان، ١٩٨٢، م. س.، ص. ٦٢٧؛ كوراوغليان، ١٩٧٠، م. س. هذه التدريبات المهنية بدأت منذ ١٩١٩ في كيليكيا. بتنسيق مع السلطات الفرنسية، كانت إدارة هذه المشاريع الواقعية مؤمنة من مؤسسات إنسانية، أمثال الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، وجمعية حماية الأيتام الأرمن وجمعية الشرق الأدنى للإغاثة.

١٥ هوفنسيان، ١٩٩٢، م. س.، ص. ١٥٢؛ هوفنسيان، ١٩٩٥، م. س.، ص. ١٥٣-١٥٦.

١٦ هوفنسيان، ١٩٩٢، م. س.، ص. ١٥٤؛ هوفنسيان، ١٩٩٥، م. س.، ص. ١٢٧.

١٧ سوسنتزكي، م.س.، ص. ١١٧؛ د. شوفاليه، «مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في اوروبا»، باريس ١٩٧١.



مشغل للخياطة في مخيم
اللاجئين في بور سعيد.
مجموعة م.ن.ا

لسنطان الأرمن الذين تولوا مناصب عامة[18]، بينما هم إلى يومنا ممثلون بشكل متدن في الإدارة اللبنانية. ويبدو أن هذا الغياب الصارخ عن الوظائف العامة يؤشر إلى أن الأفضلية هي للقطاع الخاص، حيث يظل المرء سيد نفسه[19]. ولنمض قدماً في هذه المقارنة: كان الأرمن، في العهد العثماني، يهيمنون مع اليونان على التجارة والعمل الحرفي، أما في لبنان، فقد انعكس الوضع، إذ اندفع الأرمن أولاً إلى إنتاج المواد باعتبار أن تسويقها ليس إلاّ تتمة منطقية لها؛ فيما التوظف في مصرف أو في مكتب شركة فقد الكثير من أهميته، وكذلك الزراعة وتربية الماشية. ولم يعد أحد يتحدث عن صناعة السجاد، برغم أن العديد من الأيتام تعلموا هذه المهنة.

خلاصة القول، لا يتكرر الماضي بحركة تلقائية — لا في لبنان ولا في أي مكان آخر. والتقاليد الجماعية للجماعة ليست أسباباً جازمة تدفع باتجاه الاستمرارية، بل على العكس، تشكل إلى حد ما مخزوناً يمكن أن نجد فيه — إذا سمح الوضع بذلك — خيارات في متناول اليد. والأسباب التي من أجلها نرد الاعتبار إلى مهنة ما دون سواها تتصل أولاً بالسوق المحلية التي يجد الذين لا وطن لهم أنفسهم فيها. إن استذكار المرء لماضيه الحرفي منطقي فقط إذا استطاع هذا الاستذكار أن يوفر منفعة نسبية في إطار اقتصاد البلد المضيف.

18 جون أ. ارمسترونغ «عوالم الشتات المنقلة والبروليتارية»، المجلة الأميركية لعلم السياسة ٧٠ (٢)، ١٩٧٦، ص. ٣٩٣-٤٠٨؛ زنقر، م. س.

19 كورارغليان، ١٩٧٠، م. س.، ص. ٧١.

20 كوهاي ها شيموتو، «حركة السكان اللبنانيين ١٩٢٠-١٩٣٩: عبر دراسة»، ص. ٦٥-١٧٠ ورد في البرت حوراني ونديم شحادة، اللبنانيون في العالم: قرن من الهجرة، لندن ٢٠٠٢، ص. ٨٠-٨٢؛ عيساوي، م. س.، ص٧٩-٨٠؛ كوراوغليان، م. س.، ص. ٨٥-٨٦.

الاستقرار في الفراغ:
وظائف شاغرة في السوق المحلية

لم يكن لبنان، أثناء إنزال اللاجئين الأرمن من السفن، يعرف نشاطاً صناعياً مهماً. والصورة التي رسمها شوفاليه للبنان في القرن الـ١٩ يمكن أن تفيدنا لتمييز مستوى تطور العصر اقتصادياً. ففي الريف، كنا لا نزال نجد المجتمع الإقطاعي القديم الذي يعتمد على استغلال الموارد الطبيعية. هكذا كان كبار الملاكين التقليديين — الذين يعتاشون من مداخيل أراضيهم — يتواجهون مع طبقة صغار الفلاحين الناشطين في اقتصاد يقوم على تأمين المعيشة والزراعة التجارية. وكانت زراعة الفاكهة وبالأخص تربية دود القز تؤلفان النشاطين الرئيسيين[20] لهم. ولم يكن أي من هذين الاختصاصين

لقد وظف الأرمن طاقاتهم في جميع الميادين تقريباً: فهناك تجار، وسمانون، وجزارون، وبائعوخضار، وباعة جوالون، وخبازون، وصيادلة، وساعاتيون، ونجارون، وحدادون، وصرافون، وأصحاب مطاعم، وبائعو خمر، وأصحاب مقاه، ومنظمو أعمال اليانصيب، وحتى حمالون، وعمال وماسحو أحذية، الخ. إلى ذلك، قام السكان المحليون، من المسيحيين أو المسلمين، بمقاطعة غير معلنة لجميع هؤلاء [الأرمن]. ولم تكن مقاطعة أوحت بها حملة دعائية معينة أو عداوة مباشرة، بل رد فعل ناتج عن عملية دفاع عن النفس. وكانت هذه الظاهرة أشد بروزاً في المدن الصغرى منها في حلب، أو دمشق أو بيروت. من هنا صعب على الأرمن في هذه المدن الصغرى أن يزاولوا أي نشاط، واتفق أحياناً أن اتخذ السكان المحليون مواقف عدائية ضدهم.

يرفانت اوديان، «حياة الأرمن السوريين»، في «آريف»، ٣ تشرين الأول ١٩٢٤، القاهرة، السنة ١٠، رقم ١٧٠٤.



غزير، مشغل سويسري لصناعة السجاد للمكفوفين.
مجموعة ميشال بابوجيان





يتيمات أرمنيات يتعلمن التطريز تحت خيمة في نهر العمر، بجوار البصرة في العراق.
مجموعة م.ن.ا.

مشغل لصناعة السجاد في ميتم حلب الأرمني، وقد قام بإنشاء هذه المؤسسة القس اهارون شيراجيان إبان الحرب العالمية الأولى. وخلفه، في ١٩٢٢، ادور ليغونيان وتولى إدارة الميتم حتى ١٩٢٤، عندما قررت جمعية إغاثة الشرق الأدنى إقفال المؤسسة. فنقل آنذاك قسم من الأيتام إلى جبيل (بيبلوس).
مجموعة م.ن.ا.



يد عاملة من الأرمن الشبان وقد استُخدموا في البناء في بيروت في العشرينات.
مجموعة م.ن.ا



حدادون شباب أرمن داخل محترف الميتم الأرمني في حلب، مطلع العشرينات.
مجموعة م.ن.ا



محترف للنجارة داخل ميتم حلب الأرمني.
مجموعة م.ن.ا

يجهله الأرمن ذوو الأصول الريفيـــة[٢١]، غير أن معاودة القيام بمثل هذين الاختصاصين لم تكن صعبـــة فحسب ــ في غياب القدرة على الوصول إلى الموارد ــ بل كانت كذلك عملاً أرعن نظراً إلى السكان المحليين كانوا قد احتكروهما. فإغراق أسوق بتزويدها بما يتوافر فيها ميدانيـــاً لم يكن يشكل نظرة واعدة للاندماج الاقتصادي، ولا سيما أن هذا الاقتصاد الريفي كان يعاني عجزاً تـــاماً ويحث العديد من القرويين على الهجرة. فكان من الأجدى، بدلاً من توظيف المال في ميدان منكوب، البحث عن منـــاجم النشاطات غير المستثمرة، حيث لم يعمل أحد بعد، وحيث تخفي السوق المحليـــة وظائف شاغرة. أما الركيزة الأخرى للاقتصاد اللبـــناني فكانت التجارة الدوليـــة والشؤون الماليـــة. وهي ركيزة اقتصاديـــة لنخبـــة حضرية تمتلك الوسائل الضروريـــة للانطلاق في مثل هذه الأعمال[٢٢]. وكانت هذه النشاطات تلائم أيضاً مواصفات بعض اللاجئين الأرمن، ولكن لم يكن يناسبهم للأسباب ذاتها، توظيف أموالهم في هذا الميدان[٢٣]. فهم لو صادروا الحرير واستوردوا منتوجات أجنبيـــة لاصطدموا بمنافسة قويـــة من جانب البورجوازية المحليـــة. ومن جهة ثانيـــة، في ظل غياب رأس المـــال ــ وهو العامل الثالث للإنتاج ــ لم تكن غالبيـــة اللاجئين قادرة على إتيان ذلك. لهذا كانت وظائـــف السوق الشاغرة تتموضع في مكان آخر، في مستوى النشاطات الذي يفصل الاقتصاد الريفي عن التجارة الدوليـــة. وهكذا احتل العمل الأرمني مكاناً تُرك شاغراً عشيـــة تحديث الاقتصاد اللبـــناني، وهو مكان ــ كما سبقت الإشارة إليـــه ــ يتموضع قبل كل شيء في القطاع الثانوي. والقول إن الصناعة والحرفيـــة الأرمنيتين قد اقتحمتا ميادين يجهلها لبـــنانيو العصر هو، مع ذلك، مبالغ فيـــه. فالصناعة والحرفيـــة اللبنانيتان كانتا في بدايـــة نشأتهما، ولكن كان للأرمن في هذين القطاعين الآخذين في التطور تفوق نسبي يعود إلى إرثهم الثقافي.

نخب إقطاعية	طبقات وسطى	نخب بورجوازية
اقتصاد يرتكز على الموارد الطبيعية = قطاع أوّلي	اقتصاد يرتكز على العمل = قطاع ثانوي	اقتصاد يرتكز على رأس المال = قطاع ثالثي
الريف	ضواحٍ في طور التحضر	المدينة

ثم تغير الزمن وتحول المجتمع اللبـــناني في الوقت عينـــه الذي استقر فيـــه اللاجئون الأرمن، ففقدت الزراعة تدريجيـــاً أهميتها، وانخفضت مساهمة القطاع الأولي في الناتج المحلي، وأخذت الأرياف تخلو من سكانها. وتوجه الناس إلى المدن بحثـــاً عن ظروف معيشية أفضل. وبما أن السلطات العامة لم تشجع قط التطور الصناعي، تحقق النمو الاقتصادي في القطاع الثـــالث بشكل أساسي. ومنذ وقت مبكر، سيطرت الخدمات، وعلى الأخص التجارة والمصارف، على الساحـــة وأتاحت لرجال الأعمال كسب الأموال. وبموازاة ذلك، تطورت الدولـــة وأوجدت وظائف لعدد متنام من الموظفين (٥٣). وهكذا برزت، خارج النخب التقليديـــة والبورجوازية، طبقـــة وسطى بدأ سعيها وراء حركية متصاعدة يركز حتماً على المنتوجات الجديدة ذات الأسعار المتدنيـــة. في هذه الفترة بالضبط، كان المرحلون الأرمن على موعد مع التاريخ، إذ إن الطلب المتعاظم من قبل هؤلاء الزبائن قام بتلبيتـــه نشاط الجماعـــة الحرفي والصناعي والتـــجاري. ونظراً إلى ان إنتاجهم كان محليـــاً، تمكنوا من بيع أحذيـــة، وجزادين، وألبسة ومجوهرات، الخ.، بأسعار ادنى من أسعار المنتوجات المستوردة. ومن ناحيـــة أخرى، كانت الرسوم الجمركيـــة في الدولة اللبـــنانية تسمح بفرض ضرائب على الاستيراد،

٢١ سونتزكي، م. س.، ص. ١١٦-١١٨؛ كيفوركيان وبابودجيان، م. س.، ص. ٦٥-٧١.

٢٢ البرت حوراني، «تاريخ الشعوب العربية»، لندن ١٩٩١؛ عيساوي، م. س.، ص. ٢٤ و١٦٧-١٦٨؛ ش. عيساوي، تاريخ الشرق الاوسط الاقتصادي، ١٨٠٠-١٩١٤: كتاب مطالعات، شيكاغو/ لندن ١٩٦٦ (١٩٨٨)، ص. ٢٣-٢٩؛ ميتشيل جونسن، «تاريخ بيروت الاجتماعي ــ الاقتصادي، ١٨٤٠-١٩٧٠» في م.ن.: الطبقة والزبون في بيروت. الطائفة الاسلامية السنية والدولة اللبنانية ١٨٤٠-١٩٨٥. لندن ١٩٨٦؛ رزجر اوون، س. باموك، «تاريخ اقتصادات الشرق الاوسط في القرن ٢٠»، لندن ١٩٩٨، ص. ٦٤-٧٥.

٢٣ حوراني، ١٩٩١، م. س.؛ عيساوي ٢٠٠٢، م. س.، ص. ٢٧-٢٩؛ عايده كوراوغليان ــ بوشجيكانيان، «بيروت ١٩٢٠-١٩٢١: من حاضرة نامية إلى ميدان حرب»، ورد في فاديا كيوان، «لبنان اليوم»، باريس ١٩٩٤، ص. ٢٦٦-٢٦٧؛ اورن وباموك، م. س.، ص. ٦٤-٧٥.



شابة على آلة حياكة في مخيم حلب،
فوتو فارطان ديرونيان ـــ مجموعة م.ن.ا

وتحمي الإنتاج المحلي من المزاحمة الدولية التي كانت في السابق ألحقت الأذى بنشاط المنطقة الحرفي [٢٤]. وإضافة إلى نظام الحماية هذا، كان للحرب العالمية الثانية تأثيرات هامة على تطور إنتاج البلاد. وكان جميع الأفرقاء اللبنانيين تقريباً يخوضون معركة؛ فالتجارة الدولية مضطربة بقوة والواردات بالتالي محدودة. كل هذا أدى إلى ارتفاع الأسعار ووجّه طلب المستهلكين نحو المنتوجات المحلية. واستفادت الصناعة والتجارة الأرمنية من ذلك واستغلتا غياب المنافسة الدولية لإعادة توظيف أرباحها المحققة. و لم تعد الجماعة الأرمنية مترددة، بل ثبتت قدميها على أرض صلبة في بلاد الأرز، وهكذا أسهمت في تحديث الاستهلاك في لبنان. وفي الإطار نفسه، أطلق العديد من الأرمن تقنيات العصر الجديدة كصناعة الساعات والتصوير الفوتوغرافي والأجهزة المترلية الكهربائية. وباختصار تنوعت الاختصاصات على مر السنين، متكيفة مع متطلبات البلد ومتغيرة على نطاق واسع، ولكن من دون أن تعيد إلى بساط البحث مبدأين أساسيين، وهما: أن النشاط الاقتصادي الأرمني توجه أولاً إلى الزبائن اللبنانيين أو العرب و لم يلتفت إلى حاجاته الخاصة كما يلاحظ ذلك أحياناً في الاقتصادات الإتنية للمهاجرين الأتراك والمغربيين التي تطورت مؤخراً في أوروبا. وثانياً تم احترام مبدأ تقسيم العمل بعناية فائقة[٢٥].

إن الجماعة الأرمنية، ببحثها عن الفراغ وملء المواقع التجارية الشاغرة، استطاعت أن تلبي حاجات السوق اللبنانية المتطورة، ولكن من دون أن تصدم، مع ذلك، العرض القائم. إذاً كان نجاح اندماجها الاقتصادي مرتبطاً ارتباطاً جوهرياً بتكاملية ما كان على الأرمن أن يقدموه لبلد المنفى — وهذا إثبات لحالة تذكّرنا بالقضية الأساسية التي طرحها دركهايم في شأن تقسيم العمل.

«إن تقسيم العمل هو إذاً حصيلة الصراع من أجل البقاء، وهو حل مخفف له، بفضله لا يضطر المتنافسون في الحقيقة إلى إلغاء بعضهم بعضاً، ولكن يستطيع واحدهم أن يتعايش إلى جانب الآخر. كما إنه، كلما تطور، قدم لعدد أكبر من الأفراد الذين قد يحكم عليهم بالزوال في مجتمعات أكثر تجانساً، الوسائل الكفيلة باستمرارهم وبقائهم على قيد الحياة» [٢٦].

٢٤ كمال الصليبي، «بيت بمنازل كثيرة، تاريخ لبنان: نظرة معادة»، بركلي ١٩٩٨، ص. ١٦؛ عيساوي ١٩٨٨، م. س.، ص. ٢٤ و١٦٧-١٦٨؛ عيساوي ٢٠٠٢، م. س.، ص. ٢٦؛ كيفوركيان بابودجيان، م. س.، ص. ٦٨.

٢٥ كوراوغليان ١٩٧٠، م. س.، ص. ٨٠ و٨٦؛ بونجيكانيان وكوراوغليان، ١٩٨٢، ص. ٦٤٣؛ هاري كاشجيان، «المساهمة الأرمنية في تاريخ صنع المجوهرات اللبنانية»، بحث لنيل الماجستير في علم الاجتماع، الجامعة اللبنانية، كلية العلوم الاجتماعية ٢، ٢٠٠٣، ص. ٣٠.

٢٦ اميل دركهايم، «تقسيم العمل الاجتماعي». باريس ١٩٩٨، ص. ٢٥٣.

لقد اندمج الأرمن في لبنان لأن دورهم لم يكن بالضبط شبيهاً بأدوار الآخرين. فعرضهم المكمّل صادف طلباً دَمَجَه في السوق المحلية. ووجد الاقتصاد الأرمني، بتوجهه إلى الجماهير الحضرية والطبقات الوسطى التي كانت تبحث عن تحديث الاستهلاك، مكانه الصحيح. وأسهم الأرمن، بتأمين الخدمات لهؤلاء الزبائن الجدد — وبشكل مميز — في تطوير مجتمع لبناني في ذروة التبدّل. وهكذا أصبحت أرض المنفى أرض استقبال، وبات من لا وطن لهم مدعوين، وأفسح الإبعاد عن تركيا مجالاً للاندماج في لبنان.

روح الإقدام لدى الأرمني التائه

يعتبر تقسيم العمل ظاهرة معقدة، ولشرح نجاحه لا يمكن ملاحظة المظهر البنيوي للأشياء فقط. وإنما للأفراد أيضاً روح وقلب، حس ومشاعر. وبتعبير آخر، إن النشاط الاقتصادي هو كذلك عمل عاقل، وفي الحالة الراهنة متسم بفكرة العودة إلى الوطن. وعلى الرغم من أن حضور الجماعة الأرمنية في لبنان بدا متواصلاً بالنظر إلى الماضي، وأن الذين لا وطن لهم نالوا الجنسية في وقت سريع جداً، فإن فكرة العودة طالما شغلت النفوس. فالمنفيون الأرمن لم يكونوا يأملون في إسكانهم نهائياً في لبنان، ولم يكن أملهم



القدس، مشغل نجارة في ميتم اراردیان التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية. تأسس هذا المشغل مطلع شباط ١٩٢٢ داخل حرم دير مار يعقوب في القدس، وتحديداً في حيّ بقتشه وتشام. وكان يضم ٥٤٥ صبياً، معظمهم من فان واذربيجان الإيرانية. تم تجميع هؤلاء الصبيان بداية في بعقوبة في العراق، لكن عندما رفضت السلطات البريطانية إعالتهم، اتفقت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية مع جمعية إغاثة الشرق الأدنى على أخذ هؤلاء الأيتام على عاتقهما المشترك، بعدما قبل البريطانيون ترحيلهم إلى فلسطين. وكان للميتم مشغل لتعليم صناعة الأحذية، حيث كان ثلاثون صبياً يتعلمون المهنة. أما الأيتام الذين تجاوزوا السادسة عشرة فكانوا يعملون لدى حرفيين (نجارين، ومصممي هياكل بناء، ومصورين، الخ....) في المدينة ويعودون إلى الميتم عند المساء.
مجموعة م. ن. ا

يرى فيه إلاّ مكاناً انتقالياً، فهم موجودون فيه بصفة ضيف عابر[27]. كما إن للموقت انعكاسات اقتصادية، إذ إنه يضع الفرد في منظور بعيد الأجل يربط الحاضر بشرط رحيل قادم. وهكذا يكون المرء مستعداً للقيام بتضحيات، وللعمل بكد وتفان خلال ساعات طوال كي يؤمن احتياطات من أجل العودة المحتملة إلى الوطن، وحتى لو لم تتحقق هذه العودة، فإن الانتظار ينمّي، في هذه الأثناء، عقلاً نشيطاً يسعى إلى جمع المال، لا لينفقه ولا «ليتظاهر» به، ولا ليستسلم لملذات الاستهلاك المباشر. هذا المال يتم توفيره وتوظيفه في النشاطات الاقتصادية التي تولّد أرباحاً، وتوظف هي الأخرى بحيث يمكن أن تتحقق عملية التكديس. وهكذا أيقظت تجربة عالم الشتات عقلاً رأسمالياً وقوّته، عقلاً حاول أن يسد النقص في رأس المال بانتهاج أخلاقية جادة ومثابرة. وهذا يعود بفوائد: فبعد التنمية الاقتصادية التي تلت الحرب العالمية الثانية، قدّرت الباحثة كوراوغليان عدد المليونيرين الأرمن بخمسة وثمانين. وفي أواخر الستينات، تحدثت عن مئة ثروة ضخمة على الأقل[28]. فأخلاقية العمل والمنظور البعيد الأجل إئتلفا ودعم كل منهما الآخر: هذه ظاهرة سبق أن أمدت التنمية الاقتصادية المستديمة بالزخم في سياقات أخرى.

وجهة النظر التي تقوم على الموقت لدى الأجيال الأرمنية الأولى لم تشرح تراكم رؤوس الأموال فحسب، بل إنما وجّهت روح الإقدام عندهم نحو نشاطات اقتصادية نوعية، تلك التي لا تستوجب تجذراً في الأرض المحلية. وبما أنهم موجودون بصفة عابرة، فهم يفضلون أشغالاً يمكن حملها نوعاً ما وتسمح لهم بتحرير رأس المال بشكل سريع نسبياً استعداداً للرحيل والهرب من دون خسارة مهنتهم، والعودة — إن شاء الله — إلى البلاد. هكذا يتحاشى الأرمني التائه نشاطاً يتطلب توظيف أموال طائلة في العقارات، وفي البنى التحتية الصناعية الكبرى التي تتجذّر، بكل ما للكلمة من معنى، في أرض غريبة. ما يفضله بالدرجة الأولى هو سيولة رأس ماله، وتالياً فإن النشاطات التي يقع خياره عليها هي التجارة والأعمال المالية، والمهن الحرة والحرف المعتمدة أولاً

٢٧ يستلهم التحليل التالي العمل الذي أنجزه بوناسيش (١٩٧٣).
٢٨ كوراوغليان، ١٩٧٠، م. س.، ص. ٨٦٥.



محترف للتطريز داخل ميتم كلكيان في بيروت، عام ١٩٢٩، وزيارة القس السويسري انطوني كافت — بونار
فوتو آبل، مجموعة م.ن.ا.

على المهارة غير القابلة للتصرف. وقد سبق ذكر الأسباب البنيوية التي كانت تجعل الخيارات الأولية مستحيلة. إن اختيار البدائل كصناعة الأحذية والألبسة والحلي ومهن أخرى مماثلة يتخذ مع ذلك معنى جديداً، عندما نشرك فيه فكرة العودة. إنها ليست نشاطات تقليدية وذات قيمة عمل عالية فقط، بل هي، إلى ذلك، غير قابلة للتصرف بها[٢٩]. فلا أحد يمكنه أن يصادر السيطرة على هذه المهن، وبمجرد أن يتم اكتساب هذه المهارات، تبقى في الواقع قابلة للحمل. مثلما من الممكن نقل مثل هذه النشاطات من مكان إلى آخر، وتظل البنى التحتية إلى حد ما في حدودها الدنيا — فيما لو تمت ممارستها على مستوى حرفي — والدوران بين توظيف المال والربح يجري بسرعة كافية شرط عقد صفقات جيدة. تندمج هذه النشاطات في الإطار الانتقالي الذي دخل به اللاجئون إلى لبنان ووجدوا فيه مكاناً لهم.

على هذا النحو بدأ اندماج الأرمن الاقتصادي، وبقدر ما بدت فكرة العودة وهمية، أخذ الاقتصاد الأرمني في تغذية إعادة البناء الطائفي في لبنان. الواقع أن عدداً كبيراً جداً من رجال الأعمال أدوا جزءاً من أرباحهم الخاصة للجماعة من أجل إنشاء مؤسسات وبنى تحتية سليمة، لذا استخدمت الجماعة غير المتمتعة بالجنسية والمحرومة من وطنها الاقتصاد الإتني لإرساء أساس مادي، استطاعت أن تشيد عليه بنية فوقية من التنظيمات القادرة على صون ثقافتها وتلبية حاجاتها المختلفة. إن نجاح الاندماج الاقتصادي يسّر إذاً إقامة استقلالية اجتماعية، سمحت هي بدورها بحسن إدارة الأمور وسط الجماعة نفسها. ونظراً إلى ضعف الدولة اللبنانية في القطاع العام[٣٠]، لا ينبغي أن نندهش من أن البنى الطائفية لا تقتصر على الكنائس الأرمنية وحدها. فثمة أيضاً وسائل اعلام، ومدارس، ومستوصفات، ومنظمات خيرية، وأحزاب سياسية وحياة اجتماعية وثقافية ورياضية، يتجلى فيها الانتماء الطائفي بوضوح. على هذا النحو، اندمج الأرمن في لبنان من دون أن يفقدوا مع ذلك هويتهم، بل بالعكس لقد رعتها المنظمات المختلفة القائمة بعناية تامة في هذا البلد الذي تبناهم. ولكن لا يمكن، رغم ذلك، التأكيد أن هذا الاندماج سيكون بصفة مستمرة، إذ إن المهام التي يمارسها الأرمن التائهون تسمح لهم دائماً بحزم أمتعتهم والرحيل. وفي كل حال، لقد خفضت الحرب الأهلية بشدة عديد الطائفة، إذ غادر لبنان ثلثا الأرمن تقريباً منذ وقوع تلك الأحداث.

٢٩ ثمة مثل أرمني يقول: «يمكنهم أن يسرقوا سوارك الذهبي، ولكن لا يسعهم أن يسرقوا مهنتك» (هوفنسيان، ١٩٩٢، م. س.، ص. ١٤٨). للسبب نفسه، كان عالم الشتات اليهودي قد تخصص، من بين أمور أخرى، في الطب (ارمسترونغ، م. س.، ص. ٣٩٧).

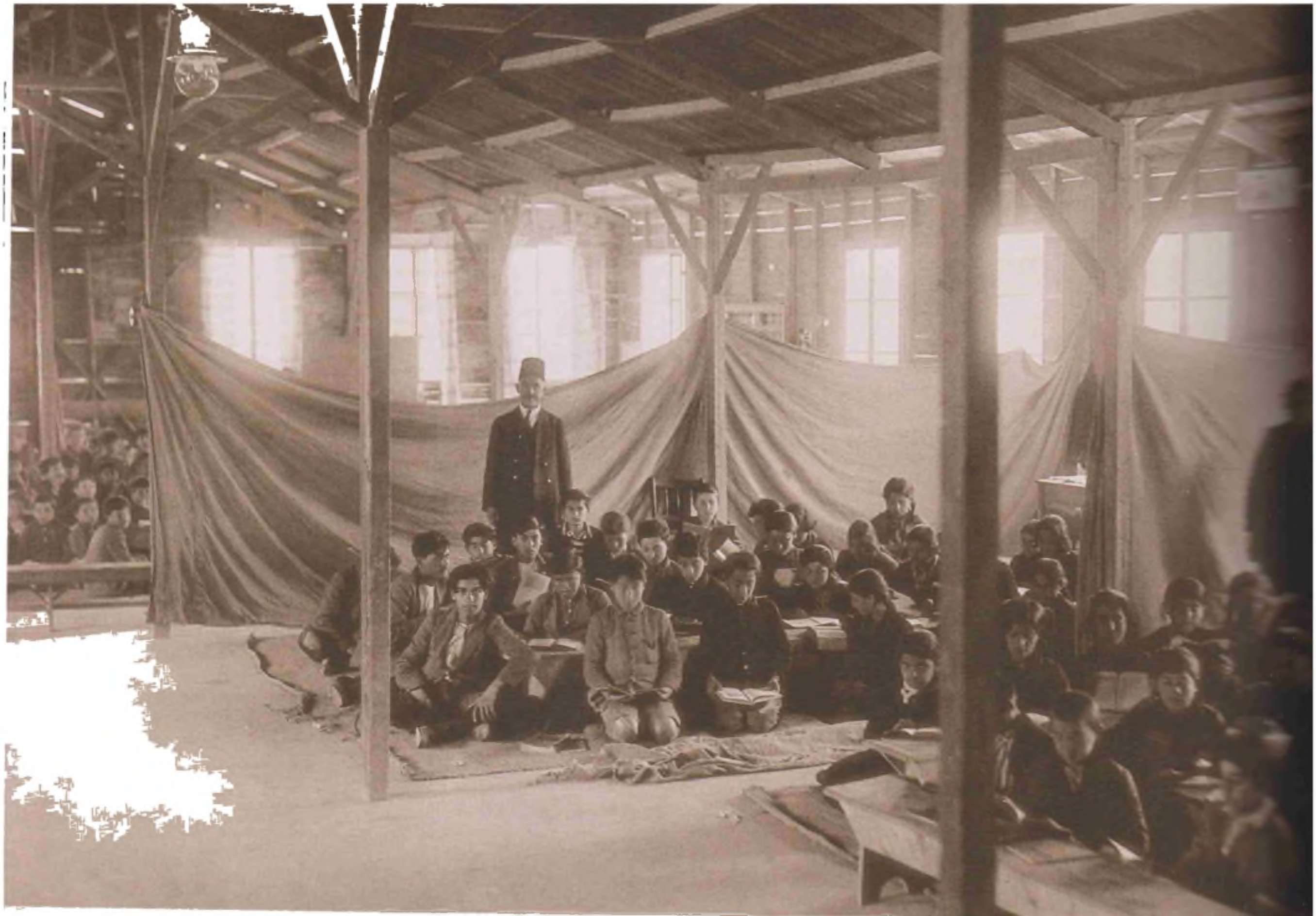
٣٠ تياري كوشويت، «بؤس لبنان، القليل من الدول والعديد من حالات التضامن الخفي»، مجلة العالم الثالث، العدد ١٧٩، ٢٠٠٤، ص ١٥-٣٧.



محترف خياطة في ميتم كلكيان في بيروت عام ١٩٢٩. يتيمات شابات يتعلمن مهنة الخياطة التي تقوم بتدريسها السيدة ريتا مانكيان (في الوسط). إلى اليسار القس السويسري انطوني كرافت ـــ بونار.
فوتو آبل، مجموعة م.ن.ا



انطلياس في مطلع العشرينات. أولاد «المدرسة ــ الميتم» التابعة لجمعية إغاثة «الشرق الأدنى» على شاطئ البحر. (مجموعة مرن.)



مدرسة في مخيم للاجئين في حلب.
فوتو فارطان ديرونيان ـــ مجموعة م.ن.ا

استئناف التقليد المدرسي

المدرسة والهوية القوميتان

بقلم كريكور شاهينيان

الأحداث السابقة

من الصفات المميزة لأسس التربية نفسها أنها ارتكزت على الشعور القومي منذ اختراع الأبجدية الأرمنية في القرن الخامس للميلاد، وتحديداً عام ٤٠٥. إذ كانت مملكة أرمينيا قد فقدت، في ٣٨٧، استقلالها السياسي وصارت موزعة بين الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية البيزنطية. لذا كان لا بد من الحفاظ على استقلالها الثقافي والديني، من خلال تزويدها بأبجدية قومية. وأعقبت هذا الحدث الرئيسي حركة ثقافية كثيفة: ففتحت مدارس، وشرع تلاميذ ماشدوتس وساهاك يعكفون على ترجمة الكتاب المقدس ويرسون قواعد الأدب الأرمني الذي بلغ ذروته منذ انطلاقته الأولى. ولهذا دُعي القرن الخامس عن حق «القرن الذهبي». وصار الهم الرئيسي طوال القرون التالية جميعها الحفاظ على الثقافة الأرمنيـــة وإثراءها، هذه الثقافة الضامنة للهوية القومية.

على أن القلق على الهوية ذاته، ومع مراعاة النسب، هو الذي شكل الحافز بالنسبة إلى قادة الأرمن الغربيين في أواسط القرن الـــ١٩، عندما بدأوا يعدون الدستور المسمى «القومي» لأرمن الإمبراطورية العثمانية، ويحددون، في المناسبة عينها، المميزات الأساسية للمدرسة الطائفية، وقد دُعيت هي الأخرى «قومية». هذا الدستور المصادق عليه في ١٨٦٣، هو القانون الأساسي للملة الأرمنية التي قادها بطريرك القسطنطينية والأجهزة المنتخبة لمساعدته في مهمته. وقد ورد في مبادئه العامة: «*من واجب الأمة تجاه الصبيان والبنات، أياً كانت اعمارهم، توفير المعارف الضرورية للإنسان*». فالتعليم، باعتباره واجباً وطنياً، هو إذاً شامل وعام، لأنه يعد سمة الإنسانية ويشمل كلا الجنسين من دون تحديد السن. وهو كذلك وطني وبخاصة يريد أن يغرس في الشباب حب الأمة والإحساس بالمسؤولية حيالها وحيال الكنيسة الرسولية، وهما متآلفان تآلفاً وثيقاً في أذهان الناس كما في الواقع الاجتماعي. وتتحدث المادتان ٤٥ و٥٢ من الدستور عن تنظيم هذه التربية القومية. فهناك «مجلس تربوي»، وهو جهاز مركزي يُناط به تحديد المبادىء العامة وإعداد المنهاج المدرسي؛ وثمة «مجالس أحياء» مهمتها إدارة المدارس، كما هي مسؤولة عن الكنيسة أيضاً وعن شؤون الحي العامة، كما يمكنها، عند الضرورة، تعيين حكام إسبرطيين تقتضي مهمتهم الاهتمام بالمدرسة لا غير. وهكذا تم إنشاء شبكة كاملة من المدارس الطائفية في مختلف أحياء القسطنطينية وفي مدن المقاطعات. وكانت هذه المدارس ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة، وتقود تلاميذها إليها بمناسبة الأعياد وتؤمن لهم تعليماً دينياً يُعتبر جزءاً مكملاً من المنهاج. فالأمر إذاً يتعلق بتربية قومية حقيقية، وثيقة الارتباط بمعتقدات الأرمن وتقاليدهم.

بعد عشرة أعوام على المصادقة على الدستور ووضعه موضع التنفيذ، دعت الحاجة إلى تحديد معنى التربية الأرمنية ودورها. عندها صاغ ميناس تشيراز، وهو مربّ معروف سرعان ما دُعي للعب دور سياسي كبير، مقترحات ضمن إطار عمل لجنة ؛ سنة ١٨٧٦، نُشر تقريره تحت عنوان «التربية القومية»، وقد جاء فيه: «*أقترح أن يُدرّس الطفل الأرمني في المدرسة الابتدائية الأرمنية ما يميّز الأمة الأرمنية عن الأمم الأجنبية: ديانتها، ولغتها وتاريخها*»[١]. إن القصد واضح، ولكن الاستعمال المتكرر لكلمة «أرمني» يلفت الأنظار إليها أكثر. وسوف ينوّه تشيراز لاحقاً بالدور الحصري الذي يخص به التربية الأرمنية: «*أقترح أن يؤسّس التعليم الابتدائي على التربية القومية دون سواها*» [٢].

ظلت هـــذه الـــروح مهيمنـــة في المـــدارس حتى نهايـــة القرن الـــــ١٩. وحـــاول نظام السلطان عبد الحميـــد الـــفـــردي خنقها أو حتى منع

١ ميناس تشوراز، التربية القومية، القسطنطينية ١٨٧٦، ص. ٥٢.
٢ م.ن. ص. ٦٩.



مدرسة دير الزور الأرمنية، ١٩٢٨ ــ ١٩٢٩.
مجموعة م.ن.ا

تدريس التاريخ القومي، غير أن المدرّسين تجنبوا الصعوبة ببثهم فكرة وطنية في تاريخ بطريركية القسطنطينية الذي لم يكن مشمولاً بالمنع. صمدت شبكة المدارس القومية في وجه مضايقات السلطان الأحمر ونواهيه. وأضيفت إليها مؤسسات تربوية أخرى: المدارس الأرمنية الكاثوليكية، وبخاصة تلك التابعة للآباء المخيتاريين، والمدارس الأرمنية البروتستانتية التي بعث الروح فيها المرسلون الأميركيون، ومدارس خاصة أسسها مربون مرموقون أمثال ريتيوس بربريان، تلميذ لامنيه، وتلغادندسي، كاتب محلي وحرب عصامي، وهوفهانس هنتليان، أحد أتباع «المدرسة الجديدة». وعليه، عرفت المدرسة الأرمنية ازدهاراً غير عادي عقب ثورة الشبان الأتراك الظافرة في ١٩٠٨، غير أنها عانت كذلك، شأنها شأن جميع مؤسسات الأرمنية القائمة في الإمبراطورية العثمانية، أهوال الإبادة الجماعية والمنفى.

وبالطبع، تعطلت التربية في خلال سنوات المنفى. غير أن الدفاع عن الهوية القومية لم يطوها، مع ذلك، النسيان. إذ تم تأمين العلم للشباب، كلما أمكن ذلك، في مياتم ومؤسسات مؤقتة. وصورة المرأة الأرمنية التي تعلّم ولدها الأبجدية على رمل الصحراء، حقيقية كانت أم رمزية، تختصر بشكل رائع روح الدفاع الذاتي وغريزة البقاء اللتين كانتا آنذاك تبثان الحياة في الناجين من الإبادة الجماعية.

مدارس المشرق في العشرينات

إن الهجرة الجماعية لم تلغ التقليد المدرسي، فظل على قيد الحياة في مدارس القسطنطينية وحلب، لا بل استمر في بيروت قبل إسكان اللاجئين بصورة نهائية وبعده. ويمكن اعتبار عام ١٩٢١ تاريخ استئناف التقليد المدرسي، واعتبار المؤسسات التي أنشئت قبل هذا التاريخ بمثابة مقدمة لتاريخ مدارس المشرق. وكانت في حلب مؤسستان تعودان إلى القرن الـ١٩ هما: مدرسة هيكازيان القومية ومدرسة الشهداء الإنجيلية.



مدرسة ساهاكيان في مخيم بيروت الكبير، ٣٠ حزيران ١٩٣١.
مجموعة م.ن. ا



مدرسة سن الفيل، بيروت. في الوسط، جالساً، المطران كاراكين هوفسبيانتس.
مجموعة م.ن. ا

مدرسة خضربك (قرية جبل موسى). في الوسط، ك. آرويان مدير الشبكة المدرسية في جبل موسى، وتضم قرى خضريك، ويوغون اولوك، وفاكف، وهادجي هابيلي، وبتياس وكابوسيه
مجموعة م.ن. ا



حصة دراسية في مدرسة اتحاد مرعش المناطقي، داخل كنيسة أرمنية في حلب، ١٩٣٨-١٩٣٩.
مجموعة م.ن.ا



أُضيفت إليهما، في ١٩١٠ و١٩١٣، مدرستان كاثوليكيتان هما مدرسة القديس غريغوار للبنين ومدرسة هربسيميانتس للبنات.

أما في بيروت، فلم يكن سوى مدرسة وطنية صغيرة، تأسست في ١٩٠٢ بجوار كنيسة القديس نيشان، وكانت تابعة لبطريركية الأرمن في القدس، وتقوم بخدمة الحجاج المتوجهين إلى الأراضي المقدسة. غير أنها أقفلت في ١٩١٥ وهُدمت الكنيسة، ولم تعاودا نشاطهما إلا بعد انتهاء الحرب. ثم أضيفت إليهما مدارس جاءت وليدة حاجات جديدة.



مدرسة أرمنية في دمشق.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



عرض مسرحي في المدرسة — الميتم كلكيان التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في دورتيول، ١٩٢٠ — ١٩٢١.
مجموعة م.ن.ا

مدارس سوريا

أُقيمت الشبكة المدرسية في سوريا قبل إقامتها في لبنان، وذلك لسبب بسيط هو أن الناجين من الإبادة الجماعية استقروا في سوريا، ولو بصورة مؤقتة، قبل البحث عن ملجأ لهم في لبنان. ثم كانت في حلب مطرانية تابعة لكاثوليكوسية كيليكيا، وطائفة أرمنية حسنة التنظيم. ولم تصل موجات اللاجئين الأرمن مباشرة إلى لبنان، ولا سيما بيروت، إلاّ بعد جلاء الفرنسيين عن كيليكيا. ويدور الحديث، في حوليات تلك الحقبة، عن مدرسة إنجيلية باسم «إمانويل» تأسست عام ١٩٢١. أهي مدرسة الصبيان التي دار الكلام عليها في ١٩٢٣ وغدت في ما بعد «مدرسة حلب» (*Aleppo College*)؟ كما دار الكلام على مدرسة إنجيلية عالية للبنات أنشئت عام ١٩٢٢، واتحدت، بعد أربعة عشر عاماً، مع مدرسة الصبيان التي تغيّر اسمها وتنظيمها.

وشهد عام ١٩٢٢ فتح ثلاث مدارس أخرى: مدرسة كيليكيان في حلب، ومدرسة الشهداء في اللاذقية ومدرسة ساهاكيان في دمشق. إذاً، عند جلاء الفرنسيين عن كيليكيا، كان تنظيم التعليم القومي قد انطلق على نحو مرض في حلب وفي المدن السورية الأخرى، وسوف يتواصل طوال العقد بكامله. وفي ١٩٢٣، فتحت في حلب بعض المدارس التي تولت إدارتها اتحادات مواطنية، فيما كانت مؤسسات أخرى تضطلع بعملها في حمص، وحماه، ودمشق والاسكندرون. والرزنامة السورية — الأرمنية لعام ١٩٢٥ تعطينا التفاصيل التالية:

- في حلب يعيش ٤٨٠٠٠ أرمني، منهم ٣٥٠٠ لاجىء. ويُقدَّر عدد التلاميذ في المدارس القومية بـ ١٠٠٠ تلميذ.
- في حماه وحمص يعيش ١٢٥٠٠ أرمني، ويبلغ عدد التلاميذ ٤٠ تلميذاً[٣].
- في دمشق يعيش نحو ١٠٠٠٠ أرمني ويصل عدد التلاميذ إلى ٤٨٠ تلميذاً.

٣ يبدو هذا الرقم غير متناسب، ينقصه على الأرجح صفر واحد، ولكننا لا نملك معطيات تجيز لنا تصحيحه.

- في الاسكندرون يعيش ١٢٠٠ أرمني ولهم مدرستان: واحدة وطنية، والثانية تتولى إدارتها الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية.

ولاستكمال الصورة ينبغي أن نضيف أن مدرسة فرنسية ـــ أرمنية تولت إدارتها إرسالية اليسوعيين الأرمنية، تأسست في ١٩٢٣ في دمشق. واستأنفت العمل حتى ١٩٤٥[4].

وفي ١٩٢٤، فتحت مدرسة (نوباريان) في الرقة. وفي السنة نفسها مدرسة أخرى (نرسيسيان) في مخيم اللاجئين في حلب؛ وفي ١٩٢٦، جُهزت كل من كسب وتل الأبيض بمدرسة؛ وفي ١٩٢٧، فتحت مدرسة ساهاكيان في حلب، بينما بدأت مدرسة غامضة العمل لتقفل أبوابها في السنة التالية «بسبب خلافات نشبت بين مواطنين»[5].

أما في سنة ١٩٢٨، فلم يعلَن عن تأسيس أية مدرسة في المصادر التي تمت مراجعتها، غير أن عام ١٩٢٩ شهد فتح «مدرسة موحدة» في دمشق، يبدو أنها حلت مكان دار حضانة كانت الأديبة إيلين بوزانت مسؤولة عنها. وانتهى العقد بافتتاح مدرسة كولبنكيان عام ١٩٣٠.

وطبعاً لم يتوقف تنظيم الحياة المدرسية عند هذا الحد، وإنما بدأ طور جديد من تاريخ المدارس في المشرق. فواصلت حياة الأرمن الطائفية تنظيم شؤونها وتابعت شبكة المدرسية تطورها. وغداة الحرب العالمية الثانية، كان في مطرانية حلب وحدها في سوريا الشمالية ٤١ مدرسة قومية، منها ١٢ مدرسة داخل حلب نفسها. وبلغ عدد التلاميذ الإجمالي ٦٥٠٠، ولكن ثمة مدارس لم يتجاوز عدد تلامذتها الخمسين تلميذاً[6].

٤ مثلت هذه الإرسالية دوراً هاما في تربية الشباب الأرمن. وفضلاً عن هذه المدرسة في دمشق، هناك مؤسسات يسوعية أدت عملها في حلب (القس فارطان)، وفي بيروت (القس غريغوار والقديسة شوشان) وفي كيريك خان.

٥ الكتاب التذكاري لمناسبة مرور ٦٠ عاماً على تأسيس مدرسة كوللابي كولنكيان ـــ ساهاكيان في دمشق. دمشق ١٩٨٩، ص. ١٥.

٦ الذكرى الخمسينية لتأسيس مدرسة كارن جب، حلب، ١٩٩٨، ص. ١٢.

مدارس لبنان

أخذت الحياة المدرسية تنتظم بعد انتظامها في سوريا، غير أن التقدم الذي أُحرز كان سريعاً أيضاً. وقد تسارعت الحركة خصوصاً في ١٩٢٣. قبل هذا التاريخ، كان هناك مدرسة معروفة باسم كوللابي كولبنكيان في جونيه تأسست في ١٩٢١؛ ومدرسة إنجيلية في زحلة ومدرسة كاثوليكية (هربسيميانتس) في بيروت، وكلتاهما تأسست عام ١٩٢٢. وبحسب المعطيات الواردة في الروزنامة السورية الأرمنية السابق ذكرها، فتحت ثلاث مدارس طائفية أبوابها، وهي رسولية وكاثوليكية وإنجيلية. الاثنتان الأوليان كانتا داخل مخيم اللاجئين والثالثة في قلب المدينة. وبجوار كنيسة «سورب خاتش» (الصليب المقدس)، مدرسة انترانكيان ـــ ساهاكيان التي تولى إدارتها يريم دوهموني، عضو جمعية كاثوليكوسية كيليكيا. وقد نقلت هذه المدرسة، بعد حريق المخيم في ١٩٣٣، إلى مخيم هادجين. واستخدمت كنيسة مخيم المدور الكاثوليكية كمدرسة أيضاً. وكانت بإدارة الأب جان ميسيريان اليسوعي، وأصبحت لاحقاً مدرسة القسيس غريغوار في حي الجعيتاوي. أما المدرسة البروتستانتية فكان يديرها بدروس كاردزاير.

هكذا تمت مراعاة التقليد: المدرسة والكنيسة، المرتبطتان ارتباطاً عضوياً هما من المؤسسات القائمة داخل الحي، إذا جاز لنا أن نسمي حياً مدينة أكواخ مبنية بصفائح وأخشاب اتخذها المرحلون المقتلعون من ديارهم ملجأً لهم، مثلما تمت مراعاة التقليد في أماكن أخرى، في أحياء الأشرفية وبرج حمود الجديدة، حيث استقر اللاجئون. فبجوار كل كنيسة، قامت مدرسة من خشب وصفيح أولاً، ومن حجر في ما بعد. والمدارس القومية جميعها تبعت مجلس المطرانية للتربية وأنيطت إدارتها بمجالس أحياء.

في ١٩٢٤، تأسست أول مدرسة في برج حمود، وهي «نوباريان»، على مقربة من حقل صيد الحمام. وتوالت مدارس أخرى، وكان لكل حي جديد قيد البناء في المدينة كنيسته ومدرسته. وتم، في ١٩٢٥، إنشاء ثلاث مدارس، اثنتان منها في بيروت، وهما المدرسة المركزية العليا للإنجيليين في الأشرفية، والمدرسة القومية

مسروبيان في حي الكرنتينا. أما الثالثة، وهي مدرسة نوباريان ــ خريميان، فكانت في طرابلس. ووفق المصادر التي في حوزتنا، كان يجب الانتظار حتى عام ١٩٢٧، لنشهد فتح مدارس جديدة: القديس يعقوب ــ الأشرفية، اراميان ــ المصيطبة، وبالكدجيان ــ زحلة.

وانتهى العقد بتأسيس اتحاد مواطني مرعش مدرسة «الأربعين شهيداً» في برج حمود، ومدرسة جمعية هاماسكايين الأرمنية في بيروت وإكليريكية كيليكيا في انطلياس. وكان لافتتاح هاتين المؤسستين الأخيرتين، في ١٩٣٠، مغزى عميق : فكلتاهما صممتا على تهيئة مفكرين مدنيين ورهبان، تكون رسالتهم تأليف طبقة حاكمة جديدة، وتأمين بدلاء بعد النزف الناجم عن الإبادة الجماعية. إنها المدارس الثانوية الأولى في المشرق، وقد شكل افتتاحها مرحلة طبيعية في تاريخ مدارس المنطقة.

ويرسم تأريخ المدارس نوعاً من خريطة ديمغرافية لإسكان الأرمن المتدرج، إذ إن فتح مدرسة ضبق عموماً تنظيم حي. فبعد تلبية الحاجات الجسدية الأساسية إلى حد ما، يفكر المرء في تلبية الحاجات الروحية.

مدرسة مسروبيان داخل مخيم «امانوس» للاجئين، في بيروت. مجموعة م.ن.ا



جدول إجمالي

سوريا	لبنان	سنة التأسيس
• مدرسة هايكازيان القومية (حلب) • مدرسة الشهداء الإنجيلية (حلب)		القرن ١٩
	• مدرسة القديس نيشان القومية	١٩٠٢
• مدرسة القديس غريغوار للبنين (حلب)		١٩١٠
• مدرسة هريسيميانتس للبنات (حلب)		١٩١٣
• المدرسة الإنجيلية إمانويل (حلب)	• مدرسة كوللابي كولنتكيان (جونيه)	١٩٢١
• المدرسة الإنجيلية العالية للبنات (حلب) • مدرسة كيليكيان (حلب) • مدرسة الشهداء (اللاذقية) • مدرسة ساهاكيان (دمشق)	• المدرسة الإنجيلية (زحلة) • مدرسة هريسيميانتس الكاثوليكية (بيروت)	١٩٢٢
• مدارس حلب المناطقية • مدرسة حمص • مدرسة حماه • مدرسة دمشق • مدرسة الاسكندرون • المدرسة الفرنسية ــ الأرمنية	• مدرسة انترانيكيان ــ ساهاكيان (بيروت) • الكنيسة الكاثوليكية (بيروت) • المدرسة البروتستانتية (بيروت)	١٩٢٣
• مدرسة نوباريان (الرقة)	• مدرسة نوباريان (برج حمود)	١٩٢٤
• مدرسة نرسيسيان (حلب)	• المدرسة المركزية العالية للإنجيليين (بيروت) • مدرسة مسروبيان القومية (بيروت) • مدرسة نوباريان ــ خريميان (طرابلس)	١٩٢٥
• مدرسة كسب • مدرسة تل ابيض		١٩٢٦
• مدرسة ساهاكيان (حلب) • مدرسة دمشق	• مدرسة القديس يعقوب (بيروت) • مدرسة اراميان (بيروت) • مدرسة بالكدجيان (زحلة)	١٩٢٧
• المدرسة الموحدة (دمشق)		١٩٢٩
• مدرسة كولنكيان (حلب)	• مدرسة الأربعين شهيداً (برج حمود) • الثانوية الأرمنية (بيروت)	١٩٣٠

وكان ثمة مدارس صغيرة قروية، لم يرد ذكرها دائماً في المصادر المكتوبة، يُذكر منها مدارس غزير، وزحلة، وبكفيا، وعاليه، والمزة (قرب دمشق)، وقد مارست عملها التربوي قبل ١٩٣٠ أو بعدها.

المدرسة والهوية القومية

إن إخلاء كيليكيا في ١٩٢١ وتوقيع معاهدة لوزان في ١٩٢٣ أنذرا بنهاية آمال الأرمن السياسية. لقد أكمل مصطفى كمال عمل أسلافه بدفع آخر سكان الأناضول الأرمن إلى المنفى والقضاء عليهم. وكذلك طرد اليونانيين والعلويين والأكراد لإقامة بلد موحد متجانس على أنقاض الإمبراطورية العثمانية. وسرعان ما نسي الفرنسيون والإنكليز «حلفاءهم الصغار» بالأمس، فانطوى الأرمن على أنفسهم، بعدما تعرضوا للخيبات والجراح، وسعوا للاستمرار في الوجود عبر التعليم والثقافة. فكانت شعارات العصر: عدم نسيان المليون شهيد، والثأر لهم من خلال الإصرار على العيش والازدهار[7].

وكان المشروع القومي هو الاستعاضة المؤقتة عن الوطن الضائع بوطن روحي. لذا أدت التربية دوراً مميزاً في تحقيق هذا الهدف، كما

٧ ــ أطفال حقبة الولادة دُعوا فريج (ناجٍ) أو فريجوهي (المرادف المؤنث للاسم نفسه)، أو هايدوك (بمعنى قناص) و[illegible] (منفي).



تلاميذ مدرسة هادجي هايلي التي موّلتها الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في العشرينات من القرن المنصرم. مجموعة م.ن.ا

تفعل دوماً، عبر الحفاظ على الهوية القومية. فقد أصبحت بوتقة الروح القومية وعُنيت بتكوين جيل جديد مثقف ومؤدب حلّ محل «الانتلجانسيا» المقتولة. فجميع المدارس، وبخاصة القومية منها، عكفت على النهوض بهذه المهمة. وقد أفصح الأعضاء المؤسسون لجمعية هاماسكيين الثقافية، الذين قرروا تأسيس مدارس ودار نشر، عن الغاية من إنشاء جمعيتهم على النحو الآتي: «*رفع المستوى التربوي لدى الشعب عبر [تدريس] اللغة الأرمنية [والتواصل مع] الروح الأرمنية*».

حدد نيكول اغباليان، وزير التربية السابق في جمهورية أرمينيا المستقلة، وأحد مؤسسي هاماسكيين، المنهاج المدرسي قائلاً: «يجب تدريس العلوم واللغات، ولكن الأهم وبالدرجة الأولى يجب تدريس الحالــة الأرمنية»[٨]. والمادة ٥٠ من قانون المدارس القومية في لبنان توضح أنه «*على المدرس أن يحرص على تأمين تربية أرمنية للتلاميذ، وتنمية القيم الأخلاقية والروحية والمواهب الشخصية*». وتطبيقاً لهذا المشروع، المشترك بين جميع المدارس، تدرّس في الواقع، إلى جانب مواد المنهاج العادي: اللغة الأرمنية، والأدب الأرمني، وتاريخ أرمينيا، والتعليم الديني أو تاريخ الكنيسة الأرمنية وجغرافيا أرمينيا.

٨ الذكرى الخامسة والعشرون لتأسيس مدرسة نيشان بالنجيان التابعة لجمعية هاماسكيين. بيروت ١٩٥٤، ص. ٢٣.

أضيفت إلى ذلك حصة أسبوعية لما يُعرف بــ«التدريب الخطابي». كان ذلك في الماضي، حين كانت الخطابة تحتل مكانة مرموقة في الحياة العامة، وكانت وسيلة للاستعداد للحياة ولتعلم التعبير عن الذات. وتحول هذا، في مدارس سوريا ولبنان، إلى مناسبة لقراءة صفحات مشبعة بالروح القومية ولإلقاء قصائد وطنية. حتى العروض المدرسية باتت تدور حول موضوعات وطنية.

كل ذلك أثقل بوضوح البرنامج، ولكن لم يعترض لا المعلمون ولا التلاميذ. فالتعليم، بالنسبة إليهم، كان يعتبر جزءاً من مهمة وطنية تهدف إلى



مدرسة كابوسيه (إحدى قرى جبل موسى) وقد مولتها الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في العشرينات من القرن المنصرم.
مجموعة م.ن.ا.



قسم الحضانة في مدرسة «مسروبيان» داخل مخيم لاجئي امانوس في بيروت، ١٩٣٠-١٩٣١.
مجموعة م.ن.ا.

صون القومية. وجرى حتى الإعلان، بالفم الملآن وبشبه اعتزاز، أن غاية المدرسة الأرمنية ليست إعداد تلاميذ للامتحانات الرسمية، بل مساعدتهم على أن يصبحوا رجالاً شرفاء وأرمناً صالحين. وهذا يكاد يلامس الشوفينية. فالتلاميذ الأرمن، المعتادون من خلال تاريخهم على أن يكونوا أكثر جلداً ونشاطاً من أبناء الدول الأخرى، تدبروا أمورهم ليدرسوا «المواد الأرمنية» في الوقت نفسه الذي درسوا فيه المواد الأخرى وليضمنوا لأنفسهم مكانة مشرفة في مجالات الحرف اليدوية والمهن الحرة في البلدان المضيفة. وهكذا بُعثت الحياة في التقليد المدرسي الذي ساد إبان القرن الـ١٩. ولم يكن موشيغ سيروبيان، وهو شخصية معروفة في مطلع القرن الـ٢٠، على خطأ حين كتب:

«ما كان وجود المدارس القومية في الوطن نتيجة حاجات العصر وحسب، بل كان أيضاً نتيجة عوامل نفسية وتاريخية. هنا كانت المدرسة القومية إحدى الركائز الثلاث التي قامت عليها الحياة القومية. هذه الركائز هي الكنيسة، والمدرسة والعائلة. ولهذا الثالوث مميزات تقليدية شكلت، إن لم يكن مجمل طابع العرق، فعلى الأقل جوهره».



نيكول اغباليان، مدير مدرسة «بوغوصيان» في الاسكندرية في العشرينات. ويعتبر أحد مؤسسي جمعية هاماسكين الثقافية.
مجموعة م.ن.ا

وأضاف:

«إن هدف المدرسة القومية ينبغي أن يكون [...] على الأخص تأمين تربية قومية وطابع قومي للجيل الجديد المقيم في عالم الشتات»[9].

من المؤكد أن الكنيسة والمدرسة والعائلة كانت ركائز الحياة القومية. ومن المؤكد أيضاً أنها ظلت كذلك في العشرينات. غير أن موشيغ سيروبيان لم يرتكز عليها وحدها. فهو ذكر أيضاً أسماء، منها اسمي موسوليني ومصطفى كمال، على أنهما صاغا طابعاً وطنياً مميزاً. وهذا أضفى شيئاً من الشوفينية على خطابه. إنه الخطر الذي ترصد، في الحقيقة، محللي مناهج التربية الوطنية وواضعيها، وكذلك المدرسين الذين طبقوا تعاليمهم. وحدهما الإنسانية والتفكير السليم في وسعهما أن يقيا الإنسان من هذا الخطر. لحسن الحظ، كانت الغلبة لهما في أغلب الأحيان.

٩ موشيغ سيروبيان، تربية قومية وطبع قومي، بيروت ١٩٢٨، ص. ٢ و٤.



مدرسة قيد البناء بفضل مساعي اتحاد مرعش المناطقي في حلب، ١٩٣٨-١٩٣٩. مجموعة م.ن.ا

النتائج

واصل أرمن سوريا ولبنان تشييد الكنائس وتأسيس المدارس. وكانت تلك التي أُنشئت في العشرينات الأساس الذي قام عليه صرح روحي حقيقي تألف من كنائس ومدارس الأحياء، وكذلك من مدارس ثانوية ومعاهد للتخصص في الأرمنيات. وبعد نصف قرن على إسكان اللاجئين في المشرق، بات هنالك حوالي مئة مؤسسة مدرسية، منها عشر ثانويات في لبنان ونصف هذا العدد في سوريا، إضافة إلى أربعة معاهد للأرمنيات. ولكن هذه المجموعة الجميلة لم تصمد في وجه الزمن: فالحرب الأهلية اللبنانية وهجرة الأرمن باتجاه أوروبا والعالم الجديد أوهنتاها بشكل مفرط. فتدنى عدد التلاميذ بصورة مأساوية وأقفل عدد من المدارس أبوابه.

غير أن هذه الأحداث لم تقلّل إطلاقاً من أهمية العمل التربوي المنجز في العشرينات: فمدارس ذاك العهد بعثت الحياة في التقليد المتوارث من قدم والمتعلق بالتربية القومية الأرمنية. وبفضلها لم يحصل شرخ بين الماضي والحاضر. فالجيل المتخرج من هذه المدارس عرف النهوض بماضيه والاستعداد للمستقبل. لقد أصبح هذا الجيل، المكوّن من أطفال أيتام أو من ناجين من الإبادة الجماعية، الطبقة الحاكمة في الأعوام اللاحقة، فنظم الحياة الجماعيـــة، واهتم بالكنائس والمدارس والجمعيات الثقافية والرياضيـــة، مثلما سعى إلى ضبط الحياة في عالم الشتات، جاعلاً منها تتمة، إن لم تكن طبيعيـــة فعلى الأقل منطقيـــة، للحياة السابقة للإبادة الجماعيـــة.

إن الحياة الجماعية الراهنة مدينة كثيراً لمدارس العشرينات من القرن المنصرم التي شكلت سلف المدارس الحديثة الحالية ونماذج لها، وحافظةً للقيم التقليدية للحالة الأرمنية، وللروح القومية العريقة المنتشرة على مدى قرون، كما هي هبة العصر الذهبي. إن كاثوليكوس جميع الأرمن، فاسكين الأول كان على حق، أمثال كثيرين آخرين جاؤوا قبله أو بعده، في تعظيم عمل هذه المدارس. ففي مناسبة يوبيل مدرسة كولبنكيان ـــ ساهاكيان كتب يقول:

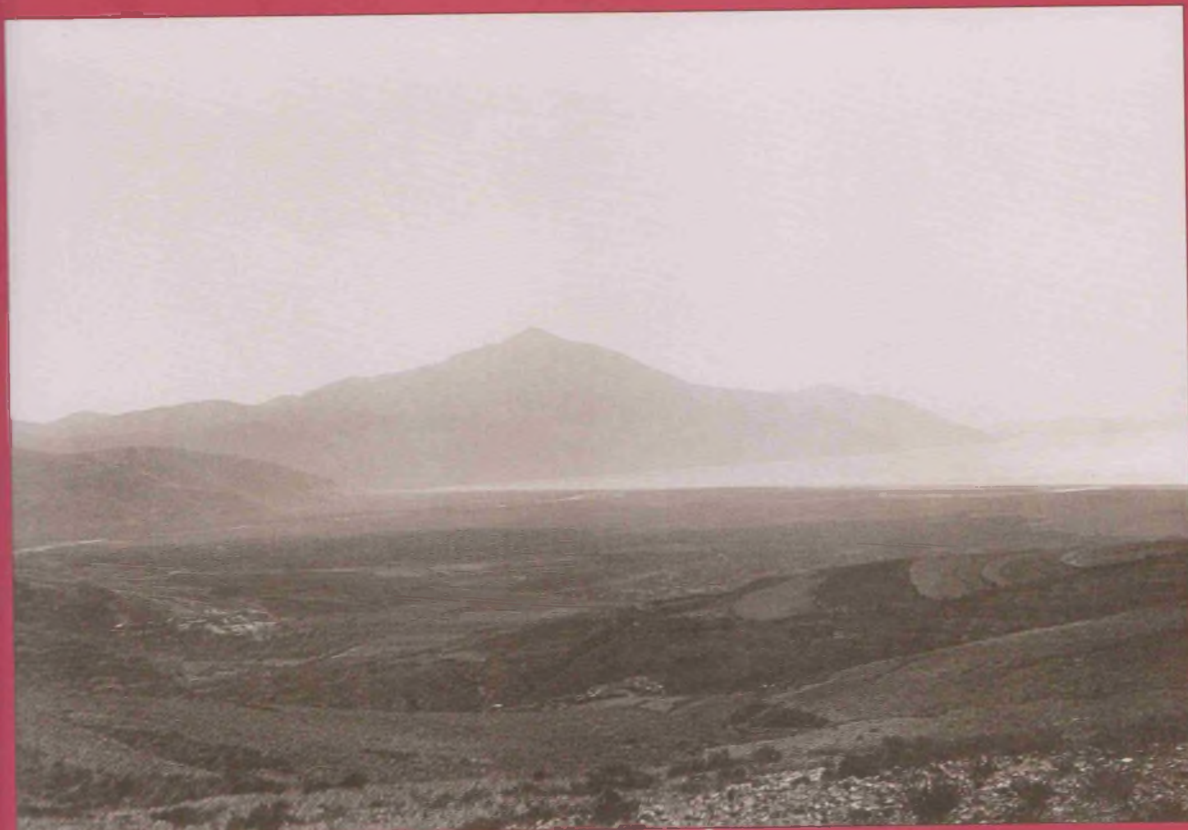
«تضطلع المؤسسات التعليمية بدور رباني في الحفاظ على أرمنية أولئك الذين يعيشون بعيداً عن وطنهم الأم. إنها تعرّف الأجيال الطالعة المنتشرة في عالم الشتات بثقافتنا القومية، وتحبب إليها قيمنا السائدة ماضياً وحاضراً، وتجمعها بمحبة في جوّ من الورع الأرمني»[١٠].

١٠ الكتاب التذكاري لمناسبة مرور ٦٠ عاماً على تأسيس مدرسة كولبنكيان ـــ ساهاكيان، م. س.، ص. ٧.





الأولاد في باحة المدرسة اليسوعية
داخل مخيم بيروث.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



منظر التقط من سلسلة تلال مساندة لجبل
موسى باتجاه مصب العاصي، ويشاهد
جبل الأقرع في أقصى الصورة.
مجموعة مش. — ج.ق.ي



عنجر: تكيّف صعب مع البيئة الجديدة،
عند أقدام جبال السلسلة الشرقية.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

من جبل موســى إلى عنجر

«إعادة ايواء»[1] الأرمن

بقلم ميشال بابودجيان

إن الإشاعات المتفرقة التي كانت رائجة وتؤشر لتخل وشيك عن سنجق الاسكندرون لتركيا، تعززت عام ١٩٣٦. ومع أن حادث الهجرة الجماعية من كيليكيا، الماثل في الأذهان، كان ينذر بذلك قبل أقل من ثلاثة أشهر على جلاء الجنود الفرنسيين في ١٩٣٩، فإن المفوضية العليا قررت، حيال تصميم أرمن جبل موسى وسائر الأرمن على الرحيل، أن ترتجل حلاً سريعاً، وقد أخذت على حين غرة.

أعرب الزعماء الدينيون لدى الطوائف الأرمنية الثلاث وأعضاء الاتحاد الوطني، بعدما حاولوا عبثاً التأثير في القرار، «عن خيبتهم وألمهم العميق» إزاء الوضع الجديد، إلى غبريال بيوو في رسالة موجهة من بيروت بتاريخ ٣٠ حزيران ١٩٣٩[2]. وإذ تبيّن لهم أن «الجهود المبذولة في فرنسا لإنقاذ هذه المنطقة لم تُكلل بالنجاح كما كنا نأمل عن حق»، اعتبروا الأرمن بنوع خاص «ضحايا هذه الكارثة الحقيقيين». وعندما رأوا أن أمنيتهم بضم أرمن جبل موسى خصوصاً إلى كسب وبالبقاء تحت الانتداب الفرنسي لم تتحقق، اعتبروا «أنهم يجدون أنفسهم مضطرين بإلحاح إلى مغادرة هذه المناطق التي سكنوها منذ قرون، وذلك في أقرب وقت ممكن، وحتى قبل انسحاب الجنود الفرنسيين». لهذا طالبوا بالإسراع في نقلهم والأفضل إسكانهم «إلى جانب إخوانهم في كسب (وهو ما يعتبر أقل كلفة)»، أو، في حال تعذر ذلك، في لبنان، على أن يتم رحيلهم في جماعات متراصة كي «يتمكنوا من الحفاظ على أواصر القربى وعلى تقاليدهم ولغتهم». وطلبوا إلى المفوض السامي، وقد منع غموض الوضع السياسي هؤلاء القرويين تماماً من زراعة حقولهم وجني ثمار أتعابهم، أن يتحمل نفقات نقل وإسكان الذين مكثوا في السنجق، ويُقدَّر عددهم بثلاثة عشر ألفاً.

البحث عن أراض شاغرة والتصاميم الأولية لمشاريع إسكانية

جواباً على رسالة مؤرخة في ٦ أيار ١٩٣٩، وموجهة من رئيس المكتب السياسي إلى المفوض السامي، اقترح آنذاك س. دورافور، وكيل أعمال السجل والإصلاح العقاريين، وبعد دراسة، أن يتم إسكان الأرمن، ومنهم أرمن جبل موسى، ومعظمهم مزارعون أو رعاة، في جهات لبنان الأربع، وبخاصة إما بجوار طرابلس، وإما في البقاع الشمالي[3]. واستبعد مشروعاً في سهل عكار، أو في منطقة طرابلس الساحلية، وذلك بسبب كثافة السكان و«لأن الأملاك بين أيدي المسلمين السنّة الذين لا يبيعون على العموم إلى مسيحيين»، ولا حتى في سهل عكار، في منطقة حلبا التي يمتلكها مسيحيون. إن الأراضي الزراعية الكافية والعائدة إلى ملاك واحد لا تتوافر في مجمل جبل لبنان، المكتظ بالسكان، وذي الكثافة السكانية التي تصل إلى ١٣١ نسمة في الكلم².

اقترح إذاً كمناطق قابلة لاستقبالهم:

١) أ- إسكان بضع مئات من العائلات في الجبل المشرف على طرابلس، في ضواحي قرى منطقة سير التي هجرها المسيحيون إبان الحرب العالمية الأولى؛

ب- وكذلك في جنوب سهل بوكايا (؟)، العائدة ملكيته لدولة لبنان، وهي منطقة قليلة السكان، أراضيها خصبة ومروية، وتربية الماشية فيها ممكنة.

[illegible] مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الانتداب على سوريا ولبنان، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ٥٣٠، برقية بيوو إلى دبلوماسية باريس، بيروت ٢١ تموز ١٩٣٩، برقية [illegible]؛ مركز الأرشيف الدبلوماسي، الانتداب على سوريا ولبنان، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ٥٣٠، بيوو إلى وزير الخارجية، بيروت ١ آب ١٩٣٩؛ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، المكتب السياسي ٥٣٠، بيوو إلى كوله، بيروت ٧ آب ١٩٣٩؛ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ٥٣٠، برقية من المفوض السامي في بيروت إلى دبلوماسية باريس، بيروت ٨ آب ١٩٣٩؛ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ٥٣٠، دبلوماسية باريس إلى المفوض السامي، ٨ أيلول ١٩٣٩.

٢ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ٥٣٠، رسالة من الرؤساء الدينيين الأرمن إلى بيوو، ٣٠ حزيران ١٩٣٩.

٣ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ٥٣٠، من دورافور، مدير أعمال المساحة والتحسين العقاري إلى مدير المكتب السياسي للمفوضية العليا، بيروت ٢٦ أيار ١٩٣٩.





بتياس، منظر عام.
مجموعة م.ش. ـــ ج.ق.ي

خضريك، منظر عام.
مجموعة م.ش. ـــ ج.ق.ي

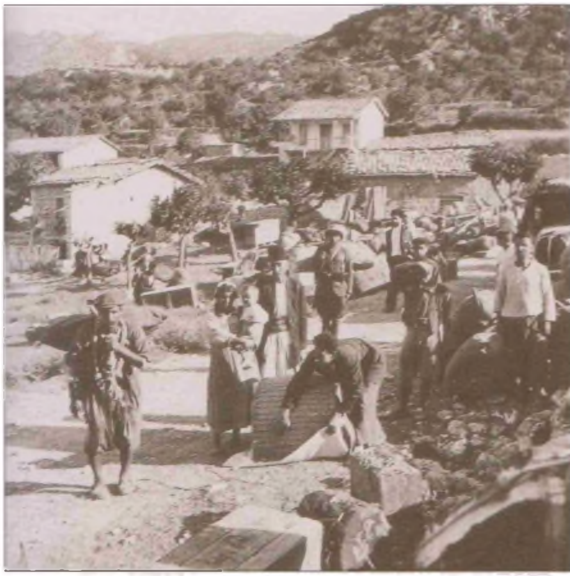
٢) لإقامة مستوطنات أرمنيـــة، اعتبر الجزء الشمالي من سهل البقاع (الهرمل) الأنسب، فهو ذو كثافة سكانيـــة ضعيفة، وتتوافر فيه مساحات بائرة قابلة للزراعـــة تمتد على طول نهر العاصي كما في قرية مار مارون المهجورة التي تمتلكها الرهبانية المارونية وتبلغ مساحتها ٦٠٠ هكتار، ويؤمل استكمالها بأرض أخرى كثيرة ما زالت غير مزروعـــة، ولكنها مملوكة وتقع في قريتي الهرمل ورأس بعلبك المتجاورتين. فالأراضي هنا صالحة لزراعـــة الحبوب، وهي مرويـــة في قسم منها. وبالقرب منها، على السفح الشرقي لسلسلة جبال لبنان، مجموعة بيوت قليلة متناثرة يعتاش سكانها من الزراعة وتربيـــة الماشية، ويمكن أن تسمح، إذا ما نظم استغلال الينابيع النادرة، بإسكان عائلات جديدة اعتادت على الزراعة الجبليـــة وتربية الماشيـــة. ولكن مشكلة التزوّد بالماء يحتمل أن تجعل تنفيذ هذه العمليـــة أمراً مكلفاً، إذ ينبغي، في هذه الحال، أن يتم التموّن بمياه الشفة بواسطـــة صهاريج.

٣) يذكر أيضاً إمكانيـــة إسكان عائلات في قضاء بعلبك، في منطقـــة ترويها مياه بحيرة اليمونة، لاستثمار ١٠٠٠٠ / ١٤٠٠٠ هكتار من الأراضي المتوفرة، في حال أنجزت أعمال الري التي بوشر بها، وفي ضواحي شمسطار، والحدث وبوادي. سيكون شراء الأراضي مكلفاً، أما الإسكان فيمكن أن يكون سهلاً، ويُتوقع أن يتمكن الوافدون الجدد من تأمين حاجاتهم في غضون بضعـــة أشهر.

٤) أخيراً، في لبنان الجنوبي، عند قدمي جبل الشيخ، يمكن التفكير مبدئيـــاً في مناطق راشيا ومرجعيون ولبنان الجنوبي، حيث السكان قليلو الكثافـــة ويتعرضون لنزوح الشباب إلى المدن.

ومن أجل إسكان ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ شخص، كان لا بد من من التحسب لـــ ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ هكتار من الأراضي على الأقل، الأمر الذي تطلب، في الهرمل، مبلغاً يتراوح بين ٢,٥ و٣ ملايين فرنك لشرائها. وكان من المفترض، قبل اتخاذ أي قرار، القيام بتحقيق معمق لمعرفة ما إذا كان الملاكون يبيعون أراضيهم، وذلك في منتهى الحذر تجنباً للمضاربة ورفع الأسعار.

في ٢٨ حزيران ١٩٣٩، عبّر بورنيه عن تفضيلـــه لليمونة وبوكايا قائلاً: «ما من شك في أن سعر الأرض ليس أعلى مما هو عليـــه في مكان آخر، ولكن التموين سيكون لأمد قصير، ولن تكون هناك تقريباً مصاريف لتهيئـــة المكان أو لأعمال جر ميـــاه الشفة». ورأى أن الصليب الأحمر الفرنسي هو الأكثر كفاءة لضمان تنفيذ إعادة الإسكان هذه، بالاشتراك



الرحيل من يوغون اولوك وموكب اللاجئين على طريق انطاكية باتجاه حلب.
مجموعة م.ش. ــ ج.ق.ي

مع الهلال الأحمر التركي في السنجق. فمن واجبهما المشترك أن يطمئنا السكان إلى تنظيم عمليــة الهجرة الجماعيــة، والسهر على حماية الممتلكات والمساعدة على بيعها بأفضل الشروط، وإعداد مواكب الرحيل. وكان يتوجب على الصليب الأحمر الفرنسي في لبنان أن يتكفل بالاستقبال وتهيئــة قرى مؤقتــة مجهزة بمؤن وخدمات صحيــة، وبجمع الأموال لدى جمعيــات الصليب الاحمر الأخرى والجمعيات الإنسانيــة.

أما الأعمال الأخرى، أي اختيار موضع الإسكان، وشراء الأراضي، وبناء القرى، وتهيئــة الأراضي، وتنظيم الزراعات والتزود بالمؤن، الخ. فينبغي أن تنجزها دوائر المفوضية العليا المختصــة.

وكان ينوي أن يجمع في كل قرية سكان الناحيــة نفسها من الجبل ضمن بيت لكل عائلــة يتألف من غرفتين أو ثلاث، بالإضافة إلى حمام وحفرة. وكان لا بد من كنيسة ومدرسة ومقبرة لكل جماعة. أما بناء القرى فيُطرح على المناقصــة، ويحدد دفتر الشروط تواريخ التسليم ومواد البنـاء المزمع استعمالها.

وتورد مذكرة مؤرخة في ٢٨ حزيران ١٩٣٩[٤] المعلومات الأخيرة عن مركز جبل موسى الأرمني. حينذاك بلغ عدد سكان القرى الست ٦٣٧٠ شخصاً: بتياس ١٠٨٥، وهادجي هابيلي ١٠٥٥، ويوغون اولوك ١٣١٥، وخضربك ١٢٣٥، وكابوسيه ٩٣٠، وفاكف ٧٥٠، علاوة على ٦٠٠ شخص إضافي كانوا قد لجأوا إليها. وكان سكانها يعتاشون من الزراعة، وقد بلغ الإنتاج السنوي ٣٠٠ طن حبوب، و١٥ طناً من دود القز، و٤٠٠٠ طن برتقال، و١٥٠ طن زيت زيتون، و١٥٠ طن تين، و٥٠ طن زيت غار، و٤٠٠ طن بطاطا، وخضار وفاكهــة. كما كانوا يعتاشون من تربيــة الماشيــة: ٣٠٠٠ رأس ماعز، و١٦٥ خروفاً، و٣٢٠ ثوراً وبقرة، و٣٩٥ حماراً و١٥ حصاناً وبغلاً. أما الحرفيون فكان عددهم قليلاً، منهم ٨٥ بناء، و٣٢ عاملاً في الخشب (أدوات منزليــة وأمشاط)، و١٦ نجاراً و٦٧ حائكاً.

إن أرمن جبل موسى، واحتراماً منهم للعهود التي قطعوها للكولونيل كولــه، لم يدمروا منازلهم التي بقيت ملكاً لهم وفقاً للتسويــة الفرنسية ــ التركيــة تاريخ ٢٩ حزيران.

٤ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الدفعة الأولى، المكتب السياسي، ٥٣٢، مذكرة بيروت، ٢٨ حزيران ١٩٣٩.





الانتقال الأول من جبل موسى إلى منطقة البسيط

بدأت الهجرة الجماعية في أيار وحزيران ١٩٣٩ «بفعل الدعاية المنطلقة من بيروت والرامية إلى إقناعهم بفضل جهود بعض الأوساط السياسية الفرنسية، لن يتم التخلي عن جبل موسى، ولا حتى عن كسب للأتراك»[٥].

وأشار كوله، منذ ٥ تموز ١٩٣٩، إلى أن بعض أرمن جبل موسى بدأوا يتسللون إلى ناحية كسب[٦]. وطلب أن يُرسل إليها طبيب وممرضون يكلفون مراقبة حالة المهاجرين الصحية. وفي ٦ تموز، كلّف بيوو دلبيس تلبية طلب كوله إجلاء الأرمن، وتهيئة إعادة إسكانهم في سوريا ولبنان وتأمين سير الرقابة الصحية والبيطرية لدى بلوغ منطقة العلويين ومنطقة حلب أيضاً[٧]. كذلك طلب منه أن يجد مراعي بين كسب واللاذقية للقطعان القادمة من السنجق، ودراسة إمكانية إسكان ٥٠٠ عائلة أرمنية على عجل في أراضي باير والبسيط العائدة ملكيتهما لأرمن كسب.

في الوقت عينه وجب التعجيل في تنظيم مراكز تجميع نهائية، بحيث يتم الانتهاء منه قبل مطلع تشرين الأول ١٩٣٩، نظراً إلى أن المناخ يبرد في ناحية كسب والبسيط ابتداء من ١٥ ايلول[٨].

واقترح كوله، في ٦ تموز ١٩٣٩، نصب ثلاثة مخيمات مؤقتة للاجئين في دوز نغادج (ناحية كسب)، والبدروسية (البسيط) وتروندجه (٢٢ كلم جنوب شرق البسيط)[٩].

وفي ٨ تموز ١٩٣٩، نبّه المطران اردافست سورمايان إلى الوضع المتأزم الذي كان يسود كسب فعلاً، وقد اقتظت بالسكان جراء الوصول الكثيف للأرمن ولأقليات أخرى[١٠]. وتمنى أن يشهد إخلاء هذا الموقع سريعاً للتمكن من استقبال المهاجرين الآخرين الوافدين من السنجق إلى هنا، وبالأخص أن كسب لا يتوفر فيها الماء بكميات كافية.

٥ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، المكتب السياسي ٥٣٠، برقية هاتفية رقم ١٧، مندوب انطاكية إلى المفوض السامي، انطاكية ٤ تموز ١٩٣٩.

٦ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، المكتب السياسي ٥٣٠، برقية كوله إلى بيوو، انطاكية، ٥ تموز ١٩٣٩.

٧ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ٥٣٠، مذكرة، بيوو إلى دلبس، بيروت ٥ تموز ١٩٣٩.

٨ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، الدفعة الأولى، المكتب السياسي ٥٣٠، برقية كوله إلى المفوض السامي، ٥ تموز ١٩٣٩.

٩ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د. اولى، مكتب س. ٥٣٠، كوله إلى المفوض السامي، ٦ تموز ١٩٣٩.

١٠ مركز الأرشيف الدبلوماسي، د. اولى، مكتب س. ٥٣٠، المطران اردافست سورمايان إلى داقيد، رئيس المكتب السياسي المفوض السامي.

وأخيراً، في ٩ تموز، أوضحت مذكرة صادرة عن بيار بارت، المندوب المساعد للمفوض السامي في اللاذقيـــة، الإجراء المعد لإجلاء أرمن السنجق باتجاه منطقـــة العلويين ذات الاستقلال الذاتي، فقد كان ينبغي أن يتم عن طريق البر عبر سلوك طريق انطاكية ــ اللاذقيـــة إلزامياً[١١]. وأقيمت نقطـــة مراقبـــة على الحدود، عند مخفر قسطل معاف، من ١٠ إلى ٢٢ تموز، واعتباراً من هذا التاريخ، تحت الخيمة في نقطـــة تقع تقريباً إلى شرق طريق انطاكية ــ اللاذقيـــة وخط دفاع كسب الداخلي.

وضم مكتب المراقبة هذا أفراداً من الأمن العام تحت ثماني خيم، آزرهم دركيون ورجال جمارك، وخدمـــة صحية مع طبيب إضافة إلى خدمـــة بيطريـــة.

وقاد عمليات الإجلاء النقيب بلونديل، مفتش شعبة المخابرات في المنطقة العلويـــة، وساعده، بدءاً من ٢٣ تموز، رئيس مركز مخابرات كسب، وكان تحت إمرتـــه حرس الغابات وحرس اللاذقيـــة وحقّة المتنقل.

واعتباراً من ١٠ تموز، توجب على مهاجري جبل موسى دخول المنطقة السوريـــة عبر مركز الأمن العام هذا[١٢]، حيث كان ينبغي تسجيل أسمائهم، إضافـــة إلى نبذة تتضمن المعلومات المتعلقة بهويـــة الأشخاص والعائلات، وماشيتهم، مرفقة ببطاقات هوياتهم، فكانت هذه الوثائق تخولهم المطالبة بمساعدة من الوفد الفرنسي في أمكنـــة إقامتهم، وهي عبارة عن سند مكافأة خاص بإعادة الإسكان وغير قابل للتجديد، قوامه ٥٠٠ فرنك لكل فرد من أفراد العائلـــة، وقد خُفض التعويض عن الأطفال تحت سن ١٢ سنة إلى ٢٠٠ فرنك[١٣]. وكان التعويض يُقسم إلى قسمين متساويين يُدفعان بفاصل شهر واحد.

وفي ١٠ تموز ١٩٣٩، حين أبلغ بيار بارت، المندوب المساعد للمنطقة العلويـــة، أن دائرة الجمارك كانت تجيز للمهاجرين الأرمن الداخلين إلى الأراضي السوريـــة الاحتفاظ بالأسلحـــة والذخائر التي يحملونها، طلب أن تتخذ تدابير تتعلق بتسلح المهاجرين الأرمن[١٤]، إذ كان يخشى أن يحاول المهاجرون، فور عبور الحدود، إلى بيع أسلحتهم وذخائرهم رغبة في تنمية مواردهم، لذا طلب موافقة المكتب السياسي على اتخاذ قرار يُلزم المهاجرين من مالكي الأسلحـــة والذخائر أن يودعوها في مراكز المراقبـــة حيث تخزن مع بطاقـــة باسم كل منهم.

وكي تتم عمليـــة الإجلاء بمنأى عن أية احتكاكات، طلب كوله من اتشيكالين، في ١٣ من الشهر ذاتـــه، أن يعمل ابتداء من ١٦ تموز على سحب مركزَي الدرك اللذين أقامهما الأتراك على جبل موسى[١٥]، وهو اقتراح رفضه هذا الأخير مدعياً أنهما يؤمنان الحمايـــة للأرمن.

وأوعز كوله بالمباشرة بإجلاء ٦٥٠٠ أرمني عن جبل موسى الذي يشكل أحد قطاعات إخلاء السنجق الأربعـــة وذلك وفق إجراء محدد بدقـــة[١٦].

١١ مركز الأرشيف الدبلوماسي، د. أرنيس. م. س.، ٥٣٠، مذكرة رقم ١١٩٤/ب. بيير بارت، مندوب مساعد للمنطقة العلوية إلى متعدد، اللاذقية، ٩ تموز ١٩٣٩.

١٢ مركز الأرشيف الدبلوماسي، د. ا. م. س.، ٥٣٠ (المفوضية العليا) إلى مدير الأمن العام، بيروت ٥ تموز ١٩٣٩.

١٣ مركز الأرشيف الدبلوماسي، د. ا. م. س.، ٥٣٠، بيوو إلى مندوبين مساعدين في اللاذقية، بيروت ٧ تموز ١٩٣٩.

١٤ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د. ا. م. س.، ٥٣٠، بيار بارت مندوب مساعد للمنطقة العلوية ذات الحكم الذاتي إلى المفوضية العليا، ١٠ تموز ١٩٣٩.

١٥ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د. ا. م. س.، مذكرة شفوية ١٦٤٨/ب، كوله إلى أتشيكالين، انطاكية ١٣ تموز ١٩٣٩.

١٦ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د. ا. م. س.، ٥٣٠، مذكرة إدارية رقم ١٦٥٤/ب، كوله إلى المفوض السامي، انطاكية ١٤ تموز ١٩٣٩.

«قطاع جبل موسى: مدير العملية النقيب غاكون، مفتش مخابرات انطاكية.

ا ـ معلومات إحصائية

	العائلات	الأشخاص	الأمتعـــــة	الحيوانات
بتياس وزيتون الجديدة	٢٢٢	٩٧٨	٢٠٠ طن	١٨٣٢
خضربك	٢٧٤	١٦٢٠	١٨٠ طن	٥٠٤
هادجي هابيلي	٢٨٢	١٦٠١	١١٥ طن	٤١٩
يوغون اولوك	٢٤٠	١٤٧١	٨١ طن	٢٣٧
كابوسيـــه	١٨١	١٦٣٧	١٢٠ طن	٢٦٩
فاكف	٧٣	٥٨١	٢٥ طن	١٧١

ب ـ الإخلاء:

ا) **الأمتعة**: تنقل الأمتعة من قرى المنشأ إلى مرفأ السويدية طبقاً للتوقيت التالي، وتقوم كل شاحنة بعدة رحلات في اليوم على أن يتم الفراغ من نقل الأمتعة في نهاية النهار:

١٥ تموز: ٢٠ شاحنة تصل إلى بتياس في الساعة الخامسة.
٢٠ شاحنة تصل إلى خضربك في الساعة الخامسة.
١٦ تموز: ١٢ شاحنة تصل إلى هادجي هابيلي في الساعة الخامسة.
٨ شاحنات تصل إلى يوغون اولوك في الساعة الخامسة.
١٢ شاحنة تصل إلى فاكف (إلى كابوسية) في الساعة الخامسة.
شاحنتان تصلان إلى فاكف في الساعة الخامسة

... حراسة الأمتعة المودعة في مرفأ السويدية يؤمنها، بناء على طلب القرى المعنية، الأشخاص المكلفون إرسالهم إلى مرسى البسيط. وتُنقل هذه الأمتعة من السويدية إلى البسيط (جون الغزالي) بواسطة سفينتين شراعيتين مزودتين بمحركين (٢٥٠ و١٥٠ طناً بالنسبة إلى مجهز السفن محمد صبرا من أرواد[17]) تصلان بعد ظهر ١٦ تموز إلى مرفأ السويدية، وذلك للقيام برحلات متعددة قد تدعو إليها الحاجة (بمعدل دورة سفر واحدة في اليوم).
يتم الإبحار اعتباراً من ١٧ تموز عند الفجر.
... النقل من جون الغزالي إلى مخيمات الإيواء بناء على طلب السيد مندوب المفوض السامي في اللاذقيـــة. تدفع نفقات النقل بهمـــة ... السورية في اللاذقيـــة.

ب) **الشيوخ، النساء والأطفال**: يجري نقلهم تبعا للتوقيت التالي من قرى المنشأ إلى الأراضي السورية عن طريق انطاكية:

١٧ تموز: بتياس (٤٥٠ شخصاً) ٢٩ شاحنة أو سيارة ركاب تصل في الخامسة إلى بتياس.
نقطة الوصول: قراطات.
خضربك (٧١٥ شخصاً) ٢٩ شاحنة أو سيارة ركاب تصل في الخامسة إلى خضربك.
نقطة الوصول: قراطات.
١٨ تموز: هادجي هابيلي (٦٩٧ شخصاً) ٢٨ شاحنة أو سيارة ركاب تصل في الخامسة إلى هادجي هابيلي.
نقطة الوصول: فاكي حسن.
فاكف (٢٥٧ شخصاً) ١٠ شاحنات أو سيارات ركاب تصل في الخامسة إلى فاكف.
نقطة الوصول: البدروسية.
١٩ تموز: يوغون اولوك (٦٣٢ شخصا) ٢٦ شاحنة أو سيارة ركاب تصل في الخامسة إلى يوغون اولوك.
نقطة الوصول: البدروسية.
٢٠ تموز: كابوسية (٧٢٨ شخصاً) ٢٩ شاحنة أو سيارة ركاب تصل في الخامسة إلى فاكف.
نقطة الوصول باغتشه ـ رهاز.

كل النقليات التي تتم بالسيارات ستدفع أجورها بهمة مندوبية انطاكية.

ج) **رجال أصحاء**: يتم تجميعهم بعد ظهر ٢٠ تموز في فاكف، ويصلون إلى كسب سيراً على الأقدام دونما توقف.
الانطلاق من فاكف في ٢١ تموز عند الفجر.

د) **قطعان الماشية**: تُجمع بعد ظهر ١٩ تموز في حلية على الضفة اليسرى للعاصي،
وتصل إلى كسب عن طريق الجبل ليلة ١٩–٢٠ تموز وصباح ٢٠ تموز.
كما إن قطعان الاسكندرون، وبيلان، وعتيق، وصووك اولوك وتركيزلك تصل إلى كسب باجتياز الساقية الحدودية في ٢٢ تموز.

تعليمات هامة: على كل مهاجر أن يكون مزوداً ببطاقة هويته، وبإذن بالسفر تعطيه إياه سلطات السنجق الفرنسية أو بإيصال تصريح خيار صادر عن سلطات هاتاي. كما ينبغي أن تكون في حوزتهم شهادة تغيير الإقامة».

إن عمليـــات الإنزال البحري والإسكان يجب أن يشرف عليها النقيب بلونديل، مفتش شعبـــة المخابرات في المنطقـــة والأمن العام والجمارك لوجودهما في خليج البسيط[18]. أما المخيمات فتُنصب في منطقـــة يحدها غرباً الساحل، وشرقاً طريق انطاكية ـ اللاذقيـــة، وشمالاً

[17] مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١٠، م. س.، ٥٣٠، مذكرة إدارية من المندوب المساعد للمنطقة العلوية إلى العموم، اللاذقية ١٣ تموز ١٩٣٩.
[18] م. ن.





«لاجئو جبل موسى في البسيط، ٢٤ تموز ١٩٣٩». مسؤولو سلطات الانتداب يقفون أمام رفات المقاتلين الذين قضوا في معارك ١٩١٥.
فوتو داقيد، مجموعة ميشال بابوديان

رفات الموتى وقد تم نقلهم إلى البسيط، ثم إلى عنجر في لبنان.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

الحدود القديمـــة للسنجق، وجنوباً الدرب الممتد من طريق انطاكية باتجاه خليج البسيط، مع الحرص على أن يبقى سكان الموقع ذاتـــه متجمعين تحت سلطة زعماء القرى. ويقيم رجال الدرك مراكز مؤقتـــة في قراطات، والشيخ خضر وفاكي حسن، ويقومون بدوريات في المنطقـــة التي يشغلها اللاجئون.

عندئذ من المتوقع انتظار نهايـــة العملية وجمع شمل العائلات في مراكز الاستقبال لكي يُعد مفتشو الأمن المكلفون بالمراقبة لمحة موجزة باسم كل رب عائلة فور دخولـــه سوريا، بعد التأكد من عدد أعضاء كل عائلة وهويتهم، وذلك تحت إمرة رئيس مفرزة الأمن العام في اللاذقية[19].

الإقامـــة في مخيـــم الادجا (البسيط) وشراء عقار عنجر

لا تروي المراجع تفصيل هذا الانتقال الأول وكيفية حدوثـــه، غير أن المطران سارادجيان، وكيل الكاثوليكوسية الأرمنيـــة، وبعد أن أعلمه ممثله في اللاذقيـــة، منذ ١٨ تموز ١٩٣٩، بوجود «لاجئين على شاطىء البحر من دون مأوى ولا طعام خارج المدينـــة »»، توجه بنداء حث فيه مشاعر المفوض السامي الإنسانيـــة[20]. وبعد أن أبلغ هذا الأخير «أن اللاجئين لا مأوى لهم سوى أوراق الأشجار»[21]، واستلم طلب زعماء الطوائف الدينيـــة، عقد العزم على «إعادة إيواء» الأرمن. بيد أن بعض التلميحات تجعلنا نتبين أن الوضع كان أصعب مما تم وصفـــه.

وفي باريس، التي طالبت بتوضيحات حول سوء الاستقبال الذي خص به الموظفون المكلفون استقبال المهاجرين، إذ نُهبت أموال بعضهم، و«أوقفوا في ظروف صعبة للغايـــة في مخيم الادجا»[22]، أجاب بيوو المفرط في تفاؤله أنـــه «تم إجراء ما يلزم لكي يتمكن اللاجئون من الاحتماء بـــه

١٩ــ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١..م.س.، ٥٣٠، بيار باريت، المندوب المساعد للمنطقة العلوية إلى المفوض السامي، اللاذقية ١٨ تموز ١٩٣٩.
٢٠ــ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١..م.س.، ٥٣٠، برقية المطران سرادجيان إلى المفوض السامي، بكفيا ١٨ تموز ١٩٣٩.
٢١ــ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١..م.س.، ٥٣٠، برقية، بيوو إلى دبلوماسية باريس، بيروت ٢١ تموز ١٩٣٩.
٢٢ــ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١..م.س.، برقية، دبلوماسية باريس إلى بيوو، ٢٦ تموز ١٩٣٩.



إجلاء الأرمن عن سنجق الاسكندرون، عام ١٩٣٩. وصول اللاجئين إلى شاطيء طرطوس في سوريا.
مجموعة م.ن.أ



«مخيم اللاجئين الأرمن في طرطوس، ٢١ تموز ١٩٣٩». توزيع المياه بواسطة الشاحنات ـــ الصهاريج.
فوتو دافيد، مجموعة ميشال بابودجيان





«مخيم اللاجئين الأرمن في طرطوس، ٢١ تموز ١٩٣٩». وقد ضم الأرمن المرحلين من منطقة الاسكندرون.
فوتو دافيد، مجموعة ميشال بابودجيان

«مخيم اللاجئين الأرمن في طرطوس، ٢١ تموز ١٩٣٩». وقد جرى إسكانهم وسط كروم الزيتون.
فوتو دافيد، مجموعة ميشال بابودجيان

ضمن أفضل الشروط الممكنـــة. لقد جرى استكشاف الينابيع وإحاطتها ببنيـــة من الإسمنت؛ ونُظمت خدمات صحيـــة (طبيب، وممرضات، وصيدلية) ولُقح المهاجرون جميعهم؛ وأُمّن التموين من اللاذقيـــة. والآن هناك ٤٥٠٠ أرمني من جبل موسى متجمعون في غابـــة على شاطىء البحر استطاعوا أن يبنوا لهم أكواخاً بأغصان الأشجار. معنوياتهم ممتازة، والحالة الصحيـــة مرضية جداً. ولم تسجل السلطات المحليـــة أي شكوى»[٢٣].

أما داوود، وهو مندوب المفوض السامي في حلب ونائب رئيس المكتب السياسي بالوكالـــة، فأجاب في مقابلة مع جريدة«زارتونك» بتاريخ ٢٧ تموز ١٩٣٩، وبعد عودته من جولـــة في البسيط[٢٤]، بأنـــه وجد اللاجئين الأرمن في حالـــة جيدة ووضع مرض، وقد سكنوا أكواخاً مصنوعة بأوراق الشجر. وأكد أن «العلويين استقبلوا اللاجئين استقبالاً أخويـــاً وسمحوا لهم بقطع أشجار الصنوبر واستعمال أغصانها. كما أمنوا الإسمنت لبناء عين ماء». وأكد نية نقل اللاجئين إلى مكان آخر قبل ١٥ أيلول. وأمل كذلك إسكان ١٥٠ عائلـــة من الحرفيين في اللاذقيـــة وكسب وقسم من المزارعين في منطقة بودجاك. وكرر داوود، في ٤ آب، أن تنظيم مخيم الادجا (البسيط) «كان موضع انتقادات متسرعة وغير مبررة، وقد قام نائب الكاثوليكوسية العام بالثناء على عمل الإدارة الانتدابية لصالح اللاجئين»[٢٥]. في اليوم نفسه، بادر بيوو على الفور إلى القيام، في دمشق، بشراء ١٢ خيمة بدوية مخصصة لإيواء الأطفال الأرمن اللاجئين إلى البسيط[٢٦]. وكانت خمس من هذه الخيم ينبغي أن تصل إلى اللاذقية ابتداء من ١٥ آب، سواء بواسطة سيارة تابعة لشعبة المخابرات، أو بأي وسيلة نقل أخرى ؛ أما الخيم السبع فكان يؤمل وصولها في ٧ آب. وأخيراً، عبّر الكاردينال ماليونه، أمين سر الدولة، عن شكر الكرسي الرسولي للحكومـــة الفرنسية، وذلك «لأخذ التمنيات التي عُبّر عنها بعين الاعتبار». هذا الشكر، الذي جاء على أثر تقرير رفعه المونسنيور لوبريتر، لم يوضح لنا طبيعة هذه التمنيات، ولكنه يدفع إلى الاعتقاد أن الفاتيكان أيضاً تدخل لصالح حل مرض في شأن رحيل الأرمن، وحتماً من أجل إبقاء كسب ضمن سوريا[٢٧].

٢٣ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١، م. س.، ٥٣٠، برقية بيوو إلى دبلوماسية باريس، ٢٨ تموز ١٩٣٩.
٢٤ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١، م. س.، ٥٣٠، مقابلة مع دافيد في جريدة زارتونك عدد ٢٧ تموز ١٩٣٩.
٢٥ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١، م. س.، دافيد ـ بيوو إلى مندوب حلب المساعد، بيروت ٢ آب ١٩٣٩.
٢٦ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١٢، م. س.، برقية بيوو إلى المندوب المساعد، ٤ آب ١٩٣٩.
٢٧ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١، م. س.، برقية، شارل رو إلى الكرسي الرسولي، ١٠ آب ١٩٣٩.

زار الطبيب الجنرال مارتن، وهو مفتش عام الخدمات الصحية، مركز اللاجئين الأرمن في كسب ومخيم البسيط[28] يوم الثلاثاء ١٥. في كسب، تم إيواء اللاجئين لدى السكان المقيمين، وعالج طبيب كسب المرضى القليلين، أما في البسيط فوصف الوضع الصحي بأنه وسط. وسجل حالات إسهال عدة غير متفشية، كانت قد أدت حتى ذلك التاريخ، إلى وفاة سبعة أطفال، غير أنه خفف من وقعها واعتبرها غير ذات خطورة، مثلما سجل العديد من حالات الرمد العادية. وأوصى بالإنتباه إلى الماء المجمع في خزان مغطى ومغلق والموزع بالصنابير، قبل وصوله إلى الخزان، وبزيادة عدد مراحيض الميدان بحيث يسهل بلوغها ليلاً ونهاراً، مع كميات احتياطية من التراب الجاف لتأمين إبادة الجراثيم. كما أوصى بدفن الزبالة والأقذار لمنع الذباب، وهي بأعداد كبيرة، من وضع بيوضها.

وأضاف قائلاً إن الخدمات الطبية، التي يشرف عليها الطبيب الرائد هورديه، مدير الصحة في محافظة اللاذقية، يؤمنها طبيب متفان تؤازره ممرضتان منتميتان إلى الصليب الأحمر — فرع حلب، وإن الاستهلاك الكبير للأدوية المضادة للإسهال، ولقطرات العين والكينين، يستوجب التموين بكميات كافية منها، وعلى الصليب الأحمر في حلب أن يعمل على تأمينها. أما قبول المرضى في المستشفيات فيتم في مستشفى اللاذقية، وهو متخم بهم، ولكنه مدعو لاستقبال المرضى فوراً (وخصوصاً الأطفال الصغار منهم) وعدم التردد في توجيه الحالات الصعبة إلى مستشفيات حلب. حينذاك ينقل المرضى في شاحنات التموين عند رجوعها.

ووصف مخيماً فيه أكواخ مصنوعة من أغصان الأشجار، متقاربة جداً وممتدة، أقله على مسافة كيلومتر طولاً و١٥٠ — ٢٠٠ م. عرضاً. وعبّر عن خشيته من نشوب حريق تكون عواقبه وخيمة بسبب كثرة البيوت القائمة على أطراف الغابة.

أما عدد الحيوانات التقريبي التي في حوزة اللاجئين فهو ٧٠ بقرة، و١٠٠٠ رأس ماعز، و١٠٠ فرس، وكلها رابضة في المرعى القريب. بينما لم يكن لاجئو كسب يملكون حيوانات[29]. ويبيّن هذا التقدير بوضوح أن جزءاً من الماشية فقط تمكن فعلاً من اجتياز الحدود.

تحتفظ الذاكرة الأرمنية بذكرى أقل مثالية عن هذه الحقبة الحزينة، حقبة الأربعين يوماً المنقضية في البسيط. فهي تصف ظروف حياة لا تُحتمل بالنسبة إلى قوم تُركوا لأقدارهم وأوهنهم الزحار. وبلغ هذا الجو المشبع بالإحباط العميق ذروته ذات ليلة مع هطول أمطار أشبه بالطوفان. فشرع الإعصار المائي يكنس المآوي الواهية، وراح اللاجئون المبللون حتى العظام يرقصون سعياً وراء الدفء. وبدأ الشيوخ والنساء والفتيات، وقد ساد بينهم جو من الهذيان الجماعي، يرقصون «رقصاً رهيباً جهنمياً»، ويغنون بزعيق عال معربين عن يأسهم، وساخرين من وضعهم ومن السياسة المنكرة التي باتوا ضحاياها[30].

التخلــي عن مشروع باير نهائياً واقتناء عقار عنجر

في هذه الأثناء، عرضت على سلطات الانتداب المترددة مشاريع جديدة تتصل بالمصير الذي سيقدّر لهذه الجماعات. ولم يسترع انتباه المفوضية العليا طلب تقدم به سكان جبل موسى بنقلهم دفعة واحدة إلى منطقة جبلية غير مأهولة من مناطق العاصمة. فعرض متروبوليت زحلة، بصفته من مواليد السنجق، اقتراحاً على مندوب المفوض السامي[31] في ٢٢ تموز ١٩٣٩. ولما كانت تركيا قد طالبت بالسنجق بحجة أنه يضم أقلية تركية، افترض المتروبوليت أنها،

٢٨ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، ت.١٠٠، م.ص.، ٥٣٠، الطبيب الجنرال مارتان إلى المفوضية العليا (بين ١٦ و١٩ آب ١٩٣٩).

٢٩ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، ت.١٠٠، م.ص.، ٥٣٠، برقية، بارت إلى المفوض السامي، اللاذقية ٢٢ آب ١٩٣٩.

٣٠ كتاب مذكرات جبل موسى بإشراف مارتيروس كوشكجيان، زيوغوص مانوريان، بيروت ١٩٧٠، ص. ٤٩٩-٥٠٠.

٣١ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، ت.١٠٠، م.ص.، ٥٣٠، ثيفون متروبوليت الروم الأرثوذكس إلى مندوب المفوض السامي في دمشق، دمشق ٢٢ تموز ١٩٣٩.

عاجلاً أو آجلاً، سوف تطالب بجبل الأقرع ذي الأكثرية التركية. «بغية إلغاء الغبن اللاحق بالمسيحيين جراء طردهم من ديارهم من دون أي تعويض، وتحسباً لكل طارىء قد يوفر لتركيا الذريعة للمطالبة بحقها في جبل الأقرع، وتالياً توسيع حدودها باتجاه اللاذقية، مما سيؤدي إلى خسارة سوريا جبل الأقرع»، اقترح القيام بتبادل السكان بين قاطني جبل موسى وقاطني جبل الأقرع وبناء مدينة في شمال اللاذقية يسكنها المسيحيون المهجرون من السنجق، ويُقدَّر عددهم بستين ألفاً، ويتولى حاكم فرنسي إدارتها.

إلاّ أن عضو مجلس الشيوخ كوتورو، الذي وصل إلى بيروت في ٧ آب برفقة دوريموزا دوفيو وزار مخيم البسيط[٣٢]، نصح باختيار باير لأنها تقدم لأرمن جبل موسى موطناً شبيهاً بالموطن السابق، في منطقة مسيحية، قليلة الازدحام بالناس[٣٣]. غير أن الدكتور كاباكيان والسيد بابازيان، نائب حلب الأرمني، وكلاهما عضوان في لجنة حلب وفي الاتحاد الوطني الأرمني، وكانا قد التقيا عضو مجلس الشيوخ ورفيقه، لم يوافقا على ذلك وأطلعاه على معارضتهما الحازمة لمشاريع الإسكان هذه في باير والبسيط[٣٤]. أما بشأن الرأي الذي أعلنت عنه عائلات قليلة لجأت إلى بسيط ودعت إلى الإسكان في هذه المنطقة، فقد تقرر ألاّ يؤخذ في الحسبان إطلاقاً، وذلك لأن المعروف عن رؤسائها أنهم شيوعيون مشاغبون. فقط عشر عائلات تقريباً لها مصالح في المنطقة أعلنت أخيراً عن استعدادها للاستقرار في المكان[٣٥].

هذه المشاريع كانت قد ختمت بالأماني المعبر عنها، أثناء مفاوضات أنقرة، في ٢٩ تموز ١٩٣٩، من جانب سارادج اوغلو وبمينامن اوغلو اللذين لم يترددا في الإعراب لبيوو عن رغبة تركيا في رؤية المهاجرين الأرمن يتعدون عن الحدود السورية — التركية. شعر بيوو بالحرج أولاً، لكنه تخلى عن فكرة الإسكان بسهولة[٣٦]، خصوصاً أن غالبية اللاجئين اختارت في تلك الأثناء الجنسية اللبنانية[٣٧].

حينئذ اصطدم بيوو بصعوبة العثور في سوريا أو في لبنان على «أراض ملائمة وكافية ضمن حدود الاعتمادات التي منحت لي من أجل إسكان ما يقارب الـ ١٤٠٠٠ أرمني، ومن بينهم أكثر من ١٠٠٠٠ هم مزارعون»[٣٨]. توقع أن يجد في لبنان مؤسسة زراعية لديها ٣٠٠٠ هكتار والأموال الكافية لإعادة إنشاء قرى، وبناء ١٦٠٠ بيت لعدد مماثل من العائلات[٣٩]، وري المنطقة وإعالة ٨٠٠٠ شخص حتى موسم الحصاد القادم. قدّم الكشف التقديري في ما يخص فقط ١٢٠٠ عائلة أرمنية من عائلات جبل موسى وكان المبلغ ٢٥ مليوناً.

بعد أن واصلت السلطات الانتدابية استقصاءاتها، باشرت أخيراً مفاوضاتها مع رشدي بك توما، وهو ملاّك تركي ورث عن درويش باشا، حاكم دمشق السابق، عقاراً مساحته ١٥٤٠ هكتاراً، منها ٨٥٠ قابلة للرأي في البقاع على بعد ٥٠ كلم من بيروت، في عنجر، وهي مكان معلوم على طريق بيروت — دمشق. قدرت قيمته بحوالي ٨ ملايين فرنك، في حين أن صاحبه طالب بـ ٢٨ مليوناً. ما استطاع بيوو أن يعرض، في بادىء الأمر، سوى ٥ ملايين وطلب من ماسيلي، السفير في أنقرة، أن يتدخل لدى سرادج اوغلو ليقنعه بالضغط على رشدي بك الذي كان يسعى آنذاك لتفعيل الخدمات الدبلوماسية التركية، وحمله على الموافقة على البيع، وذلك بالتعويض علية عن الفرق، إذا اقتضى الأمر، بأراض هجرها الأرمن في السنجق[٤٠].

إزاء إلحاح الوضع وخطر إطالة المفاوضات، اعتبر بيوو، في ٤ آب ١٩٣٩، أن الحيازة على هذه الملكية يتسم «بصفة منفعة عامة من شأنه أن يبرر القيام بإجراء استثنائي»[٤١]. وتالياً رغب في أن

٣٢ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١.، م.س.، ٥٣٠، من هونتكلوك إلى وزير الخارجية، بيروت، ٢٢ آب ١٩٣٩.
٣٣ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١.، م.س.، ٥٣٠، غوتورو إلى هونتكلوك، اللاذقية، ١١آب ١٩٣٩.
٣٤ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١.، م.س.، مذكرة من كوله (؟)، المكتب السياسي: إلى رئيس المكتب السياسي، بيروت ١٨ آب ١٩٣٩.
٣٥ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.١.، م.س.، برقية، المفوض السامي إلى دبلوماسية باريس، بيروت ٨ آب ١٩٣٩.
٣٦ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.أ.، م.س.، ٥٣٠، بيوو إلى سفارة فرنسا في اسطنبول. ٢٩ تموز ١٩٣٩.
٣٧ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د. أ.، م.س.، ٥٣٠، مندوب مساعد بالوكالة لمحافظة حلب إلى المفوضية العليا، حلب. ٢٩ تموز ١٩٣٩.
٣٨ بيوو إلى سفارة فرنسا في اسطنبول، ٢٩ تموز ١٩٣٩، م.س.
٣٩ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت — د.أ.، م.س.، ٥٣٠، برقية ٨٦٢ إلى ٨٦٦، بيوو إلى دبلوماسية باريس [بيروت]، ١٨ تموز ١٩٣٩.
٤٠ بيوو إلى سفارة فرنسا في اسطنبول، ٢٩ تموز ١٩٣٩، م.س.
٤١ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.أ.، م.س.، ٥٣٠، برقية: بيوو إلى دبلوماسية باريس، ٤ آب ١٩٣٩.

تمكن من اللجوء إلى عملية استملاك، لا يقدم عليها إلاّ كحل أخير يجرى لصالح الدولة الفرنسية، مما ساعد في الحال على تعجيل المفاوضات الجارية مع أصحاب العقار.

في ٩ آب ١٩٣٩، اتخذ المفوض السامي قراراً، رقمه ١٦٩١، يتعلق باستملاك المواقع الضرورية لسكان اللاجئين، على أن يتم ذلك لصالح المفوضية العليا [٤٢]: وشمل استملاك أراضي رشدي بك توما [٤٣] العقارين رقم ١ و٢، ومساحتهما ١٢٧٢ هكتاراً ٦٧ آرا ٩٩ سنتيار، و٢٦٧ هكتاراً ٢٥ آرا و١٨ سنتيار، أي ما مجموعه ١٥٤٠ هكتاراً ٢٥ آرا ١٧ سنتيار. وقد حُدِّدت قيمتهما أخيراً بـ ٨ ملايين.

قام حقي بك العظم، رئيس المجلس السابق في سوريا بمسعى، فقدم إلى السراي في ١٧ آب يصحبه قريبه مؤيد العظم، صهر رشدي بك [٤٤]، وفي ٩ أيلول، جرت تسوية التنازل عن الأراضي نهائياً بالتراضي [٤٥]. وكان الاعتماد المفتوح لشراء الأراضي، في نهاية أيلول ١٩٣٩، ٨٢٠٠٠٠٠ فرنك، منها ٨ ملايين رصدت لدفع قيمة عقار رشدي بك [٤٦]. بالإضافة إلى ذلك، صدر عن فاسليه بيان يقول إن «التعهد الذي قطعه رشدي بك بالتعويض على جميع أصحاب الحقوق يعفي دائرتي من كل التزام» [٤٧].

وكان يجب شراء قطع أخرى من الأراضي ضروريــــة لتأمين حد أدنى من الأسس للبلدة الجديدة لإضافتها إلى العقار.

فأعلن المفوض السامي، بقرار رقم ٢٦٤ تاريخ ٧ تشرين الأول ١٩٣٩، ذا منفعة عامة لحساب الدولة الفرنسية، شراء خمسة عقارات تابعة لمنطقة مجدل عنجر العقارية، ثلاثة منها ملك الياس بك ناصيف طعمة سكاف (١٢٥٠٠، و١١٧٥٠ و٢٠٣٨٠ م^2)، واثنان لمنيف بك اليوسف (٦٨٠٠ و٢٢٦٥٠٠ م^2) [٤٨]. وتالياً قام ألبير عريس، بتاريخ ١٣ تشرين الأول ١٩٣٩، وفي حضور ابراهام كزانجيان ومرعي الحاج البعلبكي، بلصق إعلانات متعلقة بنزع هذه الملكيات على باب المختار ومسجد مجدل عنجر.

أبلغ منيف بك، من دون مناقشة، عن قبوله عروض التعويض التي تقدمت بها الإدارة على سبيل تعويض نزع الملكيـــة مقابل عقارَيه في مجدل عنجر «معتبراً أن الإدارة قدّرت هذه العروض بكل نزاهة» [٤٩].

أما الياس سكاف فاستأنف القرار، وحددت لجنة محكمة الاستئناف في الدائرة المختلطة مجموع التعويضات عن نزع الملكية [٥٠].

إن التخمينات والتسويات لم تنجز من دون تروٍّ. فقد أجريت تحقيقات دقيقة سمحت بتثمين قيمة الأراضي، مع الأخذ في الاعتبار، من بين أمور أخرى، الأسعار التي حددتها اللجان التحكيمية في شأن العديد من الأراضي الأخرى، كأرض أبلح لتلبية حاجات الجيش في ١٩٣٧، وتل العمارة لتلبية حاجات الطيران في ١٩٣٧ و١٩٣٨، وهما أرضان نوعيتهما أفضل من تلك التي كانت قيد البحث. ولاحظ فاسليه أن الأراضي المتروعة ملكيتها تقع على سفح صخري ذي انحدار متوسط (٧ إلى ٨ ٪)، حيث يظهر الصخر على قسم كبير من مساحتها. وسماكة طبقة التراب لا تتعدى، في أي نقطة، ٥٠ سنتمتراً [٥١]. وتم نقل ملكية العقارات في ٢٢ تشرين الأول ١٩٣٩ [٥٢].

وكان لا بد، عدا المشروع المتصل بسكان جبل موسى، من تحقيق مشروعين آخرين في لبنان:

- ملك في عدوه في منطقة طرابلس، كان قيد المفاوضة، مساحته ٣٥٠ هكتاراً تقريباً، صالح لإسكان ١٦٨ عائلة متحدرة من قرى عموق الأرمنيــــة. وتم التخلي عن هذا المشروع لاحقاً.

٤٢ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.أ.م.س.، ٥٣٠، قرار، بيروت، ٩ آب ١٩٣٩.

٤٣ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.أ.م.س.، عنجر (رشدي)، ٢٦٤٢، مذكرة من هوتكلوك، ١١ تموز ١٩٣٩.

٤٤ مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانت، د.أ.م.س.، ٥٣٠، مذكرة مكتب المفوض السامي [إلى كونه]، بيروت ١٧ آب ١٩٣٩.

٤٥ م ا د ن، د.أ.م.س.، ٥٣٠، برقية، المفوض السامي في بيروت إلى سفارة أنقرة، بيروت ٩ أيلول ١٩٣٩.

٤٦ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مستشار المفوضية العليا في الشؤون المالية إلى المفتش العام للأشغال العامة، بيروت، ٢٦ أيلول ١٩٣٩.

٤٧ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، ب. فاسليه، المفتش العام لمراقبة الشركات ذات الامتياز والأشغال العامة، بيروت ٣٠ أيلول ١٩٣٩.

٤٨ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، قرار المفوض السامي.

٤٩ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، منيف يوسف إلى المفتش العام لمراقبة الشركات ذات الامتياز والأشغال العامة، بيروت ٨ كانون الأول ١٩٣٩.

٥٠ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، محكمة الاستئناف، الغرفة المختلطة – بيروت، نسخة، بيروت ١٥ شباط ١٩٤٠.

٥١ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، فاسليه، بيروت ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٩.

٥٢ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، فاسليه، بيروت ١٤ أيلول ١٩٣٩.

• عقار البص ورأس العين (منطقة صور)، مساحته ٥٥٤ هكتاراً، وهو ملك قديم للسلطان محمّل بالحقوق تبعاً لدعوى الملكية التي رفعها ورثة السلطان عبد الحميد [٥٣]، وجزء من أملاك الدولة اللبنانية الخاصة، يصلح لإيواء ١٩٧ إلى ٢٥٠ عائلة مزارعين ينتمون إلى قضاء الاسكندرون، وقد لجأوا وقتئذ إلى بيروت بعد مرورهم بطرطوس. وجرى نزع ملكية الدولة اللبنانية من دون تعويض بموجب قرارين رقماهما ١٨٧ و٢٢٢ تاريخ ٢٦ آب و٨ أيلول ١٩٣٩[٥٤].

الانتقال الثاني من البسيط باتجاه عنجر

في ٢١ آب ١٩٣٩، ارتأى هوتكلوك أن يحتل عنجر في ٤ أيلول لكي ينقل إليها مزارعي جبل موسى الأرمن (١٢٠٠ عائلـــة) الذين كانوا قد لجأوا إلى البسيط وكسب[٥٥].

وطلب كذلك من المفتش العام للأشغال العامة، منذ اليوم التالي، أن يباشر، فور استطاعته، بناء ١٦٠٠ منزل ضروري لإيواء ١٦١٧ عائلة أرمنية (على المشاريع الثلاثة) وترميم الأماكن القائمة من قبل ضمن أملاك عنجر ورأس العين، بسعر إفرادي يقل عن ٦٠٠٠ فرنك للبيت الواحد، مع الأخذ في الاعتبار بأن الأرمن أصحاب العلاقة يستطيعون أن يؤمنوا جميع العمال اليدويين وبعض الأخصائيين. وإذا تبين ذلك مستحيلاً، فليطالب أن يكون نصف المساكن على الأقل منتهياً في ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٩. وقد زوده بارت من اللاذقية في ٢٢ آب بالمعلومات المطلوبة في صدد العديد والأمتعة[٥٦]:

بتياس	٢٢٨ عائلة	٩٨٢ شخصاً	٣٤٠ طن أمتعة ومواد
خضربك	٢٤٣ عائلة	١٠٨٢ شخصاً	٣٦٥ طن
فاكف	٨٩ عائلة	٣٦٨ شخصاً	١٣٥ طن
بوغون اولوك	٢٣٦ عائلة	٨٨٦ شخصاً	٣٥٠ طن
كابوسيه	١٩٣ عائلة	٨٩٨ شخصاً	٢٩٠ طن
هادجي هابيلي	٢١٥ عائلة	٩٠٩ أشخاص	٣٢٠ طن
المجموع	**١٢٠٤ عائلة**	**٥١٢٥ شخصاً**	**١٨٥٠ طن**
هذا الرقم الأخير موزع كما يلي:			
في كسب	٣٠ عائلة	١٠٠ شخص	حوالى ٥٠ طناً من الأمتعة
في مخيم الادجا	١١٧٤ عائلة	٥٠٢٥ شخصاً	حوالى ١٨٠٠ طن

هذه الأرقام تثبت رحيل بضع عشرات من العائلات إلى اللاذقية وبيروت. وتحسباً لهذا الرحيل، أجلى بارت باتجاه بيروت (مدرسة الصنايع)، صبيحة ٢٣ آب، النساء والأطفال الأرمن الموجودين في المستشفى في اللاذقية[٥٧]. وقد كلف المفتش العام في دائرة الأشغال العامة الاتصال بالكولونيل كوله لنقل الأرمن من جبل موسى إلى البقاع. وقد وردت شروط هذا الترحيل بإيجاز في مذكرة بتاريخ ٣ أيلول[٥٨]:

٥٣ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، فلسطيه، بيروت ٣٠ ايلول ١٩٣٩.

٥٤ م ا د ن، د.أ.، م. س.، ٨٣٠، مذكرة ب. سوله ــ سوسيال، رئيس القسم الاجتماعي لمندوبية فرنسا في المشرق، بيروت ٢٨ شباط ١٩٤٤.

٥٥ م ا د ن، برقية ف. دوهوتكلوك إلى مندوب اللاذقية المساعد، بيروت ٢١ آب ١٩٣٩.

٥٦ م ا د ن، مذكرة بارت إلى المفوض السامي، اللاذقية ٢٢ آب ١٩٣٩.

٥٧ م ا د ن، د.أ.، م. س.، ٥٣٠، برقية، مندوب بيروت المساعد إلى مندوب اللاذقية، بيروت ٢٢ آب ١٩٣٩.

٥٨ م ا د ن، د.أ.، م. س.، ٥٣٠ [مذكرة إدارية رقم ١٥١] ميريبه، المكتب السياسي، بيروت ٣ أيلول ١٩٣٩.

تاريخ الإبحار من خليج البسيط (ابتداء من الخامسة)	عدد الأشخاص	تاريخ الوصول إلى عنجر (حوالي الساعة ١٤)
٣ أيلول	٧٥٠ من بتياس	٥ أيلول
٥ أيلول	٢٣٢ من بتياس ٥١٨ من خضر بك	٧ أيلول
٧ أيلول	٥٦٤ من خضربك ١٧٦ من فاكف	٩ أيلول
٩ أيلول	١٨٢ من فاكف ٥٦٨ من يوغون اولوك	١١ أيلول
١١ أيلول	٣١٨ من يوغون اولوك ٤٣٢ من كابوسيه	١٣ أيلول
١٣ أيلول	٤٦٦ من كابوسيه ٢٨٤ من هادجي هابيلي	١٥ أيلول
١٥ أيلول	٦٢٥ من هادجي هابيلي ٢٠٨ ينقلون من اللاذقية	١٧ أيلول

أ) من الادجا إلى طرابلس، يتم هذا النقل بحراً ويؤمنه السيد عبد الوهاب من طرابلس الذي رست عليه المناقصة. إن الإبحار من خليج البسيط في التواريخ المبينة اعتباراً من الخامسة ينبغي أن ينتهي حوالي الساعة ١٧، وذلك نتيجة جهود الناقل وتحت إشراف ضابط من المخابرات. أما الوصول إلى طرابلس فيتم غداة اليوم التالي الساعة الخامسة تقريباً، ثم يؤمّن الإنزال والنقل إلى محطة طرابلس على همة الناقل. وينبغي الانتهاء منهما في الساعة ١٤. علاوة على ذلك، يتوجب على السيد عبد الوهاب، بالاتفاق مع ضابط مخابرات كسب، أن ينقل أيضاً، في شاحنات وعلى نفقته، ١٠٠ أرمني (تقريباً) و٥٠ طناً من الأمتعة المقابلة من كسب إلى اللاذقية، ومن ثم إلى عنجر.

ب) من طرابلس إلى رياق بالخط الحديدي: يتم السفر بالقطار ابتداء من الساعة ١٤ وتحت إشراف السيد المستشار الإداري في طرابلس، ويكون الانطلاق من طرابلس قرابة الساعة ١٨ بالنسبة إلى الأشخاص والساعة ٢٠ للأمتعة. ويتم الوصول إذاً إلى رياق في اليوم التالي قرابة الساعة ١٠، أي بعد يومين من الانطلاق من البسيط.

ج) من رياق إلى عنجر بالشاحنات (الملتزم السيد بركات من اللاذقية): يجري نقل الأشخاص وقسم من الأمتعة في الشاحنات ما إن يتم الوصول إلى محطة رياق وتحت إشراف السيد المستشار الإداري في زحلة. اما نقل الأمتعة المتبقية فيكون صبيحة اليوم الذي يلي وصول كل فريق من ركاب القطارين.

٥٩ م ا د ن، د.ا.، م. س.، ٥٣٠، مذكرة «في شان توطين الأرمن»، ٢٥ ايلول ١٩٣٩.

٦٠ أرشيف الآباء اليسوعيين بيروت، رسالة – تقرير «اللاجئون الأرمن القادمون من الاسكندرون»، الأب ميسيريان، بيروت ١٣ تشرين الثاني ١٩٣٩، ص. ٢.

٦١ م ا د ن، د.أ.، م. س.، ٥٣٠، مذكرة هونكلوك إلى مفتش الجمارك العام بالوكالة. بيروت ٢٦ آب ١٩٣٩.

الاستقرار في عنجر والعملية الشاقة لتأليف الوحدة الإدارية

١٩٣٩: مشروع انجز في تسرع

هنا أيضاً لا تزودنا المراجع بتفاصيل مسار النقل، ولا بالانطباعات الأولى في شأن هذا الإسكان. ونحن نعلم أن نقل الأرمن من جبل موسى ومخيم البسيط إلى عنجر كان قد انتهى منذ ١٢ أيلول، أو على بعد تقدير في ١٧ منه، «في أفضل ظروف»، بفضل الإجراءات التي اتخذها المندوب المساعد في اللاذقية والمستشار الإداري في زحلة[٥٩]. ويوضح ميسيريان أنهم نقلوا إليها ما بين ٥ و٨ أيلول[٦٠].

جرى استيراد كمية محددة من المشمع الياباني المعد اصنع الخيم معفاة من الرسوم الجمركية لحساب شركة جورج بردويل، وقد تنازل عنها للاتحاد الوطني الأرمني[٦١]. وهكذا حل الأرمن في مخيم



حافيات، وفي ثياب خفيفة، كان على الصغيرات أن يواجهن فصل الشتاء بثياب لا تقيهن البرد بشكل كاف بتاتاً وفقا لتقارير ليوبوفان في ١٩٤٣. مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

مؤقت تحت خيم رقيقة زودهم بها «الاتحاد الوطني الأرمني» والمفوضية العليا، على مقربة من موقع القريـــة المزمع إنشاؤها لاحقاً[٦٤].

وروت لنا نايرا دير كيورغيان[٦٣] أن بعض الأرمن تذكروا بعد أكثر من ٦٠ سنة أنهم أُنزلوا كقطيع ماشية نوعاً ما، ليلاً وفي وسط الظلام القسري المفروض في أزمنـــة الحرب، وأنهم فوجئوا في الصباح باتساع الأرض البور حيث تم إبعادهم.

ورغبـــة في إدارة جماهير الناس وتأمين انضباط المخيمات، كلفت لجنـــة مؤلفة من رئيس وممثل عن كل من القرى الست الأصليـــة تمثيل اللاجئين: ستة مخاتير، أربعـــة منهم رسوليون واحد بروتستانتي وواحد كاثوليكي[٦٤]. وبما أن هذه اللجنة المحليـــة لم تنجح في فرض هيبتها على الجميع، استدعي موسيس دير كالوستيان، الوحيد الذي يتمتع بسلطة معترف بها — وكان يومها يقيم بصفـــة ملازم أول في الفرقة الأجنبيـــة في بعلبك على بعد بضعة كيلومترات[٦٥]. وكان لا بد أيضاً من مركز للمخابرات لإدارة اللاجئين[٦٦].

٦٢ أرشيف الآباء اليسوعيين، بيروت، ميسيريان. م. س.

٦٣ نايرا دير كيوراغيان، «عنجر إبان الحرب العالمية الثانية»، مشروع بحث أنجز في الجامعة الأميركية في بيروت.

٦٤ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١. الملازم الأول ريوكو، ضابط المخابرات في عنجر، ٥ نيسان ١٩٤١، «إسكان أرمن عنجر».

٦٥ مذكرة «حول إسكان الأرمن»، ٢٥ أيلول ١٩٣٩، م. س.

٦٦ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١. الملازم الأول ريوكو، م. س.

ثم عمم الطبيب الجنرال مارتان، مدير دائرة الصحة في المفوضية العليا، تعليمات صحية، فدعي المستشار الإداري في زحلة، المكلف بمراقبة المخيم وإقامته، للسهر شخصياً على تطبيقها. أما الدكتور بوياجيان، الذي قدم بصحبة لاجئين من جبل موسى، فأنيط به تأمين الخدمة الصحية تحت إشراف الطبيب الجنرال مارتان. وأنشئت غرفة تمريض ومستوصف بصورة مؤقتة فتعين على المفوضية العليا تزويده بالأدوية؛ في حين أن تهيئة غرفة التمريض وشراء الأسرّة والمواد الضرورية كانا على عاتق «الصليب الأحمر الأرمني»[٦٧].

إلى ذلك، رسمت دائرة الأشغال العامة التابعة للمفوضية العليا تصميماً للقرية المقبلة (هو من عمل هاكوب كشيشيان)[٦٨]، فإذا بموقعها على المنحدرات الأخيرة لجبل عنجر يحمي أغنى الأراضي، كما يضمن سلامتها من الأمراض. وبغية توسيع الأرض وجزء من القرية، أقدمت دائرة الأشغال العامة على مفاوضات لشراء ٥٠ إلى ٦٠ هكتاراً ملاصقة لأملاك عنجر.

فازت مؤسسة سانرابت وبرايس، تحت مراقبة الأشغال العامة التابعة للمفوضية العليا، بالتزام مشروع بناء المنازل في ١٩ أيلول. كما قامت دائرة المراقبة هذه بدراسة الأشغال ذات الضرورة القصوى: جر مياه الشفة إلى القرية، وإعداد نبع عنجر وأعمال تنقية المكان. ثم دُعي الأرمن، للحد من الكلفة ولتشغيلهم، إلى تقديم القسم الأكبر من اليد العاملة المكلفة تنفيذ هذه الأشغال. كما أخذ التصميم المرسوم في الحسبان تشييد مدارس ودور عبادة (رسولية، كاثوليكية وبروتستانتية) في المواقع المخصصة لها، يقع بناؤها على عاتق الطوائف. وكان التجمع المتوقعة إقامته في الجزء الجنوبي من العقار، والمسمى «موسى لير»، مقسوماً إلى ستة أحياء تقابل القرى الست في جبل موسى، ويُفترض أن يتكوّن من ١٢٠٠ بيت، كل منها يضم غرفتين ومطبخاً وحماماً. غير أن الظروف الناتجة عن الحرب عملت على تقليصها إلى غرفة واحدة، على قطعة أرض مساحتها ٤٠٠ م٢.

٦٧ «مذكرة حول إسكان الأرمن»، ٢٥ أيلول ١٩٣٩، م. س.

٦٨ دير كيوراغيان، م. س.

وكان يعبر هذا التجمع شريان رئيسي بعرض ٥٦ متراً، وشوارع ثانوية معبّدة عرضها ١٢ متراً إضافة إلى أرصفة عرضها ٤ أمتار وشوارع ثالثية تصل إلى ٦ أمتار مع أرصفة بعرض مترين.

في السنة الأولى، تم التخطيط لاستثمار جماعي فقط للعقار تحت إدارة مهندس زراعي أرمني جرى تعيينه بالاتفاق مع الاتحاد الوطني الأرمني. ولتأمين لقمة عيش سكان عنجر منذ موسم حصاد الحبوب القادم، تقررت زراعة ٥٠٠ هكتار، تُخصص ٤٠٠ منها للقمح و١٠٠ للشعير. وكي لا تبقى المساحة المتبقية بوراً، وكانت تُقدَّر بـ ٨٠٠ هكتار، وحتى يتاح استعمال هذه الأراضي منذ مطلع السنة القادمة، كان لا بد من حراثتها فوراً. ولكن رغبة في التخفيف من هذه النفقات الأخيرة، تم تأجير ٣٠٠ هكتار من الأرض لمدة عشرة أشهر.

وكان على اللجنة الأرمنية حينذاك أن تهتم باستئجار الجرارات وشراء البذور، وأن تسهر كذلك على أن يقوم مخاتير كل قرية بشراء عدد من الحيوانات الضرورية (حمير وأبقار). ونظمت، بالاتفاق مع المستشار الإداري في زحلة، كيفية استخدام المباني القائمة فوق العقار: مزارع وطواحين. واعتُبرت الينابيع، والغابات، والمراعي والمساحات الصخرية بمثابة ثروات عائدة للجماعة. وكان يجب أن يُحدَّد فرز العقار مع الأخذ في الاعتبار الثروات التي جرى التخلي عنها في السنجق، وعدد أفراد كل عائلة. ولتأمين الأنصاب، ارتئيت مناشدة مدير أملاك الآباء اليسوعيين في تعنايل (شتورا).

وفي انتظار تحقيق كل ذلك، ولتقديم بعض الموارد الهزيلة للاجئين، تم دفع القسم الثاني من علاوة الإسكان اعتباراً من ٢٥ أيلول. كما دفع لأرباب العائلات، ابتداء من ١٣ تشرين الثاني ١٩٣٩، علاوات إعاشة

قدرها عشرة قروش في اليوم لكل بالغ وولد فوق الثانية عشرة، وخمسة قروش لكل ولد أصغر سناً. وكانت هذه العلاوة متوقعة طوال فترة استمرار أعمال بناء البيوت[٦٩]. كما حددت للشخص الواحد علاوة إعاشة يومية موحدة قدرها فرنكان، يدفعها سلفاً وشهرياً المستشار الإداري في زحلة، وذلك اعتباراً من ١ كانون الأول ١٩٣٩.

غير أن وصول اللاجئين بدأ في الخريف وما لبث الوضع أن تردّى. وقد لخص الأب ميسيريان، الشاهد على هذا الإسكان، الوضع العام والصحي، مطلع تشرين الثاني، بقوله: «هنا أيضاً سببت الأمراض أضراراً فادحة. الملاريا، والزحار، والتهاب الرئة وحتى بعض حالات التيفوئيد؛ لقد أصيب خاصة الأطفال إصابات بالغة. وكان ينبغي أن يتم الانتهاء من البيوت الصغيرة، وعددها ١٢٠٠ بيت، قبل موسم الأمطار الغزيرة. ولكن التأخير الذي لا مناص منه في تحقيق مثل هذا المشروع الضخم فرض على السلطات ترتيبات جديدة. فنُقل الأطفال والنساء والمرضى في تلك الأيام إلى القرى المجاورة: بر الياس، وقب الياس، وجديتا، وشتورا وزحلة، في انتظار الإنتهاء من أعمال البناء التي ستستمر بوتيرة أسرع وأنشط»[٧٠].

وفي ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٩، قيّم بيوو أيضاً، من جانبه، أعمال الإسكان بقليل من التفاؤل[٧١]. فذكر الوضع الصحي نفسه، وعزا البطء في عمليات البناء إلى «عدم كفاءة» و«خمول» اللاجئين المستخدمين كيد عاملة، وأبدى اعتقاده بأن أشغال الحراثة والبذر المنفذة كافية لتأمين معيشة اللاجئين لاحقاً، وأقر، مع ذلك، عرضاً أن الميزانية المخصصة لا تكفي لإغاثة «جماعة من السكان تعاني من سوء التغذية، ولا تلبس ما يكفي من الثياب، وتهددها الأوبئة».

مثلما أثبتت مذكرة صادرة عن دوائر المفوضية العليا أن سكان المخيم أُصيبوا، منذ ١٢ أيلول، بسلسلة من الأمراض المعدية (التيفوئيد) أو المستوطنة (الملاريا، والرمد) وأنه سُجلت، في غضون شهرين، ٤٨ حالة وفاة. وقد كشف تحقيق طبي أن ٩٠٪ كانوا قد تعرضوا لاجتياح حمى المستنقعات.

للقضاء على هذه الأمراض، اتُخذت إجراءات وقائية مشددة، وكلف طبيب عسكري، هو النقيب لاونان، وطبيب أرمني، توازرهما ثلاث ممرضات تأمين الرقابة الصحية في المخيم بصورة دائمة وتوفير الإسعافات الطبية للاجئين؛ فأجريت ٣٥٠٠ عملية تلقيح ضد التيفوس بفضل مساهمة فرق الجامعة الأميركية الطوعية؛ وأنشىء مركز طبي وسط المخيم، إضافة إلى غرفة تمريض صغيرة تبعد مسافة ٣ كلم، انتدب فيها القسيس كونزلر قابلة قانونية[٧٢]. مثلما توجب عليهم أن يكافحوا الزحار، ويقوموا بحملة تلقيح ضد الجدري[٧٣]. وتم تحويل الحالات الخطرة فوراً إلى مستشفيات بيروت. وراحت دوائر الصحة تقوم بإجراء تفتيش منظم. وتقرر تطهير المراحيض وتعقيم مياه الشفة بإضافة محلول الجافيل إليها.

وقد وجه المفوض السامي نداء إلى اللجنة الأرمنية وجمعيات الصليب الأحمر لتأمين بعض المؤن للاجئين الذين كانوا يشكون من قلة التغذية والوهن[٧٤]. واقترح بيوو والدوائر الانتدابية مناشدة مختلف الجمعيات الأرمنية (الكاثوليكوسية، والجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، والاتحاد الوطني الأرمني، والسيد كالوست كولبنكيان، الخ.) من أجل جمع الأموال اللازمة. وأسهمت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية في النفقات، فتولت تركيب مضخة وتجهيز عشرة براميل تزود بماء الشفة المجوفل، وأخذت على عاتقها جزءاً من المصاريف المتوجبة لتأمين سير الخدمات الصحية[٧٥].

٦٩ م ا د ن، د. أ.، م. س. ٥٣٠، مذكرة أمين عام المفوضية العليا في بيروت إلى مستشار الشؤون المالية في المفوضية العليا، ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٩.

٧٠ أرشيف الآباء اليسوعيين، بيروت، ميسيريان، م. س.

٧١ م ا د ن، د.أ.، م. س.، ٥٣٠، غبريل بيوو إلى وزير الخارجية، بيروت ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٩.

٧٢ م ا د ن، د.أ.، م. س.، ٥٣٠، مذكرة (غير مؤرخة، الأرجح في تشرين الثاني ١٩٣٩).

٧٣ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، الملازم الأول ريوكو، م. س.

٧٤ م ا د ن، د.أ.، م. س.، ٥٣٠، مذكرة (غير مؤرخة. الأرجح في تشرين الثاني ١٩٣٩).

٧٥ م ا د ن، د. أ.، م. س.، ٥٣٠، المطران بدروس سرانجيان، وكيل كاثوليكوسية كيليكيا الأرمنية إلى السيد ف. كونتي رئيس مكتب المفوض السامي السياسي. انطلياس ٢٧ تشرين الثاني ١٩٣٩.

١٩٤٠: سنة تقليص الميزانية، تتمخض عن عواقب مأساوية

أخيراً، أدرك الطبيب الجنرال مارتـــان أن «إسكان الأرمن سواء في عنجر أو في الراس محفوف بالمخاطر»[٧٦]، ويستوجب الوضع الصحي التلقيح ضد الجدري وإعادة التلقيح ضد التفوئيد والحمى المعويـــة. وللحفاظ على الطبيبين الأرمنيين، اللذين تعذر عليهما تأمين زبائن يدفعون بدل أتعابهما، اقتضى منحهما تعويضاً، غير أن المساعدات التي قدمتها جمعيـــة كونزلر السويسرية والجمعيات الخيريـــة الأرمنيـــة (أدوية، ومواد، وراتبي الممرضتين في عنجر) تقلصت واضطرت إحدى الممرضتين إلى أن تترك عملها.

إلى ذلك، كانت الظروف المحليـــة تؤكد حصول تسرب كثيف لطفيليات حمى المستنقعات إلى السكان، وكان يُطلب من الطبيب الجنرال مارتان، بسبب الحرب، أن يحد من برنامج الوقايـــة الطبيـــة لمعالجة حمى المستنقعات ؛ لذا اقترح القيام بحملـــة جديدة أشد توفيراً للمال، مدتها ٢٩ أسبوعاً، تعتمد على تناول الـــ«بريمالين» أسبوعياً. وطلب، للتأكد من حسن التقيـــد بالعلاج، أن يتم تناول الدواء أمـــام الموظف المكلف، بحيث يتوجب على كل شخص أن يتقدم ومعه لقمـــة خبز ويستهلك الدواء في مكانـــه. وكان ينبغي التزود بالمستحضر من مخزون فرق المشرق[٧٧].

كما إن السباق من أجل التوفير دفع المفوضية العليا إلى التفكير في الامتناع عن دفع علاوات الإعاشة حتى موسم الحصاد في نهايـــة تموز، وهي الفترة التي، ابتداء منها، يُعتبر الأرمن قادرين على الاكتفاء الذاتي. وأكدت دوائر المفوضية العليـــا، لتبرير موقفها على أحسن وجه، أن الجميعات الخيرية الأرمنيـــة نفسـها بدأت تقلص مساهمتها.

وكانت الوقايـــة الكيميائيـــة من حمى المستنقعات لدى اللاجئين المصابين بها بأعداد كبيرة تجري على قدم وساق وتُعد أولويـــة في نظر الطبيب الجنرال مارتان، الذي لاحظ أن هذا الداء يؤدي إلى «نقص عام في القدرة على عمل الجماعـــة»، ويشجع على فرار العائلات اليائسة أو الخائفـــة[٧٨]. كما أن الإسعافات الطبيـــة، في أيار ١٩٤٠، كانت تؤمن للاجئين مجانـــاً حتى أواخر ١٩٤٠[٧٩].

ورغم عودة الطقس الجاف، لم يستمر الجهد المبذول إلاّ بصعوبـــة. وتشير مذكرة سلمها السيد دوسالان إلى التقدم غير المنتظم سواء في أشغال الأقنية التي نفذها ٢٥٠ عاملاً، أو في طلي البيوت والحفر حولها تجنبـــاً لفيضانها أثناء هطول الأمطار أو حتى لانهيـــارها. أما أعمال جر المِيـــاه والري التي باشرتها المفوضية العليـــا انطلاقاً من ميـــاه النبع، الذي يولد من أسفل السلسلة الشرقيـــة وينبثق ضمن أملاك عنجر في مكان منخفض من القريـــة، فكانت تحتاج إلى رفع آليّ. إن تركيب إنشاءات هيدرولية تديرها ميـــاه النبع كما كان متوقعاً في البدايـــة، تم التخلي عنه بسبب الظروف التي أوجدتها الحرب، واستعيض عنـــه بمحطة مؤقتـــة للضخ، مزودة بمحرك يعمل على المازوت. وقد انتهى العمل فيها، وجرى تركيب أنابيب لنقل الميـــاه وتوزيعها، وبُنيت قنـــاة الري الرئيسيـــة بالتراب على طول ٣ كلم تقريباً.

وطلب السيد يعقوب، وهو نائب سابق عن صيدا ومهندس زراعي يملك ٣٣٠ هكتاراً من الأراضي في قريـــة حوش الحريمي التي تبعد ٤ كلم، أن يستفيد في الوقت نفسه من هذه الميـــاه. شكل ذلك، بفضل الأتاوة التي تعهد بدفعها، مناسبة لتلبيس القناة بالإسمنت والحد، في آن، من الخسائر الناجمة عن التسرب وضرورة القيام بأعمال التنظيف[٨٠].

٧٦ م ا د ن، الطبيب العام مارتان، مفتش الصحة العامة والأعمال الاجتماعية ومدير خدمات الحجر الصحي في المفوضية العليا، إلى بيوو، بيروت ٢٦ كانون الأول ١٩٣٩.

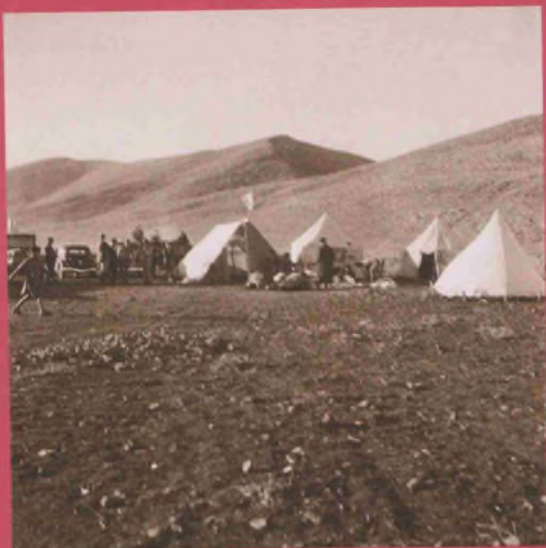
٧٧ م ا د ن، د.أ.، د. س.، ٥٣٠، الطبيب العام مارتان إلى بيوو، بيروت ٦ أيار ١٩٤٠.

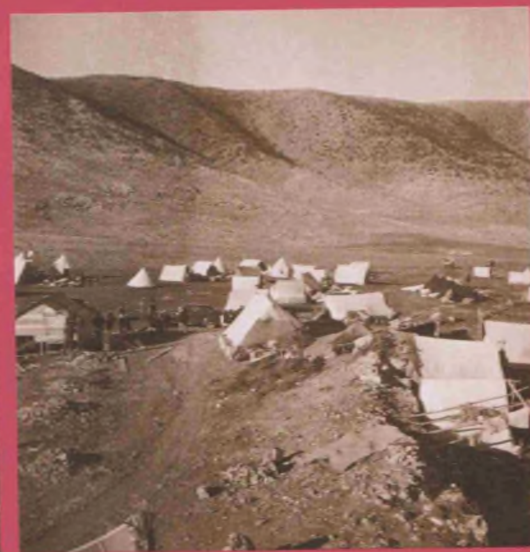
٧٨ م ا د ن، د.أ.، د. س.، ٥٣٠، الطبيب العام مارتان إلى بيوو، بيروت ٦ أيار ١٩٤٠.

٧٩ م ا د ن، د.أ.، م. س.، ٥٣٠، مذكرة إلى السيد مدير خدمات الحجر الصحي، بيروت، ٩ أيار ١٩٤٠.

٨٠ م ا د ن، د.أ.، د. س.، ٥٣٠، المكتب السياسي [كونتي] إلى فسليه، مفتش الأشغال العامة، بيروت ١٣ أيلول ١٩٤٠.







عنحر ١٩٣٩
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

عنحر ١٩٣٩
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



عنحر ١٩٣٩، صنع الطوب لبناء البيوت.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



عنجر ١٩٣٩.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



عنجر ١٩٣٩ — فرز الألبسة.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي





عنجر ١٩٣٩، المخيم إثر وصول الأرمن عند أطراف الاطلال الأموية، وترسم بقايا أبراج السور حدود موقع نصب الخيم. في هذه المنطقة الخربة، بجوار مستنقعات صغيرة، تم تشييد ١٢٠٠ بيت صغير في بضعة أشهر، وكلها مكعبة الشكل ومؤلفة من غرفة واحدة.
فوتو ج. ميمريان.
م. ش. — ج.ق.ع

وانتهى الجزء الأساسي من الأعمال في تشرين الثاني ١٩٤٠، غير أن صعوبات التزود بالمواد الأولية أوقفت عملية البناء.

وقدّر إحصاء أجري في تشرين الأول ١٩٤٠ عدد السكان بـ ٤٦٨٢ شخصاً[٨١]. عندها قررت اللجنة أنه من الأفضل توزيع عقار عنجر بين اللاجئين بمنح تسهيلات دفع لمدة ٥ أعوام قبل التنازل عنها كملك تام لهم، سواء بالنسبة إلى الملحقات أو إلى الأشخاص العاديين. وخضعت الموارد، التي أدارها المجلس البلدي خلال فترة ١٠ أعوام، إلى رخصة من الإدارة المانحة وموافقة أغلبية أرباب العائلات في القرية المعنية[٨٢]. ومنحت الأراضي باعتماد ثلاث فئات: جميع العائلات تحصل على قطعة أرض قابلة للري؛ والعائلات المؤلفة من ٤ أو ٥ أو ٦ أشخاص تحصل على قطعة أرض ثانية بعلية؛ أما العائلات المؤلفة من أكثر من ٦ أشخاص فتحصل على ٣ قطع، اثنتان منها بعليتان[٨٣].

١٩٤٠: سكان عنجر متروكون في خضم حرب أهلية فرنسية ــ فرنسية

جرى توزيع الأراضي مطلع كانون الثاني ١٩٤١ بالنسبة إلى الأراضي البعلية، ونهاية آذار ١٩٤١ بالنسبة إلى الأراضي القابلة للري. وأثار البحث عن حطب للتدفئة «بعض المشكلات بين الأرمن والسوريين الحدوديين ولا سيما جراء قطع الحطب الذي كان اللاجئون يعمدون إليه في الغابات السورية. وكانت أشد هذه المشكلات خطورة تلك التي وقعت في ٣ شباط ١٩٤١، حيث تم تبادل إطلاق نار مع الدركيين السوريين». وقد وصف الملازم الأول ريوكو، ضابط المخابرات المسؤول عن مركز عنجر، هؤلاء القرويين على النحو التالي: «لا شك في أن هؤلاء الأرمن قوم أقوياء ونشطون، ولكنهم أصحاب رؤوس قاسية وساخنة، وهم محبون للقتال. إنهم يساندون بعضهم بعضاً بشكل لافت، ومن الصعب جداً معرفة الحقيقة منهم لفرط حرصهم على تعليمات التزام الصمت».

إن الوثائق الناقصة في المراجع الفرنسية، ابتداء من خريف ١٩٤٠ وبالنسبة إلى مجمل عام ١٩٤١، تعبّر بوضوح عن التحول الذي أثّر في الأرمن وعن تطور الوضع المحلي. في هذه المرحلة من الحرب، لم يبدُ أن العنجريين احتلوا مكانة كبيرة في اهتمامات وزارة الخارجية الفرنسية. فثمة حرب أهلية حقيقية بريطانية ــ فرنسية ــ فرنسية كانت رحاها تدور في لبنان الخاضع لحكم سلطات فيشي. ووفق الشهادات التي جمعتها نايرا دير كيورغيان، فإن بناء المساكن لم ينته إلاّ عام ١٩٤١. وفي ٣١ آذار ١٩٤١، كان الوضع السائد هو الآتي: «١٠٦٢ بيتاً للسَكن، ومدرسة مخصصة للطائفة الرسولية، وبيت للكاهن ودار للعبادة للطائفة الكاثوليكية، ومعبد وقاعة محاضرات للطائفة البروتستانتية، ومحطة لضخ المياه وخزان معد لتغذية القرية بمياه الشفة، هذه المياه التي يتم توزيعها من خلال ستة عشر سبيلاً متناثراً في أحياء القرية الستة عشر، وكل حي يقابل قرية أصلية من قرى اللاجئين»[٨٤].

وسرعان ما تبين أن هذه المساكن البدائية غير صحية. وكان الأرمن لا يزالون مقتنعين بأن نهاية الصراع ستشهد عودتهم إلى جبل موسى، ولذلك لم يسعوا أبداً إلى استثمار أراضيهم ولا إلى زيادة قيمتها. وبما أن اللاجئين لم يتمكنوا من اصطحاب ماشيتهم وأدوات حراثتهم معهم، «اضطر المزارعون للشروع بأعمال الحراثة والبذر لتلبية متطلبات قرويي الجوار الذين استغلوا وضعهم البائس من دون شفقة»[٨٥]. ففضلوا تأجير سواعدهم في مزارع القرى العربية القريبة أو استخدامهم عمالاً في القاعدة العسكرية الجوية في رياق. هذه القاعدة، التي حاولوا توسيعها لتمكين قاذفات قنابل ضخمة من الهبوط فيها، كانت، كما كل ما يحيط بها، هدفاً لغارات الطيران البريطاني الذي يوزع قنابله بسخاء حول أهدافه. إلاّ أن وصول البريطانيين وقوات فرنسا

٨١ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، الملازم الأول ريوكو، م. س.
٨٢ [كونتي] إلى فاسليه، ١٣ أيلول ١٩٤٠، م. س.
٨٣ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، الملازم الأول ريوكو، م. س.
٨٤ م. س.
٨٥ م ا د ن، د.ا.، م. س.، ٨٣٠، مذكرة ب. سوله ــ سوسبيل، بيروت ٢٨ شباط ١٩٤٤.

الحرة، إبان صيف ١٩٤١، أمّن انفراجاً نسبيـــاً جداً، إذ أتاح بخاصة تمويناً أفضل. كما أوجدت إقامةُ قواعد عسكريـــة جديدة وتطويرها في البقاع عملاً للاجئين مرة جديدة.

وأحد القرارات النادرة المتخذة في نهاية العام كان تسميـــة الدكتور فرح الذي كُلف تأمين الإسعافات الطبيـــة للاجئين الأرمن في عنجر[٨٦]، على سبيل المساعدة المؤقتـــة.

إعادة اكتشاف السلطات المدنية والعسكرية الفرنسية لعنجر

خلال صيف ١٩٤٢، قضى وباء حمى المستنقعات الفتاك على السكان الذين تم نقلهم وإسكانهم في مناخ من البؤس العميق، بعدما عانوا قلة التغذية وتركوا لمصيرهم في ظروف صحية غير مرضية على الإطلاق. فقد بلغ عدد الوفيات عشرة إلى عشرين شخصاً في الأسبوع، مما «دفع اللاجئين، وقد روعتهم هذه الأضرار، إلى التفكير في الهرب بكثافة في اتجاه مناطق أقل عرضة للمخاطر»[٨٧].

رغم ذلك، لم يشغل هذا الوضع بال السلطات الفرنسية المسؤولة إلاّ قليلاً. ولكن السيدة سيبرز، الموجودة في لبنان إلى جانب زوجها، كانت قلقة، فاستدعت، في ١٧ أيلول، الدكتور صايغ من مكتب الحجر الصحي، وقد كلفه الطبيب الجنرال كيرياك بتفتيش قرية عنجر دورياً، فشرح لها بأن مادة الكينين غير متوفره لديه. فأخذت بنفسها المبادرة لمكافحة المرض، وقدمت طلباً بالحصول من مصر على الـــ ٢٠ كلغ الضرورية لسد حاجات المندوبية العامة[٨٨]. أما الجنرال كاترو، القائد العام والمندوب العام المفوض في المشرق، «فلما أبلغتـــه السيدة سبيرز بهذا الوضع بأسلوب خبيث أثناء محادثـــة في أحد الصالونات» مُسَّ في الصميم وعاقب بشدة الدوائر المذنبـــة[٨٩]، بعدما طالب بمعلومات في شأن «الوضع الصحي البائس في قرية مجدل عنجر الأرمنيـــة» [٩٠]. عندئذ جهّز مؤسسة فعالـــة، تحت إشرافـــه المتيقظ بعد أن أفاد من أموال اقتُطعت من هبة شخصيـــة بقيمة ٥٠٠٠٠٠ فرنك تبرع بها الجنرال ديغول[٩١]، وأمر باقتطاع ٢٠ كلغ من الكينين من مخزون الأدويـــة الخاصـــة بالعسكريين من دون تلكؤ[٩٢]. بعد تعزيز الدائرة الطبيـــة، باتت معالجـــة السكان بالكينين مؤمنـــة تحت مراقبـــة الدكتور صايغ، يؤازره ممرض عسكري فرنسي «جادّ»، مما سمح بالقضاء على الوباء[٩٣].

من ناحية أخرى، إن اقامة مدرج للطيران الأميركي[٩٤] في موعد قريب بجوار عنجر دفع الحاكم العام إلى أن يأمر بإتمام تنقية المنطقة في أسرع ما يمكن.

وتوجه ب. سوله ـــ سوسبيال، المسؤول عن القسم الاجتماعي في جولة تفتيشية إلى عنجر في ١٩ أيلول ١٩٤٢. أما الطبيب الجنرال كيرياك، مدير دائرة الصحة لدى القوات الفرنسية الحرة، والمتفائل الدائم، فقصدها للتفتيش يوم ٢٨ أيلول، ليتحقق من تنفيذ الأوامر. فوجد وضعاً «ليس قاتماً كما صوروه»[٩٥]، وقال: «إن عدد الموتى ارتفع خلال شهر أيلول إلى خمس وفيات، وأعاد تقدير عدد المرضى المصابين بحمى المستنقعات بألف شخص. وفكر «إن المرضى الذين في حمايتنا، لئن أهملوا بعض الشيء، فإنهم لم يفعلوا شيئاً من جانبهم للإحتماء من عوارض المرض»[٩٦]. وكانت تنقية الأراضي الزراعية، التي يجب أن تجفف أجزاءَها الأقرب إلى القرية الأعمالُ الجارية، تشغل باله، إذ إن النبع الغزير جداً كان يشكل نهراً ضفتاه أشبه بمستنقعات واسعة؛ وتنظيمه يتعدى كثيراً طاقات السكان وإمكانياتهم، وذلك بسبب ضخامة الأعمال التي كان ينبغي القيام بها (تسوية الأرض، وبناء أقنية

٨٦ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، الأمانة العامة لمندوبية فرنسا الحرة العامة في المشرق، قرار رقم ٥٦٢/ ف ج تاريخ ١٠ كانون الأول ١٩٤١ بخصوص الدكتور فرح.

٨٧ مذكرة ب. سوله ـــ سوسبيال، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

٨٨ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مدير مكتب القسم الاجتماعي إلى كاترو، بيروت ١٩ أيلول ١٩٤٢.

٨٩ مذكرة ب. سوله ـــ سوسبيال ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.، م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مدير مكتب القسم الاجتماعي إلى الجنرال كاترو، بيروت ١٩ أيلول ١٩٤٢.

٩٠ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، سوله ـــ سوسبيال إلى دير كالوستيان، بيروت ٢٢ أيلول ١٩٤٢.

٩١ مذكرة ب. سوله ـــ سوسبيال، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

٩٢ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، الطبيب العام كيارياك مدير دائرة الصحة في قوات فرنسا الحرة إلى الجنرال القائد العام، بيروت ٢٩ أيلول ١٩٤٢.

٩٣ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مذكرة سوله ـــ سوسبيال إلى مدير المكتب. بيروت ١٦ كانون الثاني ١٩٤٣.

٩٤ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مدير المكتب إلى الجنرال، بيروت ١٨ أيلول ١٩٤٢.

٩٥ الطبيب العام كيارياك إلى الجنرال القائد العام. ٢٩ أيلول ١٩٤٢، م. س.

٩٦ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مذكرة سوله ـــ سوسبيال إلى مدير المكتب. بيروت ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٢.

على امتداد كيلومترات). وقد لفت موسيس دير كالوستيان انتباهه إلى أن الإمكانيات المتوافرة لتسوية الأرض بين أقنية التجفيف تساعد، باستعمال جرار، على تنقية هذه المنطقة.

وابتداء من ٢٤ أيلول، بدأ موسيس دير كالوستيان، مدير التعاونية الزراعية في حوش موسى، وتحت رقابة الدكتور صايغ وحسب توجيهاته، تنفيذ أعمال تصريف المياه من المستنقعات القريبة وتنقيتها، وبخاصة عند ضفاف الليطاني. وارتُئي أن تنتهي بنجاح مساعي السكان أنفسهم في مهلة شهر[٩٧].

وتبين، من تقويم الوضع في أواخر ١٩٤٢، أن اللاجئين «المحميين» لم يستطيعوا خلال السنة، وبسبب نقص البذور وأدوات الحراثة، أن يزرعوا سوى جزءٍ من الأراضي الموضوعة تحت تصرفهم، وأن العجز حال دون تمكينهم من تأمين أسباب عيشهم حتى موسم الحصاد القادم.

طلب كاترو أن توضع تحت تصرف العنجريين جرارات أحدها مزنجر تابع للقوات الفرنسية المحاربة من أجل توسيع أعمال الحراثة والاستفادة من خمسين هكتاراً تقريباً من الأراضي الصخرية. كما أمر بتزويد التعاونية الزراعية بقطيع من ثيران الحراثة والأبقار الحلوب لمكافحة وفيات الأولاد الصغار وضعف صحتهم. علاوة على ذلك، انتظر مبادرة من الحكومة اللبنانية وطلبها، وهي تزويده بـــ ٦٠ طناً من بذور القمح وطنّين من النخالة[٩٨]. وقد استجاب سامي الصلح، رئيس الحكومة اللبنانية، لمطالب الجنرال كاترو في ٧ كانون الأول[٩٩]. فكانت الكميات المطلوبة قد جرى تسليمها أو قيد التسليم بعد أسبوع واحد[١٠٠].

٩٧ م ا د ن. الدائرة القانونية ١٩٤١، ٢. مدير مكتب القسم الاجتماعي إلى الجنرال كاترو، بيروت ١٩ أيلول ١٩٤٢.

٩٨ م ا د ن، الدائرة القانونية ١٩٤١، ٢. الجنرال كاترو إلى مندوب فرنسا المحاربة لدى الحكومة اللبنانية، بيروت ١٩ تشرين الأول ١٩٤٢.

٩٩ م ا د ن، الدائرة القانونية ١٩٤١، ٢، سامي الصلح، رئيس المجلس، وزير التموين، إلى المندوب لدى الحكومة اللبنانية، بيروت ٧ كانون الأول ١٩٤٢.

١٠٠ م ا د ن، الدائرة القانونية ١٩٤١، ٢، مدير مكتب الحبوب القابلة للخبز إلى مندوب فرنسا لدى الحكومة اللبنانية، بيروت ١٤ كانون الأول ١٩٤٢.

١٠١ مذكرة ب. سوله ـــ سوسبيال، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

١٠٢ م ا د ن، الدائرة القانونية ١٩٤١، ٢، مذكرة سوله ـــ سوسبيال إلى مدير المكتب، بيروت، ١٦ كانون الثاني ١٩٤٣.

١٠٣ مذكرة ب. سوله ـــ سوسبيال، ٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

١٠٤ م ا د ن، الدائرة القانونية ١٩٤١، ٢، قرار الأمانة العامة لمندوبية فرنسا المحاربة في المشرق بصدد الدكتور فرح، بيروت ١٩ آذار ١٩٤٣.

وقدمت هذه التعاونية الأولى، بإدارة موفسيس دير كالوستيان، النائب عن بيروت، مساعدات كبيرة ومجانية في أغلب الأحيان للسكان، ولا سيما للعائلات الأشد عوزاً، والعناية الجيدة بقطيعها ردت أثمان أعمال الحراثة إلى معدلها الطبيعي، وأمدّت المستوصف بحليب طازج. وكانت الحضانة الأميركية، من جانبها، مزودة بوفرة بحليب مكثف[١٠١]. وأقيم نظام لإعارة البذور للمزارعين الأكثر فقراً، وحرثت الأراضي العائدة لعائلات توفي معيلوها بأسعار مخفضة جداً[١٠٢]. لكن رحيل موفسيس دير كالوستيان، الذي لم يكن خلفه يتمتع بـــ«الكريزما» عينها، استوجب مجدداً رقابة أشد من قبل سلطات الانتداب[١٠٣].

سمح دنو الشتاء والمعالجة الفعالة بالكينين بالقضاء على وباء حمى المستنقعات خلال الصيف، وكانت سعة انتشاره قد نُسبت إلى الدكتور فرح، الطبيب المكلف خدمـــة مستوطنـــة عنجر والذي كانت كفاءتـــه وضميره المهني موضعَي شكوك. ففضل هذا الأخير، تداركاً لصرفه من الخدمـــة بشكل مهين، أن يقدم استقالته التي قبلت في الحال، اعتباراً من ١ كانون الثاني ١٩٤٣[١٠٤].

١٩٤٣، مراقبـــة أشد من سلطات الانتداب

عندما أدرك سوله ـــ سوسبيال أن السكان يتعذر عليهم أن يؤمنوا أسباب رزقهم من إنتاج الأراضي الموضوعة تحت تصرفهم فقط، سعى إلى أن يطور نشاطاً حرفياً في البلدة. فإيجاد أعمال حرفية ريفية يعتبر في آن وسيلة لتأمين موارد مساعدة للعائلات وطريقة لحمل السكان العرب المنتشرين في الجوار على قبول الوجود الأرمني رويداً رويداً، إذ كانوا في الغالب معادين لهم، وذلك من خلال إتاحة الفرصة لهم للاستفادة من هذه الصناعة. وإضافة إلى ذلك، سمحت لاحقاً بتطوير نشاط تجاري.

ومنذ ربيع ١٩٤٣، أنشأ القسم الاجتماعي في عنجر مشغلاً في مدرسة لصناعة الأحذية تهيىء عمالاً بمعدل عشرين متعلماً في كل دفعة. غير أن هؤلاء ما لبثوا أن غادروا عنجر للالتحاق بالمراكز الهامة كبيروت ودمشق، حيث الرواتب أكثر إغراء، فخففوا بذلك من احتقان عنجر بطريقة غير مباشرة. وتوجس سوله — سوسبيال خشية من هذا الفرار باتجاه المراكز المكتظة بالسكان في بيروت، حيث توقع حدوث أزمة انكماش نقدي منتظر لدى نهاية الأعمال الحربية.

وبعد المشغل — المدرسة لتعليم صناعة الأحذية الذي عمل بنجاح، أنشىء مركز للخياطة، ولكن سرعان ما أثارت مهن الحياكة الـ ٣٨ مشكلات كبيرة جراء الإمكانيات الهزيلة لتصريف الإنتاج.

أما الحدادة والنجارة فلم تكونا متوافرتين، الأمر الذي شكل نقصاً كان يرغم المزارعين على الانتقال مسافة ١٥ كلم حتى زحلة. لهذا أدرجت على قائمة المشاريع مدرسة حدادة ومشغل — مدرسة للنجارة[١٠٥]. كما عقدت النية على إحياء صناعة الأمشاط والملاعق من خشب أو عظام الجمل [١٠٦]، وهي صناعة اشتهر بها جبل موسى، وكانت، قبل الحرب، تتمتع بسمعة ممتازة في الأسواق التركية والسورية. وطلب سوله — سوسبيال في هذا الخصوص رأي تاجر بيروتي، هو جورج كزانجيان، الذي خلص إلى القول بأن تكاليف إنتاج الأدوات الخشبية يحتمل أن تكون مرتفعة للغاية، وان الأطنان الخمسة من المواد الأولية اللازمة لأدوات تصنع من عظام الجمل ينبغي استيرادها من فلسطين.

ولمعالجة المشكلة الصحية الخطرة التي كان يعاني منها شعب أنهكه البؤس وأصيب بحمى المستنقعات إصابات بالغة[١٠٧]، تقرر أن يبذل جهد محلي جديد من أجل الوقاية الصحية، يستكمل بتنقية بمجمل أراضي البقاع الجنوبي، ومستنقعات الليطاني ورافده «الغزيل»، بحيث يتم خفض طبقة الماء التحتية الموجودة في مناطق تربل — شمسين — عنجر[١٠٨]. وهذه الأعمال الضخمة برمجتها دائرة الأشغال العامة التابعة للمندوبية العامة لعام ١٩٤٤[١٠٩]. وفي انتظار تحقيق ذلك، كان لا بد من رش السبخات بالمازوت وردمها وتكليف الأرمن تنفيذ المهمة.

ولما دُعي سوله — سوسبيال لإبداء رأيه، طلب، خلافاً لإلغاء المساعدات الطبية المجانية الموصى به بموجب مذكرة صادرة في ١٢ تشرين الثاني ١٩٤٢، أن يتم هذا الإلغاء على مراحل، وبداية حصر المساعدات في العائلات المحرومة فعلاً من الموارد، والحفاظ عليها بتعرفة تلائم الآخرين. وقرر أن تُترك للأرمن مهمة اختيار طبيبهم. والجمعية الخيرية الأرمنية، التي يتولى إدارتها أبرز أستاذين في كلية الطب الأميركية، وهما الطبيبان ينيكومشيان وبربريان، عرضت، بالاتفاق مع بلدية عنجر، أن يُطرح للمصادقة اختيارُ الدكتور ميناسيان، الذي أثبتوا تفانيه في سبيل مواطنيه وكفاءته المهنية[١١٠]. وقد كلف بموجب عقد تعيينه، المؤرخ في ٨ شباط ١٩٤٣، تأمين الخدمة الطبية للاجئي عنجر بصفة مساعد[١١١]. إلى ذلك، كان مسؤولاً شخصياً عن حالة القرية الصحية وضواحيها، وله سلطة على حرس الحقول. وكان ينبغي أن تؤازره ممرضة وقابلة قانونية تقيم بصورة دائمة في المستوصف. إنها الآنسة وحيده ملدجيان، ذات الجنسية السورية، التي تم التعاقد معها في ١٠ آذار ١٩٤٣ [١١٢].

هذا، واتخذ قرار ببناء منزل صغير ملائم في القرية نفسها بالقرب من المستوصف مباشرة، يضم غرفتين، وصالة ومطبخاً وعيادة للمعاينة، منزل من شأنه أن «يزيل عبر هذا البناء

١٠٥ مذكرة ب. سوله — سوسبيال، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

١٠٦ م ا د، جورج ب. كازنجيان [بيروت] إلى سوله — سوسبيال، بيروت ٢٥ أيلول ١٩٤٣.

١٠٧ مذكرة ب. سوله — سوسبيال، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

١٠٨ م ا د ن. الدائرة القانونية ٢٩٤١، فاسليه إلى مدير القسم الاجتماعي، بيروت ٢٥ آذار ١٩٤٣.

١٠٩ مذكرة ب. سوله — سوسبيال، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

١١٠ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مذكرة سوله — سوسبيال إلى مدير المكتب، بيروت ١٦ كانون الثاني ١٩٤٣.

١١١ م ا د ن، الدائرة القانونية، قرار الأمانة العامة لمندوبية فرنسا المحاربة في المشرق بصدد الدكتور ليون ميناسيان قرار رقم ٢٥٣/ف.م. تاريخ ١٠ آذار ١٩٤٣.

١١٢ م ا د ن. الدائرة القانونية ٢٩٤١، قرار الأمانة العامة لمندوبية فرنسا المحاربة في المشرق بصدد وحيده مالدجيان.



عنجر: في هذا المنظر الجوي، الذي التقطه بوادوبار في ما بعد، يتمثل تنظيم وحدة التقسيم الإداري. فهو يرسم، على وجه التقريب، نسراً ذا جناحين مبسوطين. ويجمع كل قسم من أقسامه الستة إحدى قرى جبل موسى.
م.ش. ـــ ج.ق.ي

الشكل الموحد لأكواخ المخيم الممجوجة التي تضفي على مجموعة البيوت شكل مستوطـــنة متجهمة خاصة بالسجون".

في آذار ١٩٤٣، عاود القلق سوله ـــ سوسبيال من الوضع الذي جعله "يخاف، ما أن يبدأ الحر في الاحتدام، من عودة ظهور وباء الملاريا الذي فتك بالسكان خلال العام الماضي"[١١٣]، فسقط منهم حوالي ٢٠٠ ضحية[١١٤]. وكان خوفه هذا كبيراً، خصوصاً أن كميات الكينين المخصصة لمكافحة حمى المستنقعات غير كافية. والتحقيق الذي أجراه ميدانياً خلال شباط ١٩٤٣، البروفسور بربريان، المتخصص في علم الجراثيم في الجامعة الأميركية، والدكتور ميناسيان، في فترة من السنة يكون أثناءها المرض المستوطن في طور السبات، بيّن أنّ ٧١ ٪ من سكان عنجر مصابون بحمى المستنقعات[١١٥]. وإذ أخذا في الاعتبار أن هذه النسبة ترتفع في الربيع والخريف، استخلصا أن كل سكان عنجر تقريباً مصابون بحمى المستنقعات. وبيّن الطبيبان صايغ وميناسيان أن الإصابات بهذا الداء كانت أكثر شيوعاً وحدة لا سيما أن الناس تواجدوا قرب النبع والساقية. ولهذا طالب سوله ـــ سوسبيال بالشروع في أشغال التنقية المشار إليها آنفاً في أقرب وقت ممكن. وطلب تلافي اللجوء إلى إخلاء كثيف لسكان القرية، مثلما طلب رفع مستوى النبع، وتنظيم مجرى الساقية

١١٣ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مدير القسم الاجتماعي إلى مستشار الشؤون المالية، بيروت ٣ آذار ١٩٤٣.
١١٤ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، مدير القسم الاجتماعي إلى مستشار الشؤون المالية، بيروت ٢٧ آذار ١٩٤٣.
١١٥ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، سوله ـــ سوسبيال إلى الأمين العام، بيروت ١٨ آذار ١٩٤٤.

وتجفيف السبخات التي تحف بها على امتداد كيلومترين على الأقل. وأراد الاستفادة من توقف العمليات الحربية في البقاع الذي جعل اليد العاملة العنجرية في متناول اليد.

وكان الكينين مفقوداً من السوق المحليـــة، ولم تثمر التحريات عن الإنتاج الطبيعي أو عن العقاقير التركيبية مثل الكيناكرين أو البريمالين لا في مصر ولا في فلسطين. أما الطلبات المتكررة من الصليب الأحمر الأميركي فبقيت من دون جواب[١١٦]. وتالياً تقرر اللجوء إلى إجراء غير نظامي والاستنجاد بالمهربين في شمال سوريـــا. فأرسل الطبيب العام كيرياك إلى القامشلي أحد معاونيـــه، وهو الدكتور فيكتور صايغ، الذي تمكن أخيراً من شراء كميـــة محدودة من العقار في عامودا[١١٧].

غير أن حمى المستنقعات لم تكن المرض الوحيد المذكور في التقرير الصحي لعام ١٩٤٣. فهناك ذات الرئة، والالتهاب المعوي المزمن، والتسمم الغذائي، الخ.، وهي أمراض اجتاحت البلدة أيضاً.

واعتبارا من ١٥ أيار ١٩٤٣، عُيِّن الرقيب الأول الكسندر ليوبوفان وكيـــلاً ومراقباً صحياً في عنجر، خاضعاً لإمرة الدكتور ميناسيان. وكانت مهمتـــه حمل الناس على احترام القوانين الصحية في عنجر، فشملت سلطتـــه حرس الحقول وشرطة البلديـــة [١١٨]. وكان عليه أن يتعاون مع زارماير ميناسيان، الذي كلفته الجمعيـــة الخيرية العموميـــة الأرمنية مراقبة أشغال التنقيـــة المنفذة لحساب هذه الجمعيـــة.

الواقع أن تقاريره نصف الشهرية على مدى الأشهر التسعة التالية أفادتنا بخصوص الجهود المبذولة. إذ كان من واجبه أن يرش بالمازوت، بمساعدة فريق مصغر من شخصين، سواعد الماء الآسن المتجمع على طول القناة الرئيسية بهدف تدمير يرقات البعوض[١١٩]. وسعى جاهداً إلى استنفار السكان الذين وجد حالتهم النفسية «جيدة وأرمنية بأدق معنى الكلمة». كما توجب عليه، من دون كلل أو يأس، تأمين نظافة النبع والحوض وأطرافه وصيانتها، وإزالة الدغل من الجوانب، وحفر أقنية للري، وتنظيف خزانات مياه الشفة، وإصلاح الأقنية القديمة، والحوض، ومحرك النبع والطاحون. وتعيّن عليه أيضاً أن ينشىء مراحيض، ويسهر على احترام قوانين الصحة فيمنع بقاء الأقذار وبرك الماء في جوار البيوت، وعلى استعمال الماء للري بطريقة صحيحة ومنتظمة، واحترام القوانين المحددة للري، ولا سيما احترام حق كل ملاك ومراقبة مساحات الأرض.

وبوشرت حملة جديدة لمكافحة الملاريا بهمة الدكتور ميلر، عميد كلية الطب الأميركية والمدير الطبي للصليب الأحمر الأميركي، الذي قدّم ستة كيلوغرامات من الكينين ـــ الحبوب على سبيل مساعدة مجانية من الصليب الأحمر الأميركي[١٢٠]. لذا كان في وسع الدكتور صايغ منذئذ أن يعلن أن النوع الوبائي لحمى المستنقعات قد تم القضاء عليه، وذلك على أثر توزيع الكينين الوقائي طوال خمسة أيام من المعالجة الشفائية الفعالة[١٢١].

وفي تشرين الثاني ١٩٤٣، طلب ليوبوفان نقله إلى صور أو إلى حلب، لأن الطبيب النقيب مارك فانتوريني يرغمه على العمل في غرفة التمريض، مع أن صحته لا تسمح له بأن يؤمّن الخدمتين معاً. وكشف أيضاً عن ضرورة توسيع المساكن التي ما زالت مؤلفة من غرفة واحدة، وبناء مستشفى وحمامات عامة للسكان الذين لا تتوافر لديهم أية إمكانية للاغتسال، وسوق في وسط القرية، ومسلخ للحيوانات، وغرس عدة آلاف من أشجار الحور في جوار النبع. وكان قد قضى الشتاء في البلدة وهو يقيم في ظروف قاسية يعانيها كذلك السكان. وفي تقريره المؤرخ في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٤، وصف البيوت (٤ م × ٤ م) على أنها مبان واهية، تسمح سطوحها

١١٦ مدير القسم الاجتماعي إلى مستشار الشؤون المالية، ٢٧ آذار ١٩٤٣، م.س.

١١٧ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، سوله ـــ سوسبيال إلى مفتش الجمارك العام، بيروت ١٩ نيسان ١٩٤٣.

١١٨ الدائرة القانونية ٢٩٤١، تعليمات، مدير القسم الاجتماعي، بيروت ١٣ أيار ١٩٤٣

١١٩ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، ليوبوفان. تقارير من ١٥ حزيران إلى ٣١ كانون الثاني ١٩٤٤.

١٢٠ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١: الدكتور د.أ ياني كومشيان إلى سوله ـــ سوسبيال، ٦ تموز ١٩٤٣.

١٢١ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١. برقية هاتفية. الدكتور صايغ إلى سوله ـــ سوسبيال ٧ آب ١٩٤٣.

بتسرب الماء، وأن الجدران رطبة وتفيض الأرض ماء لأقل زخة مطر. في كل واحدة من هذه الغرف، تتكوم عائلات من ثمانية إلى عشرة أشخاص، ينامون بلا فرش، تفترسهم البراغيث والبق، وهم يتساكنون مع طيورهم الداجنة. إن الوضع يبعث على الشفقة: «في هذه اللحظة، يهطل المطر ويسقط الثلج، وفي عنجر العديد من العائلات، رجال ونساء وبخاصة أطفال صغار يركضون حفاة لا تكسوهم ملابس شتوية، وإنما يلبسون ثياباً خفيفة جداً: إن الشقاء هو سيد الموقف [...]».

مرة جديدة، طلب توسيع مسكنه ومنزلاً لائقاً للقابلة القانونية يمكن تدفئتهما، على غرار المستشفى المرجو إنشاؤه في المستقبل. فلم يكن بالإمكان مقارنة مسكنه بالبيت الأنيق الذي كان قد شُيِّد مؤخراً، إذ ضم الأخير غرفة كبيرة، وردهة، ومطبخاً وحماماً، وقد أفادت منه ممرضة الإسعاف الطبي التابع للجمعية الخيرية العمومية الأرمنية والمدعوم من الأميركيين.

أما في نهاية كانون الثاني ١٩٤٤، فكان أكثر تفاؤلاً بالنسبة إلى سير الأشغال، وقد أعرب عن عرفان الجميل للسيد ميناسيان، المهندس الزراعي وممثل الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، الذي تولى «بدراية مهنية عميقة» أعمال حفر القناة المشرفة على نهايتها، وإقامة أرصفة على امتداد كل بيت بعرض متر ونصف، الخ. كما عبّر عن امتنانه للسيد تشربتجيان، رئيس البلدية، الذي رأى حينها أنه «رجل نزيه ولكن قليل النشاط ومحدود النفوذ»، غير أنه لم يتردد في مساعدته وتقديم كل التسهيلات لإنجاز مهمته «التي بدت أحياناً شاقة التنفيذ بين السكان، وهم قرويون قساة الرؤوس لكن شجعان» (وقد أخليت عشرات البيوت غير الصالحة للسكن).

وفي شباط ١٩٤٤، تأسف الجميع لمغادرة ليوبوفان عنجر حيث «رغم صلابة الحزم التي برهن عنها»، أثبت أيضاً ما يتمتع به من مزايا حسنة[١٢٢].

١٢٢ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، سوله ــ سوسبيال، إلى الطبيب الكولونيل جانسوت مدير دائرة الصحة في قوات فرنسا الحرة في الشرق الأوسط، بيروت ٨ شباط ١٩٤٤.

١٢٣ منكرة ب. سوله ــ سوسبيال، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

١٢٤ــ م ا د ن، د.ا.، م. س.، ٥٣١، منكرة القسم الاجتماعي إلى مدير المكتب، بيروت ٧ شباط ١٩٤٤.

١٩٤٤ ــ ١٩٤٥: عنجر بين نهاية الانتداب واستقلال لبنان

إن الجهود الحثيثة التي بذلتها دائرة الصحة والرقيب الأول ليوبوفان على أثر أزمة ١٩٤٢ أسفرت عن نتائج غير متوقعة، إذ لم تسجل، خلال الأشهر الستة من ربيع وصيف ١٩٤٣، أكثر من عشر وفيات نتيجة حمى المستنقعات، رغم استعمال كمية أقل من الكينين. ولكن عندما استدعي ضابط الصف إلى دمشق، تراخت الجهود وعاد التهاون السابق إلى الظهور.

ولما علم الفرنسيون أن الإنكليز والأميركيين يراقبونهم وأن عياداتهم النقالة ومستوصفهم يملكان وسائل مهمة للعمل، اطمأنوا عندما لاحظوا أن قاعة الانتظار داخل مستوصفهم، حيث كان طبيب عسكري يجري العمليات، لا تخلو من المرضى[١٢٣]. كما أن حضور الأميركيين، عبر الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية، كان له أثره. فإلى جانب المستوصف الفرنسي وبالتنافس معه، كانت في الواقع تعمل «قطرة الحليب»، وهي مؤسسة مزودة بسخاء بالأدوية وبمسحوق الحليب، أنشأتها الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية بفضل تبرع رئيسها ارشاك كراكوزيان.

غير أن الوضع كان قد أصبح أقل عرضة للزعزعة، ومستوطنة عنجر الأرمنية، اعترافاً منها بعرفان الجميل تجاه فرنسا، قدمت بصورة عفوية مبلغ ٣٣٠ ليرة لبنانية (٦٦٠٠ فرنك) إسهاماً منها في دعم المقاومة[١٢٤].

حين شعر سوله ــ سوسبيال باقتراب نهاية الوجود الفرنسي وأدرك أن الثقة في الفرنسيين ستتزعزع جراء انتقال لبنان الوشيك إلى الاستقلال، قرر أن يسلم، من دون تأخير، سندات ملكية ٢٠٠٠ قطعة أرض في عنجر إلى مختلف العائلات التي كانت حينها تفرط في سوء مزاولة الزراعة، من دون اعتماد مناوبة المزروعات ولا إغناء للتربة، مما أدى إلى استنزاف الأرض. وبذلك يكون قد قلص مدة الأعوام الخمسة، المحددة بموجب المادة ٥ من القرار ٣٥٥، ستة أشهر.

وأقيم، في ٢٧ آب ١٩٤٤، احتفال داخل حرم مدرسة الصبيان في عنجر. وكان من بين الحضور ا. برونو، رئيس قسم دائرة الممتلكات الفرنسية واللاجئين، وموفسيس دير كالوستيان، نائب بيروت الأرمني. عندها سلم سوله — سوسبيال مزارعي حوش موسى (عنجر) سندات ملكيتهم. «قال السيد سوسبيال للمزارعين المجتمعين، في بضع كلمات صيغت ببراعة، إن فرنسا، بجعلهم مالكي حصصهم، تكون قد حققت الوعود التي قطعتها لهم عندما أسكنتهم في عنجر. فرد كاهن الرعية الأرمني الرسولي معرباً عن اعتراف الأرمن الأبدي بالجميل تجاه بلادنا» [١٢٥].

وأفاد سوله — سوسبيال، في كانون الثاني ١٩٤٥، أن نشاط المستوصف الفرنسي في عنجر (الذي تولى مسؤوليته الإسعاف الطبي للسكان المدنيين) تلاشى نهائياً [١٢٦]. وأحس السكان بأن موظفي الإسعاف الطبي تركوهم لمصيرهم تماماً. «والطالب الشاب اللبناني المكلف بالخدمة هو عديم الضمير المهني، إذ لا يظهر في القرية إلاّ أثناء زيارات خاطفة، وعلى فترات متباعدة أكثر فأكثر». وهذه كانت أيضاً حال رئيس القسم الفرنسي. وخلافاً للوعود، لم يشكل المبلغ المخصص لعام ١٩٤٤ سوى جزء طفيف من مبالغ الأعوام السابقة، وفي ١٩٤٥ توقف عملياً.

لتدارك هذا النقص، بنت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية داراً للتوليد، حيث يؤمن الخدمات الطبية طبيب بروتستانتي أرمني تخرّج من الجامعة الأميركية، وكان قد أقام سابقاً عند القسيس المعروف بقلة محبته لفرنسا.

منذ ذلك الحين، وأرمن عنجر «لخشيتهم المرضية» من تخلّ جديد عنهم تقدم عليه فرنسا، تحاشوا «التظاهرات التي من شأنها أنَ تضاعف أيضاً عداوة السكان الأصليين الدفينة إزاءهم». ثم في ١٥ أيلول ١٩٤٥، في مناسبة الذكرى السنوية للدفاع عن جبل موسى، تذرعوا بوفاة شابين بحادث عرضي جراء انفجار قنبلة مضادة للطائرات عثرا عليها قبل أيام في أحد الحقول، واكتفوا بالحد الأدنى من الاحتفالات. ولم يدعَ وفد البقاع الفرعي للمشاركة في الحفلة[١٢٧]، وهذا ما حال، في الوقت نفسه، دون نشوب خلافات وسط القرية.

أما السلطات اللبنانية، المدركة بالتأكيد لمشاعر العنجريين الميالة إلى فرنسا، فأبدت نوعاً من العطف حيال اللاجئين. وهكذا قصدت السيدة بشارة الخوري المكان في ٤ تشرين الأول، بصحبة محافظ البقاع والدكتور كوبليان من زحلة وهو «مناصر معروف لإنكلترا». وأثناء زيارتها لمدرسة البنات، ضحكت لزلات ألسنة التلميذات اللواتي تملكهن الحماس فمزجن «تحيا فرنسا» بـ«يحيا لبنان». وقدمت لرئيس البلدية هبة للفقراء ووعدت بتحسين الحالة الصحية في المستوطنة. ومنذ اليوم التالي، تسلمت البلدية ٢٠٠٠ حبة كينين وضعت تحت تصرفها.

هذا وكان البعض يحاول الاستفادة من تغير النظام. فبدأت الاعتراضات الأولى على قانونية شراء العقار تظهر إلى العلن. واستجوب الأمير جميل شهاب، في ٤ تشرين الأول، أمين دائرة البقاع العقارية سليم عون، حول شروط شراء العقار. فضاعف هذا العمل من ضيق السكان الذين كانوا يعتاشون من نشاط حرفي تغذيه وزارة السجناء، التي باتت نهايتها وشيكة.

توجه محافظ البقاع، يرافقه مهندس الأشغال العامة، إلى عنجر يوم السبت في ١٣ تشرين الأول ١٩٤٥ ليدرس ميدانياً الوسائل الآيلة إلى تنفيذ الوعود التي قطعتها السيدة بشارة الخوري. فتقررت إقامة مستوصف رسمي عائد لوزارة الصحة العامة اللبنانية في المستوطنة، وارتُئيت إقامته بادىء الأمر في مقر عيادة كراكوزيان حيث كان قسم الصحة التابع للمندوبية يمارس نشاطاً محدداً، قوامه

١٢٥ م ا د ن، د.ا.، م. س.، ٨٠٣، أ. برونو رئيس دائرة إدارة الممتلكات الفرنسية واللاجئين إلى أمين السر العام، بيروت ٢٨ آب ١٩٤٤.

١٢٦ م ا د ن، الدائرة القانونية ٢٩٤١، رئيس دائرة اللاجئين إلى المنير، المندوب في مهام أمين السر العام، بيروت ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٥.

١٢٧ م ا د ن، د. ا.، م. س.، ٨٠٣، مندوب لدى الحكومة اللبنانية إلى الجنرال باينه، المندوب العام ومفوض فرنسا في المشرق، ٨ تشرين الأول ١٩٤٥.

العناية بالرضع وصغار الأطفال. وبإضافـــة مستوصف رسمي يعالج الأمراض أياً كانت الأعمار، كان مستقبل المستوصف الفرنسي قد أصبح عرضـــة للخطر. كما قررت الحكومـــة اللبنانيـــة أن تمول إضافـــة أربع غرف جديدة إلى المدرسة الرسولية، وإعداد حديقـــة عامة وسط التجمع السكني، و«الآن، واللاجئون لم يعودوا مع الفرنسيين»، تعينت زيادة الحصة المتوجبـــة على الوحدة الإداريـــة بشأن حصيلة الضريبـــة الخاصة بالمحروقات[١٢٨].

ووجه السيد فلدمان، موفد «مؤسسة الشرق الأدنى» في البقاع الذي أخذ على عاتقـــه جميع النشاطات الأميركية في المنطقـــة، إلى الإدارة العامـــة لهذه الجمعية في نيويورك، تقريراً حافلاً بالثناء على نشاط المركز الحرفي الذي أنشأه الفرنسيون.

إن انسحاب الوجود العسكري والإداري الفرنسي وكذلك البريطاني أبقى عنجر على حالها وقلّص حوافز الدولة اللبنانية.

تقويم نقدي

بعد ستة أعوام من الإدارة، لا يدفع التقويم الذي أجري لتأسيس عنجر إلى التفاؤل إطلاقاً. ففي مذكرة مطولـــة مؤرخـــة في شباط ١٩٤٤، قال سولـــه ـــ سوسبيال كلاماً قاسياً في صدد شتى مراحل هذا الإسكان. إذ لاحظ، بعدما عبّر عن أسفه بشأن «تعهد فرنسا المتهور بعض الشيء»، «أن أسلافنا تصرفوا بلا وعي ينبغي أن تندى له جباهنا بكل ما للكلمـــة من معنى».« وبعد رحلة ـــ وبخاصة بعد إقامة على شاطىء البسيط ـــ يعجز عنها الوصف»، يعجب «أن تتحلى حماقة السلطات المكلفة إسكان اللاجئين، لأي سبب كان، في إحلال ١٢٠٠ عائلة فوق عقار تبلغ مساحته ٨٠٠ هكتار من الأراضي القابلـــة للري و٤٠٠ هكتار من الأراضي البعلية، أي إعطاء كل عائلة مؤلفة في الغالب من ٥ أو ٦ أو٧ أفراد، ٣/٢ هكتار من أجل تأمين عيشها. فقد كان هذا الأمر، عن قصد، بمثابـــة حكم على هؤلاء البؤساء بالمجاعـــة». والواقع «أن النتيجة قد دُوّنت للأسف على الأرض، [...] فهذا الاصطفاف المثير للشفقـــة لمكعبات من الإسمنت، من دون شجرة وحتى بلا دغل، يضفي على التجمع السكني مظهر مقبرة أو سجن للأشغال الشاقـــة. ولكن يجب الدخول شتاء إلى البلدة الخالية من الشوارع، والغوص حتى الركب في وحل لزج، ورؤية الماء ينساب داخل المساكن البائسة لقياس مدى التهاون الإجرامي لأولئك الذين كلفوا القيام بعمل كانت، مع ذلك، الكرامة الفرنسيـــة متعلقة به».

شعر أن الغيوم طفقت تتراكم كالجبال فوق البلدة الصغيرة منذرة بحصاد رديء وبتوقف الأعمال العسكريـــة والموارد التي تؤمنها، فذكّر، هو الرجل الشريف، أن فرنسا ملتزمة بوعد مهيب وحازم قطعـــه باسمها ممثلوها القديرون، وعد «بإسكانهم في بلد مسيحي ومساعدتهم معنويـــاً ومادياً ريثما يتمكنون من إنشاء ظروف حياة طبيعيـــة»[١٢٩]. واقترح «منحهم الإسعافات الصحيـــة والطبيـــة التي تتطلبها حالتهم الصحيـــة الواهنة وعدم ملاءمة المنطقة للصحة، وهي المنطقـــة التي أسكنتهم فيها السلطات الفرنسيـــة بطريقة متهورة خرقاء»، ففي رأيـــه إن «التخلي عن الأرمن في الوضع الشاق الذي يوجدون فيه حالياً يعتبر غلطة سياسية».

«مع ذلك، إن ارتكب ممثلو فرنسا في المشرق، عن جهل وتهاون، أخطاء لا تُغتفر أثناء إخلاء السنجق، فإنهم بذلوا في ما بعد جهوداً جادة كي يحيوا الثقة في وعود بلادنا». إن تطور الوضع الدولي والصعوبات المالية التي عرفتها هذه المرحلة من الحرب يشفعان لفرنسا. غير أن التنازل عن سنجق الاسكندرون

١٢٨ م ا ف ن، الدائرة القانونية ١٩٤١، ٢٩: رئيس دائرة اللاجئين إلى أمين السر العام، بيروت ١٠ تشرين الأول ١٩٤٥.

١٢٩ مذكرة ب. سوله ـــ سوسبيل، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

كان في أصل هذه الاضطرابات، ولم يتحقق ذلك إلا لتأمين مصلحة فرنسا الخاصة.

لم يكن سوله ــ سوسبيال المنتقد الوحيد. فقد استنتج برونو، في نيسان ١٩٤٦، أن «وضع العائلات الأرمنية في جبل موسى غير مستقر بتاتاً، وهو بائس تماماً كما كان في يوم إسكانهم الأول، إن لم يكن أسوأ في بعض المناطق»[١٣٠].

ثم إن الذين يلقون اللوم على الأرمن لخمولهم، يبدو أنهم يجهلون أو يريدون أن يتجاهلوا تعاقب الأحداث التي تكبدها هؤلاء. فالمسنون منهم عرفوا معارك ١٨٩٦، والمرحلة الحميدية، وأيام القلق إبان «مجازر اضنه»، والمقاومة في ١٩١٥، وسنوات مخيم بور سعيد، وسنوات من الإشاعات عن التنازل عن السنجق وألوان العذاب التي عانوها منذ ١٩٣٩. وفي مناخ عام من الاكتئاب العميق المتصل بالصراع الدولي، وقد أوهنتهم الأمراض، ولا سيما الملاريا التي توافق دورات تفاقمها مراحل الأعمال الزراعية. وكانوا إلى ذلك محبطين ومتغربين، تعرضوا للترحيل والانغراس «في إحدى المناطق الأشد ضرراً بالصحة في سوريا ولبنان، منطقة تتخذ الملاريا فيها أكثر الاشكال خطورة»[١٣١].

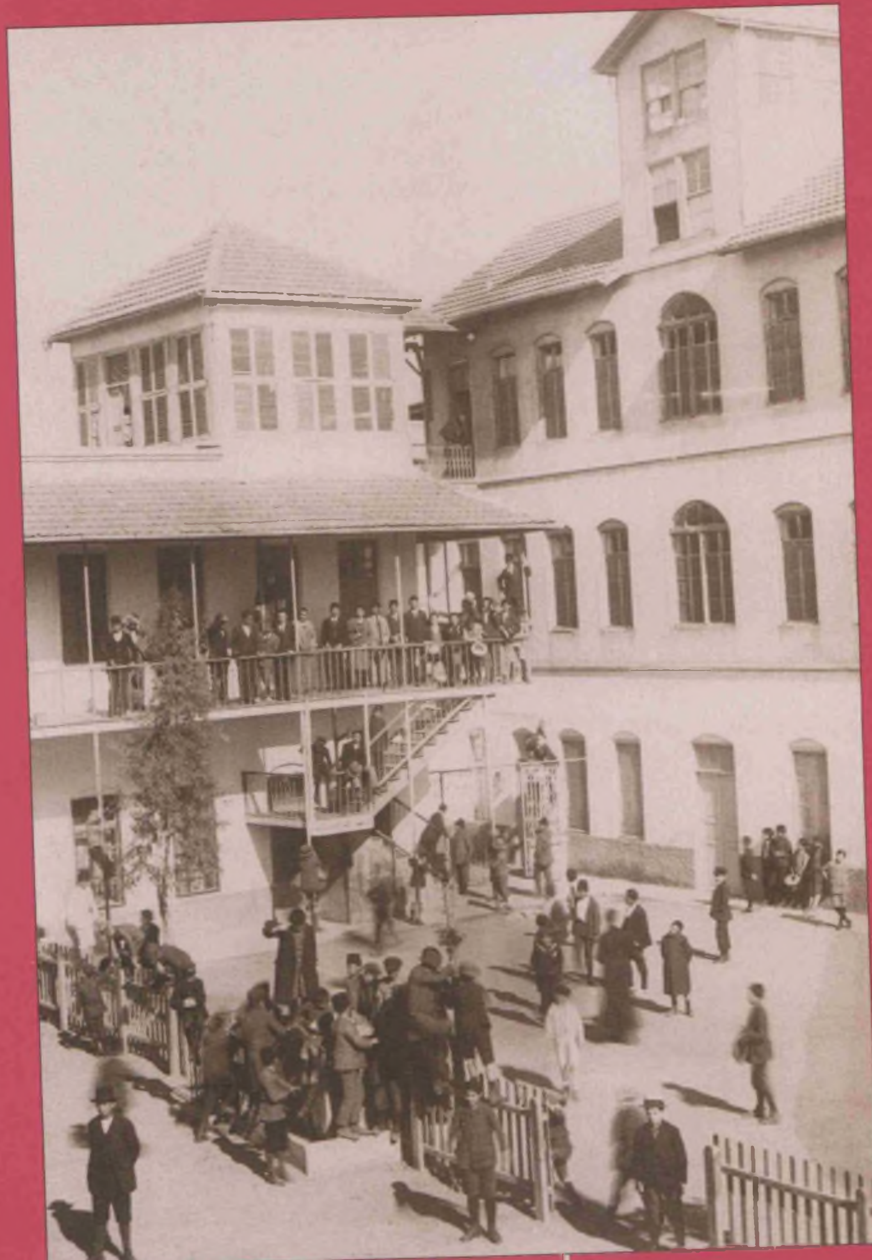
لقد اضطر هؤلاء الأرمن أن يتركوا كل شيء، وكانت الدبلوماسية الفرنسية عاجزة، مرة جديدة، عن فرض احترام الاتفاقيات المبرمة على الأتراك. فكانت هذه الاتفاقيات عرضة للهزء والاستهتار، على ما استخلصته مذكرة لاحظت أن «انقرة تضيع في اعتبارات عديمة الجدوى»[١٣٢]. والأرمن النادرون، الذين أغرقهم العودة إلى جبل موسى عام ١٩٤٠، كانوا في منتهى السعادة لأنهم لم يخرجوا منه إلاّ بعد تعرضهم لضرب مبرح بالعصي[١٣٣].

١٣٠ م ا د ن. د.ا.، م. س.، ٨٠٣، ا. برونو رئيس دائرة إدارة الممتلكات الفرنسية والفرنسيين إلى أمين السر العام، بيروت ٩ نيسان ١٩٤٦.

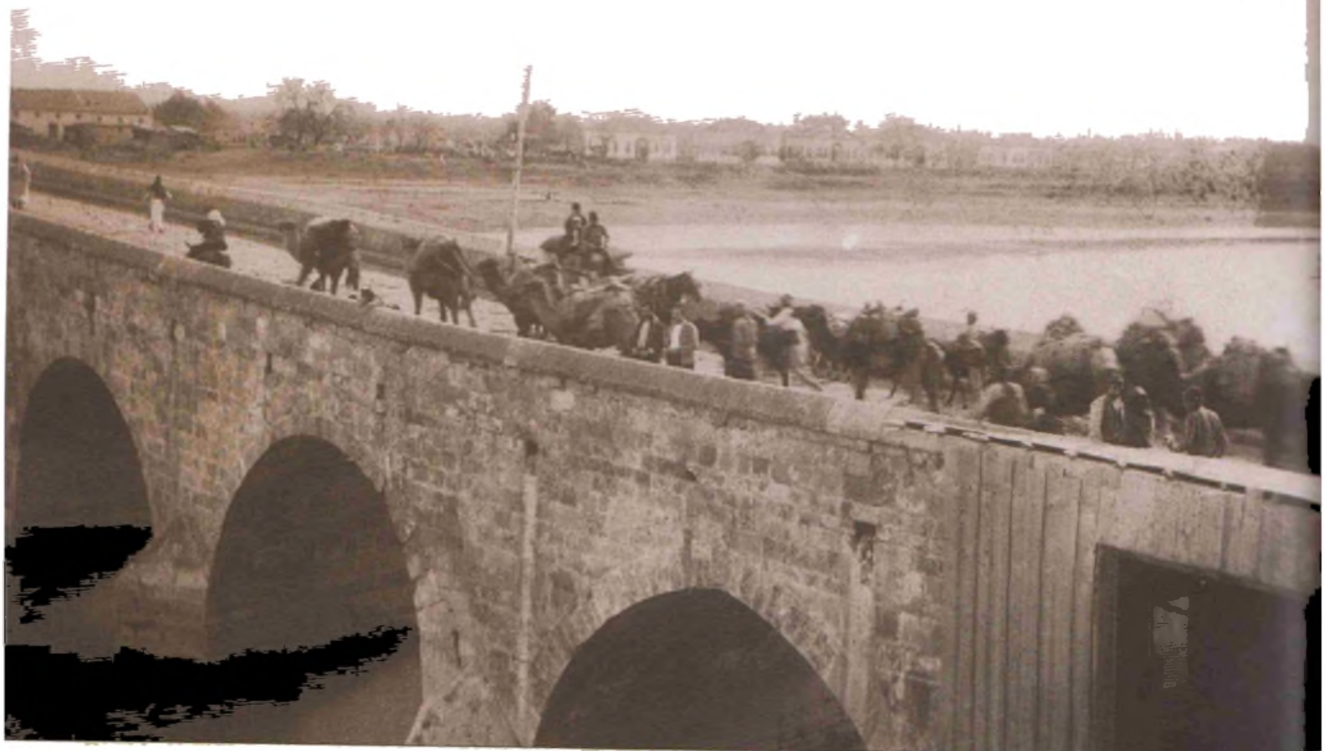
١٣١ مذكرة ب. سوله ــ سوسبيال، ٢٨ شباط ١٩٤٤، م. س.

١٣٢ وزارة الخارجية (باريس)، حرب ١٩٣٩-١٩٤٥، فيشي، المشرق المجلد ٤٥، مذكرة ٩ آذار ١٩٤٣.

١٣٣ وزارة الخارجية (باريس)، حرب ١٩٣٩-١٩٤٥، فيشي، المشرق المجلد ٤٤، غروسون، قنصل فرنسا إلى وزير الخارجية.



مدرسة القديس بولس للآباء
اليسوعيين في اضنه.
مجموعة مش. — ج.ق.ي



جسر اضنه.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

ديران بابكيان (١٨٨٧-١٩٧٣)

مسيرة أرمني من كيليكيا لجأ إلى لبنان

بقلم كريستين بابكيان عساف

يرتكز هذا المقال على السيرة الذاتية غير المنشورة لديران بابكيان، المولود في اضنه (كيليكيا) في ١٥ آب ١٨٨٧، وقد فرغ من تحريرها في ١٩٧١، وهو في الثانية والثمانين من عمره، قبل عامين من وفاته. كتبها باللغة الأرمنية، ثم قام حفيده جيرار ماركاريان بترجمتها إلى الفرنسية.

في مقدمة هذا المستند وفي خاتمته، يوضح ديران بابكيان أن سيرته الذاتية هذه مخصصة لأسرته. ويشرح فيها قائلاً: «حين قررت كتابة سيرتي، أخذت في الاعتبار أحفادي بوجه خاص، كما جميع أفراد ذريتي القادمة. وإني لأحاول، وقد أدت تداعيات الأحداث السياسية إلى تشتت عائلاتنا وذرياتها، أن أحول دون تراخي أواصرنا العائلية مثلما أود الحفاظ على علاقاتها العاطفية أطول مدة ممكنة من خلال سردي للأحداث الغابرة». ويتابع ديران بابكيان أنه لا يروي «إلا أحداثاً كما تجلت في حقيقتها الواقعة، وأنه لو لم تكن هذه هي الحال لعدّت هذه الكتابات عديمة الجدوى ولما جرى نشرها».

بالنسبة إلى المؤرخ، يشكل تذكر المعاصرين لبعض الأحداث مصدراً مميزاً: «كل ذاكرة بشرية هي جزئية ومنحازة بصورة ميؤوس منها»[1]، إذ إنها حدثية بطبيعتها، «تحتفظ في الدرجة الأولى بما يقتحم الرتابة العادية»[2]؛ وهي أيضاً انتقائية لأنها مرتبطة بإدراك كل فرد. ومع ذلك، يبدو أن أحداثاً عدة مروية في سيرة ديران بابكيان الذاتية ومرفقة بمعلومات وتواريخ بالغة الدقة، مبنية على وثائق احتفظ بها المؤلف واستند إليها، وقد وجدناها في أرشيفه. من ناحية أخرى، كان من عادة الأب، بحسب شهادة الأبناء، أن يروي لهم معظم الأحداث الواردة في هذا النص. وكانت هذه أيضاً طريقة «للحفاظ على ذاكرته».

وهذا المستند، شأنه شأن كل سيرة، غني جداً بمعلومات تمت بصلة في آن إلى التاريخ السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي والثقافي، كما إلى الحضارة المادية. وقد دفعتني ضرورات الطباعة إلى إغفال العديد من التفاصيل، وبخاصة وصف المشاهد الطبيعية وكذلك النوادر أو وصف الأطعمة التي يبدو أن المؤلف كان مولعاً بها، وهي تفاصيل كانت ستسهم أيضاً في إطالة النص. لقد أغفلت كل ذلك للإبقاء على ما تراءى لي أنه أساسي في إطار الموضوع المهم هنا، أعني به قصة أرمني عاش في الإمبراطورية العثمانية (التي ينعتها بصورة منتظمة بـ «بلده») ثم تجربة الهجرة الجماعية وأخيراً الاستقرار في لبنان.

• تنبيـــه: كل مرة يتم الاستشهاد حرفياً بالسيرة الذاتية، توضع الجمل بين مزدوجين.

١ كريستوف بوميان، «في التاريخ»، باريس ١٩٩٩، ص. ٢٧٤.

٢ م. ن. ص. ٢٧١.

٣ كانت كل طائفة دينية، في إطار نظام «الملة» العثماني، تتمتع باستقلال واسع جداً في شأن تنظيم نهجها التربوي، من هنا نشأت المدارس الطائفية.

٤ خلال السبعينات من القرن ١٩ (١٨٧٠)، جرت، في إطار «التنظيمات» أو حركة الإصلاحات التي باشرتها الدولة العثمانية بهدف تحديث بناها، علمنة القضاء الذي كان حتى ذلك الزمن حكراً على المحاكم الشرعية. لقد تحقق ذلك من خلال إنشاء محاكم مؤلفة من علمانيين ورجال دين. واستناداً إلى هذا، تأسست كلية الحقوق في اسطنبول عام ١٨٨٠.

٥ في ١٨٧٥، عقب إفلاس الدولة العثمانية، أنشئت «إدارة الدين العام»، التي خولتها الحكومة العثمانية جباية وإدارة جزء من مداخيلها، ومنها واردات التبغ. تولى إدارة هذه الهيئة مجلس مؤلف من ممثلي دائني الإمبراطورية الأوروبيين. وقد تأسست إدارة التبغ، ذات الرساميل الفرنسية أساساً في ١٨٨٣، وذلك بغية إدارة واردات التبغ.

أرمني في بلده: الإمبراطورية العثمانية

ديران بابكيان هو ابن خاتشير أفندي، الذي كان، بعد إتمام دراسته في ثانوية اضنه الأرمنية[3]، أميناً للسر في المحكمة قبل حيازته شهادة محام من كلية الحقوق في اسطنبول[4]. كذلك تقلد، بعد متابعة دروس في اللغتين الفرنسية والتركية، منصب محامي شركة التبغ[5]، الذي تولاه طوال خمسة عشر عاماً. ويتذكر المؤلف أن والده كان يصطحبه معه لحضور الجلسات عندما تكون الدعاوى مهمة. واهتم خاتشير، إلى جانب اهتمامه بمهنته كمحام، بالشؤون التجارية، إذ شارك، ابتداء من ١٩٠٤، بعض الأرمن في إدارة مصنع لإنتاج جوارب قصيرة التهمته النيران عام ١٩٠٩.

هكذا سار ديران على خطى والده، وأصبح، أسوة به، محامياً ورجل أعمال.



ديران ويرانوهي بابيكيان. صورة جواز سفر، ١٩٢٠.
مجموعة بابكيان الخاصة

لقد استهل حياته المدرسية في السادسة من عمره في مدرسة أميركية في اضنه، ثم في مدرسة القديس بولس للآباء اليسوعيين حيث كان تلميذاً داخلياً. ولما تبين أن الحياة في القسم الداخلي قاسية جداً على ولد في مثل سنه، أرسل إلى مدرسة ابكاريان الأرمنية. والتحق في ١٩٠١ بثانوية طرسوس الأميركية. ودخل في ١٩٠٢ ثانوية اليسوعيين في اضنه، ثم «المدرسة الإعداديـــة[٦]» الحكومية عام ١٩٠٤، فنال شهادتها في ١٩٠٧. رفاق المدرسة هم أرمن (منهم من صاروا أطباء ومحامين في المستقبل) وأبناء عائلات تركيـــة كبرى «كانوا يتصرفون معنا بودية» وتقلدوا لاحقاً مناصب هامة (نواب أضنه، وموظفون رفيعو الشأن، الخ.). عادت عليه هذه العلاقات الوديـــة، كما شبكة الاتصالات الطائفية والعائليـــة، بنفع عميم، على ما سنراه لاحقاً. وترافقت دروسه مع نشاطات أخرى في المدرسة، وبخاصة المسرح والموسيقى (كان ديران يعزف على الكمان). أما الحياة الفكرية والاجتماعية، فكانت، بحسب المؤلف، ناشطـــة كفاية في أضنه. وكان ديران عضواً أيضاً في فرقة مسرحية وموسيقية مكونة من شباب أرمن يطلب إليهم التمثيل على مسرح طرسوس ؛ وكان ريع هذه التمثيليات مخصصاً لمساعدة مدارس «القوميـــة» الأرمنية [٧].

استعد ديران، بعد إنهاء علومه المدرسية، لاعتناق مهنة المحاماة. وقرر والده، عملاً بنصائح صديق أرمني (زكريا يزدكيان) أتم دراسة الحقوق في جنيف، أن يرسله إليها. فوصل المدينة في ١٩٠٧[٨]، ونزل في «فندق المسرح»، حيث يقوم في جزء الأسفل منه « المقهى الغنائي»، ملتقى الشخصيات البارزة في الاتحاد الثوري الأرمني[٩]. ثم استأجر غرفة مزودة بالأثاث في «بانسيون الذئب»، وهو أحد أفضل بنسيونات جنيف، حيث خالط نحو خمسة عشر طالباً أجنبياً. وصادق هنا طالبة روسية ولكنه قطع علاقته بها في ما بعد، «مدركاً أن زواجي لن يتوافق وحياتي العائلية في بلدي (أضنه)».

٦ تزامنت «التنظيمات» مع إحداث نظام مدرسي جديد عام وعلماني يشمل عدة مراحل. هذه المرحلة تطابق التعليم الثانوي.

٧ لنوضح هنا أن «قومية» استعملت بمعنى طائفية. وهذا التعبير يستخدمه المؤلف بصورة منتظمة. والواقع أن لفظة «ملة»، التي استخدمت بادىء الأمر في الإمبراطورية للدلالة على الطوائف الدينية غير الإسلامية، سوف يتوسع استعمالها لتعين الشعوب الراغبة في نيل استقلالها.

٨ في هذه الحقبة، منع الأرمن من مغادرة الأراضي العثمانية. لذا ركب سفينة فرنسية وتوجه إلى بيروت، وكانت عهدذاك ولاية عثمانية. وواصل سفره حتى الاسكندرية وكان دخولها غير خاضع لقيود. ثم سافر إلى مرسيليا، ولم يكن دخول فرنسا، كما الاسكندرية، يستلزم التزود بجواز سفر.

٩ الاتحاد الثوري الأرمني أو حزب الطاشناق. أسسته في تفليس عام ١٨٩٠ نخبة من المثقفين الأرمن القوقازيين. وتعتبر الاشتراكية والقومية العنصرين البارزين في عقيدة هذا الحزب.

وصف ديران المناخ السائد في جنيف في هذه الحقبــة، موضحاً أن «جميع الثوار على اختلاف مشاربهم يقصدون سويسرا من كل أنحاء المعمورة لينعموا بالتسامح وحريــة التعبير والأمن التي توفر لهم بسخاء». ووفقاً لروايتــه، ضمت جامعــة جنيف آنذاك أكثر من ألفي طالب، نصفهم روس ومائتان إلى ثلاثمئــة بلغاريون، وخمسون إلى ستين طالبــاً من الأرمن، فيما تألف الباقون من سويسريين وأجانب ذوي جنسيات مختلفــة. كما قام مقر حزب الطاشناق في جنيف في شارع «لاروزوره»، وغالباً ما كان يرتاد هذا المكان لملاقاة أصدقائــه.

إن اقامته في سويسرا تزامنت مع الانقلاب المباغت الذي قامت به في ١٩٠٨ حركة الشبان الأتراك [١٠] (يسميه «إعادة تنظيم الإمبراطوريــة العثمانيــة») ومع مذابح أضنــه في ١٩٠٩[١١].

إن أحداث ١٩٠٨ «تغمرني بهجــة، لأن الحريــات التي طال انتظارها تم الإعــلان عنها وأقيمت المساواة في الحقوق. وإني لأصرخ بصوت عالٍ لمن يريد أن يسمع، أني أتوقع مستقبلاً لامعاً لبــلدي». غير أن طالبــة ألمانيــة عاشت في روسيا خالفتــه الرأي مؤكدة أن «شعبها ليس مستعداً للتنعم بخيرات الحريــة». تحققت هذه التوقعات المتشائمــة و«ظهرت للعيان استحالــةُ آمالنا المفرطــة» إبان مجازر أضنــه ١٩٠٩. فكان يومها شديد القلق على عائلتــه، ولم يعلم إن كان ثمة خسائر جديرة بالرثــاء في صفوف أقربائــه إلا بعد أيام حين أبلغ بخسارة عمه، أما عائلتــه المباشرة فبقيت سالمــة.

في ١٩١١، أنهى دراستــه في جنيف، وما علم بموت والده إلاّ عندما نال شهادتــه. وكان والده قد رفض أن يبلغ ابنــه تردي حاله الصحيــة قبل حيازة شهادتـــــه.

في طريق عودتــه إلى أضنه، توقف في مدينــة نمساويــة حيث كان قد تم شراء آلات حياكــة الجوارب من مصنع والده. وفكر، في الواقع، في أن ينشيء بدوره مصنعاً للجوارب في أضنــه. غير أن الحرب الإيطاليــة ــ التركيــة[١٢]، وقد تبعها النزاع في البلقان، أرغمتــه على العدول عن هذا المشروع[١٣].

انتسب ديران، لدى عودتــه إلى بلده، إلى كليــة الحقوق في اسطنبول لدراسة القوانين العثمانيــة ومزاولة مهنتــه. فنال شهادتــه التركيــة في أيار ١٩١٢، ثم قفل راجعاً إلى أضنــه، حيث فتح، مع زكريــا بزدكيان، أحد افضل مكاتب المحاماة في المدينــة. إن إجادتهما اللغــة الفرنسية واللغة التي يتمتعان بها لدى الناس أتاحتــا لهما أن يرافعا في دعاوى مهمــة. منها دعوى «بغداد باهن»، ويغنما مبالغ كبيرة لقاء أتعابهما.

في موازاة هذا النشاط، التزم العمل في قضايا الجماعــة الأرمنيــة، وقد ختمها بــ«الأشغال الوطنيــة». فأدار مدرسة موشغيان، وكان عضواً في جمعيــات مختلفــة، وقام بتدريس اللغــة الفرنسية من ٣ إلى ٤ ساعات أسبوعياً في مدرسة ماكينادجيان في اللاذقيــة. وأوضح المؤلف هنا أن كل هذه النشاطات الاجتماعيــة في أضنــه وفي بيروت لاحقاً، «إنما مارسها طوعاً ومن دون تقاضي أجر» وأنه لم يجنِ منها قط منفعــة ما. كذلك ألّف فريقاً من خمسة وعشرين شخصاً (سمّي فريق الرشادية)، تولى رئاستــه ونظم بمعاونتــه اجتماعات وتجمعات وطنيــة. وفي ١٩١٢، ولمناسبة زيارة قامت بها شخصيــة فرنسية متعاطفة مع الأرمن، قدم ديران سلفة مبلغاً من المال

١٠ إن الدستور العثماني، الذي أعلن لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية عام ١٨٧٥، علق في ١٨٧٦ على يد السلطان عبد الحميد. وكانت حركة الشبان الأتراك تضم معارضي الاستبداد الحميدي، الذين طالبوا بإعادة الدستور. وكانت أعدادهم كبيرة وضمن كوادر الجيش العثماني، وبخاصة الضباط المتخرجين من الكليات العسكرية المنشأة إبان مرحلة التنظيمات. وقد تميزوا بالنشاط والحيوية في مقدونيا، حيث كانت ترابط وحدة عسكرية مهمة، وهددوا بالزحف على العاصمة في ١٩٠٨، مما دفع عبد الحميد إلى إعادة العمل بالدستور.

١١ في ١٩٠٩، فجّر تمرد في اسطنبول، نسب إلى جماعة من الرجعيين، رجال دين وجنوداً يعارضون سياسة الشبان الأتراك. وفي الوقت نفسه (نيسان ١٩٠٩)، وقعت في كيليكيا مجزرة آلاف الأرمن (تراوحت الأرقام بين عشرين وخمسة وعشرين ألف ضحية) وقد شارك فيها السكان المحليون «وجنود الحرية» الذين أرسلوا من القسطنطينية.

١٢ أصيبت إيطاليا، في إطار الاستعمار الأوروبي خلال القرن الـــ١٩، بإحباط في مطامحها الرامية إلى الاستيلاء على تونس (التي أصبحت محمية فرنسية عام ١٨٨٢)، فانكفأت بموافقة الفرنسيين والبريطانيين إلى ليبيا، وخاضت حرباً ضد العثمانيين الذين ناضلوا للحؤول دون خسارة آخر ولاية لهم في أفريقيا الشمالية.

١٣ في تشرين الأول ١٩١٢، أعلن ائتلاف بلقاني ضم اليونان، والصرب والبلغار ورعايا الجبل الأسود، الحرب على السلطة العثمانية بالنسبة إلى مقدونيا.

لبناء قاعة عرض مسرحي، مبلغ لم يسترده أبداً بسبب الترحيل الذي تقرر بعد ثلاثـة أعوام.

واهتم أيضاً، على غرار والده، بالشؤون التجارية. وكانت منازل أضنه مغطاة بقرميد مستورد من مرسيليا، فقرر أن يبني مصنعاً للقرميد واستعان بصربي متخصص في صناعة القرميد. وكان عمله مزدهراً، إلاّ أن عمليات الترحيل خلال ١٩١٥ أجبرته على الهرب تاركاً جميع ممتلكاته. واشترك، من ناحية أخرى، مع تاجر أرمني ذي خبرة، فأوفده إلى فيينا لشراء سلع مختلفة والحصول على وكالة بعض العلامات التجارية. كانت الأعمال تسير في طريق النجاح عندما اندلعت الحرب وبدأ ترحيل الأرمن. ووظف أيضاً أموالاً في حقل الزراعة مانحاً قروضاً إلى كبار المستثمرين.

وأخيراً، أصبح ديران في هذه الفترة مترجماً رسمياً في القنصلية الإيطالية التي فتحت مقراً لها عام ١٩١٢ في أضنه (لقد فضّل العمل مع الإيطاليين على العمل مع الألمان الذين أقدموا هم أيضاً على فتح قنصلية لهم في المدينة). كان معتمداً لدى الحكومتَين الإيطالية والعثمانية بصفة «مترجم رسمي فخري». وبهذه الصفة، استفاد من حماية الحكومة الإيطالية له، مثلما استفاد من مجموعة من الامتيازات كالحصانة الإقليمية لشخصه ومنزله. والواقع أن مهمته كمترجم قامت على تقديم كل المستندات القانونية الرسمية العائدة للرعايا الإيطاليين إلى الدولة، والحضور الشخصي أثناء الدعاوى التي يتهم فيها رعايا إيطاليون، وقبول الأحكام الصادرة والتوقيع عليها، «إذ من دون هذا القبول، لا يعتبر أي حكم نافذاً». وصف القنصل الإيطالي، بول اندللي، بأنه رجل قوي الإرادة شديد الإعجاب بشخصه، يتصرف بطريقة غير لائقة، ولا سيما في أحاديثه مع والي أضنه. «عندها يفتقر إلى التصرف الدبلوماسي». إلاّ أن المؤلف كان «يلطّف دائماً كلامه ويترجمه بعبارات أحسن وقعاً على سامعه. والحاكم يدرك ذلك تمام الإدراك ويرضى عن سلوكي».

عندما رسا الأسطول الإيطالي في مرفأ مرسين، قام الأميرال وأركان بحارته بزيارة الوالي فرافقهم المؤلف مع القنصل. «هذه الزيارات تترك دائما انطباعاً عميقاً، إذ إن إيطاليا، في ذلك العصر، كانت تعتبر دولة كبرى. وأثناء هذه الزيارات، يخفق علم إيطالي كبير على شرفتنا. كل هذا يفتح لي آفاقاً واسعة في جميع الأوساط ويهبني نفوذاً كبيرا، وبخاصة لدى الموظفين الأتراك». هكذا، مزارع تركي بارز، هو خلوصي بك، اعتقل بسبب حادثة ناتجة عن حالة سكر، فأطلق سراحه في الليلة نفسها بفضل تدخل ديران. «تصوروا، خلوصي بك سليل أسرة تركية عريقة يستنجد بأرمني!».

في هذا الوضع المميز بالنسبة إلى المؤلف، اندلعت الحرب العالمية الأولى.

الحرب والتهجير الجماعي

في ١٩١٤، عندما دخلت فرنسا وانكلترا وروسيا الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية، أغلقت قنصلياتها واعتقل القناصلة واحتجزوا في أضنه. فكلفت الحكومة الإيطالية وقنصليتها برعاية مصالحها. وبات ديران تحت حماية الحكومة الإيطالية وتمتع شخصه وبيته وممتلكاته بالحصانة. وبناء على اعتقاد أن بيته مكان آمن، جاء عدد كبير من أصدقائه وأقربائه لإخفاء أسلحتهم وذخائرهم فيه. غير أنه، عندما دخلت إيطاليا الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية بعد بضعة أشهر، «تبدل وضعي كلياً، فأصبح بيتي مجدداً بيتاً عادياً كسائر البيوت، وكذلك الأمر شخصي». ويروي المؤلف حادثة كادت تكلفه حياته. ذات يوم، جرى تفتيش بيوت الأرمن بحثاً عن السلاح. لحسن الحظ أن المفوض عادل، وهو معروف بعداوته للأرمن،



زحلة كما بدت من أعالي المعلقة في حزيران ١٩٠٤. مجموعة م.ش. ــ ج.ق.ي

كان غائباً في تلك اللحظة، إذ إن حدثاً مهماً وقع في سيس استبقاه هنالك. أما مساعده، فكان «لحسن الحظ أشد تسامحاً منه وعلى الأخص أكثر إنسانية»، وكانت التحريات الجارية أشبه باستعراض للقوة لا أكثر. وبما أنه أحسن إخفاء الأسلحة، لم يتم العثور إلاّ على مسدس الخادم. ومع ذلك، سيق ديران أمام محكمة عسكرية (يترأسها عوني بك، قائد الشرطة المعروف بمناوأته للأرمن) لحيازة خادمه السلاح. وكان ديران على يقين من أن المفوض عادل، لو حضر عملية التفتيش، لوجد الأسلحة المخبأة، ما كان سيقوده إلى حبل المشنقة. ثم إن «فاهكن داتفيان لم ينج من عوني بك إلاّ لأنه كان مرتبطاً بصداقة مع جمال باشا[14]. وبعد ساعات على رحيل جمال باشا من أضنه، نفذ فيه عقوبة الإعدام شنقاً». وتردت أوضاع الأرمن وبات وضعي أيضاً مثيراً للقلق».

وسنحت له فرصة الهرب بفضل الصداقة الحميمة التي ربطته بمدير المدرسة الألمانية في أضنه، السيد زلبرمان، و«بزوجته الشابة اللطيفــة، وكانا يقدران حق التقدير أطباقنا الشرقية التي نطهوها في البيت ونرسلها إليهما، وخصوصاً حلوياتنا مثل «البورما» التي أولعت بها السيدة زلبرمان». وكان طاقم سفينة ألمانيــة معطلة ماراً في اضنه، فعرض زلبرمان على ديران التوجه معه إلى اسطنبول ثم إلى ألمانيا. ولكن ديران رفض هذا العرض في اللحظة الأخيرة قائلاً: «إني قلق جداً على مصير سائر أفراد عائلتي: أوَ لن تتحمل أختي وإخوتي وأمي تبعات ذلك؟ لو علمت الحكومة بفراري، أوَ لن تتخذ تدابير انتقاميــة وترتكب تجاوزات في حقهم؟ »

في ١٩١٥، وبناء على أمر الحكومة العثمانية، رحّل الأرمن جميعهم، باستثناء عائلات الجنود الملحقين بالجيش العثماني. جاء دركي يبحث عن ديران واصطحبه إلى عوني بك الذي أنذره بجفاء بضرورة

[14] كان جمال باشا أحد الأعضاء الأكثر تأثيراً في جمعية الاتحاد والترقي. كان وزير البحرية، عندما عين في بداية الحرب قائداً للجيش الرابع المرابط في سوريا، وشن هجوماً على الانكليز في مصر.

الرحيل في اليوم ذاته إلى ديار بكر. غير أن المؤلف علم أن عوني بك أمر الدركي باصطحابه وقتله خارج المدينة. والحال أنه كان ينبغي على ديران، بحسب أوامر الشرطة، أن يرحل مع عائلته إلى حلب. فطلب الرجوع إلى البيت لإحضار ملابس وحقيبة. عند عودته كان عوني بك غائباً، فسمح له معاونه، وهو ضابط على معرفة به، بالتوجه إلى حلب بصحبة عائلته. وهكذا، بفضل غياب عوني بك، نجا من الموت. وفي ما بعد، حين عاد إلى أضنه، قدّم له تعليلاً لذلك. «لقد أخبرني الإخوة الماسونيون اليهود الذين مكثوا في أضنه بالوقائع التالية التي رواها المفوض تشركز جمال بك، مدير عام الشرطة وهو أيضاً ماسوني: «إن عوني بك، بعدما أمر برحيلي إلى ديار بكر، توجه لملاقاة المدير اسماعيل حقي الذي كان معه تشركز جمال بك، واقترح عليه أن يسجن المفكرين الشباب الأرمن وكذلك الأعيان، وأن يغتالهم سراً، جماعة تلو جماعة، قبل أن يرحّل عموم السكان، كما درجت العادة في الولايات الأخرى. ولكن تشركز جمال باشا عارض الاقتراح بشدة واقترح ألاّ يعاقب إلاّ المذنبين رافضاً الاشتراك في مجزرة عامة. والتفت إلى المدير اسماعيل حقي بك وهدد بتقديم استقالته. واتفق هذا الأخير، و لم يكن معادياً للأرمن، مع تشركز جمال بك، فيما تعرض عوني بك، الهائج كالمسعور، لنوبة قلبية أدت إلى إصابته بالشلل». في غضون ذلك، نظم تشركز جمال باشا، بمساعدة الماسونيين الأتراك، عملية إبعاد خمس عائلات ماسونية من أضنه (ومنها عائلة ديران) وعائلات أخرى أرمنية، وعين لها شرطياً لمواكبتها حتى حلب.

الهجرة الجماعية

«في ٢٦ آب ١٩١٥، انطلقت مسيرتنا باتجاه حلب مع خمسة عشر ثوراً، وثلاثة أحصنة للركوب وخمس عربات. وأخذنا معنا الأشياء التي لا غنى عنها ويمكن نقلها بسهولة وتُعتبر ذات قيمة نسبياً. وتركنا الباقي في البيت ظناً منا أن إبعادنا لن يكون إلاّ لفترة مؤقتة. وبسطت الفرش داخل مركباتنا الواسعة فكانت لنا بمثابة كراس وأسرّة. وتزامناً معنا، وجدنا في الطريق مئات العائلات التي استقلت العربات وركبت الخيول أو الحمير، فيما تحرك بعضها سيراً على الأقدام. لا سبيل إلى وصف البؤس في الطريق، ولكن هناك عزاء واحد: الكل يمشون في الاتجاه نفسه ولا إمكانية عملياً للالتقاء بأحد قادم في الاتجاه المعاكس. كنا نتقدم ببطء في هذه الظروف. ولحسن الحظ أن هذا الفصل من السنة سمح لنا بأن نقضي الليالي في العراء، فوق فرش ممددة على الأرض. بلغنا حلب بعد ستة عشر يوماً من السفر الشاق جداً. فكانت مهمتنا الأولى استئجار بيت ثم بيع الحيوانات والمركبات لقاء مبلغ لا بأس به، مبلغ كان له أهمية كبرى في الظروف التي نعيش فيها. وإذ أدركنا أننا لن نتمكن من البقاء في حلب إلى ما لا نهاية، توجهنا، نحن الإخوة الماسونيين الأربعة، إلى رئيس محفل حلب الماسوني، الذي تدخل بدوره لدى جمال باشا، وهو الآخر ماسوني. فأعطاني الأخير أذوناً للاستقرار في أماكن مختلفة. وسُمح لعائلتنا المكونة من اثنين وثلاثين شخصاً بالإقامة في حمص. وتُعتبر هذه المدينة، مقارنة بغيرها من أماكن النفي وشروط الحياة فيها، أشبه بالفردوس».

[15] بعد خمسة وخمسين عاماً، عاد ديران إلى زحلة ليزور البيت الذي كان قد سكنه: «كم من ذكريات رائعة أحسست بها عبر كياني!»

هكذا بقيت عائلته في حمص حتى نهاية الحرب. أما هو فرأى من الفطنة البالغة اللجوء إلى زحلة، «خوفاً من حسد وخبث قدامى أعدائي الأتراك القادرين على إثارة متاعب خطرة لي»[15]. هنا كان شخص يدعى دجيفاني متخصصاً في نقل الأرمن خفية انطلاقاً من حلب. وكان المرحلون المأذون لهم بالذهاب إلى دمشق مجبرين على تغيير القطار في رياق، حيث الخط

الحديدي يضيق. في الليل، أثناء عملية النقل هذه، كان دجيفاني يقلهم خفية بالسيارة إلى زحلة.

«في هذه الحقبة، كان لبنان منطقة مميزة [16] لأن الحاكم ورجال الشرطة مسيحيون، والسكان المسيحيون، وبنوع أخص رئيس البلدية يوسف بك، هم أناس في غاية الدماثة وذوو خلق رفيع. يظهرون إزاء الأرمن الكثير من الود، ويوسف بك يحميهم تحت سلطته العطوفة، ويأذن لهم بالعمل من أجل تأمين عيشهم. وهو مؤسس الجالية الأرمنية في زحلة، وقد سمح بإسكانهم وشجع على ذلك». وليوسف بك علاقات طيبة مع جمال باشا، الذي يترل في داره كل مرة يأتي لزيارة زحلة.

في ١٩١٦، أمضى ديران سنة في سوق الغرب، حيث درّس التركية في المدرسة الأميركية. وكان تعليم اللغة التركية، بناء على توجيهات الحكومة العثمانية، قد أصبح إلزامياً في جميع المدارس. واغتنم هذه الفرصة ليتعلم الإنكليزية. والتقى، لدى عودته إلى زحلة نهاية العام الدراسي، صاحب فندق بارون في حلب، اونيك مظلوميان، الذي عرض عليه أن يرافقه إلى حلب ليتولى إدارة مخزن تموين الفندق. وكان هذا الأخير والمطعم التابع له مخصصين لكبار الموظفين وللضباط ذوي الرتب العالية في الجيش العثماني، ويحظى بتموين وافر متنوع. وحصل ديران، أثناء إقامته في حلب، على إذن بالسفر إلى أضنه لبضعة أيام، وذلك بفضل إجازة مرور من جمال باشا. فزار بعض الأصدقاء الأرمن الذين كانوا قد حصلوا على إذن خاص بالبقاء في المدينة، ومنهم أخو النائب نلبنديان، وكذلك المطران بالاكيان (الذي كان طبيب أرمني لقحه بجرثومة وسمح بإدخاله المستشفى الألماني بهوية مزورة كي يجنبه التهجير والموت).

عند رجوعه إلى حلب، أبلغه أصدقاؤه أن وجوده فيها بات غير مستحب في نظر السلطات التركية فنصحوه بالسفر مجدداً إلى حمص. واتفق أن ظهرت بوادر وباء التيفوس في حلب، وراح ضحيته عدد كبير من الناس، كما كان يستحيل على أرمني أن يسافر من دون إجازة خاصة. مع ذلك، حصل عليها بفضل صديق، وتوصل بالحيلة أن يركب القطار رغم عرقلة سير القطارات الناجمة عن تحركات العسكر. ولكن غداة وصوله لازم الفراش: فقد أصيب بالتيفوس. وأمضى ثلاثة أسابيع يكافح المرض، ولولا العناية التي خصه بها طبيب صديق له وعائلته، لكان فارق الحياة. «لو بقيت في حلب، لكانوا نقلوني إلى مستشفى ما، حيث كنت، بسبب نقص العناية، زدت عدد مئات الموتى يومياً. أجزم أنني نجوت من موت محقق بفضل هذه الظروف». وقصد أضنه مجدداً، هذه المرة بحجة البحث عن معدات هامة لحساب ضابط في مصلحة الأرصاد الجوية. أما الغاية من سفره فكانت محاولة استرداد مبالغ من المال من العديد من مدينيه، ولكنه لم ينجح في مسعاه.

ثم علم، لدى عودته إلى حمص في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨، أن الهدنة أُعلنت وأن سوريا احتلها الجيش البريطاني. عندئذ حصل من القيادة البريطانية على شاحنة عسكرية لنقل أمتعته إلى طرابلس حيث أسكن عائلته بصورة مؤقتة. أما هو فتوجه إلى بيروت واتصل بالجيش الفرنسي الذي احتل كيليكيا، وارتبط بعلاقة صداقة مع النقيب فاهان بورتوكاليان، والمعاون ازاديان اللذين كانا يتبوأان فيها مركزين هامين. ونظم مع أصدقائه حفلة استقبال لآمر الفوج الكولونيل روميو، اطلعوا خلالها، و«هم في غمرة الفرح»، على استعدادات الفرنسيين بشأن كيليكيا. وعندما أراد الرجوع إلى أضنه، منحه قائد البحرية الفرنسية إذناً بالسفر حتى الاسكندرون على متن البارجة «هوش»[17]. فرافق، مع أصدقائه

[16] كانت ولاية جبل لبنان، منذ ١٨٦٠، تتمتع بنظام ذاتي مستقل في شكل متصرفية يحكمها عثماني مسيحي وبضمانة من الدول الكبرى.

[17] احتفظ المؤلف بهذه الوثيقة الصادرة في بيروت عن المفوض المندوب السامي جورج بيكو بتاريخ ٤ كانون الأول ١٩١٨.



منظر عام لاضنه.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي

اضنه ١٩١٤.
مجموعة م.ش. — ج.ق.ي



الفرقة الأرمنية وتوقفوا في دورتيول: كانت المدينة مهجورة « لا أرمن في دورتيول، وقد فرّ الأتراك من المدينة خوفاً من الفرقة فراراً شبه تام». وعرض المفتي عليهم أن يقضوا الليلة في منزله. وفي الغد، طلب منهم، لحظة رحيلهم، أن يكتبوا له كلمة في شأن الاستقبال الذي خصهم به. «وهي عبارة عن ورقة قبّلها كأنها مقدسة، ثم طواها ووضعها في جيبه، مضيفاً أنه، بفضل هذه الورقة، سيسعه النوم مرتاح البال». يبدو أن المفتي كان « يخاف جنود الفرقة الأرمنية خوفاً شديداً».

العودة إلى أضنه

استقل ديران ورفاقه القطار المتوجه إلى أضنه. كانت العربات مكتظة بمتطوعي الفرقة الأرمنية. وصلوها ونزلوا في فندق «مراد بالاس»، أكبر فنادق أضنه. ثم استدعوا بعض رفاقهم المقيمين هناك إبان الحرب، وكانوا سعداء وفي غاية الذهول في آن لرؤيتهم، إذ كانوا يجهلون تماماً كيف سارت الأحداث. وتوافد المرحلون الناجون من الإبادة إلى أضنه، وشكل ديران ورفاقه «لجنة وطنية أرمنية من أجل كيليكيا»، رئسها الدكتور كاراكين فارطابديان، وكان ديران نائب الرئيس. هذه اللجنة، التي مثلت أرمن كيليكيا، بقيت على اتصال مباشر ودائم بالكولونيل روميو، قائد قوات الاحتلال الفرنسية. وقد عرضت عليه كل الشكاوى والمشكلات التي عاناها أرمن كيليكيا. وبعد وقت قصير، وصل الكولونيل بريمون المكلف المسائل الإدارية، والدكتور رولان ساعده الأيمن الذي اهتم بإعادة إسكان الأرمن. «يحب الأرمن محبة صادقة». ولكن للأسف لقي حتفه في حادث سير. واعترافاً بجميله، دفنه الأرمن في باحة مدرسة موشغيان. «وكانت لي مع الدكتور رولان علاقات صداقة متينة، وما زلت أحتفظ عندي، للذكرى، بصورته ورسالة منه بتاريخ ٢ آب ١٩١٩ كان قد بعث بها إلي عندما مررت باسطنبول في زيارة عابرة». كما كانت علاقاتهم بالكولونيل بريمون ممتازة أيضاً. «وهو صاحب شخصية لطيفة ومحبة للأرمن. والأتراك يحسدون الأرمن على سلوكه التفضيلي للأرمن». أما المؤلف، فهو جد فخور بالاهتمام الذي خصه به بريمون. وقد احتفظ برسالة ينصح فيها جورج بيكو بالاتصال به، لمناسبة رحلة أزمع القيام بها، وفيها يقول بريمون إن ديران بابكيان ساعده كثيراً في مهمته، وكان سنداً له دائماً ومؤنساً في جميع المشكلات المتصلة بالطائفة الأرمنية، وهو، إلى ذلك، يتمتع بسمعة ممتازة في البلاد.

في هذه الفترة، رغب ديران في الحصول على إذن بالسفر إلى مرسيليا، غير أن الإنكليز رفضوا منحه إياه، «والأرجح لأسباب سياسية بين حلفاء». وكان قد انتقى عدداً كبيراً من السجادات العائدة إلى عمه، وقام ببيعها في بيروت قبل عودته إلى أضنه [١٨].

كذلك استأنف نشاطاته الوطنية، فشارك في إنشاء ناد بمساعدة أقربائه وأصدقائه، هو نادي «روبينيان». واستأجروا فندق «غران بالاس» وحجزوا إحدى غرفه للكاثوليكوس التي كان يشغلها أثناء تنقلاته من سيس إلى أضنه. كما كلفت اللجنة الوطنية ديران وكونيك كولبنكيان بالتوجه إلى حلب، حين عزم الجنرال اللنبي، القائد العام للقوات البريطانية، على زيارة حلب ثم أضنه لنقل دعوة اليه. فركبا القطار ونجوا بأعجوبة من حادث. وقبل الجنرال اللنبي الدعوة، «فتقاطرت أغلبية السكان الأرمن إلى محطة أضنه للترحيب به بكثير من الحماس والاندفاع. وكان كثيرون منهم دفعوا غالياً ثمن انتقالهم بالعربات حتى المحطة».

[١٨] إن تاجر السجاد الذي كان قد اشترى منه قطعة بـ ١٠ فرنكات، أبلغه في ما بعد أن هذا السجاد نفسه اشتراه منه انكليزي بـ ٥٠ ليرة استرلينية، وأن هذا الانكليزي أعاد بيعه في لندن بـ ٤٠٠ ليرة استرلينية.



أنقاض منزل مدمّر لعائلة بزدكيان.
م.ش. — ج.ق.ي

وصمم ديران على الزواج خلال زيارة له إلى اسطنبول، حيث قدّم للسفارة الإيطالية قائمة بأضرار الحرب التي تكبدها. وسنحت له فرصة الزواج بشابة من إزمير. غير أن مشاريعه لم يكتب لها النجاح، إذ كان يتوجب عليه أن يسكن إزمير، وهو أمر لم يستطِع أن يتصوره: «لي في أضنه أختان وأخوان، ولا أريد أن أبتعد عنهم».

في أضنه، أقام ديران علاقات حسنة مع المدير الجديد جلال بك[19]، مدير حلب السابق الذي كان يحب الأرمن كثيراً. فاستدعى إليه ديران وقال له إن آخرين قد كلموه عنه وأثنوا عليه. «جلال بك شخصية مثقفة، جمة التهذيب، كثيرة التحرر، وذات خلق رفيع». كان يحب لعب البوكر، فينظم كل يوم جمعه في منزله جلسة بوكر مع ديران وبعض الأصدقاء، وهناك دوماً زجاجات من العرق الفاخر وتشكيلة كبيرة من المازات. كان جلال بك يحاول باستمرار التقريب بين الأتراك والأرمن. في المقابل، كان معارضاً بصراحة للفرنسيين، ومتيقناً أن هؤلاء سيغادرون يوماً أضنه تاركين الأرمن في وضع واه. «لا نتمكن من فهم هذه المشاعر حتى فهمها ونعزوها إلى منطق شخص تركي». ومن ناحية أخرى، كان يؤكد أن مصطفى كمال وطني تركي، يريد تحرير بلاده بإعلان الحرب على الفرنسيين، وأنه لا يكن عداوة خاصة للأرمن. لذا اقترح جلال بك إنشاء حكومة ذات استقلال ذاتي في كيليكيا، حيث يكون الجنود والموظفون نصفهم أتراكاً ونصفهم الآخر أرمناً، تحت رقابة وحماية الدول الكبرى.

١٩ في رأي المؤلف، إن جلال بك عين مديراً على اضنه بموافقة سلطات الاحتلال والبطريركية في القسطنطينية.



اضنه وإلى اليسار المدرسة الإعدادية.
مجموعة م.ش. ـــ ج.ق.ي

وفي عام ١٩٢٠، كُلِّف ديران، بصفته محامياً، الدفاع عن أربعة من «الشبان الأتراك» اعتقلهم الفرنسيون واتهموهم بالتحريض على الثورة. إن جلال بك وصبحي باشا، نائب أضنه السابق، هما اللذان طلبا منه أن يتولى هذه المهمة. وتبين له أن أحد المتهمين كان رفيق عهد الدراسة، وأن هؤلاء الشبان وقعوا ضحية شهادات زور. كان الأمر عبارة عن خصومة سياسية. «خلال الأيام الثلاثة المتتالية التي جرت أثناءها المحاكمة أمام المحكمة العسكرية، أطلق الفرنسيون طلقات مدفعية للتأثير في الجماهير التركية وإخضاعها، وكان الشعب التركي بدوره مصدوماً من هذه المحاكمة». وفي النهاية، حُكم على المتهمين بالإبعاد عن كيليكيا، مما اعتُبر عملياً بمثابة تبرئة. «إن شعور صبحي باشا بالعرفان بالجميل تجاهي أمر يصعب وصفه».

وفي هذا السياق، تفجرت أحداث مرعش (كانون الأول ١٩١٩): كانت المدينــة عرضة لهجمات الكماليين، والقوات الفرنسية انسحبت بصورة متسارعة من دون إبلاغ الأرمن. اجتاح الكماليون المدينــة «وتلى ذلك مجازر على جاري عادات الأتراك الحسنة». لم يصدق جلال بك هذه المجازر واقترح أخيراً على ديران التوجه إلى هنالك للتثبت من حصولها. «حضرة الباشا، ألا تجد أن ضحايا كثراً سقطوا لتضيف إليهم شخصي كذلك؟ لقد هزت إجابتي الفظة الباشا هزاً عنيفاً، فقال: بإمكانك أن تثق بي. فعندما كنت مديراً في قونيه، منعت سحق أربعين ألف أرمني. وتبين أن هذا صحيح بحسب شهادات أرمن قونيه». وبعد سنتين، علم المؤلف من القنصل الإيطالي العام أن جلال بك، مدير حلب آنذاك، استدعاه أثناء ترحيل ١٩١٥ ليبلغه أن «الغاية من هذا الترحيل هي القضاء على الأمة الأرمنية. وهذا مذكور صراحة في الأوامر السرية التي تلقاها من اسطنبول. وصرح جلال بك أن هذا العمل مناف لضميره، ولكنه لا يملك أية وسيلة للتصرف. وأنه لا يسعه إلا تلطيف قساوة الأوامر المتلقاة. وقال إن الطريقة الوحيدة لمنع ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة هي حث الحكومتين الألمانية والنمساوية على التدخل: أطلِع السفارة الإيطالية في اسطنبول على هذه الأحداث كي تتدخل لدى هاتين الحكومتين؛ وإلاّ فكن

على يقين أن الأمة الأرمنية برمتها ستفنى. فأجاب القنصل أن هذا مستحيل بسبب الرقابة. فاقترح جلال بك عليه أن يحرر رسالة يتولى هو تسليمها عن طريق أحد أتباعه المخلصين. ولكن للأسف، بعد أيام قليلة على وصول الرسالة إلى غايتها، دخلت إيطاليا الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية وألمانيا، بحيث أن هذه الوثيقة لم تعد ذات فائدة. جلال بك الشجاع هذا عرّض حياته ومركزه للخطر وخان حكومته. وقد برهن تماماً في هذه المناسبة عن مشاعره حيال الشعب الأرمني. وكنت قد وعدت، لما كان جلال بك حياً يرزق، أن أكتم السر المتعلق بهذه الأحداث التي تعنيه؛ أما وقد مات، فأشعر بأني في حلّ من ذلك، وأكتب هذه الأسطر لأشهد للشخصية الفذة التي كانها هذا الرجل».

وبالعودة إلى قضية مرعش، اقترح جلال بك، لإقناع أصدقائه، أن يحضر إلى أضنه خمسة أو ستة من أرمن مرعش الذين يعرفهم، ليثبت أنهم لم يتعرضوا لأي مجزرة، غير أن هذا المشروع فشل «بسبب الموظفين الأرمن العاملين في الإدارة الفرنسية الذين اتهموا جلال بك بالعمل على إقامة تفاهم بين الأرمن والأتراك». وبعد أيام، أقال الحاكم الفرنسي جلال بك وهدده بالطرد مستعيناً بالقوة العسكرية إن لم يرحل عن أضنه.

وفي ١٩٢٠، زار غورو أضنه، فاستقبله الأرمن بأبهة في حرم مدرسة موشغيان وسألوه عن مصير كيليكيا. إجاباته المداورة التي تحصن بها «كانت نذير شؤم بالنسبة إلينا؛ واضح أنه ليس صديق الأرمن ومن المؤكد تماماً أن المواقف التي اتخذها أدت دوراً كبيراً في إجلاء الأرمن عن كيليكيا عام ١٩٢١».

إقامة في قبرص: في حزيران ١٩٢٠، تزوج ديران يرانوهيساميكيان، ابنة أحد أعيان أضنه الأثرياء. وكانت عائلة يرانوهي قد استقرت في لارنكا (قبرص)، في أعقاب حادث أودى بحياة أحد أفرادها. ثم سافر الزوجان إلى مصر في رحلة شهر عسل. التقى ديران هناك انترانيك «بطلنا القومي[٢٠]؛ وإني لسعيد بأنه كان لي معه لقاء مطول وودي». وعاد إلى لارنكا حيث استقرت عائلته وانطلق في تربية الخنازير على أمل أن ينقلها لاحقاً إلى أضنه. ورزق، بعد زواجه بعشرة أشهر، ولداً ما لبث أن مات بعيد ولادته. فكان على اقتناع بأن هذه الوفاة مردها إلى خطأ متعمد ارتكبته القابلة القانونية التركية.

٢٠ كان الأرمن المنتمون إلى حزب الطاشناق، نظموا، في نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر (١٨٩٠)، حركة دفاع ذاتي رداً على تجاوزات البكوات الأكراد وأعمال العنف التي ارتكبوها داخل ولايات آسيا الصغرى الشرقية، لذلك أنشأوا شبكة من المناصرين المسلحين هم الفدائيون الأرمن، وقاموا بتدريبهم. وكان على رأسهم مقاتلون شجعان، منهم انترانيك اوزانيان.

وكما كان متوقعاً، عاد بعائلته إلى أضنه مصطحباً معه، بعد مصاعب جمة، قطيع الخنازير، وكان يضم أكثر من مئة رأس. هذا العمل بشر بمستقبل باهر، خصوصاً أن الفرنسيين كانوا يقدرون جداً لحم الخنزير. وإذا بالفرنسيين يعلنون، في تشرين الأول ١٩٢١، وبطريقة غير منتظرة على الإطلاق، بأنهم سيغادرون كيليكيا. «هذا النبأ الرهيب كان له مفعول القنبلة، إذ أرغم الأرمن على مواجهة وضع صعب للغاية وميؤوس منه. وبدأ الجميع يبتعدون عن البلاد على عجل: كانت هجرة جماعية جديدة. بعضهم قصد الاسكندرون التي كانت لا تزال تحت الاحتلال الفرنسي، وآخرون مرسين للإبحار باتجاه ازمير أو القسطنطينية (هاتان المدينتان الواقعتان تحت احتلال أجنبي). اقتحم الناس عربات القطارات». لقد نجح ديران في الوصول إلى مرسين وبرفقته عائلته، ثم إلى لارنكا. أما أخوه فبقي في أضنه حتى اليوم الأخير للجلاء، ووفق في نقل قسم من خنازيره حتى الاسكندرون، حيث باعها بسعر بخس جداً.

ولجأ كثيرون من أصدقائهم وأقربائهم إلى لارنكا. ورغم حياة عائلية رضية (ابنه خاتشيك ولد فيها في ١٩٢٢)، دفعه وضعها المتزعزع ضمن سياق سياسي غير واضح إلى التفكير في إيجاد عمل جديد. فتوجه إلى حلب حيث قام بمساعدة ممّون أرمني للجيش الفرنسي لا يتقن الفرنسية، وشرع يرافقه غالباً في زياراته إلى السلطات الفرنسية. وما لبثت زوجته وابنه أن لحقا به.



منظر عام لبيروت في العشرينات من القرن الماضي.
م.ش.ن. – ج.ق.ي

هذا، وأبلغ القنصل الإيطالي ديران أن الحكومتين الإيطالية والتركية وقّعتا، في نهاية الحرب، اتفاقية تنص على أن تركيا تقبل قائمة بأسماء ١٠٠٠ شخص على أنهم مجنسون إيطاليون، وأن اسمه وارد حتماً فيها (كان في الواقع قد حصل على الجنسية الإيطالية)، الأمر الذي كان يُفترض أن ينقذه من مصادرة أملاكه على غرار ما جرى لجميع الأرمن. ولكن القائمة التي راجعها لم تكن، ويا للعجب، تحوي أكثر من ٤٠٠ اسم، واسمه لم يكن وارداً فيها. «إنها لفاجعة كبيرة حلت بي». وهو مقتنع اقتناعاً وطيداً بأن موظفاً إيطالياً قد رشته السلطات التركية، خاصة أن كل الأشخاص المشطوبة أسماؤهم من القائمة كانت لهم أملاك على جانب من الأهمية في البلاد. ومع ذلك، كان يحق له، وفقاً لمعاهدة لوزان، وباعتباره «محمياً إيطالياً» أن يتوجه إلى اللجنة الإيطالية التركية للدفاع عن حقوقه. ولكن جميع الإجراءات التي أقدم عليها باءت، للأسف، بالفشل. وهو على يقين أن السبب هو هذا الموظف الذي تم إغراؤه بالمال. «وكانت الحكومة التركية قد أصدرت قراراً يتعلق بالممتلكات التي تركها الأشخاص لدى مغادرتهم البلاد (كيليكيا)، بمن فيهم أولئك الذين لجأوا إلى القسطنطينية. فقد فقدوا كل حقوقهم المتعلقة بالملكية واعتُبروا بمثابة أشخاص فارقوا الحياة، وهكذا ورثت الحكومة التركية ممتلكاتهم. وللاستفادة من هذا السلب المنظم، ادّعى أتراك ذوو دهاء أنهم منحوا الأرمن المطرودين من البلاد قروضاً خيالية». ووقع هو بالذات ضحية إحدى هذه الدسائس: «ادّعى رجل لم تسبق لي معرفته عليّ أمام المحكمة يطالبني بمبلغ ٤٠٠٠ ليرة تركية لقاء كمية من القطن لم أسلمه إياها قط. وبما أنني أجهل وجود مثل هذه الدعوى ولم أمثل أمام المحكمة، حُكم علي غيابياً بدفع هذا المبلغ. ومن جهة أخرى، كان القضاة يعلمون، في كل الأحوال، بأني لا أستطيع أن أحضر الجلسة، وذلك لأن العودة إلى البلاد كانت محظورة على الأرمن آنذاك. وبالاتفاق مع الحكومة التركية، اشترى الدائن حظيرتنا الجميلة الكائنة على مشارف المدينة، التي تقدر قيمتها على الأقل بـ ١٠ ملايين ليرة تركية». وإذا أطال الكلام على هذه القضية «فليبين كيف أن الحكومة والأفراد الأتراك سلبوا الأرمن أملاكهم وثرواتهم».

وبعد سنتين قضاهما في حلب، قرر الذهاب إلى باريس حيث شكلت لجنة مؤلفة من فرنسيين وانكليز وإيطاليين لتقدير الأضرار التي تكبدها رعاياهم. ولما كان قد بعث بلائحة بممتلكاته، رأى من الأجدى أن يتوجه إلى فرنسا لمتابعة قضيته. فاستأجر بيتاً في «آنغيوله بان»، حيث يقيم العديد من العائلات الأرمنية، ومنها عائلات حماته وبعض الأصدقاء.

بلغ مجموع الأضرار اللاحقة بالمؤلف ٣٠٠٠٠ ليرة تركية ذهبية. لكن اللجنة الإيطالية قلصت المبلغ إلى ٢١٠٠٠ لتقدمه إلى اللجنة الدولية. والمشكلة هي أن المبلغ الموضوع تحت تصرف هذه اللجنة لم يمثل إلاّ عشر المبالغ التي طالب بها رعاياها. واستردّ المؤلف حقوقه مبرهناً أنه طُرد بصفته مترجم القنصلية الإيطالية. وهو لو لم يمثل شخصياً في باريس، لرُفض طلبه بكل تأكيد.

وبما أن ديران كان عاطلاً عن العمل، أفاد من إقامته في باريس ليتابع دروساً في القانون في السربون ويتسجل أيضاً في المدرسة المصرفية القائمة في المنطقة الإدارية ١٦، شارع السربون. وهكذا حاز شهادة في شباط ١٩٢٧ حافظ عليها «كما لو كانت ذخيرة ثمينة».

كانت لجنة باريس الدولية قد أوشكت أن تنهي أعمالها مخصصة مبالغ مرضية جداً عندما وقعت أحداث إزمير. فالمدينة التي احتلها اليونان استعادتها القوات الكمالية، فأحرقت المؤسسات التجارية الأجنبية بكاملها ودمرتها جميعاً. ولما كان على اللجنة أن تأخذ في الحسبان هذه الخسائر الجديدة، رأت أن تخفض التعويضات. وأعطي المؤلف مبلغاً لم يقبض إلاّ نصفه، على أن يدفع له الباقي في وقت لاحق (إلاّ أنه لم يتسلمه أبداً). وكانت بادرته الأولى مسارعته إلى تسديد مبلغ كان يدين به لأرمني، وقد اقترضه منه قبل الجلاء عن كيليكيا. هذا الرجل، الذي كان يعاني وضعاً أليماً أعرب له عن عميق عرفان الجميل في أوقات لم يكن يخطر ببال أحد أن يسدد ديناً من الديون.

في ١٩٢٩، غادر باريس وقد صمم على الاستقرار في بيروت. وفي طريقه، توقف في مرسيليا حيث تعلم صناعة الصابون. وعزم على إنشاء مصنع للصابون في بيروت وطلب جزءاً من المواد اللازمة من مرسيليا. وبديهي أنه لولا التعويض الذي تقاضاه في باريس لما تمكن قط من إنشاء هذا المصنع. وأبحر مع زوجته وولده في ١٤ حزيران ١٩٢٩، وبعد ستة أيام من السفر وصل إلى بيروت.

الاستقرار في لبنان

هرباً من حر المدينة، أمضى ديران الصيف في عاليه حيث استأجر منزلاً كبيراً مع أقرباء له. وأقر أنه بعدما ترك كل ثروته في بلده، كان وجد نفسه في وضع بالغ الصعوبة لو لم يتسلم التعويض في باريس. بدون هذا المال، «لما استطعت أن أنشىء مصنع الصابون هذا ولا تمكنت على الأرجح من أن أؤمن لأولادي علومهم الجامعية، التي بفضلها يتبوأ كل منهم مركزاً محترماً». ووجد ديران في بيروت مكاناً ملائماً لمصنع الصابون في حي النهر، على مقربة من خط الحديد. فجعل الطابق الأول من المبنى داراً للسكن. وبدأ يصنع صابون مرسيليا، باستيراد زيت الفستق والزيتون وجوز الهند الذي كان يحضره من سيلان ويبيع قسماً منه إلى صانعي الصابون المحليين. غير أن الأزمة التي تلت انهيار الأسعار في ١٩٣١ (جراء أزمة ١٩٢٩) سببت له أضراراً جسيمة. وكانت السنة التي شهدت ولادة ابنه الثاني آرا، أعقبته ابنتان هما ارما وعايده. واستأنف ديران، بموازاة عمله، نشاطاته الاجتماعية، فكان عضواً في المجلس الوطني البطريركي[21] في بيروت، وأسس جمعية لمساعدة طلاب ينتمون بأصلهم إلى أضنه. وبفضل هبات وردت من الولايات المتحدة، تمكنت هذه المؤسسة، طوال أعوام،

[21] منذ ١٨٦٣، عين «الدستور»، الذي كان يضبط شؤون الجماعة الأرمنية الداخلية، مجلساً منتخباً يتألف من علمانيين ورجال دين.

من أن تتيح للطلاب الأكثر جدارة إتمام علومهم الجامعية. كما كان عضواً متطوعاً في مجلس مطرانية الأرمن القانوني، وقد قامت مهمته على مساعدة الأرمن على معالجة مشكلاتهم القانونية، وكان المجلس يلتئم بعد ظهر كل يوم سبت.

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٩. وقد لحق به، نتيجة تفتيش سفينة إيطالية تحمل سلعاً تقدم بطلبها ودفع أثمانها، خسائر فادحة. وبعد انقضاء ست ساعات على دخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا، أقدمت المخابرات الفرنسية على سجنه مع نجله خاتشيك، بصفتهما من الرعايا الإيطاليين. فاقتيدا إلى المدرسة الإيطالية التي تحولت إلى معسكر اعتقال، حيث أمضيا ثلاثة أيام مع ما يقارب ٤٠٠ إيطالي آخر، ثم قسموا إلى فريقين: فريقهما أرسل إلى دريكيش (بالقرب من صافيتا في سوريا)، وهناك أمضيا ٤٠ يوماً، وأخيراً تم تحريرهما حين احتل الديغوليون بيروت.

ما كاد معمل الصابون يعاود عمله حتى احتل البريطانيون لبنان. فقرر الهروب إلى كسب (في سوريا) مع ابنه لكي يتجنبا السجن مجدداً، ولكن خطر وصول الإنكليز إليها دفعهما إلى العودة إلى بيروت حيث اعتُبرا سجينين. هنا كان الرعايا ذوو الأصل الإيطالي يُرسلون إلى كينيا، فيما المحميون الإيطاليون مخولين البقاء في بيروت شرط أن يمثلوا أمام الأمن العام ثلاث مرات أسبوعياً. هكذا سارت الأمور حتى نهاية الحرب. في هذه الأثناء، وجد نفسه مجبراً على إقفال معمل الصابون بسبب شح الزيوت الأوروبية.

قامت الحكومة الأميركية، إبان الحرب، بتأمين الحبوب، الذرة، والفاصوليا البيضاء والطحين. وخصص جزء هام منها للأرمن. عندها شُكلت ثلاث لجان (واحدة تمثل الأرمن الرسوليين، وثانية الأرمن الكاثوليك، وثالثة البروتستانت) من أجل تقاسم الإعانات. «مثّل ديران الأرمن الرسوليين، بينما كان زميلاه غائبين غالباً أثناء توزيع المؤن». فعلياً، إنه لعمل شاق لا مكسب منه أن يقوم المرء بالتفريق بين المحتاجين الحقيقيين وغير المحتاجين [...] وأنا اتحمل كل عبء المسؤولية، كما أفخر لأنني استحققت شكر مطرانيتنا والسلطات المعنية وثناءهما أيضاً.

بعد انتهاء الحرب، ترك مصنع الصابون وباع مواده ومعداته، وأبدى اهتمامه بمصنع إسمنت قبالة منزله، خصوصاً أن أعمال البناء شهدت تطوراً كبيراً. فاشترك مع صاحب المصنع الأرمني، ثم تخلى عن الأمر بعد عامين.

وقصد باريس بحثاً عن آفاق مهنية جديدة، فلاحظ فيها أن أحد أصدقائه الأرمن يقوم بجمع أقمشة بالية وكنزات صوف ثم يعاود بيعها إلى المصانع. وباشر هذا العمل إثر عودته إلى بيروت، حيث العديد من مصانع النسيج والحياكة. واستخدم رجالاً كلفهم جمع الثياب، وعندما كانت الكمية تبلغ ١٠ إلى ١٥ طناً، كان يبيعها إلى المصانع المحلية أو إلى فرنسا وبلجيكا محققاً بذلك أرباحاً هامة، واستمر في هذا العمل طوال عشرين عاماً، حتى ظهور خيوط النايلون والأورلون. فكف عن عمله هذا لأن السوق الأوروبية غدت أقل طلباً لتلك المواد.

واكتشف، خلال زيارة أخرى إلى باريس، أن الأسلاك الكهربائية، على اختلاف أنواعها، مغلفة بمادة بلاستيكية، وبدا له هذا الابتكار الجديد مثيراً جداً للاهتمام. فقرر، فور عودته إلى بيروت، الانطلاق في صناعة البلاستيك الذي يُعد لتغليف الأسلاك الكهربائية. وسافر إلى ميلانو لشراء الآلات اللازمة وشرع في صناعة الأسلاك مستورداً من أوروبا الشبهان (النحاس الأصفر) والنحاس ويغلفهما بالبلاستيك. ولما ازداد عمله قيمة وأهمية، قام بتوسيعه بشكل كبير، وانطلق في صناعة أدوات أخرى من البلاستيك، الأمر الذي استلزم شراء آلات ضخمة وبناء أماكن جديدة. وتواصلت نشاطاته الوطنية، كما مهنته في ميدان المحاماة. فانتسب إلى نقابة المحامين في بيروت وأحيل إلى التقاعد نهاية ١٩٦٣.



ديران بابكيان أمام ضريح الدكتور رولان، وهو نقيب فرنسي دفن في باحة مدرسة اضنه الأرمنية. إلى يساره، الجنرال غورو، والكولونيل بريمون والمطران اصلانيان.
مجموعة بابكيان الخاصة

ختم ديران بابكيان سيرته الذاتية بتأملات فلسفية وعامة في شأن حياته. فذكر الأسفار المتعددة التي أقدم عليها وتعلقه بالوطن الضائع. ومن ناحية أخرى، ما إن أُذن للأرمن بدخول تركيا في الستينات، حتى صار يتوجه كل فصل صيف إلى منطقة أضنه، حيث نبع مياه معدنية حارة في تشيفته خان ذو خصائص مفيدة للروماتزم. وأخيراً أحصى كل أفراد عائلته الموسعة مقدّماً معلومات دقيقة عن كل واحد منهم : مكان السكن، والوضع الاجتماعي، الخ.

إن الانطباع الذي يتركه هذا المستند مردّه النبرة العامة الهادئة، الخالية من كل ضغينة وعدوانية حيال الذين تسببوا في هذه الويلات والنكبات. كما يندهش المرء أمام العزم الخارق وروح المبادرة اللذين اتصف بهما هذا الرجل الذي عرف في كل مرة أن يعاود الوثب بعد فقدان كل ما يملك. مثلما تُلاحَظ القيم التي كان مشدوداً إليها بشكل مستديم، كعائلته، وطائفته، وأهمية العلم، والاستقامة. ويهز مشاعرَ الإنسان الحنينُ الذي يرشح من هذا النص، وبخاصة عندما سنحت له فرصة العودة إلى أضنه للمرة الأولى إبان الحرب: «لقد توجهت نحو منزلنا الذي تشغله الدوائر الرسمية. كنت أفترسه بعينيّ عندما وصل عسكري. ثم ألقيت، مبتعداً، نظرة أخيرة إلى هذه الأماكن التي تحرك فيّ العديد من الذكريات السعيدة». وقد عاد إليه في ١٩٦١: «كان البيت تشغله عائلة ليست في الظاهر على علم بالأحداث التي دارت فيه. منظره الخارجي لم يكن تغير، ولكن أخذت تظهر عليه دلائل الشيخوخة ؛ وتعرض داخل المبنى لبعض التعديلات، ما عدا غرفتي وغرفة والديّ [...]. لم أتمكن من السيطرة على انفعالي، فتلاحقت كل الذكريات الغابرة أمام ناظري كشريط سينمائي. لقد كان ألمي عظيماً عندما اضطُررت إلى الاعتراف بواقع الحال، وهو أن كل هذه الممتلكات والأراضي والمنازل والثروات وقع بين أيدي غيرنا على نحو لا يمكن تداركه. إنها تجربة شق علي كثيراً أن أتحملها».

فهرس الأعلام



الصورة: اجازة مرور صادرة عن السلطات الفرنسية في مرسين وممنوحة لعائلة ارتين بيكيريدجيان في كانون الاول ١٩٢١.
مجموعة خاصة

إن اندماج الأرمن في الأوطان التي تبنتهم، وسط العديد من بلدان الشرق الأدنى مر بمراحل عدة كانت أليمة أحياناً. ولكن ذكراها أخذت تتلاشى تدريجياً. فقبل أن يصبحوا مواطنين لبنانيين أو سوريين، عاشوا تجربة كل لاجئ مقتلع من أرضه، ومضوا يبحثون عن بلد مضيف، حيث يسعهم إيجاد بيئة ملائمة لإعادة بناء ذواتهم.

وقد بذلت المحافل الأرمنية، كما المنظمات الخيرية الدولية، جهوداً حثيثة وجبارة من أجل استعادة نساء وأطفال وإعادة تأهيلهم بعد أن تم تشتيتهم في الشرق الأوسط. وقامت وكالة اللاجئين التابعة لعصبة الأمم، وإدارة الانتداب الفرنسي والجمعيات المناطقية الأرمنية، بدعمها الجمعية الخيرية العمومية الارمنية، بوضع برامج كبيرة لإنشاء أحياء حضرية أو مستوطنات ريفية، مما سمح تدريجاً بإخلاء المخيمات، حيث سادت ظروف معيشية كارثية، وبالانتقال إلى مساكن أكثر لياقة وقبولاً. لقد أنشئت ملاجئ ومياتم، ومدارس، وكنائس. أحياناً تحت خيم أو في أكواخ خشبية قبل تشييدها بالحجر. كانت مرحلة ما بين الحربين بالنسبة إلى اللاجئين الأرمن بمنزلة ورشة شاسعة. عمدوا خلالها إلى إعادة حياتهم الجماعية إلى سابق عهدها، وإلى بناء مصير مشترك مع البلدان التي استضافتهم.

يحاول هذا الكتاب إحياء هذه التجربة عبر ما يقارب اثنتي عشرة مقالة ترتكز على مستندات أرشيفية لم يسبق نشرها، ونوضحها صور وثائقية وافرة.

ISBN 978-9953-0-15-31-6

منشورات جامعة القديس يوسف
حرم كلية العلوم الانسانية
ص.ب. ١٧-٥٢٠٨ مار مخايل، بيروت ١١٠٤٢٠٢٠
الهاتف: + ٩٦١١٦١١٤٥٦
www.usj.edu.lb/pusj

الغلاف:
لاجئون أرمن جدد وقد قدموا
من مرافىء واستقروا في بيروت، ١٩٢٥
صورة انطوان بواده بار
مجموعة المكتبة الشرقية – جامعة القديس يوسف

مطبعة
جامسكاين